مهداة
من تحف
مكتبة الجامعة الأردنية

جامعة دمشق
كلية الآداب

تحت رعاية

السيد رئيس الجمهورية العربية السورية

المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام

٩٢٢ هـ - ١٣٥٨ هـ
١٥١٦ هـ - ١٩٣٩ م

الدكتور عبد العزيز الدوري

الى

مكتبة الجامعة الأردنية

الجزء الأول

وجه الدينار :

صورة الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥ هـ / ٦٨٥ م - ٨٦ هـ/٧٠٥ م)
منتصب القامة ملتحيا مرتديا لباساً عربياً ويده اليمنى على مقبض سيفه .
الاطار - باتجاه عقارب الساعة من اليمين :
بسم الله لا إله إلا الله وحده محمد رسول الله .

ظهر الدينار :

سارية فوق مصطبة من أربع درجات هي تحوير الشعار البيزنطي .
الاطار - بسم الله ، ضرب هذا الدينار سنة ست وسبعين .

* * *

الوزن : ٤،٤٨ غ
القياس : ١،٥٠ سم

مركز الوثائق والمخطوطات
ودراسات بلاد الشام
٢٢ نيسان ٢٠١٧
رقم التسلسل: ١٥٦٧٩
رقم التصنيف:

٩٥٦
مؤ

استهلال

صدر هذا الكتاب تنفيذا للمادة الثامنة من توصيات المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام الذي عقد في دمشق بتاريخ ٢٧ ذي الحجة ١٣٩٨ الى ٣ المحرم ١٣٩٩ هـ الموافق ٢٧ تشرين الثاني ١٩٧٨ الى ٣ كانون الاول ١٩٧٨ .

وقد عملت اللجنة التحضيرية على تبويب بحوث هذا الكتاب كما وردت في أصل كتاب الدعوة الموجهة الى السادة المشتركين ، وذلك على النحو التالي :

الباب الاول : القسم الوثائقي .

الباب الثاني : التاريخ الاقتصادي والاجتماعي .

الباب الثالث : التاريخ الثقافي .

الباب الرابع : العلاقات الدولية .

وقامت اللجنة بترجمة البحوث والدراسات المقدمة باللغة الاجنبية الى اللغة العربية ، واتبعت في ترتيب البحوث والدراسات تسلسل المحاضرين في جلسات المؤتمر **(مع الاشارة الى أن ماورد في هذه البحوث والدراسات يعبر عن وجهات نظر أصحابها)** ، وقد وردت حواشي كل موضوع متسلسلة في آخره .

« جامعة دمشق » بعقد « المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بـلاد الشام » .

« فالمؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام » أتـى إذاً ، تحقيقاً للدراسة التاريخية العلمية المشار اليها آنفاً ، وتعبيراً عن اللقاء بين الجامعتين ، وتكملة للبحوث والدراسات التي قدمت الى المؤتمر الدولي الأول . ويتناول مؤتمرنا هذا ، المرحلة التاريخية الممتدة من دخول العثمانيين إلى بلاد الشام عام ٩٢٢هـ/١٥١٦م ، وحتى بدء الحـرب العالمية الثانية في عام ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م ، وهي حقبة زمنية، تغطي نيفاً وأربعة قرون ، كان لبلاد الشام خلالها مكانتها في السياسة والاقتصاد العالميين ، ودورها الايجابي الفعال في اليقظة القومية العربية ، وفي الكفاح لتحقيق الوجود العربي السياسي الموحد ، متعاونة مع الأقطار العربية الاخرى .

وحتى لاتتشعب الدراسة العلمية التاريخية بين عديد من الموضوعات ، فتتشتت الفائدة المرجوة ، رأت اللجنـة التحضيرية للمؤتمر ، أن يكون محور البحوث ، دراسـة الجوانب التالية من تاريخ بلاد الشام :

١ ـ المصادر غير المنشورة من تاريخ بلاد الشام الحديث والمعاصر ، لما لها من أهمية في تفهم ذلك التاريخ ،والوصول إلى حقائقه .

٢ ـ التاريخ الاقتصادي ، والاجتماعي ، والثقافي لبلاد الشام ، لأن ذلك التاريخ هو الذي يمثل حياة الشـعب الحقيقية وفعالياته .

٣ ـ العلاقات بين بلاد الشام والاقطار العربية الاخرى، وبين بلاد الشام والعالم ، وذلك لكشف مختلف الروابط التاريخية العميقة ، والدائمة ، بين أقطار الوطن العربي ، وشتى الصلات بين بلاد الشام والعالم .

وقد لبى الدعوة للمؤتمر ، من العلماء والباحثـين المختصين ، من مختلف الأقطار العربية وبلدان العالم ، نيف وسبعون عالماً وباحثاً واعتذر عـدد منهم عـن الحضـور لاسباب طارئة ، إلا أن بعضهم أرسل بحثه .

ولقد رأت اللجنة التحضيرية الا يقتصر نشاط المؤتمر على عرض للبحوث المقدمة ، ومناقشتها فحسب ، وإنما عملت على تعريف الجمهور عبر وسائل الاعلام المختلفة باعمال المؤتمر كما هيأت برنامجاً سياحياً للمشاركين في المؤتمر ليطلعوا من خلاله على معالم مدينة دمشق .

وتامل اللجنة التحضيرية أن تكون قد هيأت لأعضاء المؤتمر ، وللمؤتمر ، كل الاسباب الملائمة ، كي يؤتي هذا اللقاء الفكري العربي ـ العالمي أكله ، ويحقق الغاية المرجوة منه ، في إنارة تلك الجوانب الهامة من تاريخ بلاد الشام ، فتتضح زوايا عديدة من شؤون الحاضر ، وتستشف بعض رؤى من المستقبل .

فالتاريخ هو العلم الذي يفسر الحاضر ، ويعين على بناء المستقبل ، وإن حاضر أمتنا العربية الذي هو ركيزة الغد ومنطلقه هو ايضاً حصيلة ماضيها القريب والبعيد ، في تطوراته المتباينة صعوداً وهبوطاً . إن ادراك أبعاد هذا الماضي في كل جزئياته ، وبواعثه ، وأغراضه ، وأمانيه ، يعني الاطلاع على جذور الواقع العربي القائم ، وأسس تكوين ثقافتنا القومية ، وشخصيتنا العربية ، كما يعني القدرة على التخطيط للمستقبل على نحو متطور سليم ومنطقي .

اللجنة التحضيرية

كلمات حفل الافتتاح

الاثنين ١٣٩٨/١٢/٢٧ هـ - ١٩٧٨/١١/٢٧ م

كلمة السيد ممثل رئيس الجمهورية العربية السورية

الدكتور شاكر الفحام
وزير التعليم العالي

السادة أعضاء القيادتين القومية والقطرية ـ السادة الوزراء ـ السادة السفراء وأعضاء السلك الدبلوماسي ـ السيد ممثل رئيس المؤتمر الأول ـ السادة العلماء ـ أيها الحفل الكريم .

أي سعادة غامرة تبهج النفوس ، باجتماع هذه الصفوة النخبة من العلماء المؤرخين والمفكرين في دمشق الخالدة ، عروس المدائن ، خدينة التاريخ عراقةً وعِتقاً . وَفَدتم من البلاد العربية الشقيقة ، والبلدان الأجنبية الصديقة ، فكنتم خير الوافدين ، تحملون رسالة العلم والثقافة ، وتبحثون عن الحق الصراح ، همكم جلاء صفحة التاريخ نقية صافية، لتكونوا الحكام العادلين ، توفون كل أمة نصيبها الذي قدمته في حضارة الانسانية التي ننعم بها جميعاً ، ونسعى لاغنائها وازدهارها . إنها رسالة التاريخ التي ندعو اليها، تجمع بين الأمم ، وتقرّب الشعوب الى الشعوب، حين تكشف أنها جميعاً تعاونت وتكاتفت في صنع الحضارة التي تظلنا ، والتي نرجو لها أن تكون لاسعاد بني البشر أجمعين .

السادة العلماء ـ أيها الحفل الكريم

ان السيد الرئيس حافظ الأسد رئيس الجمهورية العربية السورية قد تفضل مشكوراً فشمل هذاالمؤتمر برعايته السامية ، تكريماً للعلم والعلماء المشاركين وتقديراً للمهامّ العلمية النبيلة التي تضطلعون بها ، وتنويهاً بالمكانة العالية التي يحتلها مؤتمركم العظيم . ولقد شرفني السيد الرئيس حين وسَّد اليّ أن أنوب عنه في افتتاح هذا المؤتمر ، ويسعدني أن أنقل اليكم تحياته الطيبة ، وتمنياته لكم بالنجاح والتوفيق في أعمالكم، حتى تبلغوا الهدف الذي تسعون له ، وتوفوا على الغاية التي تتشوفون اليها .

ارحب بكم اجمل الترحيب واكرمه في دمشق الصمود والخلود ، امّ الشام ، كما سماها مؤرخها ابن عساكر(١) ، التي فتحت لكم قلبها وبسطت ذراعيها ، تستقبلكم باسمة فرحة ، ترجو لكم الاقامة الراضية ، في ربوع الشام ، تكنفكم العناية ، وتملؤكم المسرة ، ويفيء عليكم وارف ود ظليل .

وابدأ فأقدم الشكر ، اوفاه واجزله للجامعة الاردنية التي عقد في رحابها المؤتمر الدولي الأول لتاريخ بلاد الشام (٢٠ ــ ٢٥ نيسان ١٩٧٤) فسنّت السنة الحميدة لمؤتمر تاريخي يعقد في دمشق مرة ، وفي عمان مرة ، يتابع بحوثه ، ويوالي دراساته ، يكمل لاحق مابداه سابق ، وينجز متأخر ما قام به متقدم ، ويقدم في كل لقاء أطيب الثمرات ، وخير الجنى . ويرمز بهذا التناوب بين دمشق وعمان الى وحدة بلاد الشام ، من ملطية الى العريش(٢) ، إقليماً من أقاليم الوطن العربي الممتد من الخليج الى المحيط .

يطيب لي هنا أن اذكر بالثناء والشكر سموّ الأمير الحسن ، الذي تراس المؤتمر الدولي الاول ، فأولاه عنايته ، وحاطه برعايته ، ووفر له كل ما يتطلبه ، حتى تحقق لمبادرة الجامعة الاردنية ، بفضل اشرافه وتوجيهه ، كل النجاح . وأعطف لأقدم لأخي وصديقي الأستاذ الدكتور ناصر الدين الأسد ، ممثل رئيس المؤتمر الاول ، رئيس الجامعة الأردنية ، كل الشكر والتقدير لكلماته الطيبة ، المفعمة بالود ، ولا أجد من الكلمات ما يكافيء جمال قوله ، ويوازي اشراق بيانه . واننا لنقدر التقدير كله مشاركته الخصبة التي تغني أعمال مؤتمرنا ، وتعزز دوره .

ويتعلم الانسان من تاريخ بلاد الشام الكثير الكثير . لقد شهدت هذه البلاد طفولة الانسان ، وسايرت شبابه ، ومضت معه في دربه الطويل ، تحمل في جنباتها شواهد حضارته وروائع عبقريته ، وبدائع صنعه .

وتعلمت من تاريخ بلادي الكثير الكثير . تعلمت الحب والتسامح والالفة ، فما عرف تاريخ بلادي التعصب. انكر تعصب الجنس ، وتعصب

---

(١) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ١ : ٣

(٢) نخبة الدهر لشيخ الربوة : ١٩٢

الدين ، وتعصب اللون ، لينعم جميع ابنائه ، جميع من عاش على ارضه بالمحبة والسلام ، سواسية كأسنان المشط ، مهما تكن الوانهم واجناسهم واديانهم . شعارهم : « قيمة كل انسان مايحسن »(١) . وتغنى بضمير شعبي شاعر المحبة والسلام ، شاعرنا محيي الدين ابن عربي الطائي حين قال :

ادين بدين الحب ، انـى توجهت ركائبه ، فالحب ديني وايماني(٢)

وتعلمت من تاريخ بلادي ايمانها الراسخ بالحضارة ، ومشاركتها الخصبة في صنعها ، واستعدادها الدائم للبذل والعطاء دفاعاً عنها وتضحية في سبيلها ، فلما اقبلت جحافل المغول والتتار كرة بعد كرة ، تحمل الخراب والدمار ، تحرق دور العلم وتقتل العلماء وتغرق الكتب في دجلة(٣) ، تصدى لها شعب بلادي ، وقدم اغلى التضحيات ، ليحمي حضارة العرب ، حضارة الانسان ، ويذود عنها شرور المفسدين المخربين ، وكتب له في النهاية النصر .

وتعلمت من تاريخ بلادي ايمانها الراسخ باصالتها وحريتها ووحدة ترابها ، لاتفرّط في ذرة من ذراته ، ولما اقبلت جموع الفرنجة الزاحفة من الغرب كسيل جارف ، تجتاح كل ما امامها ، ثبت لها شعب بلادي ثباتاً قل مثيله في التاريخ . قابل هذه الهجمة الاستيطانية العدوانية بايمان الواثق بحقه ، ووقف يقاتلها ، ويدفع اذاها مائتي عام (٤٩٠ — ٦٩٠ هـ) لم يفتر عزمه ، ولم يكلّ حده ، وكتب له في النهاية الغلب . ورد المعتدون بغيظهم لم ينالوا خيرا . واخضرت الارض المباركة بعد ذبول ، وازينت بعد عطل ، وتفتحت الزنابق في الحقول تبشر بالربيع الجديد .

وتعلمت من تاريخ بلادي ان وحدتها وتراصّ صفوفها سبب قوتها وعزتها ومنعتها وازدهار حضارتها . فاذا دبت اليها الفرقة ، ومزقتها الاهواء ، طمع فيها الاعداء المتربصون ، ليمكروا بها ، ويستولوا عليها ، ويستنزفوا خيراتها .

---

(١) من كلمات الامام علي بن أبي طالب (البيان والتبيين للجاحظ ١ : ٨٣) .

(٢) ذخائر الاعلاق شرح ترجمان الاشواق : ٥٠

(٣) مازالت المكتبة القادرية ببغداد تحتفظ بمخطوط ، سطر عربي على صفحته الاولى انه انتشله من مياه دجلة ، في تلك المحنة القاسية التي نزلت ببغداد ، وغرق فيها المغول كتب العرب .

أستميحكم العذر ، ياسادتي العلماء ، فأنتم أدرى بتاريخ الشام ، وملاحم الشام ، وحضارة الشام . واني أحوج الى أن أستمع اليكم ، وانصت لبحوثكم ، واتعلم منكم . لن امضي في ذكر ماتعلمت من تاريخ بلادي ، بل أطمع في أن أتزود منكم ، وأنتم الأعلون علماً ومعرفة ، بزاد جديد اضيفه الى ما عرفت وتعلمت .

كل ما أريد قوله ان بلادي بذلت وضحت على مرّ القرون ، وعبر الأجيال تلو الأجيال ، لتكون وطن المحبة والسلام والتسامح ، تذود عن الانسان والحضارة والقيم ، وتبشر بالعدل والخير والاخاء ، وتنادي بالمساواة بين الناس ، « ليس لعربيّ فضل على عجمي الا بالتقوى »(١) .

ثم اصابها حدث الدهر ، وزاحت عن مسرح التاريخ لتقبع على هامشه فترة من الزمان ، صحت في اعقابها ، ونهضت تدعو الى الوحدة والحرية والاخاء ، وتستضيء بنور العلم والمعرفة ، تريد أن تلحق بالركب العالمي ، ان ترجع سيرتها الأولى ، وطنَ الحضارة والتقدم ، مهدَ الخصب والغنى والنعمة . الم يقل قائلون : إن الشام سميت شاماً لكثرة قراها ، وتداني بعضها من بعض ، تفيض بالخيرات والثمرات ، فشبهت بالشامات(٢) ؟ وقدّم قومي الشهداء كراماً برَرَة ، فَرَشوا بهم طريق الحرية ، وطهروا بدمائهم أرض الوطن . وقامت ثورة مكة (١٩١٦ م) وتلتها ثورات وثورات كانت التعبير الصادق عن تعشق شعبنا للحرية ، وتطلعه الى الوحدة والتقدم ، وتفاؤله بالانسان ، وايمانه بالمستقبل المشرق .

ازكى من الطيب ريحاناً وغالية ما سال من دم قتلانا وجرحانا(٣)

وأبى الاستعمار والامبريالية على قومي أن يعود اليهم شباب الدهر . وكانت المأساة المروّعة ، يوم تآمرت القوى الامبريالية والصهيونية الشريرة على الشام : أرض الشام ، وشعب الشام ، وتاريخ الشام . وكانت الهجمة الاستيطانية العدوانية الشرسة التي شرّدت شعبنا ، واغتصبت أرضنا ،

---

(١) من كلمات النبي العربي محمد بن عبد الله (البيان والتبيين للجاحظ ٢ : ٣٣) .

(٢) معجم البلدان لياقوت الحموي ـ كلمة : الشام .

(٣) ديوان بدوي الجبل : ٨١

وزوّرت التاريخ ، وعبثت بالحضارة ، وتنكرت لحقوق الانسان ، وزيفت القيم والمثل . وها انا ذا في موقفي أتطلع الى شعب فلسطين العربي ، مشرّداً أو مصفداً بالاغلال ثلاثين عاماً كاملة . أين صوت التاريخ المجلجل يندد بالمعتدين الظالمين ، ليحقّ الحق ويبطل الباطل . انها فلسطين قدس أقداسنا ، انها أرضنا الحبيبة ، انها قدرنا ومصيرنا . انها لنا . هذا هو منطق التاريخ الصحيح ، وهذه شواهده البينات .

السادة العلماء

لقد افتتح مؤتمركم الأول في عمان صفحة جديدة في دراسات تاريخ بلاد الشام ، ويأتي مؤتمر دمشق صفحة ثانية ، تقوم مباحثه منارات هاديات للدارسين . ويقيني أن دراساتكم ومحاضراتكم ستكون الذخيرة الثمينة لطالبي المعرفة ، وسترسم الطريق اللاحب لمسيرة التاريخ الماضية والحاضرة في هذه البلاد العربية ، تبعث فينا الثقة ، وتستثير الأمل الحي، لنتطلع الى المستقبل بكل العزم والتفاؤل ، مستمدين من ماضينا العريق، الحافل بالبطولة والمجد والتقدم ، القوة والتصميم . لن يكون الماضي لنا معرض مفاخر ، وداعية اعتزاز ، نستريح اليهما ، ونغفو عندهما . ولكنه الماضي الحافز ، الباعث على السير في الطريق الصاعدة ، يهتف في أعماقنا أن نصنع كما صنع الاجداد ، نشارك في مسيرة الانسان وتقدمه وصنع حضارته ، ونتعاون مع الشعوب في رفع شعلة الحرية والسلام والعدل ، لينعم الانسان في ظلال الأمن والدعة ، حراً كريماً .

أيها الحفل الكريم

يسعدني أن أرفع باسمكم أجمل التحية ، وأصدق الشكر للسيد الرئيس حافظ الأسد رئيس الجمهورية العربية السورية الذي رعى المؤتمر ، وكان لتوجيهه الكريم الفضل الأول في نجاحه وتسديد خطاه .

ونأمل أن نلتقي في مؤتمرنا الثالث،وقد استقام طريق التاريخ لشعبنا المناضل في سبيل حريته ووحدة ترابه ، والذي تجهد الامبريالية لحرفه عن وجهته ، فتعود الاراضي المحتلة التي اغتصبتها الصهيونية المعتدية ، ويتمتع الشعب العربي الفلسطيني بحقوقه الوطنية ، وتقوم دولته على أرضه ، ليعود السلام إلى أرض السلام .

لابد لي قبل ان اختتم كلمتي من أن اتوجه بالشكر للجنة التحضيرية، رئيسها واعضائها ، ولجميع العاملين الذين اعدوا وهيؤوا لهذا المؤتمر ، وسهروا على تنظيمه وترتيب وقائعه ، وأن اذكر لهم بالامتنان ما قاموا بـه من عمل ، ومابذلوا من جهد ، حتى تناسق عقده ، والتأم شمله في ابهى حلة ، ولـن يفيهم الشـكر بعض حقهم علينا . كما اشكر لجميـع المشـاركين جهودهم الموفقـة في البحث والمدارسة التي اغنت مؤتمرنا ، وكشفت عن الجوانب المجهولة في تاريخ بلاد الشام . وارجو لهم اقامـة هانئة في بلدهم دمشق .

* * *

كلمة السيد ممثل ولي عهد المملكة الأردنية الهاشمية

الدكتور ناصر الدين الأسد

رئيس الجامعة الاردنية

ممثل السيد رئيس الجمهورية الاستاذ الدكتور شاكر الفحام وزير التعليم العالي

الأساتذة العلماء وأعضاء المؤتمر

أيها السادة الأماثل

لقد كرّمني صاحب السمو الملكي الأمير حسن بن طلال ولي عهد المملكة الأردنية الهاشمية حين انتدبني لتمثيل سموه في هذا المؤتمر ولأنوب عنه في تحية هذا البلد العربي العريق الأصيل : شعبه ورئيسه وحكومته ، تحية عربية نسيجها وحدة الوطن والأمة والتاريخ والكفاح والمصير ، تحية من الأهل في عمان الى الأهل في دمشق ، تحية شامية معطرة بأشواق النفوس مفعمة بآمال المستقبل ، تعمّ كل من حولنا وتشمل القائمين على هذا المؤتمر والناهضين بأعباء الاعداد له والمشاركين في أعماله وبحوثه من المؤرخين والدارسين ، وتخصّ هذا النفر الكريم من العلماء الذين وفدوا من مختلف بقاع العالم متجشمين المشاق تفهماً منهم للحس التاريخي لهذه المنطقة ، وتعبيراً عن الجهود المتعاقبة التي بذلتها جامعاتهم وأسلافهم وزملاؤهم ويسرتها مكتباتهم ومطابعهم طوال العقود الماضية لخدمة تراث بلادنا وابراز دورها التاريخي .

أيها الأساتذة العلماء

لقد سعدت الجامعة الأردنية في نيسان سنة ١٩٧٤ باستقبال حشد كريم من العلماء والمؤرخين من العرب والأجانب في رحابها ليشاركوا في المؤتمر الاول لتاريخ بلاد الشام ، وافتتح صاحب الجلالة الملك الحسين بن طلال المؤتمر ورحب بالمشتركين فيه باسم شعب تحدّرت اليه الحضارة من أعرق أصلابه، وارتسمت في كل صقع منه آثار خطى الانسان في مسيرته

نحو التقدم ، وكان ذلك المؤتمر تجربة نموذجية ناجحة لدراسة العهود البيزنطية والاسلامية حتى العهد العثماني . واليوم تستقبل جامعة دمشق ـ شقيقة الجامعة الأردنية ـ أعضاء المؤتمر الثاني لتاريخ بلاد الشام ، استمراراً للجهد نفسه، وامتداداً للمفاهيم ذاتها، واسهاماً في تعميق منهج البحث العلمي الحديث في انماط التفكير الحضاري في العالم .

ونحن على يقين من أن البحث العلمي الجاد المنصف لابد كاشف ما في تاريخنا من صحائف ناصعات ومواقف خالدات تقدم للعالم أجمع الوجه الحضاري الحقيقي لبلاد الشام ، واللحمة الوثيقة التي كانت تربط بين أبنائه منذ أقدم العصور والتي استمرت على تعاقب الحقب والأجيال ترسخ المعالم المشتركة بينهم ، وبين أهلهم وبني قومهم في مختلف بقاع العروبة ودار الاسلام ، فاحتضن دينهم القوميات والاعراق المختلفة بفضل ما أودعه الله فيه من سماحة ، واتساق مع الفطرة ، ومساواة بين الاجناس ، وتكريم للعقل والعلم ، وارتقاء بالانسان عن مستوى العبودية لغيره من البشر ، والتقاء الجميع في رحاب واحدة تسعهم دون تمييز ، وبفضل مافي هذا الدين من نظرة أصيلة الى وحدة الايمان الصحيح على تعاقب الأديان السماوية ، ومن تسامح مع أصحاب هذه الأديان ، وهم أهل الكتاب ، ومن اتاحة الحرية الكاملة لهم في عقائدهم وعباداتهم فيما بينهم، حتى أصبحوا أمانة في رقا بالمسلمين، تربطهم بهم الذمم والعهود، يناصرونهم ويذودون عنهم . فعاشوا جميعاً في هذه البلاد لاتفرقهم الألوان ولا الانساب ولا الأديان ، واشتركوا معاً في بناء حضارة الانسان .

ونحن نأمل أن يتوالى عقد هذا المؤتمر في عواصم المنطقة كلها التي كانت ترفد بلاد الشام ، ومازالت ، بعوامل الوحدة والتشابه وبأسباب المنعة والازدهار ، فيتاح بذلك ابراز وجوه التكامل الحضاري بين هذه العواصم على أساس الاقتناع العقلي والفهم العلمي والبحث الموضوعي ، لارساء الأسس السليمة لاستئناف أمتنا رسالتها ولاستمرار دورها الحضاري .

وباسم صاحب السمو الملكي الأمير حسن بن طلال رئيس المؤتمر الأول لتاريخ بلاد الشام أسلم الآن رئاسة هذا المؤتمر الثاني الى الاستاذ الدكتور شاكر الفحام وزير التعليم العالي ممثل السيد رئيس الجمهورية العربية السورية .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

كلمة اللجنة التحضيرية للمؤتمر

الدكتور مصطفى حداد
رئيس جامعة دمشق

ممثل السيد رئيس الجمهورية العربية السورية الدكتور شاكر الفحام
وزير التعليم العالي
الرفاق أعضاء القيادتين
السادة الوزراء
أيها الحفل الكريم

يسعدني أن أستهل كلمتي بالترحيب ، باسم اللجنة التحضيرية للمؤتمر ، بالسادة المؤرخين الاجلاء والباحثين العظماء الذين شاركوا في انجاح هذا المؤتمر والذين يربو عددهم على السبعين .

كما يطيب لي أن أشكر السيد وزير التعليم العالي على الجهد الذي بذله مع اللجنة التحضيرية والمساعدات التي قدمها لها من أجل القيام بمهماتها على الوجه الأكمل .

سوف يلقى في مؤتمرنا أكثر من خمسين بحثاً تاريخياً ، باللغة العربية واللغتين الانكليزية والفرنسية وسوف نوزعها مترجمة باللغة العربية للبحوث المكتوبة باللغة الاجنبية وسنعمل على توزيع ملخص باللغة الاجنبية للدراسات المقدمة باللغة العربية .

أيها السادة

اننا اذ نعنى بتاريخ بلاد الشام الممتدة من طوروس الى العقبة ومن بادية الشام الى البحر الابيض المتوسط فلأن هذه البقعة من الارض تشكل جزءاً من وطننا العربي الكبير ولأن تاريخها جزء من تاريخ أمتنا العربية العظيمة ، ولأننا كأبناء لهذا الصقع من أصقاع الوطن العربي يقع على كاهلنا استجلاء صفحات تاريخه المشرقة وما أكثرها ، والكشف

عن آثاره الخالدة وما أغناها . عارفين أن بلاد الشام ماهي الا بضعة من جسد الامة العربية وان تاريخها هو تاريخ الشعب العربي الاصيل .

هذه الرؤية تجعلنا نقف موقف الانكار من كل محاولة شعوبية تهدف الى اخراج أي قطر عربي من صف الأمة العربية وتجعلنا نبارك كل خطوة وحدوية ونناضل من أجل ذلك. واننالنرنو بعين الأمل الى غد قريب يتحقق فيه هدف أمتنا الاسمى في الوحدة العربية .

وفي ختام كلمتي أتوجه بالشكر ، أعمقه ، وبالامتنان أصدقه ، الى قائد مسيرتنا وراعي مؤتمرنا الرئيس المناضل حافظ الأسد .

كما أشكر الذين سيساهمون في مناقشات هذا المؤتمر وفي اغناء نتائجه .

وأتقدم بالشكر سخياً الى الذين تجشموا عناء السفر للمساهمة في أعمال هذا المؤتمر وأخص بالشكر رئيس الجامعة الاردنية الدكتور ناصر الدين الأسد .

كما أتمنى لضيوفنا طيب الاقامة في بلدهم والسلام عليكم .

* * *

المقررات والتوصيات

المقررات والتوصيات

انعقد المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام بمدينة (دمشق) من ٢٧ ذي الحجة ١٣٩٨ هـ ـ الثالث من المحرم ١٣٩٩هـ الموافق ٢٧ تشرين الثاني حتى ٣ كانون الأول ١٩٧٨ . وقد شارك في المؤتمر ثمانية وسبعون مؤرخاً وباحثاً ، من بلاد الشام ، ومن المؤسسات العلمية العربية والعالمية .

وقد عقد المؤتمر اثنتي عشرة جلسة ، استمع خلالها للبحوث التي قدمت ، والتي تربو على خمسة وخمسين بحثاً . وقد عالجت تاريخ بلاد الشام في الحقبة الممتدة بين دخول العثمانيين الى بلاد الشام (٩٢٢ هـ/ ١٥١٦ م) وبدء الحرب العالمية الثانية (١٣٥٨هـ / ١٩٣٩ م) وقد بحثت بصفة خاصة ، الأوضاع الاقتصادية ، والاجتماعية ، وعلاقات بلاد الشام مع الأقطار العربية ومع بلدان العالم ، ولاسيما الأوروبية منها ، وتعرضت لبعض القضايا السياسية وربطها مع جذورها الاجتماعية والاقتصادية ، المحلية والعالمية، كما خصت بعض مصادر البحث بالدراسة مع بيان قيمتها في ايضاح صورة الماضي . وقد ناقش المؤتمر تلك البحوث بروح علمية وموضوعية ، كما تداول المجتمعون في شؤون المؤتمر بعامة ، وفي نتائج تلك البحوث ، وتوصلوا بعد المناقشة والمداولة الى المقررات الآتية :

١ ـ كانت البحوث المقدمة للمؤتمر ، والمناقشات التي رافقتها ، خصبة ومفيدة : فقد كشفت عن جوانب غامضة من التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والدولي لبلاد الشام ، وأثارت قضايا هامة تتطلب بحثا واستقصاء أعمق للوصول الى حقيقة وقائعها .

٢ ـ أثبتت تلك البحوث التاريخية بمنهجية علمية دقيقة ،انبلاد الشام حتى عام ١٩٢٠ وقبل تمزيقها الى وحدات سياسية منفصلة وتسلل العنصر الصهيوني الدخيل الى جنوبها (فلسطين) وحدة تاريخية شاملا كانت وحدة طبيعية عبر جميع العصور العربية الاسلامية .

٣ ــ اكدت ان علاقات بلاد الشام مع بقية البلاد العربية ، هي علاقات وحدة حضارية عربية واحدة وأصيلة ، لم تنفصم عبر العصور ، وانها علاقات أمة عربية واحدة ، بل وحدة سياسية موحـدة .

٤ ــ أبرزت ان الشعب العربي في بلاد الشام ، على الرغم من بعض الصراعات الاجتماعية بين فئاته فيبعض فترات تلك المرحلة ، وشأنها كشأن أية صراعات داخلية فيأي مجتمع من المجتمعات، هو وحدة ملتحمة واحدة ، تسود صلات أفراده وفئاته ، روح اخاء وحـب وسـلام ، مـا دامت العنـاصر الاجنبية لاتتدخل في شؤونه .

٥ ــ أوضحت ان صلات بلاد الشام مع مختلف أجزاء العـالم الاوربي كانت صلاة تجارة وسلام وأخذ حضاري وعطاء ، ما دام ذلك العالم الاوربي ، بدوله المختلفة ، كان يريد السلام والحضارة ، وعدم التسلط والاستغلال .

٦ ــ اكدت ان الصهيونية عنصر دخيل على بلاد الشام ، اتخـذ لنفسه مكاناً غير شرعي فيها ، ويعلن المؤتمر عن تضامنه مع الشعب العربي الفلسطيني وعن تمسكه بتنفيذ قرارات الامم المتحدة في الجلاء عن الاراضي العربية المحتلة ، والاعتراف بحقوق الشعب العربي الفلسطيني الوطنية بما في ذلك حقه في اقامة دولته المستقلة .

٧ ــ يتوجه المؤتمر بنداء حار الى اليونسكو والهيئات التاريخية العالمية ، يناشدها حماية التراث العربي والحفاظ على الطابع العربي في المعالم التاريخية والدينية في فلسطين والقدس .

التوصيـات :

١ ــ يقدم أعضاء المؤتمر خالص شكرهم وتقديرهم باسم جامعاتهم ومؤسساتهم العلمية وبلدانهم الى سيادة الرئيس حافظ الأسد على رعايته لهذا المؤتمر ، ويعربون عن شكرهم للحكومة العربية السورية ومؤسساتها كافة على ما قدمته من عون ومساعدة ويشكرون جامعة دمشق لكل مابذلته من جهد لانجاح هـذا المؤتمر .

٢ ــ يقترح المؤتمر ان يكون التركيز في المؤتمرات القادمة لتاريخ بلاد الشام على بحث فترة زمنية محددة لاتتجاوز القرن أو القرنين ، حتى يكون البحث أدنى الى الوفاء بمتطلبات البحث العلمي المجدي ، أو على بلد من بلاد الشام يدرس تاريخه في نواحيه المختلفة السياسية والحضارية على امتداد عصور التاريخ .

٣ ــ أن توجه البحوث التاريخية توجيها أكبر نحو دراسة النواحي الاقتصادية والاجتماعية وبالطرق العلمية الدقيقة ، المعتمدة على الاصول الاولى، والمدعمة بالاحصاءات والخطوط البيانية، والخرائط ،وان يفرد للمرأة دراسات خاصة .

٤ ــ ان تسلط أضواء أقوى على بحث علاقات بلادالشام مع بلدان العالم المختلفة ، اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا وسياسيا .

٥ ــ أن تكون المظاهر الثقافية ، وتطور العلوم والمعارف المختلفة ، في بلاد الشام ، محورا من محاور البحوث التاريخية وكذلك تطور عمران المدن فيها .

٦ ــ ان ينمى الاعتماد في مختلف البحوث التاريخية على الاصول الوثائقية في دور المحفوظات العربية والعثمانية والاوربية ، وعلى المخطوطات العربية المعاصرة للحقبة المدروسة ، التاريخية منها وغير التاريخية .

٧ ــ ان يتعاون المؤرخون والبحاثة العرب العاملون في تاريخ بلاد الشام في العصور الحديثة ، على تكوين مركز توثيق لهذا التاريخ ، ويرجو المؤتمر أن يحظى هذا المشروع بدعم ماليكاف من الحكوما تالمعنية .

ويكون من مهام هذا المركز الامور التالية :

آ ــ جمع نسخ مصورة من مختلف الوثائق المخطوطة المتعلقة بتاريخ بلاد الشام خلال العصور الحديثة والمبعثرة في مختلف دور المحفوظات ، والمكتبات العربية والاجنبية ، وكذلك جمع نسخ من المنشور منها .

ب ــ تأسيس مركز خاص للتوثيق في عاصمة من عواصم بلاد الشام ، لتسهيل سبل البحث في تاريخ هذه البلاد .

جـ ـ اصدار « بيبليوغرافيا » (فهرس عام) لجميع مصادر تاريخ بلاد الشام في العصور الحديثة : من وثائق في دور مكتبات العالم ، ومطبوعات عربية واجنبية قديمة وحديثة ، وصور متنوعة ، وأشرطة تسجيل ، وأفلام وغيرها . وان تصنف تلك البيبليوغرافيا العامة التصنيفات المتنوعة التي تساعد على تسهيل البحث في جميع نواحي تاريخ بلاد الشام .

د ـ السعي لنشر أكبر قدر من تلك المصادر المحفوظة مرفقة بالشروح .

هـ ـ وضع أطلس تاريخي جغرافي مفصل لبلاد الشام .

و ـ تشجيع ترجمة الوثائق الاجنبية الهامة الى العربية ونشرها .

ز ـ التعاون مع مختلف هيئات التوثيق في العالم ، والسعي لديها لتسهيل سبل الحصول على وثائقها بشروط مشجعة للباحث في تاريخ بلاد الشام .

ح ـ السعي لدى اليونيسكو كي يتم الحصول على صور من الوثائق المحلية في فلسطين ، سواء أكانت وثائق المحاكم الشرعية فيها أو وثائق الدولة مابين الحربين العالميتين وحتى ١٩٤٨ .

ط ـ القيام باتصالات مع جميع الهيئات التاريخية العالمية ، والمؤرخين العاملين في حقل تاريخ بلاد الشام لتزويد مكتبة مركز التوثيق المقترح بجميع منشوراتهم ، حتى تبقى الصلة قائمة بين العاملين في هذا الحقل الواحد ، ومعرفتهم بالجديد فيه .

ى ـ تنمية الوعي التوثيقي التاريخي لدى الطلاب في جميع مراحل التعليم، ولدى مجموع الشعب، بشتى الوسائل الاعلامية .

٨ ـ أن تتم طباعة بحوث هذا المؤتمر ونشرها . ومن شاء من الباحثين أن ينقح بحثه ، يتوجب عليه أن يرسله الى أمانة سر المؤتمر بتاريخ أقصاه ١٩٧٩/٢/١٥ والا اعتبر البحث المقدم للمؤتمر صالحا للطباعة والنشر .

المشاركون في المؤتمر

د. رباح أبو حيدر (الجامعة اللبنانية)

د. شافي أغواني (جامعة جواهر لال نهرو)

د. نيكيتا اليسيف (جامعة ليون)

د. بارتنسكي اندرزج (أكاديمية العلوم في وارسو)

جان بول باسكوال (المعهد الفرنسي العربي)

د. محمد عدنان البخيت (الجامعة الاردنية)

د. عبد العزيز بنعبد الله (مركز التعريب بالمغرب)

د. عبد الجليل التميمي (الجامعة التونسية)

د. تاج السر أحمد حران (جامعة الخرطوم)

د. سامي حمارنة (معهد سميثونيان) واشنطن

د. نشأة حمارنة (جامعة دمشق)

د. عبد الله حنا (دمشق)

فيليب خوري (جامعة هارفارد) مرشح دكتوراه

كليمنت هنري دود (جامعة هال)

د. أمل دوغراماشي (جامعة حاجي تبه بانقره)

د. عبد الامير دكسن (جامعة بغداد)

د. عبد العزيز الدوري (الجامعة الاردنية)

د. عبد الكريم رافق (جامعة دمشق)

د. عبد المنعم رشاد (جامعة الموصل)

د. مصطفى محمد رمضان (جامعة الازهر)

د. اندره ريمون (جامعة اكس بروفانس)

د. نقولا زيادة (الجامعة الاردنية)

د. خليل ساحلي أوغلو (جامعة استانبول)

د. ناصر الدين سعيدوني (جامعة الجزائر)

د. بيدرو شاليتا (جامعة مدريد)

د. فريتز شتيبات (جامعة برلين)

د. بيسترا شقتكوفا (جامعة صوفيا)

د. الكسندر شولش (جامعة ايسن)

د. ليندا شليشر (جامعة مين)

د. ليلى الصباغ (جامعة دمشق)

د. عصام الصفدي (الجامعة الاردنية)

د. مسعود ضاهر (الجامعة اللبنانية)

د. أحمد طربين (جامعة دمشق)

د. سعيد عبد الفتاح عاشور (جامعة الكويت)

د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (جامعة قطر)

أ. كمال جبر عبد الفتاح (جامعة بيرزيت)

د. عبد الكريم غرايبة (الجامعة الاردنية)

د. بيتر غران (جامعة اوستن)

د. ماريو غرينيانسكي (جامعة فينيسيا)

د. نجاة غويونج (جامعة استانبول)

شيري فاتر (جامعة كاليفورنيا) مرشحة دكتوراه

د. قيصر فرح (جامعة منسوتا)

د. **توماس فيتوخ** (جامعة وارسو)

د. **ستيفان فيلد** (جامعة برلين)

أ. **ظـافر القاسمي** (الجامعة اللبنانية)

د. **خيرية قاسمية** (جامعة دمشق)

د. **زاهية قدورة** (الجامعة اللبنانية)

د. **ذوقان محمد قرقوط** (جامعة دمشق)

د. **مصطفى كريم** (الجامعة التونسية)

د. **وجيه كوثراني** (الجامعة اللبنانية)

د. **أرجمند كوران** (جامعة حاجي تبه بانقره)

د. **كارني كيفن** (جامعة هارفارد)

د. **مانويلا مارين** (المعهد الاسباني العربي) مدريد

د. **أحمد عوني ماضي** (الجامعة الاردنية)

د. **روبير مانتران** (جامعة اكس بروفانس)

د. **علي محافظـة** (الجامعة الاردنية)

د. **محمد مخزوم** (الجامعة اللبنانية)

د. **أحمد عبد الرحيم مصطفى** (جامعة الكويت)

أ. **سليمان موسى** (عمـان)

د. **محمد موفـاقا** (جامعة بريشنا)

د. **ديريك هوبود** (جامعة اكسفورد)

د. **قولف هيتروت** (جامعة أرلانغن)

* * *

الباب الأول

القسم الوثائقي

النقوش العثمانية في دمشق

الدكتور رويير مانتران

(جامعة اكس بروفانس)

كنا لبضع سنوات خلت ، قد شرعنا مع السيد خالد معاذ في احصاء النقوش التركية الموجودة في دمشق من أجل دراستها ونشرها . وتم اجراء « المسح » المذكور لكن دراسة النقوش لم تظهر بعد الى حيز الوجود واحسب أنها لن تتأخر زمناً طويلا . واكتفي الآن بعرض شذرات منها تمهيدا للوصول الى نتائج أكثر تفصيلا واسهابا .

ينطلق هذا البحث من قائمة النقوش التركية التي وضعها السيد خالد معاذ ومن التحريات المماثلة التي أجريناها في بورصة (تركيا) وتونس والقاهرة . ولقد رأينا أن عملية احصاء النقوش التركية في دمشق ودراستها يمكن تعميمها في وقت لاحق لتشمل مدنا أخرى في سوريا . فقد تسهم هذه العملية اسهاما مفيدا في تاريخ العمران ، على الصعيد السياسي والديني والاجتماعي والثقافي .

وتسنى لنا ـ بموجب ذلك المسح ـ ان نحصي الان ٢٥ نقشاً على الأبنية و ٣٢نقشاً على شواهد القبور التي عثرنا عليها في مقبرة « الباب الصغير » وهي ، فيما نظن ، لاتمثل المجموعة الكاملة لمثل تلك الكتابات . واليك هذه النقوش :

١ ـ المساجد :

ـ التكية السليمانية : ١٥٥٥/٩٦٢

ـ مسجد درويش باشا : ١٥٧٤/٩٨١ (وفيه ثلاثة نقوش)

ـ مسجد سنان باشا : ١٥٩٠/٩٩٩ ـ ٩١ (وفيه نقشان)

ـ المسجد الكبير : حفرت النقوش في مشكاتين ١٦٩٩/١١١١ـ١٧٠٠

ـ مسجد الشيخ عبد الغني : وفيه نقشان ١٨٥٧/١٢٧٤ـ٥٨ ١٨٩١/١٣٠٨ .

---

(١) قام بترجمة البحث عن اللغة الفرنسية الاستاذ الدكتور بدر الدين القاسمي .

ب ـ الأضرحـة :

ـ الضريح المسمى بضريح بلقيس ويحيى : ١٥٦١/٩٦٩ ـ ٦٢

ـ ضريح صلاح الدين وفيه نقشان : ١٦١٨/١٠٢٧ ـ ١٨٩٨/١٢٩٥

ـ ضريح الشيخ خالد النقشبندي وفيه نقشان : ١٨٤٢/١٢٥٨ ـ ١٨٩١/١٣٠٩ ـ ٩٢

ـ بالاضافة الى نقش بالفارسية : ١٨٤٢/١٢٥٨

ج ـ السبُل ومناهل الماء :

ـ سبيل لالا مصطفى باشا : ١٥٦٣/٩٧١ ـ ٦٤

ـ سبيل مرتضى بك : ١٥٨٨/٩٩٧ ـ ٨٩ (والنقش محفوظ الآن في متحف دمشق) .

ـ منهل حي الدفاقة : ١٧٠٢/١١١٤ ـ ٣

ـ منهل في جوار التكية المولوية : ١٨٤٩/١٢٦٦ ـ ٥٠

د ـ التكايـا :

ـ التكية المولوية : ١٥٨٥/٩٩٣

هـ ـ الخـانـات :

ـ خان شمسي باشا : ١٥٥٥/٩٦٣ ـ ٥٦

و ـ منوعـات :

ـ نقش محفوظ في مستودع متحف دمشق (من أصل مجهول) : ١٨٦٥/١٢٨٢ ـ ٦٦

ـ المكتبة الظاهرية : ١٨٨١/١٢٩٨

ـ الاصلاح خانة : ١٨٨٨/١٣٠٦ ـ ٨٩

ز ـ شواهد القبور :

نقوش في مقبرة « الباب الصغير » ويتراوح تاريخها بين ١٢٥٢ ـ ١٨٣٦/١٣٢٧ ـ ١٩٠٩ .

فاذا القينا نظرة على هذا الاحصاء ادركنا تنوع النقوش الأثرية ، ان لم نقل تشتتها ، كما أدركنا أيضا قلة عددها . مما يدعو الى الدهشة

بالقياس الى الزمن الذي وُجد فيه العثمانيون بدمشق والذي تطاول أربعة قرون . أي أن السلاطين والولاة لم يخلفوا كثيراً من الكتابات الأثرية باللغة التركية . ويلاحظ ، من جهة ثانية ، ان أحد عشر نقشاً من النقوش المذكورة يرجع تاريخها الى النصف الثاني من القرن السادس عشر ومنها نقوش السليمانية والدرويشية والسنانية وهي من أشهر مساجد دمشق. وهناك أربعة نقوش ترجع الى القرن السابع عشر أو مطلع الثامن عشر أما البقية الباقية فتعود الى القرن التاسع عشر وبخاصة النصف الثاني من القرن المذكور . نذكر منها جميع الكتابات التي تطالعنا على شواهد القبور. وهنا أيضا ندرك قلة النقوش التركية بالقياس الى وفرة النقوش العربية في القرون السالفة وحتى المعاصرة . بمعنى أن الكتابات التركية وحدها لا تمثل الحقبة العثمانية في دمشق بل ينبغي ان تضاف اليها الكتابات العربية . لكننا قصرنا بحثنا على النقوش التركية التي تميزت باللغة دون الحقبة التاريخية .

فاذا أثبتنا على خارطة دمشق مواقع النقوش التركية المذكورة ، وجدنا جميع الكتابات الأثرية تقريبا خارج المدينة القديمة (ونحن لا نعني هنا الكتابة على شواهد القبور في مقبرة « الباب الصغير ») . ولقد أورد هذه الملاحظة « نيكيتا اليسييف » في مقالة له عن دمشق تضمنتها الموسوعة الاسلامية . وهي تشير الى أن العثمانيين اضطروا الى ايجاد حل لمشكلة اقامتهم في دمشق عندما أزمعوا تشييد المؤسسات الدينية ، لأن المدينة القديمة كانت حافلة بمختلف المنشآت والمنازل . فتعذر عليهم العثور على الموقع المناسب ان لم يعمدوا الى هدم عدد من تلك المنشآت والأبنية . وربما أدى هذا التدمير الى سخط الناس واستنكارهم . فلا عجب أن تكون أشهر المؤسسات العثمانية خارج المدينة القديمة مثل السليمانية ومسجد درويش باشا وسنان باشا وبناية المولوية . فهي قائمة ، بتعبير أدق، في جوار المدينة القديمة وبالقرب من خطوط المواصلات الكبرى مثل طريق بيروت والطريق المؤدية الى الجنوب . أي أنها شُيّدت في أحياء جديدة مستحدثة أو في أحياء كانت في حال من التطور والنمو بحيث يتسنى لهذه المنشآت أن تكون مراكز استقطاب ديني . بل يحق لنا القول ان مثل هذه العملية تخفي وراءها مقصداً سياسياً ، لأنها استهدفت التعبير للملأ الاسلامي عن ورع السلاطين والولاة وغيرتهم على الدين . ولكن ، قبل التسليم بهذا الرأي ، ينبغي أن يتوفر بين أيدينا مزيد من النقوش من هذا القبيل .

والحق انه وجدت أيضاً داخل المدينة نقوش تركية ذات طابع ديني لكنها ليست كثيرة ولامتميزة . ونحن نعني هنا النقوش التي نراها على مشكاتي الجامع الأموي وعلى ضريح صلاح الدين عند ترميمه . وليس فيها مايشفي الغليل .

كذلك يلاحظ في دمشق عدد ضئيل جدا من النقوش على السبل ومناهل الماء خلافاً للعديد من حواضر الامبراطورية العثمانية . وتتوجب هذه الملاحظة عند اجراء المقارنة باستنمبول والقاهرة . وقد يكون مرد هذه الندرة في الكتابات التركية الى أن مشكلة الماء لم تطرح في دمشق على نحو من الضغط والقسر كما كانت الحال في غيرها من مدن الامبراطورية . فقد انشئت في دمشق منذ القرون الخوالي شبكة واسعة لتوزيع المياه فلم تبرز المشكلة الا خارج المدينة القديمة . ولذلك تم انشاء عدد من المناهل في بعض الاحياء خارج الاسوار ؛ على أن عددها قليل ولم يتقدم العثمانيون ؛ في هذا المجال ؛ بما يستحق الذكر .

على الصعيد الديني أيضا ؛ كان تشييد التكية المولوية بنقوشها التركية فريدا من نوعه وان كان ذلك النقش مبتسرا ابتسارا ملحوظا . وفي هذا النطاق أيضا ؛ لايسعنا الا أن نسجل قلة الكتابات التركية رغم وفرة الجمعيات الدينية في تركيا وسوريا . والحق ان تكايا المولوية بدت مطبوعة بطابع تركي على نحو أوضح مما كانت عليه كافة الجمعيات التي نجد نماذج لها في دمشق حيث احتل الطابع العربي مكان الصدارة بصورة ثابتة لاريب فيها .

وعلى سفوح قاسيون « أقيمت الاديرة والمدارس والاضرحة هربا من صخب المدينة وضوضائها » على حد قول « سوفاجيه » . لكننا لانرى فيها الا اثرين اثنين يحملان طابع الكتابة التركية : ضريح الشيخ خالد النقشبندي ومسجد الشيخ عبد الغني النابلسي ، ويعود كلاهما الى عهد متأخر . وان تزويد هذين الاثرين بالنقوش التركية لايؤكد الوجود العثماني في ذلك المكان . ثم ان المرء ليدهش عندما يتحقق من غياب المدارس العثمانية في دمشق (باستثناء السليمانية) ، مع ان هذا النوع من المؤسسات يتمثل في دمشق تمثيلا وافرا .

في نهاية المطاف ؛ كان خان شمسي باشا البناء الوحيد الهام الذي أقيم في المدينة القديمةوزود بالكتابة التركية. وهو صرح رائع أنشأه الوالي

المذكور ابان ولايته ، وان لم يكن الوحيد من نوعه اثناء الحكم العثماني . واغلب الظن ان معظم الابنية المماثلة قد اقيمت في تلك الحقبة من قبل الدمشقيين الذين حرصوا على ابراز عروبة الواجب ، أو من قبل الاتراك (أو العثمانيين عامة) الذين تفادوا المس بالشعور السائد في هذا القطر العربي فأرادوا ان يعبروا عن احترامهم للطابع الدمشقي وقبولهم به . ثم ان الوجود التركي طوال فترة مديدة من الزمن ، لم يتحدد الا بوجود عدد من كبار الموظفين مثل الوالي وبعض فصائل الانكشارية أو غيرهم من الجنود . والظاهر ان هؤلاء الموظفين المنحدرين من أصل تركي كانوا قلة على الصعيد المحلي للمدينة . وطالما انهم غمروا في مجموع السكان فلامجال لابراز وجودهم لاسيما انهم لم يمكثوا في منصبهم الا زمنا قليلا . ولانستثني من هذا القول الا بعض الولاة في الحقبة العثمانية الاولى من أمثال شمسي باشا ودرويش باشا ولالا مصطفى باشا ومحمد باشا نجل الوزير الأعظم سنان باشا ، ممن ارادوا ــ خلال الفترة التي بلغت فيها الدولة اوج عظمتها ــ ان يخلدوا تلك العظمة بعدد من المنشآت في دمشق ، وقد اتينا على ذكرها .

يبقى علينا أخيرا الحديث عن النقوش التي رأيناها على شواهد الأضرحة في مقبرة « الباب الصغير » . ولايحق لنا الجزم، كما قلنا سابقا، بانها الوحيدة من نوعها ، بل لابد ان تتكشف لنا نقوش مماثلة عند القيام باستقصاء أشمل . وهي تقع جميعا على مقربة من ضريح بلال وتؤلف مايشبه « الحي » التركي الذي أنشيء قبيل منتصف القرن التاسع عشر . ولايصح اغفالها من ناحية النقوش لان عددها يرمز الى ظاهرة سكنية على جانب من الخطورة . ثم انها ، من جهة ثانية ، تستجيب ــ فيما يبدو ــ الى حقبتين : حقبة الاصلاح (أو التنظيمات) عندما اقتفت الحكومة التركية ــ ولو جزئياً ــ النموذج الغربي وباشرت باستحداث لون من التنظيم الاداري في الاقاليم أقل مركزية من ذي قبل . وهذا مااستلزم إيفاد جهاز أوسع من الموظفين الى الولايات بعد اعدادهم في معاهد استنمبول . وجاءت هذه الحقبة في أعقاب الفترة التي استولى فيها محمد علي على سوريا فكان لزاماً على الدولة أن تحكم قبضتها على البلاد مما استوجب وجود هؤلاء الموظفين مدنيين كانوا أم عسكريين وقد برزت أسماؤهم في النقوش . أما الحقبة الثانية فهي التي تلت فشل الحكومة الليبرالية الدستورية في عام ١٨٧٨ وشهدت نشوء السياسة الاسلامية

للسلطان عبد الحميد من جهة ، وقدرا من النمو الاقتصادي والعلمي من جهة ثانية . وكان لابد من وجود الخبراء الموفدين من استنمبول . ولقد قدم أولئك الاختصاصيون والعسكريون مع عيالهم واطفالهم مما تشير اليه قبور النساء ، وحتى الاولاد ، ويضفي طابعا اجتماعيا وعائليا تجدر الاشارة اليه .

لقد أولينا عنايتنا في هذا البحث للمعطيات التاريخية واغفلنا عمدا النواحي الفنية للكتابة بحد ذاتها مثل نوع الرسم واسلوبه وزخرفتهالخ.. مما ينبغي تمحيصه في الدراسة النهائية .

ومجمل القول ان النقوش العثمانية باللغة التركية لم تتوفر في دمشق الا بعدد ضئيل . وهي لاتعتبر دليلا كافيا على الوجود العثماني . لكن ملاحظة هذا التقصير النسبي لاتحمل دلالة سلبية بل تدعونا الى التساؤل في هذا الصدد ولو من قبيل المقارنة بحواضر أخرى في الامبراطورية العثمانية . وربما انتهى بنا ذلك الى التساؤل الى استخلاص الطابع النوعي الذي انفردت به دمشق . ولكن ليس يحق لنا استنباط مثل هذه النتيجة الا بعد دراسة دقيقة لاتقتصر على النقوش بل تتجاوزها الى دراسة البيئة السياسية والدينية والاجتماعية والثقافية . وبذلك لاينبغي النظر الى علم النقوش على انه مجرد فك الرموز في نص من النصوص بل هو عنصر من عناصر الاستقصاء التاريخي .

وثيقة عربية شامية من القرن العاشر الهجري

السادس عشر الميلادي
عن
الصناعة النسيجية والنساج

د. ليلى الصباغ
(جامعة دمشق)

كانت الدراسات التاريخية ـ الاقتصادية عن المجتمع العربي الشامي، خلال العصر الحديث ، أي خلال القرون الثلاثة الاولى من الحكم العثماني، تستند حتى مطلع العقد السابع من هذا القرن تقريبا ، الى مصادر أجنبية بالدرجة الاولى ، أوربية وعثمانية . ولعل انصراف الباحثين اليها دون الموارد العربية كان لسببين : أولهما : ان هذه الاصول قادرة بمعطياتها ، على تقديم صورة شبه واضحة عن الاحوال الاقتصادية في ذلك المجتمع ، الزراعية منها أو الصناعية ، أو التجارية . فالوثائق العثمانية الرسمية ـ وهي وثائق الدولة الحاكمة ـ هي دون شك مصدر رئيسي ، وغني ، لايغلب(١) . أما « الوثائق الاوربية » فهي الاخرى وثائق قيمة ، ومن المرتبة الاولى ، لانها منبثقة من صلات تجارية لصيقة ، بين عدد من الدول الاوربية وبلاد الشام ، عاشت أثناءها جاليات تجارية أوربية شتى على الارض الشامية ، خلال العصر الحديث . وهذه الوثائق كثيرة التنوع ، وبلغات مختلفة : فمنها « الوثائق الايطالية » وبصفة خاصة « البندقية » منها(٢) ، « والوثائق الفرنسية »(٣) ، والوثائق الانكليزية (٤) ، والوثائق الهولاندية ، بل والاسبانية وغيرها . وقد تكون « الوثائق البندقية » اغنى تلك الوثائق عن القرن العاشر . فالبندقية ، كما هو معروف ، هي أسبق الدول الاوربية للمتاجرة مع بلاد الشام ، وكان لها جاليتها التجارية في دمشق ، وطرابلس ، وحلب ، بل وحماة(٥) ، قبل أن تبدأ الدول الاوربية الاخرى نشاطها في بلاد الشام ، كفرنسا وانكلترا مثلا . الا ان هذا لايعني بانه لم يكن لهذه الدول وثائقها خلال هذا القرن ، فالنشاط الانكليزي ابتدأ في المنطقة منذ ١٥٥٣(٦)، وقبل تأسيس انكلترا « لشركة الليفانت » عام ١٥٨١ ، التي احتكرت التجارة الانكليزية في أراضي الدولة العثمانية . وكذلك الامر بالنسبة لفرنسا ، التي يرجح أن تأسيس قنصليتها في حلب كان عام ١٥٤٤ أو قبله(٧) ، بل ان اسبانيا نفسها كان

لها وثائقها في العقدين الاخيرين من القرن السادس عشر بشكل خاص ، بصفتها اصبحت وريثة البرتغال في استقصاء طوارىء الامور على طريق التجارة المكتشف حديثا الى شرقي آسيا عبر رأس الرجاء الصالح(٨) . وفي الواقع ، على الرغم من توافر وثائق اوربية عديدة من القرن السادس عشر ، الا أن هذه الوثائق تبقى أغنى في القرنين السابع عشر والثامن عشر .

ولايقل أهمية عن « وثائق الارشيفات الاوربية والعثمانية » ، ما يقدمه « أدب الرحلات » الغني والوفير في العصر الحديث ، وبصفة خاصة الاوربي منه . فقد قام عديد من السياح الاوربيين خلال القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر ، بزيارة بلاد الشام ، ودونوا انطباعاتهم ، ومشاهداتهم ، وملاحظاتهم الدقيقة، وتحرياتهم الواسعة في جميع مجالات الحياة فيها : الاقتصادية ، الاجتماعية ، والسياسية . وكان هؤلاء السياح اما تجارا ، أو قناصل لدولهم ، أو مبعوثين رسميين لحكوماتهم ، أو حجاجا للأرض المقدسة ، أو وفدوا لمجرد الزيارة والاطلاع ، أو لاهداف اقتصادية وعلمية شتى .

أما الامر الثاني الذي دعا الباحثين الى ضعف استنادهم الى المصادر العربيةفي دراساتهم الاقتصادية، فهو قلة المصادر العربية المتوافرة بين الايدي في هذا الباب : فالوثائق العربية الرسمية المحلية « كوثائق المحاكم الشرعية » فيمختلف أجزاء بلاد الشام ، لم تكن قد وجهت الانظار اليها بعد ، مصدرا رئيسا عن الحقبة الاولى من الحكم العثماني كما هو الامر الان . فهذه الوثائق لم ينتبه الى قيمتها بشكل جدي الا منذ العقد السادس من هذا القرن . وهي مورد ثر في الحقيقة ، اذا مااستقرئت بدقة وتمحيص ، وقادرة على طرح اضواء قوية على مختلف أحوال المجتمع الشامي ، وبصفة خاصة أموره الاقتصادية والاجتماعية . ولكن هذه الوثائق ، مع الاسف ، غير كاملة ، فنحن لانملك سجلات المحاكم الشرعية في جميع أنحاء بلاد الشام ، وما نملكه لايغطي القرون الثلاثة الاولى من الحكم العثماني تغطية تامة ، وتبقى وثائق القرن العاشر أقلها استيفاء .

أما حول « المؤلفات العربية » في هذه المرحلة ، ولاسيما الشامية منها فانها في الواقع ليست قليلة : فقد جاء المجتمع العربي الشامي خلال هذا القرن بعديد من المؤرخين ، والادباء ، والعلماء ، واللغويين ، والاطباء ، أنتجوا في ميادين ثقافتهم ، كما يستدل من كتب التراجم المختلفة لهذه القرون ، بل ان المجتمع الشامي طرح نخبة من المؤرخين الافذاذ في هذه

الحقبة ، ترجموا لشخصياته ، وسطروا احداثه ، وكانت لهم نظرتهم الثاقبة للامور ، وتسجيلاتهم الدقيقة . الا أن قسما كبيرا من هذه المؤلفات لايزال مبعثرا في عديد من مكتبات العالم ، مخطوطا ، ولم يتيسر لكثير من الباحثين الاطلاع على محتواه . وما درس منه ونشر ، لوحظ اهتمامه بالنواحي السياسية والفكرية أشد من اهتمامه بالامور الاقتصادية ، من زراعة ، وصناعة ، وتجارة ، الا ماجاء خلال طرح الاحداث السياسية أو العلمية أو في ثنايا تراجم الاشخاص . ومع انه من الممكن استخلاص بعض المظاهر الاقتصادية من تلك المؤلفات ، كسوء المواسم الزراعية وأسبابها مثلا ، من سوء في الاحوال المناخية ، وانتشار للوباء ، أو توافد للجراد ، أو جور للحكام ، الا أن تلك اللقطات تبقى بعض ملامح صورة . ولعل البحث الحثيث عن المؤلفات العربية في هذه الحقبة من التاريخ ، والانكباب على دراسة الموجود منها ، والسعي الدائب لتحقيقه ونشره ، يكشف عن مؤلفات ، ومعطيات جديدة ، تسلط أضواء أسطع على الامور الاقتصادية والاجتماعية ، أو تكمل وتصحح ما ورد في الوثائق الاجنبية . وقد تكون الوثيقة المقدمة في هذا البحث اليوم من هذا القبيل .

والوثيقة في الواقع هي رسالة صغيرة ، أو « تعليق » كما أسماها صاحبها ، لايزيد حجمها عن اربع ورقات وربع الورقة ، وفي كل ورقة صفحتان . وتضم كل صفحة (٢٣)سطرا . وتتراوح كلمات كل صفحة بين ١٩ ــ ٢٢ كلمة. ومن المتعذر معرفة مساحة الورقة اذ اننا لانملك الاصل ، ولا وصفا لهذا الاصل . فاذا كانت نسخة الصورة الشمسية مساوية في مساحتها للاصل ، يكون طول الورقة (١٨) سم ، وعرضها (٥ر١٢) سم ، وهذا التعليق هو بعنوان « ضوء السراج فيما قيل في النساج » ، لمؤلفه المؤرخ الدمشقي العلامة « شمس الدين أحمد بن طولون الحنفي » ، الذي استقبل القرن العاشر الهجري وهو في السادسة عشرة من عمره (ولد عام ٨٨٤هـ/١٤٧٩م) وعايشه لثلاثة وخمسين عاما ــ(توفي٩٥٣هـ/١٥٤٦م)ــ كان خلالها كما نعته العلامة برهان الدين بن عون مفتي الحنفية(٩) « الشيخ العالم المتقن المقرر المحدث الفقيه ، المقرىء ، . . زين الطالبين ، فقيه المحدثين.(١٠) » هذا بالاضافة الى اعمال ادارية تسنمها أثناء تلك الفترة ، عمقت تجاربه العلمية تلك(١١) ، كتسلمه ربع المشارفةفي المدرسة المرشدية(١٢)، وعمل الشهادةفي المدرسة العذراوية(١٣) وكتابة الغيبة ، وتفرقة الربعات في المدرسة الجوهرية(١٤) ، والنظارة(١٥) في الزاويةالسيوفية(١٥)مكرر وغيرها،كما تولى «خدمةالكتب» في المدرسة

العمرية(١٦) وبالتربة الخاتونية(١٧) وبمشهد عروة بالجامع الاموي بدمشق(١٨) . كما عمل في نطاق التدريس ، معيدا ، فمدرسا في خمس مدارس ، وفي المسجد الاموي ، وتولى مشيخة بعض الخانقات ، والامامة في بعض المساجد ، والخطابة . ولقد عرضت عليه مناصب القضاء عدة مرات ، فرفض ، وكذلك افتاء الحنفية(١٩) .

ويستدل من هذا الموجز السريع للفعاليات الاجتماعية لمؤرخنا « ابن طولون » ، انه عاش في خضم مجتمعه ، وأسهم في نشاطه العلمي ، وتغلغل في دقائق أحواله ، وكان في الوقت ذاته يدون كل صغيرة وكبيرة يلاحظها فيه ، حتى بلغت مؤلفاته في موضوعات تاريخية ، وأخرى متنوعة ، وفي ميادين شتى (٧٤٦) مؤلفا(٢٠) . ومن هنا كان « ابن طولون » مصدرا ثرا لتاريخ بلاد الشام في النصف الاول من القرن العاشر/ السادس عشر، وخلال منعطف هام فيه ، وهو مرحلة دخول العثمانيين الى بلاد الشام ، وبداية استقرارهم فيها .

والوثيقة المطروحة « لابن طولون » اليوم ، وحيدة ، على ماتبين حتى الوقت الحاضر ، أي لانسخ لها . وهي بخط المؤلف نفسه ـ كما يبدو ـ مع انه لم يشر الى ذلك صراحة . الا انه في مطلع « المجموع المخطوط » الذي يحتويها وعددا من مخطوطات المؤلف الاخرى ، كتب « ابن طولون » بخطه نفسه المخطوط الاول فيه ، وبين ذلك عندما صدر الصفحة الاولى منه بالجملة التالية : « كتاب كشف الظلام عن معنى السلام ، تعليق كاتبه محمد بن طولون الحنفي المحدث لطف الله تعالى به »(٢١) . وخطه هذا مماثل لخط مخطوطتنا . وخط ابن طولون صغير الحروف متزاحم الكلمات في السطر الواحد ، ومن الصعب قراءته للوهلة الاولى . الا أن اتباعه أسلوبا واحدا في رسم الحروف ، وفي الاملاء ، يسهل القراءة على متتبعه(٢٢) .

فالمخطوطة الصغيرة لم تأت منفردة اذا ـ كما تبين مما ذكر آنفاً ـ وانما ضمن مجموعة خطية تضم عدة مؤلفات لابن طولون ، متنوعة الموضوعات . وهذا المجموع موجود في مكتبة « المجمع العلمي العربي بدمشق » ، مترافقا مع مجموع مماثل لمخطوطات أخرى متنوعة للمؤلف نفسه . والمجموعان نسخة مأخوذة بالتصوير الشمسي من الاصل المحفوظ بخزانة كتب « آل الجوهري » في نابلس ، وقام بتصويرها « أحمد تيمور باشا » « منذ خمس وخمسين عاما » أي في عام ١٣٤٣ هـ/١٩٢٤م . وكان

له ولع شديد بمؤلفات ابن طولون ، ولذلك سعى لجمعها ، ونقل ماتعذر الحصول عليه مخطوطا بخط مؤلفه . وقد احتفظ بنسخة من التصوير لنفسه ، وهي موجودة الان في « دار الكتب المصرية » ، وتحمل رقم (٣٥١ مجاميع تيمور) ، واهدى نسخة ثانية الى « المجمع العلمي العربي بدمشق » . وأحمد تيمور هو الذي قسم المجموع المصور الى جزئين ، وأعطاهما ترقيما متسلسلا واحدا . وبذلك جاء تعليق « ضوء السراج فيما قيل في النساج » في أول الجزء الثاني ، ويضم الاوراق ذات الارقام المتسلسلة بين (١٢٦آ — ١٣٠ب) ، ويتلوه مباشرة كتابه « اعلام الورى بمن ولي نائبا من الاتراك بدمشق الكبرى » .

ولايعرف بالضبط تاريخ كتابة ابن طولون لتعليقه هذا ، اذ لم يرد اي تاريخ يفيد في تحديد الزمن ، كما أن كثرة مؤلفاته تجعل من الصعب وضع قائمة بتسلسل زمني لكتابتها . ولكن اذا لوحظ أنه توقف في اعلام الورى عند عام ٩٤٣هـ ، أي قبل وفاته بعشر سنوات ، فمن المرجح انه لم يكتب بعدها لمرضه ، ومن ثم فان تعليقه هذا قد دونه قبل ذلك التاريخ دون امكان تحديد دقيق .

والتعليق كما يتبين من عنوانه يتحدث عن فئة من فئات المجتمع العاملة في الميدان الاقتصادي الحرفي ، وهي « فئة النساج » . وقد يتساءل ، وماالذي دعا ابن طولون الى معالجة هذا الامر ، ومن المعروف بصفة عامة أن المؤرخين المسلمين لم يكونوا يظهرون اكتراثا بالحرفيين ، بل ان أصحاب التراجم نادرا ما يترجمون لهم ، واذا ما ترجموا لبعض منهم ، فلانه كان عالما أو فقيها الى جانب ممارسته الحرفة ؟ اذاً ، هل ياترى كان انتسابه الى أسرة من التجار الكبار(٢٣) ، ورؤية تعامل أهله مع فئة النساجين للحصول على السلع اللازمة للتجارة هو الذي وجه نظره الى هذه الفئة ؟ أم أن سكناه بالصالحية ووجود حارتين للحياك فيها (الحارة الغربية والشرقية)(٢٤) ، ومشاهدته لهؤلاء الحياك في عملهم دفعه الى هذا الاهتمام ؟ وذلك على نمط ما حدث له عندما ذهب لزيارة أحد شيوخ دمشق فوجده قد وضع اسماكا في أحواض في حديقة منزله الواسعة ، فلفت هذا نظره الى فكرة جمع ما قيل في السمك ، فكان أن وضع كتابه « لقش الحنك فيما قيل في السمك »(٢٥) ؟ أم أن دراسته المستمرة والدائبة في كتب الحديث والاخبار ، واطلاعه على ما قيل في النساج ، وماتضمنته تلك الاقوال من نظرة اجتماعية دنيا ، وظالمة لهم ، أثارته فدفعته

للانتصاف لهم ، وطرح قضيتهم والدفاع عنهم ؟ أم كان هناك خشية من بعض الصالحين ، وتردد في امتهان صناعة النسيج ، فأراد ابن طولون أن يقنعهم ويقنع المجتمع بالتماس وجه الرزق منها ؟ مهما يكن السبب الذي دفعه لكتابة هذا التعليق ، فان الموضوع بحد ذاته طريف وجديد .

و « التعليق » بمجموعه أشبه بمقال متكامل من الادب الاقتصادي ـ الاجتماعي ، ومن ثم فالطابع التاريخي البحت فيه ، المحدد بالمضمون الزمني والمكاني ضعيف . وقد افتتحه على عادة ذلك العصر بالبسملة والحمدلة ، والصلاة والسلام على الرسول وصحبه وأزواجه ، الا انه لم يطل في هذه الفاتحة كعادته في الايجاز البليغ .

ومن الفاتحة انتقل ابن طولون مباشرة الى الموضوع ، فعرّف بالمعنى اللغوي لكلمة « نسيج » التي اشتقت منها كلمة « النساج » ، وبيّن ماقاله « الجوهري »(٢٦) صاحب « الصحاح » فيها ، ومعناها الحقيقي والمجازي ، وبعض مشتقاتها . ثم شرح الكلمة المرادفة لها وهي «الحياكة»، بالطريقة ذاتها ، وأنهى شرحه بايراد الحديث النبوي الذي تدخل فيه لفظة « حاك » وهو « الاثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس »(٢٧) .

واذا ماتجاوزنا الطريقة التي اتبعها ابن طولون في عرض موضوعه(٢٨)، فانه يمكن تصنيف محتوى « التعليق » في فصلين صغيرين : الفصل الاول اقتصادي تقني ، يمكن أن يعطى عنوانا « حرفة النسيج وأنواعها » ، والفصل الثاني اجتماعي وعنوانه « موقف الفقهاء المسلمين من النساج » .

ففي الفصل الاول يتحدث ابن طولون عن « أنواع الحياك » ، ويبين بفكره الشمولي المستقصي أن أنواع الحياك قد تفوق الف نوع « اذ ليس ثم صنعة من الصنايع تتفرع الى أكثر منها »(٢٩) ، ويضيف جملة صغيرة مقتضبة تدل على مدى انتشارها ، وفي الوقت ذاته فائدتهاللمجتمع فيقول : « وعليها مدار أكثر الخلق »(٣٠) . وبالطبع لايتطرق ابن طولون الى الالف نوع من الحياك، بل يقتصر على ابراز خمسة عشر نوعا منهم فقط ، وهم : حياك القطن ، وحياك الكتان ، وحياك الحرير ، وحياك المناشف(٣١) ، وحياك العبي(٣٢) ، وحياك الصوف ، وحياك البسط ، وحياك البلاسات(٣٢)مكرر ، وحياك النوارات(٣٣) ، وحياك الزوامل(٣٤) ، والحباكون(٣٥) ، وحياك الجوخ(٣٦) ، وحياك الحصر ، والمناخلية(٣٧) ، والغرابلية(٣٨) .

ولايكتفي « ابن طولون » بسرد أنواع الحياك الخمسة عشر فقط ، بل انه يفصل في سبعة منهم . وأول المفصل فيهم حياك القطن . ويميز فيهم كذلك بين سبعة أصناف بحسب صنف النسيج الذي يحيكونه : « فمنهم من ينسج البطاين »(٣٩) ، ويسند هذا العمل الى النباطية(٤٠) ، ومنهم من ينسج المتوسط كاهل بعلبك(٤١) ومنهم من ينسج الرفيع العال كاهل الموصل(٤٢) ، وبذلك يميز « ابن طولون » بين ثلاثة أنواع من خيوط الغزل المستخدمة في النسيج : الغليظ ، والمتوسط ، والرفيع . ويذكر هذا بما كان يؤكده الفرنسيون المتاجرون في بلاد الشام في القرن السابع عشر في وثائقهم ، عن أنواع الخيط القطني المغزول الذي تهافتوا على استيراده من بلاد الشام ، فكانوا يشيرون دائما الى « الرفيع والمتوسط بازار » الذي كانوا يشترونه من سوق صيدا(٤٣) ، (ويقصدون بالبازار السوق)؛ وبالطبع فان نوعية ماينسج من الخيط الغليظ هي دون ما ينسج من المتوسط ، بل ان ماينسج من الرفيع منه يكون صنفا « عاليا » ورقيقاً أشبه مايكون بالحرير ، وهذا ما تميز به قماش « الموصلين » الذي اشتهر به أهل الموصل . والى الانواع الثلاثة من النسيج القطني التي ذكرها ابن طولون ، يضيف أربعة أخرى أولها : الملون من الثياب ويصنعه أهل الكرك(٤٤) . وثانيهما نسيج العمايم(٤٥) ،وثالثهما ، الازر(٤٦) ، ورابعهما اللحف (٤٧) ، وهذهالانواع الثلاثة الاخيرة اشتهر بنسجها أهل اليمن ، ويستدرك مؤرخنا فينسب ما ينسج من العمائم والازر الى دمشق أيضا ، وفي محلة قبر عاتكة خارجها .

والقسم الثاني من الحياك الذي يفصل ابن طولون في فئاته هو حياك الكتان ويقسمهم الى أربعة اختصاصات . حياك « الكتان الابيض » وأحسن ما يحاك منه بدمشق ، وحياك « الكتان الازرق المصمت »(٤٨) ، الذي يقال له السمط(٤٩) ، وحياك « الكتان الملون » كالظهور(٥٠) ، وحياك « الكتان مع الحرير » المسمى بالتفاصيل(٥١) ، وأحسن من يصنع الانواع الثلاثة الاخيرة مصر .

والفئة الثالثة من الحياك التي يقدم ابن طولون معلومات أوفى عن انتاجها هي حياك الحرير ، اذ يعدد أربعة عشر نوعا منها ، بعضه معروف ولانزال نتداول أسماءه الى اليوم ، وبعضه الاخر لايعرف كثير عنه . فمن الانواع المنسوجة المعروفة اللباسات(٥٢) ، ومناديل النسا(٥٣) ، والقمصان(٥٤)،والكمخة(٥٥)،والمخمل(٥٦)،والاطلس(٥٧)،والحريرمع القطن،

والحريرمع الكتان، والحريرمع الذهب ، والحرير مع الفضة . اما تلك الانواع التي تبدو مبهمة الصورة فهي ما يسميه ابن طولون « عمل الدار »(٥٨) ، و « الهرمزي »(٥٩) ، والرش(٦٠) ، و « النيل في النجيل »(٦١) .

والنوع الرابع من النساج الذي يسعى مؤرخنا لطرح بعض الضوء على انتاجه ، هو حياك الصوف . وفي هذا المجال يذكر حقيقة تاريخية لاتمارى ، وهي ان غالب ما يعمل (من الصوف) ببلاد الفرنج(٦٢) . فمن المعروف ان الصناعة النسيجية الصوفية كانت هي الصناعة الرئيسة في أوربا ، بل ربما الوحيدة هي والكتانية حتى القرن الثاني عشر(٦٣) . ويشارك أوربا في شهرتها هذه بلاد الروم أو بلاد آسيا الصغرى ، حيث كان الاتراك العثمانيون أصحابها في زمن ابن طولون . ويشير مؤرخنا الى النوع المجلوب من تلك البلاد وهو « المختم »(٦٤) ، ويضيف الى انه رأى من يصنعه بدمشق . ويوضح ان نوعا منه كان يسمى « بالمغربي » ، ويصنع من الصوف والحرير . ويبدو انه كان يرد من المغرب أوان صناعته كانت تقلد الصناعة المغربية ، أو لعل بعض المغاربة كان يعمل فيها في بلاد الشام .

ومثلما بين ابن طولون أنواع حياك الصوف ، فانه فعل في حياك البسط . وطرح في هذا الميدان أسماء لثلاثة أصناف منها ، تبدو غامضة المدلول والاستخدام وهي الزلية(٦٥) ، والكركية(٦٦) ، وعمل الشريف(٦٧) . وكذلك كان أمره مع نساج « النوارات » فوزعهم الى أربع فئات : « فمنهم من يعمل التي تلبس من الوبر ، ومنهم من يعمل التي للاخراج(٦٨) ، ومنهم من يعمل التي للحزم(٦٩) ، ومنهم من يعمل التي للعذارات(٧٠) ، الى غير ذلك »(٧١) .

والفئة السادسة التي يقدم ابن طولون بعض شرح اضافي حول عملها ، هي حياك الجوخ ، ومثلما اكد أن حياكة « الصوف » هي من عمل بلاد الفرنجة والروم ، فانه فصل في حياكة الجوخ . الا انه اضاف انه رأى من يقلد هذه الحياكة من مادة القطن ، ويقوم انتاجها بقوله انه « ليس في حسنه وماويته »(٧٢) .

والفئة السابعة والاخيرة من الحياك التي يعطي بعض تفصيلات عن نوعية عملها هم عمال الحصر ، فيوضح بانهم يعملون اما بالقش الغليظ ، أو الملون ، الى غير ذلك .

ويختم ابن طولون حديثه الدقيق عن انواع الحياك ، باستدراكه قائلا فيه « ولكن في عرفنا انما ينصرف لفظ الحايك لمن ينسج القطن والكتان(٧٢) » . ولايسوغ ابن طولون استدراكه هذا ، ولايعرف بالضبط اذا كانت كلمة « عرفنا » تسري على المجتمع الدمشقي كله أم عليه وحده . ويتساءل المرء ، اذا كانت صناعة نسيج الصوف غير ذات أهمية كبيرة في دمشق مثلا في ذلك الوقت ، وبذلك أسقطها من الحساب ، واذا كانت أنواع النسيج الاخرى تدخل بطريق ما في باب نسيج القطن والكتان الى حد ما ، فلماذا لم يدخل حياك الحرير في ذلك العرف ، والصناعة الحريرية صناعة متألقة في دمشق بالذات ، وطرحه لعديد من أنواعها دليل على ذلك ؟ هل لان الحرير لم يكن من اللباس المحبذ للرجال شرعا ، بل هناك نهي عن لبسه ؟ أم لان حياك الحرير يكونون فئة اجتماعية أعلى مقاما من حياك القطن والكتان ومن ثم ، فقد لايسري عليهم ما يسري على هؤلاء ؟ ان ابن طولون يرد في جزء آخر من مخطوطته ردا رافضا للفرضيةالاخيرة، ومجيبا الى حد ما عنالتساؤل : اذ يؤكد انأردأ أنواعالحياكة فضلا «نسج الحرير والذهب والفضة ونحو ذلك مما هو مختص بالنساء » ويسوغ ذلك بأمرين أولهما « ان ذلك قاصر النفع فانه من أمور النساء » وثانيهما « ان صنعتهم ــ أي حياك الحرير والذهب والفضة ــ تحتاج مع الرجل الى صبي يخلو به ويغلق عليه الباب وتبقى سيقانه عند رأسه وهذا أمر محرم بلا ريب(٧٤) » .

وينتقل ابن طولون في مخطوطته بعد حديثه الدقيق عن أنواع النساج ، الى الجزء التقني الثاني من الصناعة النسيجية ويبدؤهبتعريف بالادوات التي يستخدمها الحايك ، مع شرح لوظيفة كل جزء منها : كالمنسج أو المطواة ، والمكوك ، والماسورة ، والمشط ، ويضيف في النهاية عمل الصبي الذي أشير اليه آنفا(٧٥) .

أما القسم الثالث من تقنيات الصناعة النسيجية ، الذي يحاول مؤرخنا ان يحيط به بعد الادوات فهو المواد الخام التي تعتمد عليها . ومرة أخرى تظهر نظرته الشمولية الى جميع مواد النسيج علىالرغممنالتحديد المبدئي الذي طرحه سابقا . وهو عندما يقدم المادة الخام ، يصفها وصفا مقتضبا على عادته ، فيشير الى ان هناك القطن ويصفه بانه « نبات من قسم الاشجار ، يكون له ورد ثم جوز يكون فيه القطن »(٧٦) . والكتان « وهو نبات يتشجر ويؤخذ قشره بمشط ويعمل منه الكتان(٧٧) » .

« والقنب وهو قريب منه الا انه اغلظ ويتخذ منه الحبال ، وربما نسج منه العدول »(٧٨) . وهنا يشير ابن طولون الى نوع مماثل تتخذ منه العدول وهو « الخبازاء » ، وهو نوع لم تشر المعاجم اليه(٧٩) . أما المادة النسيجية الرابعة التي يذكرها المؤرخ فهي « الحرير ويؤخذ من دود القز » ، ويتابع بيانه لتلك المواد فيقول : « والصوف ويؤخذ من الغنم ، والشعر ويؤخذ من المعز أو اذناب الخيل ونحوها ، والوبر ويؤخذ من الجمال ، والذهب والفضة وهما يؤخذان ويجعلان سبايك ثم يمدان حتى يصلحا للنسج بأنفسهما أو مع الحرير(٨٠) » .

وبعد عرض ابن طولون لمختلف المواد النسيجية ، يتابع التسلسل المنطقي في سير الصناعة النسيجية فيشير باقتضاب الى أن هذه الاشياء يغزلها الغزالون والغزالات(٨١) . وكأني به أراد أن يؤكد دور المرأة في صناعة الغزل ويبرزه ، عندما اتبع هذه الجملة بتقديم نماذج لبعض الغزالات من الشخصيات الاسلامية المعروفة كأختبشر بن الحارث(٨٢) ، وميمونة بنت الاقرع(٨٣) . ومع ان ابن طولون لايتطرق الى الغزالات في عصره ، الا ان الوثائق الاجنبية / في القرن السابع عشر / الحادي عشر الهجري ، ولاسيما الفرنسية منها ، تؤكد ان غزل القطن في بلاد الشام كانت تقوم به النساء ، في بيوتهن وخلال فصل الشتاء ، حيث لاتكن مشغولات بمواسم الصيف الزراعية(٨٤) . الا أن الصورة التي يطرحها الاوربيون في ذلك الوقت عن النساء الغازلات ، من حيث اللا أمانة في بيع غزولهن تبدو مغايرة جدا لتلك التي يطرحها ابن طولون عن الغازلات التقيات الورعات . فالغازلات في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري مثلا كن يبللن غزلهن بالماء حتى يزيد وزنه ، بينما الغازلة التي يقدمها لنا ابن طولون رفضت أن تبيع غزلها ، لان الشاري الذي سيقوم ببيعه ثانية ، قد لايبين للشاري الثاني ان قسما منه قد غزلته صاحبته ويدها مسترخية بسبب صيامها ، وقسما آخر غزلته ويدها شادة(٨٥) . بل ان الغازلة الثانية أتت الى « أحمد بن حنبل » الفقيه الكبير المعروف تسأله هل عليها ان تبين لشاري غزلها ان قسما منه قد غزلته على ضوء السراج ، وقسما اخر على ضوء القمر(٨٦) . ومع ان ابن طولون لايقوم نوعية الغزل في بلده ، الا ان الاوربيين كانوا يؤكدون شدة اتقانه وامتيازه، بل ان المرأة قد أوجدت لها تقنية خاصة لغزل الانواع الثلاثة من القطن الغليظ والمتوسط والرفيع ، بان ثقبت ظفر باهمها الذي أطالته الى

ثلاثة ثقوب ، كل واحد بثخن الخيط المطلوب ، وكانت تمرر منه الخيط حتى يكون باستواء واحد ودون زغب(٨٧).

ومن مرحلة الغزل ، يقوم ابن طولون بنقلة الى تقنية النسيج . فيوضح السدى واللحمة ، والمعنى اللغوي لكل من الكلمتين ، الحقيقي منه والمجازي . ويختم ذلك باقتضاب مبيناً ، ان النساج على الاغلب من الرجال ، الا انه « قد تنسج المرأة »(٨٨) .

ومرة أخرى ، وكأني بابن طولون يود ان يثبت احتراف المرأة للنسيج ، أو ان يظهر شرعية عملها ، وموافقته لاصول الدين ، فيقدم نموذجا لامرأة نسجت بردة اهدتها للرسول الكريم (صلعم) ، وقبلها منها(٨٩) .

واتماما للحديث عن الصناعة النسيجية من الوجهة الفنية ، فان مؤرخنا يتعرض لانماط الملابس التي تصنع من أنواع النسيج . ويلاحظ في عرضه لهذه الانماط بانه يقصرها بصفة خاصة ، على ما عرف أيام الرسول الكريم (صلعم) ولايزيد عليها شيئا مما هو قائم في عصره(٩٠) .

ومن هذه الانواع « البردة »(٩١) ، و « الجلباب »(٩٢) ، و « الجبة »(٩٣) ، و « الثوب »(٩٤) ، و « الازار »(٩٥) ، و « الرداء »(٩٦) ، و « السراويل »(٩٧) ، و « المنديل » (٩٨) ، و « الحلة »(٩٩) ، و « الكساء »(١٠٠) ، و « القباء »(١٠١) ، و « القميص »(١٠٢) . وهو في الواقع لايصف أي واحد منها ، بل يكتفي بذكر ما دار حولها من حديث أو فعل نبوي أو صحابي .

ولابد أن يلحق بالقسم الاقتصادي التقني من محتوى مخطوطة ابن طولون ، ما طرحه في نهايتها تحت عنوان جانبي صغير أسماه « غريبة » (أي واقعة استغربها ودهش لها) . وتتضمن هذه « الغريبة » احصاء « لعدد الانوال في مدينة الاسكندرية عام ٧٩٧هـ/١٣٩٤م ، وعام ٨٣٧هـ/ ١٤٣٣م » ، فيبين بان عددها في العام الاول كان (١٤٠٠٠) نول ، بينما أصبح في العام الثاني ، أي بعد أقل من نصف قرن (٨٠٠) نول . ويحاول أن يوازن هذا الاحصاء في ميدان الصناعة النسيجية في الاسكندرية ، بذلك التباين في احصاء عدد قرى مصر بين عهد الدولة الفاطمية والمملوكية: اذ كان العدد في بداية عهد الدولة الاولى عشرة آلاف ، بينما بلغت في احصاء كتاب الجيش ألفين ومائة وسبعين(١٠٢) .

ان تلك الاحصاءات على الرغم من عدم بيانه لمصدرها كلها(١٠٤) ، ومع الشكوك حول صحتها ، لتدل على نافذة من نوافذ العلمية الوضعية في فكر ابن طولون ـ اذا جاز لنا هذا التعبير ـ . هذا مع العلم ان المعلومات التي قدمها تعتبر معلومات قديمة بالنسبة لعصره ، لاتفيد في طرح اضواء على تطور الصناعة النسيجية في زمنه .

ان كل ما ذكر آنفا هو محتوى القسم الفني ـ الاقتصادي للصناعة النسيجية . أما محتوى القسم الاجتماعي فيدور كله تقريبا حول المشكلة الاجتماعية للحياك المتمثلة بنظرة الازدراءالتيأحاطهم بهاالمجتمع الاسلامي أو قل فقهاؤه . وابن طولون لايعرض المشكلة فقط ، وما قيل فيها ، وما أحاطها ، ويتركها معلقة ، بل يسعى بنافذة اخرى من نوافذ فكره العلمي الواقعي ان يجد حلا لها ، وان ينصف الحياك .

ويبدأ ابن طولون عرض المشكلة ببيانه ما قيل فيهم : واول هذه الاقوال بان الحياك تائهو العقل وانهم بذلك كالمعلمين ، ويستشهد بحديث ينسب الى الرسول (صلعم) بانه قال « لاتستشيروا الحاكة ولا المعلمين ، فان الله تعالى سلب عقولهم »(١٠٥) . .

أما القول الثاني في النساج ، فهو انهم هم المقصودون بكلمة « الارذلون »(١٠٦) ، وارجع بعض المحدثين هذا التفسير الى « ابن عباس »(١٠٧) . والقول الثالثفي الحياكان صحبةالحايكفي اليقظة شؤم، وفي المنام سفر فيه خيبة ، رواية عن ابن سيرين(١٠٨) .

والقول الرابع فيهم « ان الحاكة رأس كل فتنة وأصل كل بلية » ، وقد ورد ذلك رواية عن عبد الله بن عمر(١٠٩) .

ولايذكر لنا « ابن طولون » سببا لهذه التهم المسددة للحياك سوى سبب ديني اجتماعي : هو ان مريم العذراء هي التي دعت على الحاكة ، بتتويه عقولهم . وذلك لانها سألت بعضهم عن ابنها عيسى ، وقد تاه منها في الطريق ، فارشدها لغير السبيل الصحيح ، بينما دلها الخياطون عليه ، ومن ثم دعت لهم وباركتهم . وبذلك كان النساج تائهي العقول ، والخياطون مباركين ، يستأنسهم الناس ويطمئنون اليهم(١١٠) . ويبدو فكر ابن طولون في وقوفه عند هذا السبب كليل الطرف في التعليل : اذ لم يسع الى استقصاء أصول هذه التهم في نوعية العمل مثلا ، أو كسبه ، أو صلات أصحابه بفئات المجتمع . والغريب أن الرأي نفسه يردده « القاسمي » في الحقبة المعاصرة عن الحياك فيقول عن الحياكة « وهذه الصنعة دنيئة غير شريفة »(١١١) .

ولايقف ابن طولون عند هذه الاقوال في طرحه للمشكلة ، بل يتابع ما نجم عن ذلك من قضايا اجتماعية أكثر استفحالا ، ومنها هل يتمتع هؤلاء الحياك بحقوق الانسان الكامل ، من حيث الكفاءة في النكاح ، والشهادة . ويستعرض مؤرخنا آراء الفقهاء ، كآراء الحنابلة ، وابي حنيفة ، وابي يوسف ، والمناقشات التي دارت حول هذه الامور ، ويخلص في النهاية ـ وهو الحنفي المذهب ـ الى ان المختار مما طرح جميعا هو قول ابي حنيفة ، « لان دناءة الصنعة لاتنقص الانسان ولاتحطه عن رتبته ، فانها ليست ملازمة ، فاشبهت الضعف والمرض(١١٢) » ، ويستشهد ببيتي شعر نسبا الى « يحيى بن معين »(١١٣) قال فيهما :

الا انما التقوى هي العز والكرم
وحبك للدنيا هو الذل والندم
وليس على عبد تقي نقيصة
اذاصحح التقوى وانحاك أو حجم

الا ان «ابن طولون » لايتسمر عند هذا الموقف الذي لايزال يعترف ضمنيا بدناءة حرفة الحياكة ، بل يقوم بنقلة الى الامام ، ويتبنى رأي استاذه « الجمال بن المبرد »(١١٤) ، وهو رأي واقعي عقلاني ، بل ثوري بالنسبة لماذكر آنفا . وهذا الرايبدو رافضاكل تلكالاتجاهاتذات الطابع الميتافيزيقي ، عندما يقر بانها «صنعةفضيلة»، وعندمايؤكدالمبدأالاقتصادي ـ الاجتماعي الذي يربط قيمة المهنة بمدىحاجةالمجتمعاليها ؛ فيتابع رايه قائلا : « لان حاجة الناس الى الصنعة تدل على فضلها ، وكلما كثرت الحاجة اليها كان فضلها أكثر . ولاشك ان الحياكة يحتاج اليها كل أحد ، الحي والميت ، الذكر والانثى والآدمي ، وغيره من الحيوانات التي تحتاج الى لبس(١١٥) » .

وبالمنطق نفسه يستمر ابن طولون في مناقشة أي انواع الحياكة أفضل . فيبين أن « أفضلها حياكة القطن لانه لبس الحي والميت ، ثم الصوف لانه لبس الاغنياءوالفقراء ، والاحراروالعبيد ، والرجال والنساء، والآدميين والدواب ، ثم الكتان لكثرة الانتفاع به بعد ذلك ، وأرداها الحرير والذهب والفضة ونحو ذلك »(١١٦) .

وعلى الرغم من ادخاله عامل الدين مرة أخرى في الحديث عن « حياك الحرير والذهب والفضة » ، الا انه يبقى أكثر ميلا للواقعية

والعلمية في تسويغه ضعف فضلهم ، عندما يقر أن صناعتهم « قاصرة النفع » لانها من « أمور النساء » فقط ، ولانها تحتاج مع الرجل الى صبي يخلو به الحايك ، وتتدلى سيقانه فوق رأسه ، وهذا أمرمحرم » . ولايسعى ابن طولون لايجاد سبب واقعي عقلاني لهذا التحريم ، كالاغراء على الفساد مثلا ، وانما يبتر الموضوع بالتحريم الديني .

وكأن « ابن طولون » أراد أن يدعم رأيه الثائر ذاك ، ويقنع المجتمع حوله به ، فسعى لتقديم نماذج من كبار الفقهاء الحنابلة ، والشافعية ، ممن عملوا في النسيج وكان الناس يقدرونهم ،ويرحبون بما يصنعون .

وحتى هنا تكون مخطوطة ابن طولون قد استكملت عناصرها الاساسية ، الا انها في الواقع تحوي أمورا أخرى يمكن النظر اليها على انها تزيينات جانبية ، ذات فائدة لابراز الصورة ، وفي الوقت نفسه تكوّن عنصرا هاما في التخفيف من جفاء الطرح الاقتصادي ـ الاجتماعي والتقني. ويتراءى للباحث ان ابن طولون اراد بتلك التزيينات أن يجذب القارىء الى مادون ، ويجعله يستمتع بما يقرأ . ويمكن اجمال هذه الزخرفات بأمرين :

أولهما : الشعر : فقد سعى المؤرخ كي يأتي في ختام كل فقرة تقريبا ، عالجها موسعا أو موجزا ، ببيت أو بضعة أبيات من الشعر ، تحتوي بعض معنى مما قدم في الفقرة ، وتتضمن بعض غزل : فبعد الخطوة الاولى من الحل الذي توصل اليه في مشكلة النساج قدم بيتين من الشعر يثبتان وجهة نظره(١١٧) . وفي ختام كلامه عن الغزل اتى كذلك ببيتين من الشعر فيهما غزل وغزل(١١٨) . وبعد عرضه لمعنى السدى واللحمة جاء ببيت من الشعر يتضمن الكلمتين(١١٩) ، وفي نهاية تقديمه لنماذج من الفقهاء الشافعية النساج أغلق العرض ببيتين من الشعر في الغزل بالحايك(١٢٠) ، وقبل ختام المخطوطة ، وفي ختامها قدم خمس مجموعات شعرية(١٢١) ، كل واحدة منها تتراوح بين بيتين واربعة أبيات ، وكلها حول الحائك ، وما قيل فيه من كلمة طيبة ، أو سيئة ، أو غزل . ولكن يلاحظ ان البيتين الاخيرين اللذين ينهيان المخطوطة ليسا من خط ابن طولون .

وثاني الزخرفتين في مخطوطة ابن طولون تفسير المنامات . فقد أفرد جزءا من دراسته(١٢٢) لتفسير مختلف الامور التي قد يراها النائم أو النائمة في ميدان الحياكة ، والحاكة ، والملابس وألوانها . ومع ان هذه

الفقرة بعيدة عن صلب الدراسة الواقعية لابن طولون ، وعن روحها ، الا انها تكون في الحقيقة جزءا طريفا يعكس كثيرا من القيم الاجتماعية والافكار السائدة في عصره ، وبصفة خاصة الذوق اللوني للمجتمع والمؤثرات الدينية فيه . فمما طرح في هذا الركن على سبيل المثال : ان لبس الثياب البيض في النوم هو شعار الدين والصلاح ، وان كانت بين يديه فخبر يساق اليه . والازرق من الثياب لايحمد لانه لون من لون اهل النار . قال الله تعالى « ونحشر المجرمين يومئذ زرقا » . ومن تحرق ثوبه نال مالا من امراة ، وان تفتق طلق امراته ، الى غير ذلك . ولا يقتصر ابن طولون على سرد ما يذكره مفسرو المنامات بل ينقد ما يقال ، ويبين حكمه الخاص ، فالمفسرون يقولون مثلا ان رؤية اللون الاصفر من غير الحرير مرض ، الا ان مؤرخنا يعلق فيقول « وعندي ان الاصفر سرور لقوله تعالى « صفراء فاقع لونها تسر الناظرين » .

واخيرا ، امران هامان تبقيا حول هذه المخطوطة ، اولهما : ما المصادر التي اعتمدها ابن طولون حتى اخرج مقالته ذات الطابع العلمي هذا ؟ وثانيهما : ما قيمة هذه الوثيقة ، بعد هذا العرض لمضمونها ؟ او بتعبير ادق ، ما قيمتها في رسم صورة عن الصناعة النسيجية في بلاد الشام في النصف الاول من القرن السادس عشر ، وهي الفترة التي دونت فيها ، أو التي عاش خلالها مؤلفها ؟

وحول الامر الاول ، يبدو ان ابن طولون قد استند في معلوماته المطروحة خلال الجزء الاقتصادي التقني في المخطوطة ، الى معاينته المباشرة للامور ، والى استاذه « الجمال بن المبرد »(١٢٣) . فهو لايذكر في هذا الجزء مصدرا سواه ، بل انه في اكثر من مناسبة وضع نفسه شاهد عيان كقوله عند حديثه عن انواع الحياك مثلا : « ورايت من يصنعه بدمشق(١٢٤) » . و « رايت من يحاكيه »(١٢٥) . اما في القسم الاجتماعي من التعليق ، فقد استند الى عديد من المحدثين مع اسانيدهم ، وبعضه اخذه سماعا ، او مكاتبة ، او قراءة . ويلاحظ ضمن اسانيده عدد من النساء المحدثات ، كعايشة بنت محمد بن عبد الهادي(١٢٦) ، وخديجة ابنة الزين الارموية(١٢٧) ، وزينب بنت الكمال(١٢٨) .

اما في ميدان الاجابة عن الامر الثاني فانه يمكن القول ان الباحث المتلهف لمعلومات وافية عن الصناعة النسيجية في بلاد الشام في النصف الاول من القرن العاشر الهجري/السادس عشر للميلاد ، قد لايرى فيها كل

ما يشفي غليله . وما أخاله الا وقد تمنى لو ان ابن طولون كان أكثر دقة في تحديد الزمان والمكان عند تقديمه لمعلوماته الفنية والاجتماعية عن تلك الصناعة وأصحابها ، حتى يكون اكثر اطمئنانا لمعاصرة المعطيات التي تتضمنها المخطوطة لابن طولون . ولعله تمنى ايضا ، وهو المهتم اليوم بالدراسات الاحصائية بنوع خاص ، لو أن مؤرخنا ، وهو ابن الشام ، والملاحظ الدقيق لمجرى الامور فيها ، قد خص بعض مدن قطره ، بل دمشق التي يعيش فيها على الاقل ، « بغرائب » معاصرة ، كتلك « الغريبة » الاحصائية التي اوردها في تعليقه عن الاسكندرية ، والتي اشرنا اليها سالفا . أو لو أن ابن طولون قدم بعض المعطيات عن « طائفة النساج » في عصره ووجودها ومدى نشاطها ، أو مدى تحسسهابالمشكلة التي عرضها ، وكذلك عن الصباغة النسيجية ، وأنواعها ، وألوانها ، تلك الصناعة التي اشتهرت بها بلاد الشام منذ العصور الوسطى(١٢٩) ، ويبدو انها ظلت محافظة على تلك الشهرة في العصر الحديث(١٣٠) .

وخلاصة القول ، لعل باحثنا كان يود ، وهو الذي زودته الوثائق الاجنبية ببعض ملامح صورة عن الصناعة النسيجية في بلاد الشام خلال النصف الثاني من القرن العاشر وخلال القرن الحادي عشر/النصف الثاني من القرن السادس عشر والقرن السابع عشر ، ان يربط تلك الملامح بصورة أكثر تكاملا ووضوحا لهذه الصناعة في النصف الاول من القرن وهي المرحلة التي عاصرها ابن طولون . فقد بينت له تلك الوثائق مثلا ، بان الصناعة النسيجية في بلاد الشام صناعة عريقة الجذور(١٣١) وانها ظلت فعالة ونشيطة حتى أواخر القرن السابع عشر بل وأبعد ، ولاسيما الحريرية(١٣٢) والقطنية منها . وانالصناعة الاخيرة كانت منتشرة فيمعظم المدن الشامية ، ولكل مدينة شهرتها بصنف منها ، كدمشق ، وحماة ، وحمص ، وبعلبك ، وصيدا ، واللد ، والقدس(١٣٣) ، وغيرها . وان الاوربيين بقوا راغبين بها ، ومتهافتين على استيرادها كالنسيجالبعلبكي، والخام ، والحموي ، والديمة ، ونسيج الجبل ، وذلك حتى أواخر القرن السابع عشر(١٣٤) . ويؤكد « المركيز دونوانتيل » مبعوث فرنسا لزيارة اسكالات الشرق ، في رسالة له ، « أن فرنسا كانت تستورد من القماش « الحموي » الابيض والازرق ، وكان يستخدم في مدن البروفنس وقراها شراشف للاسرة ، وقمصانا ، وصداري ، وكان لايجري زفاف دون أن يكون في جهاز العروس قطعة أو قطعتان منه »(١٣٥) . ومن الامور التي توصل اليها الباحث عن الصناعة النسيجية السورية خلال العصر

الحديث ؛ وعبر الوثائق الاجنبية انها كانت متقنة في جميع مراحلها : الغزل والصناعة والنسيج(١٣٦) ، حتى ان بعض الدول الاوربية ظلت تستورد انواعا من المنسوجات الحريرية كالتافتا(١٣٧) ، وما يسميه الفرنسيون ببورص دمشق (١٣٨) ، حتى أواخر القرن السابع عشر ، على يبغي ، ويرضي نهمه العلمي ، فان هذه المخطوطة تكوّن خلفية وثائقية الرغم من توسع الصناعة الحريرية الاوربية وارتقائها وبصفة خاصة في ايطاليا وفرنسا في القرن الخامس عشر . وتقدر بعض الوثائق قيمة المنسوجات الحريرية المصدرة من حلب سنويا بـ ١٠٠ر٠٠٠ دوكات في مطلع النصف الثاني من القرن السادس عشر(١٣٩) .

ومن ملامح الصورة التي كونها الباحث عن الصناعة النسيجية الشامية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر أيضا ، انها كانت ترتكز على دعامة أساسية أبقت عليها قوامها ، وهي اعتمادها على المواد الخام التي تنتجها البلاد ، بل واشتهرت بها ، وهي القطن والحرير بصفة خاصة. هاتان المادتان اللتان شرع الاوربيون يستوردونهما بكميات وافية خلال العصر الحديث كله ، ويتنافسون فيما بينهم للحصول عليهما .

ولكن ، ومع ان الباحث قد لايجد في مخطوطة ابن طولون كل ما يبغي ، ويرضي نهمه العلمي ، فان هذه المخطوطة تكون خلفية وثائقية لبحثه في الصناعة النسيجية في بلاد الشام خلال القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي بصفة خاصة . فمع انها تتحدث عن الصناعة النسيجية والنساج حديثا عاما ، وباطار غير محدد بدقة زمانا ومكانا فان مما لاشك فيه ، بانها منبثقة من عصر المؤلف . اي لابد ان ابن طولون ، وهو يعدد أنواع النسيج وأدواته ، ومواده ، لم يكن ناقلا وانما كان في ذهنه عالمه وعصره ، ولاسيما انه وضع نفسه أحيانا شاهد عيان ؛ هذا ، وان الاسماء التي أعطاها لعديد من المنسوجات والتي لاتطالعنا الكتب العربية المعاصرة له أو التي قبله ، بكثير عنها أو قليل ، تدل الى حد ما على اطلاع مباشر عليها ، ومن محيطه .

وعلى هذا يمكن مبدئيا النظر الى المخطوطة على انها وثيقة تقدم صورة شبه متكاملة عن مجموع الصناعة النسيجية وبعض قضاياها في عصر ابن طولون ، ومن ثم فهي ورقة عمل هامة للباحث ، توجه نظره الى نواح قد تغيب عن ذهنه عندما يبحث في وثائق متفرقة ليستخلص منهانتفا يقوم بتركيبها . هذا مع العلم ان الوثائق الاوربية خلال هذه المرحلة قليلة . ولابد من التأكيد في هذا المجال ، ان المشكلة الاجتماعية التي طرحها ابن

طولون قدلايخطر ببال الباحث أن يتطرق اليهـا ، أو يفسر بهـا بعـض الظاهرات ، على الرغم من قدمها ، وتوافر المعلومات عنها في كتب الحديث والفقه .

وبالاضافة الى ما ذكر فان المخطوطة تقدم معطيات غنية جدا عن انواع النسيج بمختلف مواده وانواعه ، وبصفة خاصة النسيج الحريري، مما يدعم سمة نشاط الصناعة النسيجية في بلاد الشام التي توصل اليها الباحث من دراسته للوثائق الاجنبية ، وتبرز بشكل واضح وجلي ذلك التخصص الدقيق فيها ، مما كوّن عنصرا أساسيا في اتقان أصحابها لها ، كما توضح روح التجديد في هذه الصناعة ، عندما يؤكد ابن طولون رؤيته لصناعة قطنية تقلد الصناعة الجوخية الاوربية . الا انها في الوقت ذاتـه تفتح بابا لبحث أكثر استقصاء للتعرف بتلك الانواع العديدة من المنسوجات التي يذكرها ابن طولون ، والتي يبدو انها اندثرت اليوم ، واتخـذت أسماء أخرى ، وبذلك يغني معجم « دوزي » بمفردات جديدة . . !

ومثلما توضح مخطوطة ابن طولون التخصص الدقيق في الصناعـة النسيجية في عصره ، فكأني بها تؤكـد كذلـك « العمـل الفـردي » لا « الجماعي » في ميدانها ، وذلك عندما يشير بشكل غير مباشر الى اضطرار ناسج الحرير للخلو مع صبي يساعده ويعمل فوقه . وبذلك تكون الصناعة النسيجية الحريرية بصفة خاصة لم تكن قد دخلت بعد مرحلة تجميـع الانوال في مكان واحد من قبل رب للعمل . ومن ثم « فالنول » وهـو أداة النسيج ، كان لايزال ملكا فرديا لصاحبه ، وهو العامل عليه . الا ان هذا الامر يبقى ميدانا لدراسة أوسع ، تبين التطور من العمل الفردي الـى العمل الجماعي .

والى جانب ماذكر آنفا عن دعم هذه المخطوطة لبعض معطيات الوثائق الاجنبية عن الصناعة النسيجية ، فانها تلقي اضواء مصححة على بعـض تفسيرات المؤرخين الاوربيين المعاصرين لانـواع النسيـج . فالنسيـج « الهرمزي » الحريري الذي يشير اليه ابن طولون كان تائها على المؤرخين الفرنسيين « مانتران وسوفاجه » ، عندما وجداه في وثيقة عثمانية ، وظنا ان في الكلمة تصحيفا ، ومن ثم ثبتاه على انه « مرعزي » ، وعرفاه بانـه قماش من وبر الماعز ثمين ، وان أوربا كانت حريصة على استيراده(١٤٠) . هذا بالاضافة الى توجيهها النظر الى مناطق عرفت بشهرتها بنوع مـن النسيج لم تكن معروفة ، كالكرك مثلا .

ويجب الا ينسى في هذا الباب ماأشير اليه سابقا عند التحدث عن محتوى المخطوطة ، بان هذه الوثيقة تبرز عمل المراة في ميدان الصناعة النسيجية ولاسيما في باب الغزل . فعلى الرغم من انتقاء ابن طولون نماذج من فترة قديمة ، الا انه لاينفي عملها في وقته . ولقد بينا أن الوثائق الاوربية تدعم هذا الامر ، بل وتشرحه مفصلا(١٤١) . وبذلك يدلل ابن طولون على فكر منفتح ، بل أن تضمينه المراة في أسانيده ، في مختلف كتبه لشاهد آخر على عدم تزمته في النظرة الى المراة ، في تلك المرحلة من الزمن .

واخيرا تثير الوثيقة تساؤلا هاما لذهن الباحث ، نتيجة طرح مشكلة النساج ، وهو هل كان النساج من أهل الذمة تحوم حولهم القضية ذاتها ولاسيما أنها ربطت عند ابن طولون بلعنة مريم العذراء للنساج ؟ وفي الواقع لقد أثار هذا الموضوع في الذهن ما طرحه المؤرخ « سوفاجه » عن أن أكثر نساج القطن والحرير والسجاد في حلب من المسيحيين(١٤٢) ، وما أشار اليه « غب وبوين » في أحد هوامشهما ، من أن أحد الباحثين قد ذكر أن معظم العاملين في نسج الحرير في القاهرة من اليهود(١٤٣) . فاذا كان ما قيل ملامسا لبعض الحقيقة ـ وهنا لابد من التأكيد بانه يشك أن تكون الاحصاءات دقيقة التي بنيت عليها تلك الاحكام، او قد يكون بعضها منساقا مع الهوى والغرض ـ فهل يكون سبب ذلك ، المشكلة التي طرحها ابن طولون ، ونظرة التحقير الذي كان يحيط بها بعض الفقهاء المسلمين النساج مما أبعد المسلمين عن احتراف هذه المهنة وتركها لاهل الذمة ؟ ان هذا التساؤل الذي تثيره المخطوطة نفسها في الواقع يفتح في هذا الميدان بابا جديدا للبحث والتقصي .

وبعد ، ان مخطوطة ابن طولون «ضوء السراج فيماقيل في النساج»، على الرغم من صغر حجمها ، جديدة في بابها ، وزاخرة بمعطيات كثيرة ، مركزة ومكثفة على عادة ابن طولون فيما يكتب ، وانسياقا مع أسلوبه البعيد عن الحشو . وهي غنية لابمعلومات جديدة فحسب ، وانما بما تثيره من تساؤلات وقضايا . وانني لأرى انها تمثل نموذجا فذا ومتكاملا ، ومتماسك الفقرات والمعلومات ، لما نسميه اليوم « بالمقالة العلمية » ،وتعبر عن تفكير حر ومتجدد في قضايا اجتماعية ، كان يبدو أن الفكر العربي قد تجمد حولها . فرأي ابن طولون واستاذه من قضية النساج اجتهاد جديد في ميدان الافتاء ، وان كان قد حاول أن يعتمد على بعض جذور قديمة . وقد أحاط ابن طولون افتاءه هذا بكل أجواء الصناعة النسيجية ، وعطاءاتها حتى يقنع قارئه وسامعه وسائله بوجهة نظره .

وهكذا ، تكون مخطوطة ابن طولون ، وثيقة عربية ، اقتصادية ـ اجتماعية ، لاتسلط ضوء سراج ضعيف ـ كما أسماها صاحبها ـ على ميدان هام من ميادين الاقتصاد والاجتماع ، وانما أضواء قوية ، تكشف أمورا عديدة ، وزوايا كانت مظلمة ، أو مبهمة في ذهن الباحث في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي .

الحـــواشـــي

(١) انظر لتفصيل أكبر حولهما : عبد العزيز محمد عوض : دعوة لدراسة الوثائق العثمانية . بحث قدم لسمنار الدراسات العليا في جامعة عين شمس . القاهرة (٧ ــ ١٢ مايو) ١٩٧٧ .

— Lewis (B), « The Ottoman Archives as a Source for the history of the Arab lands », JRAS, 1951, PP. 139 — 155.

—Lewis (B) « Studies in the Ottoman Archives — I », BSOAS, XVI.3.1954, PP. 469 — 501.

— Dumont, (P), Les Archives Ottomanes de Turquie. Paris 1976.

(٢) انظر لتفصيلات وافية عن « الوثائق البندقية » وأهميتها ، وأقسامها الرئيسية : ليلى صباغ : الوثائق الايطالية والاسبانية في تاريخ العرب في القرن السادس عشر بحث قدم لسمنار الدراسات العليا في جامعة عين شمس . القاهرة (٧ ــ ١٢ مايو) ١٩٧٧ وهو في طريق النشر .

(٣) انظر حول فئاتها . ليلى الصباغ : الجاليات الاوربية في بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابع عشر .
رسالة نيل عليها درجة الدكتوراة من جامعة القاهرة . تموز ١٩٦٦ ، ولما تنشر بعد (ص ٤٩٩ ــ ٥٠٠) .
وقد قام الدكتور « عادل اسماعيل » من لبنان بنشر قسم من تلك الوثائق الفرنسية تحت عنوان :
Documents diplomatiques et consulaires. 10 vols Beyrouth 1975 — 1978

(٤) هي بصفة خاصة وثائق « شركة الليفانت » ، وتضمها « دار الارشيف » في لندن المسمى Public Record Office تحت الارقام :
S. P, 105, Archives of British Legations — Levant Company
S. P, 110, Archives of British Legation — Levant Company, Aleppo
S. P, 97, General Correspondance.

وقد استند اليها المؤرخ « وود » في كتابه عن تاريخ شركة الليفانت .
— A. Wood, History of the Levant Company. London 1935.

ـ وهناك مراسلات للتجار الانكليز المقيمين في اسكالات الشرق ، مع رؤسائهم في العاصمة الانكليزية ، ولاسيما المقيمين منهم في حلب ، في « أرشيف رادكليف »
— Archives Radcliff (Guildhall Library, London).

وقد أحاط الكتاب التالي ببعضها :
— Davis, Aleppo, and Devonshire Square, London 1967.

(٥) وثائق المحكمة الشرعية بحماة . مركز الوثائق التاريخية . دمشق . مجلد (١) ص ١٦١ وثيقة (٤٧١) و ص ١٧٥ ، وثيقة (٤٩٠) .

(٦) — Hurewitz, Diplomacy in the Near East and Middle East. Princeton 1956. 2 vol. Vol I. P. 5.
— Wood, op cit. P 2.

(٧) انظر حول الاختلاف على تاريخ تأسيس القنصلية الفرنسية في بلاد الشام ، بعد حصول الفرنسيين على امتيازات ١٥٣٥ المصادر الاتية :
— Masson, Histoire du commerce français dans le Levant au XVIIe siècle. Paris 1897. Intro. P XIV.

— Charles - Roux, Les Echelles de Syrie et de Palestine au XVIIIe siècle. Paris 1928. P. 167. Annexe II.

(٨) انظر ليلى الصباغ : الوثائق الايطالية والاسبانية في تاريخ العرب في القرن السادس عشر .

(٩) انظر حول ترجمته نجم الدين الغزي : الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة : ٣ أجزاء تحقيق جبرائيل سليمان جبور . بيروت ١٩٤٥ ـ ١٩٥٩ ج١ ص ١٠١ .

(١٠) ابن طولون . الفلك المشحون بأحوال محمد بن طولون ـ رسائل تاريخية . دمشق ١٣٤٨ هـ. ص ١٨ ـ ٢٠ .

(١١) انظر ابن طولون ـ القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية القسم الاول بتحقيق محمد أحمد دهمان . المقدمة ص ١٣ ـ ١٩ .

(١٢) المشارفة : الاشراف على بقاء الخدمة في المدرسة قائمة . والمدرسة المرشدية هي احدى مدارس الحنفية ، انظر في النعيمي :

الدارس في تاريخ المدارس ـ تحقيق الامير الحسني . جزءان دمشق ١٩٤٩ ـ ١٩٥١. ج١ ـ ص ٥٧٦ .

(١٣) مكرر البلاسات جمع البلاس : وهو كساء من الشعر ، وهو فارسي معرب . وتصنع مشتركة بين الشافعية والحنفية ، انظر الدارس ج١/٢٧٣ .

(١٤) كتابة الغيبة : ضبط أسماء المتغيبين من المدرسين في المدارس ، وأسماء الحضور من السامعين . والمدرسة الجوهرية من مدارس الحنفية . الدارس ج١/ص ٤٩٨ وتفرقة الربعات . تفرقة أجزاء القرآن الكريم على القراء في المسجد ثم اعادتها بعد تسلمها الى الربعة .

(١٥) النظارة : الاشراف على تسيير شؤون وقف من الاوقاف . وقد كان المسير للوقف يدعى في العهد العثماني (متولي) والمفتش على الاوقاف (ناظر) . وبالنسبة لمدرسة من المدارس كان الناظر بمنزلة المدير العام للمدرسة فهو الذي يعمر ، ويرمم ،ويصرف للقائمين على العمل فيها رواتبهم ، ويخصم على المتخلفين مقدار ما تخلفوا .

(١٥)مكرر تقع بسفح قاسيون على نهر يزيد . النعيمي ج٢. ص ٢٠٢ .

(١٦) خدمة الكتب : القيام بترتيب الكتب ، وتنظيمها ، وترميمها ، وارشاد القراء الى ما يلزمهم من مراجع ، أي ما يشبه عمل قيم المكتبة اليوم .
والمدرسة العمرية مدرسة في الصالحية . انظر حولها : النعيمي : ج ٢ص ١٠٠ وابن طولون : القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية . القسم الاول تحقيق محمد أحمد دهمان . دمشق ١٩٤٩ . ص ١٦٥ .

(١٧) داخل الجامع الجديد بالصالحية . انظر : النعيمي المصدر السابق ج٢ص٢٤٥ .

(١٨) انظر النعيمي . المصدر السابق . ج١ . ص ٨٢ .

(١٩) انظر مقدمة القلائد الجوهرية . ص ١٧ ـ ١٩ ومقدمة أعلام الورى . بمن ولي نائبا من الاتراك بدمشق الكبرى . تحقيق عبد العظيم حامد خطاب . جامعة عين شمس القاهرة ١٩٧٣ . ص ٧٩ ـ ٨٢ .

(٢٠) القلائد الجوهرية . المقدمة . ص ١٠ .

(٢١) المجلد الاول من مجموعة ابن طولون المصورة . المجمع العلمي العربي بدمشق .

(٢٢) انظر في مطلع المخطوطة ص ٧٥ من هذه الدراسة بعض سمات أسلوبه في رسم الحروف والاملاء .

(٢٣) انظر مقدمة أعلام الورى لمحققه عبد العظيم حامد خطاب . ص ٥٤ ـ ٥٥ .

(٢٤) ابن كنان . المروج السندسية في تلخيص تاريخ الصالحية تحقيق وتعليق محمد أحمد دهمان . دمشق ١٣٦٦هـ/١٩٤٧ ص ٣٤ .

(٢٥) مقدمة أعلام الورى . ص ١٠٤ .

(٢٦) اسماعيل بن حماد المتوفى ٣٩٣هـ/١٠٠٣م . لغوى ، حاول الطيران ومات في سبيله .

(٢٧) مخطوطة « ضوء السراج فيما قيل في النساج » الورقة ١٢٦ ب. ولقد ورد الحديث فيها « الاثم ماحاك في الصدر وكرهت أن يطلع عليه الناس » .

(٢٨) لقد سار ابن طولون في عرض موضوعه متراوحا بين الكلام عن الصنعة وتقنيتها وبين النساج ، بحيث تبدو الافكار والمعلومات ، وكأنها متقطعة لاتكون كلا متلاحما . فبعد عرضه لانواع الحياك ، يتحدث عن أدواتهم ، ثم يقدم ما قيل فيهم ، وينهيه برأي أستاذه « الجمال بن المبرد » ، ويعود ثانية الى الصنعة فيتحدث عن المواد التي تعتمد عليها ، ثم عن الغزل ، ويطرح نماذج من الغزالات في العصور الاسلامية الاولى، ويختم حديثه عن الغزل ببيتين فيهما بعض غزل وغزل . وبعد الغزل ينطلق الى العملية الاولى في النسيج وهي مد خيوط السدى واللحمة ، ويعرف بالمعنى اللغوي ، الحقيقي والمجازي لكل منهما ، ويختم ذلك ببيت « لابن قيم الجوزية » يستخدم فيه فعلي يسدى ويلحم . ثم يبين أن العاملين في النسيج قد يكونون من الرجال ومن النساء ، وان كان الاغلب انهم من الرجال . ويقدم نموذجا لامراة نساجة في عهد الرسول الكريم . ويتجاوز الادميين الى الحديث عن نسج العنكبوت ، ودود القز . ويقوم ابن طولون بعد ذلك بنقلة ، لها روابطها مع ما مضى الا انها تدخل في حيز الغيبيات ، أي انه يتحدث عن تفسير المنامات التي تتصل بالحياكة ،والملابس المحاكة وألوانها وانواعها . وبعد هذه النقلة الغيبية التي يفصل فيها ابن طولون ، يعود للحديث عن أنواع اللباس من المنسوج .

ويختم تعليقه باربعة أمور : تنبيه : وفيه يذكر بعض الحوكة من الشافعية الفقهاء ـ كما كان قد فعل مع الحنابلة ـ . وغريبة ، وتتضمن احصاء لعدد أنوال النسيج في الاسكندرية في عامي ٧٩٧هـ و ٨٢٧هـ ، وعدد القرى في عهد المماليك والفاطميين . ثم يعود مرة أخرى الى تناول ما قيل من سوء في النساج وكأنه استدراك لما فاته قوله . ورابع الامور هو مجموعة من الابيات الشعرية يختم بها المخطوطة ، وتصف الحائك .

(٢٩) المخطوطة . الورقة ٢٦ ب .

(٣٠) المخطوطة . الورقة ذاتها .

(٣١) مفردها منشفة . وهي مايجفف الجسم من قماش . والقطع الكبيرة منها البيضاء تستخدم للاحرام في الحج .

(٣٢) جمع عباءة . نوع من الرداء ، مفتوح من الامام ولا أكمام له ، وانماله فتحتان لادخال الذراعين . وهو عادة من لباس البدو .

(٣٢) مكرر البلاسات جمع البلاس : وهو كساء من الشعر ، وهو فارسي معرب . وتصنع منه الغرائر الكبار . بل ان تلك الغرائر كانت تدعى بالبلّس . وقد ذكر ابن منظور في « لسان العرب » (دار صادر بيروت ١٩٥٦ ج ٢٥. ص ٣٠) بان من الادعية ، « ارانيك الله على البلس » وهي غرائر كبار من مسوح يجعل فيها التبن ويشهر عليها من ينكل به ، وينادى عليه .

(٣٣) النوارات : لايمكن الجزم بالفعل الاصلي الذي تم اشتقاق الكلمة منه . فقد يكون « نور » أو « نير » ، اذ ليس في المعاجم ما يشرح الكلمة بمضمونها الدارج . ففي مصطلح أهل دمشق اليوم ، النوارات هي قطع قماش طويلة وضيقة من الخيش ، تستخدم في تنجيد الارائك ، والكراسي ، والمقاعد . وقد تكون الكلمة في الاصل من « النير » ثم حرفت . فيقال للحمة القماش نير ، ولهدب الثوب كذلك . وثوب ذو نيرين اذا نسج على خيطين . ولعلها كانت تنسج على خيطين لتكون متينة ، ولذلك سميت بهذا الاسم . ولقد افادني الدكتور عدنان درويش مدير التراث في وزارة الثقافة والارشاد ، بان النوارة في حماة سريدة ضيقة ، وتستخدم الى جانب استخداماتها الاخرى في حزم لفافة الطفل الصغير المسماة في حماة بـ (دنينة) . ولذا يقال « نوار ودنينة » ككلمتين متلازمتين .

(٣٤) جمع زاملة : وهو بعير يستظهر به الرجل ويحمل عليه متاعه وطعامه . ولقد تطور المعنى فصار يطلق على الكيس الذي يحمل المؤونة . كما ان الزمال هو لفافة الراوية (قربة الماء) .

انظر :

Fagnan, Additions aux dictionaire arabes. Alger 1923. P. 72.

(٣٥) الحباكون : من حبك أي شد ، والاحتباك شد الازار واحباكه . ولعله يقصد بالحباكين الذين يصنعون النطاقات التي تحبك بها الثياب . وان كانت في معناها الدارج اليوم يراد منها من يجمع اطراف القماش ويخيطه . ويبدو انها كحرفة نسيجية قائمة بذاتها قد اندثرت في الوقت الحاضر ، أو أعطي لاصحابها اسم آخر . اذ لم يرد ضمن « قاموس الصناعات الدمشقية » صناع بهذا الاسم . (محمد سعيد القاسمي : قاموس الصناعات الدمشقية . جزءان . باريس ١٩٦٠ . حققه وقدم له ظافر القاسمي) .

(٣٦) الجوخ كلمة تركية عربت . واصلها (جوقة) ، وتعني نسيج صوفي . ويبدو ان هذا النسيج الذي كان يصنع في أوربا لم يرحب به المشارقة لاول وهلة . ويورد « دوزي Dozy في « معجمه المفصل عن أسماء الملابس عند العرب :

Dictionnaire détaillé des noms de vêtements chez les Arabes » Amestrdam1845. P. 127 — 128.

نصا طريفا عن موقفهم من هذا النسيج ، نقله عن المقريزي ، من خلال حديثه عن « سوق الجوخيين » ولطرافة النص ، واشارته الى تاريخ دخول « الجوخ » الى المشرق ، رؤي ايراده فيما يلي ، والحديث للمقريزي : « هذا السوق (أي سوق الجوخيين) يلي سوق اللحميين ... وهو معد لبيع الجوخ المجلوب من بلاد الافرنج لعمل المقاعد والستائر وثياب السروج وغواشيهم . وادركت الناس وقل ماتجد فيهم من يلبس الجوخ ، وانما يكون من جملة ثياب الاكابر جوخة لاتلبس الا في يوم المطر ، وانما يلبس الجوخ من يرد من بلاد المغرب ، والافرنج ، وأهل الاسكندرية ، وبعض عوام مصر . فاما الرؤساء والاكابر والاعيان فلا يكاد يوجد فيهم من يلبسه الا في وقت المطر ، فاذا ارتفع المطر نزع الجوخة . واخبرني القاضي الرئيس تاج الدين أبو الفدا اسمعيل بن أحمد بن عبد الوهاب بن الخطبا المخزومي خال أمي رحمه الله ، قال : كنت أنوب في حسبة القاهرة عن القاضي ضيا الدين المحتسب فدخلت عليه يوما ، وانا لابس جوخة لها وجه صوف مربع فقال لي وكيف ترضى ان تلبس الجوخ وهل الجوخ الا لاجل البغلة ثم أقسم علي أن أخلعها ، وما زال بي حتى عرفته اني اشتريتها من بعض تجار قيسارية الفاضل فاستدعاه في الحال ودفعها اليه وامره باحضار ثمنها ثم قال لي لاتعد الى لباس الجوخ استهجانا له . فلما كانت هذه الحوادث وغلت الملابس دعت الضرورة أهل مصر الى ترك أشياء مما كانوا فيه من الرقة ، وصار معظم الناس يلبسون الجوخ ، فتجد الامير والوزير ، والقاضي ، ومن دون ممن ذكرنا لباسهم الجوخ . ولقد كان الملك الناصر فرج ينزل أحيانا الى الاسطبل وعليه ممجون من جوخ ، وهو ثوب قصير الكمين والبدن يخاط من الجوخ بغير بطانة من تحته ، ولاغشاء من فوقه فتداول الناس لبسه واجتلب الفرنج منه شيئا كثيرا لاتوصف كثرته . ومحل بيعه بهذا السوق . »

ولاتزال كلمة « جوخ » الى الوقت الحاضر تعني النسيج الصوفي المستخدم في اللباس بصفة خاصة . ومن المعروف ان البندقية كانت مصدرة أولى لهذه المادة الى بلاد المشرق حتى النصف الثاني من القرن السادس عشر ، حيث أخذت انكلترة ، وهولاندة تنافسانها فيه . وكان يطلق على الجوخ الذي تحمله أحيانا اسم « الكريزة » ، وكانت تبادل به ما تستورده من بلاد الشام وبخاصة القطن . انظر وثائق المحكمة الشرعية في حماة . مجلد (١) . ص ١٦١ ، و ١٧٥ وثيقة رقم (٤٧١)، و (٤٩٠) .

(٣٧) المناخلية : صانعو المناخل . والمنخل وهو الاداة التي يتم فيها فصل الدقيق عن نخالته . ويتألف من مادة نسيجية من خيوط شعر أذناب الخيل ، تترك ثقوبا صغيرة في النسيج ، تمر من خلالها المادة الناعمة وتبقى الخشنة . انظر قاموس الصناعات الدمشقية . ج ٢ . ص ٣٢٧ .

(٣٨) الغرابلية : صانعو الغرابيل ومفردها غربال . وهو كالمنخل الا ان ثقوب نسيجه أوسع ، ويستخدم للحبوب بينما المنخل للدقيق . وكانت مادة نسيجه من سرائر جلد الخيل . انظر قاموس الصناعات الدمشقية ج٢ . ص ٣٢٦ .

(٣٩) البطانة وجمعها البطائن . الا انه على عادة ابن طولون ، وأهل دمشق عامة في لهجتهم العامية ، الهمزة تخفف الى ياء ، فتصبح بطاين . والبطانة هي ضد الظهارة . أو هي القماش الذي يستر خلف الثوب .

(٤٠) النباطية والنبط : هم القوم المعروفون في جنوبي العراق عند الفتح الاسلامي . ولايعرف بالضبط من المقصود بهم في نص ابن طولون : هل هم سكان « النبطية » وهي قرية من قرى جنوبي لبنان ، أم الاعاجم ، أم سكان أهل العراق ، أم الغرباء المقيمون في دمشق . وان كان من المرجح الامر الاول .

(٤١) بعلبك . بلدة معروفة في سهل البقاع في لبنان . وقد اشتهرت في العصر المملوكي بصناعتها القطنية الممتازة . ويشير ابن بطوطة الى انه كان يصنع فيها ملابس الاحرام . وفي العهد المملوكي كانوا يصنعون من القماش البعلبكي الابيض معطفا يصل الى ما فوق الركبة ، ودون اكمام أو باكمام قصيرة ، ويلبسونه تحت الفرجية ويسمونه « بغلطاق » . انظر .

Dozy, op. cit. P. 82.

(٤٢) الموصل : مدينة شهيرة شمال شرقي العراق ، على نهر دجلة . اشتهرت بالنسيج القطني الناعم والرقيق .

(٤٣)
— D'Arvieux, Memoires du Chevalier d'Arvieux. 6vols. Paris.M. DCC. T. I. P. 331.

— A. Ismail, op. cit. Vol III, P 194. (Mémoire sur les qualités et l'usage des marchandises exportées de Seyde. S. D.

— Vandal, Les voyages du Marquis de Nointel (1670 — 1680), Paris 1900. Annexe. Lettre de Nointel à M. de Pomponne. Seide, 28 Juin 1674.

(٤٤) قلعة في شرقي الاردن على طريق القوافل المتجهة الى الحج ، كان لها أهميتها خلال الحروب الصليبية . والكرك أيضا قرية كبيرة قرب بعلبك . ويضيف معجم البلدان (دار صادر بيروت . ج ١٦ ص ٤٥٢) بان الكرك (بسكون الراء) قرية في أصل جبل لبنان . والكرك كذلك جزيرة صغيرة في الخليج العربي ، تجاه ميناء بوشهر الفارسي ، اشتهرت بصيد اللؤلؤ .

Voir. W. Heyd, Histoire du commerce du Levant. 2 Vols. Amesterdam 1959. Vol. II. P. 649.

وفي الواقع لايعرف بالضبط أي واحد من هذه الامكنة اشتهر أهلوه بصناعة النسيج القطني الملون . ولم يلاحظ في الوثائق ذكر لنسيج « الكركي » . الا ان هناك نوعا من اللباس ظهر في العهد العثماني تحت اسم « الكريكي » وهو كما شرحه Dozy, P. 382 — 383 نوع من الفرجية ، ومصنوع من الحرير ، ولايلبس عادة في الاحتفالات . وعلق Mantran et Sauvaget على كلمة « كركي » الواردة ضمن التنظيم المالي للواء غزة بانه لم يعثر على ما يشرح هذه الكلمة ، أو يؤيد كتابته لها . وقد ذكرت ضمن مجموعة من الملابس كان منها العبي ، وملابس أخرى .
Réglements Fiscaux Ottomans. Les Provinces Syriennes, Beyrouth 1951 P. 43.

ومن المرجح ان تكون الكرك الواردة في نص ابن طولون ، هي كرك « لبنان » . نوقوعها الى جانب بعلبك المشهورة بنسيج القطن ، قد يجعلها تتجه الى هذا المنحى . وان كان ليس مستبعدا ان تكون كذلك « كرك الاردن » اذ ان موقعها على طريق القوافل يشجع اهتمام أهلها بهذه الصناعة ، وتوافر مادة الصباغ « النيلج » في وادي الغور غير البعيد عنها ، قد يقدم نقطة تأييد أخرى لهذا التفسير ، ولاسيما ان شهرة أهلها كانت بالنسيج القطني الملون ، أي المصبوغ بالوان مختلفة .

(٤٥) العمامة : هي لباس للرأس كان يتألف عادة من طاقية مع قطعة قماش تلف حولها باشكال متنوعة . انظر Dozy, op. cit. P. 305

(٤٦) الازار قطعة من القماش القطني كانت تلبسه النساء العربيات عادة عندما يخرجن من بيوتهن . وهو يغطي جميع أجزاء الجسم ، ويشبه الملاءة . ويكون عادة بلون أبيض . Ibid, P. 25

(٤٧) اللحف : جمع لحاف وهو كل ما يلتحف به أي يتغطى ، أو هو اللباس الذي يغطي كل ماسواه . وقد استخدمت الكلمة في الكتب العربية أحيانا بمعنى الازار أو الملاءة للمرأة . واللحاف في بلاد الشام اليوم يعني ما يلتحف به أثناء النوم ويصنع من وجهين أحدهما من النسيج القطني ، والثاني من النسيج الحريري ، ويعبأ ما بينهما قطنا ، ثم يخاط الوجهان مع بعضهما والقطن بينهما ، من الاطراف والوسط ، وتكون الخياطة على شكل رسوم هندسية ، بحيث يبدو الوجه الحريري وكانه قد نقش نقشا .

(٤٨) المصمت : أي لايدخل لون أزرقه لون اخر .

(٤٩) كانت أوربا تستورد هذا النوع في العصور الوسطى من عكا ، واللاذقية ، ودمشق والاسكندرية ـ كما يشير الى ذلك هايد op. cit. Vol II. P. 700 ويعرفه بان

أصل الكلمة يوناني ، وقد تعلم صناعته عرب سورية ومصر من البيزنطيين الا أنه يجعل هذا النسيج من الحرير الثقيل والكثيف ، الغالي الثمن ، وليس من الكتان كما بين ابن طولون . وقد يتساءل لماذا ذهب « هايد » بعيدا في اشتقاق الكلمة ، ولها ما يقابلها تماما بالعربية . فالسمط في أساسه الخيط الواحد المنظوم ، ويكون عادة سويا مستقيما . ولعل العرب اطلقوا على نسيج الخيوط المسمطة أي المستقيمة والمستوية التي لاأثر لزغب الغزل فيها اسم السمط . بل ان كلمة السمط في العربية تعني كذلك الثوب الذي ليس له بطانة طيلسان ، أو ما كان من القطن (لسان العرب ج ٣٠ ص ٣٢٤) . وهكذا فان ماورد في العربية عن هذه الكلمة ، يبعدها عن مادة الحرير وقد يكون اتقان صناعة الكتان تلك ، واستواء غزلها ، هو الذي جعلها شبيهة بالحرير الثقيل . بل ان « هايد » نفسه يشير الى ان نسيج الكتان المسمى « بالبوكاشينو » قد اتقن النساج المصريون صنعه ، وجعلوه رقيقا ولامعا حتى غدا يشبه الحرير .
Ibid, P. 702

(٥٠) الظهور : قد يتبادر للقارىء لاول وهلة انها جمع « ظهارة » وظهارة الثوب ما علا وظهر ولم يل الجسد وهي نقيض البطانة . الا ان جمع ظهارة « ظهائر » لاظهور . وفي الواقع ليس بين أيدينا ما يشرح المعنى الفني للكلمة . وهناك عدة تفسيرات لها فقد تكون في أصلها « الزهور » وفخمت الزاي فغدت الظهور ، وكون الكتان ملونا قديجعل التفسير معقولا ، ولاسيما اننا لازلنا نطلق على النسيج ذي الالوان العديدة لفظ « مزهر » حتى اليوم . وقد تكون الكلمة نسبة الى « الظهور » وهو عيد عند المسيحيين (عيد التجلي) ، كان يلبس فيه هذا النوع من القماش ، وان كان يبدو هذا التفسير بعيدا . أو يكون جمعا عاميا لكلمة « الظهارة » .

(٥١) التفصيل في اللغة العربية من فصل . وأقرب معاني الكلمة الى ماورد في النص ما أتى تحت تعبير « فصل الوشاح » : اذا كان نظمه مفصلا بان يجعل بين كل لؤلؤتين مرجانة أو شذرة أو جوهرة تفصل بين كل اثنتين من لون واحد . وهذا المعنى بحذافيره كان يطلق في دمشق منذ قرن أو أكثر على ثوب كانت تلبسه العرائس ولازال السيدات المسنات في وقتنا الحاضر يرددنه ، ويطلقنه على كل ثوب قد حلي بالمجوهرات اللامعة المصنوعة . ولعل كلمة « تفصيل » أطلقت على النسيج الكتاني ـ الحريري ، لان النساج كانوا يفصلون الحرير والكتان بحيث يضعون خيطا من الحرير بين خيطين من الكتان أو العكس .

(٥٢) اللباسات : هي السراويل بصفة عامة ، الا أن المقصود منها عادة السراويل الداخلية.
انظر : Dozy, op. cit. P. 204sq, 394.

(٥٣) ان لكلمة «منديل» معاني عديدة ، فهي فوطة ، وهي عمامة ، وهي حزام .. وبصفة عامة هي قطعة من القماش تستخدم استخدامات عديدة ، وبالنسبة للنساء فانها

تستعمل غطاء للرأس ، وقناعا للوجه ، وحزاما ، ولتجفيف الايدي ، وغير ذلك .
Ibid. P. 415.

(٥٤) القميص نوع من الالبسة يرتدى فوق السروال ، وقد يكون طويلا فيصل الى الركبة ، أو قصيرا فيحدد الى الخصر أو مابعده بقليل .
Ibid. P. 371.
ويرتديه النساء والرجال .

(٥٥) الكمخة . نسيج حريري يشير اليه هايد (op. cit. II. P. 697).
وكان يسمى كذلك : الكاموكاتو Camocato والكاموكاس Camocas
وكان هذا النسيج في أغلب الاحيان مزيجا من الحرير وخيوط الذهب . وأصل الكلمة صيني (كنخة) واخذها الفرس فغدت (كمخة) . وكان يصنع في العصور الوسطى في دمشق ، وبغداد ، والاسكندرية ، واستوردته اوربا . وكان يستخدم فيها في ملابس الاحتفالات وتزيين الكنائس . وعندما نمت صناعة الحرير في البندقية ومنذ القرن الرابع عشر ، أخذت تقلد هذه الصناعة الدمشقية ، وغدا « اختصاصا من اختصاصاتها » . وكانت تصنعه من حرير وذهب وفضة ، وتجعل تزييناته على شكل ورود . ومع الزمن ، وفي القرن السادس عشر بالذات ، أصبحت هي التي تصدره الى البلاد العربية المشرقية ومنها بلاد الشام .
Mantran & Sauvaget, op. cit. P. 10, II. n

ومن يطالع سجلات المحاكم الشرعية في دمشق وحلب وحماة يلاحظ ان الكلمة تتكرر ، اما على شكل ألبسة صنعت منه ، أو استخدم النسيج سجافا للجوخ . فقد ورد مثلا : « ثوب بدن من القماش المسمى بالكمخة » (وثائق محكمة حلب مجلد (١) مشوش غير مرقم . (عام ٩٨٤هـ) ـ و « جوخة جديدة بنفسجية مخيطة بسجاف كمخا » (وثائق محكمة دمشق . مجلد (٢) ص (٣) . وثيقة (٥) .

(٥٦) نسيج حريري معروف له خمل أي هدب ، ويقال له القطيفة أيضا ، واشتهرت به دمشق ، وقلدتها في صنعه البندقية والمدن الايطالية الاخرى .

(٥٧) الاطلس : نسيج حريري معروف ايضا ، وسمي بالاطلس أي الاصلع بالعربية ، لانه لاخمل له . ويرى (هايد) II. P. 701 ان أصله من الصين ، ومن مدينة زيتون Zayton. وقد حرفت الكلمة من قبل الايطاليين الى زيتاني Zetani
ومن قبل القشتاليين الى « سيتوني » Setuni ومنه أتت كلمة « ساتان » Satin المرادفة للاطلس العربية . وفي الواقع كان الايطاليون يسمون هذا القماش الحريري الناعم الذي لاخمل له البتة « Zetani razo » أي « الزيتاني الاصلع أو الذي لاخمل له » .

(٥٨) عمل الدار : لا تعرف بالضبط صفة هذا النوع ولكن يخمن انه الحرير الذي يصنع منه أثاث الدار . ولعله من نوع النسيج المسمى بالتركية « بالجاتمة » çatma والذي كان ضمن مستوردات بلاد الشام في منتصف القرن السادس عشر كما ورد في الوثائق العثمانية . وقد شرحه المؤرخان « مانتران » و « سوفاجه » بانه قماش حريري سميك يستخدم في تغطية الاثاث ، وصنع الستائر . أو لعله « الاستار » الذي شرحه المؤرخان السابقان على انه نسيج قطني أو كتاني يستخدم للستائر أو ما يشابهها .

(٥٩) ان المعاجم صامتة عن هذا النوع من النسيج الحريري حتى ان المؤرخين « مانتران » و « سوفاجه » عندما وردت هذه الكلمة في الوثائق العثمانية التي تنظم الضرائب في ولاية دمشق في منتصف القرن السادس عشر تقريبا ، وضمن الصادرات من المدينة ، ظنا ان تصحيفا قد طرأ ، فثبتاها على انها « مرعزى » وعلى انها قماش صنع من « وبر ماعز كرمان » وهو قماش غالي الثمن ، ويسميه الاوربيون بـ « صوف المعيز » ويتهافتون على شرائه؛ بينما يطلق عليه الاتراك اسم تفتيك «Teftik» op. cit, P. 29 n5 الا ان الوثيقة التي بين أيدينا تعيد للكلمة حقيقتها ، فهي « الهرمزي » فعلا لا المرعزي . ولعل التسمية هي نسبة الى « هرمز » تلك المدينة الهامة تجاريا ، والقائمة في الخليج العربي . ولعل قسما من حرير الشرق الاقصى ، أو حرير فارس ، كان يحمل منها الى بلاد المشرق العربي ، ويتم نسج بعضه في دمشق . وقد تكون كلمة « حرير شيرمز » التي لا تزال تطلق في دمشق على نوع من الحرير يجمع بين صفات التافتا والساتان ، وهي تحريف للفظ « هرمز » .
ويؤكد « محمد كرد علي » في خطط الشام (٦ أجزاء بيروت ١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧٠ م) ج ٤ . ص ٢٠١ ان ذلك النوع من الحرير الهرمزي كان من صنع دمشق « على اختلاف اشكاله وتباين اوصاله » . ويبدو انه قد اعتمد على ما اورده ابو البقاء البدري الدمشقي (من مواليد ٨٧٤ هـ) في كتابه « نزهة الانام في محاسن الشام » القاهرة ١٣٤١ هـ . ص ٣٦٢ عن شهرة دمشق بهذه الصناعة اذ يورد العبارة ذاتها :

(٦٠) الرش في اللغة العربية المطر القليل ، ولو ان ابن طولون لم يخص نسيج الحرير مع الذهب ، ونسيج الحرير والفضة ، بحقلين لامكن القول بانه من نوع البروكار ، وان خيوط الذهب والفضة تشكل فيه ما يشبه نقاط المطر . ولا سيما ان الكلمة لا تزال تستخدم في مجتمع النساء بدمشق في الوقت الحاضر لتعني حلية ذهبية في الصدر على شكل طوق تتعلق به كرات صغيرة من الذهب ، كما تطلقه على صدر ثوب مزين باحجار لامعة مصطنعة ، وقد تكون التسمية في أصلها آتية من « الرشا » وهي كواكب صغيرة على صورة السمكة يقال لها بطن الحوت وفي سرتها كوكب نير ينزله القمر (لسان العرب ج ٦٠ ص ٣٢٣) .

(٦١) النيل في النجيل : لم تشر المعاجم الى أي نوع من الحرير بهذا الاسم ، وكأنه أشبه بالنوع المسمى « بالطرد وحشي » في عهد المماليك ، والذي لم يعثر « دوزي P. 220 على معلومات عنه . ومع ذلك ، فاذا عرف ان النيل هو النبات الذي يصبغ به اللون الازرق ، والنجيل نبات معروف ومطروق باوراقه الخضراء ، فقد يكون هذا النوع من النسيج ، من صنف « الحرير المتموج » ، بين الزرقة والخضرة ، الذي كان يسميه الاوربيون « بالموار Moire . » وهناك احتمال انه سمي بهذا الاسم ، لانه حيك برسوم فيه ، على شكل أوراق النيل والنجيل ، متشابكة فيما بينها ، وبعضها ملون بالزرقة وبعضها بالخضرة .

(٦٢) ورقة ١٢٦ ب من المخطوط .

(٦٣) Heyd, op. Cit. PP. 706 - 709

(٦٤) المختم في عرفنا اليوم ، وهو النسيج الذي خططت فيه مربعات ، وقد تكون التسمية منبثقة من كلمة (ختم) بمعنى أفواه خلايا النحل اذ ان المربعات قد تعطي هذه الصورة . وصفة « المختم » وردت قديما للثياب وترى عند ابن خلدون ، وابن سعيد .
انظر : Dozy. P. 114 n.

(٦٥) الزلية : لم ترد في المعاجم . وقد يقصد بها البساط الاملس على غرار « الزل » الحجارة الملس التي يزلق عليها . وقد عرفها « فانيان » بأنها سجادة Fagnan, op. cit. P. 7i ويقال زلي وزلية .

(٦٦) الكركية ، وقد تكون الكدكية . واللفظان لا شرح لهما .

(٦٧) عمل الشريف . لم يعثر على تفسير لها .

(٦٨) جمع خرج وهو جوالق ذو اونين يوضع على ظهر الدابة .

(٦٩) الحزم . الشد . والحزام يكون للسرج ، والرحل ، والدابة . ومن نسيج الحزم أيضا صناعة المشدات المعروفة بالكمار وهي تشد على الخصور ، وكان يستخدمها أهل الشام . (خطط الشام ج ٤ . ص ٢٠٣) .

(٧٠) العذارات . جمع عذار : الذي يضم حبل الحطام الى رأس البعير والناقة . والعذار من اللجام أيضا ما سال على خدي الدابة منه .

(٧١) الورقة ١٢٦ ب من المخطوطة .

(٧٢) الماوية : المرآة نسبت الى الماء لصفائها . المراد هنا نضارته وصفاؤه .

(٧٣) الورقة ١٢٦ ب من المخطوطة .

(٧٤) ورقة ١٢٨ أ من المخطوطة .

(٧٥) ورقة ١٢٧ أ .

(٧٦) ورقة ١٢٨ أ .

(٧٧) المصدر نفسه . الورقة ذاتها .

(٧٨) المصدر نفسه . الصفحة ذاتها . العدول جمع عدل وهو الغرارة .

(٧٩) الخبازاء : لعلها الخبازى . وهي بقلة معروفة من فصيلة الخبازيات تستخدم في التطبيب ولكن لم يعرف بانها تستعمل في صناعة نسيجية ما ، ولعل بعض أنواع الفصيلة كان هو المستخدم .

(٨٠) ورقة ١٢٨ أ من المخطوط . يذكر محمد كرد علي في « خطط الشام » (ج ٤ ص ٢٠٥) نقلا عن احد سياح القرن الحادي عشر ان خيوط الذهب كانت تصنع في دمشق في حارة الذهبيين الى يسار الخارج من باب جيرون . وفي هذه الحارة اماكن يمد فيها خيوط الذهب غلاظا أولا ، ثم لا يزالون يعالجونها بالادخال خرقا بعد خرق ، وكل ثان أضيق من قبله ، حتى تنتهي الى الرقة ، الى ان تصير كالشعر ، ثم يطرقونها بمطارق لطيفة وصناعة محكمة ، ثم يلفون ذلك المطرق على خيوط الحرير ، فيركب معه القضيب المعلوم . ونحو ذلك عملهم للفضة . ويؤكد هذا القول ما ذكره البدري في نزهة الانام (ص ٣٦٣) (في القرن التاسع ـ الخامس عشر) عن شهرة دمشق بـ « صناعة الذهب المسبوك والمضروب والمجرور ، والمرفوع ، والممدود ، والمرصوع » .

(٨١) الورقة ١٢٨ آ .

(٨٢) هو الملقب « ببشر الحافي » (١٥٠ ـ ٢٢٧ هـ/٧٦٧ ـ ٨٤١ م) من الزاهدين الورعين ، ومن المحدثين الثقات سكن بغداد وهو من أهل مرو ، عاصر المأمون . انظر حول اخباره الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ١٤ مجلدا مصر ١٣٤٩ ج ٧ . ص ٦٧ ـ ٨٠ وأخته التي يتحدث عنها ابن طولون هي « مخة » (انظر تفصيلا عنها في عمر رضا الكحالة : اعلام النساء ٥ اجزاء . الطبعة الثالثة . بيروت . د. ت. ج٥ ص٣١). وله اختان اخريتان هما « مضغة » و « زبدة » وكن زاهدات وورعات . (انظر ابن خلكان . وفيات الاعيان ٦ اجزاء القاهرة ١٩٤٨ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ج ١ ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩) .

(٨٣) عابدة زاهدة ، عاصرت احمد بن حنبل المتوفى ٢٤١ هـ/٨٥٥ م (أعلام النساء ج ٥ ص ١٣٨) .

(٨٤) — D'Arivieux, op cit, vol I. P. 332 — 333.

— Arch, Nat. K 1347, No XXXV, f 34

— Vandal, op. cit (annexe) — Lettre de M. de Nointel à M. de Pomponne. Seide. 28 Juin 1674.

(٨٥) ورقة ١٢٨ ب من المخطوطة .

(٨٦) المصدر نفسه ، الورقة ذاتها .

Vandal, op. cit. (la même lettre)

(٨٧) انظر :

(٨٨) الورقة ١٢٨ ب .

(٨٩) المصدر نفسه . الصفحة ذاتها .

(٩٠) المصدر نفسه ١٢٨ ب ـ ١٣٠ أ .

(٩١) كساء صوفي يلتحف به ليلا ، ويغطي الجسم نهارا . وتكون البردة عادة بنية اللون ، او رماديته ، أو مخططة .

انظر حول البردة : لسان العرب . ج ١٢ ص ٨٧ ، و « دوزي Dozy. P. 59.

(٩٢) الجلباب : له معان عديدة . الا انه بصفة عامة هو ثوب واسع دون الملحفة تلبسه المرأة . وعرفه بعضهم على انه ملاءة المرأة تشتمل بها فهو كالازار . انظر Dozy. P. 127.
لسان العرب ج ٣ ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣ ودوزي

(٩٣) الجبة . ضرب من مقطعات الثياب تلبس . وهي ثوب مفتوح ، ويلبس عادة فوق القفطان ، وتصل اما للقدمين ، او للركب ، وتكون عادة أطول من الخلف منها من الامام . وقد تكون باكمام واسعة أو ضيقة ، وقد تبطن في الشتاء بالفرو . وقماشها قد يكون خليطا من القطن والحرير ، أو من وبر الجمل . ويلبسها على الاغلب الرجال ، ولكن قد تلبسها النساء .
لسان العرب ج ٢ ص ٢٤٩ . Dozy, P. 109

(٩٤) الثوب . اللباس بشكل عام ، الا انه قد يأخذ معنى خاص فيعني لباسا فضفاضا Dozy, P. 105 — 106

(٩٥) الازار . انظر حاشية (٤٦) من هذه الدراسة .

(٩٦) الرداء : نوع من اللباس قد يشبه الازار ، أو هو كساء واسع .

(٩٧) السراويل : كلمة فارسية معربة . وتعني لباسا يغطي الجزء الاسفل من الجسم . وله فتحتان تمر منهما الساقان . انظر Dozy, P. 204

(٩٨) انظر حاشية (٥٣) من هذه الدراسة .

(٩٩) الحلة : رداء وقميص وتمامها العمامة . والحلة كذلك ، كل ثوب جيد جديد تلبسه ، غليظ أو دقيق ، ولا يكون الا ذا ثوبين .
لسان العرب : ج ٤٤ ص ١٧٢ ـ ١٧٣ .

(١٠٠) الكساء : ويقصد به الثياب التي تكسو الجسم . وقد يراد به معطف من الصوف الخشن ، أو « الحايك » الذي تستخدمه المرأة في الجزائر Dozy, P. 383

(١٠١) القباء : رداء طويل ، له أزرار من الامام ، وقد يلبس تحت الجبة Ibid, P. 352

(١٠٢) القميص : انظر حاشية (٥٤) من هذه الدراسة .

(١٠٣) الورقة ١٣٠ أ من المخطوطة .

(١٠٤) لقد ذكر اسم الذي باشر احصاء عام ٧٩٧ هـ فقط ، وهو « جمال الدين محمود الاستدار » .

(١٠٥) الورقة ١٢٧ أ .

(١٠٦) سورة الشعراء آية (١١١) .

(١٠٧) ابن عباس : هو عبد الله بن عباس ابن عم النبي (صلعم) . وهو صحابي جليل . روى عن الرسول عديدا من الاحاديث وكان ملازما له . (٣ ق هـ ـ ٦٨ هـ/٦١٩ ـ ٦٨٧) .

(١٠٨) محمد بن سيرين البصري . امام من الائمة في علوم الدين ، ومن رواة الحديث (٣٣ ـ ١١٠ هـ/٦٥٣ ـ ٧٢٩ م) .

(١٠٩) عبد الله بن عمر بن الخطاب . صحابي ومحدث كبير (١٠ ق هـ ـ ٧٣ هـ / ٦١٣ ـ ٦٩٢ م).

(١١٠) الورقة ١٢٧ أ من المخطوطة . ويلاحظ ان النظرة الحسنة للخياطين ظلت سائدة حتى الفترة المعاصرة . بل من الاحاديث الموضوعة « عمل الابرار من الرجال الخياطة ومن النساء الغزل » .

انظر القاسمي : قاموس الصناعات الدمشقية ج ١ ص ١٣١ .

(١١١) قاموس الصناعات الدمشقية . ج ١ ص ٨٧ .

(١١٢) الورقة ١٢٧ ب من المخطوطة .

(١١٣) ويلقب بابي زكريا . من أئمة الحديث ومؤرخي رجاله ، عاش ببغداد ١٥٨ ـ ٢٣٣ هـ/ ٧٧٥ ـ ٨٨٤ م .

انظر حول ترجمته : وفيات الاعيان ج ٥ ص ١٩٠ . الترجمة ٧٦٢ .

(١١٤) هو يوسف بن حسن بن أحمد بن عبد الهادي الامام المحدث جمال الدين الشهير بابن المبرد الصالحي الحنبلي (٨٤٠ ـ ٩٠٩ هـ/١٤٣٦ ـ ١٥٠٣ م) . ومع ان الغالب عليه علم الحديث والفقه ، الا انه شارك في النحو والتصوف والتفسير . وله مؤلفات كثيرة . وقد الف تلميذه « ابن طولون » في ترجمته مؤلفا ضخما حسب تعبير النجم الغزي . (انظر ترجمته في نجم الدين الغزي . الكواكب السائرة في اعيان المائة العاشرة . تحقيق جبرائيل سليمان جبور ٣ أجزاء بيروت ـ جونيه ـ حريصا ١٩٤٩ ـ ١٩٥٩ ج ١ ص ٣١٦) .

(١١٥) الورقة ١٢٨ أ .

(١١٦) الورقة نفسها .

(١١٧) الورقة ١٢٧ ب .

(١١٨) الورقة ١٢٨ ب .

(١١٩) الورقة ذاتها .

(١٢٠) الورقة ١٣٠ أ .

(١٢١) الورقتان ١٣٠ أ ـ ١٣٠ ب .

(١٢٢) الورقة ١٢٩ أ .

(١٢٣) انظر هامش (١١٤) من هذه الدراسة .

(١٢٤) الورقة ١٢٦ ب من المخطوطة .

(١٢٥) الورقة نفسها .

(١٢٦) وتلقب بام محمد (٧٢٣ ـ ٨١٦ هـ /١٣٢٣ ـ ١٤١٣ م) . سيدة المحدثين بدمشق في عصرها ، وبها ولدت وتوفيت . وقد قرأ عليها ابن حجر وروى عنها . انظر في ترجمتها : السخاوي : الضوء اللامع لاهل القرن التاسع ١٢ جزءا مصر ١٣٥٣ ـ ١٣٥٥ ج ١٢ ص ٨١ .

(١٢٧) خديجة بنت عبد الكريم بن محمد الارموي الدمشقي . محدثة سمعت على عائشة بنت ابن عبد الهادي . وحدثت هي بدورها واجازت المؤرخ المعروف السخاوي ، وقرأ عليها ابن طولون نفسه . توفيت ما بين ٨٩٥ ـ ٨٩٦هـ/١٤٨٩ ـ ١٤٩٠ م . اعلام النساء ج ١ ص ٣٣٥ ـ ٣٣٦ .

(١٢٨) زينب بنت احمد بن عبد الرحيم بن عبد الواحد المقدسية . محدثة جليلة ولدت سنة ٦٤٦ هـ/١٢٤٨ م ، وسمعت من محمد بن عبد الهادي وجماعة كثيرين ، كما سمع عنها كثيرون . اعلام النساء . ج ١ ص ٤٦ .

(١٢٩) W. Heyd, op. cit. T. I. P. 179.

(١٣٠) لقد كان من ضمن التعليمات التي زودت بها « شركة الليفانت » الانكليزية السفير الانكليزي الاول في القسطنطينية عام ١٥٨٢ ، وكذلك عملاءها الاول في اسكالات الدولة العثمانية ، ومنها بلاد الشام ، ان يتعرفوا على جميع المواد الصباغية المستخدمة ، أكانت اعشابا او نباتات ، أو خشبا ، أو ثمارا ، أو بذورا ، أو مواد معدنية . وأكثر ما كان يهمها اللون الازرق الذي اشتهرت بالصباغة به دمشق وحماة ومصر . بل انها طالبت سفيرها بان يحضر « النيلج » الذي يصبغ به بهذا اللون الى بريطانيا بذرة او جذرا .

— R. Hakluyt, The Principal Navigations, Voyages and Traffiques
— & Discoveries of the English nation...London. S. D. Vol. III. P. 90 — 93.
— Heyd, op. cit, I, P. 171, 178 — 179

(١٣١)

(١٣٢) لقد جاء في أحد تقارير قناصل البنادقة في بداية النصف الثاني من القرن السادس عشر بان في حلب وحدها (٥٠٠٠) نول تصنع المخمل والساتان .

— Segonia, Relazione del Console Lorenzo Tiepolo (1560 — 1562) Venezia 1857 P. 39.

وان هذا العدد قد تزايد الى ثلاثة أمثاله فيما بعد ، وان حلب كانت تصنع أنواعا عديدة من الاقمشة الحريرية وان الصناعة النسيجية الحريرية للابس الترف قد تنامت ، فصنعت ذلك النسيج ذا اللون الواحد ، أو المشجر ، الذي تزينه خيوط الذهب والفضة،ويبلغ ثمن الذراع منه (٢٠٠) قرشا ، وكان له سوق نافقة في استامبول

Sauvaget, Alep, Essai sur le développement d'une grande ville Syrienne des origines au milieu du XIXesiècle Paris 1941. P. 203. n. 751.

ـ وان مدينة حمص كانت تقوم بنسج المناديل من الحرير الابيض والاصفر والاحمر ، تلك المناديل التي كان لها شهرتها في جميع انحاء الدولة العثمانية .

— P. Belon de Mans , Observations des plusieurs singularités et choses Mémorables trouvées en Grèce, Asie, Indes, Egypte, Arabie. Paris 1588, P. 155.

ـ وان دمشق في مطلع النصف الثاني من القرن السابع عشر كانت تعج بمصانع المخمل بنوعيه السوي والمحفور ، وبالساتان ، والتافتاه ، والدمقس ، والبروكار ، والمخير (الموار) ، وغيرها من الاقمشة الحريرية ، الموحدة والمخططة ، وبمناديل الحرير

D'Arvieux op cit, vol 11. P. 463

(١٣٣) لقد كان في دمشق انواع لاتحصى من الاقمشة القطنية ، قد يكون اهمها المنسوجات البيضاء والزرقاء التي لم تكن أقل قيمة عن المصنوعات الحريرية .

Ibid, et vol. I. P. 338.

وكذلك كان لها صناعتها النسيجية القطنية ـ الحريرية .

A. Ismail, Documents. . . . vol III. P. 196.

وهذه المنسوجات القطنية البيضاء والزرقاء استوردتها انكلترا في بداية عملها التجاري في بلاد الشام واطلقت عليها اسم البوتان . Botans .

Sir William Roster, The Travels of John Sanderson in the Levant, London 1931. P. 131.

ـ وكان لحلب كذلك مصنوعاتها القطنية الغليظة المزهرة التي تدعى « بالعجمي » « والكلي » و « الحموي » . وكانت تصدر الى اوربا ، والى قطالونيا وساحل اسبانيا بصفة خاصة Sauvaget, Alep. P. 203 ويبدو ان هذه الصناعة قد نمت خلال القرن التاسع عشر ومطلع الثامن عشر بدليل الاستهلاك المحلي لخيوط الغزل القطني التي كانت تستوردها اوربا،وزيادة عدد المصانع في حلب . Ibid.

ـ وفي حماة كانت تصنع كميات من المناشف والشراشف والمنسوجات القطنية البيضاء والزرقاء ، وهي أدق وأفضل مما كان يصنع في بعلبك ، واكثر عرضا واغلى ثمنا ، وكان يطلق عليها اسم « الحموي » وكانت تصدر الى اوربا عبر طرابلس .

D'Arvieux, vol II, P. 443 — Pietro della valle, Les fameux voyages (tr). Paris M.DC.LXIV P. 180 — Mantran et Sauvaget, op. cit. P86—87

ـ وفي حمص كانت تنسج الشراشف من القطن Belon de Mans, op. cit. P. 155

ـ كما اشتهرت بعلبك بصناعتها القطنية الراقية منذ العهد المملوكي ، وأطلق على نسيجها الخاص اسم « البعلبكي » . ولقد اشير اليه سابقا عند الحديث عن الوثيقة . ويبرز في الوثائق العثمانية التي نظمت الضرائب في ولاية دمشق في منتصف القرن السادس عشر ، على أنه أحد الصادرات الى اوربا من دمشق ، الى جانب منسوجات أخرى كالخام « والاستار » .

انظر : Mantran & Sauvaget, op. cit. P. 29.

ولقد ظلت بعلبك على شهرتها هذه فعندما زارها « الفارس دارفيو » في النصف الثاني من القرن السابع عشر بين ان عددا كبيرا من سكانها كان يعمل في النسيج القطني ، الذي كان يصدر الى دمشق وطرابلس . Vol. II P. 441

ـ هذا ، وقد كان يصنع قرب صيدا أيضا نوع من النسيج القطني المسمى بـ : «الديمة Démites » ويشبه البازان ، وتصنع منه القمصان الداخلية. انظر ما ذكره حوله محمد كرد علي في خطط الشام ج ٤ . ص ٢٠٢ . وكذلك اقمشة تدعى أقمشة الجبل A. Ismail, op. cit. Vol III. P. 196.

٠١٥٦٧٩

ـ وتشير الوثائق أيضا الى ان صناعة نسيجية قطنية كانت تقوم في « برجا » في لبنان ، ويصدر منها الى مرسيليا في فرنسا .

— A. Ismail , Histoire du Liban du XVIIe siècle à nos jours T. I — (1590 — 1633). Paris 1955 . P. 137.

ـ بل ان القدس والله كانت لهما كذلك منسوجاتهما القطنية الخاصة التي كانت تسمى باسميهما .

— A. Ismail, Documents.... Vol III. P. 196.

(١٣٤) انظر الهامش السابق (١٣٣) . ويضيف القاسمي ان استيراد اوربا للمنسوجات الشامية (دون تحديد لنوعها) استمر حتى اواخر القرن الثامن عشر ، ويستدل بوثيقة تملكها شركة الغزل والنسيج في حلب وترجع الى عام ١٧٩٨ (قاموس الصناعات النسيجية . المقدمة ج ١ ص ٣١) .

(١٣٥) Vandal, op. cit, (annexe) . Lettre de M. Nointel à M. de pomponne. Seide, 28 Juin 1674.

(١٣٦) لقد اكد الرحالة « ساندز » الانكليزي في مطلع القرن السابع عشر ان دمشق معروفة بصناعها الماهرين .

Sandys Travels. London 1615. P. 165.

ـ والحت شركة الليفانت على عملائها بتتبع اخبار الصناعة النسيجية ، وملاحظة جميع أنواع المنسوجات ومستويات اتقانها بل انهم اذا استطاعوا الحصول على صانع فني يؤتى به الى انكلترة في كل من ميداني الصناعة الحريرية والصوفية فليؤت به.

— Hakluyt, op. cit. vol. III P. 90 — 93.

أما الاتقان في الصناعة الغزلية ، فيشهد على ذلك أولا الاستيراد الاوربي الواسع للقطن المغزول من بلاد الشام بدل القطن الخام خلال القرن السابع عشر بصفة خاصة . وثانيا تصريح قنصل فرنسا في صيدا « لامبرور » بأنه « لا يمكن ابدا في فرنسا غزل الاقطان بالشكل الذي تصنع به في هذا البلد (صيدا) أي أن تكون بيضاء ، ورخوة ورفيعة الخيط كما هي عليه هنا .... واذا ما أريد غزلها بهذا الشكل الجميل ـ وهذا مستحيل ـ فان سعرها يصبح في فرنسا أغلى ٤٠ ٪ مما لو أخذت من هذا البلد . ويضيف بان الانكليز والهولنديين يأخذونها كلها اذ يعدون مشروعات لاقامة مصانع كبيرة في بلادهم » .

— A. Ismail, Documents. vol. P. 25

(١٣٧) Mantran & Sauvaget, op. cit. P. 64.

(١٣٨) A. Ismail, loc, cit. P. 196.

— Voyage du sieur Paul Lucas au Levant. Paris . D. CC. IV. P. 309

(١٣٩) Sauvaget , Alep .... P. 203. n. 751.

وقد استند « سوفاجه » الى :

Venetien Anonyme, Description de la ville d'Alep (1556) publiée en traduction par CH. Scheffer, à la suite de son édition du voyage du M. d'Aramon (P. 249 — 255). P. 254.

(١٤٠) انظر هامش (٥٩) من هذه الدراسة .

(١٤١) انظر هامش ٨٤ من هذه الدراسة .

(١٤٢) لقد استند في ذلك الى ما ذكره « ميلر » في كتابه Alep. P. 223 — 224 Péregrinus in Jerusalem. Vienne et Nuremberg 1735. P. 653.

(١٤٣) Islamic Society and the West. 2 parts. London New - York Toronto. 1957 — Part I. P. 297 n. 6.

مستندا الى ما ذكره

Blumeneau, F. W, Statistisch — geographish — topographische Beschreibung von Agypten 1793 — P. 306.

نـــص

مخطوطة ابن طولون

ضوء السراج فيما قيل في النساج*

ملاحظات على خط ابن طولون واملائه في المخطوطة

مقدمـــة :

ان القارىء لخط ابن طولون ، يلاحظ ما يلي ، وهذه الملاحظات لن يشار اليها ثانية في هوامش المخطوطة لانها عامة ومكررة :

١ ــ اسقاط الهمزة دائما ، أجاءت في أول الكلمة أو وسطها أو آخرها . فكلمة (امرأة) يكتبها (امراة) وكلمة (دناءة) (دناة) ، وكلمـــة (النســاء) (النسا) . وكذلك الكساء ، والقباء ، وغيرها كثير .

وعندما ترد في وسط الكلمة ، ومكسورة ، ومحمولة على نبرة فانه يحولها الى « ياء » : فكلمة (بطائن) تصبح لديه (بطاين) مثلا .

٢ ــ اسقاط حرف (الالف) من أسماء الاعلام التي تنتهي بألف ونون. فاسم (سليمان) يكتبه (سليمن) ، وعثمان ، والنعمان ، وغيرها يتبع فيهـــا الامر نفسه ، بل ان اسم (الحارس) أورده دون الف في الوسط وجعله (الحرث) .

٣ ــ يضع ثلاث نقط مقلوبة (٧) فوق حرف (السين) ، بينمـــا يجعلها عادية فوق (الشين) .

٤ ــ وهناك تشابه في رسم حرف (الدال) ، و (الراء) ، واللام الاخـــيرة .

٥ ــ ينقط تارة الباء في آخر الكلمة وتارة يسقط التنقيط .

٦ ــ لايضع اشارة التنوين فوق الالف .

٧ ــ يكتب كلمة (صلاة) على الشكل الدارج آنذاك (الصلوة) .

٨ ــ لاترقيم فيما كتب ابن طولون ، أي لاترك نقطة أو فاصلة . الا انه وضع اشارة (ســـ) فوق الكلمـــة التي تبدأ بفكرة جديدة . وقد تكون من لون حبر آخر الا ان الصورة الشمسية لاتوضح ذلك .

ملاحظات حول الاخراج الجديد للمخطوطة :

١ ــ لقد اتبع في اخراج المخطوطة النمط الجديد في الاملاء ، لتكون واضحة للقارىء المعاصر .

٢ ــ اضيف بعض ترقيم لحسن قراءة المخطوطة .

٣ ــ وضع في الجانب الايمن من الصفحة رقم صفحة المخطوطة في المخطوطة نفسها ، اشارة ([ ) لبداية الصفحة .

٤ ــ ان مختلف الشروح قد وردت في « التعليق على المخطوطة » ، الذي ورد في الصفحات السابقة .

ضوء السراج فيما قيل في النساج

تأليف العلامــة الشمس محمد بن علي بن طولون الصالحي

رحمه الله تعــالى

[١٢٦ ب]

بسم الله الرحمن الرحيم ـ الحمد لله كافي المحتاج والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه والازواج . وبعد فهذا تعليق سميته بضوء السراج فيما قيل في النساج . وهو قال الجوهري مأخوذ من نسج الثوب ينسجه وينسجه نسجا ، والصنعة نساجة ، والموضع منسج . والمنسج بكسر الميم الاداة التي مد عليها الثوب ، ومنسج الفرس أيضا أسفل من حاركه(١) . ونسجت الريح الربع ، اذا تعاورته ريحان ، طولا وعرضا . وفلان نسيج وحده ، أي لانظير له في العلم وغيره . وأصله في الثوب اذا كان رفيعا لم ينسج على منواله غيره . ويقال للنساج الحائك من حاك يحوك حياكة فهو حائك والجمع حوكة وحياكة وحاكة . وحاك الثوب يحوكه حوكا وحياكة . وأما الحديث الاثم ما حاك في الصدر وكرهت ان يطلع عليه الناس فهو قريب من الاول ، أي حصل في الصدر . يقال حاك الامر في نفسه يحوك حوكا .

وأنواع الحياك كثيرة : احدها حياك القطن فمنهم من ينسج البطائن كالنباطية ، ومنهم من ينسج المتوسط كأهل بعلبك ، ومنهم من ينسج الرفيع العال كأهل الموصل ، ومنهم من ينسج الثياب الملونة كأهل الكرك ، ومنهم من ينسج العمائم ، ومنهم من ينسج الأزر ، ومنهم من ينسج اللحف ، وأحسن من ينسج هو لاهل اليمن . وقد تنسج العمائم والأزر بدمشق وخصوصا بمحلة قبر عاتكة خارجها . الثاني حياك الكتان فمنهم من ينسج الأبيض وأحسنه بدمشق ، ومنهم من ينسج الازرق المصمت الذي يقال له السمط ، ومنهم من ينسج الملون كالظهور ، ومنهم من ينسج الكتان والحرير كالتفاصيل وأحسن ذلك كله بمصر . الثالث حياك الحرير فمنهم من ينسج عمل الدار ومنهم من ينسج الهرمزي ، ومنهم من ينسج اللباسات ، ومنهم من ينسج مناديل النساء ، ومنهم من ينسج القمصان لهن(٢) ، ومنهم من ينسج الكمخة(٣) ، ومنهم من ينسج المخمل ، ومنهم من ينسج النيل في النجيل ، ومنهم من ينسج الأطلس ، ومنهم من ينسج الرش ، وأنواعه كثيرة جدا . ومنهم من يعمل الحرير وحده ، ومنهم من يعمل القطن والحرير ، ومنهم من يعمل الحرير والكتان ، ومنهم من يعمل الحرير والذهب ، ومنهم من يعمل الحرير والفضة ، وغالب ذلك انما يكون للنساء . الرابع حياك المناشف . الخامس حياك العبي . السادس حياك

الصوف . وغالب ما يعمل ببلاد الفرنج ، ومنه الصوف المعروف الذي يجلب من الروم ، ومنه المختم ، ورأيت من يصنعه بدمشق ، ومنه المغربي وهو من صوف وحرير . والسابع حياك البسط فمنهم من يعمل الزلية ، ومنهم من يعمل الكركية(٤) ، ومنهم من يعمل عمل الشريف ، وغالبا تجلب من الروم،وقد تجلب من مصر ، وقد تصنع بدمشق . الثامن حياك البلاسات . التاسع حياك النوارات ، فمنهم من يعمل التي تلبس من الوبر ، ومنهم من يعمل التي للاخراج ، ومنهم من يعمل التي للحزم ، ومنهم من يعمل التي للعذارات الى غير ذلك . العاشر حياك الزوامل . الحادي عشر الحباكون . الثاني عشر حياك الجوخ ، وانما يصنع ببلاد الفرنج . ورأيت من يحاكيه من القطن لكن ليس في حسنه وماويته . الثالث عشر عمال الحصر . فمنهم من يعمل بالقش الفليظ ، ومنهم من ينسج القش الملون الى غير ذلك . الرابع عشر المناخلية . الخامس عشر الغرابلية . قال شيخنا الجمال بن المبرد ولو حصرت أنواع أقسام الحياك لزادت على الف نوع وليس ثم صنعة من الصنائع تتفرع الى اكثر منها ، وعليها مدار اكثر الخلق . انتهى . ولكن في عرفنا انما ينصرف لفظ الحائك لمن ينسج القطن والكتان . ومن آلاته المطواة وهي التي يطوى عليها ماينسج [١٢٧ آ]

ويقال [في جمعها مطاوي . وقد تقدم انه يقال لها المنسج ، وهو يحتاج اليها في كل ما ينسج . والمكوك هو الذي ينسج به وتوضع فيه الماسورة ، ويحدف به ، والدف وهو الذي يركب على المشط يكون من خشب . والمشط فيه يلزم به الخيطان وقد يثقل بالرصاص ، والماسورة وهي قصبة يلف عليها الخيط الذي يحاك به ، ولها حديدة نحو المسلة تدخل فيها ، ويوضع طرفها الواحد في أسفل المكوك ورأسها في فرض في أعلاه ، ويحبس عليها بريشة(٤) ، وقد ينظر (٥) الحائك الى صبي يعمل فوقه في عمل آخر .

وقد دعت مريم عليها السلام على الحوكة فيما أخبرنا ابو المحاسن يوسف بن حسن بن عبد الهادي من لفظه (أنا) الرحلة البرهان بن ناصر الباعوني اجازة ومناولة (أنا) أبو الفضل عبد الرحيم بن العراقي الحافظ (أنا) أبو محمد البلخي ح وقال شيخنا و (أنا) عاليا جدى (أنا) الصلاح ابن ابي عمر قالا (أنا) الفخر بن البخاري عن ابي جعفر الصيدلاني (أنا) ابو علي الحداد (أنا) احمد بن محمد (أنا) أبو الحسن الكلابي (ثنا) زكريا (ثنا) عبد الصمد (ثنا) عبد العزيز (ثنا) سويد بن نصر (ثنا) ابن عيينه عن موسى بن ابي عيسى قال : خرجت مريم تطلب عيسى عليه السلام فمرت على قوم حوكة فارشدوها لغير الطريق فقالت توّه الله

عقولكم ، فلا يرى حائك الا متوه العقل . ومرت(٦) على قوم خياطين فارشدوها للطريق فذهبت فوجدته ، فقالت بارك الله فيكم ودعت لهم ، فلا يرى خياط الا قد قعد اليه الناس واستانسوا به .

قلت ويعضد ذلك ما في كتاب الفردوس ، عن ابي امامة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، انه قال لاتستشيروا الحاكة ولا المعلمين ، فان الله تعالى سلب عقولهم . وقد جاء في قول الله عز وجل « واتبعك الارذلون » انهم الحاكة فيما اخبرنا ابو العباس احمد بن حسن الصالحاني ، بقراءتي عليه بمسجد الكوافي بها . (انا) ابو عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن جوارش (انا) أبو بكر محمد بن عبد الله الحافظ اخبرتنا زينب بنت الكمال ح وشافهتني عاليا أم عبد الرزاق خديجة ابنة الزين الارموية ، عن أم محمد عائشة بنت محمد بن الزين عن زينب بنت الكمال (انا) عبد الرحمن بن مكي (انا) جدي ابو طاهر السلفي (انا) ابو بكر محمد بن علي الخباز (انا) أبو عبد الله الجمال (ثنا) القاضي ابو بكر (ثنا) احمد بن عبد الله (ثنا) جعفر بن النضر الواسطي (ثنا) يعقوب بن ناصح (ثنا) حماد السمرقندي وعباد بن كثير عن أبي نوفل ، عن مقسم ، عن ابن عباس ، في قوله « واتبعك الارذلون » قال الحياكون . قلت وذكر البغوي عن عكرمة انهم الحاكة والاساكفة .

وقد جاء ان صحبة الحائك شؤم فيما اخبرنا البرهان ابراهيم بن قاسم الدمشقي من لفظة (انا) ابو العباس احمد بن البدر العدوي (انا) ابو عمر محمد بن احمد بن قدامة ح وشافهني عاليا ابو الحسن علي بن محمد الصوفي عن أبي عمر محمد بن احمد بن قدامة عموما (انا) ابو الحسن السعدي (انا) ابو المجد الثقفي (انا) ابو عبد الله الخلال (انا) ابو صادق الفقيه (انا) ابو الفرج القطان (ثنا) ابو سعيد الزعفراني (انا) ابن النعمان (ثنا) ابراهيم (ثنا) محمد بن يقطان (ثنا) علي بن حماد (ثنا) ازهر عن ابن عون عن ابن سيرين قال : الحائك في النوم سفر فيه خيبة ، وفي اليقظة صحبة فيها شؤم . وقد جاء ان الحاكة رأس كل فتنة فيما اخبرنا الفتحي محمد بن محمد المزي بقراءتي عليه بها (انا) ابو الخير بن محمد بن محمد المقبري (انا) الصلاح بن ابي عمر ح وانباني عاليا الشيخ علي بن أبي عبد الله المكشوف عن الصلاح بن أبي عمر عموما (انا) الفخر المنصوري (انا) أبو المجد الثقفي (انا) أبو عبد الله الخلال (انا) أبو صادق الفقيه (انا) ابو الفرج القطان (انا) ابو سعيد الزعفراني (ثنا) أحمد بن عبد الله (ثنا) ابراهيم بن عبد الله (ثنا) محمد الربعي (ثنا) محمد بن علي (ثنا) شريك عن شيبة بن نعامة عن خالد ان رجلا قال

لعبد الله بن عمر ، لم تخلفت عن علي ياابا عبد الرحمن ، قال اعرابي انت ، [١٢٧ ب]

قال نعم : قال [ما صناعتك قال أحوك ، قال اشهد على عمر انه قال أقل الناس الحاكة وراس كل فتنة وأصل كل بلية .

قال نعم ، قال [ما صناعتك قال أحوك ، قال اشهد على عمر انه قال أقل العباس أحمد بن أبي بكر المقدسي الاصل الصالحي بقراءتي عليه (انا) أبو الفرج عبد الرحمن بن يوسف بن قريج (انا) ابو عبد الله محمد بن أحمد العمري ح ونبأني عاليا أبو الحسن علي بن علي الدمشقي عن أبي عبد الله محمد بن أحمد العمري عموما (انا) ابو الحسن علي بن أحمد بن عبد الواحد (انا) أبو المجد الثقفي (انا) ابو عبد الله الخلال (انا) أبو صادق الفقيه (أنا) أبو الفرج القطان (أنا) ابو سعيد الزعفراني (أنا) ابو بكرالواسطي (ثنا) مضر بن محمد (ثنا) أبو حبيبة عمرو بن هشام (ثنا) عثمان بن عبد الرحمن عن علي بن عروة ، عن عبدالملك ، عن نافع ، عن ابن عمر ، قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : العرب بعضها لبعض أكفاء قبيل بقبيل ورجل برجل . والموالي بعضها لبعض أكفاء قبيل بقبيل ورجل برجل الا حائك أو حجام . قلت قد اختلف العلماء في الحائك هل هو كفو لبنات ذوي المروّات وأصحاب الصنائع الجليلة كالتجارة ونحوها فيزوج من بناتهن أم لا . وهذا مبني على أصل وهو ان الكفاءة هل هي شرط في النكاح أملا ، فذهب الاكثر الى انها ليست بشرط ، وهو مذهب عمرو بن مسعود ، وعمر بن عبد العزيز ، وابن عون ، وابن سيرين ، وحماد بن ابي سليمان ، وعبيد بن عمير . وذهب سفيان الثوري وغيره الى ان الكفاءة شرط لصحة النكاح . وعند مالك والشافعي واحمد ، هي معتبرة في الاسلام فقط . وعن أحمد في النسب أيضا ، وعنه في الصنائع أيضا ، قال لو كان الزوج حائكا فرقت بينهما ، لقول عمر رضي الله عنه لأمنعن تزوج ذوات الاحساب الا من الاكفاء . قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية لان ذلك نقص في عرف الناس، فاشبه نقص النسب. قال وقد جاءفي الحديث،العرب بعضهم لبعض أكفاء الا حائكا أو حجاما وهو حديث ضعيف . قيل للامام أحمد وكيف تأخذ به وانت تضعفه ، قال العمل عليه يعني انه ورد موافقا للعرف . وفي وجه للشافعية تعتبرفي المال والسلامةعن العيوب وعن محمد لاتعتبر اباتة(٧) الا ان كان يسخر به . وعن ابي يوسف ان كان معلنا بالفسق فغير كفو ، وان كان متسترا فهو كفو . وعن ابي حنيفة أنه لاتعتبر حرفة أصلا ، لانه يمكنه التحول منها . وعن ابي يوسف مثله الا ان(٨) تفحش كالحجام والحائك والدباغ(٩) فعلى هذا لاتزوج بنت تاجر لحائك .

والمختار قول ابي حنيفة لان دناءة الصنعة لاتنقص الانسان ولاتحطه عن رتبته فانها ليست بلازمة فاشبهت الضعف والمرض .

وقد انشدنا أبو زكريا يحيى بن محمد الدمشقي الحنفي عن أم محمد عائشة بنت محمد بن عبد الهادي قالت اخبرتنا أم عبد الله زينب بنت احمد بن الكمال ، أنبأنا أبو الحجاج يوسف بن خليل الدمشقي (انا) ابو نزار ربيعة بن الحسن الحضرمي (انا) ابو القاسم المعداني (انا) سليمان ابن ابراهيم وعبد الرزاق بن أبي طاهر قالا (انا) الجرجاني سمعت أبا العباس الاصم يقول سمعت العباس الدوري يقول سمعت يحيى بن معين يقول ، قال رجل من الشعراء :

الا انما التقوى هي العز والكرم وحبك للدنيا هو الذل والندم
وليس على عبد تقي نقيصة اذا صح التقوى وان حاك أو حجم

ونظير هذا الاختلاف الاختلاف في شهادته ، فذهب أكثر أهل العلم الى قبول شهادته ، وانه كغيره في العدالة وغيرها ، لان الصناعة لاتزيل عنه العدالة . وذكر أبو الخطاب من الحنابلة وجهين في قبولها . وذكر جماعة منهم هل تقبل شهادته مع حسن طريقته فيه وجهان فقال بعضهم لافائدة [١٢٨ آ]

في قولهم مع حسن طريقته | لان من طريقته ليست بحسنة لاتقبل شهادته ولو لم يكن حائكا فحينئذ لافائدة في ذلك ، فان كل الخلاف مع حسن الطريقة وكل الفرق بينه وبين غيره معها أيضا . ومع قبح الطريقة لافرق بينه وبين غيره . وقال بعضهم بل في ذلك فائدة وهي ان مستور الحال اذا لم يكن حائكا تقبل شهادته ، واما الحائك فلا تقبل شهادته مع حسن طريقته ولابد من معرفة حسنها . واختار الشيخ موفق الدين بن قدامة منهم انها تقبل واختاره في الترغيب . ولهذا تعلمها الامام أحمد بن حنبل ، قال ابن الجوزي في مناقبه ربما احتاج فنسج باجرة . وكان فقيه الحنابلة الشيخ تقي الدين بن قندس يحوك القطن ، وكان المحدث شهاب الدين ابن زيد منهم يحوكه ، وكان زاهد عصره الشيخ علي بن عروة منهم ينسج العبي . وكان اخونا شيخهم الشهاب الشويكاني يحوك . وكان الناس يرغبون في ما يصنعونه . قال شيخنا الجمال بن المبرد انها من فروض الكفايات ، وهي صنعة فضيلة ، لان حاجة الناس الى الصنعة تدل على فضلها ، وكلما كثرت الحاجة اليها كان فضلها أكثر . ولاشك ان الحياكة يحتاج اليها كل أحد ، الحي والميت ، الذكر والانثى ، الادمي ، وغيره من الحيوانات التي تحتاج الى لبس . فان قيل ايه أفضل أنواعها قيل أفضلها حياكة القطن لانه لبس الحي والميت، ثم الصوف لانه لبس الاغنياء والفقراء،

والاحرار والعبيد ، والرجال والنساء والادميين والدواب. ثم الكتان(١٠) لكثرة الانتفاع به بعد ذلك . وارداها الحرير والذهب والفضة ونحو ذلك ، مما هو مختص بالنساء . وقل ان ترى(١١) احدا ممن ينسج ذلك الا وهو منزوع البركة وعليه الدين(١٢) . وارى ذلك لمعنيين الاول ان ذلك قاصر النفع فانه من أمور النساء والثاني ان صنعتهم تحتاج مع الرجل الى صبي يخلو به ويغلق عليه وعليه الباب وتبقى سيقانه عند رأسه وهذا امر محرم بلا ريب انتهى . ثم المتخذ منه المنسوج القطن وهو نبات من قسم الاشجار يكون له ورد ثم جوز يكون فيه القطن . والكتان وهو نبات يتشجر ويؤخذ قشره بمشط ويعمل منه الكتان . والقنب وهو قريب منه الا انه اغلظ ، ويتخذ منه الحبال وربما ينسج منه العدول ومثله يتخذ من الخبازاء . والحرير وهو يؤخذ من دود القز ، والصوف وهو يؤخذ من الغنم على اختلاف انواعه ، والشعر وهو يؤخذ من المعز ، وأذناب الخيل ونحوها ، والوبر وهو يؤخذ من الجمال ، والذهب والفضة وهما يؤخذان ويجعلان سبائك ثم يمدان حتى يصلحا للنسج بانفسهما او مع الحرير ، ثم تغزل هذه الاشياء الغزالون والغزالات . قالت حسن جارية الامام أحمد : جاءتني امراة من جيراننا وقالت قد جمعت مالا من العلف واريد ان احج ، فقال أبو عبد الله لايحج به ، ليس هاهنا احل من الغزل . وقال عبد الله بن احمد جاءت مخة اخت بشر بن الحارث الى ابي ، فقالت اني امراة راس مالي دانقان(١٣) اشترى القطن فأردنه ، فأبيعه بنصف درهم فأتقوت بدانق من الجمعة الى الجمعة . فمر ابن طاهر الطائف ومعه مشعل ، فوقف يكلم اصحاب المصالح فاستضأت(١٤) ضوء المشعل فغزلت طاقات ، ثم غاب عني المشعل فعلمت ان لله في ذلك مطالبه فخلصني خلصك الله . فقال لها تخرجين الدانقين وتبقين بلا رأس مال حتى يعوضك الله خيرا . قال عبد الله فقلت لابي يابت لو قلت لها لو اخرجت الذي ادركت فيه الطاقات ، فقال ياصبي سؤالها لايحتمل التأويل . قال من هذه قلت مخة اخت بشر بن الحارث . فقال من هاهنا أتيت . وقال عبد الله بن أحمد أيضا **[١٢٨ ب]**

كنت مع أبي يوما من الايام في المنزل فدق [داق الباب فقال لي اخرج فانظر من بالباب قال فخرجت فاذا امراة قالت استأذن لي على ابي عبد الله تعني اباه ، قال فاستأذنت ، فقال أدخلها قال فدخلت فسلمت عليه ، وقالت له ياابا عبد الله انا امراة اغزل بالليل على السراج ، فربما طفىء السراج ، فأغزل في القمر ، فعلي أن ابين غزل القمر من غزل السراج ؟ فقال لها ان كان عندك بينهما فرق فعليك ان تبيني ذلك . قال ، وقالت له

يا ابا عبد الله انين المريض شكوى أم لا ، قال ارجو ان لايكون شكوى ولكنه اشتكاء الى الله تعالى . قال فودعته وخرجت . قال فقال لي يابني ماسمعت قط انسانا سأل عن مثل هذا ، اتبع هذه المراة فانظر اين تدخل قال فتبعتها فاذا قد دخلت الى بيت بشر بن الحارث ، واذا هي اخته . وقال المروزي ذكرت لابي عبد الله ميمونة بنت الاقرع ، فقلت له انها ارادت ان تبيع غزلها فقالت للغزال تعني الذي يبيع الغزل ، اذا بعت هذا الغزل فقل اني ربما كنت صائمة فأرخي يدي فيه ، ثم ذهبت ورجعت فقالت رد علي الغزل اخاف ان لاتبين ياغزال هذا . فترحم ابو عبد الله عليها وقال ، قد جاءتني وكتبت لها شيئا في غسل الميت .

وما احسن ما قرات على ابي المحاسن يوسف بن حسن الصالحي ببستانه بالسهم الاعلى بها ، قال قرات على النظام بن مفلح عن الحافظ ابي بكر بن المحب (انا) محمد بن محمود (انا) الفخر بن البخاري ح قال شيخنا و (انا) عاليا جدى عن الصلاح بن ابي عمر عن الفخر بن البخاري عن ابي طاهر الخشوعي (انا) ابو محمد السليمي (انا) الحافظ ابو بكر الخطيب البغدادي (ثنا) محمد بن عيسى انشدني أبو الفتح الاسكندراني قال انشدونا لبعض الحاكة :

سأجمع غـزل الهـوى كبـة فأنسـج للنـاس مـن كل فن

واسقي نبـات الهـوى ادمعي لانـي شـربت بكأس الحـزن

ثم من الغزل يعمل السدى واللحمة ، والسدى هو الذي يمد اولا ، واللحمة هي التي تحاك فيه بعد التسدية . قال الجوهري اللحمة بالضم القرابة ، ولحمة الثوب تفتح وتضم والملحم جنس من الثياب . وقال السدى المعروف من الثوب وهو خلاف اللحمة والسداة مثله ، وهما سدتان والجمع اسدية . وتقول منه اسديت الثوب واستيته . ويقال طلبت امرا فاسديته اي اصبته . انتهى . ويقال اسدى الامر اي احكمه . ويقال لمن يتقن الامر يسدي ويلحم . قال شمس الدين بن قيم الجوزية :

وتهدم ما تبني بكفك جاهدا فأنت مدى الايام تسدي وتلحم

والاغلب في النساج ان يكونوا رجالا وقد تنسج المراة . اخبرنا ابو بكر محمد بن ابي بكر بن ابي عمر الصالحي بقراءتي عليه (انا) ابو الحسن علي بن حسين النساج بقراءتي عليه (انا) ابو زكريا يحيى بن يوسف ابن زعيب ح وشافهتني عاليا أم عبدالرزاق خديجة ابنة عبد الكريم الارموية عن أم محمد عائشة ابنة محمد بن عبدالهادي قالا (انا) ابو العباس الحجار

(انا) ابو عبد الله الزبيدي (انا) ابو الوقت السجزي (انا) أبو الحسن الداودي (انا) ابو محمد السرخسي (انا) أبو عبد الغربري (انا) ابو عبد الله البخاري (ثنا) يحيى بن بكير (ثنا) يعقوب بن عبد الرحمن عن ابي حازم قال سمعت سهل بن سعدقال جاءت امرأة ببردة قال اتدرون ما البردة فقيل له نعم هي الشملة منسوج في حاشيتها ، قالت يارسول(١٥) الله اني نسجت هذه بيدي أكسوكها فأخذها النبي صلى الله عليه وسلم محتاجا اليها ، فخرج الينا وانها ازاره . فقال رجل من القوم يا رسول الله أكسنيها قال نعم فجلس النبي صلى الله عليه وسلم في المجلس ، ثم رجع فطواها ، ثم ارسل بها اليه . فقال له القوم ما أحسنت سؤلتها(١٦) اياه لقد علمت انه لايرد سائلا(١٧) ، فقال الرجل والله ما سألته الا لتكون

[١٢٩ آ]

كفني يوم [أموت قال سهل فكانت كفنه . وان(١٨) حيوانا (قد)(١٩) ينسج غير الآدمي كالعنكبوت فانها تنسج كنسيج الحائك ، تسدي وتلحم ، ومنه ما تصنعه بيتا لها ومنه ماتعمله(٢٠) شبكة تصيد به الذباب(٢١) وغيره . أو كدود القز فانها تنسج نسجا متينا تعمله بيتا تسكن فيه ثم تخرج منه ، ومن نسيجها ذلك يكون الحرير .

ومن رأى في المنام انه يحوك ، فان كانت الشقة الممتدة بين يديه طويلة فهو سفر بعيد لقوله عز وجل ولكن « بعدت عليهم الشقة » ، وان كانت قصيرة فهو سفر قريب . وان رأى المسافر ان شقته قد انقطعت أو زالت فان سفره قد انتهى . وان رأى ذلك من عزم على السفر ، فان سفره يبطل ، وان رآه من ليس له سفر فهو أجله قد حضر . ومن رأى بين يديه شقة بيضاء يحوكها فهو سفر صالح ، وان كانت سوداء فهو سفر نكد وتعب ، وان كانت ملونة فسفره فيه تخليط . والثياب البيض في النوم ان لبسها فهو شعار الدين والصلاح وان كانت بين يديه فخير يساق اليه . والقميص بشارة ، لقصة يعقوب عليه السلام . وطول القميص دين وعلم ، ومن تحرق ثوبه نال مالا من امرأة ، وان تفتق طلق امراته . وشق الثوب فرج للهموم ، ومن قد قميصه من قبل قيل فيه كلام ليس ببرىء منه ، وقده من دبر براءة من كلام . والثياب الخضر في النوم لبسها يدل على دين ونسك، والثياب السود للمعتاد، بها سؤدد، ولغير المعتاد حزن ، وقيل مصيبة ، وقيل موت قرابة أو حبيب . والازرق من الثياب لايحمد، لانه لون من لون اهل النار . قال الله تعالى «ونحشر المجرمين يومئذ زرقا» وثياب الحداد حزن ، وأجود الملابس الجديد الصفيق . والصوف محمود لقوله « ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها اثاثا ومتاعاً الى حين » . والاحمر

مذموم لانه لبس قارون ، يدل على تجبر وتكبر ، واختيال . والاصفر من غير الحرير مرض ، وعندي أن الاصفر سرور لقوله تعالى « صفراء فاقع لونها تسر الناظرين » . وقيل ان الاحمر والاصفر من الحرير زينة وكذلك للنساء ، وقيل انها في يوم العيد زينة الكرام . والبرود دين وخير ، ولبس الازار والرداء يدل على احرام . ومن رأت انها تزوجت بحائك فانها تتزوج بزوج ليس بكفو . ومن رأى أنه يسدي فهو يسدي أمراً ، ومن رأى أن غيره يسدي وهو يلحم فانه مصلح لعمل غيره .

ثم المنسوج يصير الى أنواع الاول البرد . أخبرنا ابو عمر يوسف بن حسن الصالحي بقراءتي عليه (انا) أبو حفص عمر بن السليمي البعلي بقراءتي عليه بها (انا) أبو الفرج بن الزعبوب ح وكتب الي عاليا ابو عبد الله محمد ابن احمد المصري منها ، عن أم عائشة بنت محمد بن الزين قالا ان الشهاب أحمد بن ابي طالب ابن نعمه (انا) الحسين بن المبارك (انا) عبد الاول بن عيسى (انا) عبد الرحمن بن محمد (انا) عبد الله بن أحمد (انا) محمد ابن يوسف (انا) أبو عبد الله البخاري (ثنا) اسماعيل بن عبد الله حدثني مالك عن اسحق بن عبد الله بن ابي طلحة عن أنس بن مالك قال كنت أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعليه برد نجراني غليظ الحاشية ، فادركه أعرابي فجبذه بردائه جبذة شديدة حتى نظرت صفحة عاتق رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اثرت فيها حاشية البرد من شدة جبذته . ثم قال : يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك . فالتفت اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ضحك ، ثم أمر له بعطاء .

الثاني الجلباب وبه الى البخاري (ثنا) ابو اليمان (انا) شعيب عن الزهري ، أخبرني عروة بن الزبير ان عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت : جاءت امرأة رفاعة القرظي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا جالسة ، وعنده ابو بكر ، فقالت يارسول الله اني كنت تحت رفاعة [١٢٩ ب]
فطلقني فبت [طلاقي وتزوجت بعده عبد الرحمن بن الزبير وانه والله مامعه يا رسول الله الا مثل هذه الهدبة ، واخذت هدبة من جلبابها ، فسمع خالد بن سعيد قولها ، وهوبالباب لم يؤذن له . فقال خالد ياابا بكر الا تنهى(٢٢) هذه عما تجهر به عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال والله مايزيد رسول الله صلى الله عليه وسلم على التبسم ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لعلك ان ترجعي الى رفاعة تريدين ، لا حتى يذوق عسيلتك وتذوقي عسيلته .

الثالث الجبة وبه اليه (ثنا) قيس بن حفص (ثنا) عبد الواحد

(ثنا) الاعمش ، حدثني ابو الفيحي حدثني مسروق ، حدثني المغيرة بن شعبة ، قالا انطلق النبي صلى الله عليه وسلم لحاجة ، ثم اقبل فتلقيته بماء فتوضأ وعليه جبة شامية ، فمضمض واستنشق وغسل وجهه ، فذهب يخرج يديه من كميه ، فكانا ضيقين . وفي رواية فضاق كم الجبة فأخرج يديه من تحت فغسلهما ، ومسح برأسه ، وعلى خفيه .

الرابع الثوب ، وبه اليه (ثنا) اسماعيل حدثني مالك عن نافع عن ابن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لاينظر الله الى من جر ثوبه خيلاء .

الخامس الازار ، وبه اليه (ثنا) احمد بن يونس (ثنا) زهير (ثنا) موسى بن عقبة عن سالم بن عبدالله عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله اليه يوم القيامة ، فقال ابو بكر رضي الله عنه ان احد شقي ازاري يسترخي الا ان اتعاهد ذلك منه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لست ممن يفعله خيلاء .

السادس الرداء وبه اليه (ثنا) عبدان (انا) عبد الله (انا) يونس عن الزهري ، اخبرني علي بن الحسين ان حسين بن علي اخبره ، ان عليا قال فدعا النبي صلى الله عليه وسلم بردائه فارتداه(٢٣) ثم انطلق يمشي واتبعته انا وزيد بن حارثة حتى جاء البيت الذي فيه حمزة ، فاستأذن فأذن لهم .

السابع السراويل . وبه اليه (ثنا) أبو نعيم (ثنا) سفيان عن عمرو وعن جابر بن زيد عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من لم يجد ازارا فليلبس سراويل ، ومن لم يجد نعلين فليلبس خفين .

الثامن المنديل وبه اليه (ثنا) ابراهيم بن المنذر حدثني محمد بن فليح حدثني ابي عن سعيد بن الحارث عن جابر بن عبد الله ، انه سأله عن الوضوء مما مست النار ، فقال لا قد كنا في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم لانجد مثل ذلك من الطعام الا قليلا ، فاذا نحن وجدنا لم يكن لنا مناديل الا اكفنا وسواعدنا واقدامنا ، ثم نصلي ولانتوضأ .

التاسع الحلة ، وبه اليه (ثنا) اسحق (ثنا) ابن شميل (انا) عمرو بن ابي زايدة (انا) عون بن ابي جحيفة عن ابيه أبي جحيفة ، قال رايت بلالا جاء بعنزة فركزها ، ثم اقام الصلاة فرايت رسول الله(٢٤)

صلى الله عليه وسلم جاء في حلة مشمرا ، فصلى ركعتين الى العنزة ، ورايت الناس والدواب يمرون(٢٥) بين يديه من وراء العنزة .

العاشر الكساء . وبه اليه (ثنا) مسدد (ثنا) اسماعيل (انا) ايوب عن حميد بن هلال ، عن ابي بردة قالا اخرجت الينا عائشة رضي الله عنها كساء وازارا غليظا ، فقالت : قبض روح رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذين .

الحادي عشر القباء وبه اليه (ثنا) قتيبة بن سعيد (ثنا) الليث عن ابن ابي مليكة عن المسور بن مخرمة انه قال : قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم اقبية ولم يعط مخرمة شيئا ، فقال مخرمة يابني انطلق بنا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانطلقت معه ، فقال ادخل فادعه لي قال فدعوته له فخرج اليه وعليه قباء منها ، قال خبأت هذا لك ، قال فنظر اليه فقال رضي مخرمة .

الثاني عشر القميص وبه اليه (ثنا) قتيبة (ثنا) حماد عن ايوب عن نافع عن ابن عمر ان رجلا قال يارسول الله ما يلبس المحرم من الثياب ، [١٣٠ آ]
فقال النبي صلى الله عليه وسلم لايلبس المحرم القميص ولاالعمامة [ولا السراويل ولا البرنس (ولا الخفاف الا احد لايجد النعلين فليلبس الخفين وليقطعهما اسفل من الكعبين(٢٦)) . قلت وقد ذكر ابن كثير ، وغيره من اهل التاريخ ، أن عمر لما قدم الشام اتسخ قميصه ، فقال : ادعوا لي رئيس القرية فدعي له ، فقال : اغسلوا قميصي واعيروني قميصا البسه فأتوه بقميص كتان فقال : ماهذا ، فقالوا كتان فأبى ان يلبسه فقيل له انه لابأس به فلبسه حتى غسل قميصه ورده ، واخذ قميصه . وفي رواية انه امتنع منه حتى اتي بقميص القطن فلبسه .

تنبيه . قد تقدم ذكر عدة من الحنابلة انهم حوكة ، ومن الشافعية ابو بكر بن عبد الله الموصلي الشافعي نزيل دمشق . قال « ابن حجر » في « أنباء الغمر في أنباء العمر » اشتغل بالفقه والحديث ، ونظر في كلام الصوفية ، مات بالقدس في شوال سنة سبع وتسعين وسبعمائة ، وقد جاوز الستين . قال ابن حجي قدم من الموصل وهو شاب فكان يتكسب من الحياكة ، ويشتغل في اثناء ذلك بالعلم ، ويعاشر الصوفية . ولازم الشيخ قطب الدين مدة ، وادمن النظر في الحديث ، فعلق بذهنه شيء كثير منه ، ثم اشتهر أمره ، وصار له اتباع ، وعلا ذكره ، وبعد صيته وتردد اليه الاكابر ، وحج مرارا ، ثم اتصل امره بالسلطان ، فبالغ في

تعظيمه ، وزاره في داره بالقدس ، وصعد اليه الى العلية ، وامر لـــه بمال فابى ان يقبله . وكان يكاتب السلطان بالشفاعات الحسنة فلا يرده . وكان الشهاب الزهري ممن يلازم حضور مجلسه ، ويبالغ في تعظيمه ، وكذلك الشيخ شمس الصرخدي. ومن طريقه ان لايعامل أحدا ، ولايأكل(٢٧) بعضهم لبعض شيئا ولا لغيرهم . وكان يتكلم على الناس فيبدي الفوائـد العجيبة والنكت الغريبة . وكان يشتغل في التنبيه ومنازل السائرين . وكان ولده عبد الملك يذكر عنه انه قال : كنت في المكتب ابن سبع سنين فربما لقيت فلسا أو درهما في الطريق فانظر اقرب دار فاعطيهم اياه ؛ فأقول لقيته قرب داركم . له نثر ونظم . ومنهم علي بن ايوب الماحوزي الشافعي الزاهد ، كان يسكن بقرب باب عاتكة وينسج بيده ، ويباع ما ينسجه بأغلى(٢٨) ثمن فيتقوت منه هو وعائلته ، ولايرزا أحدا شيئا ، وكانت له مشاركة في العلم . قال لابن حجي هو عندي خير من يشار اليه بالصلاح في وقتنا . مات في عاشر ربيع الاخر سنة ثلاث وثمانمائة ، وللناس فيه اعتقاد زائد ، ويذكر عنه كرامات ومكاشفات وكان طلق الوجه، حسن العشرة . انتهى . قلت وانشدني ولد ولده شهاب الدين اهـداء كاتب الانشاء ، بحلب الزين عمر بن ابراهيم الرهاوي :

وحائك يخلفـه بدر الدجى(٢٩) وجهـا ويحكيـه القنـا قـدا
فينسـج اكفانـاً لعشـاقـه من غزل(٣٠) حفة(٣١) وقد سدا

غريبة(٣٢) . ومن حوادث سنة سبع وثلاثين وثمانمائة انه احصي من في الاسكندرية من الحاكة فوجد فيها نمانمائة نول وكان ذلك وقع في سنـة سبع وتسعين وسبعمائة فبلغوا اربعة عشر الف نول بمباشرة جمال الدين محمود الاستدار ونحو هذا ان كتاب الجيش احصوا قرى مصر قبليها وبحريها فبلغت عدتها الفين ومائة وسبعين قرية وقد كان بعض القدماء في أوائل دولة الفاطميين حصر عدتها في عشرة آلاف .

وما احسن ما قال المعين يحيى بن سلامة الحصكفي في الحاكة :

القـوا حبـالا وعصيـا لهـم
واسترهبوا الناس بسـحر عظيم

ومـا اتـوا في فعلـهم منكـرا
ولا ارادوا كيـد مـوسى العليـم

مشـــوا وعـــادوا هـــــرولا

تعدها هرولة الحجاج عند الحطيم

يفتقـــر النـــاس اليهـــم

وقد آمن منهم معشـــر في القديم

لكن أخبرنا أبو البقاء محمد بن أبي بكر العمري (انا) أبو الوفـــا ابراهيم بن محمد الحلبي ، عن الصلاح محمد بن أحمد بن أبي عمر عن الفخر علي بن البخاري السعدي (انا) ابو محمد اسعد بن ابي طاهر الثقفي **[١٣٠ ب]** كتابة (انا) أبو محمد جعفر عبد الواحد الثقفي (انا) أبو طاهر | محمد بن أحمد بن عبد الرحيم (انا) أبو الشيخ(٣٣) (ثنا) علي بن ميثم(٣٤) (ثنا) ابراهيم بن محمد(٣٥) (ثنا)(٣٦) عثمان بن عبد الرحمن (ثنا) أبو عبيدة الحداد، عن بحر السقاء، قال ثلاثة(٣٧)لايؤخذ عنهم العقل: المعلم للصبيان(٣٨) والحاكه والمكارى . وبه الى أبي الشيخ (ثنا) عبد الله بن محمد بن زكريا (ثنا) محبوب بن سعيد (ثنا) أبو المعدل عن زكريابن أبي زايدة عن الشعبي قال عدل عقل امرأة بعقل سبعين حائكا وعدل عقل حائك بعقل سبعين معلما وقال سليمان بن حرب (ثنا) حماد بن زيد عن أيوب عن ابن سيرين انه كره الرجل الصلاة في الثوب الذي يمرده(٣٩) الحائك وقال انه اذا لم يجـد الماء بال في الاردان بذلك . وقال جابر عن يزيد بن مرة عن سويد بن غفلة قال الحائك ملعون . ثم أنشدنا شيخنا لبعضهم :

تجنب صحبـة الانـــذال تنجـو

تصحبك السلامة في افقه تائك(٤٠)

فجـزار ونخـاس وعبـــد

وشره لص(٤١) وحجـام وحائـك

أولئـك ستة لا خير فيـهم

ومن يبغ الزعاف يصـل أولئـك

ولابن مروان الاندلسي ، واجاد في مليح حائك غزيل :

لـم تـزل في الغـزل جائلة

بنانـه جولان الفكر في الغزل

تظـل تلعب بالمكـوك انملـه
على السدا لعب الايام بالامل

جذبا بكفيه وفحصاً بأخمصه
تخبط الظبي في اشراك محتبل

للشيخ زين الدين بن الوردي فيه ايضا(٤٢) :

الاغيـد النسـاج اجفـانـه
تنظر وجدى وهي مكسورة

قـد بعـدت شقـة هجرانـه
والنفس في كفيـه ماسـورة

آخر فيـه :

عبرت بالامس عـلى الحائـك
كالبدر في كفيـه ماسـوره

ولـم ارح الا وروحي بمـا
عاينت في كفيـه ماسـورة

الحـــواشـــي

* تحقق ونشر لاول مرة .

(١) أعلى الكاهل .

(٢) في الاصل (لهم) .

(٣) وردت في الاصل (الكمحة) .

(٤) قد تكون (الكدكية) ، وهي كالكركية لم يعثر على شرح لها .

(٤) الكلمة غير واضحة تماما في الاصل .

(٥) وردت ينضر ، وكأن ابن طولون يكتب حرف (الظاء) (ضادا) .

(٦) تبدو في الاصل (ومررت) .

(٧) اختـــلاف .

(٨) وردت في الاصل الان .

(٩) في الاصل الدباع .

(١٠) في الاصل الكتاب .

(١١) في الاصل (تر) .

(١٢) في الاصل (أر) .

(١٣) في الاصل دانقين .

(١٤) في الاصل فاستضيبت .

(١٥) في الاصل (يرسول) . وتكرر هذه الظاهرة الاملائية كلما وردت ياء النداء مع (رسول الله) .

(١٦) في الاصل (سالتها) .

(١٧) في الاصل (سايل) .

(١٨) (وان) غير واضحة في الاصل ، ويبدو ان نقطة ماء سقطت عليها فازالت حرف النون منها .

(١٩) (قد) غير واضحة ابدا في الاصل للسبب المذكور آنفا .

(٢٠) شبكة : تبدو مشوهة للسبب نفسه ، وقد رسمت وكانها (شبلة) .

(٢١) الذباب : في الاصل (الذبان) .

(٢٢) في الاصل (تنها) .

(٢٣) في الاصل (فارتدا) وزيدت (الهاء) لاكمال المعنى .

(٢٤) (الله) ساقطة في الاصل .

(٢٥) تبدو (يميرون) في الاصل ، أو (يصيرون) .

(٢٦) ورد الحديث مشوشا في الاصل ، ويبدو أن ابن طولون أثناء تبييضه له أسقط منه . فقد جاء في الاصل : (الا اذا لم يجد الخفين فليلبس اسفل من الكعبين) فقط . والتصحيح من : صحيح مسلم . بشرح النووي ، ١٨ جزءا القاهرة ج٨ ص ٧٣ .

(٢٧) تبدو كذلك (يأخذ) ، الا ان (يأكل) أقرب الى الرسم ، والمعنى .

(٢٨) في الاصل (بأغلا) .

(٢٩) في الاصل (الدجا) .

(٣٠) في الاصل (عزل) .

(٣١) حفة : وردت في الاصل غير واضحة . وقد رسمت على شكل حف . والحفة هي الخشبة التي يلف عليها الثوب .

(٣٢) من هذه الكلمة وحتى ختام المخطوط يبدو الخط متغيرا قليلا . انه خط المؤلف ، الا ان الكلمات اكبر ، واقل تراصا .

(٣٣) هنا كلمة مطموسة وغير واضحة . وقد تكون (بن حيان) نسبة أبي الشيخ .

(٣٤) غير واضحة تماما في الاصل .

(٣٥) قد تكون عمر ، ومن الصعب تحديدها ضمن الاسانيد اذ هناك ابراهيم بن محمد وابراهيم بن عمر ، كلاهما يمكن ان يسند اليه .

(٣٦) كلمة ناقصة مطموسة وغير واضحة في الاصل .

(٣٧) في الاصل (ثلثه) .

(٣٨) غير واضحة في الاصل .

(٣٩) يلين خيطه ويصقله .

(٤٠) تائك : أحمق .

(٤١) مشوهة في النص وغير واضحة .

(٤٢) ان الجزء التالي كله بخط غير خط ابن طولون ، ويبدو أنه مضاف من قراء النص .

الوثائق العثمانية المتصلة بسورية ودمشق *

نجاة غويونج
(جامعة استانبول)

بعد الفتح العثماني لمدينة دمشق عام ١٥١٦ الحقت مدينة دمشق – التي عرفت آنئذ باسم « دار السلام » والتي كانت من أهم المراكز في العالم الاسلامي – بالامبراطورية العثمانية واصبحت لفترة من الوقت « بايلربيلكيه » (Beylerbeylik) أو ولاية عامة يحكمها وال عام ضمت ضمن رقعتها جميع سوريا والاردن ولبنان وفلسطين وحتى عددا من المدن الواقعة في جنوبي الاناضول(١) . وفي أواخر القرن السادس عشر أعيد تنظيم بعض السناجق مثل سنجق طرابلس وحلب وغيرهما ليصبح كل منهما « بايلر بيلكية » وهذا ما أدى الى تقلص رقعة ولاية دمشق . وفي القرون التي تلت شهدت ولاية دمشق تعديلات ادارية أخرى . وبالرغم من هذه التغييرات ظلت دمشق دوما احدى أهم العواصم الاقليمية في الامبراطورية العثمانية .

ومما يشهد على أهمية دمشق هو أن برنامجا مدروسا للبناء تم تنفيذه في المدينة بدءا من حكم سليمان القانوني . ففي عام ١٥٥٥ شاد المهندس المعماري سنان جامعا جميلا «وكلية» أو مجموعة من الابنية خارج الابواب الغربية للمدينة على ضفاف بردى ، وهي مايعرف بالتكية السليمانية التي استخدمت كمتحف حربي(٢) منذ عام ١٩٥٧ . ومن بين المنشآت العثمانيةالهامة التي مازالت قائمة والتي شيدت في هذا القرن يمكننا أن نذكر جامع الدرويشية(٣) وخان الحرير اللذين بناهما درويش باشا بين عامي ١٥٧١ و ١٥٧٢ وجامع السنانية الذي شاده سنان باشا(٤) عام ١٥٨٤ . ويصف السياح الذين زاروا مدينة دمشق في القرن السادس عشر أحياء المدينة السكنية بانها كانت مزودة بالماء تزويدا جيدا ، ويشيرون الى بساتينها الواسعة والجميلة . ومن جهة اخرى نراهم يمتدحون جوامعها وحماماتها التركية التي اعتبروها أروع من مثيلاتها في استانبول والقاهرة(٥) . ومن الاثار المعمارية الاخرى التي شيدت في القرن السادس عشر خان محمد باشا حيث أقام السائح يوهان ويلد (Johann Wild)

---

* قام بترجمة المقال عن الانكليزية فلك وحيد دويدري .

الذي زار المدينة في اوائل القرن السابع عشر وذكر انه شغل غرفة منفردة بينما قضى التجار الاتراك ليلتهم مثنى وثلاثا في الغرفة الواحدة(٦) .

ولما كانت دمشق في القرن السادس عشر تشغل مركزاً هاماً على طريقي الحج والتجارة لذا افادت التقارير بأنها امتلات بالشركات التجارية(٧) ، واشتهرت بشكل خاص بالحرير والمجوهرات والبهارات والمنتجات المعدنية . وقد اطلق اسم دمشق على منتوجاتها كما ورد في الدستور العثماني المعاصر(٨) . وتصف تقارير الرحالة لهذه الفترة ايضا كيف ان قوافل الجمال ، المحملة بالفاكهة المصدرة والتي بلغت القافلة الواحدة منها عدة مئات من الجمال ، سافرت من دمشق الى القاهرة(٩) .

ونظرا للدور الذي لعبته دمشق كمركز اداري هام وكمحطة على طريق الحج والتجارة نرى الارشيف التركي مليئاً بالوثائق الهامة والقيمة التي تتعلق بالتاريخ الاجتماعي والاقتصادي لدمشق والمدن السورية الاخرى . وبالرغم من وفرة هذه الارشيفات التركية فاننا قلما نجد جيراننا السوريين ـ الذين يربطنا بهم الجوار ونكن لهم المودة ـ يستفيدون من هذه المصادر الهامة . وتقتصر الاستفادة من هذه المصادر على مؤرخي العرب الأوربيين الاجانب أمثال بروفسور لويس (Lewis) وبروفسور هوتروت(١٠) (Hutteroth) . لهذا أود أن اجلب اهتمام زملائي في هذا المؤتمر الرائع الى بعض النواحي في تاريخ دمشق في منتصف القرن السادس عشر المستخلصة من هذه المجموعة من الوثائق .

إن أهم مصدر عثماني منفرد لتاريخ بلاد الشام هو مايسمى « بدفاتر التحرير » (Tahrir Defters) ومن هذه الدفاتر يمكننا استخلاص معلومات مفصلة عن المدن السورية مثل دمشق وطرابلس وحلب وغيرها من المدن والقرى الأصغر حجما في الاقليم تتعلق بحجم السكان والضرائب والمؤسسات الدينية [الوقف] الى غير ذلك . وعلينا أن نشير الى أن نسخا عن كل الاوامر الرسمية الصادرة من استانبول الى الموظفين الاداريين في سوريا موجودة ضمن هذه المجموعة من « دفاتر المهمات » (Mihimme Defter) . اضف الى ذلك ان معظم اجراءات الديوان الهمايوني (Divani Hamayun) او مكتب الدولة السلطاني هي الاخرى ضمن مجموعة سلسلة « دفاتر الرؤوس » (Ruûs Defters) ، لذا تضمنت مادة قيمة تتعلق بالنواحي الاجتماعية والاقتصادية لتاريخ بلاد الشام . وعندما نقترب من العصر الحديث نلاحظ ان هذه الدفاتر ـ تمشياً مع التغييرات

العامة التي أثرت على النظام العثماني الاداري ـ تسجل باضطراد أوامر اقل أهمية . ففي قائمة منفصلة تغطي الفترة مابين ١٧٤٢ و ١٩٠٨ حفظت لنامجموعةمن الدفاترتسمىدفاتر «شام شريف» (Sâm - i Shérif Defters) تتعلق بالشكاوى الرسمية الواردة من دمشق والحلول المقترحة .

يتضمن أول هذه الدفاتر الواردة من طرابلس عام ١٧٤٢ القيود التاليـة :

آ ـ قيد حول خانيسمى «خان الاسرى» أحد أملاك المرحوم السلطان خاسكي (Haseki Sultan) والواقع في الحي اليهودي في طرابلس قرب المدابغ حيث كان يوزن جميع الحرير الوارد الى المدينة ، وفيه نرى أن جزءا من دخل الخان كان يرسل الى استانبول بينما أرسل الجزء الباقي الى وقف السلطان في القدس(١١) .

ب ـ قيد حول خان الجواهري والدكاكين التسعة عشر الموقوفة والملحقة به التي بناها المرحوم عصمان آغا والتي منح دخلها للفقراء في مدينتي مكة والمدينة(١٢) .

جـ ـ قيد يتعلق بتاجر دمشقي ـ كان ينقل أحمال تسعة جمال (١٨ كيساً) من البن في طريق عودته من الحج ـ اضطر بسبب رداءة الشتاء أن يتوقفمعالحجاج في قلعة قطران(١٣).

توضح مثل هذه الامثلة أهمية المعلومات التي تتضمنها مثل هذه الدفاتر حوال مواضيع : آ ـ الابنية في المدن السورية المختلفة . ب ـ عمل هذه الابنية من ناحية تجارية . جـ ـ التجارة بين سوريا والاقاليم التي تقع جنوبها .

وهناك أيضا دفاتر مماثلة تغطي السنوات ١٧٤٢ ـ ١٨٧٨ من تاريخ مدينتي حلب والرقة يبلغ تعدادها ٩ لحلب و ٢٥ للرقة . كما توجد اشارات لاحصر لها لابنية في دمشق ولما أجري عليها من اصلاحات وترميمات فيمجموعة تبلغ ٢٦٠٠٠ دفترا تعرف باسم «دفاترالماليةالمدورة» (Maliyeden Midevver Defters) ويمكننا هنا ان نذكر علىسبيل المثال قيداً يتعلق بامر صدر لاجراء اصلاحات على قلعة دمشق والجامع الاموي بعد الهزة الارضية المدمرة لكليهما تدميرا واسعا عام ١٧٦٥ (عام ١١٧٨ ـ ٩ للهجرة)(١٤) . وكما هو معلوم احترق الجامع الاموي بشكل كامل في حريق شب عام ١٨٩٣ .

وعند الاشارة الى « دفاتر التحرير » المحفوظة في ارشيف رئيس الوزراء في استانبول فلابد من ذكر الدفاتر رقم تد ١٢٧ (TD 127) و تد ٣٩٣ (TD 393) و تد ٦٠٢ (TD 602) و تد ٦٥٦ (TD 656) لمالها من قيمة كبرى لدراسة المؤسسات الدينية (الوقف) وبنيتها المالية في دمشق وسوريا عامة . وعلى سبيل المثال نجد في الدفتر رقم تد ١٢٧ (TD 127) الذي جمع عام ١٦٢٥ (٩٣٢ هجرية) اشارات عديدة ذات قيمة كبرى الى القرى والدكاكين والحمامات والبيوت وغيرها من الابنية التي جعلت وقفا على الجامع الاموي وجامع تنكز (Tengiziyye) وعلى مدارس « المرشدية » و « العزيزية » و « النورية » والتنريورمشية (Tanrivermisiyye) « والجقمقية » الى غير ذلك من مؤسسات مماثلة ، ومما لاشك فيه بان الاشارات الى هذه المؤسسات ـ التي وردت باللغة العربية في هذه الدفاتر وفي غيرها من السجلات ذات الطبيعة المماثلة من القرن السادس عشر بالاضافة الى تلك الملحقة بمؤلف ابن شداد(١٦) ـ ذات قيمة كبيرة جدا كمصادر لتاريخ سوريا وبلاد الشام .

وفي « دفتر التحرير المفصل » (Mufassel Tahrir Defter) للعام ١٥٤٨ (٩٥٥ هجرية) نجد معلومات واسعة مدرجة تحت العنوان « دار السلام محروسة الشام » تدور حول المواضيع التالية : آ ـ أحياء المدينة . ب ـ المكلفون بالضرائب والمعفون منها حسب أحيائهم . جـ ـ أسماء دافعي الضرائب . د ـ معلومات أخرى عن الحياة الاقتصادية للمدينة . وبناء على المعلومات الواردة في الدفتر نرى أنه في عام ١٥٤٨ زاد عدد سكان مدينة دمشق عن ٣٤٠٠٠ نسمة . كما نرى أن مسيحيي المدينة وعددهم ٣٠٠٠ ويهودها وعددهم ١٠٠٠ كانوا يعيشون في الضواحي الشرقية لباب شرقي وباب توما . وكان ستة من أحياء المدينة الثمانية والثلاثين تقع في الصالحية وأحدمنها خارج باب الجابية . أما أكثر الاحياء المسلمة كثافة فكان حي باب المصلى الذي بلغ تعداد سكانه ٣٠٠٠ نسمة وحي الميدان الذي بلغ أكثر من ٢٠٠٠ نسمة . وهناك عدة أحياء مسلمة تتصف بالصغر المتناهي وبقلة الكثافة في السكان ومن بين هذه الاحياء نذكر حي « مدرسة سعدي بك » وحي الجنك (Cinik) (ربما كان حي باب الجنك) (Bab - i Cinik) اذ بلغ عدد سكان كل منهما أقل من ١٠٠ نسمة . وكان حي يعرف باسم « الخراب » واحد من أكثر الاحياء اكتظاظا .

ويمكننا أن نقرر الانواع المختلفة لنشاطات مدينة دمشق الاقتصادية ومدى هذه النشاطات وذلك بالقاء نظرة على الارقام المعطاة عن دخول وعائدات السلطان أو « احتساب مقاطعة » (Ihtisab Mukataasi) في دمشق عام ١٥٤٨ . وتميل هذه الارقام الى تأكيد الانطباعات التي يعطيها الرحالة أمثال سلمون شويغر (Salomon Schweigger) ويوهان ويلد (Johann Wild) اللذين زارا المدينة بعد سنوات قليلة ، ففي عام ١٥٤٨ بلغ الدخل من « احتساب مقاطعة » دمشق وحدها ٦٠٠٠٠٠ « اقجة » (Akçes) بينما بلغ الدخل من ضرائب السوق من قوافل الحجاج ٤٥٠٠٠ « اقجة » وعندما نتذكر أنه في عام ١٥٥١ (عام ٩٥٩ هجرية) بلغ دخل « احتساب مقاطعة » السلطان بالاضافة الى باجخاناتها (ضريبة الخانات) (Bashane) ٣٣١٦٨٨ «اقجة» نستطيع أن ندرك وضع سوريا الاقتصادي عام ١٥٤٨ . وكان في مدينة دمشق أسواق للحيوانات والعبيد وتنظيمات نسيجية مترابطة مثل « ميزان الحرير » و « مصبغة القطن » ودار للضرب كانت تسك فيها العملة الذهبية والفضية . أضف الى ذلك أن المنتجات المعدنية كانت متطورة جدا . وكان هناك حدادون متجولون يتنقلون من قرية الى أخرى وسجلات تشير الى أن أعضاء هذه المجموعة من الحرفيين المتزوجين كانوا يدفعون ٦٠ أقجة في السنة بينما دفع العزاب منهم ٣٠ « اقجة » فقط .

وختاما أرجو أن أؤكد أن المواد الوافرة في الارشيفات التركية التي وضعتها باختصار في أعلاه يمكنها ــ اذا ما استفيد منها بشكل مناسب ــ أن تلقي ضوءا هاما على التاريخ الاجتماعي والاقتصادي لجارتنا سوريا وعاصمتها دمشق في القرن السادس عشر .

الحـــواشـــي

1 — Basbakanlik Arsivi (Hereafter : BA), Tahrir Defteri (Hereafter : TD), No. 998.

2 — H. Sauvaire, **La description de Damas,** JA, 1894 - 96, 9. series, VII, pp. 253; K. Wulzinger and C. Watzinger, Damascus.

3 — II. **Die islamische Stadt,** Berlin, 1924.

3 — H. Sauvaire, p. 260.

4 — H. Sauvaire, p. 262.

5 — Johann Wild, **Raissbeschreibungen eines Gefangenen Christen Anno 1604** (ed. Georg A. Narciss, annoted by Karl Teply), Stuttgart, 1964 p. 209.

6 — J. Wild, P. 208.

7 — Salomon Schweigger, **Ein newe Reyssbaschreibung auss Teutschland nach Constantinopl und Jerusalem,** Graz, 1964, p. 320.

8 — Omer Lütfü Barkan, **XV ve XVIinci asirlarda Osmanli Imparatorlugunda Zirai ekonominin hukukî ve malî esaslari,** Istanbul, 1943, p. 151, 159.

9 — J. Wild, p. 211.

10 — Bernard Lewis, **The Ottoman Archives as a Source for the History of the Arab Lands,** JRAS, October 1950, pp. 141 — 55; Wolf -Dieter Hütteroth and Kamal Abdulfattah, **Historical Geography of Palestine, Transjordan and Southern Syria in The Late 16th Century,** Erlangen, 1977 (Erlangen Geographische Arbeiten, Sonderband 5).

11 — BA, Sam-i Serîf Defteri, No. 1, pp. 7, 26 - 7, 101.

12 — BA, Sam-i Serîf Defteri, No. 1, p. 1.

13 — BA, Sam-i serîf Defteri, No. 1, p. 61.

14 — Muzaffer Erdogan, **Osmanli mimarisi tarihinin otantik yazma kaynaklari,** in Vakiflar Dergisi, VI (1965), p. 124, 129.

15 — R. Hartmann, **Sam,** Islâm Ansiklopedisi, XI, p. 306.

16 — **Al - à'làk al - hazîra fî zikr umarà al - sàm VA L - GEZIRA tàrih Madina Dimask,** ed Sàmi Dahhàn, Dimask, 1956.

وثائق البيع المثبتة في المحاكم الشرعية بدمشق

في القرن التاسع عشر*

أ. شيري فاتر
(جامعة كاليفورنيا)

ان اول من أشار الى اهمية سجلات المحاكم الشرعية كمصدر لكتابة تاريخ سورية أثناء الفترة العثمانية هو عبد الكريم رافق(١) ، وظهرت في الوقت نفسه نشرة رايموند « الصناع والتجار في القاهرة في القرن الثامن عشر »(٢) لتعطينا شرحا مفصلا ووافيا عن كيفية الاستفادة من هذا النوع من المصادر . وقد وضعت هذه الاعمال الرائدة سجلات المحاكم العثمانية أمامنا ، بكثرتها وتنوعها وغناها كمصدر من مصادر التاريخ .

ويهدف هذا البحث تسهيل استعمال المؤرخين لسجلات المحكمة الشرعية من خلال وصف طبيعة وثائق البيع المسجلة في دمشق ومحتوياتها ومفرداتها في الفترة الواقعة بين ١٨٥٠ ـ ١٨٨٠(٣) . وقد حصلت على نتائج تاريخية بالاعتماد على المعلومات الموجودة في وثائق البيع المتناثرة هنا وهناك، وانني اذ اعرض هذه النتائج أهدف الى غايتين : أولاهما شرح المعطيات التي أغنانا بها هذا المصدر لدراسة دمشق في القرن التاسع عشر والثانية : اثارة الانتباه الى ضرورة اعادة النظر في تصورنا لطبيعة ذلك الواقع . وسوف يجمل البحث الفوائد الكامنة في سجلات البيع مع بعض الملاحظات عن أنواع أخرى من الوثائق تحتويها سجلات المحاكم الشرعية .

توجد سجلات المحاكم العثمانية في دمشق في قصر العظم في سوق ساروجة(٤) تحت اشراف مديرية الوثائق التاريخية . وقد جمعت وثائق البيع لفترة منتصف القرن التاسع عشر في مجلدات يحتوي كل منها على خليط من السجلات بما فيها سجلات البيع ، والايجار والخصومات والقروض والدعاوى وبعض صكوك حصر الارث وكلها مدونة باللغة العربية.

ويذكر في بداية الكثير من المجلدات اسم المحكمة التي نظرت القضايا الموجودة فيه ، واسم القاضي المسؤول عن هذه المحكمة . وقد ظهر في هذه المجلدات ذات الشكل العام اسم المحاكم التالية : محكمة السنانية وتدعى أيضا ميدان العالية وتقع قرب جامع السنانية ، والمحكمة الكبرى

* قام بترجمة البحث عن الانكليزية السيدة عفاف سكر .

او البزورية في منطقة البزورية ، والمحكمة العوانيـة في الحـي المسـمى العوانية وتقع في جنوب سوق ساروجة حيث يمر شارع الثورة اليوم ، ومحكمة الباب العالية .

ويبدو للوهلة الاولى انه كانت هناك أربع محاكم فقط في دمشق في القرن التاسع عشر تحفظ فيها السجلات بالعربية ، ولكن المصادر الاخرى تشير الى انه كانت هناك محاكم كثيرة غيرها(٥) . فاما ان سجلات المحاكم الاخرى قد فقدت من المجلدات أو ان المجلدات التي تنقصها أسماء المحاكم، هي نفسها سجلات للمحاكم التي لم يرد ذكرها . وعلى كل حال فان البيوع في كل أحياء المدينة وضواحيها ممثلة بشكل جيد في المجلدات الموجودة(٦) .

وهناك شكلان آخران من المجلدات ، تلك التي دعيت بالقسـام (وهي مجلدات صغيرة فيها عدد قليل من البيوع) والمخلفات (سجلات التركات) ويبدو انها سجلت في محاكم معرفة جغرافيا على الرغم من انه لم يكن واضحا في أية واحدة منها سجلت .

هذه المجلدات التي ذكرت ماعدا مجلدات المخلفات تحتوي علـى سجلات بيع . فكل مجلد يحوي وثائق سجلت في سنة معينة أو في سنوات متتالية ذكرت على الغلاف وقد حفظت هذه المجلدات حسب تاريخ الوقائع. وبما انه يتوجب ان يكون في كل محكمة عدد من المسجلين فان وثائق البيع لسنة ما ، يمكن أن توجد في عشرة مجلدات أو عشرين مجلدا وربما وجدت وثائق تعود في تاريخها الى سنوات سابقة في مجلد لم يعنون باسمها . وليس مرد هذا خطأ في التسجيل وانما يبدو ان الوثائق وضعت في غير مكانها بطريق الخطأ فضلا عن أن التواريخ الموجودة على غلاف المجلد هي في بعض الاحيان غير صحيحة مما يعني أن بيوع سنة ما لم تكن مسجلة في المجلدات التي تعود الى السنة نفسها .

وقبل ان ننظر في محتويات سجلات البيع العائدة للافراد دعونـا نتأملها بكليتها . فالبيوع كانت نموذجا للصفقات التي تسجل غالبا في منتصف القرن التاسع عشر في المحاكم الشرعية الدمشقية ، ويتراوح عددها مابين (٨٠٠ ــ ١٦٠٠) في كل سنة ، ولقـد كانت مـع بعـض الاستثناءات ــ بيوعا لعقارات تقع في مدينة ومنطقة دمشق ومعظم هـذه تقريبا ٨٠٪ من كل البيوع في عام ١٨٥٠ ــ ١٨٦٥ و ٨٥٪ ممـا بعدهـا كان يقع في مدينة دمشق وضاحيتها الرئيسية الصالحية .

وتسجل وثائق البيع بشكل رئيسي انتقال العقارات المدينية بين اشخاص يعيشون في مدينة دمشق ، وكذلك بيوع العقارات الريفية التي كانت تجري في الغالب بين الدمشقيين ، وفي الحقيقة فان هذه السجلات هي سجلات للسكان القاطنين في دمشق وضواحيها أكثر مما هي لسكان المنطقة عامة . وقد سجل القليل من بيوع العقارات الريفية ، وتدلنا هذه الوثائق، خلافا لكل توقعاتنا ، ان الاراضي الخاصة الزراعية الريفية كانت تباع وتشترى خلال الفترة الواقعة بين /١٨٥٠ ـ ١٨٥٨/ مما يثبت ليس فقط وجود الارض الزراعية / الملك / في الريف وانما يثبت الاعتراف الرسمي بوجودها وبيعها .

يحسن أن نتساءل ماهي العلاقة بين قانون الاراضي وبين هذا النوع من الممتلكات ؟

ربما كان هذا القانون اعترافا متأخرا بنوع من الاعمال التجارية المعروفة جيدا . فقد وسعت الملكية الخاصة للاراضى ، التي كان وضعها كأراض خاصة غير معترف به ، ولذا فان الاراضي التي بيعت واشتريت قبل عام ١٨٥٨ كانت في الواقع كروما وبساتينا . والمفاجأة الثانية التي واجهتنا هي ان عددالممتلكات الزراعية من كل الانواع التي سجلت قد نقص بعد عام ١٨٦٠ ، ولم يظهر تأثير قانون الاراضي في سجلات بيوع الاراضي ـ على الاقل ـ في الفترة الواقعة بين ١٨٥٨ ـ ١٨٨٠ التي تشملها هذه الدراسة .

ومهما يكن فان العقارات المدينية تشكل القسم الاكبر من البيوع المسجلة وهي التي تهمنا هنا ، فماذا تمثل هذه العقارات في مجمل حركة انتقال الملكيات في المدينة ؟

كان يجري بيع /٨٠٠/ عقار في مدينة دمشق وضاحيتها الصالحية كل عام من مجمل /٢٧٠٠٠/ عقار هي البيوت والخانات والحمامات والطواحين والدكاكين والبساتين(٧) . وهذا يعني ان جزءا من ٢ر٧٥ بالمائة على الاقل من كل العقارات المباعة يسجل كل عام ، وفي بعض السنوات يقترب هذا الرقم من ٤ بالمائة . ومن الصعب ان نحصي عدد البيوع المدينية التي لم تسجل طالما ان سجل البيوع الريفية كان بوضوح غير كامل ويمكن أن نفترض ان العقارات المدينية غير مسجلة بكاملها كذلك . ومهما يكن فان هذا النقص لايقلل من فائدة البيانات لان اعدادها كبيرة لدرجة تكفي لاعطائنا صورة حقيقية عن طرق انتقال الملكية في دمشق .

واذا نظرنا في الوثائق نفسها . فاننا نجد قليلا من المشاكل التي تواجه الباحث الذي يفتش في السجلات اذ ان التفاصيل المعتدلة ولو انها اقل من أن تعطينا وصفا للوثائق المتعلقة بها ، الا انها توضح بعض هذه الوثائق . ومن المهم ان نذكر ان هناك استثناءات لكل الحقائق المذكورة في هذا البحث واغلبها يتمثل في حذف بعض المعلومات فاسم المحكمة كثيرا ما كان يحذف من أحد المجلدات ، وكذلك كانت تجمع وثائق من أكثر من محكمة واحدة في مجلد واحد . وهناك مشكلة اخرى تظهر خاصة للمبتدئين في استعمال هذه الوثائق . وهي الخط العربي الهزيل الذي كتبت به الوثائق في هذه الفترة ، على عكس الخط الجميل الواضح الذي كتبت به السجلات الحلبية في الفترة نفسها .

كان كل بيع مسجل مكتوبا بالشكل التقليدي مع بعض الاختلافات في بعض الاحيان ، فهو يبدأ باسم القاضي أو النقيب متبوعا بكلمة اشترى ثم اسماء المشترين ثم بيانات عن اصحاب المال الذي استعمل في الشراء (وغالبا مال المشتري وفي بعض الاحيان مال والد القاصر) ثم اسماء البائعين . وعندما كان يمثل المشتري او البائع بوكيل فان اسم الوكيل او الوكلاء (وكيل أو وصي على القاصر ، أو قيم على شخص متخلف عقليا) يسبق اسم الشخص أو الاشخاص الممثلين ، ثم يتبع ذلك ، التاريخ والمكان ، والشهود الحاضرين واسم المحكمة الذي يظهر على الصفحة الاولى من المجلد .

تحتوي الاسماء كثيرا من المعلومات التي تساعد في التعرف على المركز الاجتماعي للشخص ، فهي تظهر على الشكل التالي : (محمد بن أحمد بن عمر العطار) اسم الشخص (ذكر أم انثى) يليه اسم الاب وقد يليه اسم الجد ، منتهيا باسم الاسرة وهو مانريد الاشارة اليه ، ويرمز هذا الاسم الى مهنة او الى مكان جغرافي . ويكون اسم الاسرة في أبسط أشكال الاسماء واحدا من الادلة القليلة على شخصية الفرد، فما هي أهميته ؟ وهل يعطينا معلومات دقيقة عن الفرد ؟ وماهي ؟

ان اسماء الاسر المعروفة في كل الطوائف الدينية تميل لان تكون قد تجمدت ، ولم تعد لها أية علاقة مع المهنة الحقيقية لحاملها . فمثلا نرى ان افراد أسرة البيطار الدمشقية البارزة ليسوا الان اطباء بيطريين . ويحدث أن يبدل بعض افراد الاسر العريقة اسمهم في بعض الاحيان ليدللوا بذلك على التغييرات المهنية ، خاصة اذا كانوا من الافراد الاقل اهمية في

الاسر المعروفة . هذه التغييرات تزيد من صعوبة مهمة الباحث فيالتعرف على تركيب الاسر الدمشقية العريقة .

ويبدو أن تغيير اسم الاسرة كان يجري بين الاسر الاقل قوة وغنى ، مما يدفعنا الى القول ان أسماء الاسر غير العريقة تدل على المهنة الفعلية أو الاصل الحقيقي للفرد الذي يحمل هذا الاسم . ويؤيد هذا الاستنتاج الطريقة التي كتبت بها الاسماء في وثائق البيع . فعلى الرغم من ان اسما واحدا ، للاسرة يظهر في الاسم الثلاثي المركب ، فقد كانت تدرج في بعض الاحيان مهن مغايرة بعد الاسم الشخصي للفرد . وهذا يدلنا على ان ظهور مهنة ما يعني تغطية مهنة الاجيال الثلاثة ، كما يقودنا لان نستنتج ان ١٠٠ بالمائة تقريباً من العمال الذين ادرجت مهنتهم كاسم للاسرة قد اتبعوا مهنة آبائهم واجدادهم ... الا أن هذا المستوى العالي من الاستمرار المهني يصعب تحقيقه ، وتؤيدنا في هذا الشك بعض المصادر الاخرى من القرن التاسع عشر . ففي قائمة ادرجت فيها أسماء أشخاص معاقبين لاشتراكهم في مذابح عام ١٨٦٠ ، ذكرت مهنة الفرد الفعلية بشكل منفصل عن اسمه . وقد توافقت المهنة الفعلية مع المهنة التي ظهرت مباشرة بعد اسم الشخص المعاقب . فمثلا (عمر التمتين) بقال ، و (عمر اللحام) لحام ، وفي معظم الحالات ــ تماما كما هي الحال في وثائق البيع ــ فقد ادرجت مهنة واحدة فقط وكانت تتبع اسم الوالد . وفي كثير من الحالات يختلف اسم الاسرة هذا عن المهنة الفعلية للرجل المعاقب فمثلا (اويس) ابن اللحام هو بائع خضار ، واحمد بن عبد القادر البيطار هو مدير لخان ، ومن ناحية اخرى فان أحمد بن الكحال كان طبيب عيون مثل والده(٨) .

وعلى الارجح فقد كانت تحذف مهنة الجيل الاصغر في معظم الاسماء، وان كانت تختلف عن مهنة أبيه وجده . ولم يكن يقصد من أسماء المهن ، الاعلام عما يعمله الفرد تماما ، وانما يقصد بها التعريف بماهية هذا الفرد ، وبتعبير أصح ، التعريف بمن ينتسب اليهم الفرد بالاستدلال بمهنة أو أصل أحد الاشخاص الكبار المعروفين من الاسرة نفسها ، وهذا أكثر نفعا من معرفة الاشخاص الصغار والاقل شهرة .

وبما ان اسم الاسرة لم يكن يدل بالضرورة على مهنة الاجيال الشابة فان فائدته في تصنيف الاشخاص أصبحت محدودة . وينطبق هذا على أسماء الاسر التي تتصل بالمكان ، فاثبات الهوية بالنسبة الى مكان ما يدلنا على جد مهاجر منذ عدة قرون من أصل غير دمشقي ، ولكن ذلك لايعطي أية معلومات عن الاحفاد .

ومن حسن الحظ فقد اضيفت القاب اخرى الى الشكل التقليدي للاسماء تسمح لنا بتصنيفها في مجموعات اقتصادية اجتماعية مهمة ، فما هي هذه الالقاب ؟

ان الالقاب الاكثر شيوعا هي الالقاب المتوارثة مثل الافندي والاغا وتظهر بعد اسم كل فرد من اجيال الاسرة اذا ما ظهرت بعد اسم شخص ما. وبما أن لقب الآغا لايظهر مع لقب الافندي ، فقد وجد اللقبان للتمييز بين فئات مختلفة في المجتمع أكثر من وجودهما للتعريف بالمركز الاقتصادي والاجتماعي فيه وان دراسة كيفية استعمالهما في القرن التاسع عشر تساعدنا في فهم التمييز الذي يحدثانه .

ان عبارة الافندي تدل على شخص محترم غير عسكري ، تعرفه السجلات بانه يشغل مركزا رسميا في الحكومة العثمانية ، أو يشغل وظيفة دينية أو تعليمية غير حكومية ، وعندما كانت تذكر الوظائف الاختصاصية فهي من طبيعة دينية أو قانونية أو من الوظائف الادارية مثل شيخ الحارة ، وكان الاشخاص الملقبين بهذا اللقب ينادون بعبارات : (الشيخ) ـ الدرويش ـ الشريف ، ولهذه الالقاب جميعا صلة بالديانة الاسلامية . فبينما كان لقب الافندي يميز الطبقات العليا والوسطى عن الطبقة العاملة ، فقد كان يدلل على أن الشخص متعلم ولكنه لم يكن كذلك في دمشق في منتصف القرن التاسع عشر . فقد « وجد ليميز أهل المدن المتعلمين الذين يلبسون غالبا اللباس الاوروبي عن غيرهم من الطبقات الدنيا من ناحية ، وعن رجال الدين من ناحية أخرى »(٩) . ويظهر على الاغلب في أسماء المسلمين ونادرا ما كان يظهر بين أسماء غير المسلمين باعتبارهم وجوها دينية غير مسلمة .

أما اصطلاح آغا الذي يظهر أحيانا في الالقاب المركبة ، فقد كان يدل على وظائف اختصاصية عثمانية ادارية وعسكرية، وقد بحث غيب وبوين(١٠) في أهمية هذا اللقب في الدولة العثمانية ، وغايتنا هنا أن نستقصي معناه عندما يظهر وحيدا بعد الاسماء الشخصية ، كماهي الحال غالبا في سجلات البيع ، وعندما يستعمل بهذا الشكل ، فانه يشتمل على مفاهيم عسكرية ، وقد دلل بوين على ان هذا اللقب كان يطلق على الضباط الصغار صعودا حتى رتبة القائم مقام في جيش الدولة العثمانية الرسمي(١١) . وعلى كل فان معظم هذه الوظائف العسكرية العثمانية النظامية لم تذكر في وثائق البيع . وبامكاننا ان نستنتج فقط ان بعض الاشخاص الملقبين بالآغا كانوا

ضباطا نظاميين في الجيش العثماني دون ان نعرف من يكونون . ويمكن ان يدلنا هذا اللقب في دمشق على شخص استأجرته الحكومة يقود جماعات خاصة غير نظامية تتألف من متطوعين عسكريين(١٣) . ويعتقد ان اي قائد جماعة خاصة سواء اكانت تدفع له الحكومة أم لاتدفع ، كان يمكن أن يلقب بهذا اللقب منذ ان اخذت حالة الفرق العسكرية بالتذبذب من الرسمية الى غير الرسمية .

ولقد كان لقب آغا موروثا في أسماء القادة الاكراد العسكريين والاجتماعيين . لأن هؤلاء تراسوا القطعات غير النظامية (الميليشيات) التي استخدمت كقطعات حكومية بشكل متزايد منذ عام ١٨٦٠(١٣) واتخذ لقب آغا معنى قوياً عندما اطلق على هؤلاء القادة الاكراد ، غلب على معانيه المختلفة في دمشق ، وعليه فعندما يسأل الدمشقي في هذه الايام عن معنى كلمة /آغا/ فانه بدون خلاف سيجيبك بأنه لقب يطلق على الاكراد .

وقد أطلق هذا اللقب أيضا على بعض الاشخاص من غير الاكراد ، ففي سجلات المحكمة يظهر في أسماء السكان غير الاكراد في منطقة الشاغور والعمارة والميدان مثله في ذلك مثل ظهوره في أسماء الاكراد في الصالحية . وكان يدل على تجار أغنياء جدا ، لم يكونوا بالضرورة من القادة العسكريين، ولا كانوا جزءا من البيروقراطية العثمانية في المؤسسات الاسلامية الرسمية وغير الرسمية(١٤) . وعلى الرغم من انه يمكن ان يكون أجدادهم من القادة العسكريين ، وهؤلاء الاشخاص فانهم لم يكونوا يعرفون كأشخاص بارزين في نظام الامتيازات الاسلامية .

ويبدو أن لقب (آغا) كان يدل على غير المتعلمين خلافا لـ (الافندي)(١٥)، الذي يدل على المتعلمين ، ولكن هذا لاينطبق على وضع دمشق في الفترة التي ندرسها حيث كان لقب الآغا يطلق على أفراد أسر كردية عريقة وعسكريين متطوعين ، وعلى أفراد عرفوا انهم من التجار ، ومن غير المحتمل أن يكون كل هؤلاء من غير المتعلمين طالما أن هذه هي حالهم .

ولقد كان التمييز بين آغا و أفندي تمييزاً جوهرياً بين اسر عريقة دينية وغير دينية ، فقد كان يطلق لقب أفندي على أشخاص محترمين لهم صلة بالاسلام سواء أكانوا أشخاصا متعلمين أو وجوها دينية أو يشغلون وظائف غير عسكرية وهذا ممكن لأن ديانة الدولة العثمانية هي الاسلام . أما لقب آغا فيعرف به كل الاشخاص المهمين الآخرين سواء أكانوا معروفين

بامكاناتهم العسكرية أو المالية والذين لم يكونوا يستطيعون الوصول الى مكانة الافندي .

وبما ان هذه الالقاب وجدت بين اسماء المسلمين والدروز فقط ـ ماعدا بعض الاستثناءات الطفيفة ـ فقد كانت تميز بين المسلمين والدروز من جهة وبين الجماعات الدينية الاخرى من جهة ثانية . وقد أوجدت تمييزا جوهرياً بين الاشخاص الذين يحملونها والذين لايحملونها اذ انها تدل على ان للشخص مركزا مهما تكن طبيعتهيميزحامله عن جمهرةالدمشقيين التي تضم الصناع والعمال اليدويين الآخرين . ولم يكنالتمييز بين الاسر العريقة وغير العريقة واضحا وذلك لان هذه الالقاب كانت موروثة . فبينما يتمتع بعض الاشخاص الملقبين بها ، بقوى وامتيازات خاصة نرى الاخرين لايختلفون في الوضع الاقتصادي والاجتماعي عن أفراد الاسر غير المتميزة. ولايقلل هذا التقارب بين الوجهاء وغير المتميزين في التصنيف الاجتماعي من فائدة الالقاب . اذ يشعرنا كتاب المحاكم ان تسجيل هذه الالقاب فقط يوحي للمجتمع ان للاسرة وضعا خاصا اكثر تمييزا عن الاسر الاخرى غير المتميزة .

وهناك القاب اخرى في السجلات تعطينا معلومات اكثر دقة عن أفراد الاسر العريقة احدها لقب زادة ومعناها الحرفي « ابن الـ » وتستعمل بمعنى عظيم أو متميز ، وهو يتبع أسماء الاسر ذات الاهمية . وقد انتشر هذا اللقب كثيرا في الاسر المسلمة الدمشقية مميزا اياها عن الاسر غير العريقة التي لها الاسم نفسه والتي ارتقت الى الصفوف الاولى من الاهمية مؤخرا وكذلك عن الاسر التي ليس لها أصل عربي . ومن بين الالقاب التي تتبع الاسم الشخصي كان لقبا بك وباشا وكلاهما كان لقبا غير موروث يتبع اسم حامله الذي يشغل مركزاً حكومياً متخصصاً ، ويمكن للقب بك أن يورث لجيل واحد فقط ولشخص كان يدعى والده باشا . ويتطابق استعمال هذه الالقاب في سجلات البيوع مع النتائج التي وصل اليها الباحثون الآخرون(١٦) .

تتميز اسماء الاسر المسلمة العريقة وبعض الاسر غير المسلمة باثنتين أو ثلاث من صفات التبجيل مع بعضالاختلافبالتعبير مثل (قدوة الاماجد الامائل) التي تسبق اسم كل جيل على انفراد ، وكان عدد صفات التبجيل يعطي فكرة عن اهمية الفرد خاصة عندما لايرافقها اسم وظيفة حكومية أو دينية . فالالقاب التي تصف مهنة الفرد كانت تتبع صفات التبجيل

غالبا وتسبق مباشرة الاسم الشخصي ، فمثلا كان يوصف الشخص بانه واحد من الفقهاء (المشرعين القانونيين) أو المدرسين أو الاشراف (سلالة النبي) ونادرا بانه واحد من التجار . و (قلما) كانت تذكرفي وثائق البيع اشارات دقيقة عن الوظائف التي يشغلها صاحب الاسم ، ولم تكن صفات التبجيل هذه رسمية ولا ثابتة حيث كان يلقب الفرد الواحد بمجموعات مختلفة منها من وثيقة لاخرى .

بحثنا حتى الآن في المعلومات التي تعرف أسماء الطبقة العليا والطبقة الوسطى فجميع الاسماء ما عدا المتواضعة جدا منها (وهؤلاء قلة في عددهم ويتألفون من الفلاحين) سواء أكانت مميزة بصفات تبجيل أو بمركز يشغله أصحابها أم لم تكن مميزة ، تسبقها أشكال متنوعة من النداء تساعد في تصنيفها ، فكان المسلم ينادى عادة باسم السيد وفي بعض الاحيان الشريف أو الحاج والشيخ ، وتساوي كلمة السيد معنى كلمة (مستر) باللغة الانكليزية وكان استعمالها واسعا . وفي هذه الفترة كانت كلمة الشريف وليس السيد هي التي تدل على (سليل النبي) . أما كلمة الشيخ فتدل على شخص يشغل وظيفة ادارية في مدرسة أو مديرية أو في سلطة دينية من نوع ما ، فهي الاشارة الى المسلم المتعلم والمحترم . أما المسيحيون واليهود فقد كان أغلبهم ينادى بالمدعو حتى عام ١٨٥٦ وكان يتبع اسم الاسرة هنا بعض العبارات المختلفة مثل الذمي النصراني والذمي اليهودي ، كما كان ينادى بعض غير المسلمين ممن لهم بعض الاهمية باسم الخواجه ، وقد استعمل لجميع غير المسلمين بعد ١٨٥٦ . ولاصلة له باسماء المسلمين أو الدروز وهو عند غير المسلمين يعادل كلمة السيد عند المسلمين في القرن التاسع عشر .

وقد ألحقت عبارة رعايا الدولة العثمانية باسماء الاسر غير المسلمة بعد عام ١٨٥٦ وكانت تستبدل في بعض الاحيان بعبارة مغايرة تدل على ان الاشخاص يتمتعون بالحماية الفرنسية أو الانكليزية ، وكان يتبع هذه العبارة اسم المذهب المسيحي الخاص الذي ينتمي اليه الفرد .

ولسوء حظ المؤرخين حذفت هذه المعلومات التفصيلية في حوالي عام ١٨٥٩ ليحل محلها صفة النصراني أو اليهودي فقط .

ولم تختلف أشكال النداء فقط بين الطوائف المسيحية وغير المسلمة وانما اختلفت أيضا طريقة استعمال الكلمات مثل كلمة ولد عند غير المسلمين التي يحل محلها كلمة ابن عند المسلمين واكثر من هذا فقد اختلفت

طريقة كتابة بعض الاسماء التي كانت تستعمل لكلا الطرفين مثل **يوصف وابراهام** لدى غير المسلمين التي يقابلها يوسف وابراهيم لدى المسلمين . وهذه الاختلافات بالاضافة الى الاسماء الخاصة بكل من الطوائف مثل الاسم المسيحي / حنا / تساعدنا في تصنيف الاسماء .

وقد استعملت القاب عامة للرجال من جميع المعتقدات بدلا من السيد والخواجه ، منها لقبا المعلم والاسطة . فاللقب الاول المعلم كان يعني (الحرفي المؤهل) في دمشق في القرن التاسع عشر وليس لقبا يستعمل للمدرسين ، أما اللقب الثاني الاسطة فقد كان يعني (المؤهل) أيضا ، ولكنه كان يظهر نادرا في وثائق البيع ويعتقد ان استعمال هذا اللقب كان قليلا في ذلك الوقت ويؤيدنا في ذلك بعض المصادر الاخرى عن القرن التاسع عشر ، فقد حذف الياس قدسي هذا اللقب عندما وصف بنية النقابات في القرن التاسع عشر مدرجا فقط شيخ المشايخ ونائبه النقيب ، وشيخ الحرفة ، ورئيس المؤهلين المعروفين باسم المعلمين والعمال المياومين والمتدربين (الشاويين والمبتدئين)(١٧) . أما محمد سعيدالقاسمي فقد ذكر مثالا واحدا على كلمة الاسطة بمعنى المراة التي تحمم الناس في الحمامات العامة(١٨) . وكان هذا الاستعمال أكثر انتشارا في المقاطعات التركية وفي دمشق في القرن الثامن عشر(١٩) .

ظهرت كلمة اسطة في وثائق البيع بالاشكال التالية : شيخ اسطة : لتدل على مركز خاص ومكانها هنا بعد الاسم الشخصي(٢٠) . الاماجد الامائل الاسطة(٢١) : وهي هنا صفة تبجيل وتأتي قبل الاسم الشخصي وكذلك تاتي منفردة كشكل بسيط من أشكال النداء . ويبدو أن سبب ندرة وجودها يعود لمضمونها . فالكلمتان معلم واسطة تعنيان المؤهل ولكن كلا منهما تحتوي مضمونا مختلفا عن الاخرى ويتضح ذلك عند ظهورهما في وثيقة بيع واحدة(٢٢) . فكلمة اسطة تدل على مؤهل ذي قيمة ادنى ومهارة اقل تعقيدا من مهارات عمل لايتطلب كثيرا من المران بينما نرى ان الحائك المؤهل هو معلم لانه يعمل في مهنة تقنية معقدة ومنتجة تحتاج الى تدريب وسنوات طويلة من التعلم ونستخلص من ذلك ان لقب الاسطة اقل منزلة من المعلم .

والآن دعونا نرى قليلا القاب النساء . فلقد كن يعرفن باسماء آبائهن (بنت فلان) وقلما كانت أسماؤهن تكرم بأكثر من لقب الحرمة (زوجة) والخاتون (امراةمحترمةمسنة متزوجة ولها أولاد) ، والمدعوة (امراة

مسيحية او يهودية) والحجة والشريفة ولاتوجد معلومات عن الفعالية النسائية للمرأة المتزوجة وغير المتزوجة .

هناك صنف آخر من الاشخاص نساء ورجال غير معرفين بالقاب وهؤلاء هم التجار والعاملون في التجارة ، وقد بدا انخفاض مركزهم الاجتماعي بعبارات صريحة ، فلم يكن يعرف الاشخاص من طبقة التجار الا عندما كانوا يشترون أو يبيعون عددا كبيرا من الممتلكات التجارية .

ومن الواضح ان سجلات البيع تحتوي كمية وفيرة من المعلومات التي تعرف الاشخاص العسكريين والاداريين والفقهاء والحرفيين العريقين، والطوائف الدينية ، وتقيمهم من حيث الاهمية ، وتميزهم عن غيرهم من العريقين ، ويمكن اعتبار هذه الوثائق وسيلة للحصول على معلومات ولو طفيفة عن مجموعات صغيرة مجهولة القيمة مثل التجار والنساء . وتشكل أسماء البائعين والمشترين في وثائق البيع سجلا عن كيف ومتى وممن حصل البائع على العقار ، وكانت تحذف التفاصيل غالبا ، الا انها كانت تثبت دائما ماإذا كان العقار موروثا أو مشترى ، وتلقي هذه المعلومات ضوءاً على دور النساء في انتقال الملكية .

لقد ظهرت النساء في أكثر من نصف وثائق البيع ، الامر الذي يضطرنا الى تفسير وجودهن على انه نتيجة لقوانين الارث الاسلامي وبعض الفرضيات المستندة الى الدور السلبي الذي قامت به النساء في مجتمع الشرق الاوسط بحيث توحى ان النساء كن يبعن الممتلكات الموروثة فقط . وقد ظهرت أسماء النساء بشكل متعادل تقريبا كبائعات ومشتريات للاراضي ، الا انهن كن بائعات أكثر قليلا منهن مشتريات ، وقد كان أكثر من نصف النساء ، بائعات العقارات ، يبعن عقارات حصلن عليها عن طريق الشراء وليس الوراثة . وهذه العقارات تتضمن عددا كبيرا من الممتلكات التجارية، وقد اشترينها بأموال زودهن بها آباؤهن أو أزواجهن الحريصين على أن يعطوهن وضعا اقتصاديا أكثر أماناً مما تسمح به قوانين الارث ، أو من قبل عملاء يستعملون اسماءهن كواجهة لكي يتجنبوا الضرائب والمصادرات. ومن الصعب ان نحصل على تفسير كامل لهذه الاوضاع لانه يتطلب استقصاء عن دور الاقتصاد النسائي في الاقتصاد الدمشقي .

لقد كانت العقارات المباعة ، البند الثاني الذي يكتب في وثيقة البيع تتبعه الكمية المباعة وغالباً ماتقدر بجزء من ٢٤ قيراطاً ، يلي ذلك أوصاف العقار وموقعه . وفي هذه الفترة كانت بيوع الاراضى فقط هي التي تسجل في المحكمة ، وهناك عدد قليل فقط من الوثائق سجل فيها بيع الاملاك المنقولة مثل المجوهرات والذهب والفضة والانوال .

كان يسبق اسم العقارات غير الزراعية عبارة **كدك وخلو** للدلالة على بيع حق ممارسة مهنة أو نشاط تجاري ما على أبنية عقار متخصص(٢٣)، وعبارة **عمارة وأرض** للدلالة على بيع الارض والابنية ، وقد ظهرت العبارة الاولى قبل ذكر الممتلكات التجارية فقط بينما وجدت الثانية قبل ذكر أي عقار مديني ، ويمكن أن توجداي واحدةمنهماأو كلتاهما معا أمام الممتلكات التجارية .

هذان هما العنصران اللذان تتشكل منهما الممتلكات التجارية ، فما هو الفرق بينهما ياترى ؟

تتطلب الاجابة على هذا السؤال توضيحاً لوظيفتيهما في دمشق في القرن التاسع عشر ، فقد كانت عبارة كدك ، على ضوء مالدينا من قرائن ، تعني في القاهرة في القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، حق استعمال واستئجار عقار معين لغرض انتاجي أو تجاري محدد . وكان عدد الكدك هناك مراقباً من قبل جمعيات الحرفيين والتجار(٢٤) ويلاحظ ان مالكي الكدك كانوا أعضاء في النقابة التي تنشىء وتحدد عدد الكدك وتراقب انتقاله الى ممارسي الفعالية نفسها التي كانت النقابة مسؤولة عنها . ويمكن ان يرث الذكور من الاسرة هذا الكدك اذا كانوا أعضاء في هذه النقابة اذا أقر شيخ النقابة هذا الانتقال(٢٥) .

وهذا يجعلنا نتوقع ان يكون بيع الكدك بين المنتفعين الفعليين بهذا العقار سواء أكانوا تجاراً أم صناعا وان يكون الطرفان يشتغلان بنفس الفعالية .

ولم تكن الحال كذلك في دمشق في هذه الفترة فغالبا ما كان هناك انفصال بين مالكي الكدك والمنتفعين الفعليين من العقار ، يؤيد ذلك ظهور أفراد من الاسر العريقة المعروفة وكذلك ظهور النساء كبائعين ووارثين لكدك ممتلكات تجارية مثل دكاكين اللحامين(٢٦) . وهذا يدل على ان مالك العقار ليس بحاجة لان يكون عضوا في نقابة معينة أو ممارساً للفعالية

الخاصة التي يعود اليها الكدك(٢٧) . وقد كان كدك الممتلكات التجارية يباع ويشترى أكثر من الارض والبناء ، وهذاصحيح بالنسبة للدكاكين والمستودعات أيضا ويجب أن نتوقع ذلك لان مالك الكدك وليس الارض هو الذي يشرف على استعمال العقار ولايمكن أن يجرد منه ، بينما تقتصر حقوق مالك العقر على جمع دخل الايجار فقط(٢٨) .

والخلاصة : وحتى لو كان انتقال الكدك خاضعا لتنظيمات مشددة ، فقد كان الكدك في دمشق في القرن التاسع عشر مادة لبعض الاستثمارات الحرة حيث كان يباع ويشترى من قبل أفراد من أعضاء النقابة وغيرهم . وقد انعكست أهمية انتقال الكدك أكثر من انتقال الارض في الممتلكات التجارية مثل الدكاكين والمستودعات ، لان بيوع الكدك كانتأكثر عدداً من انتقال ملكية الارض والبناء في دمشق في القرن التاسع عشر .

وكان يذكر عمل الممتلكات التجارية المباعة في بعض الاحيان في وثائق البيع ، فالممتلكات مثل الدكان والطاحون والاتون كانت تعرف احيانا بعبارة **المعدة للصنعة** فمثلا توصف دكان اللحام بأنها معدة لصنعة اللحام ، ولسوء الحظ فان عمل الدكان ــ أكثر الممتلكات التجارية ورودا وذات الامكانيات الكثيرة في الاستعمال ، كان يعرف مرة في كل ثلاث مرات . ويسهل تعريف عمل الدكان عندما تقع في خان معروف أو سوق خاص .

ما هي وحدة بيع الممتلكات ؟

في معظم الحالات كانت تباع نسبة أو جزء من ٢٤ قيراطا من بناء أو قطعة أرض أكثر من بيع المساحات المخصصة فيها ، وعلى كل فقد كان يملك الخان مجموعة من الاشخاص لكل منهم جزء محدد او كل من الدكاكين والمستودعات الموجودة فيه أكثر من تملكهم نسبا منه . وكان المالكون يبيعون بشكل مستقل كل عن الاخر . كما كانت تباع في الوقت نفسه غرف مفردة بعضها في البيوت واغلبها في الابنية التجارية . ويبدو أن هذه الغرف استعملت لاغراض انتاجية وتقع في أسواق معروفة .

وكان يحدد مكان العقارات في المدينة بواسطة عدة اشياء : مثل الحي ، والشارع وجانب من الشارع ، وفي بعض الاحيان كان الخان والسوق الذي يقع فيه العقار يتبع التعريف بالعقار نفسه .

وتذكر بعد هذا في نص الوثيقة بعد وصف مختصر لمحتويات العقار

المباع جميع العقارات المجاورة وهي عادة مثل (بيت علي) و (دكان يوسف) مما يجعل تحديده على الخارطة صعبا . وكان تحديد موقع العقار ممكنا عندما يقع بجوار عقار معروف مثل الخان أو الفرن أو بيت أسرة معروفة جيدا . اما تحديد مكان عقار غير زراعي في القرية فقد كان يتم بالطريقة نفسها المتبعة في دمشق متبوعا باسم القرية . وفي عام ١٨٦٥ جرى ترقيم للبيوت في دمشق والصالحية من أجل الضرائب ومنذ ذلك الوقت ادرجت الارقام في وثائق البيع بعد تحديد اسم الشارع الذي يقع فيه العقار . الا ان هذه الارقام لم تعد تستعمل لتحديد أمكنة العقارات ، لانها وضعت على أسس تختلف عن النظام الذي استعمله المساحون والطوبوغرافيون الفرنسيون في القرن العشرين ولم نعرف مبدأ استعمالها في تحديد الامكنة .

وكانت تدرج المعلومات عن محتويات العقارات غير الزراعية بعد ذكر اسم الحي أو القرية ، ففي بيوع الممتلكات التجارية المتخصصة مثل الحمام والطاحون والقهوة كانت تعطى تفصيلات عن مصادر المياه والمطابخ وحتى عن قوائم الالات . أمافي بيع البيوت والدكاكين ــ وهي التي تشكل القسم الاكبر من البيوع في المدينة ــ فقد كانت هناك بنود خاصة بالمحتويات: فالبيت بشكل عام يحتوي على مخزن وجدران وغرف وساحة ولكن تفاصيل عددها ومصادر مياهها (بئراً أم طالعاً) لم تكن موجودة ماعدا بيوع بعض العقارات المهمة (٢٩) .

واذا نظرنا باختصار الى بيوع الممتلكات الزراعية فقد كان هناك تنوع في أشكال ورودها في الريف كانت أم في المدينة (وتشمل الحدائق والبساتين) . وكان يتبع ذكر العقار لفظة غراس للدلالة على أن البيع يتضمن أشجارا أو كروماً . أو لفظة ارض للدلالة على أن البيع للارض(٣٠)، وكانت تعرف الممتلكات الزراعية باسم القرية أو بحانوت خاص(٣١) ، ويحدد مكانها بالنسبة لمصادر المياه والطرق المجاورة للعقار . ويوجد عادة وصف تفصيلي لمحتوى هذه الممتلكات على عكس ندرة المعلومات المعطاة عن الممتلكات في المدينة . فالكروم والابنية وانواع الاشجار وانواع مختلفة من الممتلكات (المروج والبساتين) حصة الغلة ، المستودعات الزراعية ، حقوق الري كل هذا كان يدرج في بند خاص في الوثيقة . وقد تضمنت اغلبية البيوع اضافة الى ذلك بيع الحيوانات والالات الزراعية وكان يطلق على هذا البيع عبارة **مشدسكة** ونادرا ماكانوا يذكرونه في جدول خاص . ولكنه يظهر بشكل منفصل بعد ذكر ثمن الارض والاملاك الاخرى غير المنقولة ويدون الثمن بعد ان تدرج هذه الاشياء في قوائم . ثم

يأتي بعد ذلك السعر الاجمالي للاملاك المنقولة وغير المنقولة التي انتقلت بالبيع .

وكما ذكرنا سابقا تظهر « قيمة البيع » في كل وثائق البيع بعد تحديد مكان ومحتويات العقار المباع وكان يقدر الثمن في الفترة الواقعة بين ١٨٥٠ ـ ١٨٨٠ بالقروش الفضية غالبا مع الغازي الذهبي وقليلا ماكانت تظهر الليرة المجيدية والبارة الفولاذية ، وفي حوالي عام ١٨٧٠ بدأت تظهر الليرة العثمانية . وهذه العملات كلها عملات عثمانية .

وقد بدأت العملات الاوروبية بالظهور بشكل متناثر في السجلات منذ أوائل عام ١٨٦٠ وكان أولها الليرة الفرنساوية (الليرة النابوليونية) وفي عام ١٨٧٠ كان ثلث أثمان البيوع مدوناً اما بالليرة النابوليونية واما بالجنيه البريطاني ـ وكان هذا أقل ورودا ـ اما في عام ١٨٨٠ فقد كان يذكر بجانب الثمن بالعملة الاجنبية مايعادله بالقرش . ويظهر ان هذه العملات التي ذكرناها سابقا كانت عملات أساسيةفيدمشق في القرن التاسع عشر حيث كانت تحسبباقي العملاتبالنسبةاليها . ويدل القبول بالاساس الاوروبي للنقد في منتصف الستينات من القرن التاسع عشر على اعتراف رسمي بأهميتها ، وربما كان مبعثه ازدياد أهميته في الفترة التي تلت تضخم النقد العثماني نتيجة زيادة التبادل التجاري مع أوروبا . وقد انعكست درجة تغلغل العملات الاجنبية في الحياة الاقتصادية في سورية بوضوح في وثائق البيع . فالليرة النابوليونية ادرجت في بيوع الممتلكات المدينية والريفية ، وفي مشتريات المسلمين مثلهافي مشتريات المسيحيين وباختصار فقد ظهرت في مشتريات كافة أفراد المجتمع ومن قبل الاشخاص المشتغلين في جميع أنواع القطاعات الاقتصادية .

ولنتساءل الان ترى هل كانت القيم المسجلة في سجلات البيع تمثل السعر الحقيقي المدفوع مقابل الشراء ؟ اذ من المحتمل انيخفض الثمن ليكون مقبولا من السلطة الحاكمة وصالحا للخلاص من زيادة الضرائب والمصادرات غير العادية . لان الاسعار يجب أن تعطينا فكرة عن القيمة الكبيرة والمتناسبة لانواع مختلفة من الممتلكات .

وعند هذه النقطةيكون بحثنا قد، أدرك غايته، بالحصول علىمعلومات عامة عن كل وثائق انتقال الملكية ، اما العبارات التقليدية التي تعلن ان البائع في صحة جيدة أو التي تدرج أسماء الشهود فقد حذفت من بعض

الوثائق . وعلى الرغم من ان كل وثيقة كانت تشبه الاخرى بالضرورة . فقد كانت هناك تحولات في بعضها عن الشكل التقليدي للوثيقة ، مثل الاختلافات الكبيرة في كمية التفاصيل المعطاة، واضافات خاصة(٢٢) زيادة على ماذكرنا. فمثلا كان يدون بعد ثمن البيع ، في بعض الاحيان ، تقسيم أموال المشترى على البائعين عندما يكونون كثرة ، وفي بعض الاحيان كانت تسجل أجزاء العقار التي كان يملكها واحد من المشترين قبل هذا البيع . كذلك كان يدون دفع عشرة القروش رسما للتسجيل . وتحتوي جميع الوثائق على تقرير مختصر عن الحاضرين بما فيهم الشهود وبعد ذلك يدون التاريخ .

بعد ان عرفنا محتويات هذه الوثائق دعونا الان نتأمل فائدتها كوثائق تاريخية . فعلى الرغم من اننا يمكن ان نفيد من عدد قليل من وثائق البيع لدراسة الاسر ودراسة الافراد فان الاهمية الحقيقية لهذه الوثائق تكمن في وفرة عددها والطبيعة المختصرة لمعطياتها وعلى الرغم من ان الاحصاءات الناتجة عن هذه المعطيات لاتعطي انعكاسا مضبوطا عن حقيقة الاقتصاد الاجتماعي في القرن التاسع عشر حيث كان تسجيل البيوع غير كامل في الغالب وحيث كان بعض البائعين والمشترين يشكلون واجهة من أجل الاخرين فان الكمية الكبيرة من المعطيات التي لدينا تسمح لنا بان نتجاوز هذه العقبات وان نصل الى نتائج صحيحة ولو انها غير دقيقة عن واقع الدمشقيين .

ان كميةالمعلومات المكتشفة تواجه الباحث بمشكلة مهمة الا وهي مشكلة تحديد البحث ، فمن الصعب أن نختار نموذجا يمثل سنة من السنوات لان كل محكمة رات أن تاتي باشخاص من بعض الاحياء او القرى أكثر من المحكمة الاخرى ، كما أن اكثر من نصف السجلات بالنسبة لاي منها لم يذكر فيها اسم المحكمة وعلى كل يتوجب على المرء ان يختار دراسة نوع واحد من الممتلكات أو البيوع الواقعة في حي واحد أو بين مجموعة خاصة من الافراد .

وقبل أن نقرر كيف نتعامل مع المواد المتوفرة لدينا يجب أن نفهم اتجاهاتها الاساسية حيث تعكس البيوع بشكل جوهري كافة التغييرات . فهي لاترينا صورا كاملة ولكنها تعكس تغيرات الاوضاع الاقتصادية للفئات المختلفة والطبقات الاجتماعية بحيث توجد صلات متنوعة بين ثرواتهم واعمالهم وبين عقاراتهم . أما الذين لم تكن ثروتهم تعتمد على حيازة الاراضي مثل ملتزمي الضرائب والمستفيدين من الوقف فقد كانوا

ممثلين في هذه الوثائق تمثيلا ثانويا فاليهود مثلا ظهروا بشكل أقل مما كان متوقعا بالنسبة لدورهم الاقتصادي ونسبتهم العددية بين السكان . وحتى لو لم نتمكن من تأليف صورة واضحة وكاملة عن بناء المجتمع الاقتصادي والاجتماعي في دمشق من وثائق البيع وحدها ، فقد حصلنا على معلومات مهمة عن جميع الفئات في المدينة . فالبيوع أوضحت لنا الوضع الاجتماعي للطبقات المتوسطة ودون المتوسطة التي كانت حياتها الاقتصادية تتصل بحيازة الممتلكات . لقد أرتنا بشكل خاص من الذين يملكون العقارات المدينية المربحة مثل الطواحين والخانات ، والذين يملكون الدكاكين في الاسواق المتخصصة . وقد قدمت لنا في الحقيقة معلومات عن جميع الطبقات المالكة في دمشق لان افراد الاسر كانوا يسجلون بيع أجزاء العقار الموروث فيما بينهم وكأنهم يسجلون البيوع للغرباء .

وكانت تعرف التغيرات سواء أكانت ديموغرافية او اقتصادية أو اجتماعية عندما كانت بيوع سنة ما تقاس وتقارن بغيرها من السنوات! فأي الاحياء كانت تتغير وكيف ؟ مثل ذلك حي باب توما وتجمع المسيحيين فيه حتى صار حيا خاصا يملكه المسيحيون ، كما يبين حلول فئة مكان أخرى في تملك بعض العقارات ، وتغير قيمة العقارات مع الزمن ، كل ذلك يظهر بوضوح في هذه المعطيات . أما التبدلات القصيرة الامد مثل السقوط السريع في أثمان البيوع ، وازدياد البيوع في سوق متخصص فقد كانت تدل على أزمات في حرفة معينة . ومن ناحية أخرى فان البيوع المتعددة لنوع خاص من الممتلكات يدل على قيمتها في المضاربات العقارية . وعليه فان وثائق البيع تساعدنافيمعرفة تذبذبالتغييرات ولو انها لاتستطيع ان توضح لنا الاهمية التامة لها .

ان العدد الكبير لهذه الوثائق اضافة الى عملها الذي يتصل بكل واحد في دمشق تقريبا في وقت أو آخر يجعلها هامة في أية معرفة لتاريخ دمشق في القرن التاسع عشر . فهي اذ تمثل صورة غير متكاملة عن هذا الواقع فان وثائق أخرى وجدت في مجلدات سجلات المحكمة نفسها يمكن ان تساعدنا في اكمال هذه الصورة .

فبين السجلات الاخرى وجدت سجلات اجور الوقف التي يتعرف عليها غالبا من استهلالها بفعل استأجر ، وكان واضحا ان وثائق استئجار الملك كانت ضئيلة العدد مما يدل على ان المؤجرين والمستأجرين لم يشعروا

انهم معرضين للخطر ، أو ملزمين بحكم القانون بتسجيل الواقعة ودفع رسوم التسجيل . وهناك شكل ثان من الوثائق يفتتح بجملة حضر من ، يلي ذلك اسم الشهود ثم فعل دفع ، ثم اسم ، ثم جملة من ماله الى ، ثم اسم آخر ، ثم عقار معين وثمنه ومكانه وتذكر القراريط عادة كما في البيع . ومع ان هذه الوثيقة ليست وثيقة بيع ، ولكنها سجل لدفع مال مستحق له صلة بالتزامات سابقة معروفة مثل الاجار أو شراء عقار أو دين مال . وكانت تسجل عقود الدين في هذه السجلات ولكن على نطاق ضيق ، أما استيفاء الديون المستحقة فقد ظهر بشكل أوسع وكان مكتوبا بالشكل المتداول بالنسبة لكافة المنازعات والشكاوي . وهذا الشكل يعرف من مقدمته التي تبدأ بكلمة ادعى ويتبعها الاسم ، ثم على ، ثم الاسم الثاني ، ثم الادعاء ، وعلى أي أساس بني . والعدد الاكبر من هذه المنازعات كان يتعلق بريع العقار من الارث أو الوقف .

أما وثائق حصر الارث فقد ظهرت باعداد هائلة ، وعلى وجه الحصر، في المجلدات المتخصصة بالمخلفات الا ان عددها كان أقل من وثائق البيع أو ايجارات الوقف ويبدو ان الكثير من هذه الوقائق لم يسجل أبدا خاصة ماكان يتعلق بوارثي الاشخاص الذين يدينون بجزء كبير من ثرواتهم للغير(٢٣) ، على الرغم من انه من المفروض ان تمسح جميع الاملاك وتسجل وتستوفى عنها الضريبة عند وفاة شخص ما ، الا ان جميع هذه السجلات لم تظهر .

ان غياب السجلات التجارية من المحكمة في هذه الفترة تتركنا في جهل تام فيما يتعلق بالفعاليةالاقتصادية . وأرجو ان تظهر هذه الوثائق ليضمها الباحثون الى الكمية الكبيرة من المواد المهمة في دمشق التي لم تجر فهرستها حتى الان .

وهكذا ينتهي بحثنا في طبيعة وغنى المعلومات الموجودة في سجلات محاكم دمشق ونخص منها وثائق البيع . وقد كان اتساع هذا البحث ضروريا ليلفت انتباهنا الى فجوات موجودة في فهمنا للدور الفعلي وليس النظري فقط للشريعة الاسلامية في دمشق في القرن التاسع عشر . والى معنى الكلمات المستعملة في هذه المدينة وفي هذه الفترة . وعندما يتم اكتشاف هذه الوثائق وتظهر معلومات أكثر عن واقع دمشق الاجتماعي والاقتصادي ، يمكن لهذه المصادر الغنية ـ سجلات المحاكم الشرعية ـ أن تفيدنا بشكل أوسع . وهي حتى في هذا الوقت تساعد في تكوين نظريات تاريخية جديدة ، وتدفعنا لاستقصاء التاريخ غير المكتشف .

الحـــواشـــي

(١) ان أول وصف لهذه الوثائق كان في مقالة لـ جون ماندافيلي بعنوان :

(سجلات المحاكم العثمانية في سورية وفلسطين) في مجلة المجتمعات الامريكية الشرقية Journal of the American Oriental Society المجلد ٨٦ رقم ٣ ـ ١٩٦٦ .

وهناك وصف سابق لها من عبد الكريم رافق (سجلات المحاكم الشرعية في دمشق مع اشارة خاصة الى النقابات الحرفية خلال النصف الاول من القرن الثامن عشر) .

العرب من خلال سجلاتهم Les Arabes par leur Archives : جان بيرك ودومينيك شيفالييه : المذاكرات الدولية للمركز الوطني للبحث العلمي رقم ٥٥٥ عام ١٩٧٦ مع عبد الكريم رافق : السجلات القديمة للمحاكم الدينية في دمشق نشرة الدراسات الشرقية ج ٢٦ لعام ١٩٧٣ .

(٢) اندريه ريموند : الحرفيون والتجار في القاهرة في القرن الثامن عشر دمشق ١٩٧٣ ـ ٤ Artisans et commerçant au caire au XVille Siecle

(٣) هذه الوثائق قد درست في مجال بحث لرسالة الدكتوراه قيد التحضير « لمحات من التاريخ الاجتماعي الاقتصادي لدمشق سوريا ١٨٤٠ ـ ١٨٨٠ » وقد أعد هذا البحث بمنحة فولبرايت ـ هيز لتهيئة بحوث الدكتوراة .

(٤) يمكن الاطلاع على السجلات من الساعة ٨ ـ ٣٠ر١ من كل أيام الاسبوع . وللحصول على تفاصيل أكثر انظر المقالات المدونة في الهامش أعلاه .

(٥) يشير رافق الى وجود محاكم صغرى من القرن الثامن عشر . انظر رافق في كتاب مقاطعة دمشق خلال ١٧٢٣ ـ ١٧٨٨ The Province of Damascus : 1723 - 1783 المطبوع في بيروت في عام ١٩٧٠ ص ٤٦ ملاحظة ٦ . فقد لاحظ وجود سجلات من محاكم غير مذكورة في منتصف القرن التاسع عشر مثل باب المصلى والصالحية . ومن أجل دراسة ظهور أسماء المحاكم في القرن الثامن عشر انظر هذا المصدر ومصدر اخر لرافق : **سجلات المحاكم الشرعية** The law Court Registers

ص ١٤٣ ـ ١٤٤ . المحكمة العوانية المذكورة في القرن التاسع عشر هي نفسها قناة العويني التي ذكرها رافق بالرغم من انه يبدو ان هذه المحكمة قد تغير موقعها .

(٦) المجلدات المعنونة بالقسام هي قليلة (وعادة مجلد واحد في السنة) وعلى خلاف القرن الثامن عشر لم يكن هناك تمييز بين المدنيين والعسكريين في مجلدات القسام . على

الرغم من انهم كانوا مايزالون يختصون بشكل مبدئي بتسجيل وراثات العسكريين والمشاكل المتعلقة بهم . انظر رافق في كتاب The Law Court Registers ص ١٤٣ من أجل التفصيلات المتعلقة بالقرن الثامن عشر . ان القسم الاكبر من سجلات الوراثة يظهر في مجلدات المخلفات ويبلغ عددها اثنين أو ثلاثة في كل عام . ان قلة عدد كل من مجلدات القسام والمخلفات وظهور وثائق فيها تخص المجلدات الاكثر اختلاطا والمعنونة جغرافيا توحي بانها لم تسجل في محاكم منفصلة وانما في محكمة أو أكثر من المحاكم المذكورة أعلاه .

(٧) مكتب السجلات البريطانية العامة : تجدها بين روجر الى روسيل الجلسة رقم ٥ تاريخ ٢٦ كانون الثاني ١٨٦٥ .

(٨) فهرس رقم ـ١ـ لجلسة ١٤ من المرجع السابق ١٦٢٨/٧٨ ج ١ .

(٩) ب. لويس « أفندي » الموسوعة الاسلامية Ecyclopedia of Islam
الطبعة ٢ ، ج ١ ١٩٦٠ ص ٢٤٥ ـ ٦ .

(١٠) انظر هـ. بوين ـ اغا ـ الطبعة الثانية، المجلد الاول عام ١٩٦٠ ص٢٤٥ـ٢٦٠ والسيد هاملتون غيب وهارولد بوين في كتاب المجتمع الاسلامي والغرب Islamic Society and the West
المجلد الاول . نيويورك ١٩٥٠ .

(١١) بوين Boen « آغا » المرجع السابق ص ٢٤٦ .

(١٢) موسى ماعوز Moshe Mao'z « الاصلاح العثماني في سوريا وفلسطين في ١٨٤٠ ـ ١٨٦١ »
اكسفورد ص ٥٧ . Ottoman Reform in Syria and Palestine 1840 - 1861

(١٣) بطرس أبو مانع « بعض اللمحات عن الحكم العثماني في سورية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، الاصلاحات ، الاسلام والخلافة » . بحث غير مطبوع قدم لنيل درجة دكتوراه فلسفة في كلية سان انطوان ، اكسفورد في تشرين الاول ١٩٧١ ص ١٥٤.

(١٤) هذه الملاحظات قد أعطيت الي من قبل بعض الدمشقيين الذين يتكلمون عن أوائل القرن العشرين ومن بينهم الدكتور ضيا الشطي .

(١٥) ب. لويس « افندي » المرجع السابق ص ٦٨٧ وسوف اقترح ان يكون اصطلاح « أفندي » في معظم الحالات يدل على ان الفرد قد حصل على ثقافة أكثر من غيره .

(١٦) انظر هـ. بوين H. Boen « بيك » هـ. أ. ر. جيب ، الموسوعة الاسلامية Enciyclopedia of Islam H. A. R. Gibb الطبعة الثانية مجلد ١ ليدن ١٩٦٠ ص ١١٥٩ و ج دينى J. Deny « باشا » الموسوعة الاسلامية Encyclopedia of Islam الطبعة الاولى المجلد الثالث ليدن ١٩٣٦ ص ١٠٣٠-١٠٣٣ .

(١٧) الياس قدسي : « حديث عن الجماعات الحرفية في دمشق » . حوادث المؤتمر الدولي السادس للمستشرقين ج٢ ص ١٣٤ .
Actes du sixième Congres International des orientalistes

(١٨) محمد سعيد القاسمي : **معجم المهن الدمشقية** ج ١ باريز ١٩٦٠ ص ٣٤ .

(١٩) جيب وبوين ـ المرجع السابق ص ٢٨١ .

(٢٠) سجلات المحكمة الشرعية في دمشق ج ٥١٤ ص ٦٣ .

(٢١) سجلات المحكمة الشرعية في دمشق ج ٥٢٣ ص ٢٣١ .

(٢٢) سجلات المحكمة الشرعية في دمشق : ج ٥٢٨ ص ١٨ .

(٢٣) رايموند في كتابه الحرفيون المذكور سابقا ص ٢٧١ . رايموند وغيره قد كيفوا الكلمة الاولى كدك بشكل يلائم أصلها التركي والثانية هي ما يساويها بالعربية ـ بينما كتبت الكلمتان معا في دمشق في هذه الفترة .

(٢٤) غابريل باير : « النقابات المصرية في العصور الحديثة » Egyptian guilds in Modern Times القدس ١٩٦٤ ص ١٠٧ ورايموند المرجع السابق ص ٢٧١ ، ٥٥٠ ، ٥٨٣ .

(٢٥) باير المرجع السابق ص ١٠٧ .

(٢٦) توجد أمثلة عن النساء بهذه الكفاءة في سجلات المحكمة الشرعية ج ٢١٣ ص ٢٩٥ ص ٢٠١ ـ ٢٠٢ .

(٢٧) هكذا كان الوضع في مصر في القرن التاسع عشر ، كذلك على الرغم من ان باير يبين ان الكدك كان يملكه أعضاء النقابة ، وكان تحت اشراف شيخ النقابة . والمثل الذي يقدمه يبدو أنه يناقض هذا التأكيد اذ قال : بأن انكليزيا حصل على كدك بالرغم من أنه لم يكن عضوا في النقابة ذات العلاقة وقد احتج على هذه الحيازة مالك الدكان لا شيخ النقابة . مما يدل على ان النقابة لاتهتم ، بمن يحوز الكدك أكثر من مالكه ، ويبدو ان المالك قد لجأ الى قانون قديم ليطرد واضع اليد غير المرغوب فيه . انظر باير **المرجع السابق ص ١٠٧** . ويبدو ان المعلومات التي تحتويها وثائق بيع الكدك في مصر هي أكثر منها في الوثائق الدمشقية . انظر المثال في باير ، **المرجع السابق ص ١٥٧ ـ ٨**

ماخوذة من مكتب السجلات البريطانية من ريد الى ستانسن ـ القاهرة ، ٩ تشرين الاول ١٨٦٥ . وفي دمشق لم يعرّف غالبا نموذج الدكان ، ولا مهنة البائع والمشتري أو وضعهما في مهنة الحرفيين .

(٢٨) رايموند : الحرفيون المصدر السابق ص ٢٧١ .

(٣٠) دراسة عن المفردات والتعقيدات المتصلة بملكية الاراضي الريفية ، وقد اختصرناها هنا للدلالة على تصنيفها في الحقوق الزراعية وترتيبها في الوثائق . بيان عن محتويات **بيت مباع : كانت دائما على ساحة سماوية ومساكن شرعية ومحددة .**

(٣١) وندرج هنا مثالا عن ان معنى اية كلمة كانت مستعملة في منتصف القرن التاسع عشر في دمشق تختلف ليس فقط عن الكلمات الدارجة في غيرها من المدن والاقاليم الاخرى في الشرق الاوسط وانما تختلف ايضا عن الكلام الدارج في استعمالات دمشق القرن العشرين . مثلا كلمة السيد كطريقة من النداء تعني (سليل النبي في مصر) ، وكلمة حانوت التي كانت تعني عقارا أرضيا في دمشق في القرن التاسع عشر استبدلت بكلمة (حوش) في القرن العشرين ، وهي تعني دكان في شمال افريقيا وفي فلسطين ، انظر ادوارد لين معجم عربي انكليزي An Arabic - English Lexicon لندن ١٨٦٥ الكتاب ١ ، ج ٢ ، ص ٦٦١ . ان معنى كلمة حانوت يظهر بوضوح من استعمالها في وثائق البيع وكلمة حوش بالمقابل كان لها معنى واحد في القرن التاسع عشر هو نوع فقير جدا من المساكن . (وتقابل بيت) في المجالات الريفية وكان يستعمل لسكنى الحيوانات والمخلوقات البشرية معا أو من أجل الحيوانات فقط ، والاصطلاح (حوش) لم يكن يستعمل مطلقا للمساكن المدينية المسجلة في وثائق البيع ولا من أجل المنازل الكبيرة العائدة للاشخاص المهمين التي لها باحات كما في فلسطين من أجل بعض التعاريف من القرن التاسع عشر انظر (لين : المرجع السابق ص ٦٦٩) .

(٣٢) مثال ذلك كانت بعض بيوع الكدك والخلو لعقارات الوقف مسجلة . وفي هذه الحالة فان ايجار الوقف يشكل القسم الثاني من الوثيقة ويبدأ بلفظ (استأجر) .

(٣٣) الحقيقة الاخرى اعتمدت على مجموعة السيد ج. ب. باسكال في المركز الفرنسي بدمشق، وهو يدرس الان سجلات الارث في دمشق في منتصف القرن التاسع عشر .

الباب الثاني

التاريخ الاقتصادي والاجتماعي

الادارة المالية للمناطق المتاخمة للصحراء

في سورية الكبرى في أواخر القرن السادس عشر*

الدكتور : قولف هيتروت

(جامعة ارلانغن)

تحيط الصحراء والبحر ببلاد الشام . وكلا هذين الحدين الطبيعيين يسهل المواصلات . ومن الممكن مقارنة طرق التجارة التي تعبر الصحراء في أهميتها التاريخية بالملاحة عبر البحر الأبيض المتوسط . وكان كلا هذين الحدين عرضة للخطر: فأراضي الساحل كانت عرضة لحملات الغزو الغربية وأيضاً للقرصنة ، وكانت المناطق المتاخمة للصحراء دائماً مصدر إغراء للغزوات البدوية . لذا فقد ظلت حدود الاستيطان الدائم في جهة الصحراء غير ثابتة خلال فترات تاريخية عديدة . ففي الفترات التي كان فيها الحكم قويا ومستقرا في سورية الكبرى ، كانت القرى تقوم على أطراف المنطقة الصالحة للزراعة ، في حين كان العديد من هذه القرى يهجر في الفترات التي ينعدم الاطمئنان فيها ، ويتجمع السكان الفلاحون في الجبال ، وتترك السهوب الصالحة للزراعة مراع للبدو الاشداء .

لم تستطع اية حكومة أن تبسط نفوذها الكامل على السهوب المكشوفة والصحارى . فمن المحتمل أنه أمكن اخضاع بعض القبائل البدوية للسيطرة السياسية وللضرائب المالية . ولكن استطاعت قبائل أخرى أن تكون مستقلة عملياً وغير خاضعة لدفع الضرائب . لذلك فان الحد الفاصل بين أراضي الفلاحين الخاضعة خضوعاً كلياً للسيطرة واراضي البدو لم يكن خطاً محدداً وانما كان حزام انتقال عريضاً يتسم بنفوذ للدولة يتضاءل باتجاه الصحراء .

وفي هذا البحث سنحاول ان نبين كيف تمكنت حكومة معينة ، قوية في عصرها ، أن تسيطر على مناطق الحدود وعلى سكانها . اننا سنفحص الادارة العثمانية في فترة كانت فيها قوتها وكفاءتها لايرقى إليهما الشك ،

---

* قام بترجمة هذا البحث عن الانكليزية الدكتور محمد منير صلاحي الاصبحي .

ونعني هنا أواخر القرن السادس عشر . ومصادرنا هي السجلات المالية العثمانية « دفتر ي مفصل »(١) الخاصة بـ « الوية » سورية الجنوبية : « القدس الشريف » و « نابلس » و « غزة » و « صفد » و « اللجون » و «عجلون» و « حوران » ونضيف إليها المنطقة التي كانت تدعى في ذلك الوقت « لواء تدمر » .

هناك وصف للوضع السكاني والاقتصادي لهذه الأراضي في أواخر القرن السادس عشر في كتاب تم نشره مؤخراً من تأليف كاتب هذا البحث بالاشتراك مع كمال عبد الفتاح الذي سيبسط في تقريره إلى هذا المؤتمر الخرائط والنتائج العامة للبحوث التي قمنا بها .

سننظر أولا الان الى الحالة الخاصة بمعاملة الحكومة للقبائل والفئات المالية الاخرى في المنطقة المتاخمة للصحراء ، وسنميز خمسة أوجه من السيطرة الحكومية :

١ ـ مركز الحاكم الرسمي (المير لواء) :

٢ ـ مركز المستفيدين من الموارد المحصّلة من البدو(٢) .

٣ ـ مدى اكتمال قيد السكان .

٤ ـ قيد الاراضي الزراعية .

٥ ـ المراحل الانتقالية بين الاقتصاد « الفلاحي » والاقتصاد « البدوي » والسيطرة المالية عليهما .

ولقد وجدنا لكل من هذه الاوجه الخمسة مايشبه « مقياساً » للتدابير الادارية المتضائلة في فعاليتها كلما اتجهنا نحو الصحراء . وهذه ظاهرة عامة في مناطق « الحدود » ، ولكن امكانية تحليلها محدودة بالنسبة الى وضع كان قائما في القرن السادس عشر .

١ ـ مركز الحاكم الرسمي :

بما أن مناطق الأطراف في الامبراطورية العثمانية لم تكن عرضة لخطر القوى الأجنبية ، فانه لم تكن لدى الحكومة رغبة في الحفاظ على السيطرة المباشرة عن طريق عمليات عسكرية باهظة التكاليف أو عن طريق حاميات دائمة . وهذا على سبيل المثال معروف بالنسبة لاجزاء واسعة من كردستان حيث كان بامكان الامراء المحليين المحافظة على سلطتهم مستخدمين اللقب الرسمي « حكومة » بنوع من التبعية . ولكن سورية كانت رسمياً ضمن

مجموعة الأقاليم التي يجري حكمها على طريقة نظام « التيمار » . وهـذا يعني بالنسبة للأغراض المالية أن واردات كل « لـواء » سـوري يجب تقسيمها بين :

« الباديشاه »

« المير لواء » أو « الميرميران » ذي العلاقة

عدد كبير من أصحاب « التيمار » أو « الزعامت »

مؤسسات « وقف » متنوعة

ونجد هؤلاء المستفيدين أو مجموعات المستفيدين في كل « ألويـة » الاقليم التي تم بحثنا فيها باستثنائين : في أقصى الاجـزاء الجنوبية في « لواء عجلون » في شرق الأردن وفي « لواء تدمر » في الصحراء السورية .

ان « لواء عجلون » ، الذي كان في ذلك الحين يتـألف مـن ثماني « نواح » بين « الكورة » في الشمال و «الشوبك/وادي موسى» في الجنوب، مدرج بكل قراه في السجل المالي الخاص كأي « لواء » آخر . وكان « مير لواء » رسمي يحكم « اللواء » ويتلقى الموارد من بعض قـرى وقبائـل « النواحي » الشمالية . ولكن الظاهرة المثيرة للاهتمام هي المعاملة المالية المتعلقة بالجزء الجنوبي من « اللواء » . ففي « نواحي » « الكرك » و «جبال الكرك » و « الشوبك » لم تكن أية قرية تدفع ضـرائبها إلـى « خاص الباديشاه » كما لم تكن أية قرية ضمن أي « تيمار » أو « زعامة » . وكـل الموارد من هذه « النواحي » الجنوبية الثلاث في « لواء عجلون » كانـت تدفع لشخص يلقب في السجل « مير لواء الكرك والشوبك » .

وهذا يعني أن الحكومة لم تكن لديها القدرة أو الرغبة في أن تدخل نظام « التيمار » الرسمي إلى هذه المرتفعات القصية والقاحلة في جنوب الأردن ، بل لم تكن قادرة على جمع الموارد السلطانية . ويظهر الاعتراف شبه الرسمي بـ « مير لواء الكرك والشوبك » نوع الحل الوسط الـذي اتبعته « الدفتر خانة » في حل المشكلة . فقد تم الحفاظ عـلى صـورة وهمية للحكم المباشر بواسطة منح لقب ، قد يكون أعطي لشيخ محلـي تقليدي ، وبالاعتراف بدخله العادي على أنه « خاص مير لواء » رسمي . وقد ساهم غ. غوبسر بالمزيد من المعلومات حول نزعات المرتفات الجنوبية لخلق « لواء » منفصل الى حد ما . (غ. غوبسر ، ١٩٧٣ ، ص ١٣–١٥).

ولابد أن « سنجق بيك صلخد » ، الذي يذكره ب. لويس (١٩٥٤، ص ٤٨٠) كان حالة مماثلة ، اذ أن الوضع الجغرافي في الحدود الصحراوية

للمنطقة القائمة في الجنوب الشرقي من حوران مماثل لوضع الكرك . ولكن حين تم احصاء عام ١٠٠٥ هجري (١٥٩٦/١٥٩٧ ميلادي) ، الذي استخدمناه ، لم يكن اسم قرية صلخد يطلق حتى على « ناحية » اذ لم تكن سوى أكبر قرية في « ناحية بني مالك السدير » في « قضاء حوران » التابع « للواء الشام » . ويبدو من الواضح أن الاعتراف بحكام محليين على أنهم « مير لواء » كان قضية سياسية اقليمية ذرائعية محضة يمكن تغييرها في أي وقت تتوفر للحكومة فيه الفرصة لتنفيذ مبادئها المعتادة في الادارة .

وكانت حالة « تدمر » حالة أخرى أكثر غرابة . ففي نهاية « دفتر قضاء حوران » ، وبعد « نواحيه » الست عشرة ، يظهر « فهرست ناحية ي تدمر در لواء ي شام » ، وله ست وثلاثون وحدة مالية ، ويتبع ذلك عنوان « لواء ي تدمر » وتحته « ناحية ي تدمر » . وباستثناء القرية المدرجة أولا (وهي قرية « صدد » غربي « القريتين » وسكانها من المسيحيين) والتي هي مالكية تابعة للسلطان (خاص شاهي) ، فان كل القرى الاخرى و « محال » عديدة و « مزارع » تعود جميعاً إلى « خاص مير لواء ي تدمر » . ويتألف هذ « اللواء » من واحة « تدمر » نفسها بالاضافة الى منطقة « القريتين » . وبعد « اللواء » عن الأراضي التي لم تنقطع سكناها يماثل وضع الكرك والمعاملة الادارية لكلتيهما واحدة : فالمنطقة تعتبر رسمياً جزءاً من « لواء » آخر ، ولكن هناك اعتراف شبه رسمي بها ك « لواء » منفصل له « مير لواء » خاص به .

ولكن ينبغي ان نذكر أن واحات « أرك » و « السخنة » و « الطيبة » و « القم » لم تكن داخلة في « لواء تدمر » هذا ، رغم أن ذلك هو ما ينبغي افتراضه بسبب المسافات القصيرة التي تفصلها عن تدمر بالنسبة للمسافات الابعد بكثير بينها وبين المناطق المأهولة الاخرى في الشمال الغربي والشمال . واذا كانت هذه الواحات مأهولة في ذلك الوقت فلا بد أنها كانت اما خارج نطاق السيطرة المالية العثمانية كليا او شكلت وحدة ادارية أخرى لم يتح لنا أن نشاهد « دفترها » . وحتى في هذا الصدد هناك أوجه للتشابه مع « الكرك » : فواحة « معان » في جنوب شرقي الأردن غير داخلة في « دفتر لواء عجلون » ، ومن المحتمل أنها كانت تعتبر جزءاً من « ايالة الحجاز » (رغم أن المسافة الى أقرب منطقة مأهولة في « الحجاز » كانت أبعد بكثير من المسافة الى « الكرك » ، أو أنها لم تفرض الضرائب عليها بسبب الوظائف التي تؤديها لقوافل الحجاج .

٢ ـ المستفيدون من الموارد المحصّلة من البدو

لقد كان تحصيل الضرائب من البدو دائماً أمراً غير مستقر . فلابد أن الحكومة العثمانية قد وجدت من تجربتها أن إضافة الضرائب المتوجبة على القبائل البدوية الى دخل أي صاحب «زعامت» أو «تيمار» صغير كان أمراً شبه مستحيل . إذ لم تكن لدى هؤلاء الاشخاص السلطة والقوة الكافيتان لتحصيل هذه الدخول العائدة لهم من القبائل . ومن جهة أخرى ، لم تحاول الحكومة ـ على الاقل في مقاطعات سورية الجنوبية ـ تعيين « شيوخ » بدو محليين في مرتبة « سيباهي » أو « زعيم » وترك دخلهم التقليدي لهم تحت لقب « تيمار » أو « زعامت » ، فمبدأ تعيين حكام محليين في المراتب الرسمية ، والذي جرت ممارسته بشكل واضح في حالة الكثيرين ممن عينوا لوظيفة « مير لواء » ، لم يتكرر على مستوى المراتب الادنى . ولعل مشايخ البدو لم يكونوا أهلا لان يعتمد عليهم كأعضاء في جند « السيباهية » Sipahi Troops ، واعطاؤهم مجرد لقب سيكون عديم الجدوى ، اذ لم يكن من الممكن حتى جعلهم مسؤولين عن الحفاظ على قدر أدنى من القانون والنظام ، وهذا شيء كان يتوقع من حكام « الكرك » و « تدمر » القيام به على الأقل .

وبالتالي هناك فقط بضع مجموعات من القبائل البدوية التي تدفع ضرائبها الى اقطاعات « زعامت » صغيرة ، تقع جميعها في السهول الفلسطينية الغربية . وهناك مجموعة من سبع وعشرين قبيلة صغيرة مجتمعة تحت لقب « جماعة عربان مرج ابن عامر »، عليها أن تدفع نصيباً إلى « زعامت » أربعة « زعماء » ، وهناك إضافة إلى ذلك قبيلتان صغيرتان أخريان في « ناحية سهل عتليت » وفي « ناحية قاقون » تنتمي إلى « زعامات » . وتقع منطقة الرعي العائدة لهذه القبائل داخل « لوائي عجلون ونابلس » الخاضعين للسيطرة التامة . ولم تواجه الادارة الحازمة المستقرة أية مشكلة شديدة ، ولذا أمكن أن تنسب القبائل هنا حتى الى اقطاعات أصغر .

وكان يتوجب على غالبية القبائل أن تدفع ضرائبها الى «الباديشاه» أو إلى « المير لواء » (أو الى « الميرميران » في حوران) . وقد شمل «خاص السلطان » اقوى قبائل « حوران » و « عجلون » وأكبرها : « جماعة تركمانان » بقبائلها الفرعية الثلاثين في « قضاء حوران » ، و « طوائف عربان علان » في « لواء عجلون » . وبسبب حجمهما وقوتهما ، لم تشمل

هاتان القبيلتان أو الاتحادان القبليان مالياً في « ناحية » معينة ، ولكنهما أدرجتا بشكل منفصل ، مشكلتين مايمكن وصفه بأنه « ناحية متنقلة » .

وكانت أسباب نسبتهما الى « خاص السلطان » مختلفة . فربما كان الامر مسألة تقدير لهما . ومن المحتمل أيضاً أن الحاكم الاقليمي ، أي « المير لواء » ، لم يكن ذا قوة كافية لابقاء هاتين القبيلتين الجبارتين تحت المراقبة وتحصيل الضرائب منهما . ولكنه فيما عدا ذلك كان أقرب سلطة حكومية ، فالسلطان لم يكن لديه أية وسيلة أخرى للسيطرة على هاتين القبيلتين ، رغم أن « المير لواء » المحلي يفترض أن يكون أكثر اهتماماً بالسيطرة على تلك القبائل التي كان عليها أن تدفع له هو . وأخيرا يمكن افتراض وجود ولاء قبلي معين في هاتين الحالتين أتاح السبيل لتحصيل الضرائب دون قوة . وقد يكون هذا معقولا على الاقل بالنسبة لـ « جماعة تركمانان » التي ادعت أن أصلها تركي .

وقد كان على معظم القبائل أن تدفع ضرائبها الى « مير لواء » اللواء المعني. وكانت هذه طريقة عملية جداً للسيطرة على البدو ولتزويد السلطات الحكومية بالموارد في الوقت نفسه . إذ كان « المير لواء » عادة أقوى رجل في المنطقة ، وكان هو أو ممثله مقيما هنالك بشكل دائم ، وكانت لديه معلومات وصلات محلية . وبالطبع كانت لديه أفضل الامكانيات للسيطرة على القبائل رغم أنه كانت لهذه السيطرة مستويات متفاوتة من الفعالية . وكانت السيطرة على القبائل تعني تأمين دخله الشخصي ، ولابد أن هذا الربط بين المصالح الشخصية ومصالح الدولة كان الطريقة العملية الوحيدة في الادارة .

٣ ـ قيد السكان :

كانت الممارسة العادية لفرض الضرائب على « الفلاحين » تتطلب احصاء الأسر « الخانة » والعازبين « المجرد » وذلك لتحديد نوع الضرائب الشخصية المنتظمة وغير المنتظمة ويبدو أن هذا كان يجري في جميع البلدان والقرى بقدر كبير من الدقة . ولابد أن مثل هذا الاحصاء كان أكثر صعوبة بين البدو ، وهو لايزال كذلك اليوم . واستطاعت السلطات العثمانية أن تقوم بهذا الاحصاء بشكل جزئي فقط وبدرجة مختلفة من الكمال، وهذا يظهر ثانية الاختلاف بين الأراضي الخاضعة للسيطرة كلياً والصحراء غير الخاضعة للسيطرة .

وقد جرى احصاء قبائل « اللجون » و « نابلس » وصحراء « القدس » الشرقية ، بل وحتى « حوران » ، بدقة الى حد ما . فأسماء ارباب الاسر واسماء « المجرد » مدرجة بشكل افرادي ، كما هي الحال في احصاء الفلاحين .

ولابد أن احصاء بعض القبائل الاخرى تم بصورة أكثر سطحية : إذ لم يجر أي تمييز بين « الخانة » و «المجرد» . وحين يحدث هذا بالنسبة لقبائل صغيرة جدا يمكن للمرء أن يفترض عدم وجود « مجرد » ، كما كان الحال في العديد من القرى الصغيرة حيث لم يدرج أي « مجرد » . ولكن بالنسبة لقبائل فيها عشرات عديدة من « الخانات » لابد أن يتوقع المرء وجود بعض « المجرد » . واذا لم تظهر أسماء هؤلاء ، فمؤدى ذلك أن التسجيل لم يكن كما كان ينبغي له أن يكون .

وهناك مجموعة أخرى من القبائل لم يجر احصاؤها البتة : فأسماء ارباب الاسر غير مذكورة وليس ثمة رقم بعدد الخانات . ولكن هذه القبائل لازالت تدفع كضريبة مبلغاً معيناً لم يبلغ بعد « المبلغ المدور » . فطائفة « عربان مرادوه » في « لواء القدس » ــ على سبيل المثال ــ كانت تدفع ١٢ر٧٩٠ « أقجه » ؛ كانت بدورها مقسمة بين ثلاث « جماعات » : « بني عطية » ٢ر٩٠٠ أقجة و « رأس » ١ر٩٠٠ أقجة و « ابداح » ٧ر٩٠٠ أقجة .

ويقتصر ذكر مجموعة أخرى من القبائل على اسم القبيلة و « مبلغ مدور » عليها أن تدفعه . وأحيانا تذكر أسماء فروع قبلية معينة ، ولكن مبلغ الضرائب مذكور عادة بشكل اجمالي للقبيلة بأكملها أو للاتحاد القبلي. ولابد أن تخمين عدد الاسر في هذه الحالات فيه شيء من الصعوبة . والى هذا الطراز تنتمي قبائل عديدة في « السلط » و « الشوبك » في « لواء عجلون » وقبائل عديدة في « الغور » وجميع قبائل الصحراء الواقعة جنوبي غزة . وجميع الارقام الكمية المذكورة على الخرائط عن حجم هذه القبائل تعتمدعلى التقديرات التقريبية، معتمدةعلى مبلغ الضرائب كوسيلة تقريبية لتقدير عدد العائلات .

والمنطقي أن خاتمة هذه السيطرة الحكومية المتناقصة على البدو هي القبائل التي لاتخضع لأية سيطرة على الاطلاق . ولكننا بالطبع لانعثر على أية معلومات عن هذه القبائل في السجلات المالية العثمانية ، أو عن

أسمائها . ومع ذلك يمكننا أن نخمن ، معتمدين في حكمنا على توزيع القبائل المذكورة في « نواح » معينة ، في أية مناطق يمكن لنا أن نتوقع وجود قبائل أخرى (غير خاضعة للسيطرة) . ففي جنوب شرق الاردن ، في « ناحيتي الكرك وجبال الكرك » ، لايذكر اسم أية قبيلة على الاطلاق . وهـذا صحيح أيضاً بالنسبة لأجزاء « حوران » الجنوبية « ناحيتي بطينة وبني الأعسر » وأيضاً بالنسبة لـ « ناحية الخليل » في فلسطين . وجميع هذه المناطق معروفة بكونها أراض رعوية صيفية للقبائل البدوية حتى وقت قريب جدا ، ويبدو من غير المحتمل ألا تكون قد استعملت لنفس الغرض في القرن السادس عشر . ومن الممكن أن القبائل المدرجة مع « ناحية السلط والشوبك » كانت في الحقيقة موزعة في أرجاء منطقة « الكرك » أيضاً ، وأن القبائل المدرجة في « غزة » كانت كذلك ترعى في المرتفعات الجنوبية في «الخليل» . ولكن وضع جنوبي حوران يبقى غريبا . فليس من السهل أن نصدق أنه في هذه الوحدة الادارية الكبرى ـ التي هي أكبر من الالوية الفلسطينية والتي تقع مباشرة على حدود الصحراء ـ لم يقطن سوى قبائل « التركمان » ومجموعات « عربان الجبل » الصغيرة الحجم نسبياً .

ومما يثير دهشة أكبر أنه في « لواء تدمر » ـ حسب السجلات المالية العثمانية ـ لم تقطن أية قبيلة بدوية . اذ لابد أن يكون هذا «اللواء» قد احتوى على سلاسل التلال والاحواض من «النبك» تقريبا الى «تدمر». وهذه المنطقة لازالت حتى اليوم أرضا رعوية هامة وليس هناك احتمال كبير بأنها لم تكن تستخدم بنفس الطريقة خلال القرن السادس عشر . وربما كان « مير لواء ي تدمر » نفسه ، بمركزه شبه الرسمي ، زعيماً بدوياً ، وكان من القوة بحيث أبعد قبائله عن التسجيل ودفع الضرائب . وفي هذه الحال فان نسبة قرى « لواء تدمر » الى حصته كان شكلا من اضفاء الشرعية على « الخوة » التقليدية . وبهذه الطريقة اتخذت الادارة العثمانية خطوة أكثر تطرفاً من تلك التي اتخذتها في « لواء غزة » الفلسطيني ، حيث لم تعط « خوة » قبائل معينة صبغة رسمية الا على شكل « حق عرب » معين ، فرض رسمياً على بعض القرى قرب التخم الصحراوي ، ومالم نعثر على القبائل التي لابد أن أراضي رعيها كانت في منطقة « لواء تدمر » في أي « دفتر » آخر لم يجر فحصه بعد ، فليس لنا الا أن نفترض أنه حتى « الشامية » الشمالية كانت عملياً خارج سيطرة الادارة العثمانية .

٤ ـ قيد الأراضي الزراعيـة :

تحصى الأراضي الزراعية للاغراض المالية عادة وفقاً لمتوسط غلتهـا « محصولها » التي يحق للمستفيد الحصول عليه . وربما لم يثر هـذا اية مشكلات في الاراضي المحيطة بالقرى . وبالنسبة لرقع الزراعة الاكثر بعدا عن القرى ـ كتلك الموجودة مثلا عند مواقع قرى مهجورة ، استعمل مصطلح « المزرعة » لتصنيف هذه الوحدات المالية . وتذكر مواقع هـذه القرى على نحو تقريبي باستعمال العبارة المعتادة « در نزد قرية س » أي « قرب قرية س » . ولنا أن نفترض أن عبارة « بالقرب من ... » هـذه كانت بالنسبة لمعظم القرى تعني « يزرعها مزارعون من ... » . وعـدد « المزارع » في مرتفعات فلسطين و « عجلون » الكثيفة السكان هو ضعفا أو ثلاثة أضعاف عدد القرى .

وباتجاه حدود الاستيطان الدائم ، تتغير نسبة القرى الى « المزارع » لصالح « المزارع » ، ف « ناحية الخليل » فيها ٣٠ قرية ولكن فيها حوالي ٢٣٠ « مزرعة » ، وقرية « يطة » ، جنوب « ناحية الخليل » ، مذكورة ك « أقرب قرية »لسبع عشرة « مزرعة » .

ويرد ذكر سبع عشرة « مزرعة » أخرى في « ناحية الخليل » على أنها « در نزد عياش » ، ولكن لاتوجد قرية باسم « عياش » مدرجة فـي « الدفتر » ، وليس من المعروف وجود خرائب بهذا الاسـم . ويمكننا افتراض ان « عياش » كان اسم قبيلة اعتادت زراعة بعض الاماكن المعروفة ك « مزارع » مثلها في ذلك مثل العديد من القبائل الاخرى . ولكن لـم يذكر اسم قبيلة كهذا في « الدفتر » . ومع ذلك لابد أن مسجل « الدفتر » على الاقل كانت لديه معلومات عن موقع هذه « المزارع » وربما عـن ملكيتهـا .

وباتجاه الصحراء تتضاءل حتى هذه المعرفة . ف « المزارع » مذكورة دون اي ربط بقرية قريبة أوبقبيلة بدوية. ولهذا الطراز من المعرفةالادارية الشديدة السطحية ، يستعمل « الدفتر » تعبير « تابع برية » ، الذي يعني أنه « ينتمي الى الارض اليباب » . وكان على كل مزرعة من هـذه المزارع أن تدفع مبلغاً معيناً محدداً من الضرائب ، وربما كانت العادة أن تحصّل هذه الضرائب من قبل وكلاء للمستفيد الرسمي ، ولكن دون التفات رسمي الى الاشخاص الذين يملكونها . وكانت هناك في « ناحيـة

الخليل » ٧٦ « مزرعة » من طراز « تابع برية » هذا وعلينا أن نتوقع وجودها في السفوح الجنوبية لمرتفعات « الخليل » حيث لم نتعرف الا على بضع مزرعة قليلة منها . ومن أصل ٢١٠ مزارع في « ناحية الخليل » تنتمي ٧٦ مزرعة إلى هذه المجموعة .

٥ ـ المراحل الانتقالية بين الاقتصاد الفلاحي والاقتصاد البدوي ومعاملتها مالياً :

إننا نعرف مراحل عديدة من الانتقال بين طراز الحياة المستقر والطراز البدوي في كل أصقاع الشرق الاوسط . وقد اعتدنا استعمال التعبيرين « نصف متحضر » و « نصف بدوي » لهذه المجموعات رغم أن هذا وصف يخلو الى حد كبير من الدقة . ولابد أن هذا الوضع الوسط للقبائل المستقرة الى حد ما أو البدو الذين يقومون بشيء من الزراعة قد ذكرته ايضاً السلطات المالية العثمانية . ولابد أن امكانية السيطرة المالية كانت تتضاءل بشكل يتوازى مع تضاؤل درجة التحضر . وقد أخذت الادارة العثمانية هذا الامر بعين الاعتبار عن طريق ممارسات في التسجيل متباينة . فمرة أخرى نجد نوعا من المقياس المتدرج من القروي المسجل والخاضع للضريبة بشكل « طبيعي » الى البدوي غير الخاضع للسيطرة .

بالاضافة الى معظم القرى التي عليها أن تدفع الضرائب الشخصية والزراعية المعتادة نجد بعض القرى حيث يذكر اسم قبيلة بدلا من اسم قرية طبيعية . فالعنوان « قرية » يذكر تحته في هذه الحالات : « جماعة س » . وفي حالات أخرى تتشكل القرية من « محلتين » أو ثلاث وتسمى احدى هذه « المحال » أو اثنتان منهما « محلة جماعة س » . ومن ناحية أخرى ، فان الضرائب هي الضرائب الطبيعية المفروضة على « الفلاحين » ، ولايجد المرء حصة رئيسية مخصصة لضرائب الحيوانات . ونجد في هذه الحالات وضع القبائل المستقرة على نحو كامل أو شبه كامل التي لم تعد تقاليدها البدوية تظهر الا في أسمائها . والمعاملة الادارية لهذه القبائل لاتختلف عن معاملة القرى العادية الاخرى .

وتتمثل الخطوة التالية بالوحدات المالية المصنفة كـ « جماعة » وليس كـ « قرية » . ولكن حسبما يذكر « الدفتر » على هذه الوحدات أن تدفع ضرائب على حيوانات مختلفة وعلى المنتجات الزراعية ايضا . و « جماعة

تركمانان سواحلي » في « ناحية ساحل عتليت » مثال على ذلك . فهي بالاضافة الى الضرائب على الجواميس والحيوانات الصغيرة عليها أن تدفع ضرائب على القمح .

وهناك طراز آخر من « الجماعة » احتفظ بقدر أكبر بعض الشيء من طريقة الحياة البدوية واقتصادها . اذ أن عددا معينا من قبائل السهول الفلسطينية ، بل وبعض الفروع القبلية لـ « جماعة تركمانان حوران » كانت تدفع ضرائب محددة على حيواناتها . وهذه الضرائب هي في بعض الحالات ضريبة « رسم ماعز ونحل » ، وهي ضريبة كان على القرى أيضا أن تدفعها ، وأحيانا « رسم غنم » . والاكثر أهمية هو « رسم الجاموس » ، الذي كان يحصّل من عدد من قبائل الساحل الفلسطيني ومن القبائل المستقرة قرب حوض « الحولة » . ومربو الجاموس هم عادة أقل تنقلا من البدو الاخرين ، اذ أن عليهم البقاء ـ على الاقل بقاء فصليا ـ قرب مناطق المستنقعات ولذلك فقد كانت السيطرة عليهم أسهل . وكان بالامكان أن يفرض عليهم « بادي هوا رسم عروس » ، وهذه اكثر الضرائب الشخصية شيوعا .

ولكن بالنسبة لمعظم القبائل ليس هناك تحديد لضرائب الماشية المفروضة عليها . وكان عليها أن تدفع نوعين من الضرائب فقط : ضريبة « بادي هوا ورسم عروس » التي لم تكن عادة تعطي أكثر من مبلغ زهيد ، وقد يظهر مبلغ محدد تحت العنوان « عادت » أو « عادت عربان » أو « عادت عربانية » أو « عادت جماعة » . وأحياناً كان العنوان « بهر خانة في سنة » (عن كل أسرة في السنة) يستخدم للحفاظ على التعداد الفردي الصوري ، ولكن المبلغ المذكور تحت هذا العنوان هو مجموع مدور مرة اخرى .

ومن الممكن رؤية اختلاف معين في درجة السيطرة الادارية في كون هذه الضرائب تدرج أحياناً لكل قبيلة فرعية وأحياناً (في الحالات الواضح فيها أن السيطرة كانت أقل تماسكاً) كمجموع « للطائفة » بأكملها . ومع ذلك يجب اعتبار جميع هذه القبائل التي جاء ذكرها بدواً حقيقيين .

ووجد وضع مختلف مثير للاهتمام في « لواء تدمر » أيضا . فبالاضافة الى ست قرى وثلاثين « مزرعة » ، نجد وحدات مالية من الواضح أنها تشير الى مجموعات بشرية ذات نظام نصف بدوي . فقرية « تدمر »

نفسها ، وفيها ٢٠٠ « خانة » و ٢٢ « مجرد » ، عليها ان تدفع ٣٢٠٠٠ « أقجة » . ولكن بالاضافة الى هذا يرد ذكر « محصول محلة ي قرية ي تدمر » بمقدار ٩٠٠٠٠ « أقجة » كوحدة مالية منفصلة دون ادراج أي عدد للسكان أو أية أسماء لهذه « المحال » المزعومة . ماالذي يمكن أن تعنيه كلمة « محلة » هنا ؟ ان واحة تدمر فيها تجمع سكني واحد فقط لابد انه كان القرية المتجمعة بكثافة على أطلال المعبد . ولم يكن هناك مكان لأية « محال » أخرى في الواحة ، وليس هناك آثار معروفة تدل على مثل هذه « المحال » . وعلينا أن نفترض انه أقيمت مجموعات من الخيام في أطراف الواحة كانت محددة إلى حد ما ولذا صنفت ك « محال » وليس ك « جماعات » . والبدو السابقون الذين اشتغلوا بالزراعة ولكنهم مازالوا يفضلون العيش في الخيام يشكلون ظاهرة شائعة حتى يومنا هذا . وهذه خطوة انتقالية عامة بين الحياة البدوية والحياة المتحضرة . لذا علينا أن نتوقع في أطراف تدمر ضرباً من طريقة الحياة نصف البدوية عاشها عدد كبير من الاسر . وتدفع هذه الاسر ثلاثة اضعاف ما يدفعه سكان الواحة تقريباً ! وإذا أخذنا دليلا الفارق في مقدار الضرائب بين البدو والقرويين في « الالوية » الأخرى ، فان هذا يعني أربعة الى خمسة أضعاف عدد سكان الواحة . ولكن سكان هذه « المحال » لم يتم ادراجهم او إحصاؤهم ، بل وليسوا مذكورين بأية أسماء قبلية .

ثمة وضع مختلف في قرية يمكن قراءة اسمها على انه « جزيل » في نفس « لواء تدمر » . فتحت عنوان « قرية » نجد الاسماء الافرادية لسكان هذه القرية (الذين هم جميعاً من المسيحيين) مدرجة على شكل ٦٠ « خانة » و ٥ « مجرد » . ولكن فوق العنوان نجد ١٥٠ « خانة » من السكان المسلمين مدرجة بأسمائها الافرادية ولكن دون تصنيف خاص . فهذه « الخانات » بالتأكيد ليست مجملة تحت عنوان « قرية » . ولابد ان هذا يعني أن مجموعة من السكان المسلمين كانت تعيش في هذه القرية أو قربها واستطاع المسجل احصاءأفرادهاولكنه لم يستطع تحديد الضرائب عليهم . وان ربط هذه المجموعة بقرية وعدم وجود كلمة « جماعة » يوحي مرة أخرى بافتراض أسلوب حياة نصف بدوي الى حد ما .

ويظهر من كلا المثالين المأخوذين من « لواء تدمر » أنه ليس من الضروري أن تسير درجة السيطرة المالية بشكل يوازي ــ علىنحومطلق ــ درجات استيطان البدو السابقين . وبالطبع ، في المناطق التي ترتفع فيها

كثافة الاستيطان والخاضعة للسيطرة الكلية ، لابد أن كل خطوة باتجاه اسلوب الحياة المستقرة أدت الى سيطرة حكومية اكثر فعالية . ولكن في المناطق التخومية ـ التي كانت خاضعة لسيطرة سطحية فقط ـ لم يكن هذا ممكنا . وكانت النتيجة وجود مجموعات قبلية نصف بدوية « حرة » .

والخلاصة ؛ نجد ان الحكومة العثمانية لم تحاول أن تجد أشكالا خاصة من الادارة في المنطقة المتاخمة للصحراء ؛ اذ لم يكن هناك وضع استثنائي لاية وحدة ادارية . ولم تتميز هذه المنطقة سوى ببضع طرق مالية خاصة قليلة جدا . ولم تلجأ الادارة مرة أخرى الى مبدأ « الأوش » القديم الخاص بمنطقة الحدود العثمانية المواجهة للكفرة بأي شكل معدل لتنظيم منطقة الحدود المقابلة للبدو . فقد كان هؤلاء مسلمين ؛ وبصفتهم هذه كان يجب احتواؤهم ، رغم المشكلات التي كانوا يسببونها . وبدلا عن ذلك النظام ، حاول مسؤولو الحكومة تطبيق نظام الادارة التقليدي الذي كان يجري استعماله في الأقاليم الاوربية والاناضولية والسورية التابعة للامبراطورية وحاولوا تطبيق العادات القديمة لفرض الضرائب السورية ؛ التي كانت تعطى صبغتها الشرعية من قبل « القانون لار » .

ولكن في تفاصيل هذا التطبيق العثماني ؛ مارس مسؤولو « الدفتر خانة » مرونة تسترعي النظر . لقد استعملت التسميات الرسمية ، ولكن لم تستعمل جميعها في كل مكان . ولقد طبقت الضرائب العادية ، ولكن لم تطبق كلها على جميع الوحدات المالية . واقتصر الاستعمال على طرق الادارة وفرض الضرائب التي كانت تتوفر لها فرصة معينة للتحقيق . وقد يكون المركز « شبه الرسمي » لـ « حكام » معينين والمبالغ المحددة « المدورة » للضرائب البدوية رمزاً لهذه السياسة الداخلية الواقعية في القسم الاخير من القرن السادس عشر .

Hütteroth, W. D., and K. Abdulfattah : Historical Geography of Palestine, Transjordan and Southern Syria in the Late 16th Century.

(الجغرافيا التاريخية لفلسطين وشرق الاردن وسورية الجنوبية في اواخر القرن السادس عشر)

— Erlangen Geogr. Schriften, Sonderbd. 5, Erlangen 1977.

Gubser, P. : Politics and Change in al- Karak, Jordan.

(السياسة والتغيير في الكرك ، الاردن)

— Middle Eastern Monographs 11, London 1973.

Lewis, B. : Studies in the Ottoman Archives I

(دراسات في الأرشيف العثماني ١)

- Bull of the School of Oriental and African Studies XVI, 1954.

---

(١) تستخدم الاقواس الصغيرة هنا للدلالة على الكلمات والعبارات التي استعملها الكاتب بلغتها الاصلية (التركية أو العربية) في بحثه ، وبالطبع تستخدم هذه الاقواس أيضا في الاماكن التي استخدمها فيها الكاتب نفسه .

(٢) في الاصل recipients of revenues from nomads اي مُتَلَقّو الموارد (أو الدخول) من البدو .

تغير طرق التجارة في القرن السابع عشر

والتنافس بين :
ميناءي طرابلس والاسكندرونة

الدكتور : خليل ساحلي أوغلو
(جامعة استانبول)

تمهيد

كانت موانىء شرقي البحر الابيض المتوسط جنوبا وشواطىء البحار المتصلة به شمالا شرقيا من ايجه ومرمره والبحر الاسود وبحر الأزرق ملتقى تجارة المشرق الاقصى والمغرب الاقصى قبل وبعد اكتشاف الغرب طريق الرجاء الصالح الذي ساعده على الاستغناء عن وساطة الشرق الأوسط والادنى في هذه التجارة . فالغرب بعد ان انكمش على نفسه بعد انتشار الاسلام عاد اثر الحروب الصليبية يحارب ويتاجر في موانىء الشرق حتى استغنى . وكانت تجارة الغرب مركزة خلال الوجود الصليبي على الساحل الشامي حتى تمكن المماليك الذين اوقفوا حملة المغول في عين جالوت من طردهم من عكا آخر حصن لهم على هذا الساحل . وقربت الاحداث وسائل التفاهم والتحالف بين المغول وبين الغرب فاخذ تجار الافرنج من بنادقة وجنويين وغيرهم بعد تخليهم عن التجارة مع المماليك يتاجرون مع المغول عن طريق الاناضول والبحر الاسود وبحر الازرق ، وتمكنوا من زيارة الصين والهند عبر تلك الطرق . وكانت احدى هذه الطرق تبدأ من اياس (بمرطه ليق اليوم) على الغرب من خليج الاسكندرونة فيبلغ أرضروم ومنها بلاد الايلخانيين أو يبلغ آمد الى أن يصل الى خليج البصرة. وظلت هذه التجارة مزدهرة حتى انهيار دولة الايلخانيين فاضمحلت لغياب الامن على الطرق وابتدأ بروز طوائف الملوك في الاناضول وعلى حدوده الشرقية فعاد البنادقة يتاجرون مجددا مع المماليك عن طريق الاسكندرية بينما بقي الجنويون في منتهى طريق تجارة الحرير وهي معابر البحر الاسود وبحر مرمرة . وقد قل الوارد فيه بغياب الامن على الطرق بعد انقراض دولة الايلخانيين « سنة ١٣٣٥ » وحذت جنوة حذو البندقية بالتجارة مع الجنوب وتلتها فلورنسا وبرشلونة وغيرها من المدن التجارية الغربية . ثم تم اكتشاف راس الرجاء الصالح على يد البرتغاليين وبذلك

بدأ البحر الابيض المتوسط يفقد مركزه التجاري القديم . غير ان البرتغاليين وبعدهم الانكليز والهولنديين في القرن السابع عشر وان عرقلوا هذه التجارة فانهم لم يستطيعوا ان يستأصلوها ويقضوا عليها القضاء البات . وبقي القسم الذي أتيح له أن يبلغ شواطىء البحر الابيض المتوسط من هذه التجارة أحد أسباب رفاهية البلاد التي يمر بها مدة قرنين آخرين فالافرنسيون والانكليز والهولنديون بعدهم بعدما بدؤوا يساهمون في تجارة البحر الابيض المتوسط بعد البنادقة والجنويين في القرنين السادس والسابع عشر كانوا يفضلون شراء البضائع الشرقية من سواحل البحر الابيض لبعد الطريق الثاني وكثرة الكلفة .

موانىء الساحل الشامي في السادس عشر :

كانت طرابلس وبيروت أنشط موانىء الساحل الشامي في أوائل القرن السادس عشر وكانا ميناءين للشام . فالشام كانت المدينة التجارية في ذلك العهد . وتجارة البحر الاحمر وقوافل غربي الجزيرة العربية ومنها قافلة الحج كانت تنعش هذه التجارة حتى منتصف هذا العصر ، وفي تطور عدد السكان وتطور دخل مقاطعات البلد وحاصل جمركها دليل ذلك كما يبين الجدول التالي :

سنة :	٩٥٤(١)		٩٧٥(٢)		١٠٣٣(٣)	
	عائلة	مجرد	عائلة	مجرد	عائلة	مجرد
مسلم	١٢٩٤	١٧٩	٨٢٣		٧٤٩	٢٦٨
مسيحي	٣١٦	٦٥	٤٠٢		٤٣٢	—
يهودي	١٧٨	١	١٣٢		١٣٩	—
الجمرك	...ر٥٠٠ر١		...ر٢٥٠		...ر٢٥٠	اقجه
مجموع أموال مقاطعات البلد	٦٦٥ر٦١٨ر٤		٣٢٤ر٥٤٢ر١		٦٤٠ر١٢٩ر١	اقجه

وشهدت طرابلس رغم هذا التقهقر الظاهر في دفاتر الاحصاء نشاطا تجاريا سنة ٩٨٤ هجرية فقد طلب زعيم من زعماء صاروخان يدعى حسن ضمان المقاطعة وكانت بيد أولاد سيفا . فزاد على المبلغ الذي كان عليه الضمان /...ر٢٠/ ذهب(٤) ثم زادعلى هذا ، بعد شهر ونصف تقريبا منه محمد جاويش الناظر على أموال المقاطعة المذكورة /...ر٢٠/ ذهب آخر على شرط أن يكون ضمان المقاطعة لمدة تحويلين أي لست سنين(٥) .

ويلي بيروت طرابلس من حيث الأهمية كميناء على الساحل فان التزام مقاطعة جمركها لمدة ثلاث سنين في ١٤ رمضان ٩٧٨ هـ ، كان ٦١٥١٤٤ اقجه فيكون نصيب السنة ٢٠٧٥٧٢ اقجه(٦) والجدير بالذكر أن عدد سكانها كان يبلغ ٦٦١ عائلة و ١٧٠ مجرد مسلم و ١٥٠ عائلة مسيحية و ٩ عائلات يهودية في سنة ١٠٠٥ هـ . وكان مجموع حاصل مقاطعات البلد السنوية في ذلك الجمرك أيضا يبلغ ٧٩١٣٠٠ اقجه . أما حاصل جمرك مينائها فكان يبلغ ١٧٠٠٠٠ اقجه سنويا وحاصل ميزان حريرها ٨٠٠٠ اقجه(٧) .

أما باقي الموانىء فكان عدد سكانها وحاصل مقاطعات جماركها على النحو التالي :

	(٨) غزة	(٩) عكا	(١٠) صيدا	(١١) صور والمعشوقة	(١٢) اسكندرونة	(١٣) أياس
عائلة مسلمة	٧١٤	٨٠	٣٨٣	٨١	—	١٨٦
مجرد مسلم	١٠٣	١٥	١٣٤	٦	—	١٨
عائلة مسيحية	٣٠٢	—	٢٤	—	—	٢٩ أرمني ٣ قبارصة
مجرد مسيحي	—	—	—	—	—	١
عائلة يهودية	٨٣	—	٣	—	—	—
مجرد يهودي	—	—	—	—	—	—
سامرى	٨	—	—	—	—	—
جمرك الميناء	—	١٣٥٠٠	٢٥٠٠٠	٢٣٧٦	—	٥٠٠٠٠
السنة	دورمحمد الثالث	٩٥٥	١٠٠٥	٩٥٥	٩٨١	٩٢٨

لاتذكر دفاتر الاحصاء ميناء في غزة بل تذكر الباج وهو كالجمرك على الطريق البرية وكان يجبى في غزة وفي خان يونس وخان شدود ويبلغ مجموع حاصله / ١٠٠٠٠٠/ اقجه . أما باج البهار (التوابل) الذي كان يجبى من قوافل الحج فكان يحصل منه /٥٠٠٠٠/ اقجه . أما صور فتشير دفاتر الاحصاء على انها قرية عدد سكانها مع قرية المعشوقة من حيث المجموع هو كما في الجدول . أما الاسكندرونة فلم تكن الا مزرعة في سنة ٩٨١ مجموع اعشار حاصلاتها وغير ذلك من رسوم عرفية كان يبلغ /٣٣٠٠/ اقجه ولم تكن مسكونة . أما أياس فيظهر انها حافظت على

منزلتها كميناء في جنوبي ساحل الاناضول الشرقي وكان دخل جمركها في سنة ٩٣٢ هجرية ٥٢٢٠٠ اقجة . وبالرغم من ان دفتر احصاء ٩٨١ هجرية لايذكر اسكله (ميناء) في اسكندرونة فان اجمال احصاء ٩٣٢هـ . يذكر ان حاصل اسكله اسكندرونه مع اسكله ارسوز مع اسكله‌صوغيجاق في ناحية عزير كان يبلغ ١٥٠٠٠ اقجه سنويا(١٥) ويقول عنها المؤرخ القرماني في حدود ١٠١٣ هـ : انها «بليدة» كانت على ساحل البحر والآن خراب وفيها عين ماء عذب وهي على ثلاث مراحل من حلب ، بناها أحمد بن أبي داود . وكانت الثغر على ساحل البحر والان جدد بقربها ميناء للفرنج وبني فيها بعض بيوت ويخشى على بلاد الاسلام من ضرر الكفار فيها(١٦) .

وبالرغم من كون موضوع البحث يدور حول التنافس مابين مينائي الاسكندرونة وطرابلس ـ فالواقع ان المنافسة كانت في الأصل هي بين البلدين دمشق وحلب . وكان عدد سكانهما في آخر القرن السادس‌عشر كما يلي :

البلد	حلب سنة ٩٩٢(١٧)	دمشق سنة ١٠٠٥(١٨)
عائلة مسلمة	٧٨٨١	٦٧٤١
مجرد مسلم	٩٠٩	١٤٥١
عائلة مسيحية	٣٠٩	٧٩٨
مجرد مسيحي	١٥	٢٦٤
عائلة يهودية	٢٣٣	٢٠
مجرد يهودي	—	٦

وحاصل جمرك دمشق كان ـ ٢٤٥٠٠٠ اقجة ـ والدلالة الجوانية بين المسلمين والنصارى ٦٠٠٠٠ اقجه . أما ما يتعلق بالتجارة الخارجية من مقاطعات حلب فتطورت كما يلي :

سنة	(١٩) ٩٤٤	(٢٠) ٩٥٨	(٢١) ٩٧٨	(٢٢) ٩٩٢
تمغا(خاتم)على(الاقمشة) المصرية والغزاوية والبصراوية	١٠٠٠٠٠	٢٦٦٤١٧	٢٥٦٤١٧	٢٦٦٤١٧
ميزان الحرير	٤٠٠٠٠	٤٠٠٠٠٠	٣٦٧١٠٠	٤٠٠٠٠٠
البـــاج	٢٥٠٠٠	٦٥٠٠٠	٦١٦٦٦	٦٥٠٠٠
دلالة اقمشة الافرنج	٢٠٠٠٠٠	٣٤٠٠٠٠	٣٣٣٣٣٣	٣٤٠٠٠٠

لعل الانخفاض البسيط في سنة ٩٧٨ يرجع لسبب الحرب لفتح قبرص . ويشاهد الاستقرار في دخل المقاطعات في النصف الثاني للقرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) . وفي أرقام دخل حلب وفي عدد سكان البلدين دليل على ازدهار حلب ونشاطها التجاري بالنسبة الى الشام ، فان حاصل جمرك الافرنج لم يكن في حلب أكثر من / ٢٠٠٠٠ /اقجه ودلالة أقمشة الافرنج من ٥٢٠٠ اقجه في سنة ٩٢٦ هجرية(٢٢) ومادمنا نذكر كلمة مقاطعة والتزام فاننا نحتاج الى شرح بسيط لفهم دواعي المنافسة بين الملتزمين .

المقاطعة والالتزام :

لم يكن للدولة العثمانية ، وشأنها في ذلك شأن معاصراتها من الدول . جيش من الموظفين كما هو في زماننا الحاضر . بل كانت تفرد الخدمات أو الجبايات فتجعلها مقاطعة بمعنى انحصار في أكثر الاحيان . فالمقاطعة هي ما أفرد من أقلام دخل الخزينة من جباية (كجباية اعشار وخراج الخواص السلطانية في منطقة ما أو جباية جزية نصارى محل ما أو جمرك ميناء ما . . .) أو عمل (كنظارة على التنجيم في معدن فضة أو نحاس واخذ وجباية الحصة العائدة للميري ، وهي الركاز الاسلامي ، وشراء الباقي من أصحابها على حساب الخزانة . أو تشغيل دار ضرب وصك أحد المعادن الثلاثة ، الذهب والفضة والنحاس فيها بالمرة أو كل على حدة) . وضمن أو لزِّمَ لبعض الاشخاص على المستوى الفردي أو المجموع من الشركاء . وكانت المقاطعة تضمن بالمزايدة فمن زاد وجاء بكفلاء معتبرين التزم المقاطعة لمدة ثلاث سنين كان يعبر عنها بـ (تحويل) ويمكن الجمع بين تحويلين أو ثلاث كما انه كان في استطاعة أي كان أن يزيد في سعر المقاطعة قبل انقضاء التحويل ويلتزمها ابتداء من يومه حتى آخر التحويلة . ويحاسب الملتزم الاول على حساب قسط اليوم ، أي على ما يجب على ذمته من حاصل قسمة بدل الالتزام على عدد أيامه مضروبا بعدد الايام الذي تصرف بها بالمقاطعة . ومن لايستطيع اداء ديونه يصادر شخصيا ثم يصادر كفلاؤه ان لم يؤدوا مقدار ماكفلوه به ، اذ ليس من المشترط ان يلتزم كل واحد منهم بكل المبلغ ، ثم يسجن هو وقد يقتل فالملتزم يضطر لأن يجبي على الاقل ما يفي بقسط اليوم بالاضافة الى نفقاته الضرورية على الاقل ، ثم على الحصول على ربح اذا أمكن . فان امكان احالة المقاطعة خلال التحويل الى من يزيد يقلل بالتالي من نصيب الربح للملتزم الاخير . ولهذا

كان على الملتزم ان لاتفوته الفرصة في تحصيل وجباية نصيب من المال ولو كان ذلك في غير صالح اقتصاديات البلاد . فقد كان ملتزم جمرك حلب في منتصف القرن السابع عشر عندما توقف العجم عن جلب نوع من القماش القطني كان يدعى (ببوغاسي) مصبوغ بالاحمر بسبب أن اهالي ديار بكر أصبحوا يصنعونه ويجلبونه الى حلب للتجارة ، راجع الباب العالي لكي يسمح له لاخذ جمركه منهم لأن حاصله قل بسبب امتناع العجم عن جلبه(٢٤) كما ان ملتزما آخر في سنة ١٠٨٣ هـ عندما اتقن الحلبيون صنع الاطلس الذي كان يجلبه الافرنج ورآه مكسدا عندهم تكررت القضية وطالبهم بالجمرك(٢٥) والمصلحة كانت تقتضي حماية الصناعة المحلية .

وتجبر نتائج الالتزام عند عدم استطاعة الملتزم اداء مايتوجب عليه أن يسعى ليوفر بدل التزامه ولوبطرق شاذة احيانا فباستطاعة امين جمرك أن يتساهل مع التجار في مادة ماويكتفي بجمرك بنسبة دون النسبة القانونية فتأتي السفن الى ميناته وتهجر الميناء المجاور وهذا ما كان يفعله ملتزمو الموانىء الصغيرة المجاورة لميناء كبير . فيضطر ملتزم هذا ان يدخل هذا الميناء ضمن مقاطعته والطريق مفتوح ، ويستطيع أن يرفع كلمة الالتزام في أي وقت أراد وقد كانت جبلة واللاذقية في عهدة ملتزمي طرابلس لمدة ست سنين في أول جمادى الاولى سنة ٩٨٢(٢٧) وكانت قوافل التجار البرية تغير طريقها أيضا اذا تساهل معها أمين جمرك على طريق آخر(٢٨) .

اسكندرونة وطرابلس في القرن السابع عشر الميلادي :

كان التاجر الشرقي اذا جاء من طريق شمالي الاناضول يقدم الى استانبول أو بورسة فاذا اتجه الى الجنوب قدم الى حلب عن طريق دياربكر . ولهذا كان التاجر الغربي ابتداءً من النصف الثاني للقرن السادس عشر يرغب في القدوم الى حلب وكانت سفنه تقدم الى طرابلس اذهي الميناء أو الاسكله الذي يجبى فيها الجمرك . ولعل لمينائها ميزة من جهة الامن ولكن الوثائق صامتة من هذه الناحية . ولكن التاجر الغربي وان قدم الى ميناء طرابلس فانه كان يتوجه في النصف الثاني من القرن المذكور الى حلب للتجارة(٢٨) فان سوق دمشق لم يعد يكفي التاجر الغربي . أولا لان دمشق بقيت مقتصرة على قوافل الحج وبعض القوافل التي كانت تأتي من الجنوب حاملة أنواع التوابل . بينما كان يقصد حلب عدة قوافل منها قوافل العراق ابتداء من البصرة أو بغداد فالموصل ، وقوافل ايران وماوراءها من هند وربما صين عن طريق شمالي العراق فديار بكر أو من

جنوبي شرقي الاناضول من وان فديار بكر . أو من ارضروم فسيواس .. وقوافل الاناضول الغربي اعتبارا من استانبول أو من ازمير أو من بورسه أو من قرمان . لهذا فسوق حلب أنشط واغنى والطلب فيه أوسع واكثر. ثم ان لحلب ميزة اخرى فهي أقرب من العاصمة والامن فيها أكثر فان القوافل كانت تتعرض لسطو البدو في بلاد الشام(٢٩) كما ان الحكام والدروز بالقرب من طرابلس كانوا مصدر شكوى للتاجر الغربي . بينما حلب كانت من حيث الامن في موقع أحسن . ولايقلق حلب في تجارتها مع الغرب عرب البادية فالوجه البحري تحفظه قلعة بقراص في المضايق من اسكندرونة الى العمق . وليس بين البحر وبين حلب الا ثلاث مراحل . ففي بقراص قلعة وزاوية بنيت في عهد سليمان القانوني لحماية المارة والحج الذي يعبر منه .

اما خليج الاسكندرونة فانه مرسى أمين . ولكن القراصنة كانت تطرقه من وقت لآخر سواء أكان ذلك للنهب عند مرور قوافل الحج أو القوافل التي كانت تحمل جبايات ايالات الجنوب الى العاصمة ، أو للتمون من الماء العذب ، فان اسكندرونة معروفة بالعين أو النبع الذي يوجد في سفح الجبل المحيط بها . وكثيرا ما كانت تسميها الوثائق اسكندر بيكارى (بلفظ الكاف نونا) أي عين نبع الاسكندر وخلوها من السكان طيلة القرن السادس عشر يبدو أنه كان خوفا من القراصنة وكان على ساحل الخليج الشرقي قلعة في باياس(٣٠) لأجل حماية المنطقة من القراصنة فيها حامية كان محظوراً عليها الخروج الا لامر خطير . كما امر السلطان سليمان القانوني أيضا ببناء برج في داخل البحر مقابل القلعة كالبرج الذي في البحر عند مدخل البوسفور(٣١) وبنى آخر الوزراء العظام للقانوني والذي تصدر الوزراء في عهد ابنه سليم الثاني وأول أيام حفيده مراد الثالث ، محمد باشا الصوقللي ، خانا قرب تلك القلعة وعمارة أي تكية ومشتملاتها واوقف عليها مزارع ملّكه اياها سليم الثاني منها أوزون جنلر واغنياز وغريباز و .... واستجلب ٥٣١ عائلة فاسكنهم حول القلعة واعفوا من كل الضرائب ، المسلم منهم ما خلا العشر والذمي منهم ماعدا الخراج مقابل حفظهم المضيق (الدربند) . فان المنطقة كانت تأتيها سفن الكفار ليتمونوا بالماء العذب فيستفيدون من هذه الفرصة ويعتدون على سكان القرى المجاورة . واقيم سوق جمعة حول الخان هو علامة تشكيل بليدة . سجل

دفتر الاحصاء من حاصل مكوس السوق على البيع والشراء من خيطان القطن والاحتساب والمصبغة والمذبحة ١٠٠ اقجه كما انه بنى اسكله ورصيف متين بالكلس والحجر أمام الخان لترسو عندها السفن ودون الدفتر للوقف حاصلها وهو /١٥٠٠/ اقجه يؤخذ من الحربي « التاجر الاوروبي غير المعاهد » اذا ماجاءها جمركا ٣٪ من قيمة بضائعه ومن المسلم والذمي ٢٪ تصرف على عمارة الخان والقلعة والزاوية(٢٣) وكان هذا قبل ٩٨١ هجرية . لان محرر ولاية عزير قد سجل هذا كله في دفتره الذي اتمه خلال هذا العام .

ولم تكن اسكندرونة في هذا الوقت كما سبق ان ذكرنا الا مزرعة خالية من السكان حسب هذا الدفتر . اما المنافسة بين هذه وبين طرابلس التي قاومت كل المنافسات من الموانىء المجاورة واستطاعت أن تسيطر على الوضع طيلة القرن السادس عشر نراها تخفق في محاولاتها منذ أواخره . فالتاجر الغربي أخذ يفضل الشمال ويستخدم الحكام لتمشية مصالحه . وأصبحت القضية قضية سياسية يتدخل فيها السفراء وتناصل الدول . فان والي حلب أحمد باشا ودفتر دار حلب نوح كتبا الى الباب العالي قائلين بان الفرنج الافرنسيين والبنادقة وغيرهم قد انقطعوا عن ميناء طرابلس من خوفهم من الدروز ومن غير ذلك . وقل نتيجة لهذا دخل الخزينة . فالاصلح نقل الميناء الى اسكندر بيكاري (أي عين الاسكندر أو اسكندرونة) . فاعترض بعدها دفتر دار طرابلس عثمان . ثم سعى فحول الميناء من جديد الى طرابلس واجبر تجار البندقية وفرنسا للمجيء اليها . فانقطعت البضائع من حلب وعزت فكتب الوالي احمد باشا من جديد وحول الميناء ثانيا الى اسكندر بيكاري . فشكى دفتر دار طرابلس مرة أخرى من ضعف الخزانة وقلة الجبايات في طرابلس وطلب تحويل الميناء اليها . وحل الحلبيون المشكلة بطريقة طريفة أن تكون المقاطعة تابعة لطرابلس يؤدى المال الى دفتر دارها وتبقى الميناء اسكندرونة وضمنها على هذه الصورة ولدا سفر ابن منصور الذمي ملتزم معظم مقاطعات حلب اعتبارا من شوال عام ٩٩٩ لمدة أربع سنوات وزاد في سعر المقاطعة ٤٠٠٠٠ اقجة . فليس المهم دفع بدل المقاطعة لدفتر دار حلب او دفتر دار طرابلس ، فانه بالنتيجة يذهب الى الخزانة في العاصمة . ولكن المهم المتاجرة . والتجارة بهذا تتركز في حلب . ومن هنا كانت بداية اسكندرونة الآهلة . فبعد ان توفق العامل لتحويل الميناء الى الشمال طلب ان يؤذن لمن يشاء ببناء خان وبيوت لنزول التجار وخزن البضائع(٢٤) والذي يرويه القرماني في تاريخه عنها هو بعد هذا بقليل .

ويفهم من فرمان ارسل الى امير امراء حلب بعد شهر من هذا ، اي في ٩ ربيع الاخر سنة ١٠٠١ هجرية ٢٣ كانون الثاني ١٥٩٣ ان الباب العالي رضي بجباية جمرك مايقدم الى حلب في اسكندربيكارى . وما يأتي الى الشام في ميناء طرابلس(٣٥) . ثم جاء في عرض بهذه المناسبة رفع الى الوزير الاعظم ، والى محمد باشا النشانجي يستحثهما على بناء دار جمرك ومخازن وخان لاقامة التجار وتخزين بضائعهم في اسكندر بيكارى التي صدر الامر لجعلها ميناء لحلب . فان الحجر والكلس والخشب متوفر والكلفة زهيدة فيلحقونها بأوقافهم وقد تأتي الذخائر من اسكندرية مصر الى حلب بواسطة اسكندر بيكارى فيحصل فيها الرخاء وينالون ثواب ذلك وثواب تجنب التجار اعتداء الدروز والحكام وخطر قطاع الطريق في البر(٣٦) .

ولم يقف الامر عند هذا الحد فان دفتر دار حلب تمكن من اقناع الديوان برفع دفتر دارية طرابلس والحاق الولاية نفسها بحلب . فعندها كتب ابن سيفا ، وكان ناظر أموال طرابلس الى الباب العالي لاعادة الدفتر دارية الى طرابلس . وقبل أن يجمع أقساط ايام ما على ذمة العمال في الوقت المناسب وتسليمها الى الدفتر دار وارسال مايتحصل من أموال كل ستة أشهر مرة الى الديوان . وتكفل بدفع عشرة الاف قطعة ذهب زيادة على معدل ماكان يرسله العمال ابتداء من عام /١٠٠٠/هـ . لأن دفتر دار حلب كان لايسجل بعد ضم مقاطعة طرابلس بحلب كل ما يبعثه العمال من أموال في دفاتر الخزينة فتضيع عليهم ويبقون مديونين، فضلا عن ان الطريق من طرابلس الى الشام فحلب لاتخلو من المخاطر لتعرضه لسطو البدو وقطاع الطرق . وهكذا صارت طرابلس بناء على طلب ابن سيفا مقر دفتر دار من جديد وعين دفتر دار طمشوار الكاتب محمود دفتر دارا في طرابلس(٣٧) .

وكانت اسكله اسكندرونة في سنة ١٠٠٥ حسب دفتر يومية (روزنامجه) خزانة حلب تحت التزام موسى وشمائيل اليهوديين وشركائهم . ولكن دفتر دار طرابلس عندما أراد ان يحول موضع الاسكله الى طرابلس من جديد ، يذكر انها كانت بيد سفر (ابن منصور الذمي) وهو الذي سعى بنقلها الى الاسكندرونة كما ضمنها بمبلغ /٤٠٠٠٠/ ذهبا. ويضيف بان اسكندرونة في منعزل عن الطرق وبعيدة عن الرقابة فلهذا كان لايدفع عاملها الى الخزانة أكثر من ١٥٠٠٠ ذهبا سنويا ويقترح ضم اسكندرونة الى طرابلس وهو يتكفل بانه سوف يجد من يضمن الميناء بـ

٧٥٠٠٠ ذهبا سنويا حيث ان ضمانهما كان قبل سنة ١٠٠٥ يبلـــغ /٧٢٠٠٠/ ذهبا(٣٨) ولكن سفر ضامن اكثر مقاطعات مدينة حلب نجح في افشال محاولة دفتر دار طرابلس اذ يوجد في دفتر مقاطعات حلب(٣٩) مقاطعة اسكله « بيكار اسكندر » مسجلة باسمه ولمدة ست سنين اعتبارا من أول شعبان سنة ١٠١٠ بمبلغ ٩٦٠٠٠٠٠ اقجة .

وقد دخل الخزانة حسب دفاتر ميزانيات طرابلس الشام من أموال مقاطعة ميناء البلد في هذه الفترة مايلي :

١ ــ من ٢٦ صفر سنة ١٠٠٠ ــ ٢٢ رمضان سنة ١٠٠٠ ــ ٤٤٧٥٢٥ بارة(٤٠) ونسبتها الى أموال الولاية $\frac{1}{2}$.

٢ ــ من ٢٣ رمضان سنة ١٠٠٠ ــ ٢٣ جمادى الاخر سنة ١٠٠١ ــ ٦٨٦٥٩٠ بارة(٤١) $\frac{1}{10}$.

٣ ــ من ٤ محرم سنة ١٠٠٦ ــ ٩ رمضان ١٠٠٦ ــ ٢٠٠٠٠٠ بارة(٤٢) ونسبتها الى أموال الولاية $\frac{1}{7}$.

٤ ــ من ١ جمادى الاولى سنة ١٠١١ ــ ١٧ شوال سنة ١٠١١ ــ ١٠٨٧٩٩٠ بارة(٤٣) ونسبتها الى أموال الولاية $\frac{1}{2}$.

٥ ــ من ١ ذي القعدة سنة ١٠١١ الى آخر ذي الحجة سنة ١٠١١ ــ ١٣٣٠٠٠ بارة(٤٤) ونسبتها الى أموال الولاية $\frac{1}{12}$.

وبما ان نسبة دخل جمرك طرابلس الى دخل خزينة طرابلس كان كبيرا فان دفتر داري طرابلس لم يتخلوا عن فكرة تعطيل ميناء اسكندرونة وكانوا يتشبثون بأذيال اي فرصة تتاح . ففي سنة ١٠١٧ كتب الدفتر دار الى الباب العالي يقول بان بايلوس البنادقة كان يقيم في طرابلس ويقيم الان منذ اقامة ميناء اسكندرونة وبناء قلعة بجانبها ، هناك ؛ أي في اسكندرونة وتقدم سفنهم الى هناك وهم يعتدون على أبناء السبيل وعلى أهالـي الولاية . ويطلب هدم القلعة واعادة البايلوس لكي يقيم في طرابلس(٤٥) .

وترجح كفةطرابلس في سنة ١٠١٨ . فيلتزم احد ارباب التيمار وهو بياله بن عبد الله كلا من مقاطعاتاسكلهطرابلس الشام واسكله اسكندرونة مع جبلة واللاذقية وجبيل والبترون وانفه وانطرطوس بالاضافة الى مقاطعة القلية (الاشنان) وفائدة الملح وميزان الحرير مع الدلالة والترجمانيـة وجمرك السفائن الاسلامية وغيرها لمدة أربع سنين بمبلغ ٨٨٠٠٠٠٠ بارة (والبارة عبارة عن ثلاث أقجات و ٤٠ بارة كانت تساوي الذهبة)

وكفله محمد بك امين سنجق صفد سابقا بشرط ان يكون ناظرا للاموال . وكان ضمان اسكندرونة محسوبا بمبلغ ٣٣٦٠٠٠٠ بارة بينما كان ضمان طرابلس مقدرا بـ ٢٧٢٠٠٠٠ بارة وفي ذلك دليل على نشاط التجارة في الشمال اكثر منه في الجنوب(٤٦) .

وظل نجم حلب وميناء اسكندرونة مرتفعا رغم الحروب المتواصلة مع ايران طوال النصف الاول من القرن السابع عشر ولم تتأثر مقاطعة ميناء اسكندرونة سواءاربطتبمقاطعة ميناءطرابلسأم جمعت كل موانيءالساحل الشامي تحت حزام واحد ، او ربطت هذا الالتزام سواء اكان بدفتر دار حلب أم دفتر دار طرابلس فمصالح التاجر الغربي كانت تقوده الى الشمال ولكنه لم يترك هذه الفرصة سدى . فانه كان يسعى ليستفيد من المنافسة بين الميناءين فيحصل على بعض التسهيلات التي كان يرغب فيها من احد الطرفين ، ثم يعدها حقا مكتسبا يسعى بعد ذلك سفراؤه لادخالها في (العهد نامه) أو الـ Capitulation كما يسموها في الغرب .

التاجر الغربي ومصالحه في هذه المنافسة :

لنذكر ان اول من سعى لاحداث اسكله في اسكندر بيكاري كانوا البنادقة تخوفا من الدروز وظلم الحكام في طرابلس فلما تحولت الاسكله الى اسكندربيكاري(٤٧) وجد التاجر الغربي الفرصة متاحة لتصدير الكثير من المواد الممنوع اخراجها من حنطة وشعير وخيطان وشمع عسل وسختيان اشتروها من موانيء اياس وباياس واسكندرونة مما أدى الى القحط في الولاية(٤٨) .

وكانت الجمارك تجبى اما من العين Specifique او بالمئة كذا من قيمة البضائع Ad valorem عند التوريد وعند التصدير . فاذا كانت الجباية من البالة أو العدل ... ادخل التجار الغربيون الاموال القيمة مع الخسيسة في بالة واحدة ليربحوا الفرق حيث كانوا يعترضون ويمتنعون عن فتح بالاتهم ليؤخذ جمركها في اسكندرونة . وان كان الجمرك على الثوب من القماش زادوا في اذرعته . وان كانت الرسوم الجمركية عن القيمة فانه لم يكن يرضى بان يصنف بضائعهم على انها قيمة (أعلى وأوفر وادنى . بل على سعر واحد). وكانوا لايرضون بان يأخذ الامين الملتزم في الجمرك مثلا /٣/ أثواب من مائة ثوب عوضا عن ٣٪ من القيمة فان اخفقوا سعوا لتعطيل الاسكله بالاتفاق مع دفتر دار الاسكله الاخرى .

وظل الوضع على هذا الحال طوال القرن السابع عشر حتى كان آخره حيث بدأ يسطع نجم ازمير وتتجه تجارة المشرق الى الشمال أكثر . فينقل Paul Masson عن وثيقة في الارشيف الفرنسي في باريس تعود لسنة ١٦٧١ ان تجارة حلب لم تعد التجارة التي كانت قبل ٢٤ سنة فلا يقدم اليها من القوافل السبع التي كانت تجيء من الهند الا قافلة واحدة كان يطلق عليها الكبيرة تحمل بعض الاقمشة والادوية . ولايأتيها من العجم وديار بكر الا ثلاث أو أربع قوافل تحمل مالم تجده القافلة الكبيرة . ويأتي حلب من الموصل وحصن منصور وهم على مسافة ١٢ يوما من حلب البلوط ... أما باقي القوافل فانها كانت تذهب رأسا الى ازمير حيث لايتعرض التجار لاداء الجمارك العالية وتتعرض انفسهم لتعسف الحكام أو الملتزمين زيادة على ذلك ان ازمير كانت أقرب لاستانبول في حالة الشكاية(٤٩) .

الحـواشـي

(١) أنقرة دائرة الطابو ، رقم ٢٠٣ مفصل طرابلس .

(٢) استانبول دفاتر الطابو ، رقم مفصل طرابلس .

(٣) انقره دائرة الطابو ، رقم ٨٤ مفصل طرابلس .

(٤) استانبول ، دفاتر المالية رقم ٧٥٣٤ ، صحيفة ٤٣٤ الفرمان الموجه الى دفتر دار حلب في ٤ ربيع الاخر سنة ٩٨٤ .

(٥) وكان من شروط التزام المقاطعة بزيادة ٤٠٫٠٠٠ ذهب ، ان يكون سنجق بك امير سنجق لصيدا وبيروت براتب سنوي يبلغ ٢٠٠٠٠٠ اقجه واخوه وشريكه محي الدين الزعيم جاوش في الباب العالي ويزاد في راتب كل من اخويه الاخرين ٣٠٠٠ اقجه سنويا . فمالهذه الزيادة معنى الاثراء منصب أكثر منه من تشغيل المقاطعة . (انظر الصورة في اخر المقال) .
استانبول دفاتر المالية رقم ٧٥٣٤ صحيفة ٨٤٧ .

(٦) استانبول دفاتر المالية ، رقم ٢٠١١٥ ، دفتر الاحكام المالية صحيفة ٢٥٢ الفرمان الموجه في ٢٣ ذي القعدة ٩٨١ الى أمير أمراء الشام ودفتر دار الشام يأمرهما بتفحص حقيقة الوضع . وكان ملتزم الجمرك حسن وكفيله السنجقدار محمد امير سنجق بيروت وصيدا . أما تهريب الحبوب والذخائر في هذا الوقت الذي فتحت فيه قبرص على يد العثمانيين فيذكر فرمان اصدر الى أمير امراء طرابلس وهو مظفر بك بان ٥٠ باخرة افرنجية قد حملت ونقلت الذخائر الى الغرب . وكان القحط سائدا في البندقية وغيرها . والسفن مسموح لها بتحميل ونقل الحرير والتوابل ولكن تصدير الذخائر ممنوع بسبب انفيه تقوية للعدو . راجع دفتر المهمة رقم ١٩ الفرمان رقم ٣٤٠ المؤرخ ٨ ص سنة ٩٨٠ هـ .

(٧) أنقره دائرة الطابو ، رقم ١٧٧ ، مفصل الشام مجلد ٢ .

(٨) انقرة دائرة الطابو دفتر رقم ١٩٢ ، مفصل غزة .

(٩) انقرة دائرة الطابو دفتر رقم ٧٢ ، مفصل صفد .

(١٠) انقرة دائرة الطابو دفتر رقم ١٧٧ ، مفصل الشام (المجلد الثاني) .

(١١) انقرة دائرة الطابو دفتر رقم ٧٢ ، مفصل صفد .

(١٢) استانبول ، دفاتر الطابو رقم ٥٣٠ ، مفصل عزير .

(١٣) استانبول ، دفاتر الطابو رقم ١١٠ مفصل عزير .

(١٤و١٥) استانبول ، دفاتر الطابو رقم ٩٩٨ اجمال ولايات شرقي الاناضول والولايات الجنوبية .

(١٦) القرماني « تاريخ الاول في اخبار الدول » مكتبة السليمانية مخطوطات الحميدية ، رقم ٨٨٥ ورق ٢٦٥ ظهر .

(١٧) انقرة دائرة الطابو رقم ٣٩ ، مفصل حلب .

(١٨) انقرة دائرة الطابو رقم ١٩٥ مفصل الشام .

(١٩) استانبول دفاتر الطابو رقم ٣٩٧ و ٤٢٢ .

(٢٠) استانبول دفاتر الطابو رقم ٧٩ ، ٦١٠ ، ٢٨٠ ، ٥٤٤ ، ٣٩١ .

(٢١) استانبول دفاتر الطابو رقم ٢٧٩ و ٤٥٤ .

(٢٢) استانبول دفاتر الطابو رقم ٦١٠ .

(٢٣) استانبول دفاتر الطابو رقم ٩٣ .

(٢٤) استانبول D. BSM. 1057. 4. 1

(٢٥) استانبول دفاتر المالية ٩٨٥٠ ، دفتر تسجيل البروات والاحكام الشريفة صحيفة ٧٧ ـ ٧٨ ـ النشان الهمايوني المؤرخ ٨ شوال سنة ١٠٨٣ .

(٢٦) كانت مقاطعة موانىء طرابلس وجبلة واللاذقية وتوابعها تحت التزام محي الدين بن شعيب من أبناء التماريين وشريكه مناخم اليهودي من استانبول وكان قد جاؤوا بمحمد جاوش كفيلا لهما وشرطوا أن يكون أمينا وناظرا لاموال المقاطعة . ولكنه بصفته هذه لم يمكن الملتزم من المقاطعة وضبطها استقلاليا فخسروا كثيرا فزاد الملتزمان المذكوران في قيمة الالتزام ٢٠٠٠٠ ذهبا ليغيروا الناظر .
استانبول دفاتر المالية رقم ٧٥٣٤ دفتر الاحكام المالية ص ٤٦٥ .
الحكم الموجه الى قاضي استانبول في ٢٦ ربيع الاول ٩٨٤ .

(٢٧) شكا زين العابدين ضامن جمرك آمد « ديار بكر » من أن قوافل تجار العجم التي تجلب الحرير والاقمشة الى الروم (الاناضول) والقوافل التي تذهب من حلب حاملة الاجواخ والاقمشة الى العجم تبدل طريقها فتمر من تحت قلعة كلعنبر الحديثة البناء وكانت في ولاية شهرزول في شمالي العراق ، استانبول دفاتر المالية رقم ٢٧٧٥ دفتر الاحكام المالية صحيفة ١٢٦٩ ، الفرمان الموجه الى أمير امراء شهرزول وامير لواء الموصل و ... في ١٤ رمضان سنة ٤/٩٧٣ نيسان ١٥٦٦ .

(٢٨) ارشيف استانبول ، دفتر المهمة رقم ٧ الفرمان رقم ٣٥٦ الموجه الى دفتر دار حلب في ٧ ربيع الاخر . في هذا التاريخ كان انفصال دفتر دارية حلب عن الشام ووقعت جبلة واللاذقية وطرابلس في منطقة دفتر دارالشام فطلب بايلوس البنادقة (وهو السفير عندهم الحاقها بدفتر دار حلب بحجة انهم يجلبون بضائعهم الى طرابلس ثم ينقلونها الى حلب للبيع فقد يسبب دفتر دار الشام لهم مشاكل .

(٢٩) استانبول دفتر المهمة رقم ٣ الفرمان رقم ٢٩٧ الموجه الى أمير امراء حلب في ٦ ذي الحجة سنة ٩٦٦ صدر هذا الفرمان بتكليف امير الاى حمص بحفظ الطريق الذي يسطو عليه البدو عن حمص .

(٣٠) كانت هذه القلعة قد اعيد ترميمها عدة مرات وصرف عليها هذه المرة في سنة ٩٧٥ ١٠٠٠٠ ذهب ارسل من حاصل ادنه راجع استانبول دفتر المهمة رقم ٧ الفرمان رقم ٣٧٣ الموجه الى دفتر دار حلب .

(٣١) ارشيف استانبول قسم كبه جي ، رقم ٢٣٠ ، دفتر الرؤوس صحيفة ١٨٧ ، ٢٩ ذي الحجة سنة ٩٨٣ .

(٣٢) استانبول دفتر المهمة رقم ٣٣ الفرمان رقم ٤١٠ المؤرخ ٢٦ شوال ٩٨٥ .

(٣٣) ارشيف استانبول دفاتر الطابو رقم ٥٣٠ مفصل عزير ص ٢٠ — ٢٧ .

(٣٤) راجع المكتبة الاهلية في باريس ، ملحق المخطوطات التركية رقم ٣ مجموعة فرامين ورق ٤١ وجه فرمان موجه الى أمير امراء طرابلس والى دفتردارها في ٩ ربيع الاول سنة ١٠٠١ ٢٥ كانون الاول ١٥٩٢ .

(٣٥) نفس المخطوط رقم ٥ .

(٣٦) نفس المخطوط رقم ٨٣ .

(٣٧) ارشيف استانبول دفتر المالية رقم ٧٣٤٨ دفتر الاحكام المالية صحيفة ١٦ التوقيع الهمايوني المؤرخ ١٠ رمضان ١٠٠٦ .

(٣٨) ارشيف استانبول دفاتر المالية رقم ٧٣١٦ دفتر الاحكام المالية ص ٢٨ الحكم الموجه الى دفتر دار طرابلس الشام في ٢ محرم ١٠١٠ .

(٣٩) ارشيف استانبول دفاتر المالية رقم ٢٠٢٢٢ دفتر مقاطعات حلب ص ٢ .
وكان سفر يلتزم ايضا ميزان حرير حلب اعتبارا من غره محرم لست سنين بمبلغ ٥٤٧٨٨٨٨ اقجه ويلتزم عشر بهار توابل حلب اعتبارا من ١٦ جمادى الاخر لتسع سنين بمبلغ ١٨١٨٠١١٨ اقجه والخاتم على الاقمشة بحلب اعتبارا من ١٦ جمادى الاخر سنة ١٠٠٩ بمبلغ ٤٠٠٥٠٧٤٤ر٤ اقجه .

مجموع دخل هذه السنة بارة

(٤٠) استانبول دفاتر المالية رقم ٤٦٥٨	٤٢٤٠٧٧٦
(٤١) استانبول دفاتر المالية رقم ٤٦٢٨	٢٣٩٧٠٩٦ر٥
(٤٢) استانبول دفاتر المالية رقم ١٩٤١	١٤٢٠٥١٤
(٤٣) استانبول دفاتر المالية رقم ١٥٧٧	٢٤٥٧٩٩٦
(٤٤) استانبول دفاتر المالية رقم ١٥٨٧	١٦٠١٥٣٥

(٤٥) استانبول قسم كبەجي رقم ٧١ دفتر الاحكام المالية الفرمان الموجه في ١٣ شوال ١٠١٥ الى أمير أمراء حلب يأمره بهدم القلعة وعدم حماية الاجانب أو اقامة بعض الحامية في القلعـة .

(٤٦) استانبول دفاتر المالية رقم ٢٠٢١ أموال ولاية طرابلس ث ١٧٢ . وقد بلغت جبايات الولاية من ١٠١٣ الى ١٠١٨ هـ. تحت ولاية الامير يوسف باشا وخلفه حسين باشـا ٧٢٩٦٦٣٩٦ بارة .

(٤٧) وهو بايلوس البندقية أيضا الذي طلب تعطيل الاسكندرون من جديد في سنة ١٠١٧ كما مر أعلاه . وطلبوا من الباب العالي ان لايعتدي عليهم أحد في طرابلس ولا على أموالهم اذا رجع البايلوس والتجار الى طرابلس ولايطالبوهم بجمارك تزيد على مافي العهدنامه التي بيدهم . استانبول دفاتر الدول الاجنبية احكام الى البنادقة رقم ٢ صحيفة ٦٣ الفرمان الموجه الى أمير أمراء طرابلس في ٢٠ صفر ١٠١٨ .

(٤٨) ارشيف استانبول ، دفتر المهمة رقم ٧٣ الفرمان رقم ١١٤٣ الموجه في ١٩ محـرم سنة ١٠٠٤ الى قضاة هذه الامكنة .

(٤٩) Paul Masson Histoire de commerce . . .Vol. I p. 373.

التزام مقاطعة جمرك طرابلس لسنة ٩٨٤ هـ . ارشيف استانبول ، الدفاتر المالية رقم ٧٥٣٤ صحيفة ٨٤٧

المظاهر الاجتماعية في قاموس الصناعات الشامية

للاستاذ ظافر القاسمي

(الجامعة اللبنانية)

ليست هذه الدراسة استقصائية لمظاهر الحياة الاجتماعية في بلاد الشام، في فترة معينة ، فذلك ماتقتضي له غير ظروف هـذا المؤتمـر والزاماتـه والحاحاته ، وانما هي دراسة لاكثر ماورد في كتاب بعينه ، هو كتاب : قاموس الصناعة الشامية ، الذي يقع في جزئين ، الف الجزء الاول منـه محمد سعيد القاسمي المولود (١٢٥٩ ــ ١٨٤٣) والمتوفي (٢٣ شوال ١٣١٧ ــ ٢٢ شباط ١٩٠٠) . والف الجزء الثاني منه محمد جمال الدين القاسمي المولود (٨ جمادى الاولى ١٢٨٣ ــ ١٧ ايلول ١٨٦٦) بمدينة دمشق ، والمتوفي (٢٣ جمادى الاولى ١٣٣٢ ــ ١٨ نيسان ١٩١٤) ، بالاشتراك مع خليل العظم المولود (١٢٨٦ ــ ١٨٧٠) والمتوفي أواخر عام ١٩٢٦) .

طبع هذا الكتاب في دمشق عام ١٩٦٠ ، بعناية المعهد التطبيقي للدراسات العليـا .

وهو كما ترى معجم لصناعات دمشق ، وليس كتابا في التاريخ ، ولا في التاريخ الاجتماعي ، ولكن الصناعة ، اينما كانت ، وحيثما قامت ، مظهر كبير من مظاهر الحياة الاجتماعية . ولهذا راينا في ثنايا هذا القاموس فوائد كثيرة تتعلق بالمجتمع الشامي ، فحاولنا احصاءها ، وجمعناها ، ورتبناها ، وصنفناها ، وانا لنرجو ان نكون قد بلغنا من ذلك بعض الخدمة لهذه المدينة العظيمة التي تشرفنا بالولادة على أرضها وبالانتماء اليها .

اضف الى ذلك أن هذا المعجم قد تضمن وصفا لاربعمئة وسبع وثلاثين صناعة وقد أجريت احصاء تقريبيا ، فوجدت ان كثيرا من هذه الصناعات قد زال ، لما أصاب البلاد من تطور غير بعض معالمها ، وقضى بان يستبدل ببعض الصناعات صناعات جديدة ، أو أن تموت الى الابد . وهذا تخليد لما كانت عليه الحال قبل وقوع التطور الجارف ، فضلا عن انه يفسر كثيرا مما يغمض علينا من تسميات مازالت قائمة حتى اليوم . مثال ذلك انه توجد

في دمشق أسرة كريمة هي آل المحايري ، فما هذه النسبة ؟ انها نسبةالى المحارة ، التي كان يمتطيها الحاج ، وتوضع على الابل ، ويصنعها المحايري، وامثال ذلك كثير .

لاجناح علينا اذا نحن جهلنا التاريخ الدقيق الذي وضع فيه الكتاب، لان التاريخ الاجتماعي ، لايحدد بالايام والاشهر والسنين ، وانما يشمل فترات وحقبا ممتدة . ومهما يكن من أمر فان مؤلف الجزء الاول قد اشار في بعض المواضع من كتابه الى أنه كتبها عام (١٣٠٩)(١) ، فالوصف الوارد في الكتاب اذن لايعدو اواخر القرن التاسع عشر المنصرم ، لان مؤلفه توفي عام ١٩٠٠ م.

أما الجزء الثاني فقد ألف بعد وفاة مؤلف الجزء الاول ، قام بذلك ولده جمال الدين وصهره خليل العظم . وقد توسعنا في هذا الموضوع في مقدمتي الجزئين المطبوعين فارجع اليهما .

ان الدراسة التحليلية لهذا الكتاب يمكن ان تؤدي بنا الى بعض حقائق ووقائع التاريخ الاجتماعي لبلاد الشام . ولنضرب أمثلة على ذلك :

١ ـ ماجاء في المقدمات

عقد المؤلف فصلا سماه : « في ذكر بعض آداب الكسب والمعاملة » مبنية كلها على أحكام الشريعة الاسلامية ولبعضها صلة وثقى بالتاريخ الاجتماعي . فهو يحدد اولا الذين لايجوز التعامل معهم ، وهم : الصبي ، والمجنون ، والعبد ، والاعمى . وثانيا ـ ان يتحرى عند العقد الايجاب والقبول . وثالثا ـ ان يمتنع عن الاحتكار . ورابعا ـ ان ينصح في المعاملة . وخامسا ـ ان يمتنع عن الغبن الفاحش . وسادسها ـ الورع . وسابعها ـ ذكر الله تعالى في السوق . وثامنها ـ ان لايكون اول داخل الى السوق ولا آخر خارج منه .

وفي فصل آخر سماه « في الاشارة الى أمهات الصناعات » صنفها فقال :

ـ الضروري : كالفلاحة والبناء والخياطة والتجارة والحياكة .

ـ واما الشريفة بالموضوع : فكالتوليد والكتابة والوراقة والغناء والطب . وما سوى ذلك فتابعة وممتهنة في الغالب .

والذي يسترعي الانتباه هو ان يعمد المؤلف الى اعتبار صناعة « الغناء » شريفة بالموضوع، كالطب والكتابة ، ولاسيمافي ذلك العصر الذي كان الناس ينظرون فيه الى الغناءنظرة ازدراء، ولايرتضون ذلك لاولادهم . ولكن اذا عرفت ان المؤلف كان موسيقيا وكان جميل الصوت ، وكان شاعراً ، أي انه كان فنانا عرفت لماذا اعتبر الغناء من الصناعات الشريفة بالموضوع ، مع انه لم يغن في حفل عام قط ، ولافي حفل خاص ، ولم يعرف انه كان جميل الصوت الا خاصة الخاصة من الاصدقاء .

٢ ــ ماجاء في القاموس

آ ــ الصناعات الخاصة بالنساء

في كل مجتمع صناعات خاصة بالرجال ، وأخرى بالنساء ، وثالثة مشتركة بينهما . وقد أحصيت الصناعات التي لاتتعاطاها الاالنساء فكانت:

١ ــ اسطة(٢) : وهي امرأة تغسل رأس النساء بالحمام .

٢ ــ بلانة(٢) : من تخرج الاوساخ من أبدانهن، بنحو كيس وصابون . وغالب فقراء النساء يغسلن بعضهن .

٣ ــ داية(٣) : هذه اللفظة ، في اصطلاح أهل الشام ، اسم لامرأة عندها معرفة ومهارة في صنعة التوليد ، وتسمى في اللغة « القابلة » .وهذه الصنعة مختصة بالنساء في غالب الامر ، حيث انهن الظاهرات بعضهن على عورات بعض .

وبعد ان يصف الطلق ، ويتحدث عن اشتداده بعلامات تعرفها الداية يقول :

« تضعها الداية على الكرسي المخصوص ، وتجلس أمامها ، وتدعو لها كثيرا بالخلاص وخلقة الناس ، وتقول لها الداية : يابنتي عيني ولدك ، واحذري على كبد لك .. ثم ان اتت بذكر ، أي صبي ، قامت الافراح على ساق ، واظهرت انوارها الليالي الملاح بالاشراق ، وذهب البشير لاخذ البشارة ، واسمعت الزغاريت أهل الحارة ... وانأتت بانثى ذات الخدر والستر ، استوجبت الهجر بلا أجر ، واستولى عليها الكرب في كل ليلة الى طلوع الفجر ، ولايزالون في العناء والحصر ، أكثر من مدة شهر .. ».

وبعد ان يوضح المؤلف ماتفعله الداية مع النفساء والمولود ، من مبادرات واحتياطات يقول : «وهذه كلها ادواء نجد الدايات أبصر بدوائها وكذلك ما يعرض للمولود مدة الرضاع من أدواء في بدئه الى حين الفصال ، أي الفطام ، نجدهن أبصر بها من الطبيب البارع .. » .

ويمضي المؤلف بعد ذلك ليتحدث عن اكرام الضيوف المهنئين فيقول :
« ثم يصنعون وليمة يوم الاسبوع، ويدعون الاهل والاحباب ، ويجعلون بها حلواء ، وتسمى « كراوية » في مصطلح أهل الشام ... وهذه الكراوية من لوازم أسبوع المولود غالبا ، فمن لم تصنع له ، لايعتنى به غالبا ، وينسب الى الشح ... وغالب الفقراء مع فقرهم يصنعونها يوم الاسبوع .... »

ويوضح المؤلف عن واجبات الداية، وواجبات أهل المولود نحوها حين ختانه ، وحين ختمه للقرآن الكريم ، وحتى زواجه ....

٤ ــ رسام(٤) ، اسم لمن يرسم القماش المنسوج رقيقا كان أو غير رقيق ، أي يطبعه الطابع ، أي بقالب من خشب محفور بنقش مختلف الاشكال على حسب رغبة طالب الرسم ... ويشغل على الرسم بالحرير الملون ، وهو المسمى بـ«التطريز»، أو القصب المسمى بـ « الصرما » ، أو بالصوف الملون ويسمى « كناويشا » ... وغالب هذه الاشغال الان هي من حرف النساء المخرجات من المدارس الرسمية ..

واظن ان هذه الصناعة قد انقرضت في زماننا .

٥ ــ غسالة : هذه الحرفة مختصة بالنساء الفقيرات ، تدعى لبيوت الاغنياء لاجل غسل وتنظيف الثياب ، فيأتين ويغسلن مايكون لازما غسله ، ثم يعطين أجرة على نسبة المغسول ...

كذلك اظن ان هذه الصناعة قد انقرضت .

٦ ــ لطامة(٥) : هي من حرفة النساء المتهتكات . وفي الزمن السابق كانت رائجة جدا . واما الان فقد أصبحت كاسدة ، قليل محترفاتها ، لانصباغ الزمن بغير الصبغة الماضية، تمدنا، وعادة وتقليدا . ومع ذلك ، فلا يزال طوائف منهن يندبن للندب فيندبن . وذلك عندما يموت أحد الاغنياء فيأتي اهله باللطامات ... وهن مؤلفات من اربع الى عشر نساء ، يلبسن الثياب السود ، ويسخمن وجوههن وايديهن بمسحوق الفحم، ويحللن شعورهن على أكتافهن ، ويدرن باطراف الدار ، وهن كالرئيس ، واهل الميت حولهن كالتلاميذ فيأخذن بالولاويل والصراخ والبكاء والنحيب والندب ، ويعددن صفات الميت

ومحاسنه ، وما كان عليه في حال حياته من بره واكرامه وعطائه، واحسانه للفقراء والايتام ... ويساعدهن على ذلك أهل الميت ، الى أن يخرج بالميت من الدار . وهذا مما نهي عنه في الشرع أشد النهي ، وأوعد فاعلات ذلك بالوعيد الشديد . وقدمنا ان في هذا الزمن قل هذا العمل جدا ، وأصبح نادرا وقوعه الا من أراذل الناس ....

كان هذا عام ١٣٢٥ هـ اما اليوم فقد بطل بالكلية .

٧ ـ ماشطة(٦) : هي الداية ، يطلق عليها هذا اللقب في وقت خاص هو ليلة زفاف الزوجة الى بعلها، فان للداية ليلتئذ مركزا مهما، وعملا وخدمة خاصين بها ، متوارثا من الزمن السابق . وذلك ان كل بنت تزوجت ، تأتي ليلة الزفاف دايتها معها ، لاتفارقها أبدا ، وهي التي تمشطها ، أي : تسرح شعرها ، وبذلك سميت « ماشطة » ، وتلبسها ثيابها ، وتزينها باصناف الحلل والحلي والشكول . وما كان في تلك الايام يقوم بهذا الامر الا الماشطة . وسببه عدم تنبه النساء لدقة التزين بأنفسهن وتفطنهن اما في زمننا هذا فقد أصبح المتكفل بتزيين المرأة أهلها وأقاربها ، وذلك لعموم التمدن ، واضمحلال التغفل . بل ربما تعد الان الماشطة عندهن مغفلة ، اذ ترى تلك المسكينة منهن مالاتعهده في غابر الازمنة الا الحضور يوم العرس فقط ، لاجل أن تستأنس بها العروس ، اذ بعد ان تزف الى زوجها ، وينصرف أهلوه عنه ، تكون على باب المحل ، منتظرة لندائها ، لغرض لهما ، من شرب ، أو احضار أمه أو أخته أو عمته ، أو الذهاب بالعروس الى قضاء حاجة ، أو فرش الفراش ، وأمثال ذلك . ولاتزال على باب العروسين الى الصباح ، ويكرمها الزوج بمجمع انواع الحلوى ، مع شمعة عسلية ، ويضيف الى ذلك دراهم ، على قدر ثروة أصحاب العرس .

ثم عقب المؤلف على ذلك بتنبيه ، أشار فيه الى بعض العادات القبيحة وبعض الافعال السيئة التي كانت تقوم بها الماشطة ، منها معونة الزوج على غشيان أهله ، وكل ما يتعلق بأمور تلك الليلة ، ولاسيما المنديل الملوث بالدم وغير ذلك من القبائح ، التي تخالف الشرع والعقل ، ونهى

عنها نهيا شديدا ، ونقل عن كتاب « كنوز الصحة » فصلا كاملا يتعلق بهذا الموضوع ، فيه ايضاح كامل للعادات القبيحة ، وزجر عنها ، نهي عن ارتكابها .

٨ ـ محمرة(٧) : هذه الحرفة من حرف الفلاحة ، وتختص بالنساء، وليست بحرفة دائمة ، بل موقتة ، في أيام معلومة ، فان العادة بدمشق ، في العاشر من شهر آذار ، يباشر اصحاب الكروم في قرى دمشق بتحمير غصون الكروم . والسبب في ذلك : انه يخرج في ذلك الوقت دود صغير من أصل العرائش ، حيث تكون طلعت عين الكرم، فتدخل تلك الدودة في محل عين الحمل فتأكله ، ويبقى الورق فقط ، فيأتي أصحاب الكرم بالحمر . ثم يوضح المؤلف طريقة المكافحة .

٩ ـ معشبة : هذه الحرفة من حرف الفلاحة ، تختص بالنساء . وليس بدائمة ، بل موقتة في زمن الربيع ، عند خروج المزروعات ، يخرج معها أنواع من العشب ، فيأتي أصحاب المزروعات بالمعشبات ، ويأخذن بتعشيب تلك المزروعات ..

١٠ ـ مقبعة : هو اسم لامرأة تطبب رؤوس القراع الذين يتقرح جلد رؤوسهم من الدمامل . والغالب يكونون من الاولاد الصغار ... وهي معالجة صعبة ، مؤلمة جدا ، يكاد الجماد يتفطر للاقرع من كثرة عويله ونحيبه حينما يعالج بها .

١١ ـ ممسدة(٨) : هذه الحرفةفي الغالب ، يتقنها القوابل . وأمر التمسيد مصطلح عليه بدمشق ، حيث يحصل مع الاطفال سوء هضم ، وقيء زائد مع عدم رغبة الطفل بتناول الثدي ، فيستحضرون له الداية ، ويحضرون لها قليلا من الزيت الطيب ، فتأخذ قليلا من ذلك الزيت ، فتطلي به معدة الطفل والبعض من النساء بدمشق قد اتخذن هذه الحرفة لهن مهنة ومعاشا ...

١٢ ـ نقاشة(٩) : هذه الحرفة من حرف النساء . وهي التي تنقش أيدي وأرجل النساء . وذلك أن من العوائد بدمشق ان كل عروس زفت الى زوجها لابد ان تنقش يديها ورجليها . ويشترك معها من يرغب من أهلها وذويها ، فيؤتى بالنقاشة قبل يوم الزفاف فتباشر أولا بتنقيش العروس وبعدها من

يرغب من أهلها ... وكذلك زمن الاعياد يوجد من النســـاء والصغار من ينقشون أيديهم ، وكذلك حين ختان الاولاد أيضا .....

ب ـ الصناعات الخاصة بغير المسلمين

أورد أصحاب القاموس ، ذكر بعض الصناعات ، وأشاروا الـى انها ـ على الاغلب ـ من عمل اليهود أو النصارى ، أو انها مشتركـة بين الطوائف الثلاث . وقد عللوا لهذا الاختصاص حينا ، واهملوا التعليـل حينا آخر ، من ذلك .

١ ـ ترجمان(١٠) : اسم لمن يترجم اللغة العربية الى التركيةمثلا،أو الى الفرنجية ، وهي حرفة رائجة عندنا ، سيما من يترجم العربية بالفرنجية . والمستعدون لهذه الحرفة النصارى عندنا في الشام . وذلك لكونهم أتقنوا تعلم الالسن ، كالرومي ، والطلياني ، والافرنسي والانكليزي ، وغير ذلك .

وقد جاء المؤلفون على اصطلاح يعرف بالشام ، وهـو « أبو خديجة » وذلك بصدد العمولة التي يتقاضاها الترجمان حين شراء السياح بعض الحاجات من الاسواق : فقالوا : « ومثله السمسار ، ويسمى باصطلاح الباعة : أبوخديجة ». ومن المؤكد أن هذا الاصطلاح ليس مرادفا للسمسار ، وانما هو العمولة التي يتقاضاها السمسار أو الترجمان ، ومازال الاصطلاح شائعا على الالسن حتى اليوم .

٢ ـ حلاق(١١) : الحلاق حرفة كانتمشتركة بينالطوائف الاسلامية والمسيحية ، واليهودية ، ولكن المؤلف خص النصارى بقوله : « وغالبهم نصارى ، وهم الذين ترققوا وابدعوا في هـــذه الصنعة ، وتبعهم غيرهم في التحسين » .

٣ ـ بويه‌جي(١٢) : « .. وغالب أصحاب هذه الحرفة من فقراء اليهود الشباب ، يدورون في الاسواق ، ومجتمعات النـاس ، حاملين صندوقا من خشب ، ضمنه انواع الفرشايات البوية المتنوعة الالوان كاسود واصفر وابيض ، وأنواع الزيوت ، كزيت السمك ، واللوز ، ويمسحون النعال لمن أراد ، فيعطيهم كل على قدره ... » .

٤ ــ خرقي(١٣) : هو من يحترف بلقط الخرق من المزابل ، وأفنية البيوت ، والحارات ، فيأخذها ، ويغسلها وبعد ذلك يفرقها ، فما صلح لان يخاط بعضه ببعض فانه يخاط ويعمل أكياسا وتباع للعطارين .. ومالم يصلح للخياطة يباع للصرماياتية فيجعلونه حشو للصرامي .

والمتهن نفسه بهذه الحرفة القذرة ، هم اليهود خاصة عندنا ، فترى فقراؤهم ــ ممن يحترف هذه الحرفة ــ يدورون في الازقة والحارات في الصباح .. » .

٥ ــ سمكري(١٤) : هذه الصنعة في صنف التنك وقزازير الفار، وهي تنطوي على عمل أشياء متعددة ضرورية : من عمل كيلات ، وابارين ، ومماليح ، وفوانيس ، ودولات قهوة ، وسماورات الى الشاهي ، وعلب ... وما أشبه ذلك .. واذ هي ليست بشريفة فغالب أصحابها من اليهود .

قلت : كان هذا أيام المؤلفين ، أما الذي أدركته في دمشق ، فان أصحاب هذه الصنعة الذين كانت ومازالت محلاتهم في الدرويشية ، ولاسيما في الطابق الارضي من جامع السباهية فكلهم من المسلمين .

٦ ــ صوفاناتي(١٥) : بائع الصوفان . والصوفان مشهور يأتي به التجار من البلاد الاجنبية ، فالبعض من الاولاد الاسرائيليين يحملون صندوقا من خشب يملؤونه من ذلك الصوفان ، وينادون عليه في الاسواق .. والغالب من الفلاحين يشترون من الصوفان ، ويرغبونه أكثر من الكبريت ، وذلك أولا لرخصه ، وثانيا لعدم انطفائه في البرية خصوصا اذا كان موجودا هواء .

٧ ــ عواد(١٦) : هو من يضرب على العود باصوله المعروفة مع اتقان الانغام .. والمحترفون به الان كثيرون : من الاسلام واليهود والمسيحيين ، يدعوهم من كان عنده وليمة للقيام بما يطرب المدعوين .

ثم تطرق المؤلفون الى دور العود في المجتمع فقالوا : « والان كثير من الاكابر والمتوسطين تعلموا الضرب على العود وأصبحوا يضربون عليه في بيوتهم ... » .

٨ ــ قنواتي(١٧) ــ شاوي(١٨) : هو المحافظ على طوالع الماء، وسير الدمنة. ويعرف في دمشق الشام بـ «الشاوي» . يفتش على الطوالع التي تحت نظره ومراقبته ، ويتعهدها ... وهي حرفة مهمة ، لايتعاطاها الا المسيحيون ، ولهم بها مهارة تامة.

٩ ــ قهوجي(١٩) : ... والبعض ممن يتعاطى المسكرات ــ والعياذ بالله تعالى ــ يذهب لجهة الباب الشرقي في حارة النصارى حيث يوجد هناك قهاوي متعددة تعرف بالجنان ، في باب توما ، وقاصدوها يتعاطون القهوة مع الاراكيل والمسكرات ..

١٠ ــ مرابي(٢٠) : هو من يقرض الناس بالزايد ، وكانت هذه الحرفة بدمشق قبلا ، قليل ، محترفوها الموسويون وغيرهم . والان مما عمت بها البلوى ــ نسأل الله السلامة ــ فقد أصبح كثير من الناس ، على اختلاف مللهم ، يحترفون بهذه الحرفة الخبيثة ...

١١ ــ نحات(٢١) : هو من ينحت أنواع الاحجار ، حسب المرغوب وأصحاب هذه الصنعة بدمشق أغلبهم مسيحيون .

ج ــ صناعات زالت

بعض الصناعات زال أو كاد أيام المؤلفين ، وبعضها زال في أيامنا هذه أو قبلها بقليل . وسنرى ماجاء في القاموس في الاسطر التالية :

ــ حجام (١/٩٢) : والحجامة باخراج الدم ، الان قد ندرت جدا ، الا لضرورة شديدة لمنع الاطباء الناس في هذا الزمن عن اخراج الدم ....

ــ حمّار (١/١٠٦) وهذه الحرفة كانت قبل ظهور العربات كثيرة ورائجة جدا ... فلما ظهرت العربات ، استغنى غالب الناس عن ركوب الحمير ، وصاروا يستأجرون العربات ...

قلت : واليوم لم يبق حمار ، ولم يبق عربات ، بعد ان منعت منذ أكثر من ثلاثين سنة ، واستعاض الناس عنها بالسيارات .

ـ وفي مادة خباز (١٢١/١) أشار المؤلفون الى « من يخبز سوقيا ، ومن يخبز بيتيا » ، ولم يعد في المدن الكبرى خبز بيتي الا نادرا جـدا .

ـ وفي مادة خزان (١٢٤/١) اشارة الى من يدخر الاقواب من الحبوب كالقمح وغيره وقد زالت هذه الصناعة بحصر ذلك في الدولـة .

ـ رشاش (١٥٦/١) هو من يرش الماء في الاسواق التي أرضهـا من التراب ، لئلا يصعد الغبار الخارج من الارض ... وله على كل دكان شيء معلوم يجمعه في كل شهر ...

قلت : زالت هذه الصناعة منذ زمان بعيد ، وقد أدركتهـا في طفولتي .

ـ سائق (١٧٥/١) اسم لمن يؤجر نفسه لاحد الطحانة بشيء معلوم كل يـوم .

ووظيفته : نقل الطحنة والطحين على الحمير الى الطاحون ...

قلت : زالت لاسباب شتى ، أهمها حصر مادة الطحين بالدولة

ـ ساعي (١٧٦/١) اسم يطلق على من يرسل بكتاب أو غيره من بلد الى بلد ...

قلت : زالت منذ زمان بعيد .

ـ سقاء (١٨٥/١) : اسم لمن يتعاطى نقل الماء أيام الانقطاع عـن الدور ، فيأتي للناس بما يحتاجونه من الماء في كل يوم ... وفي سنة ١٣٢٧هـ ـ ١٩٠٧ أصبحت هذه الحرفة بحكم الملغاة ، وذلك بالنظر لجلب ماء عين الفيجة الشهير بطيبته وخفته الى دمشق ..

قلت : المراد بجلب ماء الفيجة هو السبلان العامة التي وجدت في الشوارع ، لامده الى البيوت فذلك كان عام ١٩٣٢ ، هـذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فان السبلان التي أقيمت فـي الشوارع ، أي المناهل العامة ، لم تكن تكفي في حي المهاجرين ، ولذلك بقيت فيه حرفة السقاء الى عام ١٩٣٢ ، كذلك في أيـام انقطاع الماء عن البيوت بسبب تعزيل الانهر وكريها ، لم تكـن السبلان تكفي ، لذلك كان السقاؤون موجودين ، وقد أدركت ذلك بنفسي في جميع احياء دمشق .

- شعال (٢٥٦/٢) : يستخدم في الجوامع ، واكثرهم يستخدم في البلدية ... يسلم اليه كمية وافرة من القناديل ، فعند الصباح يتفقدها بما يلزمها من: غسل ، ومسح ، وتزييت ، وقص فتائلها ، وعند الغروب يباشر في تنويرها . وغب صلاة العشاء في الجوامع ، وطلوع الفجر في البلدة يطفئها ...

قلت : قضى عليها تمديد الكهرباء .

- شيال (٢٦٣/٢) : هذه الحرفة تطلق على من كان عنده بعض من الجمال ، يحمل عليها من اراد الحج في موسمه ...

قضت عليها السيارة والطيارة .

- الصوجي (٢٧٣/٢) : بائع الماء ..

انتهت بوصول مياه الفيجة الى الدور .

- طبال (٢٨٨/٢) : ويقال له « المطبل » ، وهو من يضرب على الطبل بكيفية معروفة ، يتوارثها أهل بالتعلم من المهرة فيها . ويعرف با « بالمرفعجي » ... يدعون في الاعراس والختان لاجل الدق في الطبل طربا ، وجمعا لاهالي القرى وما جاورها ... و « أبو ناعسة » - وهو أحد النور - يلقي لهم أصناف السخريات المضحكة والالاعيب ، وايضا في أيام الاعياد ، وايام جمع ثمر الزيتون والزبيب ، وقيام الاغلال من البيادر ، يدورون يطبلون ويغنون ، فيعطيهم أصحاب الرزق ، كل على قدره ...

زالت من المدن ، وبقي لها بعض الاثار في القرى .

- طرابيشي (٢٩٢/٢) : بائع الطرابيش ، والقائم بكيها .

لم يبق منها الا القليل .

- طنبرجي (٢٩٤/٢) : هو سائق الطنبر .

وقد زالت بسبب المركبات الآلية الحديثة .

- طيان (٢٩٦/٢) في هذه المادة اشار المؤلفون الى « الزريقة » و « العدسة » .

وقد قضى عليها الاسمنت .

- عربجي (٣٠٥/٢) : الفيت العربات منذ اكثر من ثلاثين سنة في دمشق ، ولم يبق لها أثر . وكان من المستحسن أن يبقى فيها على عدد محدود ، كما هي الحال في العواصم الكبرى ، كباريس وروما ولندن .

- عشار (٣١٠/٢) : هو من يشترى اعشار القرى من الحكومة (ملتزم) .

وقد زالت بعد تنظيم دوائر الجباية في وزارة المالية .

- عكام (٣١٨/٢) : هو رجل من أهل الجلد والقوة على المشي في القفار والاوعار ، يستخدم باجرة معلومة عند المقوم في سفر الحاج ، يسلمه جملا ، وعليه المحارة، يركبها شخصان، يسحب الجمل بهما في الطريق ويتولى خدمتهما ، وكل ما يلزم الراكبين المذكورين من طبخ وغيره في أثناء سفرهما . . .

زالت بزوال الحج على الجمال .

- قولجي (٣٧٢/٢) : من يحافظ على بيادر الغلال ، يستأجره العشار . . .

انتهت بتولي الدولة الجباية مباشرة .

- قاووقجي (٣٧٣/٢) : هو صانع « القواويق » التي انقرضت من نحو نصف القرن الماضي ، وانقرض صناعها ، ولم يبق الا رسمها . . . .

هذا ما قاله المؤلفون .

- مجركش : مزركش (٤١٩/٢) : هذه الحرفة اصبحت في عصرنا هذا مفقودة بالمرة .. ذلك ان الاقدمين كانوا يرغبون بوضع عروق وقطع مصنوعة من خالص الفضة على المفروشات - جهازات العرسان - فبعد ان يصنع الصانع تلك العروق الفضية وينقشها ، تسلم الى المزركش مع وجوه الفرش ،فيوقع عليها تلك العروق الفضية وينقشها ويخيطها . . .

- محايري (٤٢٠/٢) : هو من يصنع المحاير وهي من الخشب ، على صفة السرير ، تعمل محامل للحجاج حين سفرهم للحجاز ، وتسمى الواحدة محارة ، تسع الشقة من المحارة فراش شخص واحد ، مع ما يلزمه من الثياب ، ومطرة للماء ، وغيره . . .

انتهت بحدوث الوسائل الحديثة لنقل الحجاج .

ـ مدرى : (٤٢٤/٢) : هو من يخرج الحب من التبن ....
قال المؤلفون : وكانت في الزمن السابق رائجة جدا ، وذلك قبل وجود الماكنات التي تخرج الحب ، الحادثة منذ خمس‌عشرة سنة (أي عام ١٣١٠ على الاقل ، ان لم يكن ذلك قبل) .

ـ مقوم (٤٦٥/٢) : هو من يتعهد بمشال الركب الحجازي حين قصده السفر لجهة الحرمين الشريفين . وصاحب هذه الحرفة يكون مستعدا لوجود عدد وافر من الجمال تكون عنده ، مع جميع ما يلزمها من عدد ، وهي : الخيم ومعداتها والتخوت ، والمحاير ، والشبارى وغيرها ، للركوب بها ، مع وجود أنواع الخدمة ، من عكامة وغلمان ، وطباخين ، ومهاترة ، وسقاية وغير ذلك ...

زالت كما زال غيرها من حرف الحج البري القديم .

ـ مكارى (٤٦٦/٢) : هي اسم لمن يكون عنده دواب ، من خيل وبغال يؤجرها للركوب ، وحمل البضائع عليها من بلد الى بلد . وكانت هذه الحرفة في الزمن السابق رائجة جدا ، وذلك قبل حدوث الشمندوفير (القطار) بدمشق ... فهذا أجمعه اصبح مفقودا .

ـ منادي (٤٧١/٢) : هي اسم لمن يرفع صوته بالنداء ، بما يرغب مستأجره في الاسواق ، فتارة يستأجره من يكون فقد له طفل صغير ، أو حاجة مهمة ، أو دابة ، فيدور صاحب الحاجة والمنادي معا في الاسواق والازقة ، وينادي المنادي بما اصطلح عليه من النداء ...

زالت مع تطور وسائل الاعلام : الصحف ، والاذاعة ، والتلفزيون ، وغيرها .

ـ مهتار (٤٧٤/٢) : المهتار يستخدم عند المقوم حين موسم الحج ... ووظيفته القيام على خيم الحجاج الموجودين عند المقوم ، من أمر نصبها عند نزول الحجاج الى الراحة ، وفكها عند سير الركب ...

انتهت مع ماانتهى من حرف الحج البري القديم .

ـ نخاس : هو من يتجر بالرقيق . وهذه الحرفة كانت رائجة ، اما الان فقد بطلت بحمده تعالى ، وأصبح من يختلس الاتجار بالرقيق نادرا جدا .. ومتى شعر به يجازى ، ويحرر ذلك الرقيق .

ـ لالا (٢/٤٩٩) : هو مربي أولاد الوزراء والامراء والكبراء ... انتهت بتعميم التعليم الابتدائي .

ـ ياسرجي (٢/٥٠١) : هو دلال العبيد والاماء ... قال المؤلفون : وبهذا الزمن نسخت بالمرة .

د ـ شؤون متفرقة

في الكتاب شؤون كثيرة متفرقة نشير الى بعضها ، في حدود المختصر الوافي :

ـ ففي مادة أجير أوضح المؤلفون ان الصناعات في دمشق كان المشتغلين بها ثلاث مراتب : المعلم ، والصانع والاجير . واوضحوا صفات كل واحد منهم (١/٣٥) .

ـ وفي مادة اسكافي (١/٣٨) وهو من يخصف النعال القديمة أشار المؤلف الى أن حصر تركة اسكاف ، فاخرجوا من بين المتروكات كيسا فيه مئة وخمسون ليرة انكليزية، ونحوا من خمس وعشرين ليرة عثمانية ، ومن الفضة نحوا من الفي غرش .

ـ وفي مادة الاجاتي (١/٣٩) عدد الذين يتعاقبون على العمل حتى يتم صنع الالاجا ، فكانوا : الكبابة ـ والفتال ـ والمسدى ـ والصباغ ـ والملقي ـ والمزايكي ـ والحائك ـ والدقاق ، واشار الى العلاقات القائمة بين هؤلاء جميعا .

ـ وفي مادة انتكجي (١/٤٠) عدد المتعاملين بهذه الحرفة فكانوا : المتسوق ـ والبائع ـ والسمسار ـ والواسطة ـ والترجمان ـ والمشترى ، وانها تروج في أيام زيارة القدس الشريف .

ـ وفي مادة بغجاتي (١/٤٥ ـ ٤٧) أشار الى أن هذه الحرفة تروج أيام الاعراس وايام النشاط ، وأوقات الصفا ، وفي الاعياد .

ـ وفي مادة البوايكي (٥٥/١) تحدث عن مساوىء تسليف الفلاحين .

ـ وفي مادة بوابيجي (٥٧/١) أشار الى انتعال نساء الشام البوابيج، ثم الكنادر في عام ١٣٠٩ ـ ١٩١١ ، وقبل ذلك لم يكن يعرفن ذلك .

ـ وفي مادة تراب (٦٨/١) أشار الى أن بعض النساء الجاهلات كن يضعن التراب على أفخاذ الاطفال خيفة حدوث الالتهابات . قلت : وقد أدركت ذلك في طفولتي بنفسي ، عند بعض جيراننا.

ـ وفي مادة ثلاج (٧٢/١) ذكر المؤلف الضرمة شكر ، أي مانسميه اليوم : البوظة . وتوسع في الموضوع في مادة ضرضرمجي (٢٨٢/٢) ، وذكر انها محدثة ، وكيفية صنعها .

ـ وفي مادة حبال (٩٠/١) ذكر أصل المثل القائل : « طالعة على قنب دوما » وهل المثل الذي يضرب حينما يخون احد الشريكين شريكه الاخر ، ويظهر الشركة بمظهر الخاسر .

ـ وفي مادة حمامي (١٠٧/١ ـ ١١٢) أشار الى أوضاع الحمامات وعمالها ، وعددهم واوضح عمل كل واحد منهم : الناطور ـ والتبع ـ والمصوبن ـ والقهوجي ـ والاجير ـ والوقاء ـ والزبال .

وتحدث عن حمامات النساء وعاملاتها وهن : المعلمة ـ الاسطة ـ والبلانة ـ وزقاقة البارد ـ والناطورة .

وأشار الى تحول حمام القيشاني الى سوق . وهو من اجمل حمامات دمشق وأشهرها . وكان تحوله عام ١٣٢٥ .

ـ وفي مادة حكواتي (١١٢/١) أشار المؤلف الى ان غالب الناس ينكبون على استماعه أكثر من انكبابهم على العلم . وانه كان الناس يأتون بالحكواتي الى البيوت ليؤنسهم بقصصه باجرة مخصوصة. وقد بطل ذلك من زمان بعيد .

ـ وفي مادة خياط (١٣١/١) تحدث المؤلف عن آلة الخياطة (الماكينا) وما احدثت من ثورة في عالم الخياطة ، وهي من اشعار الفرنج ، ذات دولاب ، وآلات ، مما يبهر العقول ...

ـ وفي مادة دقاق (١٤٤/١) قال المؤلف : ولهذه الحرفة السوق الكائن براس البزورية من بلدة دمشق المسمى بـ « الدقاقين » ، وقد ازيل منذ سنوات ، وصار مكانه قهوة . وسبب ازالته ان الجيرة تضجرت من كثرة الدق ، وزعم رؤساء البنائين بمجلس البلدية ان هذا الدق يضر بالبنيان والجدر ، فازيل لهذا السبب . ثم تفرقت أهل هذه الحرفة الى خانات مخصوصة .

ـ وفي مادة ديمجي (١٤٨/١) أشار الى انها حرفة رائجة جدا ، الا انها كسوة أهل بلدتنا وغيرها من الفقراء .

ـ وفي مادة دهان (١٤٨/١) ذكر الى حدوث تزيين جدران البيوت بالصور .

ـ وفي مادة راعي (١٥٢/١) أشار الى انه غالبا من الاكراد .

ـ وفي مادة رمال (١٥٧/١) ذكر مساوىء ضرب الرمل ، الذي يتعيش به هؤلاء الدجالون .

ـ وفي مادة زجاج (١٦٤/١) ذكر قيام أول معمل للزجاج عام ١٣٢٨ ـ ١٩١٠ ثم التآمر على هذه الصناعة الوطنية العظيمة ، واغلاق المعمل .

ـ وفي مادة زمار (١٦٨/١) تحدث عن الجعيدي الذي يلعب القرود ويزمر لها .. (٢٢٨/٢) .

ـو في مادة زهوراتي (١٦٩/١) أشار المؤلف الى شرف هذه الصناعة ، واشاد بذوق أهلها ، وبذوق الشاميين في تزيين بيوتهم بانواع الزهور ، وعنايتهم بها ، وان أكثر القائمين بهذا العمل هم من أهل (الصالحية) .

ـ وفي مادة سائس (١٧٦/١) ذكر ان اكثر السياس من المصريين .

ـ وفي مادة سائل (١٧٧/١) تحدث المؤلف عن انواع السألة واقسامهم وتوسع في سرداحوالهم وأوضاعهم، وكشف حيلهم ودسائسهم، باسلوب مسجع جذاب ، فكان مما قال :

فمنهم من يظهر المشيخة والتلبيس ، ويأخذ مالهم بحيلة التكبيس .

ومنهم من يدعي الافلاس، ويظهر ورقة تحكي انه من أبناء الناس .
ومنهم من يدخل على الكبار بمجمع تمر أو مجمعين ، ويدعي انه من اكابر أهل الحرمين .

ومنهم من يأخذ بالسفه والفجور ، وهي من أفظع الامور .

ومنهم من يأخذ بتنكيس راسه ، وبتصعيد انفاسه .

ومنهم من يأخذ بالخشوع والخضوع ، وكثرة البكاء والدموع .
ومنهم من يأخذ بالتخليط والرجف ، ويظهر انه من اهل الولاية والكشف .

ومنهم من يحتال على كثير من الناس بكشف البدن والرأس .
ومنهم من تراه كالعلوج ، يظهر للناس انه مقعد أو مفلوج .

ومنهم ... ومنهم ...

قلت : وربما كان هذا البحث جديرا بدراسة مستقلة .

ـ وفي مادة اشناني (٢/٢١٦) اشارة الى أن بعض الفقراء يغتسلون بهذه النبتة (الاشنان) .

ـ وفي مادة برازقي (٢/٢١٨) اشارة الى عناية الناس بالبرازق في شهر رمضان .

ـ أما مادة تهللجي (٢/٢٢٢) فقد أوضح المؤلفون فيها ماهي « الهليلة » ؟ . انها عنوان على الاجتماع على قراءة القرآن والاذكار التي تقام بعد وفاة المتوفي .. وشرح المؤلفون ما يقدم فيها من الحلوى كالعوامة (يراجع قلا العوامة ٢/٣٦٢ ، وعواماتي ٢/٣٢٤) وذكر انواع ما يقرأ كاناشيد الششترى والاكرامية ومنظومة الدرديـر أو البكـري ، ووصف ضجة الذاكرين ، وأوضاعهم وهم قعود أو وهم قيام ..

ـ وفي مادة ثعباني (٢/٢٢٤) أشار المؤلفون الى هؤلاء الذين يدجلون على الناس بلعبهم بالثعابين ... (راجع أيضا : عقاربي ٢/٣١٥) .

ـ وفي مادة جرادقي (٢/٢٢٧) اكد المؤلفون انها لاتصنع الجرادق ولاتباع الا في رمضان .

ـ وفي مادة حميماتي (٢/٢٢٩) تحدث المؤلفون عن هؤلاء الذين يطيرون الحمام (راجع أيضا مادة طيوراتي (٢/٢٩٧) .

ـ وفي مادة راقي والمكبس (٢/٢٣١) اشاروا الى حيلهم ومساوئهم .

ـ وفي مادة سفرەجي (٢/٢٣٧) ذكروا انه لايوجد الا عند الاكابر وفي اللوكندات .

ـ وفي مادة شحاذ (٢/٢٥١) أضافوا الى ملفات مؤلف الجزء الاول في مادة سائل (١/١٧٧) .

ـ وفي مادة شربتجي (٢/٢٥٢) أوضحوا صنعة الذي يحمل الحق ويدور في الاسواق يسقي الناس الشرابات ..

ـ وفي مادة شماع (٢/٢٥٨)ذكروا أن أهل الزوج يحضرون ليلة العرس شمعة كبيرة .

ـ وفي مادة صناديقي (٢/٢٧٢) تحدثوا مفصلا عن تجهيز العرائس.

ـ وفي مادة صيدلاني (٢/٢٧٩) بينوا الفرق بينه وبين الاجزاجي- الاول يهتم بالعقاقير العربية القديمة، والثاني عالم يهيء العلاجات الاوروبية التي يصفها الاطباء .

ـ وفي مادة عجائبك عجائب (٢/٣٠٢) يصف المؤلفون صندوقه وما فيه واقبال الصغار عليه خاصة .

ـ وفي مادة عراف (٢/٣٠٤) يتحدثون عن المنجمين واباطيلهم (راجع مادة رمال ١/١٥٧) .

ـ وفي مادة عشا (١/٢/٣١١) أشاروا الى انه لايوجد الا عند الذاوات وفي اللوكندات .

ـ وفي مادة عطري (٢/٣١٣) أشاروا الى كساد هذه الصناعة بعد ان زاحمتها (اللاوندة الاوروبية) .

ـ وفي مادة علبي (٢/٣١٨) تحدثوا عن المجامع التي يصنعها العلبي لوضع أصناف السكاكر للهدايا والاعراس والاولاد المختونين .

ـ وفي مادة غرابيلي (٢/٣٢٦) أشاروا الى ان صنع الغرابيل من اختصاص النور .

ـ وفي مادة قانونجي (٢/٣٤٦) تحدثوا عن الافراح في البيوت وعن نوبة الالات .

ـ وفي مادة قباقيبي (٢/٣٤٨) ذكروا انواع القباقيب التي زالت . سوق القباقبية ، وان القبقاب الحالي مقتبس عن الشراكس .

- وفي مادة قواد (٢/٣٦٩) تحدثوا عن عرصة الاكابر وعرصة العامة .
- وفي مادة فوال (٢/٣٧٠) أشاروا الى ان غالب الفوالين من المصريين .
- وفي مادة قاووقجي (٢/٣٧٣) وصف لجميع انواع البسة الرأس التي كانت معروفة في دمشق .
- وفي مادة قلبقجي (٢/٣٧٩) وصف للقلبق .
- وفي مادة كركوزاتي (٢/٣٨٤) وصف لعمل خيال الظل الظريف .
- وفي مادة كلاّب (٢/٣٩١) حديث عن كلاليب الحبائز وافاعيلهم .
- وفي مادة كندرجي (٢/٣٩٤) حديث عن دخول الكنادر الى مدينة دمشق .
- وفي مادة مجلخ (٢/٤١٦) اشارة الى ان الذين يتعاطون هذه الحرفة في دمشق هم فقراء الافغان .
- وفي مادة مجرى (٢/٤١٧) وصف لعمله يوم ختان الطفل .
- وفي مادة مزعبر (٢/٤٣٤) تعداد لانواع الزعبرة كالسيمياء والنرنجيات وغيرها ، وحديث عن غزو المزعبرين الافرنج لمدينة دمشق وأعمالهم .
- وفي مادة مسحر (٢/٤٣٩) وصف لواجباته في رمضان .
- وفي مادة مشبب (٢/٤٤٣) حديث عن عزفه على الناي .
- وفي مادة مصور (٢/٤٤٥) اشارة الى تاريخ التصوير بالفوتوغرافيا .
- وفي مادة مضحك (٢/٤٤٩) حديث عن المهرج وعن المسخن ، وعن نفاق أمره عند الاكابر .
- وفي مادة مغني (٢/٤٥٩) حديث عن رواجه في الربيع والصيف في المنتزهات وكذلك في البيوت شتاء .
- وفي مادة مقرىء (٢/٤٦٢) حديث عن واجباته في المآتم .
- وفي مادة ممثل الروايات (٢/٤٧٠) حديث طويل عن رواج هذه الصنعة عام (١٢٩٥ ـ ١٨٧٧) .

هذا مااستطعت العثور عليه من الفوائد في كتاب قاموس الصناعات الشامية ، فيما يتعلق بالتاريخ الاجتماعي لمدينة دمشق ، وربما فاتتني أشياء يمكن أن يعثر عليها غيري من الباحثين .

الحـــواشـــي

(١) راجع على سبيل المثال مادة بوابيجي ٥٧/١ .

(٢) ٣٧/١ .

(٣) ١٣٤/١ وما بعدها .

(٤) ١٥٤/١ .

(٥) ٤٠٣/٢ وهي الفاتحة الواردة ذكرها في ٤٧٨/٢ .

(٦) ٤٠٨/٢ .

(٧) ٤٢١/٢ .

(٨) ٤٦٩/٢ .

(٩) ٤٨٧/٢ .

(١٠) ٦٩/١ .

(١١) ١٠٣/١ .

(١٢) ٢٢/٢ .

(١٣) ٢٣٠/٢ .

(١٤) ٢٣٩/٢ .

(١٥) ٢٧٤/٢ .

(١٦) ٣٢٣/٢ .

(١٧) ٣٦٤/٢ .

(١٨) ٢٤٩/٢ .

(١٩) ٣٦٧/٢ .

(٢٠) ٤٢٩/٢ .

(٢١) ٤٧٩/٢ .

الألبانيون في سورية ودورهم في الحياة السورية

الدكتور محمد موفاقا

(جامعة بريشنا)

في موضوع وجود الالبانيين في سورية يمكن للمرء أن يميز بين عدة اشكال لقدوم الالبانيين اليها ، أو الى الشام الشريف Sham Sherif كما هي معروفة في أوساط الالبانيين . ويمكن لنا أن نؤكد من هنا أن هذه الاشكال ، التي سنتحدث عنها لاحقا ، قد تمت في اطار الاتصال بين السوريين والالبانيين الذي جرى أول مرة خلال فترة الحكم العثماني لسورية وللمناطق الالبانية . وبهذا التأكيد نود أن نطرح جانبا ما قيل عن وجود علاقات قديمة بين السوريين والالبانيين تعود الى ماقبل هذه الفترة . ويكفي أن نشير الى أحمد بن زيني دحلان الذي يذكر في كتابه « الفتوحات الاسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية » عن الالبانيين في أنه « قيل أصلهم من عرب الشام من بني غسان ارتحلوا عن الشام بعدما اتى الله بالاسلام »(١) .

أما فيما يتعلق بأشكال قدوم الالبانيين الى سورية فيمكن أن نميز بين عدة حالات متداخلة ومتتالية :

١ ـ قدوم الولاة والاداريين :

من المعروف أن السلطة العثمانية اعتمدت سياسة معينة فيما يتعلق بادارة الولايات داخل الامبراطورية ، ألا وهي تعيين ولاة غرباء على ولايات لاينتمون الى صفوف سكانها . ومن هذا نرى أن العديد من السوريين كانوا على رأس الادارة في المناطق الالبانية ، كما أن العديد من الالبانيين كانوا على رأس الولاية في سورية بين حين وآخر . ولو استعرضنا الولاة العثمانيين الذين حكموا دمشق ما بين عام ١٥١٦ وعام ١٩١٨ ، والذين يبلغ عددهم ٢٧٠ واليا ، لوجدنا أن عدد الالبانيين في صفوفهم يفوق السوريين(٢) . ويشير مالدينا من المعطيات الى أن سنان باشا ، الذي جاء دمشق واليا سنة ٩٨٨ ـ ١٥٨٠ يعتبر من أقدم الالبانيين الذين تولوا ولاية الشام وبرزوا فيها ، ذلك الذي وصفه المحبي

بـ « صاحب الآثار العظيمة في البلاد ومن جملتها الجامع في دمشق خارج باب الجابية والحمام والسوق ، المتفق على حسن وضعهما ودقة صنعهما وله مثل ذلك في القطيفة وسعسع وعيون التجار وعكا مع خانات ينزلها المسافرون »(٣) . وبالاضافة الى هذا يمكن أن نشير الى ولاة لاحقين جاؤوا الى سورية في القرن السابع عشر كسنان باشا المعروف بـ«كوجك» الذي جاء الشام سنة ١٠١٧ ـ ١٦٠٨ وأحمد باشا الوزير الذي تولى الشام في سنة ١٠٣٩ ـ ١٦٣١ الخ.(٤) وأكثر مايهمنا هنا هو مواقف هؤلاء الولاة خلال وجودهم على رأس الولاية في الشام . ولكن يبدو أن ذلك عسير فيما يتعلق بولاة القرن السابع عشر والثامن عشر وذلك لقلة المعطيات التي ترد حولهم في كتب المؤرخين الدمشقيين ، الذين نادرا ما يشيرون الى انتمائهم الالباني(٥) . الا أن مانفتقده هنا يتضح بوجود المعطيات لولاة القرن التاسع عشر ، الذين يبدو عليهم تأثرهم بالمحيط الشامي . ورغبة في الايجاز نود هنا أن نشير فقط الى واليين ، أحدهما ابراهيم باشا والثاني اسماعيل كمال بك اللذين يمثلان حالتين خصوصيتين بالنسبة لموضوعنا .

قبل أن نتطرق الى هذين الواليين نود أن نشير الى شيء ما يكتنف نظرة الالبانيين الى بلاد الشام . فمن المعروف لدينا أن لبلاد الشام ، أو الشام الشريف ، مكانة خاصة في قلوب الالبانيين الذين كانوا ينظرون اليها نظرة تكاد تكون قدسية ، وذلك بتأثير عدة عوامل تدعمت بالدين(٦) . ومن هنا يمكن لنا أن نقول أن بلاد الشام قد مارست تأثيرا مسبقا على الالبانيين الذين جاؤوها كولاة أو كاداريين أو كمقيمين الخ . ففيما يتعلق بابراهيم باشا ، الذي تناولته مئات المؤلفات ، ليس لدينا مانضيفه في بضعة أسطر سوى أنه شكك باصلاحاته الجذرية بسبب البانيته فقط ، هذا مع أنه قدم لسوريا كل شيء ولم يقدم لموطنه أي شيء(٧) . ويمكن لنا أن نتوسع قليلا في اسماعيل كمال بك الذي يثير فيه ذلك التأثير الذي مارسته سورية عليه ، على الرغم من أنه بقي فيها واليا لمدة شهر واحد فقط(٨) . وقد خلف لنا اسماعيل كمال في مذكراته صفحات طويلة عن سورية تتضمن أهمية خاصة ، مما قد يبرر لنا أن نتوسع فيها قليلا .

في طريقه الى دمشق توقف ا. كمال فترة في اللاذقية ، وعلى الرغم من أن اقامته في اللاذقية كانت قصيرة الا أنها كانت ليتعرف على مآسي تلك المنطقة فقد كتب في مذكراته يقول « خلال اقامتي في اللاذقية

أثارتني تلك المعاملة غير العادلة التي يلقاها النصيرية ، الذين يعيشون في جبال الساحل من لبنان حتى الاسكندرونة . وهؤلاء عبارة عن عنصر يتمتع بجمال نادر الا أنهم بقوا مسحوقين لقرون عديدة ، وهذا يدفعهم بالطبع الى عدم الارتياح الى جيرانهم . فقد كانت الحكومة تتخذ اجراءات صارمة ضدهم ، وكان هؤلاء يضطرون الى اللجوء الى جبالهم « العالية » لحماية أنفسهم ... أما الآن فهم لايتمتعون بحق الملكية بل أنهم يستأجرون الارض ، التي كانت ملكا لهم ، ويدفعون الضرائب للدولة كما لو كانوا مالكين للأرض »(٩) . الا أن ا. كمال لم يكتف بتدوين هذه الانطباعات بل يضيف « عندما تعرفت على حالتهم قمت باتخاذ الاجراءات لاصلاح هذه الحالة البائسة ، لانني كنت أعتقد بانهم سيكونون صالحين للمجتمع »(١٠) . .

ولدى اقامته في دمشق يكتب لنا أول انطباع عام عن سورية « مع أن سورية هي أجمل وأهم الاقطار التركية في آسية نجد أن دمشق التي هي عاصمة الولاية تحتاج للكثير »(١١) . الا أن اسماعيل كمال سرعان ما يضيف بعد هذه السطور « لدي الكثير مما أقوم به في هذا البلد الجميل ، حيث لاتنقص الوسائل لذلك . ولكن بما انني هنا بالوكالة علي أن أنتظر أوامر السلطان لاعرف هل سأذهب الى بيروت ، بعد أن يتم تعيين وال آخر في دمشق ، أو انني سأتولى الولايتين معا كما كانتا في السابق »(١٢) .

وفي مقطع آخر يدلل ا. كمال على عمق تفهمه للوضع السوري وبعد نظره فيما يتعلق بالمستقبل حين يكتب « لقد كان من الخطأ تقسيم سوريا الى ولايتين ، ولاية بيروت مع الساحل وولاية دمشق مع الجزء الداخلي . فقد كان لهذا التقسيم نتائج سيئة من الناحية الاقتصادية والادارية ، حيث أدى الى شلل الاعمال في كل حقل »(١٣) .

وعلى الرغم من أن ا. كمال لم يتح له أن يبقى في سورية أكثر من شهر ، الا أن سوريا تركت فيه تأثيرا لاينسى ، وذلك يبدو في الانطباع الاخير الذي كتبه قبل مغادرته النهائية . فقد كتب في آخر الفصل الحادي عشر من مذكرته « سوريةيجبأنتكون البلد الاكثر غنى وازدهارا في الشرق ، وذلك بسبب خصوبة أراضيها وسهولة النقل فيها ، ووعي سكانها . ولكن لسوء الحظ تراكم الاهمال من جانب السلطات ، واضطهاد السكان ، وغياب الامن ، والضرائب غير المشروعة كل ذلك دفع البلاد

الى تلك الحالة البائسة . فقد تحولت قرى بكاملها الى ملكية خاصة لذوي النفوذ من الشخصيات ، على حين أن الفلاحين كانوا مضطرين تحت ضغط الضرائب الى أن يبيعوا أراضيهم . وقد كان من المفروض على الحاكم أن يعالج هذه المساوىء المتزايدة ، والتي تتعارض مع قانون بيع الاراضي الذي يمنع بيع الاراضي بشكل جماعي »(١٤) .

وقد أضاف أ.كمال الى هذا جملة ذات مغزى حين كتب يقول « يبدو لي أن تطبيق هذا القانون يمكن أن يتم دون مصاعب كثيرة ، الا أن دعوتي الى استنبول أعاقتني عن تطبيق افكاري وخططي . لقد صعب علي ذلك لان عملي كان سيؤدي الى تطور ملحوظ في زراعة هذه البلاد»(١٥).

ولضيق المجال نود أن نضيف شيئا آخر يتعلق بالاداريين، ونقصد هنا بالتحديد المتصرفين والكتبة الخ . ومن المعروف أن قلة من هؤلاء استقروا في سورية على حين أن البقية كانت تعود ثانية بعد انتهاء مهامها في سورية . وفيما يتعلق بهذه الفئة يمكن ان نضيف أن دورها في الحياة السورية ليس واضحا كما في الحياة الالبانية . أي أن هذه الفئة قد قامت بدورها الرئيسي لا في الحياة السورية بل في الحياة الالبانية . فمن المعروف ان أفراد هذه الفئة كانوا يقيمون في سورية لفترة تتراوح بين سنة وعدة سنوات . وخلال هذه الفترة اتيح للبعض الذي لايعرف العربية أن يتعلم هذه اللغة وان يطلع ، بشكل موجز أو واسع ، على أدب وثقافة هذه اللغة . وقد حملت هذه الفئة لدى عودتها الى موطنها الكثير من التأثيرات الثقافية التي انتقلت تدريجيا الى الادب الالباني(١٦) .

٢ ـ قدوم العسكريين :

من المعروف ان الجيش العثماني قد اعتمد في بدايته على الدفشرما التي طبقت على نطاق واسع مابين ١٤٣٠ ـ ١٤٣٨ في عهد السلطان مراد الرابع . وقد كانت اللجان المكلفة تطوف البلقان لاختيار الشبان الاشداء من الريف ، وعلى هذا شكل الالبانيون نسبة لابأس بها في أوساط الجيش وذلك لما عرف عن الالباني من تمرسه بالحروب حتى قيل فيه « السيف للألباني »(١٧) . وبعد اصلاحات ١٨٠٥ ـ ١٨٣١ دخل الالبانيون كغيرهم في صفوف الجيش الجديد ، حيث كانوا يقضون خدمتهم خارج وطنهم ولاسيما في الاقطار العربية (سوريا واليمن)ولفترة كانت تصل الى عشر سنوات(١٨) . وفيما يتعلق بسورية تفيدنا المعطيات ان العسكريين الالبانيين قد برزوا بين زعماء الانكشارية في دمشق منذ النصف الاول

للقرن السابع عشر على الأقل . ومن بين هؤلاء الزعماء لدينا عدة شخصيات من آل الارناؤوط الذين تمتعوا بنفوذ قوي في دمشق خلال النصف الاول للقرن السابع عشر . وقد كان رأس هذه العائلة حسين الارناؤوط ، الذي قدم الى دمشق في نهاية القرن السادس عشر وصار من جندها ثم أصبح رئيس الجاويشية لعدة سنين في مطلع القرن السابع عشر(١٩) . وقد خلف حسين الارناؤوط ولدين أولهما خدا وردى الذي أدركه المحبي ووصفه بانه « من أعيان الجند وأرباب المروءة والسخاء » كما ويضيف المحبي انه توفي سنة ١٠٨٣ في جرش(٢٠) . أما الآخر ، علي المعروف بابن الارناؤوط ، فيصفه المحبي بانه « أحد كبراء جند الشام » ويخبرنا المحبي بانه صار أولا من آحاد الجنود ثم تنقل في مراتبهم ، ولما توفي أبوه أخذ منصبه كرئيس الجاويشية ثم أصبح فيما بعد كتخدا الجند ، ومن ثم كان يسعى الى امارة الحج الى أن جاءه الخبر بها . الا انه سرعان ما قتل من قبل الوالي أحمد باشا سنة ١٠٥٢ ــ ١٦٤٣(٢١) . ويبدو أن هذا كان يشكل حلقة في سلسلة الصراع على النفوذ في دمشق بين الولاة وزعماء الانكشارية(٢٢) . ولكن مع هذا يبدو ان آل الارناؤوط لم يتلاشَ نفوذهم مع تصفية علي وذلك لانه خلفه بعد قتله أبناء علي وخداوردى(٢٣).

ومن ناحية أخرى كان الالبانيون يأتون سوريا كجنود أو كضباط في اطار الجيش لفترة تمتد الى عدة سنوات ، وقد يستقر البعض منهم نهائيا في سورية . ويمكن أن نشير هنا بشكل خاص الى قدوم جيش ابراهيم باشا سورية الذي كان في صفوفه عدد لابأس به من الالبانيين(٢٤). وقد استقر قسم من هؤلاء وامتزج بالسكان وذلك للفترة الطويلة نسبيا التي استقرت فيها ادارة ابراهيم باشا(٢٥) . كما ان الجيش العثماني الذي عاد الى سورية بعد هزيمة ابراهيم باشا (١٨٤٠) قد حوى في صفوفه عددا لابأس به من الالبانيين . ويبدو ان عدد هؤلاء الالبانيين كان يشكل قوة لابأس بها في دمشق حتى سنة ١٨٤٤ على الاقل ، اذ انهم ثاروا في وجه السلطة في العام المذكور احتجاجا على سوق أبنائهم الى الخدمة العسكرية(٢٦) .

وفيما يتعلق بهذه الفئة يمكن ان نضيف أن دورها في الحياة السورية لم يتعد هذا ، على حين أن دورها كان أكبر في الحياة الالبانية ، وذلك لانها حملت تأثيرات مختلفة لدى عودتها الى موطنها(٢٧) .

٣ ــ قدوم الطلاب :

بدأت علاقة الالبانيين باللغة العربية وبالثقافة العربية ، في اطارها

العام ، منذ النصف الثاني للقرن الخامس عشر ، أي بعد الفتح العثماني للمناطق الالبانية بقليل . وقد انتشرت فيما بعد ، خلال القرنين السادس والسابع عشر ، الكتاتيب والمدارس في المدن الالبانية الرئيسية . وقد وفرت هذه الكتاتيب والمدارس تعلم العربية والاطلاع بشكل عام على منابع الدين (القرآن والحديث) ، بالاضافة الى القليل من المعارف العامة ، على حين انها اختصت فيما بعد فقط بالعربية والدين مع تشكيل المدارس الرسمية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . ومع أن هذه المدارس حصرت مهمتها في اعداد رجال الدين للمناطق الالبانية ، الا ان برنامج هذه المدارس لم يكن يتيح للطالب الا كسب بعض الاسس التي تؤهله لمتابعة دراسته في المراكز الثقافية الكبرى في عالم ذلك العصر مثل استنبول والقاهرة ودمشق الخ(٢٨) . وعلى هذا فقد تردد الكثير من الطلاب الالبانيين ، وحتى من الشيوخ ، الى دمشق لتحصيل مزيد من المعرفة في أرجائها .

وبالطبع لايمكن أن نتوقع لهؤلاء دورا خاصا في الحياة السورية على حين انهم لعبوا دورا أكبر في الحياة الالبانية . ويكفي أن نذكر هنا ان الطريقة السعدية قد انتقلت عن طريق هؤلاء الى المناطق الالبانية . وقد انتشرت في عدة مدن البانية كما وقد نبغ بين الالبانيين شخصيات بارزة في هذه الطريقة كسليمان اجيزة بابا الذي كان يلقب بـ « المعلم العظيم الثاني » ، على اعتبار ان مؤسس هذه الطريقة سعد الدين الجباوي هو المعلم الاول(٢٩) . وقد أدى انتشار هذه الطريقة في صفوف الالبانيين الى نوع من الارتباط بدمشق وجبا ، على كونها الموطن الروحي لهذه الطريقة . اذ ان شيوخ هذه الطريقة كانوا يجازون ، أو يأخذون اجازاتهم ، من سورية . ويكفي أن نشير هنا الى شيخ سليم المسوتي الذي كان ذا شأن في المجتمع الدمشقي حتى انه عد من الاولياء(٣٠) .

٤ ـ هجرة الالبانيين :

لاحظنا فيما سبق ان الالبانيين قد هبطوا سورية لفترة ما ، كما ان بعضهم استقر فيها لظروف خاصة . وبالاضافة الى هؤلاء شهدت سورية في النصف الثاني للقرن التاسع عشر بداية قدوم الالبانيين الذين هاجروا من بلادهم وجاؤوا سوريا بهدف الاستقرار النهائي . ومن جراء هذا كان عدد الالبانيين ينمو ببطء في دمشق حتى نهاية القرن السادس عشر ، حتى اننا نرى الالبانيين لاول مرة في احياء معينة من دمشق (سوق

ساروجة والمهاجرين) في نهاية هذه الفترة(٢١) . الا ان هجرة الالبانيين الى سورية ، بالمعنى المعروف للهجرة ، لم تبدأ فعلا الا في النصف الاول للقرن العشرين ، وخلال موجتين متلاحقتين : الاولى خلال سنوات ١٩١٢ ـ ١٩١٤ والثانية خلال سنوات ١٩١٨ ـ ١٩٣٨(٢٢) .

وفيما يتعلق بدوافع هذه الهجرة يمكن أن نختزلها كلها في دافع رئيسي الا وهو الهرب من الاضطهاد القومي الذي كان يتعرض له الالبانيون من الشعوب المحيطة بهم . فمن المعروف ان خارطة البلقان قلبت رأسا على عقب بعد الحرب البلقانية الاولى والثانية (١٩١٢ ـ ١٩١٣) ، فقد تمت تصفية الوجود العثماني في البلقان كما وتم تقاسم المناطق الالبانية بين صربيا واليونان والجبل الاسود باستثناء شريط صغير على الساحل ، حيث أجبرت هذه الدول على الاعتراف به كارض البانية لالبانية التي تشكلت حين ذاك(٢٣) . وقد تعرض الالبانيون في المناطق التي ضمت للدول المذكورة الى اضطهاد بالغ العنف وذلك لدفعهم للتخلي عن أراضيهم أو الهجرة الى الخارج . وقد تغير الموقف خلال الحرب العالمية الاولى بسبب عودة هذه المناطق الى البانيا لفترة قصيرة ، الا ان هذه الاوضاع عادت ثانية مع انتهاء الحرب الاولى وظهور البلقان في خارطة جديدة . وفي ذلك الاتجاه ظهرت يوغسلافيا التي ضمت ما يقارب نصف الشعب الالباني . الا ان يوغسلافيا القديمة(٢٤) التي قصد منها ان تكون رابطة ديمقراطية لكل القوميات المتناثرة كانت في الحقيقة سجنا كبيرا تسيطر عليه البرجوازية الصربية . وفي اطار هذا السجن وجد الالبانيون أنفسهم ، الى جانب غيرهم ، ازاء وضع مأساوي ككتل غير مرغوب فيها. وعلى هذا كان الموقف الرسمي يرمي الى محي الشخصية القومية الالبانية باسرع ما يمكن ، ومع الزمن امتد هذا التهديد الى وجودهم نفسه(٢٥) . وتحت هذا التهديد نزح عشرات الالوف من الالبانيين خارج يوغسلافيا هربا من هذا الاضطهاد .

ومن ناحية أخرى يلاحظ المرء ان هجرة هؤلاء الالبانيين قد اتجهت غالبا نحو الشرق (تركيا ـ سورية) وذلك لعدة أسباب . فهناك أولا تأثير الارتباط التاريخي الذي امتد لخمسة قرون ، كما ان وجود جاليات البانية كبيرة (في تركيا) قد شجع الالبانيين للتوجه الى الشرق . وفيما يتعلق بسورية فليس هناك من شك في ان اتجاه الالبانيين اليها قد حدث تحت تأثير سورية « الشام الشريف » الذي كان حاضرا لقرون في نفوس

الالبانيين على كونها بلدا مقدسا وممتازا يدفع المرء لان يطمح بالعيش فيه. ويمكن أن نرى هذا التأثير في الحاح الالبانيين على مواصلة طريق الهجرة حتى سورية ، على الرغم من المشاق العظيمة التي كان يتعرض لها الالبانيون في هذا الطريق الطويل والتي أدت الى موت العديد منهم(٣٦) . أما فيما يتعلق بعدد الالبانيين الذين تمكنوا من الوصول الى سورية ، ضمن هاتين الموجتين فقط ، فهناك صعوبة في تحديد الرقم . ولذلك يمكن ان نقدرهم بحوالي الفين الباني ، بحيث يمكن ان يكون قابلا للزيادة أيضا . ومع أن عدد الالبانيين في سورية يمكن أن يتوسع ليشمل الآخرين الذين جاؤوا قبل هؤلاء ، الا أن هذا العدد يبقى صغيرا فيما لو قورن بالاقليات الاخرى في سورية . ومع هذا فان عدد الالبانيين قد يبدو كبيرا للبعض وذلك للدور الذي تميز به الالبانيون في الحياة السورية .

وقبل أن ننتقل الى الحديث عن هذا الدور لابد ان نتوقف قليلا عند ظروف الالبانيين في سورية لكي نتتبع دوافع دورهم في جانب دون آخر من الحياة السورية .

لقد لاحظنا سابقا ان عدد الالبانيين قليل وحتى انه لايقارن بعدد الاقليات الاخرى في سورية . لكن الالبانيين في معظمهم تركزوا في العاصمة دمشق ، حيث أتيح لهم أن يتفاعلوا فورا وبشكل جماعي بالحياةالسورية، الى ذلك الحد الذي تحولوا فيه من منفعلين الى فاعلين في هذه الحياة . الا ان الالبانيين عاشوا وسط ظروف حياتية شاقة في الفترة الاولى لاستقرارهم في سورية ، وذلك لانهم غادروا وطنهم في شروط صعبة وبالتالي كان عليهم أن يبدأوا حياتهم من الصفر في سورية . وبالاضافة الى هذا كان الالبانيون المهاجرون الى سورية في أغلبيتهم فلاحين من الريف الالباني ، وبالتالي نادرا ما نلمح بينهم حرفيين أو تجارا . ولكن الالبانيين عندما استقروا في وسط مدني ، في دمشق ، حيث استقرت غالبيتهم ، كان عليهم أن يتخلوا عن الزراعة وان يتجهوا نحو مهن بسيطة لاتتطلب أية خبرة(٣٧) . وفي ظل هذه الشروط علينا الا نتوقع أن يكون للالبانيين أي دور في الحياة الاقتصادية بل ان دورهم هنا كان هامشيا للغاية . ولكن مع هذا الفقر تمتع الالبانيون بغنى في مجالات أخرى ، ولاسيما في المجال الوطني والثقافي .

ففيما يتعلق بالمجال الوطني يمكن للمرء أن يلاحظ أن هناك ارتباطا كفاحيا بين السوريين والالبانيين ، اذ انهم كافحوا لسنوات طويلة

في سبيل التحرر من عدو واحد الا وهو السلطة العثمانية التي جثمت لقرون سواء في سورية أو في البانيا . ومن المعروف ان الالبانيين بقوا يكافحون حتى اللحظة الاخيرة التي اضطروا فيها للهجرة الى سورية ، دون ان يتاح لهم قطف ثمار كفاحهم الطويل في سبيل التحرر . وحين وصل هؤلاء الالبانيون الى سورية وجدوا ان البلاد ترزح تحت نير مستعمر فرنسي وان العدو يكاد يكون واحدا بينهم وبين السوريين . وفي ظل هذه الظروف كان لابد للالبانيين أن يتخذوا موقفا ما . وبالفعل لم يتأخر الالبانيون عن اتخاذ ذلك الموقف ، الذي تبلور في الاندماج الفوري بالكفاح الوطني ضد المستعمر الفرنسي . وفي هذا الاتجاه تطالعنا أولا شخصية معروف الارناؤوط(٣٨) . وتجدر الاشارة الى أن معروف الارناؤوط قد بدأ كفاحه باكرا ضد السلطة العثمانية حين فر من الجيش العثماني في ضواحي استنبول ، حيث كان يخدم في الجيش كمعاون ضابط ، ليلتحق بمركز الثورة العربية في مكة . وبعد فترة جاء معروف . الارناؤوط الى دمشق مع الجيش العربي ، حيث بدأ نشاطا واسعا في حقل الصحافة(٣٩) . وقد تجذر كفاح معروف الارناؤوط ضد السلطة الفرنسية منذ اللحظة الاولى حتى انه حكم عليه بالاعدام حينذاك ، الا انه تمكن من الاختفاء الى ان صدر العفو عنه ثانية(٤٠) . وبالاضافة الى هذا يمكن للمرء ان يرى للالبانيين دورا خاصا في الثورة السورية الكبرى ١٩٢٥ — ١٩٢٧ . وفي طليعة الالبانيين الذين شاركوا في الثورة يأتي أكرم خلقي الذي حكم عليه بالاعدام لمشاركته فيها مما اضطره للهرب الى مصر حتى صدور العفو حينذاك(٤١) .

وعلى الرغم من ان عدد الالبانيين كان هامشيا في المجتمع الدمشقي الا ان عدد المشاركين منهم كان كبيرا . وقد بقي الكثير منهم يحاربون حتى اللحظة الاخيرة ، كما في معركة الدريج الحاسمة ١٩٢٧ ، حيث استشهد حينئذ الامير عز الدين الجزائري مع ثلاثة من المجاهدين الالبانيين والكثير من الاخرين(٤٢) . ومن المثير ان الكثير من الالبانيين الذين انخرطوا في هذه الثورة كانوا من الجيل الذي ترعرع في سورية ، ويكفي ان نشير هنا الى المجاهد اسلام حسن الذي استشهد في معركة الدريج المذكورة وهو في التاسعة عشرة من عمره . وبالاضافة الى هذا تجدر الاشارة الى ان الالبانيين ، في مرحلة مابعد الثورة ، قد رفضوا على الدوام اغراء السلطة الفرنسية للانخراط في الجيش الفرنسي العامل في سورية ، ذلك الشيء الذي كانت تنتهجه السلطة مع الاقليات الاخرى لاستخدامها ضد الغالبية(٤٣).

ومع كل هذا يمكن ان نقول ان أهم دور للالبانيين في سورية يكمن في المجال الثقافي ، وبشكل خاص في حقل الشعر والمسرحية والقصة والرواية . وللدلالة على ضخامة هذا الدور يكفي أن نشير الى ان الالبانيين قد ساهموا ، جزئيا أو كليا ، في خلق وتطور ثلاثة أنواع أدبية جديدة في الادب السوري الا وهي المسرحية والقصة والرواية .

ففيما يتعلق بالشعر يكفي أن نشير الى الشاعر مصطفى خلقي(٤٤) ، الذي برز بقوة في مطلع هذا القرن . ومن المعروف ان مصطفى خلقي بدأ حياته العملية ، بعد ان تخرج من المدرسة الحربية في استنبول ، بـ « ثورة عنيفة على السياسة الخرقاء التي كانت تسود ذلك العهد والجهل المطبق الذي يعيش في ظلمته أبناء العرب ، فكان لذلك أحد أقطاب الثورة الفكرية والاصلاحية الذين لاقوا اشد العذاب في سبيل دعوتهم »(٤٥) . ويعتبر مصطفى خلقي من أول رموز الاتجاه المستقبلي في الحركة الادبية في دمشق ، ذلك الاتجاه الذي كان نقيضا للاتجاهين السلفي والانتقائي . وبالاضافة الى هذا يذهب د. اسكندر لوقا في كتابه « الحركة الادبية في دمشق ١٨٠٠ ــ ١٩١٨ » الى أن مصطفى خلقي ورفاقه الاخرين كانوا طليعة الجهود لشق الطريق أمام تيار الادب القومي في العشرينات من هذا القرن(٤٦) . وقد كانت لاشعار مصطفى خلقي القومية شعبية في أوساط الجماهير ، فقد « أخذ الناس يتداولون شعره الثوري سرا وعلانية »(٤٧) . وفي هذا السياق تذكر عادة قصيدته المشهورة التي هاجم فيها بعنف موقف الاتحاديين :

لاتسل عن حال أهل الاتحاد　　انهم في الارض جرثوم الفساد

ولايقف اسهام مصطفى خلقي عند بعث هذه الروح القومية في الشعر الحديث في سورية بل يتعداه ايضا الى الاغراض الاخرى ، التي استل منها روحها خلال العصر العثماني . ومن ذلك نلمح في شعره نقدا اجتماعيا جريئا قلما نجد له مثيلا في شعر تلك الفترة ، اذ انه تناول موضوعات كانت لاتمس في المجتمع السوري المحافظ . ويكفي أن نشير هنا الى نقده للمسترزقين من دعاة الدين في المجتمع السوري حينذاك في قصيدته الشهيرة التي يقول في مطلعها :

كم عابد يبدى النزاهة والتقى　　ويباشر الآثام في الخلوات
واذا رأى الدينار يسجد قائلا　　يار بنا ياقاضى الحاجات(٤٨)

وبالاضافة الى هذا كان لمصطفى خلقي تجديدا في الشعر الغزلي ، وفي المعاني يضيف الناقد أحمد الجندي ان « الشاعرية قد بلغت به حد الاجادة من حيث المعاني الرقيقة والخيال البديع مع سلامة اللفظ وقوة البيان »(٤٩) . ولدينا في ديوانه المخطوط ، كما في كتاب أحمد الجندي المذكور ، نماذج لاشعاره الغزلية التي يتضح فيها تجديده في هذا الاتجاه(٥٠) .

أما فيما يتعلق باسهام الالبانيين في خلق وتطور المسرحية الفنية في الادب السوري فلدينا هنا جهود معروف الارناؤوط(٥١) . ففي الفترة التي بدأ فيها معروف الارناؤوط نشاطه المسرحي ، كانت المسرحية السورية لم تشهد بعد الا تطورا ضئيلا على يد الجيل الذي يفصل بين أبي خليل القباني ومعروف الارناؤوط فالمسرحية بقيت تعتمد بشكل رئيسي على المصادر التاريخية . ومن ناحية أخرى بقي الاسلوب فوضويا يقوم على ارضاء الجمهور ، فالنثر يختلط بالشعر وتختلق مناسبة ما للاغاني . وكذلك استمرت النقيصة في النثر المسرحي الذي بقي السجع مسيطرا عليه . وهنا يكمن دور معروف الارناؤوط الذي كان من أوائل من حاولوا التحرر من السجعفي مسرحياته ، والذي اتيح له أخيرا ان ينجح في ذلك وان يحرر بالتالي المسرحية السورية من هذا السجع(٥٢) . وفي هذا الاتجاه تذكر له عدة مسرحيات ك « الصقيلي الشريف » و « الرجوع الى ادرنة » و « جمال باشا السفاح » . الا ان هذه الاخيرة ، « جمال باشا السفاح » ، تحتوي بالاضافة الى قيمتها الفنية على قيمة ايديولوجية . فالجديد في هذه هو دخول معروف الارناؤوط المسرحية بدور عراف عربي يحدثنا عن العرب وتاريخهم وعن قرب تحقيق الوحدة العربية ، مما يدع المرء في دهشة لحماسة ذلك الالباني الاصل للقومية العربية(٥٣) . كما ان المميز في هذه المسرحية هو ان معروف الارناؤوط انتقل بالكتابة المسرحية من تناول الرموز التاريخية ، التي لعبت دورا ما في ايقاظ الحس القومي ، الى الرموز الحية المعاشة التي تحاول ان تلعب دورا في اليقظة القومية العربية . ومن المعروف ان هذه المسرحية قد عرضت في وقتها ونالتشهرة كبيرة ، ولكن مما يؤسف له ان نص المسرحية مازال مفقودا ، ومابقي منها مجرد انطباعات تلك الايام عنها(٥٤) .

كما ان معروف الارناؤوط كان قد نشر أخيرا مسرحيته « أبو عبد الله الصغير » ـ حلب ١٩٢٩ ، التي ينتقل بنا فيها الى اسبانيا ليروي

لنا ـ سقوط غرناطة ، والتي سقطت بسقوطها السلطة العربية . وهذه المسرحية تعتبر من الناحية الفنية من أفضل ما كتب معروف الارناؤوط. وان المرء ليفاجأ حقا بتوقف معروف الارناؤوط ، بعد ما وصل بالمسرحية السورية الى هذا المستوى الفني ، عن الانتاج واتجاهه نحو الرواية نهائيا . لقد غادر معروف الارناؤوط الى المجال الروائي وهو مطمئن ، على مايبدو، الى ان المسرحية السورية وصلت أخيرا الى ما يجب ان تصل اليه كبداية طريق لا أكثر . وهذا الدور لمعروف الارناؤوط ليس من الكثير ان يقول فيه أحد النقاد المؤرخين للمسرح السوري « لقدكانتتجربة معروف الارناؤوط كمؤلف للمسرح او كمترجم له تجربة رائدة ... وقد استطاعت أن تشعر جمهور القراء بالاتجاهات العالمية في الادب والمسرح ، وبان المسرح يمكن أن يستغل لشتى الموضوعات الادبية والفنية والتاريخية والعاطفية والاجتماعية والوطنية »(٥٥) .

أما فيما يتعلق باسهام الالبانيين في القصة السورية فيكفي ان نشير الى الدور الذي لعبه القاص علي خلقي(٥٦) . فمن المعروف أن مؤرخي القصة في سورية قد أفردوا دوما مكانة خاصة لعلي خلقي على كونه من رواد القصة في سورية(٥٧) . وتجدر الاشارة الى أن مجموعة علي خلقي القصصية « ربيع وخريف » التي طبعت في دمشق ١٩٣١ ، بقيت الوحيدة من نوعها في الساحة الادبية لعدة سنوات . ولكن المحاولات الاولى لتأريخ القصة السورية ، محاولة شاكر مصطفى وعدنان بن ذريل ، افتقدت الى الكثير من عطاء علي خلقي مما أدى أحيانا الى تقليص دوره . وقد أعيد الاعتبار لدور علي خلقي في المحاولات اللاحقة التي اعتمدت على مجمل عطاء علي خلقي الفني ، بالاضافة الى اعتمادها على المعطيات الجديدة في النقد . من هذا يمكن ان نشير الى آخر محاولة في هذا الاتجاه ، تلك التي جاءتنا في كتاب أبو شنب « صفحات مجهولة في تاريخ القصة السورية » الذي يدل عنوانه على الهدف الذي سعى من اجله المؤلف . ففي هذه الصفحات المجهولة التي بدت لنا الان يبرز علي خلقي على انه « الاول تقريبا الذي كتب القصة وهو يعرف انه يكتب قصة ، وهو الاول ايضا الذي كان التزامه بقضية الكادحين وبمجابهة الظلم الاجتماعي والتفاوت الطبقي..(٥٨) » . ولكي لانتدخل في اصدار حكم خاص نفضل ان نترك ذلك للناقد عادل أبو شنب لكي يحدد اسهام علي خلقي في خلق وتطور القصة السورية :

« ١ ــ علي خلقي قاص رائد ... في كتابته القصة بفنية ملحوظة وبمعلمية ، بعدتا بها عن أن تكون مجرد حكاية .

٢ ــ ريادته لاتنطلق من هذه الفنية فحسب ، وانما من كونه اول من عالج أزمة نفسية من الداخل .

٣ ــ انطلق علي خلقي من مفاهيم فكرية واضحة ، فهو ضد الرياء الاجتماعي وتحكم طبقة على حساب طبقة . وبهذه الصورة يمكن القول انه كان ملتزما .

٤ ــ حرص على تجسيد الشخصيات كنماذج موجودة في الواقع ، فأبدع في ذلك »(٥٩) .

وفيما يتعلق بدور الالبانيين في خلق وتطور الرواية السورية لدينا هنا أيضا معروف الارناؤوط . فقد أصبح من المعروف أن الرواية الفنية في الادب السوري قد ولدت على يد معروف الارناؤوط(٦٠) . ويتضح بجلاء دور معروف الارناؤوط في خلق وتطور الرواية السورية فيما لو طالعنا الثبت التاريخي للروايات السورية حتى عام ١٩٧٣ . ففي هذا الثبت نجد ان لمعروف الارناؤوط الرواية الاولى (سيد قريش ١٩٢٨) والثانية (عمر بن الخطاب ١٩٣٦) والخامسة (طارق بن زياد ١٩٤١) والسادسة (فاطمة البتول ١٩٤٢) ، أي أن لمعروف الارناؤوط أربع روايات من الروايات الست الاولى في هذا الثبت التاريخي للرواية السورية(٦١) .

ومن المعروف ان الرواية الاولى لمعروف الارناؤوط ، سيد قريش ١٩٢٨ ، قد أحدثت في حينها ضجة كبيرة (٦٢) ، وهي تعتبر بحق كما كان يجب أن يسميها المؤلف « ملحمة » . انها عمل يستعرض الاوضاع الاجتماعية والسياسية للعرب قبل ظهور الاسلام فيما يشبه البانوراما ، الا انه يستعرض هذه الاوضاع برؤيته القومية التي تهمناهنا . فشخصية معروف الارناؤوط الايديولوجية أكثر اتضاحا هنا ، فهو كما بدا لنا يحاول أن يصوغ موقفا فكريا في اطار رواية . لقد كتب معروف هذه الرواية في لحظة أخذت فيها الاتجاهات القومية في سورية تتحدد وتتميز أكثر فأكثر عن بعضها البعض ، وكان من الطبيعي الا يستمر معروف محايدا وسط هذا التمايز . فلقد كتب معروف في مذكراته ان فكرة الرواية قديمة في نفسه كما وان « بواعث الرواية » في جملتها وتفصيلها قومية » . كذلك

أضاف معروف أن « التشويه لتاريخ العرب وكثرة صدور الكتب المدسوسة هي التي عجلت في اخراج سيد قريش » . لقد كتب معروف هذه الرواية ليثبت أن القومية العربية موجودة قبل الاسلام ، وان عرب سورية كانوا متمدنين وعلى « اتصال دائم بحضارات بيزنطة والعالم » . وفي مناسبة اخرى كتب « ان العرب ، دون أن يؤثر فيهم كونهم مسيحيين أو مسلمين، قد تساندوا وتعاونوا لكونهم عربا تختلج في نفوسهم فكرة واحدة وجنسية واحدة »(٦٣) . وهذا انما يوضح مدى تفهم معروف الارناؤوط للقومية العربية ومدى حماسته لها(٦٤) .

خلاصة

في الفترة الاخيرة نشهد تحولا في الموقف من الاقليات القومية المتناثرة بين الشعوب ، فهذه الاقليات لم تعد تعتبر فقط بارودا قابلا للاشتعال بين الشعوب بل أصبحت تعتبر جسرا ضخما بين الشعوب ؛ حيث تنتقل الخبرات والقيم الاجتماعية والثقافية التي تساهم في التقارب بين هذه الشعوب . ومن هذا الموقع علينا ان ننظر الى الجالية الالبانية في سورية ، التي لعبت دورا ايجابيا وكبيرا في هذا الاتجاه ، أي في التقريب بين السوريين والالبانيين وخاصة في المجال الثقافي . فقد نقل الالبانيون الى الحياة الالبانية الكثير من المؤثرات الثقافية من سورية ، كما انهم ساهموا بشكل فعال في تطور الثقافة السورية . وبالاضافة الى هذا لعبت الجالية الالبانية في سورية دورا كبيرا في تعريف السوريين بالثقافة الالبانية وفي تعريف الالبانيين بالثقافة السورية . وبفضل هذا مثلا اتيح للالبانيين أن يتعرفوا على آخر ما ينتج في سورية من شعر وقصة ورواية الخ ...، واصبح لهذه حضورا دائما في الصحف والمجلات الالبانية . وهنا يكمن في رأينا الدور الخلاق للجالية الالبانية في سورية التي يمكن لها ان تفتح كل الابواب الموصدة بين الشعبين السوري والالباني .

الحـواشـي

(١) « الفتوحات الاسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية » المكتبة التجارية ـ القاهـرة ج ٢ ص ١٣٠ .

(٢) انظر ملحق ولاة دمشق في كتاب صلاح الدين المنجد « ولاة دمشق في العصر العثماني » دمشق ١٩٤٩ .

(٣) المحبي ، خلاصة الاثر على أعيان القرن الحادي عشر ، بيروت ١٩٦٦ ج٢ ص ٢١٤

(٤) نفس المصدر ج ١ ص ٣٨٥ ، ج ٢ ص٢١٨ .

(٥) باستثناء أحمد باشا الذي يسميه المحبي بـ « الارنودى » . وما عدا ذلك لدينا معطيات قليلة كما في الباشوات والقضاة لابن جمعة .

(انظر مثلا ص ٢٠ ، ٣١ ، ٣٣ ٣٤ ، ٥٧ من كتاب المنجد السابق الذكر) .

(٦) Muhamed Mufaku, Shipetaret e Sirise, Rinlindja (Prishtine) I. IX. 1977.

(٧) وينسحب هذا أيضا على محمد علي الذي يعامله المؤرخون الالبانيون على هذا النحو . « مع أن محمد علي قد وهب نفسه لمصر وليس لالبانيا فنحن نفخر به لذلك » في : A. Xhuvani, Jeta e Mehmet Aliut, Tirane 1921 f. 8

(٨) كان أ. كمال حتى حينها حاكما لبيروت وقد جاء سوريا مؤقتا ليخلف عثمان باشا .

(٩) Ismail Qemali, Kujtimet, Harmony Printing limted, Toronto 1968 f. 142

(١٠) نفس المصدر ص ١٤٢ .

(١١) نفس المصدر ص ١٤٢ .

(١٢) نفس المصدر ص ١٤٤ .

(١٣) نفس المصدر ص ١٤٤ .

(١٤) نفس المصدر ص ١٤٥ .

(١٥) نفس المصدر ص ١٤٥ .

(١٦) هناك أمثلة بهذه التأثيرات في موضوعنا « مؤثرات عربية في القصص الشعبيةالالبانية » في مجلة المعرفة السورية عدد ١٩١ ـ ١٩٢ لعام ١٩٧٨ .

(١٧) Historis e Popullit shqiptar, Prishtine 1969 II f. 239.

(١٨) (18) Ibid

(١٩) المحبي ج ٣ ص ١٥٦ .

(٢٠) نفس المصدر .

(٢١) نفس المصدر .

(٢٢) د. عبد الكريم رافق ، العرب والعثمانيون ، دمشق ١٩٧٤ ص ١٤٤ .

(٢٣) د. رافق ، العرب والعثمانيون ، ص ١٤٣ .

(٢٤) تجدر الاشارة الى ان عدد القوات الالبانية العاملة في الجيش وصل الى أربعة الاف ضابط وجندي (أحمد حسين ، موسوعة تاريخمصر ، القاهرة ١٩٧٣ ص ٩١٣) .

(٢٥) كان ابراهيم باشا أول وال أتيح له ان يبقى ٩ سنوات متصلة في سوريا .

(٢٦) د. اسكندر لوقا ، الحركة الادبية في دمشق ١٨٠٠ ــ ١٩١٨ ، دمشق ١٩٧٦ ــ ص ١٤٣ .

(٢٧) انظر هامش ١٦ .

(٢٨) Dr. Jashar rexhepagiq, Zhvillimi i aresimit dhe i sistemit shkollor te kombesise shqiptare. . . , Prishtine 1970 f. 33, 36.

(٢٩) Hasan Kaleshi, Roli i shqiptareve ne letersite orientale, Seminari i Kultures shqiptare per te huaj, Prishtine 1976 f. 162.

(٣٠) محمد جميل الشطي ، أعيان دمشق في القرن الثالث عشر ونصف القرن الرابع عشر ، دمشق ١٩٧٢ ، ص ٤٣٠ .

(٣١) أحمد حلمي العلاف ، دمشق في مطلع القرن العشرين ، دمشق ١٩٧٦ ص ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٦٠ .

(٣٢) لدينا موجة كبيرة للهجرة خلال سنوات ١٩٤٨ ــ ١٩٥٠ ولكننا لن نتعرض لها لانهـا خارج سنة ١٩٣٩ .

(٣٣) Historia e Popullit shqiptar 11 f. 347 - 349.

(٣٤) بهذا الاصطلاح يقصد عادة التجربة الاولى للرابطة اليوغسلافية خلال ١٩١٨ ــ ١٩٤١ .

(٣٥) يكفي هنا ان نشير الى أفضل دراستين حول ظروف ودوافع الهجرة :

Dr. Hajredin Hoxhs, Shqiptaret e Kosoves ne boten e jashtme, Rilindje 22. XII 1976.

è Ali Hadri, Shqiptaret ne Mreterine e Jugosllavise. . (Shtojse e Librit « Historia e Popullit shqiptar », Prishtine 1969).

(٣٦) Muhemed Mufaku, Shqiptaret e Sirise, Rilindja 1. IX. 1977

(٣٧) Ibid, Rilindje 2. IX. 1977.

(٣٨) ولد في بيروت ١٨٩٢ ، حيث كان جده حسن الارناؤوط قد جاءها منفيا فلورا Vlora وذلك لنشاطه القومي ضد السلطة العثمانية . انضم خلال الحرب الى الثورة العربية وبعد ذلك استقر في دمشق حيث مارس نشاطا واسعا في المجال الصحفي والثقافي الى أن توفي في سنة ١٩٤٨ .

(٣٩) للتوسع حول هذا وحول م. الارناؤوط بشكل عام راجع موضوعنا « عودة الى معروف الارناؤوط » في مجلة البيان الكويتية عدد ١٢٤ لعام ١٩٧٦ .

(٤٠) Muhamed Mufaku, Shqiptaret e Sirise, Rilindje 7. IX. 1977

(٤١) لاكرم خلقي (١٩٠٣ ـ ١٩٦٨) دور كبير في المسرح أيضا وقد منح لذلك « وسام الاستحقاق » .

(٤٢) Nehat Islami, Shqipparet ne luften çlirimtare te Sirise Rilindja 11. X 1975 f. 11

(٤٣) المصدر السابق

(٤٤) يعود باصله الى مدينة قوله Kavalla كان أبوه ، عثمان بك النوري ، قائدا في جيش ابراهيم باشا ومن ثم استقر في دمشق حيث ولد مصطفى سنة ١٨٥١ .

(٤٥) أحمد الجندي ، أعلام الادب والفن ، دمشق ١٩٥٤ ص ٢٢٥ .

(٤٦) د. اسكندر لوقا ، الحركة الادبية في دمشق ١٨٠٠ ـ ١٩١٨ ، دمشق ١٩٧٦ ص ١٠٩ .

(٤٧) الجندي ص ٢٢٥ .

(٤٨) لدينا جزء من الديوان المخطوط لمصطفى خلقي الذي اعتمدناه هنا ..

(٤٩) الجندي ص ٢٢٦ .

(٥٠) الديوان المذكور والمصدر السابق ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

(٥١) راجع هامش (٣٨) .

(٥٢) عدنان بن ذريل ، الادب المسرحي في سورية ، دمشق د.ت ص ٢٨ ، ٣٤ ، ٣٥ .

(٥٣) Muhamed Mufaku, Shqiptaret e Sirise, Rilindja 11. IX. 1977

(٥٤) ابن ذريل ص ٣٦ .

(٥٥) المصدر السابق ص ٣٦ .

(٥٦) راجع هامش (٤٤) والمراجع اللاحقة في هامش (٥٧) للمزيد من المعلومات حول حياة ونشاط علي خلقي .

٥٧) سنذكر فيما يلي أهم الدراسات المتعلقة بالقصة السورية حسب ظهورها :

ـ شاكر مصطفى ، محاضرات عن القصة في سورية حتى الحرب العالمية الثانية ، القاهرة ١٩٥٨ .

ـ عدنان بن ذريل ، أدب القصة في سورية ، دمشق ١٩٦٦ .

ـ عادل أبو شنب ، صفحات مجهولة في تاريخ القصة السورية ، دمشق ١٩٧٤ .

ـ د. حسام الخطيب ، سبل المؤثرات الاجنبية وأشكالها في القصة السورية ، دمشق ١٩٧٤ .

ـ دراستا كلود كرول وعدنان بن ذريل في عدد « الموقف الادبي » الخاص بالقصة القصيرة في سورية ـ عدد ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ لعام ١٩٧٧ .

(٥٨) أبو شنب ص ٧٦ .

(٥٩) المصدر السابق ص ٧٤ ـ ٧٥ .

(٦٠) عدنان بن ذريل ، الرواية العربية السورية ، دمشق ١٩٧٣ ص ١١ ـ ١٥ .

(٦١) ابن ذريل ، الرواية العربية السورية ، ص ٣٧ ـ ٣٨ .

(٦٢) بعد سنة من صدور الرواية قبل معروف كعضو عامل في المجمع العلمي العربي بدمشق.

نمو مدينة حلب في القرن السادس عشر

الدكتـــور أندريه ريمـــون

(جامعة اكس بروفانس)

ان فكرة الازدهار العمراني في الأقاليم العربية التابعة للامبراطورية العثمانية، في المئة الاولى والثانيةمن سيطرتها (أي في القرن السادس عشر والسابع عشر) لاتتفق عادة كل الاتفاق مع الافكار السائدة(١) . فهـي تقتضي اذن قليلا من الشرح والتعليق . لقد قيل في العهد العثماني انه كان عهد خمول مادي وثقافي ، وانه اتسم بسمة الركود الشامل الذي تتجلـى آثاره في المدن باضمحلال المنشآت العمرانية والانحطاط الفني الذي لايمكن علاجه . على ان الصورة التي يمكننا رسمها انطلاقا مما نعرفه عن الحيـاة الاقتصادية في الامبراطورية العثمانية واعتمادا على ماتنبئنا به المدنالعربية بالذات (اذا قصدنا بنيتها في شيء من الجهد) هي صورة مغايرة كل التغاير

١ ـ ازدهار التجارة في المقاطعات العربية خلال القرن السادس عشر:

والحق ان الفتح العثماني قد جعل من الاقطار العربية مجرد ولايات تابعة للامبراطورية هيمن عليها العنصر التركي وكانت عاصمتها استنبول . والملاحظ في بادىء الامر ان الدول التي اجتاحها الفتح العثماني في القـرن السادس عشر (من عام ١٥١٦ أي الاستيلاء على سورية حتى عام ١٥٧٤ أي استقرار الفتح في تونس) كانت تسير بشكل واضح في طريق الانحطاط ذلك هو شأن افريقيا في ظل الحفصيين وكانت تقاوم سكرات الموت منذ أواخر القرن الخامس عشر . وكذلك العراق الذي لم يستطع النهـوض من كبوته بعد الصدمة العنيفة التي تلقاها من الغزو المغولي عام ١٢٥٨ ، وحتى دولة المماليك التي جمعت حول مصر ، اقطار السودان والحجـاز وفلسطين وسوريا . فجاء الفتح العثماني وجعل من هذه الدول المتهافتة الضعيفة مجموعة واحدة تمتد من حدودالمغربالى تخوم ايران ومن سهوب روسيا الجنوبية وحدود النمسا الى اليمن .

فكانت ولاشك أوسع بنيان سياسي عهده الغرب الاوروبي منذسقوط

---

* قام بترجمة البحث الى العربية الدكتور بدر الدين قاسم الرفاعي .

الامبراطورية الرومانية . وفي داخل هذه المجموعة المترامية الأطراف ، انتشر الرجال والاموال دونما عائق يعترض سبيلهم اللهم الا تلك الموانع الطبيعية (من جبال وصحراء) أو اضطراب الامن الذي تسببه بعض المشاكل السياسية المحلية (كالفتن أو غارات البدو) . فكانت هناك سوق واسعة للتبادل التجاري فتحت أبوابها للاقاليم التي تميزت بموقعها الجغرافي على الطرق التجارية الكبرى . وذلك هو شأن مصر وسورية على نحو خاص ، وهما على مفرق الطرق بين أوروبا وافريقيا وآسيا . وقام كلاهما باعادة توزيع السلع الواردة من الغرب (كالأشياء المصنوعة وبخاصة الاقمشة) والمنتجات الشرقية (كالتوابل والمنسوجات) . حتى أن تلك الظاهرة التي تمثلت باجتياح الاوربيين للمحيط الهندي خلال السنوات الاخيرة من القرن السادس عشر والتي كانت لها آثارها البعيدة فيما بعد ، فانها لم تفلح في تهديد النفوذ التجاري للقاهرة وحلب تهديدا مستمرا . أما تحويل التوابل الى الطرق البحرية التي أشرف عليها الاوربيون ، فقد ظل جزئيا ولم تكن له الا آثار متدرجة في خطورتها . وبخصوص القاهرة ، كان ارتقاء سلعة جديدة ، مثل القهوة ، الى المصاف الاول من السلع المتبادلة بكميات كبرى منذ القرن السادس عشر داخل الامبراطورية العثمانية وفي اتجاه اوربا ، قد حقق بديلا تجاريا للتوابل لم يكن في الحسبان .

في موضوع هذا النشاط وهذا الازدهار التجاري ، توفر لنا احصاءات « اساكل المشرق » فكرة دقيقة جدا عن بعض المراكز مثل حلب وازمير والقاهرة . لكننا نقف أيضا على هذا النشاط وهذا الازدهار من الداخل اذا تدبرنا ذلك الجهاز التقني الرائع الذي زودت به الحواضر التجارية الكبرى داخل الاقطار العربية في ظل العهد العثماني . حسبنا بالنسبة للقاهرة ، أن نقارن بين عدد المراكز التجارية (من خانات وأسواق) التي أحصاها المقريزي في مطلع القرن الخامس عشر ، وبين العدد الذي تذكره المصادر العربية **ووصف مصر** في القرن الثامن عشر . فقد وقفنا على ٨٧ سوقا وسويقا في احصاء المقريزي . في حين يذكر **وصف مصر** ٩٣ سوقا . ولقد وقفنا نحن على /١٤٥/ سوقا لمجموع الحقبة العثمانية وربما كان أبلغ دلالة ان نقارن الارقام المتعلقة بخانات القوافل (والقيساريات والوكالات والفنادق) التي تجمعت فيها تجارة الجملة والتجارة الدولية الكبرى . وهذه الأرقام هي : ٥٧ خانا قام المقريزي بتعدادها ، و ٢٢٠ في **وصف مصر**

و ٣٦٠ خانا تسنى لنا معرفتها استنادا الى مختلف المصادر المتاحة . كذلك تبين لنا على مخطط القاهرة ان منطقة النشاط التجاري ـ الواسع كانت محصورة في زمن المقريزي داخل القصبة (وهي الشريان المركزي للعاصمة) وفي ضواحيها المباشرة ، ثم امتدت في العهد العثماني شرقا وغربا على مساحة كلية بلغت ٣٠ هكتار بل تجاوزت حدود القاهرة في بقاع متناثرة اتسمت بمختلف انواع النشاط(٢) والى مثل هذه النتائج تفضي بنا دراسة مظاهر النشاط في حلب . ففي أواخر القرن الثامن عشر (وقد تميزت هذه الحقبة بازدهار التجارة الحلبية) كانت حلب تبيع وتشتري من مرسيليا ما قيمته (٥٦٤٥٠٠٠) ليرة مقابل ٤١٨٦٠٠٠ ليرة للاساكل المصرية التي تطورت تجارتها تطورا معكوسا(٣) وبوسعنا ان نحدد تاريخ بناء المجمعات التجارية الكبرى في مركز حلب في القرنين السادس عشر والسابع عشر وكان قد اطلق على هذا المركز الاقتصادي اسم « المدينة » . وابلغ دليل على النشاط التجاري فيها عدد الخانات (التي خمنها d'Arvieux بستة وثمانين حوالي عام ١٦٨٠) وعدد القيساريات الذي بلغ ١٨٧(٤) ويمكننا الحصول على صورة واضحة لنمو حلب الاقتصادي من الدراسة المقارنة لمساحة « المدينة » منذ بداية العهد العثماني الى نهايته . كانت هذه المساحة ٣ر٩ هكتار تقريبا في مطلع القرن السادس عشر ثم صارت ٩ر٢ هكتار تقريبا في مطلع القرن التاسع عشر(٥) .

٢ ـ حركة الازدهار العمراني :

وكان النمو العمراني السريع قد واكب بطبيعة الحال ، الازدهار الاقتصادي في حلب واذا قضينا الى المقارنة بين مخططات Sauvaget في مطلع القرن السادس عشر وفي القرن التاسع عشر ، لأمكننا أن نقدر بآن واحد اهمية اتساع الحاضرة واتجاهاتها في القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر ، وربما بلغت مساحة حلب ٥ر٢٣٨ هكتار ، عندما احتل العثمانيون سوريا ، ثم أصبحت ٣٤٩ هكتار في القرن التاسع عشر . أي بزيادة ٤٦٪ واذا أجرينا مقارنة بين مخططات Sauvaget والمخططات التي وضعها من قبله A. Russell في القرن الثامن عشر و Rousseau (بين عام ١٨١١ ـ ١٨١٨) واذا قابلنا بين الاحياء التي ذكرها d' Arvieux (في عام ١٦٨٣) و Russell وأخيرا غزى (حوالي عام ١٩٢٠)(٦) لوجب علينا القول ان هذا التوسع العمراني كان أمرا ثابتا لاريب فيه منذ القرن السادس عشر . وأغلب الظن ان حلب عهدت فترتين من الانتشار

العمراني النشيط خلال هذه الحقبة ـ وهما القرن السادس عشر والثامن عشر ـ في حين كان القرن السابع عشر أقل توفيقا ، ومما يؤيد هذه الفكرة دراسة المنشآت في ظل العهد العثماني . والظاهر أن اضطراب الاحوال السياسية في الامبراطورية ، وبخاصة في سورية الشمالية خلال القرن السابع عشر ، هو الذي يفسر لنا من بعض الوجوه التباطؤ النسبي في التوسع العمراني بين الفترتين المذكورتين .

وتجلى ازدهار العمران في حلب بنمو « المدينة » نموا كثيفا نحو الجنوب مجاوزا محور الاسواق الكبرى التي كانت تصل باب انطاكية بالقلعة متجهة من الغرب الى الشرق . وكل ما تبقى من الاماكن الخالية في تلك المنطقة قد شغل ، منذ القرن السادس عشر ، بانشاء المساجد (الخسروية عام ١٥٤٤ والعادلية عام ١٥٥٦ والبهرامية عام ١٥٨٣) وتشييد العديد من المرافق التجارية وبخاصة تلك المجموعة من الخانات التي تعد من أوسع ماتضمه حلب . خان الفرايين (بين ١٥٥٠ ـ ١٥٥٣) وخان النحاسين (حوالي عام ١٥٥٤) والعلبية (حوالي ١٥٥٦) وخان الجمرك والحبال (عام ١٥٩٤) والطاف (بين ١٥٩٦ ـ ١٥٩٩) وأغلب الظن أن المساحات الخالية أصبحت نادرة في المركز التجاري بفعل هذا التوسع العمراني وذلك النشاط الذي بذل في التشييد والبناء . مما أدى ، قبل عام ١٥٧٠ ، الى نقل مدابغ حلب من موقعها المركزي نسبيا الى موقع آخر يحيط بالحاضرة .

والنشاط الاقتصادي في العهد الايوبي كان قد جعل أحد أحياء حلب يتخصص بصناعة الجلود ، وهو الحي الواقع في الركن الشمالي الشرقي للمدينة المسورة واطلق عليه اسم الدباغة . ويلاحظ في النصف الثاني من القرن السادس عشر ان « الدباغة » قد نقلت خارج أسوار حلب . آنئذ أنشئت معامل جديدة على شواطىء نهر القويق بالذات وعلى بعد /٢٠٠/ مترامن باب انطاكية(٧) واشير الى هذه المنشآت في وثيقة من وثائق الوقف المسمى « ابراهيم خان زاده » محمد باشا . بلغ البناء الرئيسي فيها ابعاداجسيمة (١٧٠ م . طولا و ٤٠ م . عرضا أي انه امتد على سطح يناهز ٧ر. هكتار) واشتمل على ٥٣ محلا في الطابق الاعلى . وربما تم هذا الانتقال قبل عام ١٥٧٤ بقليل لأن وثيقة الوقف التي حررت بهذا التاريخ تشير الى « محلة الدباغة العتيقة » التي اطلق اسمها على المسجد القائم في ذلك المكان والذي يرجع الى عهد قديم جدا . والسبب في نقل المدابغ كان بلا شك نمو

النشاط الاقتصادي وازدياد عدد السكان في الحاضرة القديمة وبخاصة « المدينة » مما اقتضى فسحة من المكان من أجل انشاء السوق والقيسارية والخان . وفي هذا التيار الجارف من التوسع العمراني كان وجود المدابغ بجوار منطقة مركزية آهلة بالسكان يسبب حرجا للأهالي ويستدعي نقلها .

وتجلى نمو حلب أيضا وبصورة مادية ملموسة بانتشار ضواحيها انتشارا هائلا وبخاصة في اتجاه الشمال والشرق . فامتد من الناحية الشمالية على طول الشوارع المنطلقة من قلب الحاضرة وشكل منذئذ حيا وحيدا . والى الشرق ظهر الى الوجود حي جديد بكامله بين سوق « بانقوسا » (شمالا) وحي البدو (جنوبا) . وباتجاه الغرب أحدثت منشآت محمد باشا نواة الحي الذي اتسع على جوانب نهر القويق حتى جسر السلاحف . وفي هذا الصدد تعيننا خرائط Sauvaget (٨) على تحديد أهمية انتشار العمران : فقد ازداد السطح الكلي للضواحي من ٩١ هكتارا حوالي عام ١٥١٦ الـ ١٩٨ هكتار في القرن التاسع عشر مما يشير الى زيادة تربو على ١٠٠ ٪ . في هذه المناطق الحرة يظهر بوضوح الجهد الرئيسي الذي بذل في مضمار التوسع العمراني ابان العهد العثماني أكثر مما يبدو في مركز آهل بالسكان .

٣ ـ انتشار « المدينة » في القرن السادس عشر :

كانت المنشآت العمرانية التي استطعنا الوقوف عليها في حلب خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر قد أولت عناية خاصة « بالمدينة » وهي المركز الاقتصادي في الحاضرة المذكورة . والمبدأ الذي انطلقت منه المشاريع ، بصورة عامة ، ان يرافق تشييد المسجد الكبير ، بناء الاسواق والخانات التجارية . وأدى تكاثر هذه المنشآت الى مزيد من التوسع بل الى تغيير طابع « المدينة » تغييرا بالغا .

وكانت أولى هذه العمليات التي نعهدها اقامة أقدم بناء عثماني في حلب وأوسعها أيضا ، وهو المسجد الكبير الذي أمر بتشييده « خسرو باشا » الى الجنوب الغربي من القلعة وكان « خسرو باشا » واليا على حلب بين عامي ١٥٣١ ـ ١٥٣٤ ثم ولي القاهرة ، ولما عاد الى استنبول أمر ببناء مسجد كبير في حلب اطلق عليه اسمه وتم انشاؤه عام ١٥٤٤ والحقت به أوقاف هامة على نطاق يثير الدهشة والاعجاب . اشتملت هذه الاوقاف

ابنية تقع خارج الحي الذي اقيم فيه الجامع مثل خان قورطباى الكبير الذي انشىء حوالي عام ١٥٤٠ الى شمال المدينة ، وحمام الست (أو النحاسين) وابنية مختلفة ذات طابع اقتصادي (مثل السوق والقيسارية والحوانيت)(٩) . على ان الجزء الاساسي من هذه المنشآت قد انجز فيما يبدو في الجوار المباشر للمسجد اي « في الفضاء المحيط به من كل جانب » . ويرى كامل غزى ان حدود هذا الوقف ربما اشتملت منطقة بستان الفارق (الى الجنوب من الجامع) والمدرسة السلطانية (الى الجنوب الغربي من القلعة) . ثم أحاطت بدار السعادة وحمام الشيباني وربما بلغت باتجاه الشمال سوق « الدرب » حيث ينتهي الشارع الرئيسي الذي يجتاز حلب ، ويعود تاريخه الى زمن قديم . فاذا سجلنا هذه المعلومات الطبوغرافية على مخطط الحاضرة استطعنا ان نضم مساحة واسعة جدا تبلغ ٤ أو ٥ هكتار وتقع الى الجنوب الغربي من القلعة في منطقة لم يصل اليها العمران في العهد المملوكي الا قليلا لكن التغيير الذي طرأ على هذه المنطقة وفي وقت لاحق (وبخاصة تشييد بعض المؤسسات الرسمية في القرن التاسع عشر والعشرين) قد جعل من المتعذر علينا ولسوء الحظ معرفة المسار الاصلي للعمران وتحديد الابنية التي أقيمت فيه والتي اشتملت بصورة خاصة على قيسارية (تدعى الان الشونة) مع عشرة مخازن في الطابق الارضي وثلاثين في الطابق الأعلى ، وعلى خان يقع الى جانب دار السعادة (وهي تضم ٤٠ مخزنا في الطابق الارضي و ٥٥ في الطابق الاعلى)(١٠) بالاضافة الى عدد كبير من المتاجر . والثابت ان ذلك كله يؤلف مجموعة ضخمة من المنشآت . بل من أضخم ماعهدته حلب ؛ لكننا لسوء الطالع نفتقر الى مزيد من المعلومات في شأنها .

على اننا اطلعنا بشيء من التفصيل على المشروع العمراني الذي نهض به « محمد باشا دوقاكين زاده » حوالي عام ١٥٥٥ . كان هذا الرجل الفذ ابن بنت عم السلطان سليمان الاول (١٥٢٠ ــ ١٥٦٥) وبفضل هذه الاخيرة كان حفيد السلطان بايزيد الثاني (١٤٨٩ ــ ١٥١٢) وحكم حلب من عام ١٥٥١ ــ ١١٥٣ ثم ولي القاهرة (١٥٥٣ ــ ١٥٥٥) وفي فترة حكمه وبعدها ، أمر باقامة مجموعة من المنشآت وقفها للمسجد الكبير المسمى بجامع العادلية . ولم يستكمل بناء هذا المسجد الا في عام ١٥٥٦ . وتؤلف منشآت محمد باشا في منطقة « المدينة » الواقعة الى الجنوب من المسجد الكبير مجمعا متاخما لجامع العادلية . ولم يكن القسم المركزي الذي بني فيه الجامع وخان اللبية مشغولا اشغالا كافيا (بالاضافة الى ميدان فسيح

استخدمه المماليك للتدريب على رمي الحراب) وكان مرتفعا قليلا بالنسبة للأراضي المجاورة له مما اسهم في ابراز اهمية البناء الديني الـذي أمـر بانشائه . وكان طراز مسجد العادلية عثمانيا نموذجيا بقاعته التي تعلوها قبة يبلغ طول جانبها ٢٥ مترا ، وبهوه الذي تغطيه القباب الصغيرة ، ومئذنته . واستند الجامع من جهة الشمال الى خان العلبية وهو أوسع الخانات في حلب بعد خان الجمرك (تبلغ مساحته ٢٥٥٢٠م٢ بمـا فيهـا القيسارية ويضم ٤٧ مخزنا في الطابق الارضي) ويحيط بالمقسم المركـزي من جهاته الثلاث غربا وشرقا وشمالا أربعة أسواق : سـوق النحاسـين وسوق الجوخ وسوق العلبية وسوق الفرايين . والتصق به الى الغرب خان النحاسين والى الشرق خان الفرايين . ولهما أبعاد متوسطة (١٥٥٠م٢ للأول و ٢١٥٠م٢ للثاني) ثم ان القباب التي انشئت عند تقاطع مدخل خان العلبية وسوق الجوخ وسوق العلبية ، وعند تقاطع مدخل خان الفرايين وسوق الفرايين ، تشير الى رغبة صاحب المشروع في اقامة مجمع متناسق يضم بكامله حول المسجد اربعة أسواق (فيها ١٥٧ متجرا) وثلاثة خانات وثلاث قيساريات ويغطي مساحة قدرها ٣ هكتار(١١) .

وبعد انشاء هذه المجموعة من الابنية في مدينة محمد باشا بعشرين عاما تقريبا ، شرع رجل آخر يدعى ايضا محمد باشا بعملية تجاوز الى حد بعيد الاطار الذي أنجزت فيه المشاريع السابقة في عامي ١٥٤٤ ـ ١٥٥٥(١٢) ولعل وقف محمد باشا « ابراهيم خان زادة » (١٥٧٤) من أعظم أوقاف ذلك الزمان . فهو لايقل عـن ١٢٥ بابـا يعـدد الابنيـة المكتسبـة أو المشيدة في الأغلب من قبل الواقف (مثل المنشآت الريعية في حلب وانطاكية وباياس وبيروجك وطرابلس وصيدا ودمشق ومكة ، بالاضافة الى مقاسم من الأراضي وطواحين وقرى موزعة في سورية وكليكية) لتكون وقفا عـلى المؤسسات الخيرية وأعمال البر التي أمر بانشائها في مكة والمدينة (١٣) . فيما يتعلق بحلب بالذات احصى Sauvaget ٣٤ بابا على أقل تقديـر تشمل ٩٣٧ منشأة مخصصة للتجارة أو الصناعة . ومن هذه المجموعة الضخمة سوف نفرد القول في منشآت « المدينة » وما يتصل بنقل المدابغ . وتركزت أبنية محمد باشا على مقسم يقع مباشرة الى الغرب من المنطقـة التي تم تنظيمها في عام ١٥٥٥ . واقيم في هذا المقسم خان الجمرك الذي يعد من روائع العمارة العثمانية في حلب من حيث زخرفته وجودة بنائه وايضا من حيث ابعاده الفريدة . اذ تبلغ مساحته ٥ر٠ هكتار ويضم ٥٢ محلا في الطابق الارضي و ٧٧ في الطابق العلوي ومسجداً في صحنه وألحقت

به قيسارية فيها ٢٣ غرفة . وهذا البناء الرائع يتصل به بفضل القباب التي تدل على محور العمارة الاساسي وتطيل مدخله الضخم ، سوقان جميلتان تكسوهما الحجارة المقصدبة وهما سوق خان الجمرك وسوق السقطية (١٢٠ متجرا) مع قيسارية في الطابق الاعلى (تشمل ٥٤ مخزنا) بالاضافة الى سوق أخرى بجوار الخان . فيكون المجموع ٣٤٤ حانوتا ومساحة كلية تناهز الهكتار .

على اننا نجد في وقف محمد باشا عددا كبيرا من الابنية التي تعلق انشاؤها بنقل المدابغ من مركز الحاضرة الى خارجها في المساحة الواقعة بين باب انطاكية والقويق بالقرب من جسر السلاحف(١٤) . في هذا المكان أمر مؤسس الوقف ببناء دار الدباغة التي أشرنا اليها سابقا والتي يناهز سطحها الهكتار بالاضافة الى خانين (يحوي احدهما ٤٠ مخزنا في الطابق الارضي و ٥٥ في الطابق الاعلى ويشمل ٥٣ حانوتا في خارجه)(١٥) ومسجدين وحمامين أفرد أحدهما للدباغين . واستكملت تلك المجموعة من المنشآت بخانين في جوار الدباغة ابتاعهما صاحب المشروع وادمجهما في الوقف . لدينا اذن عملية عمرانية كاملة في شروط وقف محمد باشا : الا وهي نقل المدابغ من حي الدباغة العتيق الى خارج حلب .

وفي حوالي عام ١٥٨٣ انتهت هذه المشاريع الكبرى بعمل عمراني أنجز داخل المنطقة الواقعة الى الغرب من تلك التي شهدت العمليات السابقة . وفي مركز هذا العمل العمراني أقيم مسجد كبير وهو جامع « البهرامية » الذي شيد على طراز عثماني صرف مثل جامع الخسروية والعادلية واتخذ بهرام باشا ـ الذي حكم حلب في عام ١٥٨٠ ـ جميع التدابير المادية اللازمة لانتظام عمل ذلك البناء الجميل « بوقفية » يرجع تاريخها الى عام ١٥٨٣ . وعلى غرار المنشآت السابقة جمع الباني بصورة وثيقة بين المسجد والاسواق في مجمع يدعونا Sauvaget الى الاعجاب « بروعة بنائه » ومهارته الفائقة في التاليف بين أشكاله المهيبة دون أن يضحي بالغايات العملية التي أنشىء من أجلها ، ارضاء للجوانب الفنية » . فكانت بوابة المسجد تطل على سوق أولى اشتملت ١٧ متجرا . ومنها يمكن الوصول الى سوق ثانية مربعة الشكل فيها /١٢/ متجرا والى قيسارية تضم ٣٥ محلا . وهناك ثلاث قباب تصل بوابة المسجد بالسوقين وتؤكد على وحدة الفكرة المعمارية(١٦) .

بهذه المجموعة التي استندت الى تصور رائع رغم طابعها النفعي جزئيا تنتهي سلسلة المنشآت التي أنجزت فيما يسمى المدينة . كان القرن

السابع عشر اقل نشاطا في هذا المضمار ولابد لنا من أن ننتظر حتى عام ١٦٨٢ لكي يضاف اليها في قطاع آخر من « المدينة » مشروع جديد لايقل اهمية عن المشاريع السابقة ونعني به خان الوزير . والحق ان « المدينة » قد تغيرت تغييرا شاملا في غضون اربعين عاما . وازدادت مساحتها بما يناهز ٤ هكتار . وهو ما يعادل المساحة الكلية للمركز الاقتصادي في حلب في أواخر العهد المملوكي .

٤ ـ النتائج :

والذي يثير الاعجاب هو انتظام حركة العمران باتجاه الغرب وظهورها في عمليات انشائية متعاقبة مثل مسجد الخسروية (عام ١٥٤٤) والعادلية (١٥٥٥) وخان الجمرك (١٥٧٤) وجامع البهرامية (عام ١٥٨٨) بقدر ما يثيره ذلك الاتساع الشامل في المساحة مما ينهض دليلاً على نشاط الازدهار العمراني . انطلقت هذه الاعمال من قلب الحاضرة بالقرب من السراي (دار السعادة) وكانت وقتئذ مركز الحكومة . ثم اتسعت الحركة في اتجاه الغرب واستخدمت بصورة متدرجة المنطقة التي لم تكن نسبيا آهلة بالسكان والواقعة الى الجنوب من محور الاسواق . والظاهر ان هذا المحور كان الحد النهائي للمدينة في عهد المماليك لأن الخانات الكبرى الاخيرة التي اقامها المماليك مثل خان « خير بك » و « خان القصابية » و « خان الصابون » تقع الى الشمال من هذا المحور . وبنيت الخانات الجديدة الكبرى الى الغرب من الوقف السابق وفق تعاقب طبيعي بحيث لانحتاج الى القول بانه كان نتيجة مخطط مسبق .

ويثير اعجابنا ايضا انتظام المقاسم المشغولة باستثناء قطاع « الخسروية » الذي لانعرف عنه الشيء الكثير كما قلنا . ويتجلى هذا الانتظام في استقامة الشوارع والأسواق وتعامدها النسبي وفي ابعاد المجموعات السكنية التي تستجيب فيما يبدو الى مقياس ثابت : ٤٥مترا تقريبا للعرض و ١٢٠ مترا للطول ونحن نجد هذا المقياس واضحا بكل بساطة في خان الفرايين وفي مجمعة خان النحاسين ومجموعة البهرامية . لكنه يضاعف مرتين بالنسبة لخان الجمرك (عرض المجموعة ٩٤م) . وثلاث مرات بالنسبة لخان العلبية (العرض : ١٢٠م.) وليس لنا ان نعزو هذا الثبات الى ميزة عثمانية خاصة . بل الى عودة ظهور (أو بالاحرى دوام) الترييع القديم الذي مانفك يؤثر في اسلوب العمران العثماني ، بعد تنظيم « البيرويا » الهلنتسية بعشرين قرنا(١٨) . وحتى في المناطق التي لم تكن كثيفة العمران في القرن السادس عشر كان كل مشروع عثماني يغطي فراغات الشبكة القديمة .

وهناك ملاحظة اخرى تتعلق بهذه المشاريع العمرانية وهي التناقص المتدرج لحجم العمليات في منطقة المدينة . فقد تراوحت مساحة المشاريع بين ٤ ــ ٥ هكتار بالنسبة للخسروية (عام ١٥٤٤) و ٣ هكتار بالنسبة لوقف محمد باشا « دوقاكين زاده » (١٥٥٥) و ٢ر١ هكتار لوقف محمد باشا « ابراهيم خان زاده » (١٥٧٤) واقل من نصف هكتار للبهرامية (١٥٨٣) ومرد هذا التناقص المنتظم لحجم المشاريع العمرانية ، قد يكون تباطؤ المقدرة المبدعة للحكام أو ندرة المساحات الحرة المتاحة في مركز حلب . أو ان تلك الندرة هي التي فرضت خططا اقل طموحا داخل « المدينة » لان خطة عام ١٥٧٤ انتشرت انتشارا واسعا في مناطق اخرى. وامتدت خطة بهرام باشا ايضا الى حي الجديدة .

ويلاحظ أخيرا ان جميع تلك المشاريع العمرانية الواسعة التي أنجزت داخل « مدينة » حلب في القرن السادس عشر . كانت وليدة مبادرة تقدم بها أفراد ينتمون الى علية القوم ، وهم الباشاوات الذين انشأواالاوقاف في عام ١٥٤٤ وعام ١٥٥٥ و ١٥٧٤ و ١٥٨٣ . وبسبب عدم تدخل الدولة المباشر كان هؤلاء الأفراد قد تولوا ناصية الحكم السياسي محليا . وتصرفوا بوسائل مادية ضخمة وراحوا يساهمون في ميدان العمران ويسبغون على نمو الحاضرة صبغة الانسجام والتنسيق . وقد يتعذر علينا القول بوجود علاقة تربط بين المشاريع الجزئية التي أتينا على وصفها وبين تطور اجمالي نلمسه في الواقع لكننا نجهل أسلوبه وخصائصه .

ونحن أميل الى نفي هذه العلاقة . ومن جهة أخرى كانت الاوقاف قد وفرت لتلك المشاريع العمرانية اطارها الحقوقي لعدم وجود أي تشريع عمراني بل أي مبدأ من مبادىء السياسة العمرانية . وأتاح نظام الاوقاف توفير الاموال اللازمة مع كل ماتتطلبه من متابعة واستمرار في سبيل صيانة المنشآت الدينية او ذات المنفعة العامة والحفاظ عليها في المستقبل . ومنه كانت أهمية الابنية ذات الطابع الاقتصادي التي غذت بمواردها المساجد وماء « السبيل » وهما العنصر الرئيسي للاوقاف . ثم ان انتشار العقارات على النحو المذكور حول احدى المؤسسات الدينية قد أعلى من شأن جميع هذه المشاريع العمرانية . ومما يجدر ذكره أيضا هو ان الوقف قد ضمن للواقف وذريته موارد على جانب من الوفرة لقاء تخليه عن ملكية الاموال التي أصبحت وقفا . وهذا يدل على ان مؤسسة الاوقاف استطاعت بآن واحد ان تحقق المقصد الديني وان تستجيب لرغبة الواقف في تخليد ذكراه وان تؤمن مصلحته الخاصة تأمينا سليما فكانت أفضل اطار تحقق فيه توسع العمران في حلب بين عام ١٥٤٠ و ١٥٩٠ .

الحـواشـي

(٢) هذه الارقام تقدم بها Wiet, Raymond **في أسواق القاهرة** وهو قيد الطباعة في مطابع المعهد الفرنسي لعلم العاديات الشرقية بالقاهرة .

(٣) Robert Paris **تاريخ التجارة في مرسيليا** المجلد الخامس باريز ١٩٥٧ ص ٣٨٣ و ٤١٦ (ترجع الارقام الى عام ١٧٨٥ ـ ١٧٨٩) .

(٤) D'Arvieux **مذكرات** المجلد السادس ص ٤٣٧ .

(٥) أجريت الحسابات استنادا الى مخططات Sauvaget حلب (٦٢ ، ٧٠) .

(٦) Russell تاريخ حلب الطبيعي لندن ١٧٩٤ جزآن Barbier du Bocage تعقيب على الخارطة العامة للسيد Rousseau **في مجموعة الاسفار والمذكرات** الصادرة من الجمعية الجغرافية . المجلد الثاني ١٨٢٥ ، ص ١٩٤ ـ ٢٤٤ . D'Arvieux **مذكرات نشرها** Labot باريز ١٧٣٥ ـ ٦ مجلدات المجلد السادس . كامل الغزي **كتاب النهر** حلب ١٣٤٢ هـ . ٣ أجزاء .

(٧) انظر مقالنا حول نقل المدابغ في مجلة التاريخ المغربي المجلد السابع والثامن ١٩٧٧ ص ١٩٣ ـ ١٩٥ .

(٨) حلب المخططات ٦٢ ـ ٧٠ .

(٩) طبّاع **اعلام النبلاء** حلب ١٩٢٣ ـ ١٩٢٦ ـ ٧ مجلدات ، المجلد الثالث ص ١٨٠ ـ ١٨١ ـ ١٩١ .

(١٠) غزي**كتاب النهر** المجلد الثاني ص ١١٧ ـ ١٢٣ حسب المواصفات التي تقدم بها غزي قد تكون القيسارية هي « باردت خانة » التي أشار اليها Rousseau وحددمعالمها (رقم ٧٦) وقد يكون الخان هو «خان الحمص» Rousseau رقم ٨٠

(١١) حول هذا الوقف راجع ابن الحنبلي دار الحباب دمشق ١٩٧٢ ـ ١٩٧٣ ـ ٣ أجزاء الجزء الاول ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤ غزي النهر المجلد الثاني ص ١١٢ ـ ١١٥ طباع اعلام المجلد الثالث ص ٢٠٢ ـ ٢٠٦ Sauvaget حلب ص ٢١٤ .

(١٢) هذا الوقف يدعى « ابراهيم خان زاده » لان الوقفية تحمل طغراء السلطان محمد بن السلطان ابراهيم خان (١٦٤٨ ـ ١٦٨٧) حول الوقف راجع غزي **النهر** المجلد الثاني ص ٥١٥ ـ Sauvaget حلب ص ٢٦٣ ـ ٢٦٥ .

(١٣) Sauvaget حلب ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤ .

(١٤) حول هذه الانشاءات راجع غزى النهر المجلد الثاني ص ٥١٦ ــ ٥١٨ Sauvaget حلب ص ٢٦٤ الارقام ٢١ ــ ٢٧ و ٣٠ ــ ٣١ .

(١٥) قد يكون أحدهما خان العفش وخان اللبان يحددهما مخطط Rousseau بالقرب من باب انطاكية (الارقام ٢٩ و ١٢٨) .

(١٦) طباع **اعلام** المجلد الثالث ص ٢١٣ ــ ٢١٤ . غزى **النهر** المجلد الثاني ص ٤٧ ــ ٥٢ Sauvaget حلب ص ٢١٦ ــ ٢١٧ .

(١٧) يضاف الى الخانات المذكورة في عام ١٥٩٤ خان الحبال وفي عام ١٥٩٦ خان الطاف .

(١٨) راجع Sauvaget حلب ص ٤٠ ــ ٤١ .

النمو الاقتصادي في فلسطين

الدكتور الكسندر شولش
(جامعة ايسن)

- ١ -

وصلت عملية تحول فلسطين الاجتماعي والاقتصادي ، والتي بدأت في ظل الحكم المصري (١٨٣١-١٨٤٠) واستمرت خلال فترة «التنظيمات» الاولى وصلت مرحلة حاسمة في العقود التي تلت حرب القرم . فخلال هذه الفترة (١٨٥٦ - ١٨٨٢) ، وضعت أسس فلسطين « الحديثة » بمعنى أن البنيات الاقتصادية - الاجتماعية التي وجدت قبل عهد « التنظيمات » تحطمت اخيرا ، وحين نحلل هذه الظاهرة لابد لنا أن نفحص السياسات العثمانية والتغلغل الاوربي ورد الفعل المحلي على هذه المحفزات الخارجية من جهة ، ومن جهة اخرى علينا أن ندرس التحولات الاجتماعية - السياسية والاجتماعية - الثقافية والاقتصادية ولكن دون أن يغيب عن ذهننا انها عمليات متداخلة .

ويعالج هذا البحث وجها معينا من وجوه هذا التحول ، فهو يحاول من خلال تحليل التجارة الاقليمية والاوربية التي أجريت عبر موانىء يافا وحيفا وعكا الوصول الى بعض الاستنتاجات المحدودة عن تطور فلسطين الاقتصادي خلال فترة ١٨٥٦ - ١٨٨٢ .

وهناك اهتمام تاريخي - جغرافي مزدوج يكمن خلف هذا البحث . أولا ، ستجري مواجهة الموقع الادبي لفلسطين الراكدة المهملة عديمة الانتاج قبل عام ١٨٨٢ أي قبل بدايات الاستعمار الاجنبي على مستوى أهمية بالواقع وثانيا ، يجب فحص موضع فلسطين ضمن الاقتصاد السوري ككل ، وخاصة بالنسبة الى العجز في ميزان سورية التجاري مع أوربا في القرن التاسع عشر(١) .

والمصادر الرئيسية لهذا البحث هي تقارير قناصل انكلترا والمانيا والنمسا وفرنسا في القدس ويافا وحيفا وعكا . وكل شخص يعمل في حقل تاريخ الشرق الاوسط الاقتصادي في القرن التاسع عشر يدرك المشاكل

---

* قام بترجمة البحث الى العربية الدكتور نجيب الشهابي .

الكامنة في مثل هذه المصادر . اذ لايمكن اعتبار معظم المعلومات سوى تقديرات ، سواء أكان مصدرها القناصل بأنفسهم الذين استقوها من دوائر الجمارك المحلية ، أو مصدرها التجار الاوربيين . واضافة الى ذلك توجد تناقضات كثيرة بين الجداول الاحصائية الصادرة عن القنصليات المختلفة باعتبار أن حساباتها لم تكن تجري على نفس المقاييس دائما(٢) لذا فان تقديم معلومات كمية دقيقة غير ممكن . وليس بمقدورنا سوى أن نبحث عن النزعات الغالبة على التطور الاقتصادي وعن خصائص هذا التطور .

- ٢ -

خلال الفترة التي تعنينا أنتجت فلسطين فائضا زراعيا كبيرا نسبيا كان يسوق في البلدان المجاورة مثل مصر ولبنان ويصدر، بصورة متزايدة، الى اوربا . وكان ارسال الطلبات الاوربية وتكييف الانتاج وفق متطلبات السوق الاوربية بعد عام ١٨٥٠ يتم من قبل وكلاء القنصليات الاوربية (وكان معظمهم هم انفسهم من التجار والمقاولين وملاكي الاراضي وحتى متعهدي الضرائب) ، وممثلي البيوتات التجارية الاوربية في الموانىء وشركائهم ووسطائهم في داخل البلاد .

وكان تصدير غلال جنوبي فلسطين يتم بصورة رئيسية عن طريق ميناء يافا ، وغلال الجزء الشمالي من البلاد عن طريق حيفا وعكا . وبالنسبة لجبل نابلس فمن الصعب جدا أن نتأكد كم من غلاله المخصصة للتصدير الى يافا وكم منها أرسل الى حيفا . وبالاضافة الى ذلك فقد كانت عكا الميناء الرئيسي لذلك القسم من جنوب حوران غير المستهلك داخل سورية .

وكانت السلع الرئيسية التي تصدرها يافا(٣) طيلة الفترة من عام ١٨٥٦ وحتى ١٨٨٢ هي القمح والشعير والذرة ، السمسم ، زيت الزيتون والصابون ، البرتقال والفواكه الاخرى والخضروات (وذلك بترتيب للاولويات يختلف بين الحين والآخر وسيتم تفسير ذلك) . وكانت الدول المشترية الرئيسية هي فرنسا ، التي حصلت على أكبر نصيب من السمسم وقسم كبير من زيت الزيتون ، بالاضافة الى الحبوب وفي فترة من الزمن القطن ، ومصر التي استوردت معظم الصابون بالاضافة الى زيت الزيتون والفواكه والخضار ، وانكلترا التي ابتاعت الذرة بأكملها تقريبا ونصيبا وافرا من القمح والشعير . وكذلك شحن القمح والفواكه والخضار والصابون الى شمالي سورية وآسيا الصغرى واليونان وايطاليا ومالطا .

وكانت السلع الرئيسية التي تصدرها حيفا وعكا(٤) هي القمح والشعير والذرة والسمسم وزيت الزيتون . وكان القمح يذهب الى ايطاليا (لصنع الباستا) وفرنسا وانكلترا واليونان ، وكذلك الى لبنان وآسيا الصغرى ، والشعير بصورة أساسية الى لبنان ، وكذلك الى انكلترا وفرنسا ، والذرة بصورة رئيسية الى انكلترا وفرنسا ، والسمسم بأكمله تقريبا الى فرنسا ، وزيت الزيتون الى مصر وفرنسا وآسيا الصغرى . وصدر القطن لفترة مؤقتة الى فرنسا . ولكن معظم القمح الذي شحن من عكا كان من حوران ، في عام ١٨٦٧ على سبيل المثال ، مليون كيلة من أصل مليون ونصف المليون ، وفي عام ١٨٧٩ حوالي مليون من أصل ١ر٧٥ مليون ، أما في عام ١٨٨١ ، وبسبب الموسم السيء في حوران ، فقد كان القمح القادم من هناك فقط عشرة آلاف كيلة من أصل ٢٥٠ ألف . وربما أمكننا أن نستنتج من هذه الارقام أن حوالي ثلثي القمح المصدر في عكا جاء في الاصل من حوران والثلث من شمالي فلسطين (من مناطق عكا والناصرة وطبريا) .

ويعطي الجدول رقم ١٧ انطباعا عن الاهمية النسبية للموانىء الثلاثة في تصدير السلع الرئيسية . ولكن الارقام لاتتيح مقارنة دقيقة ، اذ أن فترة التسع سنوات من التصدير عن طريق يافا لاتتطابق كليا مع فترة حيفا وعكا .

وخلال الفترة الواقعة بين عامي ١٨٥٦ و ١٨٨٢ بقيت منتوجات التصدير الاساسية في فلسطين نفسها بصورة أساسية . ويمكن رؤية التحول القصير الامد والطويل الامد في الاهمية ضمن قائمة الصادرات في الجداول ٣ و ٤ و ٥ و ٦ وكانت العوامل المؤدية الى هذه التقلبات والتحولات هي :

١ ــ الظروف الطبيعية ، وأهمها المواسم السيئة بسبب عدم هطول أمطار كافية أو كوارث الجراد .

٢ ــ ظروف الاسواق ، وأهمها التغير في الطلب وارتفاع أو هبوط الاسعار الناتج عن هذا التغير .

٣ ــ الظروف السياسية ، كالحروب والاضطرابات في المنطقة نفسها ، وفي أوربا ، وفي البلدان التي كانت ظروف الاسواق مرتبطة بها طبعا بشكل مباشر .

وسنوضح الحوافز النابعة من الاسواق الخارجية بواسطة مثال زراعة القطن ، ثم التقلبات في التصدير في عكا وحيفا من طرف وفي يافا من طرف آخر .

لقد كانت فلسطين الشمالية والوسطى (منطقة عكا وجبل نابلس) بصورة تقليدية من أهم مناطق زراعة القطن في سورية . وكان تقريبا كل القطن الذي يتم تصنيعه محليا أو تسويقه في سورية الوسطى ، وفي دمشق على الاخص ، يصدر الى فرنسا . ولكن منذ عام ١٨٥٢ ازداد طلب فرنسا للسمسم (لاستخراج الزيت) ازديادا قويا . لذا فقد تركز الانتاج الزراعي على هذه السلعة . وكان من السهل اقناع الفلاحين بالقيام بذلك باعتبار أن زراعة السمسم تتطلب قدرا أقل بكثير من الجهد مما تتطلبه زراعة القطن لان بذرة السمسم أقل تأثرا بالطقس . وبالاضافة الى ذلك ، كان هناك ، بعد اندلاع حرب القرم وايقاف مؤن الحبوب من روسيا الجنوبية ، طلب كبير مفاجيء للقمح والشعير(٥) وهكذا توقف تصدير القطن (قارن الجدولين ١١ و ١٢) .

ولكن تغيرا جديدا في التوجه جرى حين ارتفع سعر القطن الخام في أواخر الخمسينات من القرن التاسع عشر ، وذلك بسبب تزايد الطلب الانكليزي ، وخاصة بعد اندلاع الحرب الاهلية الاميركية . فلدى رؤية قوائم أسعار الاثنى عشر شهرا التي مضت ، زرع زراعيو شمالي فلسطين في ربيع عام ١٨٦٣ ثلاثة أضعاف كمية القطن التي زرعوها في السنة السابقة : وهكذا عاد القطن في عامي ١٨٦٣ و ١٨٦٤ الى احتلال مكانة كسلعة تصديرية من الدرجة الاولى . ولكن هذا الازدهار لم يعش طويلا اذ انحسر الطلب الاوربي في النصف الثاني من الستينات ، وأصيب شمالي فلسطين من عام ١٨٦٥ الى ١٨٧٢ بموسم سيء بعد آخر . وفي عام ١٨٦٩ فقط تم تصدير كمية وافرة من القطن مرة أخرى .(٦) ولكن في السبعينات فقد هذا المحصول أهميته بصورة نهائية . ففي عام ١٨٧١، صدرت ١٨٤٥٤٥ اقة من شمالي فلسطين(٧) . وقدر القنصل الالماني صادرات عكا من القطن في ١٨٧٢ بـ ١٠٠٠٠٠ أقة بينما في السنوات الجيدة (وحتى في عام ١٨٦٩) شحنت مليون أقة الى أوربة . وفي عام ١٨٧٦ هبط الرقم الى ٣٢٤٨٩ اقة لاأكثر(٩) .

وحدث تطور مشابه في منطقة يافا . فبسبب الطلب الفرنسي للسمسم وارتفاع أسعار الحبوب أثناء حرب القرم وبدايات التصدير

المنتظم للبرتقال بعد انتهاء تلك الحرب توقفت زراعة القطن هناك أيضا . وبدلا عنها ، وسعت بيارات البرتقال في المناطق المحيطة بيافا وزرعت الحبوب والسمسم في الاراضي الداخلية . وبعدحرب القرم حاولت جمعية ذخيرةالقطنفي مانشستر والوكلاء القنصليون البريطانيون في المنطقة (فن في القدس وكيات في يافا) الحث على احياء زراعة القطن . وبذرت بذور مصرية وأميركية في أماكن مختلفة في جنوبي فلسطين على سبيل التجربة وأعطت نتائج باهرة .

ولكن الحرب الاهلية الاميركية هي وحدها التي استطاعت احياء زراعة القطن وتصديره على مستوى واسع . ومع ذلك تمسك الفلاحون بالبذرة المحلية اذ لم يصدر عن الادارة العثمانية أي تشجيع أو مساعدة على استعمال بذرة أفضل . وفي عام ١٨٦٣ ، كان حجم المساحة المزروعة بالقطن أربعة أضعافها في عام ١٨٦٢ . ويذكر القنصل كيات في تقرير له ، على سبيل المثال أن سبع قرى في منطقة يافا خصصت لزراعة القطن ثلثي اراضيها المسقية ، التي كانت تزرعها سابقا بالسمسم بصورة رئيسية وهكذا صدرت في عام ١٨٦٣ حوالي عشرة أضعاف الكميةالمصدرة في العام السابق . واضطر بعض التجار الى استيراد محالج قطن ، اذ لم يستطيعوا التصدي لهذه الكميات بالادوات المحلية الاكثر بساطة . وفي عام ١٨٦٤ ، لم تكن هناك تقريبا أية قرية لاتزرع القطن في قسم وافر من اراضيها ، فقد زرعت في ذلك العام ستة أضعاف الكمية المزروعة في عام ١٨٦٣ . وحتى البدو شاركوا في هذه المشاريع الرابحة . وقد بدأ الانعكاس بتدهور الاسعار في خريف ١٨٦٤ (اذ هبطت بنسبة تزيد على ١٠٠٪) وبانتهاء الحرب الاهلية الامريكية وبكارثة الجراد في عامي ١٨٦٥ و ١٨٦٦(١٠) وانتهى تصدير القطن في بداية السبعينات (قارن هذا بالجدول رقم ٣) .

وفي منطقة نابلس ، استمرت زراعة القطن ، ولكن لاحتياجات الاسواق المحلية وأسواق سورية الوسطى فقط . وخلال الفترة بين عامي ١٨٦٦ و ١٨٧٤ قدر المحصول السنوي بـ ٦٠٠٠٠٠ الى ٧٠٠٠٠٠ اقة . وقد تحسر القناصل البريطانيون طيلة عقدينمنالزمان لعدم قيام الحكومة العثمانية بأية جهود جدية لترويج هذا المحصول لا أثناء فترة الازدهار القصيرة الامد ولابعدها(١١) .

ويجب تفسير التقلبات الواضحة لقوائم التصدير الكمية في عكا وحيفا خلال الاعوام التسعة من ١٨٧٢ الى ١٨٨٠ (الجداول ٥ و ٦) بالظروف الطبيعية والسياسية فعام ١٨٧٣ كان عام مواسم سيئة بشكل عام . واتصف محصول عام ١٨٧٦ بأنه محصول وسط ، ولكن الصادرات انخفضت بسبب اندلاع الحرب وفي عام ١٨٧٧ ، جعلت الموسم ، وخاصة في حوران ، ظروف الحرب الموجودة أكثر سوءا وفي عام ١٨٧٨ ، جنت حوران حصادا ممتازا من القمح ، ولكن الحصاد في شمالي فلسطين كان ضئيلا ، ودمر الجراد محاصيل الصيف (الذرة والسمسم) . وفي ١٨٧٩ ، كان الحصاد سيئا بصورة بالغة بسبب عدم توفر الامطار الكافية وفي ١٨٨٠ ، كانت الغلال جيدة جدا في شمالي فلسطين (باستثناء الزيتون) ، ولكن الموسم في حوران أخفق اخفاقا كاملا. لذا ليس من المدهش على الاطلاق أن يعتبر عاما ١٨٧٧ و ١٨٧٩ اسوأ عامين في مدى الذاكرة الحية ، وخاصة باعتبار أنه بالاضافة الى الوضع الاقتصادي المتقلقل ، كان تجنيد الاشخاص يتم بنسب غير معروفة .

ولكن فحص صادرات يافا (الجدول ٣) يعطي فائدة أكبر ممايعطيه النظر الى هذين الجدولين(٥ و ٦) . فلدينا هناك أرقام مترابطة نسبيا للجزء الاول والثالث من الفترة التي يجري بحثها ، وهي أرقام مستقاة من نفس المصدر وفقا لمعايير مماثلة . وهكذا فان بامكاننا اجراء مقارنات والبحث عن اتجاهات .

وأول ما نلاحظه هو أن الظروف المشابهة لظروف شمال فلسطين أثرت في تصدير السلع المختلفة من يافا . فبسبب الافتقار الى المطر ، لم تحصد أية حبوب تقريبا في جنوب فلسطين في عامي ١٨٥٩ و ١٨٦٠ وفي ١٨٦٥ و ١٨٦٦ ، دمر الجراد القطن والسمسم ، كما أصاب الجراد أشجار الزيتون والفواكه أيضا بأضرار كبيرة ، بينما نجت الحبوب لكونها اما قد وصلت مرحلة من النضج لايؤثر الجراد فيها ، أو كانت قد حصدت (١٢) . ومن عام ١٨٧٧ الى عام ١٨٧٩ ، الحقت نفس الظروف الطبيعية والسياسية المهيمنة في شمال فلسطين البؤس والشقاء بسكان جنوب فلسطين ، فخلال هذه الاعوام ، وصل الامر الى حد اضطرت البلاد فيه الى استيراد الحبوب والطحين . والتقلبات الشديدة في تصدير زيت الزيتون والصابون لها سبب طبيعي : فالقاعدة هي أنه لايمكن توقع أكثر من محصول زيتون جيد أو ممتاز في كل ثلاث سنوات ، في حين تكون غلة السنتين الأخريين عادة اما شحيحة أو شديدة السوء .

ويدرج الجدول رقم ٤ البضائع المصدرة الاكثر أهمية ، والتي كان نصيبها في مجمل الصادرات السنوية بالنسبة للقيمة بين ٦٢٪ و ٩٥٪ في السنوات المعنية ويظهر هذا الجدول أن طبيعة الزراعة (التي كانت أكثر تنوعا في الجنوب منها في الشمال) جعلت بالامكان ابطال تأثير الموسم الشحيح أو السيء لاحد المحاصيل الى حد ما بواسطة الغلة الجيدة أو الممتازة التي يعطيها محصول آخر . وفي عامي ١٨٥٩ و ١٨٧٧ فقط حدثت اخفاقات اجمالية .

ان التغير على المدى الطويل في بنية الصادرات الذي يمكن رؤيته في الجدول رقم ٨ ينجم عن التغيرات في الاسواق الخارجية وعن الوضع الاجتماعي ـ السياسي في فلسطين نفسها . ويظهر الجدول الزيادة الكمية في الصادرات من سلع جنوب فلسطين الرئيسية من المرحلة الاولى الى المرحلة الثالثة من الفترة التي نقوم باستقصائها هنا . ولم يكن السبب في الزيادة الاجمالية في الصادرات (التى تظهر في الجدول الاول بالنسبة للقيمة) تكثيف الزراعة أو طرق الانتاج المحسنة أو تطور الاسس الزراعية (بما فيها الري) ، وكذلك لم تكن الزيادة الاجمالية في انتاج بعض السلع ناجمة عن اهمال سلع اخرى الا بمقدار بسيط . لقد كان العامل الرئيسي هو امتداد المنطقة المزروعة بما في ذلك اعداد مزارع زيتون وبرتقال جديدة واسعة(١٢) . ومما جعل ذلك ممكنا هو قمع غارات البدو والثارات في « الجبال » (التي كان فيها قطع أشجار الزيتون ـ مثلا ـ طريقة في « الحرب » واسعة الانتشار)، وكذلك امكانيات المبيعات المتزايدة للمنتجات الفلسطينية في الاسواق الخارجية .

ويمكن تفسير الزيادة في انتاج القمح والسمسم وزيت الزيتون والصابون بالطلب المتزايد على هذه السلع في فرنسا ومصر ، وكذلك في بلدان اخرى في منطقة البحر الابيض المتوسط وفي انكلترا . ومنذ وباء الماشية في مصر في عام ١٨٦٣ ، كانت المواشي سلعة هامة تصدرها فلسطين الى مصر ، وخاصة في الاعوام ١٨٦٤ و ١٨٧٣ و ١٨٧٧ ، ولم يكن نصيب البدو من أرباحها أقل نصيب . وكذلك تشير الزيادة غير العادية في تصدير صوف الغنم ـ الذي كان يشكل سلعة تصدير هامة خلال الثلث الاخير من فترتنا ـ الى اشتراك متزايد للبدو ، وخاصة انصاف المتحضرين ، في النشاطات الاقتصادية الفلسطينية المتجهة الى التصدير .

وأخيرا ، يجب ابداء بعض الملاحظات حول برتقال يافا . فقد بدا

تصدير منتظم لهذه السلعة بعد حرب القرم . وكان الشاحنون الساحليون اليونان بصورة رئيسية هم منظمي هذا التصدير . وفي عام ١٨٧٣ ، كان قد تم انشاء ٤٢٠ بيارة برتقال في المنطقة المحيطة بيافا ، تعطي سنويا ٣٣ر٣ مليون برتقالة وكان سدس هذه الكمية يستهلك في فلسطين والباقي يشحن الى مصر وآسيا الصغرى على سفن يونانية خاصة بنقل الثمار .(١٤) ومنذ عام ١٨٧٥ صدر البرتقال اليافاوي أيضا الى أوربا (فرنسا ، ألمانيا ، النمسا ، روسيا) على نطاق واسع . وقد ازدادت هذه التجارة الطويلة المدى بصورة ملحوظة حين عبىء البرتقال بعناية أكبر وصدر في صناديق. وكان البرتقال « الشموطي » ذو الشكل البيضوي والقشرة السميكة وحده يناسب الشحن الى أوربا ، أما « البلدي » الاصغر حجما والاكثر استدارة فقد كان يباع في الاسواق المحلية والاقليمية وكانت غلة عام ١٨٨٠ ، ٣٦ مليون برتقالة(١٥) . وعلق الوكيل القنصلي البريطاني في تقريره عام ١٨٨١ أن حدائق البرتقال كانت تعتبر حينئذ أفضل شكل لاستثمار رؤوس الاموال ، اذ كان من الممكن توقع مردود سنوي صافي يعادل ١٠٪ من رأس المال المستثمر(١٦) .

- ٣ -

اذا ما فحصنا الزيادة في قيمة صادرات يافا (الجدول ١) نجد أنه في المرحلة الثالثة من الفترة الواقعة بين عامي ١٨٥٦ و ١٨٨٢ تضاعفت قيمة البضائع بالمقارنة مع الفترة الاولى . وبصرف النظر عن هذا ، يمكن بواسطة هذا الجدول ايضاح عامل هام يفسر زيادة الصادرات لم يذكر بعد ، وهو الارتفاع الحاد في الصادرات بعد تخفيض رسوم التصدير من ١٢٪ الى ٨٪ على أساس القيمة في عام ١٨٦١ . وقد خفضت هذه النسبة بمقدار ١٪ سنويا الى أن وصلت الى ١٪ وبقيت كذلك منذ عام ١٨٦٩ .

ورغم أننا قد سبق واثبتنا حقيقة زيادة الانتاج ، الا انه لايمكن افتراض أن زيادة مكاسب التصدير الظاهرية في الجدول رقم ١ لم تعن زيادة مقابلة في الدخل الحقيقي للمصدرين والمنتجين أو لم تكن تتماشى مع ارتفاع الصادرات الكمي ، بسبب زيادة عامة في الاسعار أو بسبب انخفاض نقدي . ولكن الوضع لم يكن هكذا كما تظهر الجداول ٩و١٠و١٣ .

وقد تقلبت أسعار الصادرات وفقا لظروف الاسواق الفعلية (النقص في أوربا وبالتالي الزيادة في الطلب ، النقص في فلسطين وبالتالي التضاؤل في الامدادات) ولكن مستوى متوسط أسعار الصادرات خلال الاعوام ١٨٥٦ – ١٨٦٣ لم يكن مختلفا اختلافا ذا أهمية عنه في الاعوام ١٨٧٣ – ١٨٨٢

(قارن بالجدول رقم ٩) . والاختلاف في الاسعار بين عكا وحيفا ويافا (قارن بالجدول رقم ١٠) كان بصورة رئيسية نتيجة اختلاف النوعية وتكاليف النقل (القمح من حوران) .

ويؤيد الجدول ١٣ ــ الذي يظهر مستوى ثابتا لتكاليف المعيشة الاجمالية في القدس ــ هذه النتائج . وقد وضعت ارقام هذا الجدول في عامي (١٨٥٨ و ١٨٨٠) يمكن مقارنتهما بدون تردد ، باعتبار أن الوضع الاجمالي ــ السياسي والاقتصادي كان متشابها ، فكلاهما كانا من أعوام ما بعد الحرب ، وفي كليهما لم يكن الموسم سيئا .

وللتمكن من الوصول الى استنتاجات متوازنة توازنا كليا عن الحركة الصاعدة وطبيعة توزيع الثروة المتزايدة، لابد من أخذ كل من التطور السكاني ومشكلة أسعار تبادل العملات بعين الاعتبار . والمشكلة الاخيرة لم تكن ذات اهمية في حقل التجارة فقط ، ففي فلسطين ، كما هي الحال في المنطقة ككل ، كانت العملات الاوربية ، وقبل كل شيء النقود المعدنية الذهبية والفضية ، تستخدم كوسيلة للدفع داخليا أيضا . ولم «تدخر» القروش ولكن القطع النقدية الذهبية والفضية الاجنبية والعثمانية كانت « تدخر » ، أي تكنز . ولكن بحث هذه المسائل استثني من هذه المقالة .

لقد كانت الحركة الصاعدة والرخاء المتزايد في فلسطين حقيقة لاينكرها أي مراقب نبيه . ولكن حقيقة اخرى تقول أن هذا الرخاء كان الى حد صغير فقط لمنفعة المنتجين المباشرين ، أي الفلاحين . ففي الدرجة الاولى انتفع من هذا التطور جميع التجار والوسطاء وكبار ملاكي الاراضي ومتعهدو الضرائب الذين استثمروا رؤوس أموال في التجارة والزراعة . ولكن قبل كل شيء كان الربح نصيب الخزانة ، فالادارة المالية ــ باعتبار الازمة المالية والنفقات العسكرية المتزايدة التي تعرضت لها الحكومة المركزية ــ ابتدعت دائما طرقا ووسائل جديدة لابتلاع الارباح بواسطة زيادات في الضرائب ورسوم خاصة ومناورات نقدية ومالية أخرى دون القيام بالمقابل بخدمات معادلة في مصلحة الاقتصاد الفلسطيني .

ولكن تحققت أيضا ثروة فردية للفلاحين على الاقل أثناء ازدهار الحبوب في الخمسينات من القرن التاسع عشر وازدهار القطن في الستينات . ففي مقابل القمح المصدر ، حسبما كتب القنصل عن الوضع في عام ١٨٥٦ :

« تدفقت القطع النقدية من الخارج للدفع . ويؤكد لي تاجر أيوني من حيفا (أفكر انه نائب قنصل روسيا واليونان) أن مبلغا لايقل عن نصف مليون جنيه استرليني مرت بين يديه في العام الماضي بين سفن ذلك الميناء وبدو حوران الذين لم يستوردوا من جانبهم أية بضاعة . ونفس الشيء صحيح عن فلاحي القرى ، فهم يصدرون الحبوب ويقبضون بشراهة على القطعةالنقدية المدفوعة ثم يدفنونها في الارض وغالبا مايموتون دون افشاء سـرهم(١٧) .

ويذكر فن في تقرير بعد عامين :

« انفتحت مؤخرا تجارة تصدير للحبوب من هذه البلاد الى أوربا جمع الفلاحون منها ــ رغم الخسائر الناجمة عن ابتزاز شيوخهم لهم وابتزاز متعهدي الضرائب ــ ثروة لم يسبق لها مثيل . ولكنهم يطمرون القطـــع النقدية في حفر ويشترون أسلحة ويزينون نساءهم »(١٨) .

وخلال فترة ازدهار القطن التي لم تستمر طويلا ، يلاحظ القنصل كيات أن الفلاحين الذين انتفعوا منها اشتروا بضائع انكليزية وأن نساءهم يتحلين قطعا نقدية ذهبية وفضية(١٩). وقد اكد الرخاء المتزايد في المناطق والبلدان الفلسطينية وليس في القدس وحيفا فقط مرة بعد مرة . وهكذا كتب نائب القنصل البريطاني في بيروت في تقريره عن الساحل السوري لعام ١٨٨٠ : « من بين المناطق البعيدة يمكنني أن أقول أن حالة يافا تبدو افضل حالة »(٢٠) .

ــ ٤ ــ

ساهمت فلسطين بفائضها الزراعي في تموين البلاد المجاورة ، خاصة مصر ولبنان والساحل الغربي لآسيا الصغرى . واكثر من ذلك ، فقـد ساهمت بصادراتها الى أوربا والعجز الكبير في استيرادها ، في الاقتراب من تعديل ميزان التجارة السورية الاجمالي . والتفاوت بين الصـادرات والواردات في التجارة الفلسطينية (أي التجارة عبر موانىء عكا وحيفا ويافا) هو الجانب الذي بدا لجميع القناصل الاوربيين أكثر جوانب الوضع الاقتصادي في البلاد لفتا للنظر في الفترة التي ندرسها . ومما زاد من الدهشة الناجمة عن هذا التفاوت هو أن نصيبا متزايدا من الواردات كان الهدف منه ارضاء حاجات الاوربيين والمؤسسات الاوربية القائمة في البلاد والتي بدورها لم تساهم في زيادة الصادرات (وباستثناء المستعمريـن الكنسيين الذين رغم ذلك غالبا ما أعطـي نصيبهـم في تطـور فلسطـين الاقتصادي قيمة أكثر مما يستحق) ولكن هذا العجز الاستيرادي كان الى

حد معين عجزا وهميا ، اذ علينا أن نميز بين الواردات المباشرة وغير المباشرة .

لم تستورد تقريبا اية بضائع من أوربا بشكل مباشر عبر عكا وحيفا حتى النصف الثاني من السبعينات في القرن الماضي . وكان التجار العرب الكبار وممثلو البيوتات التجارية الفرنسية والايطالية واليونانية يشغلون أنفسهم بصورة رئيسية بتنظيم التصدير . بل ان الكثير من الشركات اليونانية والايطالية قامت بتجاربها دون أن تقيم وكلاء لها في المنطقة ، أي أن قباطنة السفن التجارية كانواهم الشارين. وكان الحصول على الواردات من أوربا بأكملها تقريبا يتم بواسطة تجار محليين صغار من شركات أكبر في بيروت . وكانت هذه الواردات تنقل برا بكميات صغيرة . وفي السبعينات كان هناك محل خردوات واحد يتعامل مع أوربا مباشرة يديره مستعمرون المان في حيفا . وفي ١٨٧٨ ، اسس تجار المان آخرون أنفسهم في المدينة ، وكانوا يتحسرون المرة تلو المرة على عدم وجود صلة شحن مباشرة مع المانيا .

وكانت الواردات (غير المباشرة) الرئيسية في شمال فلسطين (وهي مماثلة لواردات الجنوب) تشمل الأرز من ايطاليا ومصر ، والسكر من فرنسا والقهوة من امريكا الجنوبية ومن الجزيرة العربية (عن طريق البر في الغالب) ، والمصنوعات القطنية من انكلترا وسويسرا ، والقماش من سويسرا والمانيا ، والخردوات من المانيا وانكلترا والنمسا وفرنسا ، والخشب من آسيا الصغرى . ولكن جميع القناصل اتفقوا على أن القيمة الاجمالية لجميع المستوردات غير المباشرة والمباشرة المحدودة لم تقترب ولا بشكل بعيد من قيمة الصادرات .

وفي يافا ، لم يجمع حتى القناصل البريطانيون ، الذين كانوا يكتبون أكثر التقارير تفصيلا عن هذا المكان ، احصائيات الاستيراد قبل عام ١٨٧٤ ، اذ كانت الحمولات الواردة في معظم الاحيان قد خلصت جماركها (في بيروت على الغالب) . فبعد ابراز اجازة الجمارك (رفتية) كان بالامكان انزال حمولة السفن دون اية شكليات أخرى ، وكان جزء من البضائع ينقل مباشرة الى الداخل . وبذلك فان نصيب فلسطين من الواردات كان يظهر في سجلات الجمارك العثمانية الخاصة ببيروت رغم انه لم يكن قد استورد عبر تلك المدينة .

وليس هناك اي تغير أساسي في بنية واردات يافا خلال الفترة بين

١٨٥٦ و ١٨٨٢ . وقد ادرجت أهم البضائع المستوردة (أهمها من حيث القيمة) للاعوام ١٨٧٤ — ١٨٨٢ في الجدول رقم ١٤ . والشيء الذي تغير في هذه المرحلة بالمقارنة مع الخمسينات والستينات كان بصورة أساسية الاهمية التي اكتسبها البترول وما يسمى بالبضائع الكمالية . وكان بين هذه البضائع الساعات بأنواعها والبورسلان والعطور والمجوهرات و « بضائع الزينة » الاخرى . وكان جزء من هذه الواردات موجها الى الاوربيين في فلسطين ، ومع ذلك فانها تشير أيضا الى الثروة المتزايدة والذوق المتغير لدى الطبقة العليا المحلية .

وكانت بضائع الواردات الرئيسيةهي الارز من مصروايطاليا وفرنسا والهند والسكر من فرنسا ومصر والنمسا وانكلترا ، والقهوة من أمريكا الجنوبية (عبر أوربا) ومن الجزيرة العربية ، والمصنوعات القطنية من انكلترا بصورة رئيسية ، والخشب من آسيا الصغرى والبلقان ، والنبيذ من قبرص وفرنسا ، والبترول من أمريكا والفحم من انكلترا . وجاءت البضائع الكمالية والقماش والاقمشة الحريرية والخردوات والادوات المنزلية والزجاج والورق والكحول من بلاد أوربية مختلفة (فرنسا وانكلترا وألمانيا والنمسا وسويسرا وايطاليا واليونان) .

وبصورة عامة تتفق التقارير القنصلية حول فائض صادرات يافا (وهذه ظاهرة ستبقى ملحوظة حتى آخر القرن) . ولكن هناك تناقضات كبيرة بين الجداول الاحصائية القنصلية المختلفة عن الاعوام ١٨٧٩ — ١٨٨٢ (ارجع الى الجدولين ١ و ٢) وربما يجب تفسير هذه التناقضات بالطريقة المختلفة في تناول الواردات غير المباشرة .

— ٥ —

على أساس المعلومات التي جمعتها وحللتها ، أود أن اقترح الاجوبة التالية عن الاسئلة المطروحة في بداية هذا البحث :

١ — في ربع القرن الذي تلا حرب القرم ، تعرضت فلسطين لتحسن اقتصادي باهر .

٢ — بغض النظر عن انتاج الصابون الذي أساسه الزيت المحلي ، فان القطاع الزراعي هو وحده الذي تطور على نطاق هام . وكان هذا التطور قد لقي حافزامن تطورات الاسواق الخارجية قبل حرب القرم ، ولكن منذ الخمسينات من القرن التاسع عشر أصبح متجها نحو التصدير ، فالفائض الزراعي كان ينتج

للاسواق الاوربية والاقليمية . وبقي الانتاج مرنا ومنوعا ، اذ نجت فلسطين من بروز زراعة أحادية وهو شيء كان سيسبب الكوارث اذا ما أخذنا الظروف الطبيعية (وخاصة المناخية) بعين الاعتبار .

٣ ــ لم تتمكن فلسطين من المساهمة في تموين شمالي سورية بالغذاء فحسب ، بل ساهمت أيضا في تعديل غير منظور لميزان التجارة السوري الاجمالي اذ تميزت التجارة عبر موانىء عكا وحيفا ويافا بفائض تصدير كبير .

وخلال الفترة التي قمنا بفحصها ، أدخلت الزراعة الفلسطينية ضمن نطاق الانتاج الرأسمالي . فالسهول الساحلية والداخلية أصبحت خاضعة للزراعة الدائمة، ووجه الانتاج باتجاه حاجات الاسواق الخارجية. وبما أن هذا التطور جرى ضمن سياق توسع الرأسمالية الصناعية الاوربية فقد وضعت أسس لبروز اقتصاد « خارجي » . وفيما بعد تم تشويه هذا الى حد أكبر من قبل الاستعمار الاجنبي .

الجـدول رقـم ١

صادرات وواردات يافا (القيمة بالقروش)(٢١)

العـام	الصـــــادرات	الـــــواردات
١٨٥٧	١٥٥٨٣٣٥٠	
١٨٥٨	١٢٢٤٤٠٤٠	
١٨٥٩	٧٣٨٤٢٠٠	
١٨٦٠	١٤٩٦٨٥٠٠	
١٨٦١		
١٨٦٢	٢٢٤٠٨٣٤٨	
١٨٦٣	٢٦٠٣٩١٠٠	
١٨٧٣	٣١٣٦٩٠٠٠	
١٨٧٤	٢٦٥٦٢٠٠٠	١٤٥٧٥٥٠٠
١٨٧٥	٣٣٠٥٦٧٥٠	١٤١٦٦٥٠٠
١٨٧٦	٥٦٢٨٣٩٠٠	٢٩٧٧٦٥٧٥
١٨٧٧	١٥٧٤٩٩٦٦	٢٦٢٣٩٧٤٥
١٨٧٨		٣١٦٤٢٠٠٠
١٨٧٩	٢٥٢٧٢٥٠٠	٢٩٦٣٥٥٠٠
١٨٨٠	٣٠٧٢٥٦٠٠	٢٩٦٣٥٥٠٠
١٨٨١	٣٣٥٧٠٢٥٠	٣٢٥٣٤٠٠٠
١٨٨٢	٣٧٨٠٢٧٤٤	٣٩٩٦٤٦٦٣

متوسط الصادرات السنوية (القيمة بالقروش)

١٨٥٧ – ١٨٦٠ ، ١٨٦٢ – ١٨٦٣ : **١٦٤٣٧٩٢٣**

١٨٧٣ – ١٨٧٧ ، ١٨٧٩ – ١٨٨٢ : **٣٢٢٦٥٨٥٥**

الجـدول رقـم ٢

قيمة صادرات وواردات يافا ، ١٨٧٦ ـ١٨٨٢ ،

حسب التقارير القنصلية غـير البريطانيـة

	الصـادرات	الـواردات	التقرير القنصلي
١٨٧٧/٣/١–١٨٧٦/٣/١	١٠٥٤١٤٤ فرنك	٨٦٩٧٦٦٠ فرنك	الفرنسي(٢٢)
١٨٧٦	٤٣٥٠٠٠٠ غلدن	٢١٤٤٠٠٠ غلدن	النمسوي(٢٣)
١٨٧٩	٤٠٢٤٠٠٠ فرنكن	٢٩٥٤٢٥٠ فرنكن	الالماني(٢٤)
١٨٨٠	٢٠١٥٠٠٠ غلدن	١٣٠٣٠٠٠ غلدن	النمسوي(٢٥)
١٨٨١	٣٠٦٩٠٠٠ غلدن	١٠٠٥٢٠٠ غلدن	النمسوي(٢٦)
١٨٨٢	٥٤٠٨٧٥٠ فرنكن	٢٦٤٧٨٧٥ فرنكن	الالماني(٢٧)

الجـدول رقـم ٣

أصناف صادرات يافا الرئيسية (الكميـات)(٢٨)

	القمـح (بالكيلة)	الشعير (بالكيلة)	الـذرة (بالكيلة)	السمسم (بالاقة)	زيت الزيتون (بالاقة)	الصابون (بالاقة)	البرتقال بعدد وبالصناديق حين ظهور الحرف ص الى جانب الرقم	الصـوف (بالاقة)	القطن (بالاقة)
١٨٥٧	٤٥٤٥٥	٢٤٥٠١١	٣٩٣٩٢	٥٠٣٠٠٠	٢٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠٠	٦٠٠٠٠٠٠	١٠٠٠٠	—
١٨٥٨	١٨٠٠٠	١٤٣٤١٤	١٦٦٧١٢	٨٢٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠	٨٠٠٠٠٠	٣٠٠٠٠٠٠	٤٠٠٠	—
١٨٥٩	٣٠٠٠٠	٣٠٠٠٠	٢٥٠٠٠	٤٠٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠	٥٠٠٠٠٠	٦٠٠٠٠٠٠	—	—
١٨٦٠	—	—	—	١٠٠٠٠٠٠	٢٠٤٠٠٠٠	٥٠٠٠٠	٥٠٠٠٠٠٠	٥٥٠٠	٢٠٠٠٠
١٨٦٢	٧٩٩٢٨	١١٧٦٦١	٥٧٨١٠	١٨٥٦٠٧٨	١٦٧٣٦٩٦	١٠٠٠٠٠	٨٠٠٠٠٠٠	٢٠٠٠	٢٠٠٠٠
١٨٦٣	١٧٦٦١٤	١٩٢١٣٩	١١٣٧٥٠	٢٨٩٣٤٤٩	٣٠٠٥٠	٧٠٠٠٠	٨٣٠٠٠٠٠	٣٨٥١٧	١٩٠٦٧٨
١٨٧٣	٣١٠٠٠٠	١١٠٠٠٠	٢٥٠٠٠	٣٠٠٠٠٠٠	٢٥٠٠٠٠	٦٠٠٠٠٠	٢٧٧٥٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠	٤٠٠٠٠
١٨٧٤	٢١٢٠٠٠	١٢٠٠٠٠	١١٥٠٠٠	٢٠٠٠٠٠٠	١٢٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠٠	٢٥٥٠٠٠٠٠	١٢٠٠٠٠	١٠٠٠٠
١٨٧٥	٤٤٨٠٠٠	٢٨٨٠٠٠	٧٠٥٠٠	٢٨٠٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠٠	٣٠٠٠٠٠	١٠٢٠٠٠٠٠	٥٠٠٠٠	٥٠٠٠
١٨٧٦	٤٣٠٠٠٠	٢٥٠٠٠	٨٠٠٠٠	٢٣٥٠٤٠٠	٣٥٠٠٠٠٠	٢٤٦٠٠٠	١٤٠٠٠٠٠٠	١٥٠٠٠٠	—
١٨٧٧	—	—	١٦٠٠٠	١٨٧٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠٠	٢٢٠٠٠٠	١٤٢٠٠٠٠٠	١٢٠٠٠٠	—
١٨٧٩	—	—	—	١١٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠٠٠	١٣٥٠٠٠٠	٢٦٢٥٠٠٠٠	١٣٠٠٠٠	—
١٨٨٠	١٨٩٥٠٠	١٠٠٥٠٠	٢٥٣٠٠	١٧٠٠٠٠٠	٨٠٠٠٠٠	١٤٥٠٠٠٠	١٤٥٠٠٠ص	١٠٥٠٠٠	—
١٨٨١	٤٤٠٠٠٠	٢٥٥٠٠٠	٨٠٠٠٠	١٤٢٠٠٠٠	١٦٠٠٠٠	٨٥٠٠٠٠	١٧٠٠٠٠ص	١٣٥٠٠٠	—
١٨٨٢	٤٨٢٩٠٥	١٨٢٧٠	١٤٣٣٠٢	٢٢٩٢٨٤٤	٤٠٦١١٥	١١٢٤٠٠٠	١١٦٣٥٠ص	١٢٩٠٠٠	—

الجـدول رقـم ٤

قائمة اصناف التصدير الرئيسية الثلاثة في السنوات المبينة
(بالقروش) ونسبتها المئوية الى الصادرات الاجمالية

العـام	أصنـاف التصديـر			النسبة المئوية الى مجمل الصادرات
١٨٥٧	الصابون	الشعير	السمسم	٧٢ر٤
	٦٠٠٠٠٠٠	٣٥١٥٩٠٨	٦٠٠٠٠٠٠	
١٨٥٨	الصابون	السمسم	الـذرة	٧٠ر٦
	٤٤٨٠٠٠٠	٢٢٥٥٠٠٠	١٩٠٨٨٥٢	
١٨٥٩	الصابون	البرتقال	السمسم	٦٣ر٦
	٢٥٠٠٠٠٠٠	١٢٠٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠٠	
١٨٦٠	زيت الزيتون	السمسم	البرتقال	٩٤ر٩
	١٠٢٠٠٠٠٠	٣٠٠٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠٠	
١٨٦٢	زيت الزيتون	السمسم	القمـح	٨١ر٨
	١٠٨٧٩٠٢٤	٥٥٦٨٢٣٤	١٨٨٠٢٠٠	
١٨٦٣	السمسم	القمـح	القطـن	٦٢ر٩
	٨٦٨٠٣٤٧	٣٨٨٧٥٠٥	٣٨١٣٥٦٠	
١٨٧٣	القمـح	السمسم	البرتقال	٦٩ر٨
	٩٣٠٠٠٠٠	٩٠٠٠٠٠٠	٣٦٠٧٥٠٠	
١٨٧٤	الصابون	السمسم	القمـح	٦٣ر٥
	٦٠٠٠٠٠٠	٦٠٠٠٠٠٠	٤٨٧٦٠٠٠	
١٨٧٥	القمـح	السمسم	الصابون	٦٥ر٢
	٨٩٦٠٠٠٠	٧٠٠٠٠٠٠	٥٥٨٠٠٠٠	
١٨٧٦	زيت الزيتون	الصابون	القمـح	٧٩ر٢
	٢٤٥٠٠٠٠٠	١١٠٣٠٠٠٠	٩٠٣٠٠٠٠	
١٨٧٧	السمسم	زيت الزيتون	البرتقال	٨١ر٣
	٦٠٧٧٥٠٠	٥٥٠٠٠٠٠	١٢٣٠٦٦٦	

١٨٧٩	زيت الزيتون ١٠٠٠٠٠٠٠	الصابون ٧٤٢٥٠٠٠	البرتقال ٢٣٨٠٠٠٠	٨٢ر٣
١٨٨٠	الصابون ٧٦١٢٥٠٠	البرتقال ٥٨٠٠٠٠٠	القمح ٥٦٨٥٠٠٠	٦٢ر٢
١٨٨١	القمح ١١٠٠٠٠٠٠	البرتقال ٦٨٢٠٠٠٠	الصابون ٥١٠٠٠٠٠	٦٨ر٣
١٨٨٢	القمح ٩٨٩٩٥٥٢	البرتقال ٨١٤٤٥٠٠	الصابون ٦١٨٢٠٠٠	٦٤ر١

الجدول رقم ٥

أصناف صادرات عكا الرئيسية (الكميات)(٢٠)

	القمح (بالكيلة)	الشعير (بالكيلة)	الذرة (بالكيلة)	السمسم (بالاقة)	زيت الزيتون (بالاقة)
١٨٧٢	١٥٠٠٠٠٠	٥٠٠٠٠٠	٦٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠٠
١٨٧٣	٤٠٠٠٠٠	٥٠٠٠٠	—	٥٠٠٠٠٠	—
١٨٧٤	٢٠٠٠٠٠٠	٥٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠٠٠	٣٠٠٠٠
١٨٧٥	٣٥٠٠٠٠٠	٦٠٠٠٠٠	٢٥٠٠٠٠٠	٣٠٠٠٠٠٠	٦٠٠٠٠٠
١٨٧٦	١٥٠٠٠٠٠	—	٢٠٠٠٠	٤٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠٠
١٨٧٧	٥٠٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠	٤٠٠٠٠٠	٣٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠٠
١٨٧٨	١٧٥٠٠٠٠	—	—	—	—
١٨٧٩	٢١١٢١٩	—	٤٧٨٠	—	٤٠٣٠٧
١٨٨٠	٢٦٠٠٠٠	٨٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠	٨٠٠٠٠٠	—

الجـدول رقـم ٦

أصناف صادرات حيفا الرئيسية (الكميات)(٢١)

	القمح (بالكيلة)	الشعير (بالكيلة)	الـذرة (بالكيلة)	السمسم (بالاقة)	زيت الزيتون (بالاقة)
١٨٧٢	٨٠٠٠٠٠	٣٠٠٠٠٠	٣٥٠٠٠٠	١٥٠٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠
١٨٧٣	٤٠٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠	—	٥٠٠٠٠٠	—
١٨٧٤	٨٠٠٠٠٠	١٥٠٠٠٠	٦٠٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠٠	٥٠٠٠٠
١٨٧٥	١٠٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠٠	٧٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠٠٠	٣٠٠٠٠
١٨٧٦	١٠٠٠٠٠	٢٥٠٠٠	١٥٠٠٠٠	٥٠٠٠٠٠	١٥٠٠٠٠
١٨٧٧	٨٠٠٠٠	٢٠٠٠٠	١٥٠٠٠٠	٢٠٠٠٠٠	١٥٠٠٠٠
١٨٧٨	٢٠٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠	—	—	—
١٨٧٩	٨١٣٢٠	—	—	—	—
١٨٨٠	٤٠٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠	١٥٠٠٠٠٠	١٥٠٠٠٠٠	—

الجـدول رقـم ٧

متوسط التصدير السنوي لاصناف الصادرات الرئيسية في يافا وحيفا وعكا

(الكميات بالملايين)(٢٢)

	يافـا ١٨٧٣ – ١٨٧٧ ١٨٧٩ – ١٨٨٢	حيفـا ١٨٧٢ – ١٨٨٠	عكـا ١٨٧٢ – ١٨٨٠
القمـح (بالكيلة)	٠ر٢٧٩	٠ر٤٢٩	١ر٢٩١
الشعير (بالكيلة)	٠ر١٠٢	٠ر١١١	٠ر٢٠٣
الذرة (بالكيلة)	٠ر٠٦٢	٠ر٢٣٣	٠ر٦٢٥
السمسم (بالاقة)	٢ر٠٥٩	٠ر٨٠٠	١ر٠٠٠
زيت الزيتون (بالاقة)	١ر٠٢٧	٠ر٠٥٣	٠ر٢٦٠
الصابون (بالاقة)	٠ر٩٠٤		
الصوف (بالاقة)	٠ر١١٥		
البرتقال (بالعدد)*	١٩ر٦٥٠		

* متوسط السنوات ١٨٧٣ – ١٨٧٧ و ١٨٧٩ فقـط ، اذ منـذ عـام ١٨٨٠ صارت الكمية تذكر بالصناديق .

الجـدول رقـم ٨

الزيادة في تصدير أصناف صادرات يافا الرئيسية (الكميات)(٣٣)

	متوسط الصادرات السنوية في السنوات ١٨٥٧ ـ ١٨٦٠ و ١٨٦٢-١٨٦٣	متوسط الصادرات السنوية في السنوات ١٨٧٣ ـ ١٨٧٧ و ١٨٧٩ ـ ١٨٨٢	الزيادة/النقصان (الاضعاف)
القمح (بالكيلة)	٥٨٣٣٣	٢٧٩١٥٦	٤ر٧٩
الشعير (بالكيلة)	١٢١٣٧١	١٠١٨٦٣	٠ر٨٤
الذرة (بالكيلة)	٦٧١١١	٦١٦٧٨	٠ر٩٢
السمسم (بالاقة)	١٢٤٥٤٢١	٢٠٥٩٢٤٩	١ر٦٥
زيت الزيتون (بالاقة)	٧٠٥٦٢٤	١٠٢٧٣٤٦	١ر٤٦
الصابون (بالاقة)	٤٢٠٠٠٠	٩٠٤٤٤٤	٢ر١٢
الصوف (بالاقة)	١٠٠٠٣	١١٥٤٤٤	١١ر٥٤
البرتقال (بالعدد)*	٦٠٥٠٠٠٠	١٩٦٥٠٠٠٠	٣ر٢٥

* متوسط السنوات ١٨٧٣ ـ ١٨٧٧ و ١٨٧٩ فقط ، اذ منذ عـام ١٨٨٠ صارت الكمية تذكر بالصناديق .

الجـدول رقـم ٩

متوسط أسعار الصادرات الفصلي/السنوي في يافا (بالقروش)(٢٤)

الفصل/السنة	القمح	الشعير	الذرة	السمسم	زيت الزيتون	القطن
الاول ١٨٥٦	٣٤ر٥	٢٣ر٥	٢٣ر٥	٣ر١٢٥		
الثالث ١٨٥٦	٢٦ر٥	١٠ر٧٥	١٥ر٢٥	٢ر٧٥		
الرابع ١٨٥٦	٢٨ر٥	١٤ر٥	١٧ر٢٥	٢ر٨٧٥		
الثالث ١٨٥٧	٢٤	١٢ر٥	١٧			
الرابع ١٨٥٧	٢١ر٥	١٣ر٥	١٧	٣ر٢٥	٥ر٥	
الاول ١٨٥٨	٢٠	٩ر٥	١١	٣ر١٢٥	٢ر٢٥	
الثاني ١٨٥٨	١٦	٩	٩	٢ر٧٥	٤ر٢٥	
الثالث ١٨٥٨	١٣ر٧٥	٩ر٥	١٠ر٥	٢ر٥	٥ر٢٥	
الرابع ١٨٥٨	١٦ر٥	١٠ر٥	١١ر٥	٢ر٧٥	٥ر٢٥	
الاول ١٨٥٩	١٨ر٥	١١ر٥	١٢ر٥		٥ر١٢٥	
الثاني ١٨٥٩	٢٢	١٢ر٥	١٤		٥	
الثالث ١٨٥٩	٢٤ر٥	١٣ر٥	١٦	٢ر٦٢٥	٥	
الرابع ١٨٥٩	٣٧ر٥	١٧ر٥	٢٢ر٥	٢ر٨٧٥	٥	
الاول ١٨٦٠	٤٠	١٧ر٥	٢٧ر٥	٣ر١٢٥	٥ر٥	٧
الاول ١٨٦١	٣٨ر٧٥	١٦ر٥	٢٣ر٧٥	٣ر١٢٥	٦ر٧٥	٧
الرابع ١٨٦١	٢٥	١٢ر٥	١٣ر٢٥	٣ر٣٧٥	٦	٩ر٥
١٨٦٢	٢٥	١٠	١٢	٣	٦ر٥	١٥
١٨٦٣	٢٢	١٠	١٢	٣	٦	٢٠
١٨٧٣	٣٠	١٣	١٥	٣	٦	٧ر٥
١٨٧٤	٢٣	١٢ر٥	١٦	٣	٤ر٥	٨
١٨٧٥	٢٠	١١	١٣ر٥	٢ر٥	٥	٦ر٥
١٨٧٦	٢١	١٢	١١ر٥	٢ر٧٥	٤ر٧٥	٦ر٥
١٨٧٧			٣٥	٣ر٢٥	٥ر٥	
١٨٧٩				٣	٥	
١٨٨٠	٣٠	١٣	١٧	٣	٥	
١٨٨١	٢٥	١٢ر٥	١٦ر٥	٢ر٧٥	٥ر٥	
١٨٨٢	٢٠	١٢	١٦	٢ر٦٢٥	٥	
متوسط الارقام المتوفرة للسنوات						
١٨٥٦–١٨٦٣	٢٥ر٢٥	١٣ر٠٤	١٥ر٨٦	٢ر٩٥	٤٦ر٥	
١٨٧٣–١٨٨٢	٢٤ر١٤	١٢ر٢٩	١٧ر٥٦	٢ر٨٧٥	١٤ر٥	

الجـدول رقـم ١٠

المتوسط السنوي لاسعار الصادرات في حيفا وعكا ويافا (بالقروش)(٣٥)

		القمح (بالكيلة)	الشعير (بالكيلة)	الذرة (بالكيلة)	السمسم (بالاقة)	زيت الزيتون (بالاقة)
	عكا	٢٧	١٤	١٨	٣	٥
١٨٧٤	حيفا	٢٤	١٤	١٨	٣	
	يافا	٢٣	١٢ر٥	١٦	٣	٤ر٥
	عكا	٢٥	١٢	١٧	٢ر٥	٥
١٨٧٥	حيفا	٢٤	١٢	١٨	٢ر٢٥	
	يافا	٢٠	١١	١٣ر٥	٢ر٥	٥
	عكا	٢٢		١١	٢ر١٢٥	٤ر٥
١٨٧٦	حيفا					
	يافا	٢١	١٢	١١ر٥	٢ر٧٥	٤ر٧٥
	عكا	٣٦	٢٠	٢٢	٣	٦
١٨٧٧	حيفا	٣٤	٢٠	٢٢	٣	٦
	يافا			٣٥	٣ر٢٥	٥ر٥
	عكا	٣٨				
١٨٧٨	حيفا	٣٠	١٤			
	يافا					
	عكا	٤٠		١٦		٥ر٥
١٨٧٩	حيفا	٣٥				
	يافا				٣	٥
	عكا	٣٠	١٢	١٦	٢ر٧٥	
١٨٨٠	حيفا	٣٠	١٢	١٦	٢ر٧٥	
	يافا	٣٠	١٣	١٧	٣	٥

الجـدول رقـم ١١

صادرات القطن من عكا وحيفـا(٣٦)

السنة	أقـة
١٨٥٢	٤٤٦٥٤٥
١٨٥٣	٢٩٤٥٤٥
١٨٥٤	٣٧٠٩١
١٨٥٥	٣٨١٩
١٨٥٦	—
١٨٥٧	—
١٨٥٨	—
١٨٥٩	٥٢٣٧
١٨٦٠	٦٩٤٥٥
١٨٦١	٥٨٩٠٩
١٨٦٢	٥٥٢٧٣

الجـدول رقـم ١٢

تقدير معدل النسبة المئوية للمساحة المزروعة في شمال فلسطين لكل من المواد المدرجة ، ١٨٥٨ ـ ١٨٦٢(٣٧)

قمـح	٤٠٪
شعير	٩ ٪
ذرة	٧ ٪
سمسم	١٣٪
قطـن	٦ ٪
عدس ، فاصولياء وبازلاء	٥ ٪
تبـغ	٢ ٪
بطيخ أحمر ، الكرمة والتـين	٤ ٪
الزيتون	١٤٪

الجـدول رقـم ١٣

الاسعار للمستهلك في القدس (بالقروش)(٣٨)

	١٨٥٨	١٨٨٠
رطل واحد من الليمون الاخضر	٥ر٠	٤ر٠
حمل واحد من الحطب	١٨ ــ ٢٥	٣٠
رطل واحد من الفحم	٣	٥ر١
رطل واحد من الصابون	١٣ ــ ١٥	١٢
عباءة عربية واحدة	٩٠ ــ ١٠٠	٨٠
زوج واحد من الاحذية العربية	٢٢ ــ ٢٤	١٠
راس قرنبيط واحد	١ ــ ٢	٥ر١
رطل واحد من الملفوف	٣	٣
رطل واحد من الجزر	٢	٢
رطل واحد من اللفت	٥ر١	٥ر١
رطل واحد من الخيار	٤	٢
رطل واحد من البصل	٣ ــ ٤	٥ر٣
رمانــة واحــدة	٥ر٠	٢٥ر٠
ثماني برتقــالات	١	١
رطل واحد من التين	٣ ــ ٤	٥ر١ ــ ٣
رطل واحد من اللوز	١٢ ــ ١٦	١٠
رطل واحد من الزبيب	١٠ ــ ١٢	٦
رطل واحد من زيت الزيتون	١٠	١٥
رطل واحد من زيت السمسم	١٥	٢٢ر٥
رطل واحــد من الفاصولياء	٤ ــ ٦	٧
رطل واحد من العدس	٣	٨
رطل واحد من الارز	٧ ــ ٩	٨ ــ ٩

ثمنية واحدة من القمح	١٠ – ١٢	٥ – ١١ر٢٥
ثمنية واحدة من الشعير	٦ر٥	٣ – ٦ر٢٥
ثمنية واحدة من الذرة	٧	٢ر٧٥ – ٦ر٧٥
رطل واحد من الطحين	٥ر٥	٤ – ١٠
رطل واحد من الزبدة	٥٤	٣٦
رطل واحد من الجبنة	١٦ – ٢٤	١٨
رطل واحد من لحم الضان	١٥	١٢ – ١٨
دجاجة واحدة	٦ – ٧	٨
أربع بيضات	١	٥ر٠
حمامة واحدة	٢	٢
رطل واحد من الملح	٢	٣
رطل واحد من الخل	٦	٣
رطل واحد من العسل	٣٠	٣٦
رطل واحد من السكر	٢٢ – ٢٣	١٦
رطل واحد من القهوة	٢٤	٣٣
رطل واحد من النبيذ المحلى	١٠ – ١٣	٩

الجـدول رقـم ١٤

واردات يافا (القيمة بالقرش لسبع أصناف رئيسية)(٣٩)

١٨٧٤	البـن	الأرز	السكر	المصنوعات القطنية	الخشب	النبيـذ	القماش
	٣٩٢٠٠٠٠	٣٣٩٧٥٠٠	٢٤٠٠٠٠٠	٢٢٤٠٠٠٠	١٤٥٠٠٠٠	٥٧٣٠٠٠	٢٩٥٠٠٠
١٨٧٥	البـن	السكر	الأرز	القطـن	الخشب	النبيـذ	القماش
	٤٠٤٠٠٠٠	٢٩٩٠٠٠٠	٢٤٤٧٥٠٠	١٩٢٠٠٠٠	١٨٦٩٥٠٠	٥١٥٠٠٠	٣٦٠٠٠٠
١٨٧٦	البـن	السكر	المصنوعات القطنية	الأرز	بضائع الزينة	البترول	القماش
	١٠٨٠٢٠٠٠	٦٩٢٤٠٠٠	٣٩٣٤٥٠٠	٣٥٧٤١٧٥	١١٥٦٢٥٠	٨٥٠٠٠٠	٧٠٩٤٠٠
١٨٧٧	السكر	البـن	الأرز	المصنوعات القطنية	بضائع الزينة	القمـح	الـذرة
	٥٣٩٠٠٠٠	٥١٦٩٠٠٠	٣٨٦٩٢٥٠	٣٣٦٢١٤٥	٢١٣٠٠٠٠	١٩٢٥٠٠٠	٥٠٠٠
١٨٧٩	السكر	الأرز	القمـح	البـن	المصنوعات القطنية	بضائع الزينة	القماش
	١٠٣٥٠٠٠٠	٣٩٩١٥٠٠	٣٨٦٨٠٠٠	٣٧٦٠٠٠٠	٢٨٠٠٠٠٠	٢٢٩٥٠٠٠	٩٣٩٠٠٠
١٨٨٠	السكر	الأرز	البـن	المصنوعات القطنية	بضائع الزينة	البترول	القماش
	١٠٥٠٠٠٠٠	٤٧٥٧٥٠٠	٤١٤٠٠٠٠	٣٢٥٠٠٠٠	٢٠٨٠٠٠٠	١٦٠٠٠٠٠	١٠٦٧٠٠٠
١٨٨١	السكر	بضائع الزينة	الأرز	المصنوعات القطنية	البـن	البترول	الخشب
	١٠١٢٥٠٠٠	٥٩٨٥٠٠٠	٤٠٩٩٥٠٠	٣٢٢٠٠٠٠	٣١٦٢٥٠٠	١٩٨٠٠٠٠	١٢١١٠٠٠
١٨٨٢	السكر	الأرز	بضائع الزينة	المصنوعات القطنية	البـن	البترول	الخشب
	٩٤٢١٥٠٠	٦٨٣٣٥٠	٥٥٧٨٣٢٥	٣٥٣٦٠٠٠	٣٢٦١٠٠٠	٣٢٦١٠٠٠	١٦٨٠٠٠٠

الحواشي

في هذه المقالة ، أقدم بعض نتائج دراسة لتطور فلسطين الاجتماعي – الاقتصادي خلال الفترة بين ١٨٥٦ و ١٨٨٢ أقوم بها في سياق مشروع بحث لمعهد الدراسات الاسلامية التابعة لجامعة برلين الحرة Free University of Berlin تموله مؤسسة فولكسفاكن.

في الحواشي تستخدم الاختصارات التالية :

PRO = Public Record Office, London (دائرة السجل العام بلندن)

P.P = (British) Parliamentary Papers (الوثائق البرلمانية البريطانية)

AGCJ = Archives of German Consulate in Jerusalem (أرشيف القنصلية الالمانية في القدس)

MAE = Archives du Ministère des Affaires Etrangères, Paris (الوثائق الاصلية محفوظة في أرشيف دولة اسرائيل)

ASA = Austrian Stat Archives (Havs .. Hof .. Und Staats .. archiv) (أرشيف وزير الشؤون الخارجية في باريس)

Vienna (أرشيف الدولة النمسوية في فيينا)

(١) قارن مع

Dominique Chevallier, **Le Société du Mont Liban à L'Epoque de la Révolution Industrielle en Europe,** Paris, 1971, Chap. XIII; linda Schatkowski — Schilcher, « Ein Modellfall indirekter Wirtschaftlicher Durchdringung : Das Beispiel Syrien », **Geschichte Und Gesellschaft,** I (1975), PP. 482 — 505.

(٢) واضافة الى ذلك ، هناك اخطاء كثيرة في الحساب في تقارير القناصل البريطانيين في يافا الاصلية ، واخطاء مطبعية اضافية في الجداول المنسوخة في الوثائق البرلمانية . وهكذا فالكميات النهائية التي تظهر في هذه الجداول ليست متطابقة دائما مع المجموع الاجمالي المذكور في وثائق الـ PRO أو الـ P.P .

(٣) حين لاتذكر مصادر أخرى ، جميع المعلومات والاقوال عن التجارة في يافا ترتكز الى التقارير السنوية التالية المكتوبة من قبل القناصل البريطانيين :

1857 : **PRO,** F. O. 78/1296 (Jaffa, 31. 12. 1857);

1858 : **PRO,** F. O. 78/1387 (Jaffa, 31. 12. 1858);

1859 : **ORO,** F. O. 78/1449 (Jaffa, 31. 12. 1859);

1860 : **ORO,** F. O. 78/1537 (Jaffa, 31. 12. 1860);

1862 : **P. P.** 1863/LXX (Jaffa, 27. I. 1863);

1863 : **P. P.** 1804/LXI (Jaffa, May 1804);

1873 : **P. P.** 1874/LXVII (Jaffa, February 1874);

1874 : **P. P.** 1875/LXXVII (Jaffa, April, 1875);

1875 : **P. P.** 1876/LXXV (Jaffa, February, 1876);

1876 : **P. P.** 1877/LXXXIII (Jaffa, March, 1877);

1877 : **P. P.** 1878/LXXIV (Jaffa, May, 1878);

1879 : **P. P.** 1880/LXXIV (Jaffa, February 1880);

1880 : **P. P.** 1881/XC (Jaffa, March 1881);

1881 : **P. P.** 1882/LXXI (Jaffa, May 1882);

1882 : **P. P.** 1883/LXXII (Jaffa, March 1883).

(٤) حين لاتذكر مصادر أخرى ، فان جميع المعلومات والاقوال عن التجارة في عكا وحيفا ترتكز الى التقارير السنوية التالية التي كتبها القناصل الالمان في حيفا ـ عكا .

1872 : **AGCJ,** A. XXXIX. I (Haifa, 5. 3. 1873);

1873 : **AGCJ,** A. XXXIX. 2 (Haifa, 23. 4. 1874);

1874 : AGCJ, A. XXXIX.) 2 (Haifa, 27. 1. 1875);

1875 : **AGCJ,** A. XXXIX. 2 (Acre, 24. 2. 1876);

1876 : **AGCJ,** A. XXXIX. 3 (Haifa, 25. 1. 1877);

1877 : **AGCJ,** A. XXXIX. 3 (Haifa, 19. 1. 1878);

1878 : **AGCJ,** A. XXXIX. 4 (Haifa, 20. 1. 1879);

1879 : **AGCJ,** A. XXXIX. 4 (Haifa, 10. 1. 1880);

1880 : **AGCJ,** A. XXXIX. 4 (Haifa, 7. 1. 1881);

وبالنسبة لعام ١٨٥٦ ارجع الى :

P.P. 1857/Sess.2/XXXVIII (Jerusalem, 31. 12. 1856);

(٥) هناك وصف مفصل لمشاركة عائلة ذات نفوذ في « جبال نابلس » في ازدهار التصدير هذا عن طريق استثمار رأس مال في تجارة الحبوب خلال الاعوام ١٨٥٣ ـ ١٨٥٨ في :

Ya'akov Firestone : « Production and Trade in an Islamic Context : Sharika Cantracts in the Fransitional Economy of Northern Samaria, 1853 — 1943 (I) », **International Journal of Middle East Studies,** 6 (1975), PP. 191 — 195.

(٦) بالنسبة لتطور زراعة القطن في شمال فلسطين ارجع قبل كل شيء الى :

PRO, F. O. 78/1584 (Caiffa, 20. 11. 1857);

PRO, F. O. 195/771 (Caiffa, 24. 7. 1863);

P.P. 1872/LVIII (Beyrout, March 1872).

(٧) جرى حساب الكمية استنادا الى . **P.P.** 1872/LVIII (Beyrout, March 1872);

(٨) **AGCJ,** A. XXXIX. 1 (Haifa, 5. 3. 1873);

(٩) **P.P.** 1878/LXXIII (Beyrout, 16. 8. 1877);

(١٠) بالنسبة لهذا التطور ارجع الى :

P.P. 1857/Sess. 2/XXXVIII (Beyrout, 21. 5. 1857);

PRO, F. O. 78/1296 (Jaffa, 22. 12. 1857);

PRO, F. O. 78/1384 (Jerusalem, 28. 1. 1858);

PRO, F. O. 78/1537 (Jaffa, 6. 6. 1860);

PRO, F. O. 78/1605 (Jerusalem, 26. 9. 1861);

P.P. 1863/LXX (Jaffa, 27. 1. 1863).

PRO, F. O. 78/1775 (Jerusalem, 26. 8. 1863);

P.P. 1864/LXI (Jaffa, May 1864);

PRO, F. O. 78/1834 (Jaffa, 15. 3. , 15. 4. , 7. 6. , and 7. 11. 1864);

PRO, F. O. 78/1874 (Jaffa, 13. 6. 1865);

PRO, F. O. 78/1929 (Jerusalem, 11. 6. 1866);

(١١) قـارن مـع : **P.P.** 1865/LIII (Jerusalem, March 1865);

P.P. 1866/LXX (Jerusalem, March 1866);

P.P. 1867/LXVII (Jerusalem, 16. 1. 1867);

P.P. 1867 - 8 /LXVIII (Jerusalem, January 1868);

P.P. 1872 / LVIII 5 Jerusalem, 25. 4. 1872);

P.P. 1874/LXVI (Jerusalem, 12. 9. 1873);

P.P. 1874/LXVII (Jerusalem, February 1874);

(١٢)

PRO, F. O. 78/1537 5 Jaffa, 31. 12. 1860);

PRO, F. O. 78/1874 (Jaffa, 13. 6. 1865);

PRO, F. O. 78/1929 (Jerusalem, 11. 6. 1866);

(١٣) بالنسبة الى اتساع مزارع الزيتون ارجع الى :

P.P. 1853/LXX (Jaffa, 27. 1. 1863) and P. P. 1872/LVIII (Beyrout, March 1872);

وبالنسبة لمزارع البرتقال انظر ادناه .

(١٤) **P.P.** 1874/LXVII (Jerusalem, February 1874);

(١٥) P.P. 1881/XC (Beyrout, 19. 3. 1881);

(١٦) **P.P.** 1882/LXXI (Jaffa, May 1882)

(١٧) **PRO,** F. O. 78/1294 (Jerusalem, I. I. 1857);

(١٨) PRO, F. O. 78/1383 (Jerusalem, 9. 10. 1858);

(١٩) **PRO,** F. O. 78/1834 (Jaffa, 15. 3. 1864);

(٢٠) **P.P.** 1881/XC (Beyrout, 19. 3. 1881);

(٢١) المصادر : نفس المصادر المذكورة في الحاشية رقم (٣)

(٢٢) **MAE,** CCC, Jér. 4 (Jerusalem, 31. 7. 1879);

(٢٣) **ASA,** Archiv Jaffa, Fasz. 6 (Jaffa, 12. 1. 1877);

(٢٤) **AGCJ,** A. XXXIX. 4 (Jaffa, 31. 3. 1880);

(٢٥) **ASA,** Archiv Jaffa, Fasz, 7 (Jaffa, 20. 5. 1881);

(٢٦) **ASA,** Archiv Jaffa, Fasz. 7 (Jaffa, 15. 5. 1882)

(٢٧) **AGCJ,** A. III., Vol. I (Jaffa, 7. 3. 1883)

(٢٨) المصادر : كما في الحاشية (٣) .

(٢٩) المصادر : كما في الحاشية (٣) وحسابات قمت بها .

(٣٠) المصادر : كما في الحاشية (٤) .

(٣١) المصادر : كما في الحاشية (٤) .

(٣٢) حساباتي أنا من المصادر المذكورة في الحاشيتين (٣) و (٤) .

(٣٣) حساباتي من المصادر المذكورة في الحاشية (٣) .

(٣٤) حساب الارقام لفترة ١٨٥٦ – ١٨٦١ مـن .

PRO, F. O. 78/1221 (Jaffa, 31. 3. , 30. 9. , and 31. 12. 1856);

PRO, F. O. 78/1296 (Jaffa, 30. 9. and 31. 12. 1857);

PRO, F. O. 78/1387 (Jaffa, 31. 3. , 30. 6. , 30. 9. and 13. 12. 1858);

PRO, F. O. 78/1449 (Jaffa, 31. 3. 30. 6 , 30. 9. , and 31. 12. 1859);

PRO, F. O. 78/1537 (Jaffa, 31. 3. 1860);

PRO, F. O. 78/1605 (Jaffa, 31. 3. and 31. 12. 1861);

وجرى حساب الارقام من ١٨٦٢ – ١٨٨٢ من المصادر المذكورة في الحاشية (٣) .

(٣٥) الارقام الخاصة بيافا مأخوذة من الجدول رقم ٩ ، والخاصة بعكا وحيفا تم حسابها من المصادر المدرجة في الحاشية(٣) .

(٣٦) جرى حسابها من PRO, F. O. 195/771 (Caiffa, 24. 7. 1863);

(٣٧) نفس المصدر السابق .

(٣٨) الارقام الخاصة بعام ١٨٥٨ مأخوذة من

Titus Toblers dritte Wanderung nach Palastina in Jahre 1857, Gotha 1859, PP. 331 - 333.

والخاصة بعام ١٨٨٠ من

A. M. Luncz (ed), **Jerusalem. Jahrbuch Zur Beforderung einer Wissenschaftlich, genauen Kenntniss des jetzigen Und des atten Palastinas,** I. Jahrgang, 1881, Wien 1882, PP. 11 - 16,

وجرى تحويل الاوزان والمعايير وفقا لـ

Leonhara Bauer, **Das Palastinische Arabisch,** Leipzig 4 1926, P. 256

(١ أقة = ١٫٢٨ كغ ، ١ رطل = ٢٫٨٨ كغ، ١ ثمنية ٢٫٢٥ ليتر ، ١كيلة = ٣٦ليتر).

(٣٩) المصادر : كما في الحاشية(٣) .

المجتمع الشامي في العصر العثماني

بين العصور الوسطى والحديثة

للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور
(جامعة الكويت)

هناك كثير من المفاهيم التاريخية ، وضعها المشتغلون بالتاريخ في وقت من الاوقات وتقبلها المعلمون والمتعلمون في سهولة ويسر ، حتى غدت على مر السنين مصطلحات لها من صفات الشيوع والثبات والاستقرار والاحترام ما جعلها من الامور المسلم بها في نظر المؤرخين ، بحيث اعتبرها البعض أسمى من أن تتعرض لنقد أو نقض، وأقدس من ان يثار حولها جدل أو نقاش .

ولكن ما أحوجنا ـ نحن العاملين في حقل الدراسات التاريخية الى وقفة بين حين وآخر ، نراجع فيها أنفسنا ، ونقيم المادة التي تدخل في صناعة التاريخ ، ونعيد النظر فيما اصطلح عليه السابقون من المجتهدين ، ونخضع كل ذلك لفحص دقيق ، محاولين استئناف الحكم في كافة الجوانب السابقة اما لها واما عليها ، في ضوء نظرة جديدة الى التاريخ ، ربما لم يتوصل اليها السابقون ، أو ربما حجبت حوادث الايام والدهور رؤياهم عنها . واذا كانت آراء المؤرخين قد اختلفت وتباينت حول بعض حوادث التاريخ الثابتة ، ودارت المناقشات والمساجلات بينهم حول تقييمها ، بسبب وجود عنصر غائب ـ دائما أبدا ـ في التاريخ ، يجعل تقييم المؤرخ للعواطف والنزعات والميول وماتخفى الصدور موضعا لظن أو حدس ، فما بالنا بالافتراضات والتصورات التي وضعها المشتغلون بالتاريخ لضبط عملية التاريخ نفسها . وهل مطلوب من العاملين في حقل الدراسات التاريخية أن يضعوا هذه الافتراضات موضع القبول والتقديس الى يوم يبعثون ، تمسكا منهم بسنن الاولين ، أم أن علينا اعادة النظر فيها ـ لامجرد رغبة في تبديل أو حرص على تغيير ـ وانما لنناقشها من حيث صحتها ودقتها ، ومدى مسايرتها لمنطق التاريخ وواقعه ؟.

وما دام الهدف الاول لاي مؤتمر من المؤتمرات العلمية هو القاء اضواء جديدة على الموضوع الذي اتخذه المؤتمر محورا لنشاطه ، فاننا نأمل أن تكون نقطة البدء في مؤتمرنا هذا ـ الخاص ببلاد الشام في العصور

الحديثة ـ هي تحديد البداية الواقعية السليمة للعصور الحديثة في بلاد الشام ، وهل هذه البداية هي أوائل القرن السادس عشر فعلا ـ أو على حد الدقة سنة ١٥١٦ ـ مثلما اصطلح كتاب التاريخ ومثلما اتخذ هذا المؤتمر شعارا له ، أم أن هذه المرحلة أو السنة لاتصلح لان تشكل بداية طبيعية للعصور الحديثة بالنسبة لتاريخ بلاد الشام ؟ واذا كان الامر كذلك فما القيمة الحقيقية لهذه السنة بالنسبة لتاريخ بلاد الشام مادمنا بصدد تقييم هذا التاريخ في محاولة لالقاء بعض أضواء جديدة على جوانبه؟

من المعروف أن تقسيم التاريخ الى عصور قديمة ووسطى وحديثةأمر طبيعي أملته اعتبارات حضارية ـ معنوية ومادية ـ ولم يعدموضعا لجدل من ناحية المبدأ ذلك أن كل حقبة من هذه الحقب الثلاث لها خصائص حضارية معينة ، وسمات معنوية ومادية‌مميزة، تميزها عما قبلها وبعدها. ولعل أبرز هذه الخصائص والسمات هي نظرة المعاصرين أنفسهم الى الحياة وأسلوبهم في علاج مشاكلها ، وكيفية مواجهتهم لحقائقها ، ويرتبط بهذا كله الوضع الاجتماعي الذي يرتضيه الناس لانفسهم في هذا العصر أو ذاك ، ويكيفون حياتهم وفقه ، وينسجون على مر السنين مجموعة من العادات والتقاليد يتحركون داخل اطارها وتتفق روح العصر الذي يعيشونه . ونخرج من هذا بحقيقة ، هي ان البشر أطلوا على الحياة في العصور الوسطى من زاوية غير الزاوية التي أطلوا منها عليها في العصور القديمة ، وأننا في العصور الحديثة ننظر الى الحياة من نافذة ثالثة ذات اتجاه جديد يختلف اختلافا جوهريا عن الاتجاه الذي نظر منه الناس في العصور القديمة أو الوسطى الى الحياة .

ومن ناحية اخرى ، فان التحول من عصر الى آخر من عصورالتاريخ لايمكن أن يتم في مدى ليلة وعشاها ، أو في مدى عام أو بضع عام ، أو حتى في مدى قرن أو بضعة قرون . ولايمكن أن نتصور النقلة من عصور الى أخرى وقد ارتبطت بدوال دولة وقيام غيرها ، أو بقيام حاكم ونظام حكم بدل حاكم ثان ونظام حكم آخر ، أو بحدوث انقلاب سياسي ناجم عن ثورة أو غزوة أو نحوها. ان الفوارق بين عصور وأخرى لاترتبط بتغيير الاوضاع السياسية بقدر ماهي رهينة بتبدل الاوضاع الفكرية والاجتماعية ، وما يصحبها من قيم وتقاليد وعادات وتباين في نظرة الناس انفسهم الى الحياة ... وهذه أشياء راسخة تمتد جذورها عميقا في المجتمع ، ولايمكن أن تتبدل بنفس السرعة والسهولة اللتين قد تتبدل بهما الاوضاع

السياسية . فمن الممكن أن تنقلب الاوضاع السياسية في منطقة بأكملها خلال بضع ساعات ، ولكن ليس من المستطاع تغيير الاوضاع الاجتماعية بما يرتبط بها من عادات وتقاليد راسخة ، وأسلوب معين في التفكير ، وفلسفة محدودة يقيم بها الناس الحياة وظواهرها ومشاكلها ... ليس من المستطاع أن يتم ذلك التغيير في مدى جيل ، وربما عدة أجيال ، تتعاقب على امتداد بضعة قرون .

وفي ضوء هذه الحقيقة يبدو لنا أن التحول من عصور الى أخرى يتطلب مرحلة انتقال طويلة تعيشها بضعة أجيال متعاقبة ، وتستنفد عدة قرون قد تكون ليست بالقليلة . وفي مرحلة الانتقال هذه يستطيع المؤرخ أن يتتبع معالم العصور الجديدة وهي تزحف في بطء شديد وصعوبة بالغة ومشقة ملحوظة، لتشق لنفسهاطريقاوسط القديم المألوف. ذلك أنه ليس أصعب على فرد أو مجتمع من أن يتخلى عن تراثه الاجتماعي ، ويستبدل نظرته الى الحياة بنظرة أخرى تبدو غريبة مغايرة للقديم المعتاد . وهكذا تشهد مرحلة الانتقال من عصور الى أخرى اجتماع القديم المألوف مع الجديد المستغرب . وفي البداية يكون تيار الجديد ضعيفا غير واضح ، ولكنه يزداد قوة ووضوحا على مر السنين والاجيال . وفي مرحلة من المراحل تبدو الكفتان متعادلتين، وعندئذ يشتد الصراع بين القديم والجديد وكأنه صراع بين ندين متكافئين : القديم تمثله أجيال وأوضاع أكثر ارتباطا بالماضي ، وأشد رغبة في المحافظة عليه ، والجديد تمثله أجيال صاعدة تتلمس أسلوبا آخر للحياة تجد فيه نوعا من التغيير ، وربما قدرا من التحرر من الاوضاع السائدة . ومازال الجديد يزحف الى الامام والقديم يتراجع الى الخلف ، فتتسع دائرة انتشار الاول شيئا فشيئا ، وتضيق دائرة الثاني عاما بعد آخر، حتى يصل الى مرحلةتبدو فيها الغلبة للجديد، وعندئذ نستطيع ان نقرر أن التحولمنعصور الى أخرى قد أخذ يتم فعلا.

وهكذا نستطيع أن نقرر أنه ليس من الواقع في شيء اتخاذ سنة بعينها لتكون بداية لعصور جديدة بالنسبة لكافة بلاد العالم ، لان المؤرخين عندما اختاروا سنة لها أهميتها في مراحل الانتقال من عصور الى أخرى انما كانوا يفكرون بوجهة نظر محدودة . فسنة ٤٧٦ اختيرت بداية للعصور الوسطى في غرب أوربا نظرا لما حدثفي تلكالسنةمن سقوط الامبراطورية الرومانية في الغرب . ولكن من حقنا أن نتساءل عن أهمية سنة ٤٧٦ بالنسبة لتاريخ بلاد الشام على سبيل المثال ، وهل تغير وضع المجتمع الشامي بعد سنة

٤٧٦ عما كان عليه قبلها ؟ هنا يبحث المؤرخون عن نقطة ارتكاز سليمة يتخذونها بداية لتاريخ بلاد الشام في العصور الوسطى فلايجدون الا الفتح الاسلامي في القرن السابع وماترتب عليه من تغيير في وضع المجتمع وعقلية الناس ، وفلسفة الحياة والموت ... في ظل ديانة سماوية جديدة لها مثلها وآفاقها ونظراتها الجديدة الى الحياة وأسلوبها في تنظيم المجتمع وعلاقة أفراده بعضهم ببعض ... وفضلا عما صحب انتشار هذه الديانة السماوية من تعريب عم البلاد والعباد ، مما أدى الى تغيير صورة ذلك المجتمع تدريجيا ، وخرج به فعلا من دائرة العصور القديمة .

وفي ضوء هذهالحقيقة لناأن نتساءل: اذا جاز لنا أننتخذسنة٦٣٤م بداية رمزية لتاريخ بلاد الشام في العصور الوسطى ، بوصفها السنة التي فتح فيها العرب المسلمون دمشق ـ قلب بلاد الشام وقاعدتها العتيدة ـ فما هي السنة التي تصلح لأن نتخذها بداية حقيقية لتاريخ بلاد الشام في العصور الحديثة ؟ هل تصلح سنة ١٥١٦ لتكون علامة مميزة ـ ولاأقول حدا فاصلا ـ بين تاريخ بلاد الشام في العصور الوسطى وتاريخها في العصور الحديثة ؟

واذا كانت السمة المميزة لكل حقبة من الحقب الثلاث ـ القديمة والوسطى والحديثة ـ تكمن كما سبق أن أشرنا في فلسفة الناس للحياة ، ونظرتهم اليها ، وفي الطريقة التي يعيشون وفقها ، والاسلوب الذي ينهجونه في علاج مشاكلهم الخاصة والعامة ... فاننا نلاحظ أن أهم ماتوصف به العصور الوسطى هو أنها عصور ايمان ، بمعنى أن القوة الكبرى التي هيمنت على فكر الناس وحياتهم الخاصة والعامة ، كانت قوة الدين ورجاله ، سواء في ظل المسيحية أو تحت مظلة الاسلام . وبالنسبة لبلاد الشام بالذات ، حسبها أن اجتمعت بين رحابها الاديان السماوية الثلاث ، وتناثر بين أرجائها كثير من الاماكن المقدسة عند المسلمين والمسيحيين سواء ، مما جعلها محط أنظار أهل الديانتين ، فضلا عن أنها شهدت في العصورالوسطى ـ ولمدة قرنين من الزمان ـ أكبر لقاء فكري وحضاري وحربي وسياسي بين المسلمين والمسيحيين في شكل الحركة الصليبية . على أن الوجود الصليبي في بلاد الشام بين نهاية القرن الحادي عشر ونهاية القرن الثالث عشر للميلاد لم يكن ليغير شيئا ذا بال من أوضاع البلاد الحضارية ، حيث أن الصليبيين الغزاة الذين وفدوا من الغرب كانوا أحط في مستواهم الحضاري بكثير عن أهل البلاد الاصليين وغالبيتهم من المسلمين ـ مما جعلهم يأخذون الكثير ولايعطون الا النادر القليل .

وهكذا ظل اهل الشام ـ بعد طرد الصليبيين في أواخر القرن الثالث عشر للميلاد ـ يحيون نفس حياتهم الي ألفوها قبل وصول الصليبيين في اواخر القرن الحادي عشر ، من حيث أوضاعهم الاجتماعية ومستواهم الفكري ، وتعدد طوائفهم الدينية والمذهبية التي اتخذت من طبيعة البلاد الممزقة جغرافيا ملاجىء وأوكارا تقوقعت فيها لتحتفظ داخلها بعصبيتها وتحمي شخصيتها من الذوبان . وربما تغير وضع البلاد السياسي بانتقالها من تبعية دولة الى تبعية دولة اخرى أو بسقوط حاكم وقيام حاكم آخر ... ولكن هذا وذاك من التغييرات السياسية لم يؤد الى تغيير ذي بال في حياة الناس واسلوب تفكيرهم ونهج معيشتهم طوال العصور الوسطى ، وحتى الغزو العثماني لبلاد الشام سنة ١٥١٦ . فماذا جدّ بعد هذه السنة ؟ وهل ترتبت على ذلك الغزو تغييرات جذرية ألمت بالمجتمع الشامي وبحياة أهله ، وبدلت من فكرهم وأساليبهم المعيشة وفلسفتهم للحياة ونظرتهم اليها ، بحيث تحقق مايمكن أن نعتبره نقلة من العصور الوسطى الى العصور الحديثة ؟ .

الواقع أنه اذا كان البعض قد أضفى على هذه السنة أهمية خاصة ، لأنها شهدت سقوط حكم سلاطين المماليك ، واعتبر ذلك ايذانا بدخول بلاد الشام دورا جديدا من أدوار تاريخها بخضوعها لفئة جديدة من الحكام لايتكلمون العربية وينتمون الى عنصر غير عربي ... فان المماليك الذين حكموا البلاد قبلهم طوال قرنين ونصف من الزمان لم يكونوا عربا ، ولم يتكلموا العربية ، بل كانوا من ناحيتي الجنس والاصل أقرب الى العنصر التركي، حتى أطلق على دولتهم الاولى اسم دولة الاتراك . فاذا كان الامر رهينا بقيام حكم مكان آخر ، ومرتبطا بلسان الحكام، فلماذا لم نتخذ سنة ١٢٦٠ ـ وهي السنة التي امتد فيها نفوذ سلطنة المماليك على بلاد الشام بعد موقعة عين جالوت ـ ليحل محل نفوذ ملوك بني أيوب ـ بداية لمرحلة جديدة في تاريخ بلاد الشام ، في الوقت الذي حرصنا على اتخاذ سنة ١٥١٦ ـ التي فرض فيها العثمانيون سيطرتهم على البلاد بداية لمرحلة جديدة ؟

ثم ان الذين اتخذوا سنة ١٥١٦ بداية لتاريخ الشام الحديث نسوا ـ أو تناسوا ـ أن بني عثمان انفسهم يمثلون قوة من قوى العصور الوسطى ، أفرزتهم تلك العصور ، وعاشوا دائما بعقليتها وفكرها داخل اطارها . ولايكفي أن يكون العثمانيون مسلمين ، اذ علينا أن نذكر أنهم

دخلوا الاسلام في وقت متأخر ، ولم تتأصل فيهم حضارته وقيمه عندما شرعوا في حركتهم التوسعية ، الامر الذي انعكست صورته في أخلاقهم الجافة وسلوكهم الفظ الذي عرفوا به ، والذي يتنافى في كثير من جوانبه مع آداب الاسلام وتعاليمه ، حتى أن المؤرخ ابن اياس وصف السلطان سليم في ترجمته له بقوله ان « ابن عثمان ليس له صاحب ولا صديق ولا أمان منه لأحد من وزرائه ولا من عسكره ، ومن طبعه الرهج (الغدر) والخفة، ويحب سفك الدماء ولو كان لولده . . . ؟ » ، ولما كانت اللغة التركية لغة قوم رعاة ليس لهم حظ من الحضارة ، ولم تستخدم في تدوين أدب أو انتاج فكري ، فان العثمانيين لجأوا عقب دخولهم في الاسلام الى تشرب العديد من الالفاظ والمصطلحات والتعابير العربية مع بعض الفارسية — ومازالت لغة الاتراك — رغم الانقلاب الذي قام به مصطفى كمال سنة ١٩٢٨ باستخدام الابجدية اللاتينية — مليئة حتى اليوم بعديد الالفاظ العربية . ويقال ان السلطان سليم نفسه أدرك أن لغة العرب — بثرائها — أقدر على خدمة مصالح الدولة من اللغة التركية القاصرة ، فأخذ يفكر — بعد فتح الشام ومصر — في جعل العربية لغة دولته الرسمية ، لولا وفاته التي حالت دون تنفيذ فكرته .

ثم ان العثمانيين ظلوا طوال تاريخهم — حتى أيام مصطفى كمال — حريصين كل الحرص على الوقوف موقفا مضادا جامدا من تيار النهضة العربية الحديثة الذي اخذ يقوى تدريجيا في العالم الغربي . ورغم كل محاولات الاصلاح والتجديد التي ظهرت في صورة انتفاضات في جسم الدولة العثمانية على مدى بضعة قرون حتى أوائل القرن العشرين —، فان المؤرخ المنصف لايسعه أن يصف هذه الدولة بأنها ظلت حتى الحرب العالمية الاولى تعيش في واقع العصور الوسطى وتفكر بعقلية تلك العصور ، وتقيم واقعها ومستقبلها بهذه العقلية وحدها . وبوحي من هذا الاتجاه ، فرضت على نفسها — وعلى الولايات التابعة لها — سياجا منيعا حال دون تأثرها بتيار النهضة الحديثة .

ومهما يبالغ في أهمية الدور الذي لعبه بعض أمراء الشام المحليين في العصر العثماني ، ومحاولة اتخاذ هذا الدور مدخلا لتاريخ بلاد الشام الحديث فان دراسة واقعية أمينة بعيدة عن العصبية الطائفية المستترة خلف مسحة قومية ، تجعلنا نقرر عدم سلامة هذا الاتجاه . ومن هؤلاء الامراء على سبيل المثال الامير فخر الدين في أوائل القرن السابع

عشر ، الذي لايعدو في نظرنا أن يكون دوره محلي الطابع ، محدود الهدف، طائفي النزعة ... كان اتصاله بالغرب الاوربي أساسا بهدف استدرار عطف الغرب المسيحي ضد الدولة العثمانية ، ومساعدته في أطماعه الشخصية ، وتأييده في تحقيق أطماعه للانسلاخ عنها ، ومن أجل هذا بدا غير ثابت العقيدة ، وفتح أبواب ماتحت يده من بلاد أمام البعثات التبشيرية ، حتى أقام بعضها مراكز له في بيروت وطرابلس ، وغيرهما. ولكن نشاط هذه البعثات أو الارساليات لم يستهدف النهوض ببلاد الشام واخراجها من دائرة العصور الوسطى ، بقدر ماستهدف أهدافا دينية مذهبية ضيقة الافق . واذا قيل أن الامير فخر الدين استقدم مهندسين من ايطاليا ، فانه استخدمهم أساسا في مشاريعه الخاصة ، كبناء حصون وقلاع يحتمي فيها من خطر الدولة العثمانية ، وبناء قصور لنفسه ، واصلاح مزارعه ، وغرس حدائقه . وفيما عدا الاجزاء التي ثبت فيها فخر الدين نفوذه ، ظلت الحياة في بقية بلاد الشام تسير على ماهي عليه ، بحيث أننا لانستطيع اعتبار عصر الامير فخر الدين بداية عصر تحول شامل في تاريخ بلاد الشام ، حتى اذا ماتم القضاء عليه سنة ١٦٣٥ ، عادت الامور الى ماكانت عليه ، بل ازدادت أوضاع الجزء الغربي من بلاد الشام ــ المعروف باسم لبنان ــ سوءا فوق سوء .

واذا كان من الفوارق بين العصور الوسطى والعصور الحديثة أن الأولى استظلت بمظلة الايمان ، واعتبرت الدين الرابطة الاولى والاساسية في المجتمع ، بينما أخذت الثانية بمبدأ القوميات ونحت نحوا علمانيا في سياسة الدول ... فان الدولة العثمانية ربطت نفسهامنذ دخلت جيوشها الارض العربية بفكرة الخلافة ، وتمسحت بالعقيدة لتتخذ منها رباطا تربط به بين العرب والاتراك دون أن تعطي بالا أو أهمية لشعور القومية .

واذا كان من الفوارق بين العصورالوسطى والحديثة أن الاولى لم تحترم حرية الفرد ، في حين حطمت العصور الحديثة هذا الحاجز ، وفتحت أمام الفرد أبواب الحرية الشخصية ليظهر ذاته ويعبر عن مواهبه على أوسع نطاق ... فاننا نرجع الى تاريخ الشام بعد سنة ١٥١٦ ، فنجد المجتمع الشامي يعيش في نفس الاوضاع التي عرفت قبل هذه السنة ، من حيث انكماش شخصية الفرد وذوبانها في بوتقة الجماعة .

واذا كان من الفروق بين العصور الوسطى والحديثة أن الاولى اتصفت بطابع المحافظة والرغبة عن التجديد ، والحرص على التمسك

بالاوضاع الفكرية والمعيشية الموروثة عن السلف ، في حين تعبر العصور الحديثة عن انفتاح على الحياة ، ورغبة في الاستمتاع بمباهجها ، ونزعة نحو تحطيم كافة القيود التي تكبل حرية الناس وفكرهم ، واتجاه نحو اطلاق العنان للتجديد في كل شيء ... فان الدولة العثمانية حرصت على رفض كل ماهو جديد والتمسك بكل ماهو عتيق ، وفرضت ستارا حديديا على حدودها وولاياتها ، حال دون تسرب المؤثرات الحديثة اليها .

وهكذا يبدو الفارق واضحا بين سنتي ٦٤٣م ، ١٥١٦ ، فاذا صح ان نتخذ الاولى بداية فعلية لتغيير جذري مسّ المجتمع الشامي في العقيدة واللسان ، وما ارتبط بهذا وذاك من ظهور فلسفة جديدة للحياة ، وتحول في نظرة الناس الى الحياة ، وتبدل في أسلوب تفكيرهم ومعيشتهم .. فان سنة ١٥١٦ ليس لها حظ من هذه الاعتبارات ، وانما ظل المجتمع الشامي يعيش بعد هذه السنة طوال عدة قرون مثلما عاش قبلها ـ فكريا وعقائديا واجتماعيا ـ وكل مافي الامر هو ماحدث من تغيير في الوضع السياسي للبلاد ، فحل حكام يتكلمون التركية مركزهم اسطنبول محل حكام آخرين يتكلمون التركية ، ولكن مركزهم كان في القاهرة .

ومادام الفارق بين عصر وآخر يتضح أساسا في مستوى الناس الفكري ، وفي نظرتهم الى الحياة وأسلوبهم في علاج مشاكلها ، فان جولة سريعة بين مصادر تاريخ الشام قبل الغزو العثماني وبعده توضح لنا أن المجتمع الشامي عاش فكريا واجتماعيا في ظل الحكم العثماني في نفس المستوى الذي كان عليه قبل الغزو العثماني للبلاد سنة ١٥١٦ .

من ذلك أن مصادر تاريخ العصور الوسطى تفيض بالاشارات التي تدل على بساطة تفكير الناس وسهولة تقبلهم للخرافات ، وتناقلهم لما يحسبونه ظواهر هي من علامات الساعة : فهذه امرأة ولدت طفلا له رأس حيوان ، وهذه نبوءة بأن الساعة قد أزفت أو أوشكت ، وهذه السماء انشقت ذات ليلة وهبط منها جسم غريب ، أو هذا نجم شوهد يجري بذنب طويل في السماء ... ويربطون بين هذه الظواهر وبين كثير من التنبؤات ...(١) فاذا انتقلنا الى العصر العثماني ، وجدنا نفس المستوى من التفكير والعقلية سائدا حتى القرن الثامن عشر ، بل التاسع عشر . ويشير البديري أكثر من مرة الى أن السماء انشقت ذات ليلة « ونزل منها آفة عظيمة »(٢) ، أو الى طلوع نجم له ذنب « واستمر الى

ما بعد العشاء »(٣) أو الى كسوف الشمس وما صحب ذلك الكسوف من ظهور بعض كرامات أولياء الله الصالحين(٤) .

واذا كان العرف قد جرى في مجتمع العصور الوسطى بالاهتمام المفرط بتختين الولد ، فاذا كان المختن ابن الحاكم أقيم احتفال ضخم يستمر بضعة أيام ، يعم الفرح طوالها المدينة بأكملها ، ويشارك الاهالي بالزينة والمواكب ، ويختن أولاد الفقراء بالجملة مجانا بعد ختان ابن الحاكم ، حتى تعيش البلدة بضعة أيام وكأنها في مهرجان ختان ..(٥) فان البديري يروي قرابة منتصف القرن الثامن عشر للميلاد كيف احتفل في سنة ١١٥٦ هـ (١٧٤٣م) بختان ابن والي دمشق ـ سليمان باشاالعظم ـ فأقيم حفل كبير استمر سبعة أيام ، جمع فيه سائر الملاعب وأرباب الغناء ، وزينت الاسواق كلها بالشموع والقناديل ، وختن أولاد الفقراء وغيرهم ممن أراد مجانا ... أما على المستوى الشعبي ، فقد جرى العرف في العصور الوسطى عند عامة الناس بأن يحتفلوا بالختان احتفالا كبيرا يدعون اليه سائر الأهل والاحباب والاصدقاء ، ولابد للمدعويين في هذه المناسبة من تقديم النقوط لاهل الطفل ..(٦) فان نفس هذه الاوضاع والعادات ظلت سائدة في العصر العثماني في المجتمع الشامي ، فكان يقام حفل كبير للختان ، ويقدم الأهل والاصدقاء الى صاحب الحفل النقوط من المال والسمن والأرز والغنم والقهوة(٧) . وربما كانت القهوة هي الاضافة التي استجدت في ذلك العصر .

والمعروف أن مجتمع العصور الوسطى نظر دائما الى الفلاحين نظرة احتقار حتى ان ابن خلدون اعتبر الفلاحة « معاش المستضعفين » ويختص أهلها بالذلة »(٨) . ومن يتأمل المجتمع الشامي في العصر العثماني يجده ينظر الى الفلاحين نفس النظرة ، حتى انه عندما ورد ذكر طبقات هذا المجتمع وفئاته ، ورد ذكر الفلاحين في الذيل ، ولايليهم في المجتمع سوى « المغاني والموسمات »(٩) .

واذا كنا نسمع في مجتمع العصور الوسطى عن مكانة الطواشية والخصيان في القصور ونفوذهم في الدولة ، فان الامر استمر على ماهو عليه في المجتمع الشامي بعد الغزو العثماني في القرن السادس عشر للميلاد، عندما نقرأ في مصادر ذلك العصر عن مكانة المرد والطواشية والخصيان ـ وربما استبدل اللفظ بالأغوات ومفرده آغا ـ فكانت لهم حرمة وافرة سواء داخل القصور أو في صفوف الانكشارية أو في مجتمع المدينة(١٠) .

ومن يتأمل المجتمع الشامي في العصور الوسطى يجده يتصف بالتمزق الطائفي الذي ساعدت عليه طبيعة البلاد ببقاعها وجبالها وسهولها . ولو كان هذا المجتمع قد أخذ فعلا ينتقل الى دائرة العصور الحديثة بعد الغزو العثماني ، لرأينا هذه النعرة الطائفية تخف حدتها بعض الشيء في ظل ما تتصف به العصور الحديثة من مسحة قومية كفيلة بأن تذيب في بوتقتها الخلافات المذهبية . ولكننا نلقي نظرة على المجتمع الشامي في ظل الحكم العثماني حتى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، فنجد الخصومات والمصادمات الطائفية وقد ازدادت حدة ــ وخاصة بين الدروز والمتاولة ــ أو بين الموارنة وغيرهم من طوائف المسلمين ، وفي جميع الحالات كانت بلاد هذا الطرف أو ذاك تتعرض للنهب والتخريب والحرق ، فضلا عن قتل الأبرياء وسفك دمائهم . من ذلك ــ على سبيل المثال لا الحصر ــ ماجاء في حوادث سنة ١٧٥٩م (١١٧٣هـ) من أنه « هاجت المعادات بين طوائف جبل لبنان ، وثارت بسبب ذلك الحروب فيما بينهم ، حتى هرق بذلك كثير من الدماء ، وخربت أكثر القرى(١١) .

وثمة ظاهرة نلاحظها على مجتمع العصور الوسطى ، هي مدى النشاط الواسع الهدام الذي قام به البدو والاعراب ــ وهم الذين أطلق عليهم تجاوزا وخطئا في المصادر المعاصرة اسم العرب ــ وكيف أنهم هددوا الفلاحين ، واغاروا على المدن ، وقطعوا الطريق على القوافل ، حتى قوافل الحجاج لم تسلم من عبثهم وشرهم . وكثيرا مانسمع في مصادر التاريخ العصور الوسطى أن الأعراب كبسوا قافلة الحاج في طريقها الى الحجاز ــ أو عند عودتها ــ فقتلوا الحجيج وسلبوهم أموالهم ومتاعهم ، وجردوهم حتى من ثيابهم ، وعاد من قدر لهم النجاة عراة في أسوأ حال(١٢) . ونفس هذا الوضع ظل قائما في العصر العثماني ، حيث بقي الأعراب يمثلون فئة من « الخوارج » على سلطان الدولة ، يهددون أهل الحضر ، يغيرون على المدن الآمنة فضلا عن القوافل وخاصة قافلة الحجيج . وقد ذكر كل من المحبي والمرادي أكثر من اشارة الى عدوان الأعراب وأهل البادية على الحجاج ، دون أن تقوى الدولة على ردعهم ، فخصصت رواتب ومقررات ثابتة لعنزة وبني صخر لتقوم هاتان القبيلتان بتسفير الحاج وضمان سلامته . ومع ذلك لم يسلم الحجاج ، اذ « أطالت عنزة وبنو صخر أيديهما على الحجاج ... وحوادث البادية تتكرر في العقد الواحد مرة أو مرارا ...(١٣) » ويردد الحلبي في حوادث سنة ١٠٥٤هـ « وكان في ذلك

الحين رئيس العربان الامير عساف يعبث في الارض فسادا ، ويتسلط هو وعربانه على القرى بالسلب والنهب، وكان قمع ثائرته من الامور المتعسرة على الدولة ...»(١٤) وفي حوادث سنة ١١٥٦هـ يروى البديري كيف اخذ « العرب » القافلة التي سافرت من دمشق الى بغداد وبها هدية ثمينة ، كان والي الشام قد أرسلها الى والي بغداد وكيف أن زعيم هؤلاء «العرب» الذي لقب بالخارجي ــ حاصر بعض المدن الكبرى ثم يعود البديري في حوادث سنة ١١٧١ هـ ــ اي في القرن الثامن عشر للميلاد ــ فيروى أنه « جاء خبر الى الشام بأن الحج قد شلحه (العرب) ونهبوه ، (والعرب) سلبت النساء والرجال أموالهم وحوائجهم ، فضجت العالم ، وتباكت الخلق وأظلت الشام ... »(١٥) واستمر دور البدو والاعراب التخريبي في بلاد الشام طوال العصر العثماني حتى بداية القرن التاسع عشر ؛ فنسمع في حوادث الصدام بين عبدالله باشا والجزار في حماه سنة ١٨٠٣م أن الهزيمة حلت بجند الجزار ولم يخلص من عسكره الا القليل ، والذين سلموا هربوا فشلحوهم العرب . كما نسمع عن منطقة غزة أنها تعرضت لاغارات (عرب) الهنادى سنة ١٨٠٩م ، وعندما تعرض لهم متسلم غزة محمد آغا « ظفرت (العرب) وهزموا عساكره ، وفر هاربا ... »(١٦) .

واذا كان المجتمع الشامي قد ضج في عصر المماليك ــ وخاصة في القرن الخامس عشر للميلاد ــ من عبث المماليك بسبب انفلات أمرهم ، وانحلال وضعهم، وتعرضهم للاهالي بالقتل والنهب والسلب، فان الوضع ظل على ماهو عليه لمدة عدة قرون بعد الغزو العثماني للشام سنة ١٥١٦م، وكل مافي الامر هو أن الانكشارية حلت محل المماليك كقوة تمثل الفساد في المجتمع . ويروي البديري في حوادث سنة ١١٥٥هـ (١٧٤٢م) كيف أن سليمان باشا العظم والي الشام أمر « بالتفتيش على المفسدين » في دمشق من الانكشارية ، وطلب رؤساء الميدان ــ وهم الأغاوات ــ للحضور فأبوا وارسلوا له يسألونه مايريد»(١٧) وما أشبه ذلك الوضع بالبارحة عندما انحل أمر المماليك ، وكان السلطان ــ أو والي الشام ــ يستدعيهم فيتمنعون ويأمرهم فيعصون وينهاهم فلا يمتثلون .

ومن الظواهر الواضحة في عصر سلاطين المماليك ، تعرض الحياة الاقتصادية لهزات عنيفة ، من أسبابها جنوح السلاطين والولاة الى فرض ضرائب غير شرعية على التجار بين حين وآخر(١٨) ، وربما لجأ السلطان الى مصادرة نصف أموال التجار أو ثلثها ــ مثلما حدث سنة ٨٠٣هـ(١٩) ، أو

يفرض عليهم مبلغا معينا يتعاونون في جمعه ودفعه ، مثلما حدث سنة ٨٩٢ هـ(٢٠) ... الى غير ذلك من الاجراءات التعسفية التي انكمشت مع زحف العصور الحديثة وما ظهر فيها من قواعد وقوانين ترتبط بالتمثيل السياسي ، والحقوق والواجبات وسن التشريعات لحماية أموال الناس والتجار من جشع الحكام ، ولكن نظرة نلقيها على الاوضاع الاقتصادية في بلاد الشام في ظل الحكم العثماني تثبت أن المجتمع الشامي استمر يعاني من نفس الامراض الاقتصادية التي عرفها قبل الغزو العثماني للبلاد سنة ١٥١٦ . من ذلك أن دارفيو قنصل فرنسا في حلب ـ يحكي كيف كانت تفرض الاموال بطريقة تعسفية ـ في أواخر القرن السابع عشر للميلاد ـ على التجار وأصحاب الحرف وفي هذه الحالة يقوم شيخ الطائفة أو أهل الحرفة بتقسيم المبلغ الواجب دفعه على أفراد طائفته وتحصيله منهم وتسليمه للحكومة(٢١) . كذلك جاء في حوادث سنة ١٠٥٧هـ أن أحمد باشا الدباغ والي حلب « طرح على التجار ضرائب .... فاشتد الامر على الرعية في زمنه(٢٢). بل لقد وصف احد ولاة حلب العثمانيين في أوائل القرن التاسع عشر للميلاد (١٨١١م ـ ١٢٢٧) ـ وهو جبار زاده ـ جلال الدين باشا ـ بأنه كان مثلا في المصادرات ، وأنه كان يقتل من يأبى اعطاء المال (٢٣) ، حتى بلغ به الامر أنه عين اثنين يتجسسان أخبار الناس الذين تجب مصادرتهم ، فيأتي بهم ويزج بهم في السجن ، ويطوق أعناقهم بسلاسل فيها شوك ، ويطالب كل واحد بما قرر عليه « وهو جرم أو جرمان ، والجرم أربعون كيسا ، والكيس خمسمائة قرش ، فمن لم يدفع الجرم في ثلاثة أيام يخنق ويرمى تجاه باب القلعة ، وكلماخنقواواحداً أطلقوا مدفعا ، فكان يعلم عدد المخنوقين في الليلة الواحدة من عدد المدافع ! » . فهل يوصف مثل هذا المجتمع بانه تخطى حواجز العصور الوسطى الى العصور الحديثة ؟(٢٤) وهاهو سليمان باشا العظم والي الشام يموت سنة ١١٥٦ هـ (١٧٤٣ م) ، فيرسل السلطان رسولا للكشف عن ثرواته وأمواله وتحصيلها ، ولايزال هذا الرسول ـ عن طريق التهديد حينا والتعذيب أحيانا ـ حتى يستخرج المال المطلوب ، وفي سبيل ذلك « جوع النساء والرجال والبهائم والاطفال ، حتى جمع هذا المال من أصحاب العيال ، ولم يراقب الله ذا الجلال »(٢٥) .

ومن أسباب الخلل الاقتصادي الذي كانت تتعرض له الحياة الاقتصادية في العصور الوسطى ، والذي كان يبدو واضحا في اضطراب

الاسواق والارتفاع المفاجيء في الاسعار ، احتكار الحكام أصنافا معينة من المتاجر ، أو تلاعبهم وسك عملات جديدة لاتمثل قيمتها الشرائية الحقيقية(٢٦) ، فضلا عن تلاعب التجار وخزنهم البضائع وخاصة المواد التموينية كالغلال والسمن ... الامر الذي جعل المؤرخين في حوليات العصور الوسطى يحرصون بين حين وآخر على ذكر أسعار الحاجيات الاساسية ، ويعجبون من اختفائها أو ارتفاع أثمانها ، ويسألون الله اللطف بعباده .. وهذه الاوضاع لم تتغير أو تتبدل في بلاد الشام طوال العصر العثماني ، واستمر الناس يعتبرونها شيئا عاديا لاغرابة فيه ، مثلما كان أجدادهم في عصر سلاطين المماليك ينظرون اليها. ففي سنة ١٠٧٠هـ اخذ محمد باشا والي حلب « يضرب السكة المغشوشة لنفسه ، فأوجب ذلك كسادا في سوق التجارة ، وفسادا في معاملات الناس »(٢٧) . والبديري يحرص في حولياته بصورة منتظمة على ذكر أسعار الحاجيات الاساسية ، متبرما من الغلاء المفاجيء في بعض السنوات ، وهو غلاء لايوجد ما يبرره سوى اهمال الحكام ، حتى « صار البياعون يبيعون بما أرادوا » (سنة ١١٥٥هـ) . أما التسعيرة التي كان يعلنها الحكام أحيانا فكانت ضربا من الشكليات غير المطبقة من الناحية العملية « وهذا أمر التسعير لايستقيم على الخصوص في الشام » ، وذلك بسبب جشع المنتفعين ، حتى أن « الخزان ما أبقى للفقراء قمصان » . أما هؤلاء الخزان ، فقد عبر عنهم البديري عندما قال « ... والخبز لايوجد والحكام يخزنون ، وأهل البلد يفعلون كفعلهم ، والى الله المصير »(٢٨) .

واذا كان الاقطاع يرتبط بمعناه الضخم الواسع بالعصور الوسطى بالذات ، عندما اكتسب صفة النظام ذي الخصائص المحدودة ، وأصبح بمثابة النظام الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والحربي السائد في كثير من بلاد العالم في الشرق والغرب سواء... فان المجتمع الشامي بالذات كان من أبرز المجتمعات الاسلامية التي صار للنظام الاقطاعي فيها جذور راسخة(٣٠) . ولعل من أبرز معالم النقلة من العصور الوسطى الى العصور الحديثة انكماش النظام الاقطاعي وتقويض دعائمه ، حيث أن المجتمع الحديث له مفاهيمه وتصوراته ونظمه التي تتعارض تماما مع اتجاهات النظام الاقطاعي وخصائصه . ولا أدل على أن الغزو العثماني لايمثل نقلة في تاريخ بلاد الشام من العصور الوسطى الى العصور الحديثة من أن العثمانيين لم يفعلوا شيئا لتغيير الاوضاع الاقطاعية التي عرفتها بلاد

الشام في العصور الوسطى ، وذلك لسبب بسيط هو أن عقلية العثمانيين انفسهم لاتعدو أن تكون عقلية رعوية عشائرية شبه اقطاعية . وهكذا ظل الوضع الاقطاعي متغلبا على بلاد الشام حتى القرن التاسع عشر للميلاد ، فيصف احد الباحثين المجتمع الشامي في أوائل ذلك القرن قائلا . « أوغل أرباب الاقطاعات في الظلم ، فقلم الجزار من أظافرهم ليستأثر وحده بالظلم والقتل ... فلما هلك عادت الحالة الاولى الى سابق تعاستها من ظلم المستضعفين والفلاحين ... »(٢١) .

وحتى القرن التاسع عشر ، ظل الحكم العثماني في بلاد الشام يقوم على أسس اقطاعية أشبه بتلك اللامركزية التي عرفها النظام الاقطاعي في العصور الوسطى ، أي انها كانت « حكومة امراء ومشايخ يقوم كل منهم بحكم منطقته ، فكان مشايخ أبو غوش أو البراغنة يحكمون بني مالك وبني حسن وبني زيد وبني مرة وبني سالم .... فاذا اختلف اثنان كانا يتقاضيان عند الشيخ ويقبلون حكمه لامحالة ، ومن خالف عادات البلاد أو أخل بتقاليدهم يسجن في سجنهم . وكان الشيخ أو الامير يجبي الضرائب ويقدم المقطوع عليه للوالي (العثماني) ويأخذ الزيادة . واذا حدثت فتنة ــ أو خيف من وقوعها ــ كان يطلب الوالي المعاونة من أمراء منطقته ، فيخرجون بأنفسهم ، ومن وراء رجالهم وفرسانهم وكثيرا ماكان يستبد هؤلاء المشايخ بالفلاحين ابتغاء مرضاة الامراء والولاة ، فأدى هذا النظام الى انتشار الفوضى واختلال الامن وسبب للحكومة خسرانا كبيرا في الاموال والرجال ... » ومع اعترافنا بقيام بعض الحركات الاصلاحية في قلب الدولة العلية ، أو ظهور بعض الصدور المصلحين ، فاننا نشك في أن يكون أثر مثل هذه الحركات قدوصل الى بلاد الشام وغيرها من الاطراف بالدرجة التي تغير من الواقع المرير(٢٢) .

وهناك ظاهرة نلاحظها واضحة في مجتمع العصور الوسطى ، ترتبط بطبيعة عصور الايمان وفلسفة الناس للحياة ... هي اعتقاد الناس عندما يحل بهم بلاء أو يتعرضون لكارثة سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أن ذلك ليس الا عقوبة الهية أنزلها الله بهم بسبب فساد ضمائر العباد وانحراف الاخلاق ، وعدم التمسك بمبادىء الدين وقواعد الاخلاق ... وأنه لاسبيل للخلاص من الشدة التي ألمت بهم وكشف الغمة التي حلت بهم الا الرجوع الى الله واعلان التوبة اليه ، والقضاء على المفاسد التي استشرت في مجتمعهم . وهكذا يرتفع صوت ينادي بالعودة الى طريق الله ، فتراق

الخمور ، وتطارد العاهرات ، ويكثر الناس من التضرع الى الله في الجوامع عسى أن يغير ما بهم بعدماشرعوا في تغيير ما بأنفسهم(٣٣) . وهذا الاسلوب الذي طبقته العصور الوسطى في علاج المشاكل ومواجهة الكوارث ، وهو نفسه الذي لم يعرف المجتمع الشامي غيره في العصر العثماني . ومن ذلك ما يرويه البديري في حوادث سنة ١١٥٧هـ من قيام حملة في دمشق ضد المومسات ، وكيف أن القاضي والوالي « ارسلوا مناديا ينادي في البلد أن كل من رأى بنتا من بنات الخطا والهوى فليقتلها ودمها مهدور » .

وكان البديري ينتظر أن يكون هذا الاجراء هو الحل المثالي للمتاعب التي حلت بالناس نتيجة لانتشار الطاعون والغلاء بالاسعار ، ولكنه يعجب من أنه رغم كل هذه الاجراءات لم تنكشف الغمة » ومع ذلك فالطاعون مخيم في الشام وضواحيها ، مع الغلاء ووقوف الاسعار .

واذا كان أهم مايميز العصور الحديثة عن الوسطى هو الأخذ بمبدأ سيادة القانون ، بحيث لاتطلق يد الحاكم في التسلط على حريات الرعايا وأجسادهم دون سند قانوني ، فاننا نرى هذا المبدأ لاأثر له في العصر العثماني ، حيث ظلت أساليب العصور الوسطى حتى القرنين التاسع عشر والعشرين هي المطبقة من حيث تسلط الحكام تسلطا مطلقا على أرواح رعاياهم وأجسادهم وحرياتهم . وبصرف النظر عما أتاه جند السلطان سليم أثناء غزوهم بلاد الشام من اعتداء على الاهالي الامنين وانتهاك للاعراض وتخريب للبيوت والمزارع ، فان الفوضى استمرت بعد ذلك في بلاد الشام « حتى قويت شوكة المتغلبين وأرباب النفوذ في المدن والقرى والسهول والجبال ، وأصبحت البلاد بلا راع . وفي أوائل القرن السابع عشرنسمع عن « كيوان أحد كبار الاجناد في دمشق ، ينزع الى التعدي ولاشكيمة ترد جماحه ، ولا وازع يكف من غربه ، فأخذ الناس بالتهمة ، وتطاول الى أخذ أملاكهم حتى استولى على أكثر بساتين الربوة والمزة من ضواحي دمشق وضم بعضها الى بعض وكان اذا أخذ حصته في مكان احتال على الشركاء فيه حتى يأخذ حصصهم طوعا أو كرها . وكان نواب محكمة الباب واعيان شهودها يساعدونه على عدوانه حتى أهلك الحرث والنسل ... »(٣٤) .

وعندما أرسل السلطان محمود الاول موظفا الى دمشق سنة ١١٥٧هـ (١٧٤٤م) لاستخراج أموال سليمان باشا بعد أن توفى ، زوده بأمر سلطاني صريح أو خط شريف ـ بأن يفعل ما يشاء من تعذيب وقتل

وحبس »(٣٥) . والمعروف أن العصور الحديثة جنحت تدريجيا نحو أساليب في العقوبة فيها قدر من الرحمة بالانسان واحترام آدميته ، والبعد عن التطرف ، ونبذ أساليب التصفية الجسدية ، والتي عرفتها العصور الوسطى . ولكننا حتى أواخر العصر العثماني نجد أساليب التعذيب الوحشية المطبقة في عصر سلاطين المماليك هي نفسها التي حرص العثمانيون على استخدامها . ومن هذه الاساليب ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ عقوبة التسمير ، وهي عقوبة شائعة في العصور الوسطى ، تقتضي بتعرية المحكوم عليه من الثياب ،ثم يربط الى خشبتين على شكل صليب ، وتدق أعضاؤه في الخشب بواسطة مسامير غلاظ تنفذ في بدنه . وغالبا ماتكون هذه العقوبة مصحوبة بتشهير الشخص ، أي طرحه على ظهر جمل وهو بالصورة السابقة ، والطواف به في المدينة ، ومن حوله المغاني تزفه بالطبول ، والاجراس تدق من حوله لتجذب الناس لرؤيته ، ولذا عرفت هذه العملية بالتشهير والتجريس . وفي نهاية المطاف يضرب أمام الناس وقد يوسط اي يقطع جسده من وسطه الى نصفين(٣٦) . ونفس هذه العقوبات تمسك بها العثمانيون وطبقوها في بلاد الشام وفي غير بلاد الشام من ولاياتهم فيحكي البديري عن التسمير(٣٧) ، كما يحكي عن التشهير والتجريس فيروي أن حوادث سنة ١١٦٢هـ كيف أنهم في دمشق « جرصوا(٣٨) ثلاثة اشخاص ودوروهم في كل البلد مسخمين الوجوه(٣٩)، راكبين على حمير بالمقلوب » كذلك نسمع على عهد السلطان محمد الرابع في القرن السابع عشر أن الوالي العثماني في حماه كان اذا غضب على رجل وضعه على الخازوق ، واذا غضب على امراة وضعها في خيش مع شيء من الكلس والقاها في العاصي(٤٠) .

وهذه العقوبات هي نفسها التي كانت مستخدمة في عصر سلاطين المماليك عندما كان الشائع « غرس خازوق بالارض لرفع المذنب على قمته »(٤١) وهكذا لم يحدث في العصر العثماني تغيير في أفق الناس وأسلوب الحكام وعقلية المعاصرين يجعلهم يغيرون من الاوضاع التي ارتبطت بقرون سابقة .

واذا كان مجتمع العصور الوسطى قد بني على أساس طائفي بحيث كون أصحاب كل حرفة طائفة لهاشيخها الذي يرأسهم ويفض مشاكلهم ، ويرجعون اليه في كل ما يهمهم ، لاسيما الوساطة فيما بينهم وبين الحكومة . وكانوا لايسمحون لأي فرد جديد بدخول حرفتهم والانتماء اليهم الا بشروط خاصة أو أن يكون من أبنائهم وذلك حتى لاينافسهم

من ناحية ، وحرصا على مستوى الحرفة من ناحية أخرى ..(٤٢) فان البديري يشير في حوادث سنة ١١٦٥هـ (١٧٥١ م) الى وفاة ثلاثة من مشايخ الحرف في دمشق ، هم شيخ الحلوانية ، وشيخ الحلاقين ، وشيخ القواقجية .. مما يدل على ان تنظيم المجتمع الشامي في العصر العثماني ظل يقوم على نفس الاسس التي عرفها في العصور الوسطى .

يضاف الى هذا كله، أن السيطرة العثمانية على بلاد الشام لم تحدث أثرا ذا بال في البناء الاجتماعي والتكوين العنصري ، فلم نسمع عن الاتراك العثمانيين انهم نزحوا بأعداد كبيرة واستقروا وسط المجتمع الشامي ليؤثروا فيه . واذا كان بعض الافراد والعائلات قد استوطنوا الارض العربية ، فان تأثيرهم الحضاري والاجتماعي كان ضعيفا ، ربما لايتعدى بعض الالفاظ التركية ومعظمها يرتبط بأجهزة الحكم والجيش والادارة — التي تسربت الى المجتمع ولعل السبب في هذا هو أن التأثير الحضاري ينتقل غالبا من أعلا الى أسفل وليس العكس ، وأن الافراد أو الجماعات المختلفة حضاريا هي المولعة دائما أبدا بمحاكاة الارقى منها . فاذا كان المغلوب على أمره ارقى حضارة، فان تأثره لايتعدى اقتباس بعض الاوضاع والالفاظ التي تمكنه من انجاز معاملاته مع حكامه المختلفين عنه حضاريا ومهما يقال .. في ضعف الوطن العربي سياسيا وعسكريا عندما غزاه العثمانيون ، فقد كانت أرضه تشهد آثار حضارة عريقة ومجتمع راسخ ، وامتدت جذور هذا وذاك من الاصول الحضارية لتترك بصماتها واضحة في سلوك البشر وفكرهم وأسلوبهم الاجتماعي وتقاليدهم المهذبة وفلسفتهم للحياة ... وهي أوضاع تعبر عن أسمى مابلغه المجتمع البشري من تقدم في العصور الوسطى .

ولا أدل على أن العثمانيين عندما دخلوا الارض العربية في أوائل القرن السادس عشر لم يكن لديهم مايعطونه في المجال الحضاري ، وأن دورهم الحضاري في الارض العربية اقتصر على الاخذ دون العطاء ، مما ورد في المصادر المعاصرة من اشارات عابرة نسوق بعضها على سبيل المثال لا الحصر . من ذلك أن السلطان سليم عندما رأى رقي الصناعة والانتاج الفني في الارض العربية فانه حرص على جمع أصحاب الحرف والصناعات وأرسل بهم الى عاصمته اسطنبول لانه أدرك أن بلاده تفتقر الى هذا السمو الحضاري . ويروي المؤرخ ابن اياس أن السلطان سليم عندما دخل حماما في مصر ليستحم « أعجبته الحمام وشكرها ..(٤٣) ، وأنه عندما

شاهد خيال الظل « انشرح السلطان سليم لذلك ، وانعم على المخايل بثمانين دينارا ، وخلع عليه قفطانا مذهبا ، وقال له : اذا سافرنا الى اسطنبول امض معنا حتى يتفرج ابني على ذلك ...(٤٤) .

وزاد من سوء طالع العصر العثماني في الوطن العربي أنه جاء مصحوبا بتدهور النشاط الاقتصادي ـ ليس بسبب سوء الادارة والتطرف في الاستغلال فحسب ـ بل أيضا بسبب ما أصاب طرق التجارة التقليدية بين الشرق والغرب من تغييرات مع بداية القرن السادس عشر للميلاد نتيجة لاكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح . ويشير فولني ـ الذي زار حلب في أواخر القرن الثامن عشر للميلاد ـ الى الخراب والتدهور الذي أصاب البلاد في ذلك الدور(٤٥) . ومن الواضح أنه في ظل أوضاع اقتصادية متدهورة لايمكن أن يكون هناك نشاطا حضاريا مرموقا .

وهكذا يبدو أن سنة ١٥١٦ بالنسبة لتاريخ الشام ليس لها من الاهمية أكثر من قيام سلطة حاكمة محل سلطة أخرى ، وفيما عدا ذلك فانه لم يحدث تغيير في أوضاع البلاد الاجتماعية ، ومستوى الناس الفكري ، وتقييمهم للحياة وأوضاعهايجعلنانتخذمن هذه السنة نهاية لعصر وبداية لعصر آخر .

وكان من الممكن أن يكون الغزو العثماني لبلاد الشام وغير بلاد الشام من الارض العربية ـ بداية لعصور جديدة ، لو أن الدولة العثمانية فتحت أعينها ـ عاجلا أو آجلا ـ على التطورات التي ألمت عندئذ بالمجتمع الغربي الاوروبي ، وهو المجتمع الذي أخذ ينفض عن نفسه غبار العصور الوسطى ، ويغير نظرته الى الحياة وفلسفته لها ، ويحطم الحواجز التي وضعتها الكنيسة والبابوية طوال عدة قرون على تفكير الناس وحول تطلعاتهم ، لينطلق سريعا على طريق نهضة شاملة فكرية واجتماعية واقتصادية وسياسية . ولكن الدولة العثمانية لم تكتف بأن تصم أذنيها وتغمض عينيها عما كان يجري في الغرب الاوروبي من نهضة وتطور ،وانما وضعت حاجزا منيعا للحيلولة دون وصول تيار هذه النهضة الى أراضيها وولاياتها ، وفرضت ستارا حديديا جعلها تعيش في وضع متخلف خطير ، لم تظهر آثاره الا عندما استسلم الراعي ـ ممثلا في السلطان العثماني ـ للنوم العميق ، ودب الوهن والانحلال في جسم كلب الحراسة ممثلا في الانكشارية والجيش العثماني ، واعترت الماشية ممثلة في رعايا الدولة من أهالي الولايات ـ حالة من الانهاك والخور نتيجة لاستنزاف مواردها

وتجميد طاقاتها وكبت مشاعرها وأحاسيسها طوال بضعة قرون ... وعندئذ انطلق الذئب المتربص ـ ممثلا في الاستعمار الغربي الحديث ـ ينهش في الاغنام ويمزق أشلاءها ويقطع أوصالها ..

ولكن اذا كانت سنة ١٥١٦ غير صالحة لان تكون بداية لتاريخ الشام في العصور الحديثة ، فهل نستطيع أن نعثر على سنة أخرى ، اكثر تعبيرا ـ بالنسبة لتاريخ الشام ـ عن النقلة من مرحلة التاريخ الوسيط الى مرحلة التاريخ الحديث ؟ هنا ينبغي أن نؤكد الحقيقة القائلة بأن اختيار سنة بعينها لايمكن أن يكون مقياسا سليما لنهاية عصور بكافة أوضاعها الحضارية ، وبداية عصور أخرى تحمل عقلية جديدة وفكرا جديدا وفلسفة جديدة للحياة. فالتاريخ مستمر استمرار الحياة البشرية والتاريخ ليس الا حلقات متداخلة بعضها في بعض ، لايمكن أن ننزع احداها عما قبلها أو مما بعدها من حلقات . ان الانتقال من عصور الى أخرى لايتم فجأة بين سنة واخرى أو حتى بين قرن وآخر ، لانه اذا كان الفارق بين عصور وأخرى انما يكمن أساسا ـ مثلما اوضحنا ـ في عقلية الناس ونظرتهم الى الحياة وفلسفتهم لها ... فاننا لاننتظر ان يتم هذا كله في مدى عام أو جيل من الاجيال . ومرة أخرى نؤكد أن التغييرات الفكرية والاجتماعية لاتتم في التاريخ بنفس السرعة التي تتم بها التغييرات السياسية ، لان الانسان بطبعه أكثر تمسكا بما يرثه عن آبائه وأجداده من آراء وأفكار وعادات وأسلوب معين في الحياة والمعيشة ولايستسيغ أن يتخلى عن هذا التراث في سرعة وسهولة . ولذا نجد أن عملية الانتقال من عصور الى أخرى تتم تدريجيا وبصورة بطيئة جدا ، وقد تستغرق مرحلة الانتقال بضعة قرون . وكل مايستطيع المؤرخون أن يفعلوه في هذه الحالة لتسهيل البحث ، وتحديد العصور ، هو اختيار سنة مناسبة ـ ذات أهمية بارزة ـ في مرحلة الانتقال ، لاتخاذها رمزا شكليا ـ لاحقيقيا ـ لنهاية عصور وبداية عصور أخرى .

وفي ضوء هذه الاعتبارات علينا أن نفتش عن سنة أخرى لها أهميتها في تاريخ الشام وتكون أكثر تعبيرا كعلامة مميزة يبدأ منها المؤرخون التمهيد لتاريخ بلاد الشام في العصور الحديثة. ان المؤرخ المنصف لايستطيع أن يجد هذه العلامة الا مع بداية القرن التاسع عشر للميلاد . حقيقة أن السنوات الختامية في القرن الثامن عشر شهدت حملة بونابرت على جنوب الشام ، ولكن طبيعة هذه الحملة والظروف التي أحاطت بها ، وفشلها

السريع جعلها عديمة الأثر في المجتمع الشامي، حتى لقد عبر بعض الباحثين عنها بأنها « مرت كالسحابة وبأنه بعد أن انسحب الفرنسيون الى مصر ، فان الاحوال في بلاد الشام « بقيت بحالها »(٤٦) . .

واذا أردنا أن نتخذ سنة بعينها لتكون مدخلا لتاريخ بلاد الشام في العصور الحديثة ، فاننا نرى أن تكون هذه السنة هي سنة ١٨٣١م التي شهدت حملة ابراهيم باشا على الشام . ولاتعنينا هنا الانتصارات الحربية التي حققها ابراهيم باشا على الجيوش العثمانية ، وما كان من استيلائه على دمشق ثم تقويضه الجيش العثماني عند حمص ، واستيلائه على حلب ، ثم توغله في قلب الاناضول حتى بورصة(٤٧) . وانما الذي يعنينا هي اللمسات الجديدة التي أجراها ابراهم باشا على بلاد الشام ، والتي تركت اثرا يسترعي الانتباه بالنسبة للمجتمع الشامي والاخذ بيده ، ليظل على آفاق جديدة أكثر ارتباطا بالعصور الحديثة منها بالعصور الوسطى .

ولعله يكفي ابراهيم باشا انه حاول جادا كسر شوكة العصبيات المحلية والنعرات الطائفية ، وأن يضع حدا للمصادمات بين مختلف الطوائف في ظل اطار من الامن والاستقرار ، فأخضع ـ عن طريق حليفه الامير بشير ـ الصفديين الذين أعلنوا العصيان سنة ١٨٣٣ ، ونهبوا أموال اليهود ، وانتهى الامر بالقبض على معظم النهابة وردت الى اليهود أموالهم . وعندما ثار أهل طرابلس والنصيرية ، تم اخضاعهم بنفس الصورة ، فأمر ابراهيم باشا الامير بشير أن يرسل ابنه لاخضاعهم ومازال بهم حتى تم ذلك . أما البدو والاعراب الذين أعلنوا العصيان في الصفا سنة ١٨٣٦ فقد تم اخضاعهم هم الآخرون . هذا الى أن ابراهيم باشا قام بمحاولات جادة لجمع السلاح من الدروز ومن النصارى في دير القمر ، وكان ذلك الاجراء يستهدف الحد من الصدام الطائفي المسلح من ناحية ، وتثبيت الامن والاستقرار من ناحية أخرى .

نعم ، حسب تلك الفترة انهاشهدتانشاء ديوانمشورة لاول مرة في الشام ، يشترك في رئاسته أعضاء يمثلون الديانات السماوية الثلاث(٤٨)، كما شهدت لأول مرة محاولة لتجنيد بعض أبناء الشام في جيش نظامي . ففي سنة ١٨٣٤ طلب ابراهم باشا الف وستمائة من الدروز ليجعل منهم فرقة نظامية في جيشه ، ولما اعتذر الدروز بأنه ليس لديهم هذا العدد ،

أختصر الى النصف . ومهما يقال عن هدف ابراهيم باشا من هذا الاجراء، ومدى نجاحه في تلك المرحلة فالذي يعنينا مبدأ تطبيق الفكرة ، اذلايخفى أن تجنيد عدد من أبناء البلاد اجباريا في جيش نظامي كفيل مع الوقت بأن يغير أفكار الناس ويعدل من سلوكهم القتالي ، ويجعل ولاءهم للحكومة وليس للطائفة التي ينتمون اليها ، فضلا عن غرس مبادىء الطاعة والنظام والولاء في نفوسهم ، واعدادهم للقتال من أجل هدف أكبر من مجرد الرغبة في السلب والنهب أو اشباع عصبية طائفية .

هذا الى أن دخول ابراهيم باشا الى الشام على رأس جيشه ،أتاح فرصة لأهل الشام ــ لاول مرة منذ بضعة قرون ــ لرؤية جيش نظامي ، حديث التنظيم والتسلح يسوده الانضباط وحسن الهيئة ، ويتحلى بالنظام والطاعة ، أبعد ما يكون عن النهب والسلب والاعتداء على الاهالي.. وكان ذلك في وقت لاتزال صورة الانكشارية ماثلة أمام أعين المعاصرين ، ليقارنوا بين مايجب أن يكون عليه الجيش ورجاله من انضباط وطاعة وبسالة ، وبين ما كان عليه رجال الحاميات العثمانية من فوضى وسوء نظام ورغبة في العبث بمصالح الاهالي وأموالهم ، بل أرواحهم .

وفي سنة ١٨٣٧ التمس الامير بشير من محمد علي قبول بعض تلاميذ من بلاده يتعلمون بمدرسة الطب التي أنشئت بمصر ، فأجابه محمد علي الى ذلك ، وأرسل الامير بشير ثلاثة شبان ومملوكه سليمان ،وواصلوا تعليمهم في مصر حتى أتموه ، وصاروا أطباء مرموقين وفي هذا الاجراء نرى بشائر الانفتاح على نوع جديد من الفكر وأسلوب حديث من التعليم ، لأن مدرسة الطب التي أنشأها محمد علي في القاهرة والتي أشرف على ادارتها ووضع لائحتها ومناهجها ونظامها أساتذة فرنسيون ــ على رأسهم كلوت بك ــ تمثل نوعا جديدا من التعليم الحديث أبعد ما يكون عن المستوى والاسلوب الذي عرفته العصور السابقة حتى ذلك الوقت يرتبط بالعصور الوسطى ومستواها الفكري ونظرتها الى الحياة . ويكفي أن يعيش عدد من التلاميذ بضعة سنوات في ذلك الجو الاجتماعي والعلمي الجديد حتى يعرفوا أن العالم أوسع بكثير من الدائرة الضيقة التي حرصت الدولة العثمانية على حبس المجتمع العربي داخلها ، وأن هناك أسلوبا للحياة ومنهجا للعلم الحديث يفوق بكثير ماتعرفه دنيا الشام الحبيسة داخل سياج الادارة العثمانية ... وبعد ذلك يعودون الى

بلادهم ليكونوا ـ مع قلة عددهم ـ نواة فكر جديد ، ودعاة حياة جديدة . حقيقة أننا نسمع عن بعض المدارس التي أسسها الموارنة في القرن التاسع عشر بل في أواخر القرن الثامن عشر(٤٩) ، ولكن لايخفى عنا أن هذه المدارس كانت قبل أي اعتبار آخر ـ طائفية ، تمثل دوائر مغلقة على أبناء طائفة بعينها ، وتستهدف هدفا طائفيا بعيد المدى ، فحصرت فكرها داخل حلقة لاهوتية في المقام الاول ، مما جعل الغالبية الكبرى من خريجيها أداة للفرقة ومعولا للتعصب الديني ـ بل المذهبي ـ ضد الطوائف الاخرى في بلاد الشام ، وما أكثرها لذلك فانه مهما يقال في أمر هذه المدارس ، فاننا نرى أنها لاتختلف كثيرا في ضيق أفقها ، وقصر نظرها ، والشبهات التي تحيط بأهدافها ، عن المدارس الديرية في العصور الوسطى ، أو عن المدارس الارسالية التبشيرية التي زرعها الاستعمار في كثير من انحاء افريقيا وآسيا في العصور الحديثة . وبعبارة أخرى فان المدارس الطائفية لم تشكل في مرحلة نشأتها قوة من قوى العصور الحديثة ، ولااتجاها نحو التغيير على طريق القومية الحديثة . ومثل ذلك يقال عن الجامعة الامريكية في بيروت التي نشأت سنة ١٨٦٦ في صورة مدرسة تبشيرية لم يتجاوز عدد تلاميذها الخمسين ، ثم انتعشت وتطورت ، بفضل الاعانات الوفيرة التي كانت ـ وما زالت ـ تردها من « المحسنين الامريكيين الاثرياء محبي العلم » وينسحب هذا القول أيضا على الجامعة اليسوعية التي قامت سنة ١٨٧٥ « بفضل جهود مؤسسيها الرهبان » بمساعدة فرنسا المالية وغير المالية(٥٠) .

وأخيرا ، فان ثمة اشارة في المصادر قد لايدرك كثيرون دلالتها الاجتماعية وما تنطوي عليه من معان على طريق التغيير . ذلك أن ابراهيم باشا أمر سنة ١٨٣٨ أولاد الامير بشير « أن يطرحوا العمائم فطرحوها ، واقتدى بهم بعض أقاربهم وغيرهم كثيرون ، الى أن انتسخ هذا الزي ... »(٥١) . ان دلالة هذا الاجراء لاتكمن في أنه مجرد نبذ زي معين واستبداله بزي آخر يبدو أكثر تقدما عنه ، وانما المغزى أعمق من هذا بكثير . لقد ارتبط الزي دائما على مر عصور التاريخ ارتباطا مباشرا بروح العصر ، وطبيعية المجتمع ، وفكر الناس . هذا فضلا عن أن الزي يحدد مكانة الفرد في المجتمع ، وربما أسلوبه في الحياة ووظيفته ، ولا أكونمبالغا اذا قلت أننا عندما نرى اليوم في مدينة عربية كبرى ـ مثل دمشق ـ ثلاثة أفراد ، أحدهم يضع عمامة فوق رأسه ، والثاني يضع طربوشا ، والثالث يسير عاري الرأس مرجل الشعر ، فان أول انطباع يتبادر الى ذهن المفكر

الناضج هو أنهم يمثلون ثلاثة أجيال متعاقبة ، وأن لكل منهم نظرة الى الحياة قد تتباعد أو تختلف عن نظرة كل من زميليه في بعض الجوانب ، وأن لكل منهم أسلوبه الخاص في حياته وفكره الذي يختلف عن غيره ، ومن هذا المنطلق فهو يحافظ على زيه ويحرص على عدم تغييره . نعم ، لابد وأن يكون بينهم جميعا قدر من التوافق بوضعهم يعيشون في مجتمع واحد وفي عصر واحد وفي ظل قدر من الظروف المتشابهة ، ولكن لابد وأن يكون بينهم أيضا قدر من التباين في تقييم الحياة وفلسفتها . ولذا فاننا نرى أن هذه البادرة من ابراهيم باشا بطرح العمائم ، وسريان ذلك حتى « انتسخ هذا الزي » تعبر عن اتجاه أشد عمقا مما يتصور البعض على طريق التحول من عصور وسطى الى عصور أخرى حديثة .

وهكذا فان سنة ١٨٣١ التي شهدت دخول ابراهيم باشا على رأس جيشه بلاد الشام ــ يحمل عقلا جديدا ، وفكرا جديدا ، وأسلوبا جديدا ، واتجاها جديدا في الحياة ، وليس في الحكم والحرب فحسب ــ ... هذه السنة تستحق منا وقفة خاصة ، اذا أردنا أن نعثر على علامة واضحة نتخذها مدخلا لتاريخ الشام الحديث . نعم ، قد يقال ان بلاد الشام لم تظل تحت نفوذ محمد علي الا نحو من تسع سنوات ، وان تخوف الدول الاوروبية من تضخم قوة محمد علي ــ وخاصة بعد الانتصارات التي حققها الجيش المصري بقيادة ابراهيم باشا في قونية ونصيبين سنة ١٨٣٩ من ناحية ، ونظرة القوى الاوروبية الى الدولة العثمانية بعين متطلعة الى اقتسام ارث الرجل المريض من ناحية أخرى ... ــ كل ذلك أدى الى حوادث سنة ١٨٤٠ ، ثم الى فرمان سنة ١٨٤١ الذي حدد دائرة نفوذ محمد علي بمصر ، مما ترتب عليه عودة الشام مرة أخرى الى حظيرة الدولة العثمانية ولكن ماتم في هذه السنوات القليلة من انجازات على طريق النقلة ، والانطباعات التي تركتها في عقول أهل الشام ونفوسهم ، كان لايمكن أن تنسى أو يزول أثرها في سهولة .

ان عقارب الساعة لم تعد الى الوراء بعد انسحاب جيوش ابراهيم باشا الى مصر . نحن لانريد أن نحمل التاريخ أكثر مما يحتمل ، فنقول ان حكم محمد علي وادارة ابراهيم باشا قد نقلت بلاد الشام في مدى بضع سنوات من العصور الوسطى الى العصور الحديثة ... ولكن كل ما نريد أن نؤكده هو أن هذا الحكم وهذه الادارة نجحت في مدى تلك الفترة المحدودة في فتح نافذة ــ ولو محدودة ــ أطل منها أهل الشام على

العصور الحديثة ، واخذ من خلالها تيار هذه العصور يتسرب تدريجيا ولكن بصفة منتظمة ـ الى داخل البلاد ليغير من الجو الفكري والاجتماعي السائد فيها . وحسب هذه الفترة القصيرة أن يقول فيها أحد العلماء المبرزين من أبناء الشام ما نصه :

« وكان من أول أعمال ابراهيم باشا الجليلة في بلاد الشام ترتيب المجالس الملكية والعسكرية ، واقامة مجلس الشورى ، وغيرها من النظم الحديثة ، وترتيب المالية ، فجعل نظاما لجباية الخراج ، ومعاملة الرعايا بالمساواة والعدل ، لاتفاوت في طبقاتهم ومذاهبهم ... ورات البلاد في أيام ابراهيم باشا ابطال المصادرات وتقرير حق التملك . وتوطد الامن في ربوعها ، وأحييت الزراعة والتجارة والصناعة» هذا الى أن حكومة ابراهيم باشا في الشام « رفعت أيدي أرباب الاقطاعات ، واعطتهم من الخزانة رواتب تكفيهم على حد الكفاية » ، فضلا عن انها اقامت « العدل بين الرعايا على اختلاف أديانهم وطبقاتهم ... »

أما برانت ـ قنصل بريطانيا العام في دمشق ـ فقد كتب سنة ١٨٥٨ يقول « ان نشاط ابراهيم باشا وحزمه وطد الامن ، ومد رواق الثقة . وقد اعتبرت حكومته ظالمة ولكنها في الحقيقة حازمة . ولم تكن لتستطيع خلاف ذلك ، اذ كان عليها اصلاح الامور المختلفة ، واحلال العدل محل الفوضى والتعصب والقلاقل التي سادت البلاد ... حتى اغتبط المسيحيون بصفة خاصة لخلاصهم من فوضى التعصب » .

واذا كان نفوذ الدولة العثمانية قد عاد الى بلاد الشام بعد انسحاب ابراهيم باشا سنة ١٨٤٠ ، فانه عاد في صورة غير التي كان عليها قبل سنة ١٨٣٠ . ذلك أن هيبة الدولة العثمانية كانت قد ضعفت في نفوس أهل الشام ، واهتزت صورتها في أعينهم ، وأخذوا يتطلعون الى اطار جديد يمكنهم أن يعيشوا داخله ومن ناحية أخرى فان اتفاقية سنة ١٨٤٠ خلصت الدولة العثمانية من خطر محمد علي ، ولكنها وضعتها تحت وصاية النفوذ الاوروبي . وبالنسبة لبلاد الشام ، حرصت فرنسا على أن تتمتع بمكانة خاصة فيها ، وان تقوم بدور الحامي للمصالح المسيحية بين ربوعها ، ومن ثم فقد أخذت تتدخل بثقلها السياسي والحضاري في شؤون بلاد الشام وجاء هذا وذاك من التيارات مصحوبا بفتح أبواب الشام على مصاريعها أما الحضارة الغربية ـ بعد أن أخذ يتصدع الحائط الذي طالما حرص الباب العالي على اقامته في وجه تلك الحضارة لمنع تسربها الى البلاد .

وتحت تأثير هذا التيار الجديد أخذت بلاد الشام تبتعد شيئا فشيئا عن الصورة التي ألفناها عليها طوال العصور الوسطى لتكتسب تدريجيا طابعا جديدا أقرب الى العصور الحديثة .

وبعد ، فانه اذا كان تاريخنا العربي في حاجة الى اعادة نظر ، ليكتب من جديد بعد تصحيح بعض مفاهيمه وتعديل بعض مقاييسه ، فانني انتهز هذه الفرصة ـ فرصة اجتماع هذا الحشد من صفوة المؤرخين العرب وغير العرب في اطار مؤتمر علمي يعقد بين رحاب مدينة دمشق التي كانت وستظل القلب النابض لبلاد الشام ـ لنحاول اعادة النظر في تحديد النهاية الحقيقية للعصور الوسطى ، والبداية السليمة للعصور الحديثة بالنسبة لتاريخ بلاد الشام . واذا كانت ثمة اعتبارات تاريخية ـ تخرج عن نطاق بحثنا ـ تجعلني أميل الى اتخاذ سنة ١٧٩٨ نقطة بداية حقيقية لتاريخ مصر الحديث ، فان هناك من الاعتبارات والاسانيد مايجعلني ارشح سنة ١٨٣١ لتكون نقطة ارتكاز واقعية لبداية العصور الحديثة في بلاد الشام .

الحـواشـي

(١) ابن الحاج : المدخل ج١ ص ٢٣٧ ، ٢٧٨ ـ ٢٧٩ ،
أبو المحاسن : حوادث الدهور ج ٣ ص ٥٣٤ ، السخاوي : الضوء اللامع ج١ص١١٣.

(٢) حوادث دمشق اليومية ، سنة ١١٥٧هـ .

(٣) حوادث سنة ١١٥٦ هـ

(٤) حوادث سنة ١١٦١ هـ .

(٥) ابن دقماق : الجوهر الثمين ص ١١٧ ، العيني : عقد الجمان ـ سنة ٧٢٢هـ،٧٧٧هـ،
المقريزي : السلوك ج ١ ص ٥١٩ ـ ٥٢٠ ، ٦١٢ ـ ٧٨٥ .

(٦) ابن حجر : أنباء الغمر ج٢ ص ٣٧٦ ،
المقريزي : السلوك ج٢ ص ٤٦٦ .

(٧) محمد كرد علي : خطط الشام ج٦ ص ٢٨٢ .

(٨) المقدمـة ، ص ٤٤١ .

(٩) البديـري : حوادث سنة ١١٥٦ هـ .

(١٠) المصدر السابق ، نفس السنة .

(١١) الامير حيدر الشهابي : الغرر الحسان في أخبار الزمان (نشر +رستم) .
والبستاني) ص ٤٩ .

(١٢) المقريزي : السلوك ج ٤ ص ٨٥٨ ـ ٨٥٩ .

(١٣) محمد كرد علي : خطط الشام ، ج٢ ص٢٨٦ .

(١٤) الطباخ الحلبي : اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ج٣ ص ٢٥٥ ـ ٢٥٧(سنة١٠٥٤هـ).

(١٥) البديري : حوادث سنة ١١٦٦ هـ .

(١٦) الامير حيدر الشهابي : الغرر الحسان ص ٤٠٥ ، ٥٤٤ .

(١٧) محمد كرد علي : خطط الشام ج ٣ ص٣٣ .

(١٨) ابن دقماق : الجوهر الثمين ، ص ١٣٢ .

(١٩) ابن حجر : أنباء الغمر ج ١ ص ٥٢٩ .

(٢٠) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج٢ ص ٢٤٥ .

(٢١) D'Arvieux, I, P. 362

(٢٢) الطباخ الحلبي : اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ج ٣ (سنة ١٠٥٧ هـ) .

(٢٣) محمد كرد علي : خطط الشام ج٣ ص ٣٣ .

(٢٤) الحلبي : أعلام النبلاء سنة ١٠٥٧هـ .

(٢٥) البديري : حوادث دمشق اليومية سنة ١١٥٦ هـ .

(٢٦) المقريزي : كتاب السلوك ج٢ ص ١٧ ، ج٣ ص ٨٢ ـ ٨٣ .
السخاوي : التبر المسبوك ص ٢٦٠ .

(٢٧) الطباخ الحلبي : اعلام النبلاء ـ سنة ١٠٧٠ هـ .

(٢٨) البديري : حوادث دمشق سنة ١١٥٦ هـ .

(٢٩) الشدياق : أخبار الاعيان في جبل لبنان ص ١٧٤ ، القلقشندي صبح الاعشى ج ٤ ص ٢٠٦ ومابعدها ، صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص ٣٠ ومابعدها .

(٣٠) المقريزي : السلوك ج ٢ ص ١٦٠ ــ انظر كذلك كتاب العصر المماليكي في مصر والشام (للباحث) الفصل السابع .

(٣١) محمد كرد علي : خطط الشام ج ٣ص ٤٢ .

(٣٢) محمد كرد علي : خطط الشام ، ج٢ ص ٢٧٢ ــ ٢٧٣ .

(٣٣) انظر حوادث ٧٠٩ هـ ، ٧٨١هـ ، ٨٣١ هـ ، ٩٢٢ هـ في :
ابن حجر : أنباء الغمر ج٢ ، المقريزي : السلوك ج٢ ص ٥٣ ــ ٥٤ ، ج٣ ص ٣٥٤ ،
العيني : عقد الجمان سنة ٨٠٩ هـ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٥٤ .
كذلك انظر ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، حوادث ٥٥٢ هـ .

(٣٤) محمد كرد علي : خطط الشام ج ٢ ص ٢٥٨ ــ ٢٥٩ .

(٣٥) البديري : حوادث دمشق اليومية ــ سنة ١١٥٧ هـ .

(٣٦) ابن حبيب : درة الاسلاك ج٢ ص ٥ ، المقريزي : السلوك ج ١ ص ٤٠٤ وانظر أيضا كتاب المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك (للباحث) ص ٩٩ .

(٣٧) البديري : حوادث دمشق سنة ١١٦٥ هـ (١٧٥١ م) .

(٣٨) والصحيح « جرسوا » بالسين ، والاشتقاق من الجرس الذي كان يدق لشد انتباه الناس وجذبهم للفرجة ، امعانا في التشهير بالمعاقب .

(٣٩) بمعنى ان وجوههم طليت بالسخام وهو الهباب الاسود ، امعانا في امتهانهم .

(٤٠) محمد كرد علي : خطط الشام ج٢ ص ٢٧٧ .

(٤١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج٨ ص ٢١٥ .

(٤٢) انظر : سهير القلماوي : ألف ليلة وليلة ص ٢٣٢ ،
برنارد لويس : النقابات الاسلامية ،
وكذلك المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك (للباحث) ص ٣٦ ــ ٣٧ .

(٤٣) ابن اياس : بدائع الزهور ج٣ ، ص ١١٦ .

(٤٤) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٣٥ .

(٤٥) Volney I 2, P. 139.

(٤٦) محمد كرد علي : خطط الشام ج ٣ ص ١٨ ، ٤٣ .

(٤٧) الامير حيدر الشهابي : الغرر الحسان في أخبار الزمان ص ٨٢٧ ومابعدها.

(٤٨) الامير حيدر الشهابي : الغرر الحسان في أخبار الزمان ص ٨٦٥ .

(٤٩) ومن امثلتها مدرسة عين ورقة سنة ١٧٨٩ ، ومدرسة ماربو حنا مارون سنة ١٨١٢ ، ومدرسة مار مارون الرومية سنة ١٨١٨ ، ومدرسة ريفون سنة ١٨٣١ .

(٥٠) يوسف الحكيم : بيروت ولبنان في عهد آل عثمان ص ، ٣١ ــ ٣٢ .

(٥١) يوسف الدبس : تاريخ سورية ، ج٨ ، ص ٦٥١ .

الأسس الاجتماعية للثقافة في دمشق

١٧٨٠ ـ ١٨٥٠*

الاستاذ بيتر غران

(جامعة أوستن)

كانت الأسس الاجتماعية التي ارتكزت عليها الثقافة الادبية في دمشق هي الأوساط التجارية ، والحرفية Artisanat ، التي اشتهرت بها المدينة دائماً ، وكان مصير هذه الأوساط المتبدل هو مايؤثر في الاتجاه العام الذي تتخذه الثقافة . وكانت الادارة العثمانية وطبقات ملاك الأراضي مصدراً هاماً لرعاية الثقافة أيضاً . وبما أن دمشق كانت جزءاً من الامبراطورية العثمانية، والمحطة الأخيرة لتجارةالقوافل بالمنتجات الحريرية الهندية ، فقد كانت معرضة بشكل مضاعف لتقلبات كلتا المنطقتين . ومع انها مدينة داخلية لايطولها التغلغل الغربي بصورة مباشرة ، فقد شعرت دمشق بتأثير الغرب أن كان في الهند، أو في المشرق ، شعوراً قوياً ولكن غير مباشر . فالغزو البريطاني للهند في القرن الثامن عشر ، بدأ مسيرة التدهور في التجارة ، تلك التجارة التي كانت حيوية بالنسبة للاقتصاد الدمشقي . وجاء نمو بيروت التدريجي تحت النفوذ الغربي ليجعل من دمشق منطقة خلفية . وكانت أكثر الصدمات المباشرة التي شعرت دمشق بها في الفترة التي نبحثها هي الحركة الوهابية ، التي حَرَّمت الحج العثماني في التسعينات من القرن الثامن عشر ، والتي أغارت على مقاطعات سورية ، تطالب الفلاحين بالجزية . ولكن البنيات الاجتماعية في دمشق بقيت على حالها ولم تتعرض لاصلاح جذري كما حدث في تركيا ومصر . وهذا يعني أن الاتجاه الذي ساد قضايا الثقافة في دمشق هو التعلق بالمحافظة على الوضع القائم في الأوقات العصيبة . لقد حدث تغيير ، ولكنه لايظهر بشكل كامل قبل منتصف القرن التاسع عشر .

لم تخضع الحياة الثقافية في العصور العثمانية الأخيرة للتحليل بعد(١) . ولكن عددا من الدلائل المتفرقة توضح أن بعض الطرق الصوفية المرتبطة بالأوساط التجارية كانت القوة الدافعة الرئيسة للتطور الثقافي

---

* قام بترجمة البحث الى العربية الدكتور نجيب الشهابي .

داخل حلقات المساجد وخارجها . وكانت أهم حركة بين الطرق الصوفية الطريقة النقشبندية المصلحة ، التي ظهرت في الهند ، حين بدأ التأثير البرتغالي والهولندي ، يمثل تحدياً كبيراً لسيطرة المسلمين التجارية والصناعية . ومن الشخصيات البارزة في هذه الطريقة احمد السرهندي وبعده شاه ولي الله . وانتشرت الحركة حين واجه المشرق نفس مشكلات المنافسة الغربية في القرن الثامن عشر ، وقد أورد المؤرخ الدمشقي « المرادي » ، وهو نفسه من أتباع الطريقة النقشبندية ، أمثلة عديدة على الاحتكاك بالهند في حياة صوفيي الفترة التي عاش فيها . واستمرت هذه النزعة وتعمقت في أوائل القرن التاسع عشر في حياة شخصية هامة وتجاربها : وهي شخصية خالد النقشبندي ، مؤسس فرع الخالدية من هذه الطريقة . ويمكن العثور على دليل اضافي على التأثير الفكري الذي مارسه الفكر الإسلامي الهندي على العرب ، والمنتقل عبر دمشق إلى تركيا ومصر ، في كتابات « علماء » أواخر القرن الثامن عشر في عدد من الميادين المختلفة . وتشمل هذه الميادين المنطق و «الكلام» الجدلي (الفقه التأملي)، والعلوم الطبيعية . ففي هذه الميادين كانت التعليقات الهندية الأخيرة هي مصادر التأليف العربي في القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر .

وقد اتخذ الانتشار التدريجي للحركة النقشبندية باتجاه الشرق شكل سلسلة من الطرق الصوفية المتفرعة عنها قامت على طول طرق تجارية معينة ، وحول بضعة زعماء « خلفاء » ذوي شخصيات آسرة ، كيفوا المذهب الاصلاحي العام مع الأوضاع المحلية ، وأصبحوا مستقلين تماماً . وأحياناً كانت الفروع المختلفة للطريقة تتعايش مع الطريقة النقشبندية الأساسية كمافي دمشق، وكماهي الحال بالنسبة لـ «الخلوتية» المصلحة في سورية واسطنبول .

وكذلك كان للطريقة « الوفائية » في القاهرة ــ التي كان لها أهمية في الثقافة المصرية ــ ومعها « الخلوتية ــ البكرية » ، جذور في الهند ، ويظهر ذلك من خلال التعليم الصوفيلأكبر علمائهامحمد مرتضى الزبيدي . وقد بدأت « الخلوتية ــ البكرية » في مصر بجماعة تتبع لمصطفى البكري السوري .

وسهل وجود شبكات من الطرق الصوفية ، عبر المراكز التجارية في العالم العربي والإسلامي ، التبادل الفكري المنتظم ، وتطور الفكر . لقد

كان السفر في طلب العلم هو القاعدة ، وذلك ليس فقط فيما يتعلق بالحج، وانما غالبا ما كان السفر الى مراكز مختلفة عديدة تخصصت في حقول مختلفة . ولانكون مبالغين اذا اعتبرنا أن دمشق والقاهرة واسطنبول في أواخر القرن الثامن عشر قد تقاسمت العمل الفكري : فقد ركزت القاهرة على فقه اللغة العربية ، والعلم المتناقل المرتبط بدراسات « الحديث » ؛ وعرفت اسطنبول بالعلوم العقلانية ، وبدراسة المنطق في علاقته بالفقه المنهجي ، في حين كانت دمشق المركز الكبير للفكر التوحيدي الصوفي . لقد كانت موطن ابن العربي ، ومكاناً قصده الأتراك للتأمل والتفكير بالثقافة الحديثة كما وجدوها في بيئة اسطنبول التي كانت تزداد تجزؤاً يوماً بعد يوم .

إن فكرة تقسيم العمل الفكري ، الموازية لأفكار الاعتماد المتبادل في التجارة والمجالات الأخرى ، لاتعني ضمناً وجود تفكك جوهري في منهاج المساجد في أي من هذه المراكز ، بل تعني أنه خلال هيمنة أي تشكيل اجتماعي معين ، كان هناك اتجاه فلسفي واحد فقط يتحكم في انتاج المعرفة. فالفقه المنهجي الذي كانت جذوره في علم المنطق الارسطوطالي عزز هيمنة ملاك الأرض البيروقراطيين في اسطنبول . والجدل بمعنى التضاد الكامل، تطابق أيضاً مع الوضع البنيوي للفلاحين وملاك الأراضي. وفي القاهرة بررت المناقشة الاستقرائية ، التي تستمد جذورها من « الحديث » تثبت التجار ، ضد نظام ملكية الأراضي العثماني والاندماج الجزئي للمماليك في عصورهم الأخيرة في التجارة والزراعة التجارية . فالفقه جعل التجارة والربح أمراً حلالا ، كما فعل الحديث ، والأهم من هذا أن المنطق الاستقرائي نشأ في محيط من العلاقات الاجتماعية التي يغلب عليها الطابع الأفقي(٢) . ولعل السبب في تغلب نمط وحيد من الثقافة في أي مركز من تلك المراكز في أواخر التاريخ العثماني ، كان نمو العلاقات الاقتصادية مع الغرب وارتباطهابه . وليس من قبيل الصدفة أن تتخذ الثقافة الاسلامية شكلا جديداً في القرن التاسع عشر وهي تواجه سوق العالم الحديث .

ويبقى علينا الآن تعيين موقع الدور الذي لعبته دمشق بشكل أكثر دقة . ان صورة الفكر الرئيسية التي تلفت النظر في دمشق هي الاتجاه نحو الفكر التكاملي ويبدو ذلك بصفة خاصة في شكل فقه صوفي منهجي . ولاشك ، أنه يجب عدم قصر العوامل التي تفسر استمرار الاستغراق في هذا الفكر لفترة طويلة على تلك العوامل الموجودة داخل دمشق بالذات ،

ولكن من الواضح مما تقدم من هذا البحث ، أن دمشق كانت وحدها دون غيرها ولمدة طويلة من الزمن تعتمد على عوامل لم يكن بامكانها التحكم بها. فقد كان وضع التجارة في الهند ، والأناضول ، مسألة شغل الناس بها الى حد كبير ، من أمير التجار الى أقل الحرفيين شأناً . والانقسامات الطبقية التي أصبحت واضحة في اسطنبول والقاهرة ، حين فقدت فئة الحرفيين طبيعتها المتحدة ، وتعرض أعضاؤها لظروف السوق المفتوحة ، لم تصل إلى دمشق في هذه الفترة . وقد عكس الفكر التوحيدي صورة التضامنات عبر الطبقات التي وجدت في هذه المدينة وكان مؤشراً سابقاً للصراعات الطائفية في القرن التاسع عشر . وانعكس التغير في ظروف الجماعات المختلفة في الجدال حول « الأشعرية » و « الماتريدية » ، إذ كانت الاولى تعكس ايماناً أضعف بفعالية الأفعال التي يقوم بها الانسان بعد تخطيط عقلاني مما تفعله الثانية .

وكان لنقشبنديي أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر في دمشق احتكاك تاريخي طويل سابق بالهند ، وبالتراث الصوفي الهندي ـ الفارسي . وقد ضم النقشبنديون البارزون في القرن الثامن عشر كلا من التقويين والمدرسيين . ومن أوائل هؤلاء النقشبنديين ، حسبما يذكر المؤرخ المرادي ، « السيد بدر الدين الهندي » الذي كانت عائلته قد حافظت على صلاتها بالهند خلال القرن الثامن عشر ، وهو صوفي أتى من شاجان الأبادي . وكان من أقرباء سيد هداية الله . وحين جاء الى سورية ، نزل في المسجد الأموي ، وعاش حياة النساك ، وحظي باحترام كبير من الدمشقيين . وقد توفي عام ١١٠٤/١٦٩٢(٣) ومن الشخصيات الأخرى « عليم الله الهندي النقشبندي اللاهوري الحنفي » . وكان قد درس العلوم العقلانية في الهند بالاضافة الى دراسة « الحديث » في « الحجاز » . وقد اشتهر بأنه رجل واسع العلم . وحين أتى الى دمشق سكن في « التكية » في « محلة القماحين » قرب « باب السريجة » . وكانت له حلقات كبيرة ، يحضرها مثقفو المدينة وأثرياؤها . وفيما بعد تولى امر « المدرسة القيمرية » في دمشق ، حيث كان والد المرادي نفسه معلماً فيها. وكان كل سنة يخلو بنفسه في مقام الأربعين في جبل قاسيون بالصالحية ؛ حيث كان الكثيرون من المرضى يعالجون(٤) .

ومن بين أشهر النقشبنديين في سورية في القرن الثامن عشر « مراد المرادي » المتوفى عام ١١٣٢/١٧٢٩) ، والذي ذاع صيته بأنه كان عالما

واسع المعرفة ، ويعرف ثلاث لغات . وقد كتب في التراث النقشبندي ، وكان له تلاميذ ذوو أهمية وشأن كالسلطان مصطفى خان مثلا(٥) .

وفي تركيا ، شكل النقشبنديون عنصراً هاماً ضمن الطبقة الحاكمة ، سواء أكان في عالم العلم أم في الحكومة نفسها . وكان أوضح الفروق بينهم وبين نقشبنديي سورية ، هو انهماكهم بدرجة أكبر في الشؤون العامة وفي العلوم الدنيوية .

وقد قام عدد من النقشبنديين السوريين بزيارة اسطنبول أو الاقامة فيها حيث لفتوا الانتباه بتقاهم . وكان من بين هؤلاء « محمد تلو » المتوفى عام ١٢٨٢هـ/١٨٦٥ . وكان حنفياً من دمشق تحول إلى نقشبندي تحت رعاية خالد ، وفي عام ١٨٣٧/١٢٥٢ تلقى دعوة لزيارة اسطنبول من السلطان محمود الثاني ، المصلح . وقد كتب مقالة عن خالد أعجب السلطان بها . وفيما بعد ، عاد الى دمشق(٦و٧) ومن النقشبنديين الآخرين شخص احتفلت سورية به بوصفه أستاذاً للعلوم الطبيعية وكان شخصية بارزة في الأوساط النقشبندية السورية . كما كان « خليفة » للشيخ خالد . وحين زار اسطنبول في عام ١٨٥٣/١٢٧٠ احتفي بزيارته حفاوة كبيرة(٨) . ومن تلاميذ الشيخ خالد الآخرين ، الخليفة الشيخ عبد الفتاح العقري المتوفى عام ١٨٦٣/١٢٨٠) ، الذي استقبل أيضاً استقبالا حسناً في اسطنبول التي زارها مرتين(٩) . وقام اثنان من الشعراء السوريين بزيارة اسطنبول وتعرفوا على مشايخ الاسلام النقشبنديين . وكان الأول خليل أفندي المرادي (توفي عام ١٧٩٠/١٢٠٥) وكان صديقاً لمحمد الشريف ، والثاني حسن البيطار ، الذي سيأتي ذكره فيما بعد(١٠) .

وفي تركيا ، ظهر من بين النقشبنديين الكثير من العلماء ، وهم بلا شك أكثر بكثير مما تكشف عنه هذه المصادر القليلة . ولكن لم يظهر من بينهم شخصيات روحية من نفس مستوى خالد . وهذا يتفق الى حد ما مع ما سبق أن ذكرناه . وكانت « الزاوية » في دمشق نقطة تجمع للناس ، يستطيعون منها مجابهة التحديات والمشاكل التي تواجه المدينة . وكان اتجاه الطريقة اتجاهاً اندماجياً ، ولم تقصر نفسها على الانشغال بمشاكل أتباعها من التجار الأثرياء(١١) وفي اسطنبول ، فصلت فجوة كبيرة ، كبار البيروقراطيين و « العلماء » والآخرين من الحرفيين . وكان النقشبنديون هناك « مثقفين » . وبطريقة تنسجم مع مركزهم الطبقي وأعمارهم ، ابتعدوا بهدوء عن الرؤيا التوحيدية ، وقبلوا درجة متعاظمة

من التجزؤ . والدليل على هذا هو أن المدرسة « الوجودية » ، أي أتباع ابن العربي ، كانوا في تركيا في القرن الثامن عشر ، وفي القرن التاسع عشر ، حين عزز النقشبنديون مركزهم داخل الطبقة الحاكمة ، أخذوا يرون في تراث ابن العربي خطراً عليهم . وقد ترجم «مستقيم زاده» وهو مسؤول حكومي نقشبندي ، « مكتوبات » « إمام الرباني » ونشرها ليعدل من تأثير ترجمة النص العربي لـ « **فصوص** » ابن العربي ، التي قام بها في القرن الثامن عشر عبد الله البوسناوي(١٢) . ونقيض هذا الاتجاه، كان أحد النقشبنديين في سورية هو المعلق الرئيسي على ابن العربي في القرن الثامن عشر . وكان قبر ابن العربي مقاماً مقدساً ، وقد دفن والي سورية ناشد راشد باشا (الذي توفي عام ١٨٨٧/١٣٠٥) في الضريح بناء على طلبه(١٣) . .

كذلك كان اتباع الخلوتية كثيرين بشكل ملحوظ بين الطبقات الحاكمة في تركيا وسورية(١٤) . ومن الجدير بالذكر أن الاختلافات التي فصلت بين فرعي النقشبندية التركي والسوري كانت موجودة أيضا في المدرسة الخلوتية . ففي سوريا كان هناك شكل من الصوفية أكثر تجريبية بل كان لايزال يسيطر على تلك الصوفية رؤيا أكثر توحيدا ، ومنبثقة من عالم القرون الوسطى الموحد ، وكان هناك كذلك اتصال أكبر بين الخلوتيين السوريين والثقافة الفارسية مما يلاحظ عند الخلوتيين الأتراك ، وان الاتجاه الذي دعوناه « فكرياً » أو « مدرسياً » كان أقل وضوحا على الرغم من ان شعبية ابن العربي في ميدان الأدب فاقت بالنسبة لبعض الخلوتيين في سورية دوره في مجال الفقه . ولم يوصف ، من بين الخلوتيين الذين نشطوا في اسطنبول خلال القسم الأخير من القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر، أكثر من شخص واحد بأنه «صوفي» بالمعنى « التجريبي »(١٥) أما الآخرون فانهم لم يوصفوا على أساس التجربة الصوفية بل على أنهم مدرسيون » . وقد عرف الخلوتيون في دمشق أيضا بادراكهم المحافظ للشريعة ، ولكن كان بينهم بعض ممن اشترك بصورة واضحة وبعمق في التراث الصوفي الفارسي لأواخر العصور الوسطى .وكان بين الشخصيات المحافظة مؤرخ « حنبلي » كان قد انقلب من مفتٍ للحنابلة الى خلوتي . وكان هذا هو «حسن بن عبد اللطيف الدمشقي الشهير بالعمري» (توفي عام ١٧٨٦/١٢٠٠) وهو تلميذ لأحمد البعالي الدمشقي الخلوتي(١٦) . ونجد شخصية اخرى مماثلة في رجل قانون حنفي عرف بفتاواه ، وهو هاشم

التاجي ، الذي توفي عام ١٨٤٧/١٢٦٤(١٧) ومن جهة أخرى ، فان عـددا من المشايخ كان اتجاههم تجريبياً بشكل واضح . ومن أكثر هؤلاء تطرفاً عبد الله الكناني الذي ولد عام ١٧٩٣/١٢٠٨ وتوفي عام ١٨٧٥/١٢٩٢ ، وكان تلميذاً من تلاميذ جده عيسى . ولقد وصف بأنه تعمق في أسرار السماع والرؤية (سماع الله ورؤيته) . ولم يكتب اية كتب ، وعمل معظم حياته في « التكية » في الصالحية . وكان له عدد كبير من الأتباع الذين كانت لهم هم أيضا تجارب صوفية . وقد قيل عنه أنه لم يتحدث قط عـن الأشياء بكليتها(١٨) . وهناك شيخ آخر له اتجاه مماثل وهو محمد المهـدي المغربي الزواوي ، « مقدم الطريقة الخلوتية » في دمشق ، وفيما بعد «شيخ الطريقة » ، وقد توفي عام ١٨٦١/١٢٧٨ . وكان قد ولد في المغرب وهرب من وجه الغزو الفرنسي للجزائر . وقد جاء الى سورية ، مثله مثـل الكثيرين من أبناء وطنه ، في عام ١٨٤٦/١٢٦٣ . وكان فقيراً تائباً ذا شعبية كبيرة بين الطبقات الدنيا ، التي أقامت حداداً عظيماً على موته . وقـد كتب كتابين عن الاشراق الالهي(١٩) ويخيل للمرء أن قدوم المنفيين الجزائريين كان إشارة الى تغيير مؤقت في الطريقة . ولكن نجد شخصية أخرى اتبعت التراث نفسه وهو « شيخ الطريقة » في دمشق « محمد شمس الدين بن حسن الطباخ » ، الذي توفي عام ١٨٢١/١٢٣٧ ، والذي ورث الطريقـة عن أبيه ، وكان يعمل ليلا نهارا ، وكانت له كراماته(٢٠) .

قدم عدد من « العلماء » من مختلف أجزاء الامبراطورية ، وخاصة من دمشق ، الى اسطنبول لدراسة الطب . وقد تزوج بعض هؤلاء من أسر تركية او ذاع صيتهم هناك . وقد درس ابراهيم سر أمين ــ الذي توفي عام ١٧٧٤/١١٨٨ ــ الطب في اسطنبول وتزوج ابنة « شيخ الاسلام » شلبي زاده اسماعيل ، ثم اعتزل وأصبح قاضي حلب(٢١) . ودرس ابراهيم قره الحصاري ــ الذي توفي عام ١٧٨٢/١١٩٧ ــ الطب على يد « رئيس الاطباء » في القصر وأصبح فيما بعد « شيخ الاسلام »(٢٢) . ونجد مثالاً آخر على دمشقي أصبح طبيباً وعالماً بارزاً في اسطنبول ، في أبي بكر بن بحران ، الذي توفي عام ١٦٩٠/١١٠٢ . وقد تـزوج فتـاة مـن عائلـة « الصدر الأعظم » أحمد باشا الكربالي واتبع طريقته الصوفية . وأصبح معلماً في « السليمانية » وبعدها قاضياً في حلب. وقد أمر السلطان « محمد ابن ابراهيم خان » بترجمة كتابه الى التركية(٢٣) ومن الخلوتيين الدمشقيين الذين اشتهر أمرهم في اسطنبول حين ذهبوا اليها لدراسة الطب ، عبـد الاسعد بن أيوب بن أيوب الخلوتي ، الذي توفي عام ١٦٩٤/١١٠٦ . وقد

كان على صلة وثيقة بـ « شيخ الاسلام » ، وأمضى حياته العلمية في « المدارس » ، وأصبح رئيس أطباء « بيمارستان » في اسطنبول(٢٤) .

ويمكن العثور على تطور مماثل في حقل الهندسة والعلوم العسكرية. ومن افضل الأمثلة المدروسة على ذلك محمد العطار الدمشقي(٢٥) . فقد درس العلوم والفقه في اسطنبول ، والف عددا من الكراسات المرشدة لاستخدامها في أيام ذبول الحركة الإصلاحية . ولم تكن له علاقة بحركة « الحديث » ــ وهي حركة تناولت الطب من خلال علم النفس والعلم من خلال « الحكمة » .

وفي حين ولّدت الطبقات الضعيفة البيروقراطية والمالكة للأراضي في سورية من جديد ثقافة النخبة في اسطنبول في العلوم والطب ، فان بيئة التجار والحرفيين ، التي طغت في المجتمع الدمشقي ، أعطت دمشق ملامحها الفريدة . وهذا العرف الطبي هو في الوقت ذاته مجال لم يستكشف ، وهو يتجاوز آفاق الكفاءة العلمية الحديثة ، إن حركة الاحياء الصوفي في القرن الثامن عشر ، المتأصل الجذور في الرأسمالية التجارية قامت باعادة تعريف العلاقة بين العلاج والمرض ، وبين الطبيب والمريض ، بطرق كانت أكثر جذرية (وأكثر حداثة) من الطرق المعروفة في الأوساط الطبية الأوربية . فالطبيب الاوربي ــ باتباعه خطا جالينوس وابن سينا. وسندهام ، والسيوطي بالطبع ــ كان يخاف القيام بالتدخل الطبي كيلا تنطمس معالم جوهر المرض ويصبح بذلك مستعصياً على الشفاء . ولقد استحوذت طبيعة المرض العامة على اهتمام الطبيب ، فامتنع عن درس المريض الفرد ، وتاريخه أو تاريخها الطبي الفريد ، والأعراض الخاصة . ولم تقلب حركة الاحياء الصوفي هذه الاتجاهات فحسب ، بل إنها انكرت نظرية الصفة الجزئية للمرض ــ الجسدي أو العقلي ــ (ونظرت للاثنين على أنهما متعلقان ببعضهما) . وقد حاولت الحركة خلق مناخ اجتماعي ملائم للعلاج الدائم(٢٦) .

ان محاولة ربط الصحة النفسية بالظروف الخارجية للتاريخ والمجتمع تفسر الأهمية المعطاة في مجال الطب ، وكذلك في مجال السياسة ، للشيخ خالد ، الذي حاول أن يجمع تجار الطريق التجاري الهندي ــ السورية في عقيدة « ماتريدية » موحدة من جديد في مطلع القرن التاسع عشر . وخالد هو مؤسس الطريقة النقشبندية الفرعية المعروفة باسم الخالدية. إن من الصعب فصل خالد ، بوصفه شخصية تاريخية ، عن الأساطير

التي تحيط به . فقد جاء من أصول غامضة الى حد ما ، أثناء فترة الغزوات « الوهابية » ، ونجح في عام ١٨٠٥/١٢٢٠ في تأدية « الحج » بصفته « قادرياً » رغم الحصار «الوهابي» . وقد استقبل استقبالا حسناً في دمشق ، حيث درس على يد « شيخين معروفين » هما محمد الكزبري ومصطفى الكردي . واكتسب هناك صيتاً بصرامته وتصلبه . فقد ادعى على سبيل المثال أن الانارة الحقيقية تأتي من الهند فقط(٢٧) . ويبدو أن « والي » دمشق يوسف باشا قد تأثر به عامي ١٨٠٧ — ١٨٠٨ ، فقد بدأ يصدر مراسيم قاسية ، كالمرسوم الذي يمنع حلق اللحى مثلا ، أو المرسوم الذي يمنع الاستماع إلى الموسيقى في المقاهي ، أو الذي يؤيد تطبيق قوانين الانفاق Sumpluary Laws ضد المسيحيين واليهود ، كما سمح بالضغط على اليهود والمسيحيين كي يعتنقوا الإسلام . وأشيع أن خالد أدخل يوسف في « النقشبندية » . وبعد الأحداث « الوهابية » قام خالد فعلا بالسفر الى الهند في عام ١٨٠٩/١٢٢٤ . وذهب الى جهان أباد حيث لُقِّنَ من جديد أسرار « النقشبندية » على يد عبدالله الدهلاوي « شيخ مشايخ الهند » ، ثم عمل في « زاوية المجاهدة » حيث صار من « أهل الحضور » بعد خمسة أشهر ، ثم مع مرور الزمن أصبح « خليفة » في « النقشبندية » أولا ثم في طرق أخرى : « القادرية » و « السهروردية » و « الكبروية » و « الجشتية » . وفي عام ١٨٠٩/١٢٢٥ أو ١٨١٠/١٢٢٦ ، سافر إلى شيراز ، ويزد ، وهمدان وسنذج ووصل إلى السليمانية في العراق في عام ١٨١٠ . وهناك قابل الأعيان ، واستقبلوه « معززاً مكرماً »(٢٨) . وفي عام ١٨٣٨ غادر العراق إلى سوريا ، وخلال رحلته جعل عدداً كبيراً من الأشخاص يدخل في طريقته .

ونلتفت الآن الى تحليل أدق لنشاطات خالد الدينية . فلدى عودته من الهند ذهب إلى شيراز ويزد وأصفهان ، ينادي بالحقيقة حيثما كان ؛ وفي الكثير من الأحيان تجمع بعض الشيعة ليضربوه أو يقتلوه ، لأنهم لم يستطيعوا الرد على حججه بالاستناد الى العقل أو إلى النصوص(٢٩) .

ويعطي الطريق الذي اتبعه ، دليلا جديداً على طبيعة الجماعات التي قد تكون تجاوبت مع «جهاده» ، وبالتالي دليلا على طبيعة انبعاث الصوفية الذي جرى في سورية في مطلع القرن التاسع عشر .

كان طريق التجارة الرئيسي الى فارس في أوائل القرن التاسع عشر يمر عبر تبريز ومشهد . فالبضائع في القسطنطينية وطرابزون وجورجيا

كانت تأتي عن هذا الطريق . ولكن تجارة الشرق ـ الغرب ، أي التجارة التي تأتي إلى دمشق ، فقد اتبعت طريقاً اخرى فمعظمها كان ينقل بحراً من الهند فالخليج الفارسي ، وذلك حتى عام ١٨٢١ على الأقل . ولكن كان هناك طريق بري ، وكان هذا هو الطريق الذي اتبعه خالد على مايبدو . وكانت اكثر المحطات ازدهاراً المركز التجاري في يزد ، حيث أتيح له أيضاً أن يجد تجاراً من أصفهان وشيراز . وكان الوضع في أصفهان أضعف مما هو عليه في يزد ، اذ لم تكن قادرة على السيطرة على مناطقها الخلفية . ويعود جزء من ثراء يزد الى تجارة السكر مع مشهد ، ولعل هذه الصلة أثرت في المدى الطويل على اقتصاد يزد ، اذ كانت مشهد المحطة الرئيسية التي دخلت منها البضائع المصنعة في أوربا الى فارس(٣٠). وهكذا كان خالد ينشر مذهبه المحافظ على طول الطريق التجارية التي كانت تتقلص ، وتخضع لمختلف الضغوط. والاستنتاج الواضح الذي يجب ان نتوصل اليه هو أنه لقي القبول بين طائفة التجار . فقد أثرت هذه التغيرات تأثيراً سيئاً على هذه الطائفة ، وكان رد فعلها دفاعياً . ويمكننا أن نقول الشيء نفسه عن العراق حيث ـ كما بينت دراسة ظهرت مؤخرا ـ تركز اقتصاد بغداد الى حد كبير على تجارة الترانزيت ، اذ أن الزراعة في العراق كانت في وضع سيء(٣١) . وقد وجد خالد في شخصه أربع طرق صوفية ، وفي عودته المنتصرة من الهند على الطريق التجاري ، كان يدحر الخصم تلو الآخر أدبياً وفكرياً وجسدياً . وكانت هذه هي صورة الاحياء التي كانت طائفة التجار تبحث عنها وتتطلع إليها في الأوقات العصيبة .

وكان خالد كاتباً أيضاً . وأهم كتاباته مقالة بعنوان **العقد الجوهري في الفرق بين كسب الماتريدية والأشعري** . ومن العنوان يمكن للمرء أن يقول وهو مطمئن أن المقالة عالجت المسائل التي تمس قوى الانسان العقلية ، ومعنى أعماله على الأرض في تجاه قدرة الله . إن انحياز خالد إلى صف « الماتريدية »في زمن انهارت فيه المعنويات ، يمثل ظاهرة نفسانية مثلما هي ظاهرة سياسية(٣٢) .

ماذا كان تأثير التربية في دمشق في مفكر لديه تحسس بالنزعات المتشعبة ؟ في عام ١٨١٠/١٢٢٥ ، قدم حسن العطار ـ وهو « خلوتي » مصري كان قد درس الطب والعلوم والمنطق في اسطنبول ـ للاقامة لفترة خمس سنوات في « مدرسة حنفية » هي « المدرسة البدرية » في دمشق . وهناك حاول أن يؤلف بين كل ماتعلمه ، وخرج بمؤلف هام في علم

التشريح . واثناء وجود العطار في « المدرسة » كان له عدد من الطلاب السوريين . وكان من بينهم محمد العطار الدمشقي الذي سبق أنذكرناه، وحسن البيطار النقشبندي » (المتوفى عام ١٢٨٢/١٨٥٥) الذي درس الفقه .

ولكن العطار ذهب في الاتجاه الآخر ايضاً . فقد كتب مؤلفه الوحيد في « الحديث » في دمشق . وجمع « ديوان » شعره في دمشق ولسوءالحظ ضاع فيها . وكانت أعمق صلة له بالصوفية في دمشق مع « الشيخ الخلوتي » عمر اليافي ، الذي كان من تلاميذ مصطفى البكري . وكان لليافي حلقة من الطلاب الذين درسوا ابن العربي ، ولكنهم مالوا للخمر ،والشعر، والموسيقى ، ومنهم الشيخ مصطفى زين الحمصي . ومن الواضح أنه في حالة العطار ، فان الرجل غادر دمشقوهو على اعتقاد بأن الصوفية يجب أن تترك لاولئك الذين لديهم موهبة لها ، وليس لأشخاص مثله . ومن هذا يمكننا الحصول على اشارة أخرى لمظهر من المذهب الشرقي التطهيري ، ذي الاتجاه الليبيدي ، في العلاجات الروحية في ذلك الزمن ، وقد درّس العطار ــ في ابتعاده عن هذا المذهب ــ الطب الجسدي . وأعطى « إجازة » من أولى اجازاته في الطب الى طالب يدعى عبد القادر الخلاصي ، من العائلة الطبية الحلبية المشهورة .

وخلاصة القول إن تاريخ دمشق الثقافي من ١٧٨٠ الى ١٨٥٠ استقى من قواعده الاجتماعية المركبة في التجارة الاقليمية والادارة العثمانية . وقد ترك التأثير الغربي غير المباشر دمشق دون أن يمسها لفترة طويلة . وهكذا أصبحت مركزاً استطاع العالم العربي منه أن يشاهد قدوم الاستعمار وأن يسعى لمقاومته .

الحـــواشـــي

(١) هناك كتابان حديثان يجمعان الكثير من المواد هما : أسامة عانوتي ، **الحركة الادبية في بلاد الشام خلال القرن الثامن عشر** (بيروت : المكتبة الشرقية ، ١٩٧١) ، اسكندر لوقا ، **الحركة الادبية في دمشق** ١٨٠٠ ــ ١٩١٨ (دمشق : مطابع ألف باء ــ الاديب، ١٩٧٦) .

(٢) لدراسة « الحديث » في هذه الفترة ارجع الى :

Peter Gran, **The Islamic Roots of Egyptian Capitalism, 1760 - 1840** (Austin, University of Texas Press, 1978 forthcoming).

ولاتشير قائمة المخطوطات في الحديث في المكتبات التركية ــ وهي قائمة مختصرة الى حد أنها لاتعطي فائدة كبيرة ــ الى نزعة مماثلة خلال القرن الثامن عشر ، بل في الواقع لاتدرج القائمة أية مخطوطة في الحديث عن الفترة بين عام ١٧٧١ وعام ١٨١٢ !

Max Weisweiler, **Istanbuler Handschriftenstudien zur arabischen Traditionsliteratur** (Istanbul : Istanbul University Press, 1937), **Bibliotheca islamica,** ed. Helmut Ritter, no. 10.

(٣) محمد خليل المرادي النقشبندي ، **سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر** (القاهرة : اسم الناشر غير مذكور ، ١٨٧٤ ــ ١٨٨٣) ، ٢ ، ٢ .

(٤) المصدر نفسه ، ٣ ، ٢٦٠ ــ ٢٦٢ .

(٥) المصدر نفسه ٤ ، ١٢٩ ــ ١٣٠ .

(٦و٧) محمد جميل الشطي ، **روض البشر في أعيان دمشق في القرن الثالث عشر** (دمشق ، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٦) ص ٢٠٧ .

(٨) المصدر نفسه ، ص ٢٠٩ ــ ٢١٠ ، الشيخ محمد الخاني ، توفي في ١٢٩٩/١٨٨١ . وهو معروف أيضا بمؤلف حول « أدب طريقته » نشر على الاقل ثلاث مرات في القاهرة . وتابع آخر من أتباع خالد كان موضع اهتمام أحد السلاطين الاتراك هو « محمود صاحب » ، وهو كردي رعاه خالد . وبعد وفاة خالد عينه السلطان عبد المجيد في عام ١٢٥٩/١٨٤٣ شيخا للتكية السليمانية في دمشق . وقد توفي في عام ١٢٨٣/١٨٦٦ ، (ص ٢٣٦ ــ ٢٣٧) .

(٩) المصدر نفسه ، ص ١٧٠ .

(١٠) المصدر نفسه ، ص ٨٧ ــ ٩٠ .

(١١) عبد المجيد الخاني الخالدي ، **الانوار القدسية في مناقب السادات النقشبندية** (القاهرة : مطبعة السعادة ، ١٣٤٤/١٩٢٦) ، ص ١٩٠ ، يضم مقطعا عن الفرق بين قرب الصحابة الى محمد وقرب الاولياء الى محمد . وهو ينظر الى الصحابة بشيء من الازدراء ، ويؤكد الصدف التاريخية ورحمة محمد ، دون تأكيد تفهمهم أوحكمتهم الروحية أو تقدمهم على الصراط الصوفي ، وهذه صفات اتصف الاولياء بها . ووجود هذا المقطع هو نموذج للنقد السوري لحركة « الحديث » التي أساسها التجار ، والتي ركزت على الصحابة ، وهي حركة ظهرت في مصر وأماكن أخرى في القرن الثامنعشر .

(١٢) Hilmi Ziya Ulken, « L'École wujudite et son influence dans la pensée turque, » **Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes,** CXII (1969), 193 - 208 , esp. pp. 200 - 201.

(١٣) عبد الرزاق البيطار ، **حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر** (دمشق ، مجمع اللغة العربية ، ١٩٦١) ١ ، ٢١٨ . كان مصطفى البكري ، الذي أسس حركة الخلوتية الاصلاحية ، صوتا معارضا هاما في هذه المسألة . ولكن البكري في مصر حذ مسائل أخرى مثل استعمال الموسيقى في الذكر ، بينما عارضتها الحركة النقشبندية في دمشق التي ترعرع البكري فيها . وقد أنكر المعلق الرئيسي في العالم العربي على ابن العربي ، أن « وحدة الوجود » تعني « أن الله هو جوهر الكائنات ، والمخلوقات هي جوهر الله . ودافع عن وجود تمييز مطلق بينهما » . وكان هذاالمعلق هو النقشبندي السوري عبد الغني النابلسي في كتابه **ايضاح المقصود في معنى وحدة الوجود** ، الذي وردت دراسة له في

Marijan Moles, **Les Mystiques musulmans** (Paris : Presses Universitaies de France, 1965), pp. 120 - 22.

(١٤) اعتبرت أكثر من مرة درجة المودة القائمة بين أعضاء الطريقتين ضارة بـ « تهذيب » كل منهما . ارجع الى :

Hans Kissling, « Aus der Geschichte des Chelvetijje - Ordens. » **Zeitschrift der Deutsches Moreenlander Gesellschaft,** CIII (1953), P. 269

وقد صارت هاتان الطريقتان تعرفان (من قبل الطبقة الحاكمة ؟) بانهما « الاصول » وذلك بالمقارنة مع الطرق الاقل شانا ، أو « الفروع » . ارجع الى :

John P. Brown, **The Dervishes or Oriental spiritualism (London :** Trubner and Co., 1868), pp. 229 - 230.

(١٥) الشطي ، المصدر المذكور انفا ، ص ٣٦ ـ ٣٧ .

(١٦) البيطار ، المصدر المذكور انفا ، ١ ، ٥٥٦ .

(١٧) المصدر نفسه ، ٣ ، ١٥٧٦ . أعطى فتاوى للمفتي حسين أفندي مرادي . ارجع أيضا الى الشطي ، المصدر المذكور انفا ، ص ٢٥٦ . وعاش شخص اخر ، وهو تاجر ناجح تراس الخلوتية ـ السفرجلانية في دمشق ، من عام ١٧٩٠ الى عام ١٨٣٨ (١٢٠٥ ـ ١٢٧٥) ، وهو خليل أفندي السفرجلاني . نفس المصدر ، ص ٩٩و١٢٦ .

(١٨) المصدر نفسه ، ص ١٦٩ .

(١٩) المصدر نفسه ، ص ٢٣٠ ـ ٢٣١ . ويوحي الشطي بأن عددا من الخلوتيين هربوا من الجزائر واختاروا البقاء في سورية ، مثل محمد مبارك الخلوتي ، الذي توفي في ١٨٥٢/١٢٦٩ ، وهو من زملاء محمد المهدي . وعلى مايظهر كان خليفة المهدي الاستاذ الشيخ بكري بن عبد الغني بن أحمد البغدادي ، الذي توفي في دمشق عام ١٨٩٣/١٣١١ . البيطار ، المصدر المذكور انفا ، ١ ، ٣٧٧ ـ ٣٧٨ . ومن تلاميذه الاخرين صالح بن يوسف ، الذي توفي عام ١٨٧٥/١٢٩٢ ، والذي ألف أعمالا في الموسيقى . المصدر نفسه ، ٢ ، ٧١٨ ـ ٧١٩ .

(٢٠) الشطي ، نفس المصدر المذكور انفا ، ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩ .

(٢١) المرادي ، نفس المصدر المذكور انفا ، ١ ، ٤٣ .

(٢٢) المصدر نفسه ، ١ ، ١٢ .

(٢٣) المصدر نفسه ١ ، ٥٠ ـ ٥١ .

(٢٤) المصدر نفسه ، ١ ، ٥١ .

(٢٥) أحمد باشا تيمور ، **أعلام الفكر الاسلامي في العصر الحديث** (القاهرة : لجنة نشر المؤلفات التيمورية ، ١٩٦٧) ، ص ٢٣٢ . كذلك ارجع الى (**رسالة في القبان وكفاية عمله في طرق الهندسة البديعة** (دمشق : مخطوطات المكتبة الظاهرية ، ٤٢٩٧ ، المجموعة العامة) ، **رسالة في الماء الجارية** (دمشق : مخطوطات المكتبة الظاهرية ، ٥١ المجموعة العامة) ، **رسالة في الرامي بالقنبرة** . وقد نشر جزء من هذه الرسالة في **المشرق** ،٥(١٩٠٢) ، ٤٩ ـ ٥٩ ، ١٧٨ ـ ١٨٢ ، وهذا الجزء يحمل العنوان **بلوغ المطلوب في القنبرة والطوب** ، والاجزاء الاخرى موجودة ضمن (بيروت : مخطوطات شرقية ٢٢٥) وهي تحمل العناوين **اظهار السر المصون في فن رامي اللغم واجازات المعاند الظلوم ، ولاسهم القوس وقوص الاسهم في الربع المجيب ، وفتح الظاهر والنصر الباهر في فن رامي الطوب والقنبرة** . وتشمل أعمال محمد العطار الاخرى : **رسالة في فن المزولة** (كانت هناك نسخة سابقا في مكتبة الشيخ عبد الرزاق البيطار . ولكن منذ عام ١٩٧١ توزعت هذه المكتبة بين أقاربه في منطقة دمشق) ، **رسالة في علم التنجيم** (غير معروفة المكان) . وهناك مخطوطة أخرىمدرجة

في جداول الازهر على انها « هندسة ٨١ » (غير معروفة المكان) ، وعنوانها **رفع الاشكال في معرفة سطوح الاشكال** ، وتوصف بانها مقالة كتبها طلاب السنيور ماري الايطالي في الهندسخانة الخديوية . وتاريخها ١٨٢٣/١٢٣٩ ويقال انها بخط محمد العطار ، الذي توفي في عام ١٨٢٤/١٢٤٠ . وللاطلاع على سيرة حياته ارجع الى عانوتي ، المصدر المذكور انفا ، ص ٢٥٠ ـ ٢٥١ .

(٢٦) من الاعمال الرئيسية في تفسير الاحلام كتاب لاحد الصوفيين النقشبنديين السوريين في عام ١٦٨٢/١٠٩٦ يهدف الى تصنيف الاحلام وفق الموضوعات ، مستفيدا من الكتابات السابقة ومن خبرة المؤلف . عبد الغني النابلسي ، **تعطير الانام في تعبير المنام** (القاهرة : المطبعة السعيدية ، ١٩٤٠/١٣٥٤) ، في مجلدين ارجع مثلا الى بحثه للصراع بين الاجيال كما يشعر به شاب في المجلد الثاني ، الفصل الثالث عشر تحت عنوان « شاب » . وللاطلاع على بيان جديد لاهمية الصداقة المستمرة بين الطبيب والمريض كجانب قيم من جوانب العلاج (وهذه وجهة نظر صوفية) ، ارجع الى :
William Easson, « Patient and Therapist after Termination of Psychotherapy, » **American Journal of Psychoterapy, XXV (1971), 635 - 642.**

(٢٧) ألبير حوراني ، « الشيخ خالد والطريقة النقشبندية » ، مقال غير منشور ، ص ١٠ العداء تجاه الاقليات من الاعراض الدالة على المشاكل الناجمة عن سياسة الفرنسيين في القرن الثامن عشر التي هدفت الى اقامة أقليات تجارية .

(٢٨) الشطي ، المصدر المذكور انفا ، ص ٨٠ ـ ٨٤ . لاجتماع الاعيان دلالاته في التعرف على الاسس الاجتماعية الرئيسية لاعجاب الناس به .

(٢٩) حوراني ، « الشيخ خالد ... » ، ص ١٢ ـ ١٢ [٤] . يشك المرء في أن هذه المعارضة لم تصدر عن الشيعة لمجرد كونهم ضد السنة ، وانما لكونهم الناطقين باسم سلالة القاجار ذات الاتجاه الغربي المتزايد والمناهضة بشكل عام لحركات التجار .

(٣٠) Ann K. S. Lampton, « Persian Trade under the Early Qajars, » in D. S. Richards, **Islam and the Trade of Asia** (Oxford : Bruno Cassirer, 1970), pp. 215 - 44.

ارجع بشكل خاص الى ص ٢١٩ .

(٣١) Charles Issawi (ed.), **Economic History of the Middle East, (Chicago :** University of Chicago Press, 1966) p. 138.

(٣٢) الشطي ، المصدر نفسه المذكور انفا ، ص ٨١ – ٨٤ ، للرجوع الى سيرة حياة خالد وكتاباته ، كذلك ارجع الى **مجموع رسائل العابدين** ، رقم ٣٠ (القاهرة : دار الكتب، ١٧٠٧ الفقه الحنفي، مخطوطات الازهر ، ٢٠٠٦) ، **أصفى الموارد من سلسلة أحوال الامام خالد** ، بقلم عثمان بن سند الوائلي النجدي ، الذي توفي عام ١٨٣٣/١٢٤٨ (القاهرة، مخطوطات الازهر ، ١٤٩٣ تاريخ) ، **المجد التالد في مناقب الشيخ خالد** ، بقلم ابراهيم نصيح أفندي بن صبغة الله المشهور بالحيدري زاده .

(٣٣) في مكتبة عيسى اسكندر معلوف في بعلبك ، لبنان .

الهجرة الى سورية في أواخر القرن التاسع عشر

الدكتورة أمل دوغراماشي

(جامعة حاجيتبه ـ انقرة)

كانت مشكلة اللاجئين في القرن التاسع عشر من أخطر المشاكل التي واجهتها الامبراطورية العثمانية في ذلك الحين ، فاحتلال روسيا للقرم أولا عام ١٧٨٣ ، ثم احتلالها في الخمسين سنة التالية لاجزاء مختلفة من القوقاز جزءا بعد جزء ،أدى الى هجرة سكان هذه المناطق المسلمين الى المناطق التي مازالت في قبضة الامبراطورية ، ذلك ان مليونا واربعمائة الف (١٫٤٠٠٫٠٠٠)(١) نسمة قد غادروا القرم الى المناطق العثمانية مابين عامي ١٨٥٤ ـ ١٨٧٦ لهو دليل كاف على اعطاء فكرة عن ضخامة مشكلة التوطين التي واجهتها الدولة في ذلك الحين .

وبلغ عدد المهاجرين من البلقان الى الجزء الآسيوي من الامبراطورية العثمانية أثناء الحرب الروسية ـ العثمانية عام ١٨٧٧ ـ ١٨٧٨ رقما أكبر مما سلف ذكره . كما ان اقامة دول مستقلة جديدة في البلقان بعد معاهدة برلين عام ١٨٧٨ ، وتسليم بعض الاراضي العثمانية الى هذه الدول أدى مرة ثانية في العشرين سنة التالية الى هجرة مليون نسمة (١٫٠٠٠٫٠٠٠) عن وطنهم . ووزع قسم كبير من هؤلاء اللاجئين في اجزاء مختلفة من الاناضول ووطن الباقون في سوريا وفلسطين .

ووصل في الفترة ذاتها الى سورية بعض المسلمين الجزائريين كسواح وطلبوا البقاء فيها وتغيير جنسياتهم ، وأدى هذا التوطين الى نشوء نزاع بين الدولة العثمانية وفرنسا فيما يتعلق بمشاكل المواطنة الناجمة عن ذلك .

فكان هناك ، اذن ، حركتان من حركات الهجرة الى سورية في الامبراطورية العثمانية في أواخر القرن التاسع عشر : احداهما من البلقان، والثانية من الجزائر . وجزء من الذين غادروا البلقان يتألف من المسلمين الشراكسة الذين كانوا قد هاجروا من شمال غرب القوقاز الى بلغاريا

---

* قام بترجمة هذا البحث عن الانكليزية الدكتور محمد منير صلاحي الاصبحي .

ورومانيا(٢) ، أما الباقون فكانوا من المسلمين الاتراك من سكان تراقيا Thrace وعلى الرغم من انه كان بين المهاجرين في ذلك الوقت من تراسيا الى الاراضي العثمانية عدد من اليهود ، فقد منع توطينهم في سوريا بأوامر مشددة(٣).

لقد اتخذت الهجرات التي جرت أثناء حرب ١٨٧٧/١٨٧٨ أهمية عالمية . اذ تحمل المهاجرون مصاعب خطيرةوعانوامن مذابح واسعة النطاق وغدت اقامتهم الموقتة أو الدائمة مشكلة لم يسبق لها مثيل ، وكانت السفارات الاجنبية في مختلف اقاليم الامبراطورية العثمانية وفي استانبول، تلاحظ ذلك عن كثب ، وتجمع المعلومات ، وترسل تقارير متواليةالى بلادها عن وصول جماعات اللاجئين ، وعن توطينهم ، وردود فعل سكان المناطق التي يجري فيها التوطين ، واقيمت جمعيات في الخارج لاغاثة اللاجئين . وكانت هذه الاعانات تسلم احيانا الى اللاجئين بوساطة هذه الجمعيات ، واحيانا أخرى عن طريق السفارات المنتشرة في الامبراطورية ، وكان يعطى جزء من هذه الاعانات نقدا(٤) وبعضها تموين كالحبوب(٥) والالبسة الداخلية المستعملة(٦) .

ولم ينشر من الوثائق المتعلقةبالهجراتالتي حدثت ضمن الامبراطورية العثمانية عام ١٨٧٧/١٨٧٨ سوى عدد ضئيل من المحفوظات البريطانية والفرنسية والتركية ، أخرجها معهد دراسة الثقافة التركية في مجلدين قبل عشر سنين(٧) . وتعود أربع عشرة (١٤) وثيقة فقط من بين مجموع الوثائق التي نشرت والتي بلغ عددها تسعمائة وثيقة ، الى الهجرات التي توجهت الى سورية ، كتب أربعا منها السيد جاكسون الدردج Jackson Eldridge القنصل البريطاني العام في بيروت . ويعود تاريخ الاولى الى الثامن والعشرين من شباط/فبراير ١٨٧٨ . واقتبس اللورد ديربي (Lord Derby) سكرتير الخارجية البريطانية في برقية له في ٢٥ شباط /فبراير/ ١٨٧٨ بعض التقارير الصحفية التي تذكر بأن مسيحيي هذه المنطقة قد أصيبوا بالذعر وان حياتهم أصبحت في خطر لدى وصول اللاجئين الشركس الى سورية ، ويتساءل في برقيته عما اذا كان لهذه التقارير أي أساس من الواقع . ورد القنصل البريطاني العام في بيروت على هذه البرقية بقوله ان حوالي (١٠٠٠) ألف لاجيء شركسي مسلم ممن سينقلون الى دمشق قد وصلوا بيروت قبل أسبوع وان وصولهم لم يحدث أية مشكلة في المدينة ، بيد ان تأخر رحيلهم نجم عن تساقط الثلوج الغزيرة

التي أغلقت الطريق الى دمشق . واضاف القنصل العام قائلا ان الفا وخمسمائة (١٥٠٠) لاجيء قد وصلوا الى عكا قبل أسبوع وسينقلون الى مدينة نابلس ، وتبعهم بعد بضعة أيام فريق آخر يتألف من مائتي(٢٠٠) لاجيء وصلوا الى طرابلس على ظهر باخرة نمساوية(٨) .

ويشير السيد ايلدردج Mr. Eldridge في رسالة له الى السيدلايارد Mr. Layard السفير البريطاني في استانبول مؤرخة في ٣١ آذار / مارس / ١٨٧٨ الى وصول ألف وثلاثمائة (١٣٠٠) لاجيء شركسي الى ميناء اللاذقية قادمين من سالونيك . ويقول انه قد تلقى هذه المعلومات من نائب القنصل في اللاذقية السيد فيتال Vital ، ويشير كذلك الى ان اللاجئين قد وصفوا بانهم شراكسة عموماً ، وانهم ينتمون بشكل رئيسي الى الجزء الاوروبي من تركيا حيث أجبروا على مغادرة وطنهم نتيجة للحرب . وتقول الرسالة ايضا انه لم يكن في الفريق الاول من اللاجئين الذين وصلوا الى بيروت قبل ثلاثة أسابيع سوى أربع عشرة عائلة تستطيع تأمين متطلباتها اليومية أما الآخرون فقد كانوا في فقر مدقع(٩) .

ويذكر السيد ايلدردج في رسالته للورد ديربي (Lord Derby) المؤرخة في ٣١/ آذار / مارس ١٨٧٨ والمرسلة من بيروت ، أن خمسة آلاف لاجيء وصلوا الى طرابلس ، ويقول السيد ايلدردج في رسالته هذه ان أهل البلاد قد لاقوا هؤلاء اللاجئين لقاء عدائيا غير متعاطف ، فنشأت صعوبات كبيرة في تموين اللاجئين وايوائهم ونقلهم الى مناطق الاسكان التي أعدت لهم . وكان بنفس اليوم حوالي (١٥٠٠) ألف وخمسمائة لاجيء في اللاذقية . وفيما عدا بضع عائلات ذهبت الى انطاكية(١٠) فانهم لم يرغبوا في الذهاب الى منطقة الجبل ، كما ذكرت الرسالة .

والوثيقة الرابعة هي تقرير آخر أرسله السيد ايلدردج الى السيد لايارد مؤرخ في ١٩ تموز / يوليو / ١٨٧٨ . وطبقا لهذا التقرير فان بعض اللاجئين الذين قدموا الى طرابلس قد وجهوا الى عكا ، وزود عشرة آلاف منهم بستة آلاف كيلو غرام من الشعير وارسلوا الى حماه(١١) .

ومن بين الوثائق المنشورة تقرير أرسله السيد جاجو Mr. Jago نائب القنصل البريطاني في دمشق الى اللورد ديربي ، وزير الخارجية(١٢). وفي هذا التقرير المؤرخ في ٤ آذار (مارس) ١٨٧٨ معلومات تتعلق بمناطق توطين اللاجئين القادمين من بلغاريا الى سورية . وكما يقول التقرير فان

معظم اللاجئين قد وطنوا في المناطق الشاسعة على الحدود الشرقية لولاية سورية ، ووطن بعضهم في وادي الاردن الاعلى حول القنيطرة وهورس (Hours) وسكن في كل وحدة استيطانية من هذه الوحدات التي اقيمت قبل ست سنين (٣٠٠ ــ ٤٠٠) ثلاثمائة الى اربعمائة نسمة . وأسكن عدد من الذين وصلوا حديثا في القنيطرة وفي داي الضمير شمال غربي دمشق، وقد نشبت نزاعات بين اللاجئين الاوائل وسكان القنيطرة وهورس المحليين ، مما أسفر عن خسائر في الجانبين . ومن الاسباب الرئيسية للوفيات بين اللاجئين الاوبئة المتكررة ، كما أسكن بعض اللاجئين الذين وصلوا حديثا الى دمشق في ساحات المساجد والمدارس الدينية وفرض الاداريون المحليون على الشعب ضريبة قدرها اربعة قروش على كل مواطن ذكر لاغاثة هؤلاء اللاجئين .

وفي وثيقة مؤرخة في ١٨ آذار (مارس) ١٨٧٨ كتبها السيد واتكنز Mr. Watkins القنصل البريطاني العام في لارانكا (قبرص) وجهها الى السيد لايارد (Mr. Layard) السفير البريطاني في استانبول ، وردت اشارة الى بعض الكوارث الواسعة التي وقعت أثناء نقل اللاجئين الى سورية(١٣) . فمثلا كان على ظهر السفينة « ابو الهول » (Sphinx) التي ترفع العلم النمساوي ثلاثة آلاف لاجيء عندما غادرت ميناء كافالا (Kavala) شرقي تراقيا (Thrace) متجهة نحو اللاذقية ، وقد واجهتها عاصفة تجاه شبه جزيرة كارباس Karpas صبيحة الخامس من آذار مما اضطرها الى تغيير وجهتها نحو فاما غوستا Famagusta (قبرص) لتبقى هناك مؤقتا حتى تهدأ العاصفة ، ولكنه في مساء ذلك اليوم بالذات قذفت موجة كبيرة أربعين لاجئا من على ظهر السفينة الى البحر فغرقوا جميعا ، كما شب حريق ذلك المساء أدى الى موت خمسمائة لاجيء آخر . أما الباقون فقد أنقذتهم سفينتان تصادف وجودهما في المنطقة المجاورة احداهما بريطانية والاخرى فرنسية ، وقد روى هذا الحادث المأساوي قبطان سفينة اللاجئين المدعو ايفانكس Ivanics في تقرير له (١٤) .

ويشير القنصل العام الفرنسي في سورية في رسالة وجهها من بيروت الى السيد وادينغتون (Mr. Waddington) وزير الخارجية الفرنسية في السادس عشر من نيسان (ابريل عام ١٨٧٨) الى اللاجئين في تلك البلاد . ويقول في رسالته ان عدد اللاجئين الذين وصلوا الى سورية في ذلك الحين قد بلغ خمسة وعشرين الفا (٢٥٠٠٠) وكان يتوقع ان يرتفع العدد الى

مائة الف (١٠٠٠٠٠) لاجيء(١٥) . وعلى أية حال فان فرنسا وايطاليا قد احتجتا ، كما تذكر الرسالة ، على ارسال الدولة العثمانية اللاجئين المسلمين الى سورية(١٦) .

وتكشف دراسة بعض الوثائق في محفوظات رئاسة الوزراء في استانبول انه برغم التدخل الاجنبي كله تم توطين اللاجئين المسلمين في بعض أجزاء سورية خلال الثلاثين سنة الاخيرة من القرن التاسع عشر ، وكانت القنيطرة وما حولها احدى المدن التي وقع عليها الاختيار لتكون مركز توطين مكثف . وفي بادىء الامر ، تم اسكان فريق من (٣٠٠ — ٤٠٠) ثلاثمائة الى أربعمائة لاجيء هنا في القنيطرة عام ١٨٧٢(١٧) . ووطن فيما بين عامي ١٨٧٦ — ١٨٧٩ جماعة أخرى في المدينة ذاتها وصلوا من القوقاز وزود هؤلاء اللاجئون بالحبوب والثيران كمساعدة أولية(١٨) . ومرة أخرى تم اختيار قطعة أرض غير مستعملة من املاك الدولة في القنيطرة تبلغ مساحتها (٣٥٠٠) ثلاثة آلاف وخمسمائة متر مربع عام ١٨٨٤ موقعا لاسكان (٤٢) اثنتين واربعين أسرة من قبيلة قره تكلي Kara - Tekeli التركمانية(١٩) . كما كانت حماه وحمص ونابلس مناطق أخرى لتوطين اللاجئين . وفي عام ١٨٨٣ وطن لاجئون قادمون من روسكك (Ruscuk) في بلغاريا في قرية قرب حماه سميت « الحميدية »(٢٠) . ووزع اللاجئون في سورية عن طريق موانيء اللاذقية وطرابلس وبيروت وعكا .

وكما ذكر أعلاه ، فان لاجئين مسلمين قد قدموا الى سوريا من الجزائر في الثماني وسبعين سنة التي تلت عام ١٨٨٦ . ومن بين هؤلاء تم توطين ٣٧ سبع وثلاثين أسرة (١٦٩ شخصا) في قرية اسمها الحسينية عام ١٨٨٦ دخلوا عن طريق سنجق عكا Akka Sancak (٢١) ، ووصل مئتان وثمان واربعون لاجئا عام ١٨٩٢ وجرى توطينهم في سنجق عكا(٢٢). وفي عام ١٨٩٤ تم اسكان (١٥٠) مائة وخمسين لاجئا (٢٤ أسرة) في الارض التي لم تحتل بعد في مدينة طبريا من سنجق عكا(٢٣) . وبما ان الجزائر كانت تخضع للسيادة الفرنسية منذ عام ١٨٣٠ فان تجنيس اللاجئين من الجزائر بالجنسية العثمانية قبل توطينهم قد اثار خلافات قانونية ، وسويت هذه الخلافات عام ١٨٨٩ بمسودة الاتفاق(٢٤) الذي اشترط اعتبار جماعات اللاجئين التي غادرت الجزائر للاقامة في سورية، مواطنين عثمانيين ماعدا أولئك الذين اختاروا الاحتفاظ بالجنسية

الفرنسية . وعلى هؤلاء مغادرة الاراضي العثمانية في غضون فترة معينة ، أما الذين قدموا بموجب جوازات سفر فرنسية فيعتبرون فرنسيين اذا كانت جوازاتهم موقعة من السفارة الفرنسية ، ولكن يحق لهم اكتساب الجنسية العثمانية . والذين اختاروا الاحتفاظ بالجنسية الفرنسية فلا يحق لهم الزواج بنساء عثمانيات الجنسية ، والذي يخالف هذا الحظر يبعد خارج الاراضي العثمانية ويسمح له باصطحاب زوجته معه . وكل حامل للجنسية الفرنسية يطلب اليه مغادرة البلاد اذا ما أخل بالنظام العام . وعلى الرغم من هذا الاتفاق ، فقد ظل اللاجئون الجزائريون موضع خلاف بين البلدين . وفي حوالي منتصف عام ١٨٩٣ صدر مرسوم للمرة الثانية بتوطين اللاجئين الجزائريين في مناطق حلب وبغداد ، وان لم يكن ذلك في جماعات مكثفة ، شريطة ان يراعي هؤلاء قوانين الدولة العثمانية وانظمتها(٢٥) .

وختاما ، يمكن القول بان سورية قد نالت حصتها من موجة لاجئين واسعة اسفرت عن زيادة في سكان بعض أجزائها . ويعود أصل هؤلاء اللاجئين في سورية الى القوقاز وتراقيا (Thrace) . كما قام الولاة والموظفون العثمانيون المسؤولون بتوطين اللاجئين الجزائريين القادمين بملء اختيارهم وحريتهم في مناطق عديدة من سورية ، ومن جهة أخرى فقد منع اللاجئون اليهود القادمون من روسيا من التوطن في سورية وفلسطين(٢٦). وكما هو معروف تماما ، فان أحفاد هذه الجماعات الاسلامية قد رفدت بين حين وآخر الحياة الثقافية والاقتصادية في سورية .

الحـواشـي

(١) استانفوردج ، شو ، تاريخ الامبراطورية العثمانية وتركيا الحديثة ، مطبعة جامعة كامبردج ، ١٨٨٨ ، ج٢ ص ١١٦ .

(٢) مارت بنسون ، السياسة الروسية وهجرة تتار القرم الى الامبراطورية العثمانية ١٨٥٤ ـ ١٨٦٢ ، جونيه ـ دوغوافروبا اراستيرمالارى ديرجيستي I ، ٣٧ ـ ٥٦ ـ ٢ II ، ١٠١ ـ ١١٤ .

(٣) باسباكانليك ارسيفي (محفوظات رئاسة الوزراء) ارادى داهيلبي رقم ٦٩٤٢١ .

(٤) بلال سمسير روملي دن ترك جوكليري (هجرة الاتراك من تريس) انقرة ١٩٦٨ I FF ٣٨٥ ، ٤٢١

(٥) بلال سمسير روملي دن ترك جوكليري I ٤٣٨ .

(٦) روملي دن ترك جوكليري I ٤٨٨ .

(٧) روملي دن ترك جوكليري I (١٩٦٨)II (١٩٧٠) .

(٨) روملي دن ترك جوكليري I ٣٥١ ـ ٣٥٢ .

(٩) روملي دن ترك جوكليري I ٤٥٧ .

(١٠) روملي دن ترك جوكليري I ٤٠٣ .

(١١) روملي دن ترك جوكليري I ٥٤٢ .

(١٢) روملي دن ترك جوكليري I ٣٦٠ ـ ٣٦١ .

(١٣) روملي دن ترك جوكليري I ٣٨٧ ـ ٣٩٠ .

(١٤) روملي دن ترك جوكليري I ٣٨٩ .

(١٥) روملي دن ترك جوكليري I ٤١٥ .

(١٦) روملي‌دن ترك جوكليري I ٣٦٣ ، ٣٩١ .

(١٧) روملي‌دن ترك جوكليري I ٣٦٠ ـ ٣٦١ .

(١٨) باسباكانليك ارسيفي Basbakanlik Arsivi (محفوظات رئاسة الوزارة) ، ارادى داهيلية Iradi Dahiliye رقم ٦١٩٦٦ .

(١٩) باسباكانليك ارسيفي ، ارادي داهلية ـ ١٣١٢ ، ٣١

(٢٠) باسباكانليك ارسيفي ، ارادي داهليه ـ ١٣١٠ ، ٧ ـ Saf.

(٢١) باسباكانليك ارسيفي ، ارادي داهليه رقم ٧٧٦٢٢ .

(٢٢) باسباكانليك ارسيفي ، ارادي داهليه سوراجي ديفلت Sura-yi Devlet) رقم ٦٧٠٥ .

(٢٣) باسباكانليك ارسيفي ارادي داهيليه ١٣١١ ، ٣٧ Muh

(٢٤) باسباكانليك ارسيفي ارادي داهيليه ماكليسي ماهوس Irade - Meclis - Mahous رقم ٤٦٢٥ .

(٢٥) باسباكانليك ارسيفي ارادي داهيليه ـ ١٣١١ ، ٤٧ Muh, V

(٢٦) حمدى عتامر ، (خطط لاقامة دولة يهودية في الاناضول) بيلجيليري ترك تاريهي دير جيسي ، سايي ٥ S ، ١٩ ـ ٢٦ .

Hamdi Atamer, (Desighs for a Jeurth Shate in Ahafolia), Belgelerle Turk Tarihi Dergisi, Sayi 5, S 19 - 26.

طرق المواصلات في بلاد الشام

مابين القرنين السادس عشر والعشرين*

الدكتور : نيكيتا اليسييف

(جامعة ليون الثانية)

ليس يخفى على احد اهمية خطوط المواصلات في بلاد الشام وتطورها . فقد تنقل العديدمن الناس عبر القرون في تلك المنطقة الحساسة من الشرق الاوسط وتلاقت فيها الطرق والمسالك . ولاتنقصنا الشواهد على وجود هذه الطرق منذ العصور القديمة ، كالاثار التي خلفتها على الطبيعة والنصوص الجغرافية التي تحدثت عنها وقصص المسافرين والرحالة .

وكانت الحدود السياسية مع سوريا قد تلاشت في العهد العثماني وأدرجت بلاد الشام في عداد الاقاليم التابعة للامبراطورية العثمانية التي تولى زمامها السلطان في استنمبول . ودشن عهد جديد في الحوض الشرقي للبحر الابيض المتوسط منذ القرن السادس عشر واسفرت الامتيازات التي منحت لمختلف الدول الاوربية عن ازدهار المنطقة اقتصاديا . فقدانشئت « الخانات » الواسعة في بعض الحواضر مثل دمشق وحلب ، واستتب السلام وتواصل سيل الحجاج المسلمين والمسيحيين . وراح المسافرون والتجار يطوفون في جميع أرجاء البلاد ، شأنهم شأنالمبشرينوالمبعوثين في مهمات خاصة . ولا أدل على ذلك من تعدد سير الرحالة التي تطالعنا منذ أواخر القرن السادس عشر وبخاصة في القرنين السابع عشر والثامنعشر . وكانت بلاد الشام قد فتحت أبوابها آنئذ للاقطار الغربية مع الحفاظ على علاقاتها التقليدية الموروثة بأقطار المشرق . وثمة لون من الوان العمارة « العثمانية » أخذ يزدهر في الاقاليم الخاضعة للدولة المذكورة اذ شيدت فيها المساجد المتميزة بطابع موحد وهو يتكون من بناء مربع تعلوه قبة عريضة ، ويزود بمئذنة أو مئذنتين ذات قوام اسطواني رشيق .

ونحن اذا اردنا دراسة خطوط السير والمواصلات في بلاد الشام ،

---

* قام بترجمة البحث عن اللغة الفرنسية الدكتور بدر الدين قاسم الرفاعي .

أعوزتنا الوثائق رغم كثرة الابحاث الصادرة منذ ثلاثة أرباع القرن . فالمراجع العلمية المتوفرة بين أيدينا حول سوريا هي أقل عددا مما يملكه الباحث في فلسطين (بسبب المكانة التي يتمتع بها هذا القطر في تاريخه القديم والوسيط والمعاصر) أو ما يملكه الباحثفي مصر التي يحظى تاريخها الخفي بكل أسباب السحر والجاذبية .

ونحن لن نتقدم هنا بقائمة (أو بجرد) لعناصر البحث التينتصرف بها . حسبنا ان نلفت الانتباه الى أهمية بعض الخرائط ولاسيما خرائط سورية ولبنان بمقياس ١/٥٠٠٠٠ التي أصدرتها بين عام ١٩٤١ – ١٩٤٣ الادارة الجغرافية للقوات الفرنسية في المشرق واخذت بها الدوائر الجغرافية للجيش السوري في عام ١٩٧١ بالاضافة الى خارطة سوريا الجيولوجية بمقياس ١/٢٠٠٠٠٠ التي وضعتها وزارة الصناعة السورية في عام ١٩٦٣ وكذلك خرائط « الدليل الازرق » بمقياس ١/٧٠٠٠٠٠ لعام ١٩٣٢ فهي أيضا مفيدة جدا .

وطالما امتد التاريخ عبر الزمان والمكان وطالما عاشت الجماعات البشرية في اطار معين وبيئة محددة فقد يساعدنا استقراء الخرائط على معرفة الوقائع الجغرافية والطبيعية والانسانية التي لاغنى عنها في سبيل ادراك المعطيات التاريخية . ومن المفيد ان نتذكر بان بعض الظروف المناخية أو الجغرافية قد يصيبها التغيير مثل اتلاف الحراج في عدد من المناطق أو فساد جهاز من أجهزة الري المستخدمة في استثمار أحد القطاعات الزراعية مما يكون له أثر بعيد في تطور الاحداث التاريخية .

وتعيننا الخرائط أيضاً على معرفة أشكال التربة التي تحدد بطبيعتها الموارد الاقتصادية . كذلك تدلنا الخرائط على المناجم المعدنية المتباينة والاراضي الصالحة لزراعة الحبوب والاشجار كما تشير الى موارد المياه والدروب الالزامية والحدود الادارية المختلفة التي تذكرها النصوص .

ومن شأن الخرائط ان تجعلنا نتتبع تتبعا دقيقا رسم خطوط المواصلات التي سلكها الناس في تنقلاتهم أحقابا طويلة من الزمن وان نتبين بوضوح كيف تطابقت بعض أجزاء من الطرق وكيف تراكم بعضها فوق بعض على مر الزمن . فقد ترك الماضي رواسبه على العديد من الطرق السورية . وابلغ مثال على ذلك الخط الروماني القديم الذي كساه الأسفلت في يومنا هذا .

ويحسن بنا أخيرا ان نضيف الى الخرائط القديمة والحديثة ماتزودنا به الصور الجوية من معلومات تفيدنا في معظم الاحيان لتبيان الخطوط التي وجدت قبل استخدام سيارات النقل .

والجدير بالذكر ان الامبراطورية العثمانية لم تعهد مرفقا منتظما يعنى بصيانة المواصلات بل أنيط أمرها ـ من حيث المبدأ ـ بالسكان الذين فرضت عليهم ضريبة بهذا الخصوص يستوفيها منهم الوالي لكنه لاينفق حصيلتها في اصلاح خطوط السير .

وبعدما انشئت سكة الحديد أصاب الاهمال بعض الطرق التي زاوجها القطار . وغالبا ما امتدت الطريق بين السكتين مما ادى الى دهس القوافل والمشاة ، رغم تباطؤ سير القطار وبخاصة في أجزائه المسننة .

وقد قامت شركة فرنسية اسمها « الشركة العامة لمشاريع الدولة العثمانية » بانشاء الطرق التي تسلكها المدافع ووسائل النقل العسكرية .

وكانت العربات من الندرة بمكان . فقد وجد عدد منها بعجلتين أو أربع تجرها البغال حول بعض المدن مثل حلب أو دمشق . وظل امتطاء الابل في بلاد الشام أكثر وسائل النقل شيوعاً بين الحواضر . ومانفكت القوافل الصغيرة المؤلفة من ثماني أو عشر دواب تجوب المحاور الكبرى حتى منتصف القرن العشرين .

وهناك ثلاثة أسباب تدعو الى انشاء الطرق : الحاصلات القابلة للنقل والتي يزداد عليها الطلب . ثم قيام جماعات تفتقر الى هذه المنتجات، وأخيراً توفر أدوات النقل الملائمة . كماان هناك طرقا برية ونهرية وبحرية.

ومن جهة ثانية تكون الجماعات البشرية مقيدة بطبيعة أروقة المرور التي لاتحول دون انتشار الافكار والافراد ، كما تحتاج الى بعض الحاصلات التي يتوجب نقلها من مصدر انتاجها الى مكان استهلاكها . والمعول عليه في تحديد رسم الطريق هو اختيار الانسان لخط السير . على ان هذه الخطوط تابعة لمقتضيات ينبغي للمسافر ان يذللها حتى يلتمس طريقه فيها . فيخترق الحواجز الجبلية بالممرات أو « الابواب » ويعبر مجاري الانهار في مواضع محددة تبعا لعرض النهر وعمقه ويحتال على المستنقعات بالالتفاف حولها .

وثمة طرق ثابتة على مر الزمن ، واخرى مؤقتة اصابها التغيير في خط سيرها . فانصرف عنها الناس حينامن الدهر ثم عادوا الى استخدامها حسب الظروف والملابسات الاقتصادية الناجمة عن أوضاع سياسية . فحوادث الغزو مثلا غالبا ماتقترن بتدمير موارد المياه ، فتكون بالغة الاثر في شبكة المواصلات لاسيما في المناطق الواقعة الى جنوب الصحراء .

ويمكننا التمييز بين الطرق التي تختلف باختلاف طبيعتها مما يفضي الى الوان منوعة من المواصلات . فالطريق الساحلية هي – من حيث المبدأ – محاذية للشاطىء مالم يكن الشاطىء شديد الوعورة فتبتعد عنه الطريق . واذا كانت المنطقة الخلفية مؤلفة من تضاريس عالية متعامدة مع البحر ، كان لابد من اختراق هذا الحاجز بممرات داخلية . ذلك هو شأن جبال طوروس . واذا تألف الساحل من كثبان رملية أومستنقعات جانبته الطريق أيضا . ومن هذه الطريق الساحلية تتفرع الخطوط باتجاه الداخل أي في المنطقة الخلفية للقطر .

اما المواصلات الممتدة في السهول فلا تتعرض لصعوبات تذكر ،وقلما كان تخطيطها متعرجا . فهي تساير اطراف الاراضي الزراعية كيما تتيح لاعمال الحراثة أوسع مساحةممكنة.ونستطيع تشبيه المسالكالصحراوية اما بالطرق الساحلية التي تلتف أحيانا حول منطقة شديدة الوعورة ، أو بالطرق السهلية مع مختلف نقاط تقاطعها ، أو بالشعاب الجبلية . ولابد لهذه الشعاب الجبلية من تسلق السفوح التي قد يكسوها الثلج في الشتاء . ولابد لها أيضا – اذا تيسر لها ذلك – من الهبوط في قاع الوديان وتتبع ذرى الجبال واجتياز الممرات قبل الانحدار ثانية الى مستوى السهول .

ولقد عهدت سوريا شبكة من الطرق الرومانية التي انشئت لتيسير المواصلات العسكرية ومازالت هذه الطرق الى يومنا هذا تشكل المخطط الاساسي في كثير من القطاعات وبخاصة تلك التي تكون فيها المسالك الزامية بسبب التضاريس ومجاري الانهار .

وقد يكون من المفيد ان نشير هنا الى خارطة المواصلات الرومانية التي وضعها انطوان Poidebard بمقياس ١/٥٠٠٠٠٠ وتضمنها كتابه « الحدود عند مدينة Chalas » . فهي تنطوي على مخطط يطابق مطابقة تامة الخط الساحلي السوري كما يبدو على الخارطة التيأعدتها

وزارة المواصلات السورية ـ وبالمقياس ذاته ـ قبل حوالي اثني عشرعاما . ويلاحظ أخيرا ان المسافات قيست بالاميال في زمن الرومان أوبالخطوات. قبل أن تقاس بالكيلومتر في فترة متأخرة . وتم تقديرها أيضا بالساعات والايام كما يطالعنا دليل Baedeker الصادر عام ١٩١٢ .

ونحن في الغرب عندما نتحدث عن خطوط المواصلات تتبادر الى ذهننا الطرق المغطاة بالصفائح أو الحجارة . لكن طرق المشرق ـ باستثناء تلك التي أنشأها الرومان لاسباب ستراتيجية ـ لم تكن قديما الا مسالك أو دروبا على أساس طبيعي لايتسنى عبورها الا للرواحل من ابل وبغال وحمير بصرف النظر عن المركبات المزودة بالعجلات . وظلت هذه الطرق زمنا طويلا في العصر الوسيط حتى تفتقت للقوم حاجات جديدة . واقتضى الازدهار الاقتصادي انشاء طرق جديدة في القرن العشرين . واجراء بعض التغيير في أماكن الطرق وتعديل رسمها بما يتلاءم مع تطور وسائل النقل واستحداث الوان مبتكرة من النشاط الاقتصادي والصناعي .

لدينا اذن انماط متباينة من المواصلات في المشرق العربي . فهناك الخطوط الرومانية ودروب الحج (والزيارات الدينية) والخطوط التجارية وطرق القوافل ناهيك عن المواصلات العسكرية والمسالك الاستراتيجية وخط سير البريد بالاضافة الى ما يستخدمه الناس في تنقلهم اليومي بين المدينة وضواحيها .

ومن الطرق التي تميزت بالدوام والثبات عبر التاريخ الاسلامي نذكر دروب الحج . ويرجع السبب في ذلك الى استقرار نقاط التجمع والمحطات التي يحل فيها المسافرون مما يتطلب القيام باجراء بعض المنشآت والتجهيزات الدائمة لاستقبال الحجيج . فقد كان هذا الجمهور بحاجة الى الماء طوال ترحاله ، ومنه كانت أهمية الابار والخزانات المائية التي أنشئت على جوانب الطرق المؤدية الى مكة والمدينة . وهناك مواقع مأثورة يؤمها الناس كالمزارات الاسلامية ، والاديرة المسيحية . فكان لزاما على الحجيج ، اذا قصدوا تلك الاماكن المقدسة ، أن ينضموا الى التجار على الطرق الواصلة بين المدن الكبرى .

ووجدت أيضا في المشرق الاسلامي ـ ابان العصر الوسيط ـ شبكات من الطرق يرتادها طلاب العلم سعيا وراء جمع الاحاديث النبوية . فهي أشبه « بالدارات الجامعية المغلقة » بالمعنى الصحيح يسلكها أولئك

الطلاب في مقتبل عمرهم ميممين وجوههم شطر القاهرة والمدينة والكوفة والبصرة وبغداد ونيشابور ومرو . وكان عليهم في العهد العثماني أن يقصدوا استنمبول حاضرة الملك .

أما الطرق التجارية فهي التي تنطلق من مختلف المناطق المنتجة للسلع الاستهلاكية لتلتقي في المراكز الحضرية الكبرى . وقد تسفر الحركة التجارية أحيانا عن تخصيص احدى الطرق الهامة بسلعة معينة : مثل « طريق الذهب » عبر الصحراء أثناء القرون الوسطى ، و « طريق الحرير » الذي يجتاز آسيا الوسطى أو « طريق البخور » الذي يتخلل الحجاز . ومن شأن هذه الطرق التجارية ان تصل دائما بين التجمعات السكانية الكثيفة وبين المناطق الاقتصادية الشهيرة التي قامت ــ من حيث الاساس ــ على زراعة الارض وتربية الماشية . فتأتي الرواحل (من ابل وبغال وحمير) الى المدن الكبرى محملة بالانتاج الخام ثم تغادرها مزودة بالسلع المصنعة كالنسيج والقماش والجلد المدبوغ والحلي والادوات الزجاجية . وبوسعنا الوقوف على حركة المحاصيل وطبيعتها في مدينة من المدن ، بالرجوع الى نصوص القرارات الصادرة في عهد المماليك أو الانظمة الضريبية التي فرضها العثمانيون على عدد من المواد الغذائية .

والى عهد قريب ــ وقبل انشاء الصناعات في ضواحي المدن ــ تكفلت خطوط المواصلات بين الحواضر وضواحيها بتموين أسواق المدينة يوميا لاسيما بالخضار اليانعة والفواكه والزبدة والبيض . وأتاحت لاهالي الريف أن يؤموا السوق الحضرية حتى يبادلوا حاصلاتهم الزراعية بمنتجات مصنعة على يد أرباب الحرف .

أما الخطوط التي يستخدمها الجيش كالطرق الاستراتيجية والمواصلات العسكرية فهي ــ في بعض القطاعات على أقل تقدير ــ مختلفة عن الخطوط التجارية . اذ يفترض بالطرق العسكرية ألا تكون شديدة الانحدار ولا شديدة الضيق كيما يتسنى للرواحل عبورها وتزويد هذه الرواحل بالعلف والماء . وكيما يتيسر نقل المعدات اللازمة لاعمال الحصار كالآلات الحربية والمنجنيقات والمدافع المحملة على الابل بعد تفكيك أجزائها . ومن شأن هذه الطرق عامة أن تصل بين الثغور ونقاط الارتكاز التي تحمي الحدود .

ماهي المعلومات التي نستقيها من جميع هذه الطرق ؟ انها تفيدنا أولا في الاطلاع على الفئات البشرية التي انتفعت بها في معظم الاحيان :

كالحجيج والتجار والجنود . وهي تدلنا أيضا على المواقع الثابتة التي أقيمت فيها المدن بدافع عامل جغرافي يبرر انشاءها مثل الآبار وموارد الماء وتقاطع الطرق والمزار الديني أو السوق التجارية . وقد يطرأ تحول على رسم الطريق مما يشير الى المراحل المتعاقبة التي عهدتها المواصلات أو يشير الى تغيير أصاب بعض المواقع من حيث أهميتها الاقتصادية أو الاستراتيجية : مثل انتقال المركز السياسي للاقليم أو تبديل مكان اقامة الامير بفعل بعض الملابسات السياسية . وواضح ان قلة الطرق دليل على قلة التنقل .

هذا ويمكننا التحقق من خطوط السير بفضل ماتخلفه من آثار ، فقد كانت الطرق حافلة بالمعالم وظل بعضها قائما الى يومنا بينما تشير الاطلال الى بعضها الآخر . نذكر من هذه المعالم موارد الماء التي أعدت للاستخدام والآبار والأحواض ، وقد سميت المواقع باسمها . وهناك أيضا « منازل » المسافرين أو المحطات أو الخانات التي انشئت على جوانب الطرق منذ العصر الوسيط ، ناهيك عن الابراج أو القصور أو الاديرة المسيحية أو الصوامع الاسلامية التي أطلق عليها اسم « الرباط » أو « الخانقاه » . وفي المحطات النهائية ، بنيت المستودعات ومخازن السلع التي دعيت بالفنادق أو الوكالات أو الخانات الحضرية واختلفت هذه الاسماء باختلاف المكان والزمان .

وكان العثمانيون يعنون عناية كبرى بالخانات القائمة على جوانب الطرق وفي المحطات وأماكن ابدال الرواحل . كما شيدوا أعدادا جديدة منها . واليهم يعود الفضل في بناء الكثير من الجسور ــ طوال خطوط السير ــ واعداد الينابيع التي يتدفق منها الماء ارواء لظمأ المسافرين ورواحلهم . وغالبا ما أعدت هذه العيون في قمة المسالك الجبلية . فاذا ضممنا علم الآثار الى الاراثة التاريخية ، حصلنا على وثائق محسوسة مباشرة . لكن تحديد الموقع يبقى على جانب من الصعوبة ، وكذلك التحقق من اسمه رغم وجود الاطلال. فقد تحولت أسماء كثيرة عبر القرون أو نقلت الى اللغات الاوربية بكتابات متباينة . كما اندثرت بعض الاسماء فلا نستطيع تحديد تلك المواقع الا تحديدا تقريبيا .

وختاما نقول ان دراسة ظاهرة الطرق لاتخلو من فائدة في جميع الأزمنة والعهود وبخاصة في القرنين السابقين بسبب تأثيرها في التجارة الخارجية والداخلية ، فهي تعكس النمو الاقتصادي ــ أو انحطاطه ــ في المدينة أو الاقليم . ولذلك كان كل بحث زمني منتظم لخطوط المواصلات في القرن السادس عشر شديد النفع لتزداد معرفتنا ببلاد الشام .

حيفا في العهد العثماني الأول

دراسة في أحوال عمران الساحل الشامي

الدكتور محمد عدنان البخيت

(الجامعة الاردنية ـ عمان)

في سنة ٤٣٨ هـ/١٠٤٦م عندما كان الداعية الاسماعيلي ناصر خسرو(١) (ت ح ٤٥٢هـ/١٠٦٠م) في طريقه من مرو الى القاهرة ، مركز الدعوة الفاطمية آنذاك ، مر بحيفا(٢) التي يصفها لنا بقوله : « ثم غادرتها (اي عكة) الى قرية تسمى حيفافي طريق به كثير من الرمل الذي يستخدمه صياغ العجم والمسمى بالرمل المكي . وحيفا مشيدة على البحر وبها نخل واشجار كثيرة . وهناك عمال يصنعون السفن البحرية المسماة بالجودي»(٣) وبعد ذلك بقرن من الزمان يشير الجغرافي أبو عبد الله محمد بن محمد الادريسي الحسني(٤) (ت ٥٦٠هـ/١١٦٠م) اليها بقوله : « وحيفا تحت طرف الكرمل وهو طرف خارج في البحر وبه مرسى حسن لارساء الاساطيل وغيرها ، ومدينة حيفا هي فرضة لطبرية وبينهما ثلاث مراحل خفاف »(٥) . ان هذه الصورة المشرقة لحيفا في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي ، تنعكس وتبدو مكفهرة في المصادر العربية وذلك بسبب الخراب الذي لحق بها بعد استرجاعها من أيدي الفرنجة . فهذا شهاب الدين ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) ، لايذكر شيئا عن صناعة السفن فيها ولايشير الى مرساها وجل ما يسجله لنا عنها على انها : « حصن على ساحل بحر الشام قرب يافا ولم يزل في أيدي المسلمين الى ان تغلب عليه كندفرى(٦) الذي ملك القدس في سنة ٤٩٤هـ/١٠٩٩م) وبقي في أيديهم الى ان فتحه صلاح الدين يوسف بن أيوب في سنة ٥٨٣/ ١١٨٧م)(٧) وخربه »(٨) . ولم تمكث حيفا طويلا في أيدي المسلمين اذ استرجعها الفرنجة منهم ، والجدير بالذكر ان الملك لويس التاسع حوالي سنة ١٢٥٠ ـ ١٢٥١م حصن فيها القلعة التي تعرضت للخراب ثانية على يد المماليك وذلك في سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٥م . فيذكر القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر (ت ٦٩٢هـ/١٢٩٢م) ، في أخبار سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٥م ، مايلي : « وفي سادس وعشرين جمادى الاول (٢ آذار

١٢٦٥م) توجه السلطان (الظاهر بيبرس) الى جهة عثليت جريدة وسير الامير شمس الدين اقسنقر السلاح دار الظاهري والامير عز الدين الحموي والامير شمس الدين سنقر الالفي الظاهري الى حيفا فساروا اليها ودخلوا قلعتها فنجا الفرنج بأنفسهم الى المراكب بعد أن قتل منهم وأسر ، واحضرت الاسارى والروس ، واخربوا المدينة وقلعتها وأحرقوا أبوابها وجعلوها خاوية على عروشها كأن لم تغن بالامس وكان أخذها وما اعتمد فيها من قتل وأسر واخراب واحراق في يوم واحد وعاد الامراء سالمين »(٩) . ويؤكد على هذه الصورة من الخراب أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري (ت ٧٤٢هـ/١٣٤١م) الذي ينقل عنه الكاتب الموسوعي شها بالدين أحمد القلقشندي (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م) ، وصفه لحيفا بهذه الكلمات : « وهي خراب على الساحل »(١٠) والى مثل ذلك اشار البحارة العثماني بيري محي الدين ريس(١١) . (ت ح ٩٦٢هـ/ ١٥٥٤ – ١٥٥٥ م) ، في مؤلفه : **كتاب بحرية** ، الذي قدمه سنة ٩٣٢هـ/١٥٢٥ – ١٥٢٦م) الى السلطان سليمان القانوني ، حيث ذكر ان قلعتها مدمرة لكن ميناءها يصلح للرسو(١٢) .

كانت حيفا في العهد المملوكي جزءا من عمل اللجون(١٣) الذي كان تابعا لصفد والتي هي بدورها كانت تشكل القاعدة الخامسة من قواعد المملكة الشامية(١٤) ، ولم تتبدل هذه التبعية في العهد العثماني . فمن المعروف ان العثمانيين بعد قضائهم سنة ٩٢٧هـ/١٥٢١م ، على حركة العصيان التي قادها ضدهم الامير المملوكي جان بردى بن عبد الله الغزالي المولى على دمشق « ومعاملاتها »(١٥) ، من قبل السلطان سليم الاول ، قسموا بلاد الشام الى ثلاث ولايات : ولاية حلب ، ولاية طرابلس الشام وولاية دمشق الشام . وقسمت الولاية الاخيرة الى عدد من السناجق (الألوية) هي : دمشق ، تدمر ، عجلون ، الكرك (كانت في معظم الاحيان تدمج مع عجلون) غزة ، القدس الشريف ، نابلس ، صفد واللجون(١٦) . وعند العودة الى دفاتر الطابو (الاراضي) العائدة الى سنجق اللجون نجدها تذكر حيفا كقرية في ناحية ساحل عثليت الغربي التابع للسنجق المذكور . ولعله من المفيد هنا ا نقارن المعلومات الواردة عن حيفا في دفترين من دفاتر الطابو : الاول منهما(١٧) يعود تاريخه الى سنة ٩٤٥هـ/١٥٣٨م ، أما الثاني(١٨) فيرجع بتاريخه الى سنة ١٠٠٥هـ/١٥٩٦م .

الضرائب مقدرة بالاقجة وهي ربع المحصول الشتوي

رقم الدفتر وتاريخه	عدد السكان خانة (١٩)	حنطة غراره	شعير غراره	خراج أشجار زيتون+تين	رسم معزة	رسم نحل	بادهوا	معادية	محصول اسكله (ميناء)
١٩٢ (اسطنبول)	٢٠ مسلمون	٢٥	١٠	٧٥	٦٣	٢٩٣	٢٠٠	٤٠٠	١٠٠٠ + محصول أسكلة ساحل عتليت وطيونه وطرطوره
٩٤٥هـ/١٥٣٨م		٣٠٠٠	٧٢٠						
١٨١ (انقرة)	٣٢ مسلمون	٤٠	٢٠	+كروم وغيره	+نحل		بادهوا+رسم عروس		
١٠٠٥هـ/١٥٩٦م		٥٦٠٠	١٦٠٠	١٠٠٠	٣٥٠		٣٥٠		٥٠٠٠ (خاص شاهي)

نلاحظ من هذين الاحصائين انه خلال العهد العثماني من القرن السادس عشر الميلادي ان عدد السكان بحيفا كان قد تضاعف . وهذه الزيادة العالية جاءت متفقة مع ظاهرة زيادة السكان التي شهدتهاولاية دمشق حتى مطلع سبعينات القرن السادس عشر ، الا ان سكان حيفا لم يتناقصوا على غرار ما لوحظ في ولاية الشام(٢٠) . ولقد واكب هذهالزيادة ارتفاع في كميات الضرائب المحصلة اذ ارتفعت من ٤٧٥١ اقجه(٢١) بموجب الدفتر الاول الى عشرة الاف اقجة حسبما جاء في احصاءات الدفتر الثاني . بجانب ذلك نلحظ ارتفاع الاسعار ، فمثلا كانت غرارة(٢٢)الحنطة تقدر بمائة وعشرين اقجة سنة ٩٤٥هـ/١٥٣٨م فأصبحت تقوم بمائة واربعين اقجة بعيد نهاية القرن . وعلينا ان نتذكر هنا ، ان الدولة العثمانية في أواخر القرن السادس عشر الميلادي قد بدات تعاني من أزمة تضخم مالي كبيرة ، اذ ان عملتها الفضية لم تعد قادرة على مواجهة ضغط العملات الاوروبية خاصة الفلورى الايطالي الذهبي الذي بدأ يغزوالاسواق العثمانية المفتوحة نتيجة لتدفق كميات ضخمة من الذهب والفضة من امريكا على أوروبا . وكان اجتهاد الدولة العثمانية الذي الحق الضرر الكبير بعملتها يتلخص بانقاص كمية الفضة في تلك العملة فارتفعت نتيجة لذلك أسعار السلع وبهذا ضعفت القوة الشرائية للاقجة(٢٣) .

كما نرى من قائمة الضرائب المدونة أعلاه ، ان الدولة العثمانية كانت تأخذ ربع الحاصل الشتوي عينا أو قيمته نقدا(٢٤) . أما فيما يتعلق بأشجار الزيتون فلقد نص قانون لواء اللجون على مايلي : اذا كان الزيتون روماني فنصف حاصله يعطى للسباهية ، أما اذا كان الزيتون اسلاميا فلقد كانت الدولة تجبي اقجة عثمانية واحدة عن كل شجرتين . وكانت الدولة تأخذ عن كل مائة شجرة من الكرمة خمس اقجات عثمانية . والجدير بالملاحظة ان الضريبة على الاشجار يشار اليها في هذه الدفاتر بالمصطلح الاسلامي المعروف « خراج »(٢٥) . اما الضريبة المحصلة عن الماعز فيشار اليها باسم « رسم » والقاعدة التي اتبعت في جبايتها ان تؤخذ اقجة واحدة عن كل رأسين من الماعز(٢٦) . والطريف ان العثمانيين كانوا يجبون رسوما على المناحل بمعدل اقجة واحدة عن كل منحلة(٢٧) . ويلمس الدارس لدفاتر الطابو المتعلقة ببلاد الشام ان تربية النحل كانت منتشرة في هذه البلاد .

لقد شهدت المحاكم في بلاد الشام في العهد العثماني اجراءات جديدة

تتمثل في جمع رسم محدد عند النظر في الدعاوى والقضايا ، أو عند عقد نكاح وكذلك عند تسجيل حجة . فكانت الرسوم التي تجمع عند عقدنكاح بكر أو مطلقة أو أرملة يطلق عليها اسم « رسم عروس »(٢٨) . كان جزء من هذه الرسوم يخصص للقاضي ولمن يعمل معه في المحكمة والقسم الاكبر كان يعطى لاصحاب « الخاص » أو « الزعامت » أو « التيمار » حسبما يحدد ذلك دفتر الطابو لكل بلدة أو موقع . أما الضرائب الطارئة والمتفرقة وهي تشبه ما كان يشار اليه في العهد العباسي باسم « الطيارات » ، فان المصادر العثمانية عادة ما تعبر عنها بالمصطلح الفارسي « بادهوا »(٢٩) . وعند وقوع جريمة قتل أو سرقة أو انتحار فان الدولة كانت تأخذ من المسؤولين عن تلك الجريمة رسوما تعرف باسم « رسم جرم وجنايت » . أما اذا كان المتسببون بذلك مجهولين فان أهالي الحارة كانوا يجبرون على دفع تلك الرسوم(٣٠) .

اذا ما أجلنا النظر في قائمة الضرائب المدونة أعلاه نجدها تشير الى ضريبة تسميها محصول اسكلة(٣١) (ميناء) . واذا ما عدنا الى قانون نامه لواء اللجون فاننا لانجد نصا يوضح القاعدة التي كان يتم بموجبهاجمع هذه الضريبة. الا ان قانون نامه لواءالشام لحسن الحظ ، يحدد بالتفصيل مقدار الرسوم المحصلة سواء على المواد المصدرة أو المستوردة ويشير الى ذلك بما يلي : « يطلق على مايجبى من جمارك ورسوم وغيرها من الواردات عند أبواب الموانىء الكائنة في ولاية الشام كبيروت وصيدا وصور وعكة ويافا ، يطلق عليها اسم « موجب باب المينا » . ويزودنا قانون نامه المذكور اعلاه بقائمة طويلة ومفصلة باسماء السلع والمواد المستوردة أو المصدرة ومقدار الرسم المتوجب عليها مبينا القاعدة المتبعة في تقدير قيمة البضاعة والرسم المستحق(٣٢) . وهناك ضريبة تذكر في الدفتر الاول فقط بينما لايذكرها الدفتر الثاني ، حيث ترد باسم معادية وليس لدينا معلومات عنها ، ولربما كانت المعادية تشبه الضريبة التي كانت تجمع في لواء نابلس من المسلمين باسم « رسم رجالية » بمعدل ٤٠ اقجة على الخانة المسلمة الواحدة(٣٣) . وأخيرا فان هذين الدفترين لايشيران الى ضريبة تجمع عن أشجار النخيل في حيفا مما يدل على عدم وجودها ، هذا مع العلم ان ناصر خسرو كما رأينا في رحلته يشير اليها في حيفا بقوله : « وبها نخل وأشجار كثيرة » .

ان كلا الدفترين يشيران الى ان قرية حيفا كانت من ضمن اقطاع

اسرة ال طراباى(٢٤) التي أصبحت تعرف فيما بعد باسم الاسرة الحارثية(٢٥). فالدفتر الاول يذكرها من ضمن الاقطاعات التي أعطتها الدولة العثمانية « لامير الدربين » طراباى بن قراجه . كما ان الدفتر الثاني يبين ان ريعها كان موزعا مابين أحمد وعلي : ولدى طراباى ووكيلهم (كتخداهم) داؤد . هذا بالاضافة الى خمس مزارع جوار حيفا بلغ مجموع ما يتوجب منها سبعة الاف اقجه موزعة بين ثلاثتهم(٢٦) . الا انه من الملاحظ ان هذه الاسرة لم تسع الى تطوير ميناء حيفا واستغلاله تجاريا مع أوربا التي نمت تجارتها مع سواحل بلاد الشام في مطلع القرن السابع عشر ، على غرار ما أقدم عليه معاصرهم فخر الدين المعني في تطوير وتوفير الامن في موانىء بيروت وصيدا وعكا . بل كانوا في سياستهم تلك يلتقون الى حد بعيد مع سياسة الزعيم السني يوسف باشا سيفا (ت ١٠٣٤هـ/١٦٢٥م) في طرابلس(٢٧) في عدم اكتراثه بتشجيع التجارة مع الاوروبيين . بل أكثر من ذلك فان أحد الاحكام الشريفة المرسلة من السلطان الى قاضي اللجون بتاريخ ١٧ شوال ١٠١٩هـ/٢كانون الثاني ١٦١١م ، يشير الى ان تجار الافرنج الذين كانوا يفدون على حيفا للتجارة كانوا يتعرضون للاذى والخطر من جانب أمير اللواء واخرين ، لذا فان هؤلاء التجار لم يعودوا يرتادون حيفا وان الحكم يطلب من القاضي ان يمنع أمير اللواء ورجاله عن التعرض بأي اذى لهؤلاء التجار(٢٨) . ويمكننا القول انه نتيجة للصراع الذي نشب مابين الامير فخر الدين المعني والامير أحمد الحارثي (ت ١٠٥٧هـ/١٦٤٧م) فان حيفا قد أصيبت باضرار بالغة . ففي سنة ١٠٣٢هـ/١٦٢٢م تبين لفخر الدين المذكور ، زعيم الجناح القيسي في بلاد الشام ، ان أحمد الحارثي ، زعيم الجناح اليمني آنذاك ، يعمل ضده فأرسل فخر الدين أحد رجاله « نصوح بلوكباشي مسك برج حيفا » فما كان من علي الحارثي ، شقيق أحمد ، الا ان اغار على ساحل عكا » واخذ طرشه وعاد الى بلاده مارا على حيفا فطلع اليه ولاقاه نصوح بلوكباشي بسكمانيته وبيرقه في برج حيفا لان الامير كان أوقفه فيه كما ذكرنا ، وحاربه وقصد بذلك أخذ الطرش منه واستخلاصه فركضوا عليه وعلى جماعته بالخيل وجماعة مشاة فقتل نصوح المذكور مع رجلين آخرين وانهزم الباقي الى البرج فدخل عليهم الوهم ونزلوا في مركب وجاؤوا الى عكا ..(٢٩) وصارت عرب الامير أحمد بن طراباي تغير على بلاد كفركنا وتأخذ طرشها وغلالها وصيرتها دكا واستمروا على ذلك الى

ان وصل اليهم خبر كسرة عسكر الشام « في معركة عنجر(٤٠) » . فبعد انتصار فخر الدين في تلك المعركة ، قام في شهر شعبان ١٠٣٣هـ/١٦٢٤م بالتوجه الى شمالي فلسطين حيث أعادها الى سيطرته وكان من ضمن ذلك حيفا . « وأبقى في برج حيفا ترتر حمزه بلوكباشي وحط عنده عازقا(٤١) يكفيه وعمل الامير فخر الدين في هذه المنزلة أو تراق(٤٢) ثلاثة أيام »(٤٢) وكانت قد جرت أتصالات للصلح مابين المعنيين والحوارث « وفي عاشر شهر شوال (١٠٣٣هـ/٢٧ تموز ١٦٢٤م) صار بين الامير فخر الدين وبين الامير أحمد بن طراباي مكاتبات ومراجعة ومراسلات وحصل الاتفاق بينهما ان الامير فخر الدين بن معن يرفع سكمانيته من برج حيفا وان الامير أحمد بن طراباي يمنع عربانه عن التخريب في بلاد صفد وتصير المصافاة بينهما على بعد ، ففعل كل منهما ذلك ، غير أن الامير احمد بن طراباي أرسل هدم برج حيفا المذكور بعد خروج السكمانية منه ومشت الدروب بين بلاد حارثة وبلاد صفد وما عاد أحد يتعرض الى أحد(٤٤) » فلربما بسبب هذا الخراب نرى أحمد الحارثي يخرج عن سياسته التقليدية القائمة على عدم الاهتمام بالميناء فنجده يسمح لاحد الرهبان الكرمليين سنة ١٠٤١هـ/١٦٣١م ببناء مساكن في الميناء ويعطيه بذلك دستورا يقول فيه : « ... وكذلك في المينا يعمر ما يحتاج اليه من المساكن واعطيناه دستور في ذلك ، فبموجب ذلك لاأحد يعترض لهم في ذلك بوجه من الوجوه لا من أهل البلد ولا من غيرهم من العربان والفلاحين وكل من يعترض لهم لايلوم الا نفسه والحذر من المخالفة في ذلك ، وذلك جرى في أواخر شهر جمادى الاول سنة واحد واربعين بعد الالف »(٤٥) . وكما يبدو ان هذه التجربة لم يكتب لها النجاح اذ ان هناك بعض الاشارات تفيد انه بدأ يضايق الرهبان بل زيادة على ذلك سجن أحدهم ولم يطلقه الا بعد ان دفع ذاك الراهب لاحمد الحارثي فدية عن نفسه(٤٦) .

كانت الدولة العثمانية السنية تنظر بمزيد من الحذر لتحركات الاقليات من الجماعات والطوائف غير السنية في بلاد الشام خاصة في منطقة الشوف وجبل عاملة والجليل الاعلى . فلقد كان سكان هذه المناطق خاصة جنوبي لبنان وشمالي فلسطين ، خليطا من الدروز والشيعة الاثنى عشرية (المتاولة) والعناصر المسيحية التي كان من أبرزها الموارنة الذين دأبوا على الهجرة من الشمال الى الجنوب بتشجيع من فخر الدين المعني الثاني ، هذا اذا أخذنا أيضا بعين الاعتبار الهجرة اليهودية في القرن السادس عشر(٤٧) الى منطقتي طبرية وصفد . يضاف الى كل ماذكر أعلاه تواجد العناصر البدوية ، ولعلنا لانجانب الحقيقة اذا قلنا ان نسبة العناصر السنية المستقرة كانت في تلك المنطقة ضئيلة بالنسبة لمجموع السكان . فمن أجل معالجة

هذا الامر نجد ان الدولة العثمانية تحاول سنة ١٠٢٣هـ/١٦١٤م ، بعد هروب فخر الدين المعني الى تسكانيا ، اجراء تنظيم اداري جديد فيولاية دمشق الشام . فاقتطعت ناحيتي صيدا وبيروت ولواء صفد وشكلت منها ولاية جديدة عرفت باسم ولاية صيدا ، وكانت الغاية الاولى من وراء ذلك مراقبة وضبط حركات الدروز(٤٨) . الا ان الحياة لم تكتب لهذه المحاولة اذ ان الدولة العثمانية عادت وصرفت النظر عنها واعادت الولاية الجديدة الى ما كانت عليه في السابق من حيث تبعيتها لولاية دمشق الشام . والمحاولة الثانية التنظيمية جاءت سنة ١٦٦٠م وهدفت كالاولى الى ضبط العناصر المحلية من المعنيين والشهابيين والحمادية والشيعة وكانت كما وصفها المطران الماروني اسطفان الدويهي (ت ١٧٠٤ م)مشيرا الى خطورة خطوة الوزير محمد باشا كوبريلي والي دمشق الشام آنذاك : « .... وحتى يحطم ذراع أولاد العرب عمل صيدا باشاوية وكتبها على علي باشا الدفتر دار . »(٤٩) وبالرغم من هذا التنظيم الاداري الجديد ظلت حيفا جزءا من لواء اللجون وتابعة لولاية دمشق الشام مع العلم ان مساحات كبيرة من الاراضي المحيطة بحيفا بما في ذلك خليجها الشمالي ، كانت قد ضمت الى اراضي الولاية الجديدة . وربما كان هذا من حسن حظ حيفا اذ انها بسبب بعدها عن عين سلطة دمشق أصبحت مأوى للقراصنة وللتجارة المهربة حتى أصبح يطلق عليها اسم «مالطة الصغرى» . فأخذت السفن تقصدها متجاوزة عن عكا وصيدا وعلى الاغلب للتهرب من دفع الضرائب المستحقة أو لشراء مواد لم تكن الدولة تسمح بالمتاجرة بها كالقمح والبارود وللتزود بالماء . وكان القنصل الهولندي في عكا طرفا في عملية التهريب تلك فكان ذلك مدعاة لاثارة حفيظة زميله القنصل الفرنسي نظرا للاضرار التي لحقت بالتجارة الفرنسية التي كانت تعتمد مينائي صيدا وعكا . ونتيجة للشكاوى الفرنسية ، أصدرت الدولة العثمانية سنة ١٧١٦م فرمانا الى خليل باشا واليها في صيدا ، تشير فيه الى حركة القرصنة وتأمره ببناء عدد من الابراج حول ميناء حيفا في محاولة منها لوضع حد لعملية التهريب تلك . واستجابة لذلك قام الوالي المذكور بزيارة استطلاعية للمنطقة وكانت توصياته تتلخص باعادة بناء القلعة ولكن وفاته المفاجئة أجلت الموضوع الى ان استؤنف النظر فيه سنة ١٧٢٢م(٥٠). وكان قرار الدولة العثمانية يتلخص في تعمير برجين على جانبي الخليج ، بدل اعادة تعمير القلعة نظرا لما كان يتطلبه اعادة بنائها من التكاليف

الباهظة . وكلفت واليها عثمان باشا ابو طوق(٥١) في صيدا بالاشراف على تنفيذ هذا القرار . فتم انجاز تعمير البرج الاول على الجهة الشرقية في سنة ١٧٢٣م وفرغ من اقامة البرج الثاني على الجهة الغربية من الميناء في سنة ١٧٢٥م . واقام عثمان باشا ابو طوق في كل منها ستة وثمانين من جنود المدفعية(٥٢) وستة وثلاثين من الجبجية(٥٣) ولقد زار الرحالة الانجليزي Richard Fococke حيفا سنة ١٧٣٧ وأشار الى أن الهدف من وراء تشييد هذين البرجين ، كان صد هجمات القرصان . ومن خلال تفاصيل رحلته يلاحظ القارىء نشاط القرصان من مالطا في منطقة شرقي البحر الابيض المتوسط(٥٤) . كل ذلك تم وحيفا مازالت تابعة لولاية الشام ، فمن أجل تصحيح هذا الوضع ووضع الامور في اطارها الطبيعي صدرت أوامر الدولة في سنة ١٧٢٥م بضمها وضم طنطوره الى ولاية صيدا(٥٥) . ورغبة من الدولة في تعمير حيفا ، وعدت ستة من أصحاب الزعامات في سنجق اللجون وخمسة وثلاثين من أصحاب التيمارات في السنجق المذكور باعفائهم من دفع بدل رواتب الجنود الذين كان يجب عليهم توفيرهم على حسابهم الخاص مقابل حصولهم على تلك الزعامات والتيمارات ، فيما اذا انتقلوا وسكنوا في بيوت تقام لهم بالقرب من البرجين المذكورين . وزيادة في التشجيع على سكنى حيفا وعدت الدولة المسيحيين الذين ينتقلون للاقامة في حيفا باعفائهم من الجزية وكذلك من سائر التكاليف العرفية(٥٦) ولقد كانت الاستجابة من جانب أصحاب الزعامات والتيمارات والينكجرية كبيرة ، ويلاحظ انه بعد انتقالهم للسكنى في حيفا بدأوا بالعمل في الزراعة مما جعلهم يصطدمون مع الاهالي من سكان حيفا ومع الفلاحين هناك . ولقد عقد اجتماع في أواخر صفر ١١٣٨هـ/ أوائل تشرين الثاني ١٧٢٥م ، برئاسة الوالي الحاج عثمان باشا أبو طوق المذكور اعلاه للنظر في الامر وللبحث عن حل للمشكلة . ولقد تم الاتفاق في ذلك الاجتماع ان لايتعرض الاهالي ولا الفلاحون أصحاب الزعامات في حراثة وفلاحة الاراضي المهجورة . ولقد تم تسجيل بنود الاتفاق في حجة شرعية باللغتين العربية والعثمانية وحفظت نسخة منها في « الجبخانة » للعودة اليها . ونظرا لاهمية هذه الحجة فاننا نثبت نصها التالي(٥٧) :

« لما انعقد المجلس الشرعي في القلعة المجددة موجب الفرمان العالي

الشريف غربي اسكلة حيفا بحضرة جناب الدستور المكرم المشير المفخم ناظم مناظم الامم الحاج عثمان(٥٨) باشا محافظ ايالة صيدا حالا زاده الله رفعة واجلالا وبحضرة فخرالاشباه الحاج مصطفى(٥٩) حمود زاده ضابط(٦٠) اسكلة حيفا الملحقة باسكلة عكا(٦١) وفخرى المستحفظين(٦٢) طوبجي ابراهيم اغا وجبجي باشي محمداغا وشعبان اغا وفخر الاشباه حسين بيك اميرالاي(٦٣) سنجق اللجون حالا واميرالاي السنجق للزبور سابقا مصطفى زعيم(٦٤) الطيرة(٦٥) وحيفا وبحضرة الشيخ(٦٦) رافع والشيخ أحمد مرعي(٦٧) المتكلمين على اهالي حيفا وكافة الاسباهية واليكجرية الساكنين بقلعة حيفاالشرقية واحمدمصلح وسائر الفلاحين(٦٨) والاسباهية واليكجرية المرموقين . ان الشيخ رافع والسيد أحمد مرعي مشايخ حيفا يتعارضونهم في أراضي ناحية حيفا قائلين وزاعمين انها لهم ولايأذنون لهم في حرثها وزرعها وطلبوا دفعهم عنهم وعدم المنازعة لهم . فسئل من مشايخ حيفا المذكورين ومن فلاحيها عن ذلك فأجابوا منكرين المنازعة والمعارضة بل لسائر سكان القلعتين الشرقية والغربية ان يزرعوا ويحرثوا في أي أرض أرادوا زرعها وحرثها ان كانت من أرض السعادة(٦٩) أو الحوارث(٧٠) وسائر أراضي أحمد زيدان (٧١) وأتباعه النازحين عن قريتهم وأي أرض تركها أهلها ثلاث سنوات معطلة وغامرة من غير حرث ولازرع لهم ان يحرثوا ويزرعوا ويتصرفوا بها كما شاؤوا واختاروا شرعا وفرعا لاينازعهم منازع ولا يعارضهم معارض ، فعندها كان من كلام جناب الوزير المشار اليه ان هذه الاراضي حيث تركها أهلها ونزحوا عن بلادهم رجعت رقبتها وتصرفها لبيت مال المسلمين وصار أمرها مفوضا لوكلاء حضرة السلطان نصره العزيز الرحمن ولضابطي المقاطعات ولما كان الامر كذلك ، صدر الامر منه ان من سكن في احدى القلعتين المزبورتين من الفلاحين والزراعيين والحراثين وساير الرعايا على موجب الفرمان العالي الشأن السلطاني وعمر بهما بيتا من حجر ومدر وسكن واستقر بهما لاجل محافظة بلاد المسلمين ونفوس المؤمنين ففي أي أرض حرث وزرع من سائر أراضي سنجق اللجون لايدفع من محصولاتها الا العشر الشرعي للمعشر كما هو مسطر في كتب الفقه ويكونون معافون (كذا) من جميع التكاليف الشاقة وغيرها . فعندها التمس سكان القلعتين سندا شرعيا يكون بيدهم مخلدا فقرر مشايخ حيفا ان بلدهم خمسية ومن الان كل من طلبوا منه ماهو متوجب عليه من المال فيفر عنهم ويسكن في احدى القلعتين فيلزم منه خراب بلدتهم فعندها صدر الامر من جناب الوزير المشار اليه ان من فر من

اهالي حيفا وسكن باحدى القلعتين فمهما كان متوجب عليه من المال يدفعه لهم ولاينازعهم من سكان القلعتين منازع ومن تاريخ هذا الكتاب من أراد السكنى من أهالي حيفا في احدى القلعتين فلا يوايه احد من سكانهما وارتضى كل من الفريقين على ذلك واقره كل منهم وانفصل الامر عليه والتمس كل منهما كتب هذا الصك وحفظه في كل من القلعتين في الجبخانة العامرة ليكون للفريقين سندا شرعيا فكتب ما وقع وحرر بالطلب في أواخر صفر الخير لسنة ثمان وثلاثين ومايةوالف » .

شهـود :

الحاج يوسف بيك ـ محمد بيك زعيم ـ ابراهيم بيك زعيم ـ رجب بيك ـ أحمد بيك ـ عوض بيك ـ محمد بيك ـ قرا حسن طوبجي ـ يوسف جبجي ـ وغيرهم .

لقد اتسم العهد العثماني في بلاد الشام ، مقارنة بغيره من العهود الاسلامية ، بتوفير الامن والحماية لسواحل تلك البلاد ، ولقد واكب ذلك ازدهار تجاري أوربي مع السواحل الشامية ، فكان من النتائج التي ترتبت على ذلك ان السواحل التي كانت مهجورة منذ اخراج الصليبيين منها سنة ١٢٩١م ، قددبت فيها حركة العمران ونتيجة للاغراءات التجارية ونظرا للانقسام الذي أصاب الكنيسة الارثوذكسية ، أصبحت العناصر السكانية ، خاصة المسيحية منها تهاجر بالتدريج من الداخل الى الساحل الذي أصبح يكتسب سمة مسيحية بارزة . زيادة على ذلك فان مراكز الثقل الحضاري والتجاري والفكري والسياسي قد بدات أيضا تتحول تدريجيا عن الداخل نحو الساحل ومن هنا لم يكن ظهور الزيادقة واحمد باشا الجزار ثم دور مدن السواحل في القرن التاسع عشر والعشرين عفويا .

ان حركة العمران تلك التي عرضنا لها في حيفا لم تكن الوحيدة في بلاد الشام خلال القرن الثامن عشر بل ان هناك تجارب مشابهة ، والذي يهمنا ان ندعو اليه هنا انه من أجل فهم دقيق وموضوعي للقرن التاسع عشر ، فانه آن الاوان لدراسة القرن الثامن عشر من مختلف جوانبه لفهم حركة الاصلاح والتجديد ، قبل أن تهب رياح الحضارة الاروبية على المجتمع الشامي الاسلامي لتتركه على مفترق الطرق .

الحـواشـي

(١) ابو معين الدين ناصر خسرو القبادياني المروزي من مواليد سنة ٣٩٤هـ/١٠٠٣م عمل ، بعد دراسته مختلف فروع المعرفة المعروفة في عصره انذاك ، موظفا في مرو وتقلب في عدد من المناصب ، الا انه تركها وغادر مرو لاداء فريضة الحج وربماجاء ذلـك تلبية لدعوة من الخليفة الفاطمي في القاهرة . بعد اقامة له بالقاهرة أدى فريضـة الحج وعاد الى بلخ وهو يحمل « لقب الحجة في الدعوة » ، طارده السلاجقة فالتجأ الى مناطق يمكان حيث انصرف للتأليف والدعوة توفي سنة ٤٥٢ ـ ٤٥٣هـ/سنة ١٠٦٠ ـ ١٠٦١ م ، حول مؤلفاته ورحلته انظر :

E. Berthels, « Nasir-i : Khusraw » E. I. Vol. iii, PP. 869 - 70.

كذلك انظر المقدمة التي صدر بها يحيى الخشاب الترجمة العربيـة **لسفرنامه** ، الطبعة الثانية ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، ١٩٧٠ ص ٥ ـ ٣٢ .

(٢) حول حيفا انظر : «Hayfa» E. I2, Vol. iii, PP. 324 - 6.

انظر كذلك النصوص المجموعة عنها :

Palestine under The Moslems by Guy le Strange, Khayats, Beirut, 1965, P. 446,

وفي كتاب بلدانية فلسطين العربية للاب أ.س. مرمرجي الدومنيكي ، مطبعـة جان دارك ، ١٩٤٨ ، ص ٦٥ . أما عن حيفا في القرن التاسع عشر انظر كتاب :

Laurence Oliphant, **Haifa or Life in Modern Palestine,** London, 1887.

أشكر الاستاذ عبد العزيز الدوري والدكتور عوض خليفات اللذين زوداني بنسخة مصورة عن هذا الكتاب ، كذلك انظر مقالة :

Archdeacon Dawling, « The Town of Haifa », **Palestine Expolaration Fund,** Vol. (1914) PP. 184 - 91.

أما عن حيفـا في مطلع القرن العشرين راجع محمد رفيق التميمي ومحمد بهجت الحلبي ، ولاية بيروت ـ القسم الجنوبي ، مطبعة الاقبال ، بيروت ، ١٣٣٥ هـ ، ص ٢٢٦ ـ ٢٧٠ .

(٣) ناصر خسرو ، **سفرنامه** ، ص ٥٣ ، أما الجودي فهي مفردة قرآنية ترد في سورة هـود في معرض قصة سفينة نوح عليه السلام حيث يقول سبحانه وتعالى : « وقيل يأارض ابلعي ماءك وياسماء اقلعي ، وغيض الماء وقضي الامر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين » آية رقم ٤٤ . وفسرت الجودي هنا بأنها مكان حيث يذكر ياقوت ذلك بقوله « الجودي ... هو جبل مطل على جزيرة ابن عمر في الجانب الشرقي مـن دجلة من أعمال الموصل عليه استوت سفينة نوح لما نضب الماء » ومثل ذلك يذكره ابن منظور الا انه يضيف اليها معنى آخر نقلا عن الجواليقي فيقول : « والجوديـاء

بالنبطية أو الفارسية الكساء » وذكرت الكلمة في بيت من الشعر بمعنى «جبةالسمور» حتى هنا نرى ان هذه اللفظة لاتستخدم بمعنى السفينة والجدير بالذكر ان شمس الدين محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء البشارى المقدسي (ت ٣٧٥هـ/٩٨٥م) عند تعداده لبعض أنواع السفن لايذكر الجودى ، زيادة على ذلك لاياتي على ذكر حيفا عند تناوله اقليم الشام . كما ان حبيب الزيات في مقالته « معجم المراكب والسفن في الاسلام » لايذكرها ، وعند العودة الى كتاب جورج فضلو حوراني فانه لايذكر الجودي ، راجع موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر الجواليقي (ت ٥٤٠هـ/١١٤٥م) **المعرب من الكلام الاعجمي على حروف المعجم** ، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر ، طبعة الاوفست ، طهران ، ١٩٦٦م ، ص ١١١ ، انظر **احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم** ، تحقيق دوغويه ليدن ١٩٠٦م ، ص ٨١ ، ص ١٥١ ــ ١٩٢ ، **معجمالبلدان** ، ٦م ، تحقيق فردناند وستنفيلد ، طبعة مصورة ، طهران ، ١٩٦٥ ،م٢ ، ص ١٤٤ ، **لسان العرب** ، ١٤م ، دار صادر بيروت ، ١٩٥٥ ــ ١٩٥٦ ، م ٣ ص ١٣٨ ــ ١٣٩ ، حبيب الزيات ، « معجم المراكب والسفن في الاسلام » ، **المشرق** ، م ٤٣ ، (١٩٤٩ م) ص ٣٢١ ــ ٣٦٤ .

George Fadlo Hourani, **Arab Seafaring in the Indian Ocean in Ancient and Early Medieval Times, Khayats, Beirut, 1963.**

(٤) حول حياة الادريسي انظر :

G. Oman, « al - Idrisi » E. 12, Voll. iii, PP. 1032 - 5.

(٥) الادريسي ، **نزهة المشتاق في اختراق الافاق** ، المجلد الرابع ، روما ، ١٩٧٤ ص٣٦٥ .

(٦) كندفرى المقصود به هو Godfrey de Bouillon (١٠٦٠ ــ ١١٠٠م) دوق لورين الدنيا ، كان قد استجاب مع اخوته لنداء البابا اوربان الثاني في ارسال حملات صليبية لاستخلاص قبر السيد المسيح من أيدي المسلمين ، وشارك في حصار القدس والدخول اليها في ١٥ تموز سنة ١٠٩٩ ، حيث وقع عليه الاختيار ليكون أول ملك صليبي للقدس ولكنه رفض لقب ملك واكتفى بلقب Advocatus sancti sepulchri ولقد كانت وفاته يوم الاربعاء في ١٨ تموز سنة ١١٠٠م وخلفه على ملك القدس أخوه بلدوين الاول ، انظر حول هذه

S. Runciman. A History of the Crusades, Vol. I, Cambridge U. P, PP. 112, 145 - 7, 28 - 6, 291 - 318.

(٧) ذكر ياقوت خطأ ان تاريخ استرجاع حيفا كان سنة ٥٧٣هـ/١١٧٧م والواقع كان ذلك بعد عشر سنوات من التاريخ الذي ذكره . حول ذلك انظر العماد الاصفهاني ، محمد ابن صفي الدين (ت ٥٩٧هـ/١٢٠١م) ، **الفتح القسي في الفتح القدسي** ، تحقيق

وشرح محمد محمود صبيح ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ٩٤ ، حيث يذكر ان حيفا استسلمت الى بدر الدين دلدرم وغرس الدين قليج بعد فتحهم قيسارية .

(٨) ياقوت ، **معجم البلدان** ، م٢ ، ص ٣٨١ .

(٩) حول هذا الدمار الذي لحق بحيفا في عهد السلطان الظاهر بيبرس ، انظر محي الدين ابن عبد الظاهر **الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر** ، تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر ، الرياض ١٩٧٦م ، ص ٢٣٤ وكذلك راجع ببيبرس الدواداري المنصوري (ت٧٢٥هـ/١٣٢٥م) **زبدة الفكر في تاريخ الهجرة** ، المتحف البريطاني ، رقم Add. 23325 ورقة ٧٠ب ، راجع ايضا تقي الدين احمد بن علي المقريزي (ت٨٥٤هـ/١٤٥٠م) ، **السلوك لمعرفة دول الملوك** م١/ق٢ تحقيق محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ، ١٩٣٦ ، ص ٥٢٧ ـ ٥٢٨ ، والملاحظ ان الشيخ قطب الدين يونس بن محمد اليونيني (ت ٧٢٦هـ/١٣٢٦م) لايذكر خبر مهاجمة حيفا في اخبار سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٥م ، انظر **ذيل مرآة الزمان** ، ٢م ، حيدر اباد الدكن ، ١٣٧٥ هـ/١٩٥٥م ، م٢ ، ص ٣١٨ . أما ابو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م) فيشير الى ان الظاهر بيبرس فتح قيسارية « وتسلم قلعتها في يوم الخميس الاخر خامس عشرة فهدمها وانتقل الى غيرها » **البداية والنهاية** ، ١٤م ، بيروت ، ١٩٦٦ ، م ١٣ ، ص ٢٤٤ .

(١٠) القلقشندى ، **صبح الاعشى في صناعة الانشاء** ١٤م ، المطبعة الاميرية ، دار الكتب المصرية ١٩١٣ ـ ١٩١٩ ، م ٤ ، ص ١٥٥ .

(١١) حول حياة هذا البحار انظر :

Franz Babinger, « Piri Muhyi al - Din Reis » E.I, Vol. iii, PP. 1070 - 71.

(١٢) انظر هذا الوصف في النص الذي ترجمه ونشره :

U. Heyd, « A Turkish Description of the Coast of Palestine in the Early Sixteenth Century », **Israel Exploration Journal**, Vol. Vi, (1956), PP. 201 - 216.

(١٣) حول اللجون انظر صدر الدين محمد بن عبد الرحمن العثماني الدمشقي (ت ٧٨٠هـ/١٣٧٦م) حيث يذكره على انه ولاية من العمل السابع في صفد وان اهله من عشير يمن .

Bernard Lewis, « An Arabic Account of the Province of Safad » BSOAS, Vol. XV/3, (1953), P. 483.

انظر ايضا ياقوت ، معجم ، م٤ ، ص ٣٥١ .

(١٤) حول صفد المملوكية انظر العثماني المذكور أعلاه ، والقلقشندي **صبح الاعشى** ، م٤ ، ص ١٤٩ .

(١٥) حول هذه الحركة انظر شمس الدين بن طولون (ت ٩٥٣هـ/١٥٤٦م) **مفاكهة الخلان في حوادث الزمان** ، ٢م ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ١٩٦٢ ـ ١٩٦٤ ، م٢ ، ص ١٢٣ ـ ١٢٤ ، كذلك لنفس المؤلف ، **اعلام الورى بمن ولى نائبا من الاتراك بدمشق الشام الكبرى** ، تحقيق محمد أحمد دهمان ، دمشق ، ١٩٦٤ ، ص ٢٣١ ـ ٢٣٧.

(١٦) حول هذه التقسيمات انظر :
U. Heyd, **Ottoman Documents on Palestine 1552 - 1615,** (O. U. P.) 1960, P. 35.

(١٧) هذا الدفتر محفوظ بمديرية المحفوظات التابع لرئاسة الوزراء باسطنبول ، تحت رقم ١٩٢ . والجدير بالذكر انه يوجد بنفس المديرية دفتر طابو اخر تحت رقم ١٠٣٨ ، غير مؤرخ يزودنا بالمعلومات التالية عن حيفا « قرية حيفا تابع مرج بني عامر خانة ١٦ ، حاصل قسم من الربع

حنطة غراره	شعير غراره	خراج زيتون	خراج تين	رسم معزة	رسم نحل
	٨	١٥			
١٩٥٠	٥٦٠	١١٦٥	٥٠	١٣٥	٢٥٠

يكون ٤١١٠ ، ص ٢٢١ » ويبدو ان هذا الدفتر اقدم بعض الشيء من دفتر رقم ١٩٢ .

(١٨) مديرية الاراضي والطابو بانقرة ، رقم ١٨١ . لقد استخدم كل من هذا الدفتر في دراستهما المعنونة باسم
W. D. Hütteroth and K. Abdul Fattah Historical.

Geography of Palestine, Transjordan and Southern Syria in the late 16th Century, Erlangen, 1977.

عن دفاتر الطابو انظر أيضا O. L. Barkan, «Daftar-i Khakani : E. 12. Vol. ii, 81-3

أما عن الدفاتر المتعلقة بالبلاد العربية انظر B. Lewis : « The Ottoman Archives Source for the History of the Arab lands « Jras, London . . .1 PP. 139 - 55, Ididum, « Studies in the Ottoman Archives I, Bsoas, Vol. XVI/3, London, 1954, PP, 469 - 51.

هذا بالاضافة الى الدليل الواسع الذي أعده
Midhat seroglu, Mutheva Bakimindan Başvekalet Arsivi, Ankara, 1955.

أما بشأن مديرية محفوظات اسطنبول التابعة لرئاسة الوزراء ، انظر .
B. Lewis, « Başvekalet Arsivi » E. 12. Vol. i, PP. 1089 - 91.

(١٩) الخانة وحدة تعداد السكان في الدولة العثمانية ، والمقصود بذلك الاسرة ويقدر الدارسون لهذا الموضوع عدد أفرادها مابين ٥ ـ ٧ أشخاص . أما الذين لم يكن لهم أسر فكانوا يدونون تحت عنوان مجردين أي غير متزوجين .

(٢٠) حول سكان لواء دمشق الشام في القرن السادس عشر ، انظر :

M. A. Bakhit, **The Ottoman Province of Damascus in the 16th Century** Ph. D. London, 1972, PP. 44 - 94.

(٢١) الاقجة : الاسم الذي كان يطلق على وحدة النقد العثماني المضروبة من الفضة وتشير اليها المصادر الاوروبية عادة باسم أسبر المحرف عن اليونانية . حول تاريخ هذه الوحدة النقدية ، انظر : H. Bowen, « Akçe » E. I. 2, Vol. i , PP. 317 - 8.

(٢٢) كانت غرارة دمشق تزيد بقليل عن ٢٥٠ لتر ، حول ذلك انظر :

B. Lewis, « Jaffa in the 16th century According to the Ottoman. Tahrir Registers » **in Arabic and Islamic Studies in Honour of Hamilton A. R. Gibb,** Leiden, P. 437, Footnotes.

(٢٣) حول اسباب هذه المشكلة من التضخم وارتفاع الاسعار ، انظر :

B. Lewis, **The Emergence of Modern Turkey,** (O. U. P.) 1965, PP. 29-32.

وانظر ايضا :

Halil Sqhilliogla, « Sivis year Crises » in **Studies in the Economic History of the Middle East,** Edited by M. A. Cook, O. U., P, 1970, PP. 240 - 1.

(٢٤) انظر : D. L. Barkan, **Kanunlar,** Istanbul, 1945, P. 220.

(٢٥) **دفترى طابو** ، ١٨١ (انقرة) ، ص ٢ .

(٢٦) **المصدر والمكان ذاتهما .**

(٢٧) ينص قانون نامة لواء الشام على ما يلي :

« Ve iki Kovana Bir Para Resim Alino » Barkan, kanunlar, P. 220 - 2.

(٢٨) حول هذه الضريبة انظر : B. Lewis, « Arus Resmi » E. I. , Vol. i. P, 679.

وكانت القاعدة في دمشق الشام انه عند عقد نكاح بنت بكر أن تأخذ الدولة مائة وخمسة وعشرين درهما ، عشرون منها تعطى للقاضي العثماني الحنفي ، ودرهم واحد للمأذون الذي أجرى العقد ، واربعة للشهود ، أما المائة الباقية فكانت اما ان تحول للخاص السلطاني ، أو لخاص أمير اللواء أو لاحد أصحاب التيمارات حسبما يحدد ذلك دفتر الطابو . أما في حالة الارملة أو المطلقة فكان الرسم دون ذلك ويبلغ خمسة وسبعين درهما ، خمسة وعشرون منها توزع بالطريقة المشروحة أعلاه والباقي تحول اما للخاص أو لصاحب الزعامة أو للمستفيد من التيمار ،انظر:

Bakhit, **The Ottoman Province of Damascus,** PP. 139 - 40.

(٢٩) بادهوا (ريح الهواء) مصطلح فارسي مركب من كلمتين باد ـ ريح وهواء العربية وهي الضرائب المتفرقة حول هذه الضريبة راجع :

B. Lewis, « Bad-i Hawa » E. I. 2 , Vol. i, P. 850.

(٣٠) حول هذه الضريبة انظر : Bakhit, **The Ottoman Province,** P. 140.

حول الغرامات والعقوبات التي تلحق المرتكب « للجرم والجنايت » في قانون العقوبات العثماني ، انظر :

U. Heyd, **Studies in old Ottoman Criminal Law, »** edited by V. L. Menage, (O. U. P.) 1973, P. 276.

(٣١) كلمة اسكلة مفردة من اصل يوناني تفيد معنى التحميل والتنزيل ، دخلت الـــى اللغة الايطالية وعن طريق هذه اللغة وبسبب النشاط التجاري للمدن الايطاليةتسربت هذه الكلمة للغة العربية على شكل « سقالة » والى اللغة التركية باسم اسكلة ـ أي الميناء . حول تاريخ هذا المصطلح البحري انظر :

H. Kahane and A Tietze, **The Lingua Franca in the Levant, Turkih**
R. Dozy, **Supplement aux Dictionaires, 2vols, Brill Leiden, 1881 - Vol.** i : P. 23.

انظر ايضا :

(٣٢) J. Redhause, Turkie - Ingilizce sozlugn, Istanbul, 1966, P. 550. Barkan, **Kanunlar,** PP. 224 - 6.

(٣٣) **طابو دفترى ١٠٣٨** (اسطنبول) ص ٢٣٥ .

(٣٤) **طابو دفترى ١٩٢** ، ص ٤ .

(٣٥) حول هذه الاسرة انظر دراستي : **الاسرة الحارثية في مرج بني عامر ٨٨٥هـ/١٤٨٠ م ١٠٨٨هـ/١٦٧٧م** . المقدمة الى ندوة تاريخ العرب الحديث ، جامعة عين شمس ، أيار ١٩٧٧ ، وكذلك مقالة :

M. Sharon, « The Political Role of the Bedouins in Palestine in the Sixteenth and Seventeenth Centuries **«in Studies on Palestine During the Ottoman Period »** Jerusalem, 1975, PP. 11 - 30.

(٣٦) **طابو دفترى ١٨١** (انقره) ، ص ١٩ .

(٣٧) حول حياة ودور هذا الزعيم في مجريات الاحداث المحلية انظر محمد أمين بن فضل الله (ت ١١١١هـ/١٦٩٩م) **خلاصة الاثر في أعيان القرن الحادي عشر ٤ م** ، تصوير مكتبة خياط ، بيروت لا ، ت ، م٤ ، ص ٥٠٣ وكذلك دراسة

K. Salibi, « The Sayfas and the Eyalet of Tripoli 1579 - 1640 » **Arabica,** Vol. XX, (1973), PP. 25 - 52.

كذلك مقالتي احداث بلاد طرابلس الشام ١٠١٥/١٠١٦هـ ، ١٦٠٥/١٦٠٦م ، **مجلة المجمع العلمي الاردني** ، العدد الاول ، ١٩٧٨ ، ص ١٧١ ــ ٢٠٦ والمصادر المذكورة في هذا المقال .

(٣٨) U. Heyd, **Ottoman Documents on Palestine**, P. 129.

(٣٩) الشيخ احمد الخالدي الصفدي (ت ١٠٣٤هـ/١٦٢٤م) ، **تاريخ الامير فخر الدين المعني الثاني** ، تحقيق أسد رستم وفؤاد أفرام البستاني ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٦٩ ، ص ١٣٩ .

(٤٠) **المصدر ذاته** ، ص ١٤٢ .

(٤١) العازق ، محرفة عن ازبق التركية وهي المؤونة ، انظر رد هاوس ، ص ٨٢ ــ ٨٣ (طبعة ١٩٢١) .

(٤٢) اوتراق : الاقامة ، انظر رد هاوس ص ٩٠٤ (طبعة ١٩٦٨) .

(٤٣) الخالدي الصفدى ، **المصدر ذاته** ، ص ١٩٣ .

(٤٤) الخالدي ، **المصدر ذاته** ، ص ١٩٧ ــ ١٩٨ ، يذكر طنوس الشدياق (ت ١٨٥٩م) دون ان يذكر مصدره انهدم البرج كان جزءا من بنود الاتفاق ، **أخبار الاعيان في جبل لبنان** ، ٢م تحقيق فؤاد افرام البستاني ، بيروت ، ١٩٧٠ ، م١ ، ص ٢٨٤ ــ ٢٨٥ ، يشير جميل البحرى الى برج العجوز أو برج الزورة على انه « صخرة منتصبة على شاطىء البحر قيل انها من بقايا برج حصين للمدينة القديمة » فلربما كانت هذه الصخرة من بقايا البرج الذي هدمه أحمد الحارثي . هذا مع العلم ان ظاهر العمر الزيداني سنة ١٧٥٠م هدم حيفا وبنى مدينة جديدة بالقرب منها اسماها العمارة الجديدة وانه بسبب ذلك وعلى الارجح ، لم يعن بالبرج القديم انظر ، جميل البحري ، **تاريخ حيفا** ، المطبعة الوطنية ، ١٩٢٢ ، ص ٥ ، كذلك راجع :
L. A. Mayer and J. Pinkerfeld, **Some Principal Muslim Religious Buildings**, Jerusalem, 1950, PP. 39 - 40.

(٤٥) انظر نص هذا الدستور في كتاب جميل البحري ، **تاريخ حيفا** ، ص ٥٠ ، ويذكر البحري انه نقله عن مخطوط موجود في مكتبة دير الكرمل .

(٤٦) انظر محمود العابدي ، **صفد في التاريخ** ، عمان ، ١٩٧٧ ، ص ٧٠ .

(٤٧) انظر حول ذلك :
B. Lewis, « The Jews in Palestine in the 16th Century » in **Notes and Documents From the Turkish Archives**, Jerusalem, 1952, PP. 5 - 47, See also U. Heyd » Turkish Documents Concering the Jews of Safed in the Sixteenth Century » in **Studies on Palestine During the Ottoman Period**, PP. 111 - 18.

(٤٨) U. Heyd, **Ottoman Documents on Palestine**, PP. 47 - 8.

(٤٩) الدويهي ، اسطفان (ت ١٧٠٤ م) ، **تاريخ الازمنة** ، تحقيق الاب فردينان توتل اليسوعي ، بيروت ، ١١٥١ ، ص ٣٥٧ ـ ٣٥٩ ، حول منزلة اسطفان الدويهي التاريخية انظر :

Kamal Salibi, Maronite Historians of Modeval Lebanon, Beirut, 1959, PP. 89 - 160.

الشدياق ، **أخبار الاعيان** ، م١ ، ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧ ، راجع أيضا :

A. Rafeq, **The Province of Damascus 1723 - 1783,** Khayats, Beirut, 1966, PP. 3 - 4, 32.

(٥٠) انظـر :

Amnon Cohen, **Palestine in the 18th Century, Patterns of Government and Administration,** Jerusalem, 1973, PP. 137 - 140.

وحول تواجد القناصل في الدولة الاسلامية انظر :

B. Spuler « Consul ». E. I. 2, Vol, ii, PP. 60 - 61.

والجدير بالذكر ان السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي (ت ١٢٠٥هـ/١٧٩١م) يعرف القنصل بقوله : قلت ويعبر به عن الوكيل للكفار في بلاد الشام ، **تاريخ العروس** م٨ ، ص ٨٩ .

(٥١) القبودان عثمان باشا أبو طوق (ت ١٧ ربيع الثاني ١١٣٩هـ/٢٦ كانون الاول١٧٢٦م)، كان زوجا لشقيقة السلطان ، تولى حكومة دمشق الشام أكثر من مرة ، وكذلـك البصرة وصيدا ، واثناء توليه دمشق كان امير قافلة الحاج الشريف اكثر من مـرة ومن هنا اكتسب لقب حاج . ولي أحد أبنائه الذي كان زوجا لابنة السلطان صيدا وآخر ولي القدس . اتسم عهده بدمشق بظهور فئة اطلق عليها اسم العوانية ، الحقت الضرر بالناس وابتزت أموالهم مما دفع العامة بقيادة المفتي محمد خليل البكـري الصديقي (ت ١١٧٣هـ/١٧٥٩م) الى ان يهاجموا العوانية « فمنهم من قتل ومنهم من صلب وأخبروا الدولة العلية بما وقع وصدر » ، حول أوضاع بلاد الشام فيعهده انظر ، محمد بن جمعة المقار (تح ١١٥٦هـ/١٧٤٣م) ، **كتاب الباشات والقضاة** نشره صلاح الدين المنجد مع نصوص أخرى **باسم ولاة دمشق في العهد العثماني** ، دمشق ، ١٩٤٩ ، ص ٥٧ ـ ٦٠ ، الشدياق ، **اخبار الاعيان** ، م١ ، ص ٥٧ ، م٢ ، ص ٣١٦، حيدر أحمد الشهابي (ت ١٨٣٥م) **الغرر الحسان في اخبار ابناء الزمان** ، تحقيق أسد رستم وفؤاد افرام البستاني ، م٢ ، ص ١٧ ، عبد الكريم رافق ، **بلاد الشام ومصر** ، دمشق ، ١٩٦٨ ، ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤ ، ولنفس المؤلف :

The Province of Damascus,

يذكر عبد الامير محمد أمين شخصا باسم الوزير عثمان باشا متسلما للبصرة مابين ١٧١٢ – ١٧١٤ ، **القوى البحرية في الخليج العربي في القرن الثامن عشر** ، بغداد ١٩٦٦ ، ملحق رقم ٣ ، ص ٩٣ ، حول حياة الشيخ البكري راجع محمد خليل المرادي (ت ١٢٠٦هـ/١٧٩١م) **سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر** ، م٢ ، ص ٨٣ – ٩٧ .

(٥٢) تذكر المصادر العثمانية جنود المدفعية باسم طوبجو ، حول هذا المصطلح انظر : H. A. R. Gibb and H. Bowen, **Islamic Society and the West,** (O. U. P) 1963, Vol. i, Parti, PP. 66 - 7.

(٥٣) الجبجية : الجنود الذين يلبسون الدروع ، انظر **المرجع السابق** ، الصفحة ذاتها .

(٥٤) يصف ذلك بقوله :

« There are also ruins of a large building that seems to have been the castle; and they have built two forts, as a defence against the corsairs », **A Description of the East and some other countries,** Vol, ii, Parti, **Observation on Palestine or the Holy land. Syria, Mesopotamia, Cyprus and Candia,** London, W. Bowyer, 1745, PP. 51, 56.

لمزيد من التفاصيل حول هذه المرحلة انظر :

Mohammad Ali Hachicho, **English Travel Books About the Arab Near East in the Eighteenth Century,** Leiden, E. J. Brill, 1965, PP. 35 - 8.

(٥٥) امنين كوهين ، **المرجع ذاته** ، ص ١٤٠ .

(٥٦) **المرجع ذاته** ، ص ١٤٠ – ١٤١ .

(٥٧) الحجة التي تثبت النص العربي منها هنا وجدتها ملصقة في داخل دفتر الطابو رقم ١٨١ الموجود في مديريةالاراضيبانقرة . وتاريخها« أواخر صفر الخير لسنة ثمان وثلاثين ومايةوالف » بينما يشير امنين كوهين الى وثيقة مشابهة لها ضمن مجموعة المالية المدورة باسطنبول ولكن تاريخها ١٣ ربيع الثاني ١١٣٨هـ/١٩ كانون الاول ١٧٢٥م . انظر كوهين ، **المرجع ذاته** ، ص ١٤١ – ١٤٢ ، وهامش رقم ٩٦ .

(٥٨) انظر هامش رقم ٥١ أعلاه .

(٥٩) لم أعثر على ترجمة للحاج مصطفى حمودزاده الا انه كما يبدو انعائلة حمود الصيداوية خلال مطلع القرن الثامن عشر قد كانت تلتزم جباية الضرائب المتوجبة على عكا وصور وصيدا وبيروت وبهذا الخصوص يذكر عبود الصباغ مايلي : « بما ان عكا لم كانت في ذلك الوقت في يد ضاهر بك كان ملتزمها علي اغا حمود الذي كان مقيم في صيدا ويلتزم من كل وزير يحضر عكا وبيروت وصور واقلام صيدا ويرسل الى الاماكن المذكورة متسلما من طرفه «**الروض الزاهر في أخبار ضاهر** » ، المكتبة الوطنية ، باريس Arabe 4610 ورقة ١٩ .

(٦٠) ان طبيعة عمل الضابط من خلال هذا النص ونصوص أخرى تبدو لنا انها تعني الالتزام بالضرائب ولكن على نطاق ضيق ومحدود . وعلى الارجح انه ليس ذا بعد عسكري . وكان هذا اللقب يطلق على الملتزمين بغض النظر عن دينهم ، فمثلا يذكر حيدر أحمد الشهابي ان فارس الدهان (مسيحي) كان ضابط الكمرك لدى الجزار ، على اية حال فان الضابطية كمؤسسة بحاجة لدراسة أوفى ، انظر **تاريخ أحمد باشا الجزار** نشرة الاب انطونيوس شبلي والاب اغناطيوس عبده خليفة ، مكتبة انطوان ، بيروت ، ١٩٥٥ ، ص ١٠٣ ، انظر ايضا : B. Lewis, « Dabit. » E. I. 2, Vol. ii, P. 74.

(٦١) حول تطوير عكا في القرن الثامن عشر انظر ، امنين كوهين ، **المرجع السابق** ، ص ١٢٨ ــ ١٣٧ ، راجع أيضا النصوص التي جمعها عنها الاب مرمرجي الدومنيكي ، **بلدانية فلسطين** ، ص ١٦١ ــ ١٦٦ كذلك انظر :

F. Buhl, « Akka » E. I. 2, Vol. i, P. 341.

(٦٢) المستحفظان : هم الجنود الذين كانوا يوضعون لحماية القلاع .

(٦٣) الاي كلمة تركية تعني مجموعة من العسكر ، انظر : Gibb and Bowen **المرجع ذاته** ، م ١ ، ج١ ، ص١ ، ٥١ ، ١٤٥ .

(٦٤) زعيم رتبة في نظام التيمار العثماني ، كان صاحبها يمنح اقطاعا من صنف الخاص ، انظر **المرجع السابق** ، ص ٤٦ ــ ٥٦ .

(٦٥) في القرن السادس عشر كان ثلاث قرى باسم الطيرة ، منها أولا قرية طيرة اللـــوز تابع ساحل عتليت الغربي التي كان عدد سكانها سنة ٩٤٥هـ/١٥٣٨م ، ٦٩ خانة ومجردين ، وقيمة حاصلاتها المستحقة ٢٠٣١٠ اقجة (ص ٥ ــ ٦) ، أما في سنة ١٠٠٥هـ/١٥٩٦ ، فان عدد سكانها يتناقص الى ٥٢ خانة ، وكانت قيمة وريـــع حاصلاتها ٢٢٠٠٠ اقجة أما رسم الماعز والنحل المحصل منها فكان ٢٠٠ اقجة ومثل ذلك « البادهوا ورسم عروس » خمسة عشر الف اقجة من هـذه العائدات كانت مخصصة كجزء من زعامات أحمد وعلي ولدى طراباي وكتخداهم (وكيلهم داود) . (ص ١٨ ــ ١٩) ، أما الطيرة الثانية ، فكانت تعرف باسم الطيرة الشمالية عدد سكانها بموجب الدفتر الاول ثلاث خانات وقيمة ريع حاصلاتها ١٩٤٢ اقجة . والطيرة الثالثـة تذكر باسم الطيرة القبلية عدد سكانها ٥ خانات وقيمة ريع حاصلاتها ١٩٧٠ اقجـة (ص ٢٩ ــ ٣٠) ، وبموجب الدفتر الثاني تذكر الطيرة الشمالية والقبلية كمزارع من زعامات أحمد وعلي ولدي طراباي وقيمة ريع حاصلاتها في السنة ١٢٠٠٠ اقجة (ص١٧). من هذا يظهر ان المقصود بقرية الطيرة هي المشار اليها باسم طيرة اللوز لان الاخيرتين تحولتا الى مزارع . ويشير U. Heyd الى ان الامير عساف ال طراباى في سنة ٩٨٧هـ/١٥٧٩م ، قد بنى مسجدا في قرية الطيرة ، راجع :

U. Heyd, **Ottoman Documents on Palstine**, P. 110. n. 4.

(٦٦) ان كلمة شيخ الشائعة والمتداولة منذ زمن بعيد في التاريخ العربي الاسلامي ذات مدلولات مختلفة ، فعند النسابيين تفيد معنى المتنفذ في العشيرة ، وبالنسبةللصوفية تعني من بلغ مستوى رفيعا في الطريقة ، ولدى أصحاب الحرف والاصناف تدل ايضا على المستوى الرفيع في تنظيمهم الهرمي وهي رتبة علمية في وسط العلماء . والملاحظ ان مثل هذا اللقب يشيع استعماله في ريف بلاد الشام بين الفلاحين والزراع ولايقتصر استخدامه على المسلمين السنة فقط بل ان غيرهم من بعض الاسر الدرزية والمسيحية كان لها مثل هذا اللقب . والسؤال الذي يطرح نفسه هل لقب أمير وشيخ ومقدم الذي تذكره المصادر كان يمنح ويستخدم بموافقة الدولة العثمانية أم انه كلقب يدل على منزلة اجتماعية نشأ محليا ؟ من ناحية أخرى حافظت الدولة العثمانية على مؤسسة المشيخة التي كانت استمرارا لمؤسسة امارة العرب التي وجدت في العهد الايوبي واستمرت في عهد المماليك . والذي يبدو ان المشايخ في القرى كانوا اصحاب نفوذ ولم يكونوا اصحاب سلطة الى ان بدأوا يعملون كملتزمين صغار ربما باستثناء ضاهر العمر الذي يصفه عبود الصباغ بقوله « فصار الاسم الى ضاهر عند الدولةوالمشيخةعند الفلاحين » وانه كان يحارب «مشايخ الفلاحينالذين بالقربمنهويأخذ بلادهم ويلتزمها » وأصبح لقبه كما يذكره المرادى « شيخ شيوخ البلاد الصفدية » . وعلى الارجح انه لم يكن للشيخ في القرى في هذه المرحلة السلطة والصلاحيات وشبه الصفة الرسمية التي كان يتمتع بها الشيخ في القرية المصرية في القرن الثامن عشر . حول من تلقب بهذا اللقب انظر الشيخ حسن البوريني (ت ١٠٢٤هـ/١٦١٥م) ، تراجم الاعيان من أبناء الزمان ، ٢م تحقيق صلاح الدين المنجد ، دمشق ١٩٥٩ ، ١٩٦٣ ، م٢ ، ص ٢٢٤ ــ ٢٢٥ ، الخالدي الصفدي ، المصدر ذاته ص ١٣ ، ١٤ ، ٢٦ ، ص ٣٤ ، ٤١ ، ٦٢ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٩٦ ، المرادى ، **سلك الدرر** ، م٣ ، ص ١٨٤ ، عبود الصباغ ، **المصدر ذاته** ، ورقة ٣ب ، ٧أ ، حيدر الشهابي ، **الغرر الحسان** ، م٢ ، ص ٦ .

عن الشيخ في مصر في القرن الثامن عشر انظر :

عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، **الريف المصري في القرن الثامن عشر** ، مطبعة جامعة عين شمس ، ١٩٧٤ ، ص ١٨ ــ ٢٣ .

انظر أيضا عن سياسة الدولة العثمانية تجاه القبائل واحياء المشيخة في القرن الثامن عشر .

Barbir, Carl K., **The Dynamics of Ottoman Rule in Damascus During the first Half of the Eighteenth Century** Ph. D. Princeton 1976, PP. 135 - 139.

(٦٧) لم أعثر على ترجمة أو أية معلومات عن الشيخ رافع أو الشيخ أحمد مرعي .

(٦٨) ان قوانين نامه الولايات العربية في الدولة العثمانية (قوانين نامه الموصل ،القدس، الشام ومصر) . تذكر الفلاحين في معرض اعطائهم نصف محصول الزيتون الروماني ، وان الفلاحين كما نص قانون نامة لواء دمشق الشام ليسوا جزءا من ملكية الارض وان اقتسامهم مخالف للقانون ، والملاحظ ان الفلاحين في القرن الثامن عشر في بلاد الشام أصبحوا قوة محلية ذات رئاسة متمثلة بالمشايخ . ويلمس من يقرأ **الروض الزاهر في تاريخ ضاهر** ، ان عبود الصباغ يكثر من استخدام هذا المصطلح مثل « ... والمشيخة له عند الفلاحين » وانه كان « .... يصطبر على الفلاحين لثاني سنة فلاجل ذلك كانت الفلاحين داخل البلاد جميعا يحبوه » ورقة ، ٣ب ، ٦أ ، ١٦ب، حول كلمة فلاح في القوانين نامة

Barkan, O. L., **Kanunlar,** Istanbul 1945, PP. 122, 178, 217, 226, 359 - 72.

انظر أيضا الخالدي ، الصفدي عن الفلاحين في شمال فلسطين ، **المصدر ذاته** ، ص١٩٣

(٦٩) يذكر الخالدي نهرا في لحف جبل الكرمل اسمه نهر السعادة فلربما كانت الارض المحيطة به تسمى أرض السعادة ، الخالدي ، الصفدي ، **المصدر ذاته** ، ص ١٩٣ .

(٧٠) أي أراضي الاسرة الحارثية ، ثم يذكر عبود الصباغ ان ضاهر العمر فيما بعد صار يتغلب على بلاد حارثة ويأخذها من مشايخ الفلاحين التي بها ، **الروض الزاهر** ، ١أ، ب ، حول أسرة الحوارث ، انظر الملاحظات المذكورة في هامش رقم ٣٥ أعلاه .

(٧١) ان المصادر التاريخية المتوافرة لدينا غير واضحة في المادة التي توردها عن ظاهر العمر الزيداني ، فمثلا المرادي (ت ١٢٠٦ ، ١٧٩١ م) وهو من أقدم المصادر عن ظاهر يترجم له تحت حرف العين فيقول « عمر بن صالح الملقب بالظاهر الصفدي الزيداني حاكم مدينة عكا وشيخ شيوخ البلاد الصفدية صاحب المواقع الشهيرة الخارج عن طاعة الدولة العثمانية مولده بصفد سنة ست ومائة والف (١٦٩٤م) ومن غريب الاتفاق ان هذا التاريخ مولده موافق لعدد لقبه ظاهر .... وكان والده وجده وأعمامه حكاما بصفد وعكا ويعرفون ببني زيدان وهم حمولة كبيرة » من هنا يظهر لنا حسبما جاء عند المرادى ان اسمه عمر وان اسم أبيه صالح وظاهر هو عبارة عن لقبه . واذا عدنا الى تاريخ ميخائيل نقولا الصباغ (ت ١٨٦١م) نجده يذكر ان الاسرة كانت تسكن في معرة النعمان وان كبيرها كان اسمه علي وان ابنه الذي تولى مشيخة العائلة كان اسمه عمر تزوج من السردية انجبت له ثلاثة اولاد علي توفي بعد والده عمر ، وسعد وظاهر ، وان الاسرة بقيادة عمر هاجرت الى الجليل « وقاموا جميعا جهزوا حالهم وشدوا رحالهم وسافروا ونزلوا عند قيسارية فاقاموا قليلا فما أعجبهم ذلك المكان لقبحه وخرابه فانتقلوا الى نواحي الاردن الى طبرية ونزلوا بكبير قومها وباهلها فاعجبتهم فاستوطنوها

وراوا أراضيها خصبة فاستفلحوا بها واشتروا الغنم والبقر واخصبت معهم تلك السنة وكان ذلك سنة ١٧٠١ وكان ظاهر له من العمر اثني عشر سنة وفي سنة ١٧٣٠ انتقلوا من طبرية الى قرية عرابة ، فمن المعروف ان قيسارية تقع قريبة من جنوبي حيفا وربما كان جد ظاهر اسمه احمد زيدان ، أو ان احد أقاربه كان يحمل هذا الاسم وعرفت الارض به بعد انتقال العائلة من قيسارية الى طبرية ثم فيما بعد الى عرابة . انظر المرادى **سلك الدرر** م٣ ، ص ١٨٤ ــ ١٨٧ ، عبود الصباغ ، الروض الزاهر في تاريخ ظاهر ، ورقة ١ أ ــ ٣ ب ، ميخائيل نقولا الصباغ ، تاريخ ظاهر **العمر** ورقة ١أ ــ ٣أ ، حيدر الشهابي ، **الغرر الحسان** ، م٢ ، ص ٦ ، ص ٧ . انظر أيضا الرسالتين اللتين نشرهما عيسى اسكندر المعلوف بعنوان « تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيداني » **المشرق** ، م ٢٤ ، (١٩٢٦) ، ص ٥٣٩ ــ ٥٦٠ ، حول أبناء وأقارب ظاهر انظر:

Cohen, **Palestine in the 18th Century,** PP. 8 - 10, 14, 25, 34, 46, 58, 81, 84, 85, 95 - 96.

حول قيمة مخطوط عبود صباغ انظر :

George, Haddad, « The Chronicle of Abbud al - Sabbagh and the fall of Daher al-Umar of Acre » al - **Abbath,** Vol. xx (196). PP. 37 - 44.

بعض مظاهر أحوال الأعيان بدمشق

في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر

الدكتورة ليندا شليشر

(جامعة مين)

تمثل الفترة مابين أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر (أي تقريبا من ١٧٨٥ الى ١٨٣٠) احدى الثغرات المغمورة في تاريخ دمشق . ولكنها في الوقت نفسه احدى أكثر الفترات أهمية لكونها اخر فترة بقيت فيها دمشق حرة نسبيا من التدخل الخارجي ، بمعنى ان الجهة السياسية المسيطرة كانت اسطنبول فقط . وبعد ذلك مباشرة أصبحت بعض التأثيرات غير العثمانية ذات أهمية بسبب قوة السلاح والتجارة أو التسلل السياسي أو الثقافي .

كان انتباه العثمانيين في ذلك الوقت مركزا على حوادث هامة في أمكنة أخرى : فمن صراع مع الروس انتهى بمعاهدة كوتشوك قينارجه عام ١٧٧٤ ، الى تمرد المماليك في مصر ، والغزو النابليوني عام ١٧٩٨ وبروز محمد علي ، كما ظهر الوهابيون في الجزيرة العربية وهاجموا الحدود الجنوبية لبلاد الشام عام ١٨١٠ ، وأخيرا المصاعب التي واجهها العثمانيون في بلاد البلقان والتي بلغت ذروتها في ثورة اليونان عام ١٨٢١ . ومع ان جميع هذه الحوادث كانت لها بالضرورة تأثيرات في دمشق ، فقد بقيت وقتئذ بعيدة ، أو على أحسن الاحوال ، هامشية بالنسبة لتطور المدينة التاريخي .

ففي بلاد الشام ظهرت في هذه الفترة مراكز قوى صغيرة مع فشل العثمانيين في فرض سيطرتهم : فقد برز **ظاهر العمر** في الجليل ، ورسخ يوسف الشهابي قوته في لبنان ، ثم تبع ذلك ظهور أحمد الجزار في عكا ، وبشير الثاني الشهابي في لبنان . اما في المدن الداخلية ــ مثل حلب وحماه وحمص ودمشق ــ فقد كان هنالك فراغ من حيث مراكز القوة . فعائلة العظم التي وصلت الى مركز السيطرة في أوائل القرن الثامن عشر ومنتصفه ، كانت الان تشهد فترة انحطاط . وفي حلب أدت الصراعات المحلية الى صراعات حزبية سببت هدما خطيرا لحياة المدينة السياسية والاجتماعية .

---

* قام بترجمة البحث الى العربية الدكتور فؤاد شعبان .

أما في دمشق فقد نشأت حالة مختلفة تمام الاختلاف . فالطبيعة المباشرة للتغيرات الخارجية على حدود منطقتها في هذا الوقت ، كان لها تأثير في انهاء النزاعات الداخلية في المدينة ، حتى انه يمكن القول ان هذه الفترة شهدت تكوين تجمع محلي برز بشكل واضح في عام ١٨٣١ ، حين ثارت المدينة متحدة ضد الحاكم العثماني وأنشأت ــ ولو لمدة أربعين يوما فقط ــ حكما ذاتيا(١) .

ان أحد المظاهر البارزة في هذه الفترة من تاريخ دمشق ، هو انه على الرغم من خطورة الاضطرابا تالخارجية ، فقد كان هنالك قدر كبير من الاستمرارية ضمن الطبقات العليا من المجتمع السياسي والاجتماعي في المدينة . وبصورة خاصة ، يمكن للمرء أن يجد الكثير من الاستمرارية ضمن نخبة الاعيان في المدينة . سنحاول في هذا البحث ان نبين الخطوط الرئيسية لهذه الاستمرارية ، وان نقدم بعض التفسيرات لوجودها .

ان تعبير « الاعيان » يستعمل هنا لوصف الشخص الذي يجعل مركزه مستمرا كزعيم محلي ، بفضل وظيفته أو علاقاته بالادارة العثمانية الاقليمية(٢) . وكان من الشروط الاساسية لوضع الاعيان في دمشق ان يقوم « العين » ، على مستوى رفيع ، بمهمة الوساطة بين العثمانيين والسكان المحليين . ومع ان المرء يظن ان دورا كهذا يمكن أن يؤديه زعيم محلي بصفة غير رسمية ، فانه يبدو كحقيقة تاريخية ، انه في دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، تضمنت الزعامة المحلية دوما علاقة مع الادارة العثمانية .

ان نظرة دقيقة الى أعيان دمشق ، في أواخر القرن الثامن عشروأوائل القرن التاسع عشر ، تبين ان مركزهم كاعيان ، كان متصلا اتصالا وثيقا بعلاقتهم بصنف من الاصناف الاجتماعية المتمايزة الثلاثة في المدينة،والتي كان لكل منها ميزات طوبوغرافية وثقافية واقتصادية خاصة بها . وكانت احدى هذه الصلات (التبعيات) ، تلك التي اشترك بها الاعيان الذين يدعون بالاغوات ، فهؤلاء كانوا يتبعون مجموعات شبه عسكرية في المدينة ، كانت جزءا من التركيب العسكري العثماني .

والتبعية الثانية لاعيان دمشق كانت « للعلماء » أو الجماعةالدينية والمثقفة .

أما التبعية الثالثة فكانت للاشراف أو شرفاء المدينة .

ولنلق نظرة أبعد مدى على كل من هذه المجموعات(٣) .

١ ـ الاغـوات(٤) :

من تلك المجموعات الثلاث كانت هذه المجموعة شبه العسكرية هي الوحيدة التي شكلت خطرا مسلحا ومباشرا على سلطة الدولة أو عـلى المحافظة على الوضع الراهن .

وبانحطاط النظام الاقطاعي العثماني في القرن السابع عشر ، سمحت الدولة بصورةعامة لقواتهابترسيخ جذورمحلية. ففيأول الامر ، سمح دفع **البدل** للقوات العسكرية باعفائهم من تأدية واجباتهم العسكرية في الحملات الامبراطورية(٥) ، وفي نهاية الامر جرى امتصاص الاقطاعات (تيمار) ضمن أملاك الدولة ، وأعطي أصحابها تعويضا أو أجرا سنويا(٦) ، وبدأتالقوات الاقطاعية والانكشاريةالمتمركزةمحليا(السباهيةواليرلية) بالاستيطانفيالمدن السورية منذ أواخر القرن السادس عشر ، وفي القرن السابع عشر . ففي دمشق ، أصبحوا عنصرا شبه عسكري دائم من سكان المدينة ، ويعيشون خارج معسكراتهم ، في مناطق ساروجة والقنوات والميدان الواقعة بالتتالي شمال / وشمال ـ غرب ، وجنوب / وجنوب غرب أسوار المدينة .

كانت الحكومة العثمانية تعتمد بصورة خاصة على المجموعات شبه العسكرية في دمشق لضمان مرور قوافل الحج السنوية في المنطقة ، في طريقها الى مكة والمدينة ، دون حوادث . وبحلول الربع الثاني من القرن السابع عشر أحرزت مجموعات دمشق شبه العسكرية مركزا محليـا قويا ، حتى ان الحكومة العثمانية بدأت بتعيين رؤساء هذه المجموعـات أمراء للحج(٧) . ومع انه جرت محاولات لاحقة من قبل الحكومة لاعادة السيطرة المركزية على الحج ، فان العلاقـات الحسنـة مـع المجموعات الدمشقية شبه العسكرية ، بقيت عنصرا أساسيا للسيطرة العثمانيـة على المناطق الواقعة جنوب دمشق ، حيث كانت قوافل الحج تمر .ولهذا السبب سمح للزعماء أو أغوات دمشق بالسيطرة على أراض ، وقرى ، أو مناطق من المدينة مقابل تنظيم الامن واداء واجبات الشرطة ، وجمـع الضرائب ، ومهام الحماية(٩) . كما انهم منحوا سلطات قانونية على أراضي زراعة الحبوب التي كانت تشكل خلفية من المناطق الريفية محيطة بدمشق مثل : جوار حمص وحماه ، وعلى منحدرات جبال لبنان الشرقية ، وفـي البقاع ، والسهول الواقعة جنوب وجنوب شرقي دمشق ، التي تعرف عامة باسم حوران . وكانت الاراضي الممنوحة لهم معفاة من الضرائب ، كمـا كان فائض مزروعاتها مكافأة للاغوات على الخدمات التـي يقدمـونها .

وبسيطرتهم على تموين المدينة والحج من الحبوب ، كان لدى الاغوات سلاح قوي يمكن ان يستعملوه لمصلحتهم الاقتصادية والسياسية .

كانت الحكومة العثمانية غالبا ماتواجه تمرد هذه العناصر المقاتلة المحلية ، وبالفعل فقد أرسلت في عدة مناسبات خلال القرن الثامن عشر قوات جديدة لم يكن لها صلات محلية ، لكي تعيد ترسيخ السيطرةالعثمانية والنظام . وقد طبقت هذه السياسة في فترة ١٦٥٨ ــ ١٦٥٩ حين قمعت السلطات العثمانية الاغوات والانكشاريين المحليين (أو اليرلية) الذين سيطروا على الميدان بصورة خاصة . وأرسلت قوات جديدة لاحتلال القلعة وأبواب المدينة وأبنية عامة أخرى . كانت القوات الجديدة تعتبر قوات امبراطورية ، وكانت تدعى (قابيقول) . واستخدمت هذه القوات بعدئذ كعامل توازن مع (اليرلية) المحلية(١٠) ، ولكن هذه القوات أيضا غالبا مااستوطنت مع عائلاتها في دمشق ، الا انها في هذه الحالة كانت تقطن العمارة شمال أسوار المدينة . وهذه القوات تطورت هي الاخرى لتصبح مجموعة ذات نفوذ سياسي محلي . وكانت تزود من وقت لآخر بمجندين جدد ، كان يؤتى بهم في القرن السابع عشر من ادرنة ، وقيصرية ،واورفه، وكردستان ، وفي القرن الثامن عشر من بغداد والموصل(١١) .

ويبدو ان هذه المجموعات شبه العسكرية كانت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تقطن خارج المدينة ليس فقط بالمعنى المكاني ولكن بالمعنى الاجتماعي أيضا . فهنالك الكثير من الاخبار عن فسادهم ونزاعاتهم والمشاكل العامة التي كانوا يسببونها ، بالاضافة الى ذلك ، فانه من الملاحظ أن أعيانهم لايمثلهم عدد كبير في كتب التراجم التي وضعت في ذلك الوقت ، اذا ما قورنوا بالاعيان من بين العلماء والاشراف المعاصرين . فكتاب التراجم للمرادي مثلا ، يذكر القليل عنهم في معجم تراجمه لأعيان القرن الثاني عشر الهجري(١٢) ان استخفاف المترجم هذا يعكس الوضع القلق للعسكريين في المجتمع ، كما يعكس الحط من قيمتهم . فقد كان أعضاء هذه المجموعات شبه العسكرية بطبيعة عملهم من حيث المبدأ ، عنصرا عابرا في المجتمع . وكان بعض أعضاء المجموعات شبه العسكرية عرضة للقتل أثناء قيامهم بوظيفتهم في مرافقة الحجيج(١٣) ، أو في المعارك بين الاحزاب ضمن المدينة(١٤) ، أو من قبل حاكم قوي كان يرغب في اضعاف قوة العسكريين في المدينة(١٥) . وبالاضافة الى خطر فقدان حياتهم ، كان الأغوات ايضا عرضة لخطر فقدان ممتلكاتهم : فعند موت أحد الاغوات

كان من الممكن مصادرة املاكه ، مما يحرم أقرباءه من أية أملاك يستطيعون بها اعادة ترسيخ موقف العائلة(١٦) . ومع ذلك ، بالمقارنة مع عدد السكان بصورة عامة ومع العدد المحدود من القوات الخاصة التي كان الولاة العثمانيون قادرين عادة على جلبها معهم ، فان الاحزاب المحلية شبه العسكرية كانت تشكل عنصرا لايستهان به في دمشق . وهكذا كان للاغوات أهمية سياسية رئيسية ، وفي عام ١٧٧٠/١٧٧١ ، مثلا ، وصل عدد الـ (قابيقول) الى الفين بينما زاد عدد (اليرلية) قليلا عن الالفين(١٧) .

وعلى الرغم من ندرة المعلومات في التراجم المعاصرة عن الاعيان من الاغوات ، فانه يمكننا جمع بعض المعلومات من هذه المصادر وغيرها ، والاستدلال أن هؤلاء الاغوات في القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، كانوا ينتمون الى عدد عديد من العائلات ــ ومن هذه العائلات : عائلة التركماني ، والشملي(١٩) ، والبارودي(٢٠) ، والمهايني(٢١) ، واليوسف(٢٢) وشمدين(٢٣) .

وقد سكنت جميع هذه العائلات في مناطق خارج مركز المدينة ، أما في الشمال الشرقي ، أو الجنوب الغربي ، من أسوار المدينة . ومعظمها حديث العهد في دمشق ، وجاءها من مناطق بعيدة من الامبراطورية العثمانية ، (مثل كردستان) أو من القبائل البدوية السورية ، وكانت كلها تقريبا نشيطة في ادارة المناطق الريفية من المقاطعة ، وسيطرت على أراض في هذه المنطقة تنتج الحبوب والمواشي . أما علاقات القرابة مع العلماء أو الاشراف فتبدو وكانها استثناءات ذات معنى للقاعدة العامة . وكان الاغوات من هذه العائلات نادرا ماينشطون في أمور المدينة الدينية والفكرية ، ولا يشغلون مناصب شرعية أويديرون الاوقاف التي كانت تدعم المؤسسات الثقافية والدينية .

٢ ــ نقباء الاشراف :

ان الاشراف هم المسلمون الذين اتفق على انهم ينحدرون من الرسول محمد . وكان يشار الى واحدهم بلقب « السيد » ، وكانوا يميزون في الطرقات بعماماتهم الخضراء . ولم يكن الاشراف يتمتعون فقط بمكانة اجتماعية مرموقة في المجتمع الدمشقي (يمكن مقارنتها بمكانة أشراف الدم في أوربا) ، بل كانوا على الاقل نظريا ــ يتمتعون بعدد من الامتيازات القانونية والاقتصادية . وكان أهمها استثناءهم من الخدمة العسكرية ، بالاضافة الى ذلك كانوا يتمتعون بريع ممتلكات خاصة أوقفت على شرفهم .

وكانوا يتسلمون منحا من السلطان في وقت الحج . كما ان الاشراف لم يخضعوا لسلطة المحاكم العثمانية في دمشق بل كانوا يحاكمون أمام نقيبهم .

ان بضع مئات من الاشراف الذين يرد ذكرهم في كتب التراجم ، يمثلون ٢٦ عائلة دمشقية(٢٤) . ويبدو ان بعض هذه العائلات كان يتمتع بحق في الشرافة أكثر من بعضها الاخر . ان أفراد نصف هذه العائلات كانوا يعرفون « بالحسيني » أو « الحسني » أي بانحدارهم من الرسول عن طريق أحد حفيديه . ولعل عائلات (الالشي ، العجلاني ، العاني ، الحجار ، الحصني ، حمزة ، زين العابدين ، دقاق الدودة ، دسوقي ، كيلاني ، مرادي ، مرتضى ، منير ، وموقع) قد اعتبرت شرافتها منحدرة عن طريق الاب ، ولذلك نظر اليها على أنها أنقى الاشراف نسبا . أما أفراد العائلات الاخرى (مثل البهنسي ، بيازيد ، حسيبي ، خطيب ، والسرميني) فكانوا يدعون بلقب « السيد » وليس « الحسني » أو « الحسيني » . ومما يؤكد هذا التمييز في درجة الاشراف بحسب نسب الاب في دمشق في ذلك الحين ، ان جميع الذين تولوا منصب نقيب الاشراف هم أشراف عن طريق الاب وممن يعرفون « بالحسيني » أو « الحسني » . كما يؤكد هذا وجود بعض من يدعون « بالسيد » في عائلات لاتنتمي الى الاشراف (مثل الغزي، والعظم ، والبكري)(٢٥) ، الا بنتيجة تزاوجهم بنساء من الاشراف . وفي هذه الحالات كان من الملاحظ عدم ورود لقب « الحسيني » أو « الحسني » في ألقاب سلالتهم(٢٦) .

ولكن لم يكن جميع الاشراف من الاعيان حتى ولا الاشراف المنتمون للشرفية من ناحية الاب فقد وجدت بين الاشراف ، كما هي الحال بين المجموعات شبه العسكرية ، الفروق المعتادة بين مايسمى « بالخاص » « والعام » . فقد كانت بعض عائلات من الاشراف فقط تعتبر من «الخاص» أما العائلات الاخرى فعلى الرغم من النسب الشريف ، كانت تصنف مع « العام » ، من الممكن مثلا ان نجد ذكرا لما يدعى « رعاع الاشراف » رفعهم الاعيان (في هذه الحالة الاعيان) في سبيل رفض نقيب معين(٢٧) .

ان العامة من الاشراف كانوا يشملون بعض الحرفيين ، يدل على هذا بعض الحقائق :

أولا ، ان عددا من عائلات الاشراف كان لها أسماء تدل على انها نفسها في وقت ما كانت وماتزال من الحرفيين ، مثلا ، كان منهم عائلات الحجار ، والخياط . ثانيا هناك أدلة على ان بعض الاشراف كانوا فعلا

حرفيين أو سليلي حرفيين ، فعائلة الفلاقنسي كانت من الناسجين (الحوكة) ، وبعض أفراد عائلة حمزة كانوا من الخياطين ، وبعض أفراد عائلة سلطان من المؤذنين ، وأخيرا ، كانت نقابات الحرفيين تاريخيا ترتبط بعائلة العجلاني عن طريق وظيفة « شيخ المشايخ » أي رئيس مشايخ النقابات ، وهي وقف لفرع منجك من عائلة العجلاني .

مع هذا فان الاشراف ، بعكس الاغوات ، كان لهم تأثير واسع الانتشار في المدينة ، ولايمكن بصورة عامة ربطهم بوحدة طوبوغرافية معينة في دمشق . فالاشراف سكنوا كلا المنطقتين الجنوبية والشمالية ، وفي داخل وخارج سور المدينة ، كما لايمكن بصورة عامة تعريفهم بالتقليديين أو الميالين للصوفية ، وهو على اية حال تمييز عديم الفائدة في فترة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في دمشق ، حيث كان كثير من العلماء الراسخين يتبعون الصوفية . وبينما أصبح بعض الاشراف علماء ذوي مناصب عالية (مثل أفراد من عائلات مرادى ، عجلاني ، منير ، والسرميني الذين شغلوا منصب المفتي أو النائب) ، فان بعضهم الاخر (مثل أفراد من عائلتي الكيلاني والصمادي) كانوا من شيوخ بعض المدارس الصوفية .

كما انه لايمكن تصنيف الاشراف عامة ضمن مذهب معين (أي مدرسة قانونية اسلامية) . ان عشرين عائلة من الاشراف التي ورد ذكرها في المصادر نسبت نفسها الى مذاهب معينة ، ومع انه لم يكن أحد من الاشراف من الحنبليين ، فان تسع عائلات كانت حنفية ، وثماني من الشافعية ، وثلاثا كان أفرادها ينتمون الى الحنفية أو الشافعية .

يمكن للمرء أن يرى في أعيان الاشراف في القرن الثامن عشر انعكاسا للميول السياسية والاقتصادية المختلفة الموجودة في ذلك الوقت ، فقد كانت سياسات الاشراف وراء الكثير من الحركات والاحداث السياسية في ذلك الحين . ومع انه من الصعب الوصول الى فهم تام لهذه الامور ، فان النزاع السياسي يمكن ان يدور ليس فقط حول ترشيح نقيب ما ، وانما ايضا حول سلطة النقيب ، بالمقارنة بالاعيان الاخرين في المدينة(٢٨) .

ان أعلى منصب ضمن صفوف الاشراف هو منصب **النقيب** . فقد كان النقيب المرجع الاخير في الامور المتعلقة بالاشراف . فلم يكن فقط المنافح عنهم وممثلهم أمام السلطات العثمانية ، بل كان أيضا الحكم في المنازعات بين الاشراف والضامن لمستواهم الشرفي . فالنقيب اذن هو الشخص الذي كان يتبوأ مركز الوجاهة ضمن مجتمع الاشراف .

ان مراجع التراجم لاتعطي تواريخ ولاية كل نقيب ، والقائمة التالية تعطي أسماء أولئـك الذين تبوؤوا منصب النقيب بالتسلسل المحتمـل لولاياتهـم .

نقباء الاشراف في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر

فترة الولاية	الاسـم	ولـد	توفي
٣٨/١٧٣٧	علي بن اسماعيل العجلاني	١٦/١٧١٥	٧١/١٧٧٠
	عبدالرحمن بن عبدالقادر الكيلاني	١٨/١٧١٧	٥٩/١٧٥٨
	علي بن اسماعيل العجلاني	١٦/١٧١٥	٧١/١٧٧٠
	محمد بن عبد القادر الكيلاني		١٧٧٢
	حمزة بن يحيى الحمزة	٣١/١٧٣٠	٣/١٨٠٢
٥٩/١٧٥٨ ٧١/١٧٧٠	علي بن اسماعيل العجلاني		
٧١/١٧٧٠	عبد الله بن اسماعيل العجلاني		
٧١/١٧٧٠ ٠٣/١٨٠٢	حمزة بن يحيى الحمزه	٣١/١٧٣٠	٣/١٨٠٢
٨٦/١٧٨٥	خليل بن علي المرادي	٦٠/١٧٥٩	٩٢/١٧٩١
٣/١٨٠٢ ١٣/١٨١٢	حمزة بن علي العجلاني		١٣/١٨١٢
١٣/١٨١٢ ٣١/١٨٣٠	سعيد بن حمزة العجلاني		١٨٤٢

يظهر من هذه القائمة بوضوح انه باستثناء شخصين مـن عائلـة الكيلاني(٢٠) فان عائلتي الحمزة(٢١) والعجلاني(٢٢) هما اللتان سيطرتا على نقابة الاشراف خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر . وكانت العائلات الثلاث تقطن ضمن أسوار المدينة ، مـع ان واحدة منها كان لها فرع نشيط في الميدان . كما كانت العائلات الثلاث تعرف بثرائها ، مع ان اثنتين منها حصلتا على ثروتهما عن طريق علاقات حديثـة مع نظام الحكم العثماني اما كمستفيدة مـن هبـة أراض ، أو كمزارعين معفيين من الضرائب . ومع ان عائلات النقابة بدت راسخة الجذور في النخبة الاقتصادية للمدينة ، فان واحدة منها على الاقل كان لها ارتباطات مع المجتمع الحرفي عن طريق فرع لم يتعرف به ، (من قبل

صاحب التراجم المعاصر) وشغل مركزا قياديا بين نقابات الحرفيين . وجميع هذه العائلات كان منها أعضاء حصلوا على مناصب قضائية ، ومنهم من كان نشيطا في المؤسسات التعليمية والدينية في المدينة .

٣ ـ الاعيان العلماء :

كان العلماء في دمشق بفضل نفوذهم الاخلاقي والديني والفكري على السكان المسلمين في المدينة ، في وضع يؤهلهم للوصول الى منزلة الوجاهة ، كما ان مقدرتهم على الوصول الى هذا المركز كانت ، كما هو الحال بالنسبة الى الآخرين ، تعتمد على نجاحهم في الحصول على اعتراف اقرانهم واعتراف العثمانيين ايضا . كان العالم الطموح يحاول امام اقرانه الحصول على عدد من التلامذة والاتباع الروحيين ، وعلى منزلة محترمة في مجالس العلماء . أما بالنسبة الى السلطات العثمانية فكان العالم يحاول أن يحصل على مركز في أحد دواوين الموظفين العثمانيين ، وان ينال أحد المناصب التي كان العثمانيون يوزعونها ضمن المؤسسات القانونية والدينية والعلمية في المدينة .

لم تكن المؤسسات الدينية والعلمية في دمشق مرتبة بشكل رسمي في تسلسل معين ، ومع ذلك فقد كان بعضها موضع احترام أكثر من الاخرى. فقد كانت هنالك مجموعة من الجوامع والمدارس والزوايا، وامكنة للاجتماع غير الرسمي ، تعتبر في المقدمة من بين عدد كبير من المؤسسات المشابهة . وكان يرتبط بهذه المؤسسات عدد من المراكز التي تحظى بشرف غير عادي، والتي كانت ذات نفوذ بحد ذاتها . فقد كان نفوذ النواب (أو نواب القضاة) والمفتين (أو صاحب الفتوى لكل من مدارس الشرع الاسلامية) وخطباء الجامع الاموي ، مبني على مصادر المال التي كانوا يسيطرون عليها، وعلى تقواهم ومنجزاتهم الفكرية الشخصية .

كان معظم العلماء في دمشق ينتمون الى ثلاث من المدارس الشرعية الاسلامية السنية (المذاهب) الاربع . وكان العدد الاكبر اما من الاحناف او الشافعيين ، ولكن كانت هنالك مجموعة هامة من الحنابلة . أما المالكية فكان ينتمي اليها في ذلك الوقت قليل من المهاجرين من شمال افريقيا الذين استقروا في دمشق . وكان الانتماء الى الحنفية أو الشافعية أو الحنبلية في دمشق يعني أكثر من قبول مدرسة معينة من التفسير القانوني . قبل الغزو العثماني ، كان علماء دمشق في معظمهم من الشافعية

والحنبلية والحنفية(٢٣) وكانت أجزاء كبيرة من المدينة ترتبط بهذه المذاهب(٢٤) . وخلال القرون الطويلة من الحكم العثماني ، ربما بقي الانتماء المحلي يعبر عنه بالانتماء الى أحدالمذهبين الاولين، بينما كانالمذهب الحنفي يلقى حماية ودعم استنبول(٢٥) . وأثناء القرن الثامن عشر حين أصبح الوهابيون الحنابلة من الجزيرة العربية يشكلون خطرا حقيقيا على الامبراطورية العثمانية ، تحول عدد لابأس بهمن الشافعيين الدمشقيين ذوي النفوذ الى المذهب الحنفي(٢٦) . قد يكون هذا العمل مظهرا لولائهم للامبراطورية العثمانية ، ولكن الارجح انه كان جزءا من عملية « عثمنة » حدثت في دمشق أثناء حكم عائلة العظم .

ومع ان الحنفية كانت المذهب المسيطر في الامبراطورية العثمانية ، فقد كان لكلا المذهبين الشافعي والحنبلي مفت يقدم الفتاوى في دمشق حسب التفسيرات الفقهية الخاصة بمذهبه(٢٧) . كان الشافعيون بصورة خاصة يتمتعون بمركز قوي نسبيا بين العلماء في دمشق في ذلك الوقت ، اذ لم يكن مفتيهم شخصية هامة فحسب ، ولكن عددا منهم شغل مناصب هامة في دمشق أيضا ، كما ان كثيرا من مفكريهم كانوا يعتبرون انفسهم ان لم يكونوا متفوقين على معاصريهم من الحنفيين .

لقد دعم التشريع الاسلامي من قبل الحكومة العثمانية بالتشريع الزمني (القانون) . وكان يقوم بتطبيقه وادارته موظفو قضاء عثمانيون . ومع ان القاضي كان يعين من قبل استنبول فقد كان من مهام منصب المفتي مراقبة القرارات التي تتخذها المحاكم العثمانية في دمشق . وكان بامكان أي شخص من حيث المبدأ أن يطلب فتوى المفتي في أي موضوع قانوني معين ، وكانت الاجراءات سهلة بحيث يصاغ السؤال كتابة ، فيجيب عنه اما المفتي أو أحد مساعديه (أمناءالفتوى) بنعم أو لا . وفي كثير من الحالات كانت الاستمارة تحتوي في أسفلها على سؤال اضافي يعتمد على الجواب المتوقع . وكانت الاجابة عن هذا السؤال أيضا بنعم أو لا .

كما انه كان على المفتي أو أمينه أن يعطي رأيه في حالة نزاع فيالمحاكم شعر القاضي انه غير مؤهل للفصل فيه . وكان الاشخاص القاطنون في القرى أو المناطق النائية يستشيرونهمالعدمتوفر الكتب القانونية الضرورية في مناطقهم ، وأخيرا كان يستشيرهم من الناس من لم يرغب في تسوية قضاياه في المحاكم . كما ان من الممكن للمفتي والامين أن يشتركا في معالجة مسائل التفسير القانوني الاكثر تجريدا ، وكانا يقدمان اجاباتهما شفهيا .

وفي كل من هذا الحالات كان المفتون يعطون آراءهم حسب المذهب الذي ينتمون اليه ويستشهدون بالحجج التي وضعوا آراءهم على اساسها(٤١).

وبما ان منصب المفتي كان ذا صدارة وقوة في كل من المذاهب ، وكان في هذه الفترة يشكل رقيبا على سلطة القاضي العثماني(٤٢) ، فان الرجال الذين شغلوا هذا المنصب كانوا من أكثر العلماء اهمية ونفوذا في دمشق . ومع ان التعيين الفعلي للمفتي بقي من حقوق شيخ الاسلام في استنبول ، فانه يبدو أن ثمة تفاهما كان قائما بحيث يكون الاختيار الذي يقوم به شيخ الاسلام متفقا مع الرغبات المحلية السائدة بين علماء دمشق(٤٣) . وبهذه الطريقة عمدت السلطات العثمانية الى دعم أعضاء معينين من العلماء المحليين ، وتوقعت مقابل ذلك ان يمارس المفتي الذي يقع عليه اختيارها، نفوذه على العلماء ، وعلى مجموع السكان لمصلحة الدولة العثمانية .

مفتو المذهب الحنفي

في ما يلي قائمة بالمفتين الحنفيين للقرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر حسب تسلسل ولاياتهم(٤٤) :

تقريبا ١٧٤٠–١٧٥٠ علي بن محمد المرادي(٤٥) ١٧١٩/٢٠–١٧٧٠/٧١

تقريبا ١٧٥٠ – ١٧٦٠ خليل بن أسعد البكري(٤٦) توفي ١٧٥٩/٦٠

١٧٧٤/٧٥ (فترة قصيرة) محمد أسعد بن خليل البكري (التواريخ غير متوفرة)

١٧٧٤/٧٥ ؟ اسماعيل بن أحمد المنيني(٤٧) ؟

١٧٧٧/٧٨–١٧٩١ محمد خليل بن علي المرادي (١٧١٩/٢٠–١٧٧٠/٧١)

١٧٩٦/٩٧–١٧٩٧/٩٨ عبد الله بن طاهر المرادي (توفي ١٧٩٧/٩٨)

حوالي ١٨٠٣ عبد الرحمن المرادي (التواريخ غير متوافرة)

١٨٠٣/١٨٠٤ أسعد بن سعيد المحاسني(٤٨) (توفي ١٨٠٣/١٨٠٤)

حوالي ١٨٠٤/١٨٠٥ حمزه بن علي العجلاني(٤٩) (توفي ١٨١٢) .

حوالي ١٨٠٥/١٨٠٦ سعيد بن حمزة العجلاني (١٧٥٦/٥٧ – ١٨٤٢/٤٣)

حوالي ١٨١٠/١٨١١ سعيد بن محمد البكري ١٧٢٧/٢٨–١٨١٠/١٨١١

حوالي ١٨١٤/١٥ علي بن حسين المرادي ١٧٤٩/٥٠–تقريبا ١٨١٤/١٥

١٨١٤/١٥ – ١٨٢٠ حسين بن علي المرادي ١٧٥٦/٥٧–١٨٥٠/٥١

التواريخ غير متوفرة حسن تقي الدين الحصني(٥٠) توفي ١٨٤٧/١٨٤٨

١٨٣٩/٤٠ – ١٨٥٠/٥١ حسين بن علي المرادي ١٧٥٦/٥٧ – ١٨٥٠/٥١

(مفتو المذهب الشافعي)

كان منصب الافتاء الشافعي متوارثا في عائلة الغزي(٥١) . وفيما يلي قائمة بافراد عائلة الغزي الذين تولوا منصب الافتاء في القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر :

أحمد بن عبد الكريم (٩٨/١٦٩٧ حتى وفاته عام ٣١/١٧٣٠)

مصطفى بن أحمد (٣١/١٧٣٠ حتى وفاته عام ٤٣/١٧٤٢) .

محمد بن عبد الرحمن (٤٣/١٧٤٢ حتى وفاته عام ٥٤/١٧٥٣) .

محمد شريف بن محمد (تاريخ بدء ولايته غير معروف وانتهت مدته بوفاته ٨٩/١٧٨٨) . (قد تكون عائلة الغزي فقدت مؤقتا منصب الافتاء في عام ١٧٦٥ حين قيل ان محمد بن عبد الرحمن من كفرسوسة تولى المنصب) .

كمال الدين بن محمد شريف (٨٩/١٧٨٨ حتى وفاته عام ١٧٩٩/ ١٨٠٠) .

عمر بن عبد الغني (١٨٠٢/١٨٠١ حتى وفاته عام ١٨٦١/١٨٦٠)

مفتو المذهب الحنبلي

في مايلي قائمة بمن تولوا منصب الافتاء من المذهب الحنبلي في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر :

٢٣/١٧٢٢ – ٣٦/١٧٣٥ محمد بن عبد الجليل بن أبي المواهب الحنبلي (٥٢) ٩٠/١٦٨٩ – ٣٦/١٧٣٥ .

حوالي ٧٥/١٧٧٤ أحمد البعلي(٥٣) ٩٧/١٦٩٦ – ٧٦/١٧٧٥

٧٥/١٧٧٤ – ٨٨/١٧٨٧ اسماعيل بن عبد الكريم الجراقي(٥٤) ٢٢/١٧٢١ – ٨٨/١٧٨٧ .

٩٨/١٧٩٧ – ٢٨/١٨٢٧ مصطفى بن سعد السيوطي(٥٥) ٥١/١٧٥٠ – ٢٨/١٨٢٧ .

النواب في محاكم القضاة

كان القاضي العثماني يعين نوابا وكتابا لمساعدته في محاكم المدينة . وكان معظم نواب القضاة من علماء دمشق الذين شغلوا المنصب لمدة

أطول من ولاية القاضي نفسه ، مما أعطاهم ميزة عظيمة في تفسير القانون حسب فهمهم للحقائق المحلية . والدمشقيون الذين أفلحوا في الحصول على هذا المنصب كانوا من الاعيان فعلا . فأفراد عائلتي البكري ، وحمزة مثلا ، الذين غالبا ماشغلوامنصب النائب، كانواينتمون الى عائلات معروفة بمنصب الافتاء الحنفي ، بالنسبة للعائلة الاولى ، ومنصب النقابة بالنسبة للعائلة الثانية ، ولكن كان هنالك آخرون ممن تولوا هذه المناصب مثل عائلة العمري(٥٦) التي غالبا مابرز أفرادها في منصب نواب دمشق .

خطباء الجامع الاموي

كان الدمشقي الذي يتولى منصب خطيب الجامع الاموي أيضا من أعيان المدينة ، فالخطيب الذي كان يلقي خطبة الجمعة في الجامع الاموي حيث كان المسؤولون العثمانيون وغيرهم من الاعيان يحضرون الصلاة ، كانت لديه الفرصة النادرة للتعبير عن آرائه وللتأثير على الرأي العام . وبالاضافة الى ذلك ، بما ان الخطيب يؤدي خطبته باسم حاكم المدينة المعاصر ــ وكان الحاكم في ذلك الوقت هو السلطان العثماني ــ فانه كانت له أهمية كعامل يضفي الشرعية على علاقات القوى في المدينة .

في أوائل القرن الثامن عشر كان التنافس على منصب الخطيب يجري بين أعضاء عائلتين دمشقيتين هما الاسطواني(٥٨) والمحاسني(٥٩) . ومع ان مصادر التراجم لاتعطي تواريخ ولاياتهم ، فالقائمة التالية تعطي التسلسل التقريبي لاعضاء هاتين العائلتين الذين تولوا منصب الخطيب :

مصطفى بن محمد الاسطواني (توفي عام ١٤/١٧١٣) .
سليمان بن اسماعيل المحاسني (لم تتوفر التواريخ) .
أحمد بن سليمان المحاسني (٨٤/١٦٨٣ ــ ٣٤/١٧٣٣) .

(في مرحلة ما من منتصف القرن الثامن عشر حصل ثلاثة أفراد من عائلة المنيني على لقب الخطيب ، مع ان عائلة المحاسني استمرت في تولي المنصب أيضا ، وخطباء الجامع الاموي منذ ذلك الوقت هم :)

سليمان بن أحمد المحاسني (٢٧/١٧٢٦ ــ ٧٤/١٧٧٣) .
أحمد بن علي المنيني(٦٠) (توفي عام ١٧٥٨ / ٥٩) .
أسعد بن موسى المحاسني (توفي عام ١٨٠٣) .
عمر بن أحمد المنيني (توفي عام ٦٦/١٧٦٥) .

اسماعيل بن أحمد المنيني (٢٩/١٧٢٨ – ٧٩/٧٧٨) .

ثمة معالم واضحة كانت تميز أعيان العلماء من علماء المجموعات الاخرى ، فقد كانوا دون استثناء من عائلات كبيرة غنية تقطن مركز المدينة، كما انهم جميعا أسهموا بشكل محلوظ في النشاط الديني والعلمي في المدينة ، اما كمعلمين أو متصوفة أو الاثنين معا . وغالبا ماكانوا انفسهم يرعون مؤسسة دينية . وفيما عدا ذلك كانوا جميعا يحصلون على دخلهم من ملكية أراض في ضواحي دمشق (كانت أحيانا هبات حكومية) ، أو من التجارة مع مراكز مدنية أخرى بعيدة عن دمشق ، أو من كليهما . وبالاضافة الى ذلك كانوا غالبا ما يحصلون على رواتب بصفتهم مسؤولين اداريين عن مؤسسات دينية ، رغم ان هذا المصدر لم تكن له أهمية مصادر الدخل الاخرى المذكورة .

ان الاحناف من هؤلاء العلماءكانوامنعائلات راسخة في الامبراطورية، وغالبا ما كانوا يتولون مناصب في عواصم عثمانية أخرى ، ولهم سمعتهم التي وصلت الى مراكز أخرى من العالم الاسلامي والثقافة الاسلامية .

أما الشافعية فكانت تمثلهم عائلة واحدة دمشقية قديمة . والحنابلة عملوا على اظهار استقلالهم عن تسلسل سلطات الدولة ، ولكنهم مع ذلك اشتركوا مع موظفين من قمة هذه السلطات في مصالح اقتصادية خاصة .

على الرغم من احتمالات الفروق بين مذهب وآخر ، فان عائلات علماء دمشق من الاعيان كانت مجموعة تتميز بوضوح عن مجموعتي الاعيان الاخريين . فقد كانت عائلة واحدة فقط من عائلات العلماء تعتبر في نفس الوقت من الاشراف ، بينما لم يكن أحد من العلماء من الاغوات . ويبدو ان التزاوج بين مجموعة العلماء وأية من المجموعتين الاخريين ، كان يحدث فقط في حالات استثنائية .

ان نظرة الى الشخصيات التي تبوأت مراكز الاعيان في دمشق في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، تبين بشكل يدعو الى الدهشة انه لمدة طويلة نسبيا – ربماخمسةأوستةأجيال – بقيت العائلات نفسها ممثلة . ويبدو هذا لاول وهلة ، أول اشارة ودليل على ان قدرا كبيرا من الاستمرار وجد في هذا الوقت بين أعيان دمشق . وانه لمن الجدير بالملاحظة حقا ان يحتفظ عدد غير قليل من العائلات بمركزه

خلال هذه المدة الطويلة ، في مدينةبلغ عدد سكانها ١٠٠٫٠٠٠ نسمة تقريبا، وكانت عاصمة لمقاطعة عثمانيـة هامـة .

يمكننا الاستنتاج بانه وجد نموذج من الاستمرارية في التركيب الجماعي ، والشخصي ، لاعيان دمشق في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر . فالمجموعات الثلاث التي كان الاعيان ينتمون اليها — وهي المجموعة شبه العسكرية والاشراف والعلماء — لم تحافظ على درجة كبيرة من الشبه في صفاتها الاقتصادية والطوبوغرافية فحسب ، بل ان مجموعة صغيرة نسبيا من العائلات سيطرت على مراكز الوجاهة هـذه وهذه العائلات هي : تركماني ، شملي ، مهايني ، بارودي ، يوسف ، وشمدين بين الاغوات ، وحمزة ، عجلاني ، كيلاني ، بين الاشراف ، وبكري مرادي ، غزي ، حنبلي ، سيوطي ، عمري ، اسطواني ، محاسني ، والمنيني بين العلماء .

بقي أن نطرح السؤال : لماذا؟ لماذا رسخ الاعيانالدمشقيون أنفسهم ونموذجهم ليكونوا النخبة في المدينة ، على الرغم الكثير من عوامل التمزيق الخارجية ؟ ليس هناك ما يظهر انهم توصلوا الى تحالف واضح وفرضوه بالقوة على المدينة ، ولاهم تلقوا دعما أو حماية كبيرة من الحكومة العثمانية، على الاقل في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر .

في اعتقادي ان احدى الاجابات عن هذه المسألة تكمن بالضبط ، في ان المدينة كانت عرضة للتحدي والخطر من الكثير من القوى الخارجية ، مما جعل المحافظة في الشؤون الداخلية الاجتماعية والسياسية أمـرا طبيعيا لتزويد المدينة بالحد الضروري والاساسي من الامن . ولكن هـذا الجواب يفترض بالطبع انه قبل هذه الفترة كان نموذج النخبة من الاعيان قد رسخ قدمه بالفعل .

وفي الواقع يبدو أن الحالة فيدمشق في أوائل القرن الثامن عشر، كانت على مفترق طرق : ففي النصف الاول من القرن الثامـن عشـر مـرت الامبراطورية العثمانية بفترة انتعاش ، فهي لم تشهد انتصارات عسكريـة فحسب ، وانما قامت بمحاولات لاعادة بناء الدولة على أسس الحكم التي وضعت في القرن السادس عشر ، حين كانت الامبراطورية في أوجها . ومع ان هذه المحاولات اخفقت في نهاية الامر فان عددا من الاجـراءات التـي اتخذت في ولاية دمشـق في ذلك الوقت كان لها أثر هام في تاريخ المدينـة واعيانهـا .

أيد العثمانيون بروز عائلة العظم في بلاد الشام آملين ان يستعملوا قوة هذه العائلة الراسخة محليا كقاعدة لاعادة احياء الامبراطورية العثمانية . نجح آل العظم في اعادة النظام الى المنطقة ، وسيطروا على الكثير من العناصر المتمردة ، وكما ازداد الدخل الحكومي ، واصبح موسم الحج يمر دون حوادث مؤسفة ، وكجميع الحكام الصغار الذين صعدوا الى منصب السلطة في الولايات العثمانية في ذلك الوقت ، كان على آل العظم أن يكون لهم عميل مخلص وصاحب نفوذ في الباب العالي ، وأن يكون بين ايديهم المال لشراء الهدايا له ولغيره . ومن ناحية أخرى كان عليهم أن يتمكنوا من المحافظة ، على الاقل ، على مايشبه الحكم العثماني في المنطقة ضمن ظروف صعبة جدا ، لقد استطاع آل العظم من تبوؤ مناصب حكام جميع الولايات السورية في آن واحد لفترات قصيرة ، سبقت عام ١٧٣٠ ، ثم مرة ثانية في ١٧٥٥ ــ ٥٦ . وفي دمشق وحدها احتفظوا بمنصب الحاكم لا اقل من تسع مرات بين سنة ١٧٢٥ ــ ١٨٠٨ .

لقد نمى آل العظم قاعدة محلية من الصلات في دمشق آملين أن يبنوا عليها اسس سيطرتهم ضمن الدولة العثمانية . وكانوا متحمسين لدمج انفسهم في مؤسسة الولاية . فكل حاكم من آل العظم حاول كسب حزب محلي الى صفه . وهكذا مثلا نجد اسماعيل باشا ، وهو أول حاكم لدمشق ، من عائلة العظم ، صعد الى منصب السلطة غب ثورة محلية ، قادها المفتي خليل البكري ضد الحاكم العثماني عثمان باشا أبوطوق الذي كان مكروها من الشعب . ثم حاول بعدئذ أن يسترضي علماء دمشق باعادة الشيوخ المنفيين والمضطهدين ، وببناء مدرسة تقام فيها حلقات الذكر الصوفية ، كما قام باعمال للصالح العام مثل بناء حمامات عامة ، ومقهى وعدد من الدكاكين . وتحالف اسماعيل أيضا مع عائلة السفرجلاني ذات النفوذ المحلي ، وزعيمة حركة الخلوتية الصوفية . وربما كانت علاقته بها علاقة تجارة ونشاطات احتكارية . واستطاع أن يحصل على ابنة سعيد البكري زوجة له ، وبهذا أمن لاولاده منها نسب النبي ، ولنفسه صلة باشراف المدينة .

وحاكم دمشق الثاني من عائلة العظم وهو سليمان باشا أخو اسماعيل أراد أن ينتمي الى صفوف أعيان دمشق ، فأسس لنفسه مسكنا هناك ، وتزوج من ابنة عالم دمشقي اسمه الشيخ يونس القادري الكيلاني الذي كان ينتمي الى مدرسة القادرية الصوفية . كما ان سليمان انشأ ديوانا

للاعيان المحليين برئاسة علي المرادي ، وهو عضو في عائلة كانت الى ذلك الحين تتصدر مدرسة النقشبندية الصوفية . وانشأ سليمان أيضا مدرسة في دمشق .

كان خليفة سليمان المباشر ابن أخيه أسعد باشا بن اسماعيل باشا . اشترك أسعد باشا في المصالح المحلية ، في التجارة والمضاربات بالحبوب ، وبنى الخان الشهير في سوق البزورية ، وكبادرة طيبة قام بتمويل اتمام بناء مدرسة اسماعيل باشا ودعم قراءة القرآن فيها ، وأمر ببناء جامع مجاور ، كما انه مول أعمال التزيين في الجامع الاموي ، وأصلح طريق الحج عبر الميدان ، وأمر ببناء ضريح حول قبر السيدة زينب .

وبحلول عهد الحاكم الرابع من آل العظم وهو محمد باشا ، ابن عم أسعد باشا ، كانت هذه العائلة قد رسخت نفسها في المدينة . ومع ان دمشق كانت تفقد السيطرة على منطقتها بسبب بروز أحمد الجزار في عكا ، فان المؤسسة الدمشقية تحت حكم محمد باشا استمرت بالتمتع بازدهار اقتصادي .

ولم تكن ثمة معارضة تذكر لحكم محمد باشا في القطاعات الاخرى من السكان . كما ان محمد باشا كان أول عضو من عائلة العظم ، يورد المفتي خليل المرادي اسمه في قائمة أعيان دمشق للقرن الثاني عشر الهجري . وهذا دليل لاشك فيه على اعتراف وقبول محلي .

بدأ نفوذ آل العظم بالانحسار في استنبول في السبعينات من القرن الثامن عشر . ولكن احد أفراد العائلة وهو عبد الله باشا بن محمد سمي حاكما على دمشق في ثلاث مناسبات في آخر القرن . وفي عام ١٧٩٩/١٨٠٠، بينما كان عبد الله حاكما في دمشق ، أثار القابيقول ، الذين كانوا تعاونوا مع حكم العظم من قبل ، فتنة في دمشق ، بان تحصنوا في القلعة . ومع ان عبد الله نجح في حصار القلعة، واعدام الاغا ، فان هذه الحادثة تدل على ان عائلة العظم لم تعد تسيطر سيطرة تامة على المجموعات شبه العسكرية ، كما انها أصيبت بنكسات أخرى حين أخفق عبد الله بقمع ثورة في طرابلس قادها بربر آغا ، وهو من أتباع أحمد جزار باشا في عكا . ورغم ان عبد الله استطاع أخيرا التغلب على بربر ، فانه لم يستطع فيما بعد (١٨٠٧) ان يمكن قافلة الحج من الوصول الى مكة ، بسبب المعارضة التي اثارها الوهابيون من أتباع ابن سعود ، وهكذا نحي عن منصبه .

بعد وفاة عبد الله باشا وابن عم له اسمه نصوح باشا وكان نشيطا في مصر ، (وقد توفيا عام ١٨٠٨/١٨٠٩) ، يبدو ان عائلة العظم فقدت كل نفوذ لها في استنبول . ولايمكن العثور على اي ذكر للمناصب التي تبوؤوها أو لنشاطاتهم خلال العقدين التاليين . ان فشل عبد الله باشا في التغلب على ثورة الجزار والوهابيين ، وفشل نصوح باشا في محاولاته للتغلب على الفرنسيين في مصر ، وضعت حدا لنفوذ آل العظم في النطاق العثماني الواسع . ولكن العائلة بقيت ثرية وذات تأثير في سورية ، ولعبت دورا هاما في تطورات القرن التاسع عشر ، وحتى في القرن العشرين .

ان الاعيان الدمشقيين الذين ظهروا في ظل حكم آل العظم استمروا في مناصبهم بعد انهيار تلك العائلة . وكانت فترة حكم العظم بالنسبة لكثير من الدمشقيين تمثل عهدا أصبحت فيه دمشق قوية (خاصة بالنسبة لما بعدها) . وقد أصبح الاعيان من عهد العظم يمثلون هذه النظرة المتفائلة الى الماضي ، وحكم العظم في دمشق الذي استمر لفترة قرن تقريبا (مع بعض فترات الانقطاع) انشأ نموذجا من حكم الطبقة المختارة ، كما تركت شعورا بالنظام والاستمرارية في حياة المدينة ، في وقت كانت فيها السلطة في مركز الامبراطورية وعلى حدودها تتدهور بشكل خطير .

واذا خطونا خطوة اخرى في بحثنا ، هل يمكننا ايجاد تفسير لنجاح عائلة العظم في اقامة توازن محلي في الاقتصاد السياسي خلال فترة حكمهم وبتردد شديد أعتقد بامكان الرد بالايجاب عن هذا السؤال .

يمكن القول ان اقتصاد دمشق في ذلك الوقت كان مركبا من ثلاثة قطاعات مختلفة ، ولكنها لم تكن منفصلة أومتنافسة بشكل كامل . ومع ان كلا من هذه القطاعات كان يطابق كيانا جغرافيا أو طوبوغرافيا (مكانيا) معينا ، فانها كانت تبدو أيضا متصلة بتركيبات سياسية واجتماعية هامة ضمن المدينة .

كان أول هذه القطاعات يضم المدينة والقرى المجاورة لها . فالفلاحون، والفلاحون نصف المتمدنين الذين كانوا يعيشون هناك ، كانوا يحملون انتاجهم المعرض للتلف السريع، الى المدينة يوميا، حيث يبتاعون حاجياتهم من الحبوب واللحم والبضائع نصف المصنعة من الحرفيين، وبائعي المفرق، كان لهذا القطاع أهمية رئيسية بالنسبة لحياة المدينة اليومية . ولابد ان هذا النوع من النشاط الاقتصادي كان نشاطا تبادليا بسبب طبيعته

المباشرة ، ونوع البضائع التي يتبادلها الشارون والبائعون ، والحالة النقدية المعاصرة .

اما القطاع الاقتصادي الثاني في المدينة فقد كان تجارة الاستيراد والتصدير مع مراكز التصنيع والانتاج المدني الاخرى في سورية ، وفي الامبراطورية العثمانية ، وحتى في الخارج . وكان هذا القطاع يتركز في الخانات ومركز المدينة . ان اهمية هذا القطاع كانت ثابتة نسبيا أثناء السنة ، ولكنه كان يتأثر باتجاهات استمرت لمدة سنوات ، وحتى لعشرات السنين . يبدو ان هذا القطاع كان يمارس نشاطا ملحوظا وذا اهمية خلال القرن الثامن عشر ، ويدل على ماأحرزه هذا القطاع من نجاح عدد الخانات التي بنيت في ذلك الوقت وازدهار عدد من العائلات التي نشطت فيه .

والقطاع الاقتصادي الثالث يقابل علاقات المدينة الاقتصادية مع مناطقها الاكثر بعدا التي تعتمد على الزراعة البعلية ، وعلى السهول المنتجة للحبوب والمواشي ، والنشاطات الاقتصادية في المدينة التي تتصل مباشرة بها . كان هذا القطاع يتميز بأهميته الموسمية بالنسبة لحياة المدينة . ولكن في هذه الحالة كان هنالك تقويمان موسميان مختلفان .أولا كان هناك التقويم الزراعي الذي يبلغ قمته وقت حصاد الحبوب فيشهري أيار وحزيران الشمسيين . وثانيا التقويم الاسلامي الذي يبلغ قمته في الحج السنوي الى المدن الاسلامية المقدسة في آخر الشهور الاثني عشر القمرية . ولما كان كل من دمشق والحج يعتمدان على الحبوب والحيوانات التي تنتجها هذه السهول ، فان المضاربات بهذه البضائع كانت تشكل أعمالا تجارية كبيرة .

كانت تجارة الحبوب واعمالها في القرن الثامن عشر تتركز في (الميدان) وهو المنطقة الممتدة جنوبا التي اعتمدت بصورة كبيرة على نتاج حوران ، والسهول السورية الجنوبية الاخرى،وعلى سوق الحبوب فيمركز المدينة ، الذي كان بسبب علاقته بعائلة العظم ، ربما يعتمد على نتاج السهول شمال المدينة حيث كانت تقع أملاك العائلة .

ويمكن الافتراض انه تحت حكم العظم كانت القطاعات الثلاثة للمدينة منظمة بشكل يؤمن أقصى قدر من الفائدة لعائلة العظم ، وللاعيان الذين يرتبطون بها . ومع انه لم يكن أي من القطاعات عرضة للقمع فان الاولوية

كانت تعطى لعناصر معينة ضمن كل من القطاعات . وبصورة عامة كانت قطاعات الفلاحين / الحرفيين والاراضي المجاورة مرتبة في درجة أدنى من قطاع التجارة الخارجية . كما ان اغوات المناطق الشمالية ، والشمالية الغربية الذين تعاونوا مع آل العظم ، تمكنوا من السيطرة على مؤن المدينة من الحبوب ، وليس أغوات الميدان في الجنوب . وفي الوقت نفسه اكتسب تجار الاستيراد والتصدير في مركز المدينة، وضعا أقوى من وضع الحرفيين وفلاحي الضواحي ، الذين كانوا يتعاونون معهم ويزودونهم بمؤنهم .

يبدو بوجه الاجمال ان المناطق الواقعة خارج مركز المدينة في الجنوب وفي الميدان بصورة خاصة كانت في وضع ضعيف أثناء فترة حكم آل العظم(٦١) .

ان الصراع الشديد بين آل العظم وبين تحالف أغوات الجنوب والحرفيين ، الذي كان يقوده فتحي الفلاقنسي ، ربما أمكن فهمه ضمن هذا الاطار(٦٢) . فمع ان فتحي كان سيدا ، فهو لم يصل الى مركز الزعامة المحلية عن طريق انتمائه الى الاشراف ، كما كان ذلك يحدث في الحالات العادية ، بل أسس قوته وقوة عائلته في الادارة المالية للمدينة حيث كان يشغل منصب الدفتر دار . فقد جمع حوله خليطا من عناصر العامة المحليين مثل المتمردين من الانكشاريين المحليين (أو اليرلية) وبعض حرفيي المدينة . ان أزمة السلطة التي نشأت في المدينة بحلول الاربعينات ، والتي كان فتحي وأسعد باشا العظم المتخاصمين الرئيسيين فيها ، انتهت بانتصار أسعد باشا والقمع الوحشي الذي تعرض له فتحي وحزبه(٦٣) .

بعد هذا الصراع وانتصار عائلة العظم اكتسب تنظيم الاقتصاد السياسي منطقا خاصا به بالاضافة الى قوة دفع ذاتية . فاذا لم يكافأ الحرفيون على عملهم المكافأة التي يستحقونها فان الحجم الكلي للتجارة بالسلع التي ينتجونها قد ازداد بازدياد حجم رأسمال تجار الاستيراد والتصدير في المدينة . ومع ان بعض اغوات الميدان تعرضوا للقمع (مثل عائلة التركماني) ، فان بعضهم الاخر حصلوا على تعويض بازدياد تجارة الحبوب الخاصة بالحج ، التي تطورت نتيجة نجاح آل العظم في تأمين مرور قوافل الحج . واخيرا مع ازدياد انتماء آل العظم الى دمشق ، يمكن ملاحظة بعض المزايا نتيجة سيطرتهم ، أو على الاقل ، عندما يقارنون بسيطرة الغرباء الذين أرسلوا ليحكموا المدينة من استنبول أو غيرها .

الخلاصـــة :

راينا أن عائلات الاعيان ، من عهد حكم آل العظم ، بقوا في مراكزهم فترة طويلة بعد انهيار آل العظم ، مما تركهم في موقع الزعامة في المدينة حتى وقت متأخر والى عام ١٨٣١ مثلا ، حين لعبوا دورا هاما في ثورة المدينة ضد سليم باشا .

ان الاخطار الخارجية المباشرة أثناء الفترة من ١٧٨٥ الى نهايـة ١٨٣٠ ، ساعدت على تقوية هذه الشبكة من الاعيان التي تطورت تحـت حكم آل العظم والتي من المحتمل انها قد استمرت من قبل بفضل تنظيم سابق في الاقتصاد السياسي للمدينة . ولكن بدءا من الثلاثينات من القرن التاسع عشر تعرض مركز هؤلاء الاعيان للضعف المطرد ، وبحلول عام ١٨٦٠ انهاروا تماما . ولكننا نرغب في التوقف هنا بعد ان عالجنا الفترة الواقعة بين ١٧٨٥ – ١٨٣٠ ، تاركين التطورات التالية لفرصة أخرى .

الحـواشـي

تود الكاتبة ان تعبر عن شكرها لبرنامج منح المناطق الاجنبية (نيويورك) لدعمهم المادي ، كما تشكر كلية سانت انتوني (اكسفورد) ، الجامعة الاميركية في بيروت ، المعهد الفرنسي للدراسات الادبية في دمشق ، الملفات الوطنية السورية ، المتحف الوطني بدمشق ، ملفات وزارة العدل السورية ، متحف قصر العظم ، والمكتبة الظاهرية للمساعدة التي قدمها موظفوها وللاذن باستعمال مصادر موجودة لديها ، وتود تقديم شكر خاص للبروفسور اندريه ريمون ، البروفسور ستيفان فيلد ، البروفسور فريتز شتيبات ، والبروفسور البرت حوراني ، على اطلاعها على مواد غير متوفرة في مكان اخر .

(١) ان ثورة ١٨٣١ في دمشق اشتعلت نتيجة محاولات العثمانيين فرض ضرائب اضافية على المدينة ، وقد وصف بدء هذه الثورة مؤرخ معاصر غير معروف كما يلي :

(اجتماع واتفاق) ثم ان الوزير المشار اليه جمع أعيان البلد عنده وخاطبهم ان ارادة الدولة أن تمشي الصليان وانه لابد يمشي فجاوبوه انهبحسب امره سيصيرخير وان أهل البلد طايعين الدولة العلية فاعطاهم الاوامر واذن لهم أن يعملوا ديوان عام في بيت مفتي افندي على أن هذا الكلام لم يكن يخلو من الغش والخداع بما أن أهالي البلاد كانوا سابقا عملوا سيرانا (نزهة) في الربوة (من ضواحي دمشق) وكان فيه جميع اغاوات البلد وأعيانها وانوجد يومئذ في السيران جم غفير من أهالي البلد وتحالفوا على الطلاق ووضعوا يدهم على السيف والمصحف بأنهم يكونوا رأيا واحدا وحالا واحدة وكلمتهم واحدة وصليان لايمشوا ولاذهبوا (هلكوا) على اخرهم وانصرفوا علىهذا الرأي ثم اجتمعوا في بيت المفتي (حسب ايعاز الوزير) بالظاهر ليمشوا الصليان وأما في الباطن حتى يبقوا في رأيهم القديم لانهم كانوا موهومين من الوزير بزيادة فوصل الخبر الى الوزير انهم رضيوا أن يمشوا الصليان فانحط منهم الوزير وامر ان يكتبوا له الحارات .

قسطنطين الباشا (نشر) ــ مذكرات تاريخية ، حريصا ، د.ت.

(٢) ان هذا البحث مأخوذ من دراسة أكثر شمولا وهي اطروحتي للدكتوراه وهي بعنوان : « انهيار المحلية السورية » : أعيان دمشق ١٧٨٥ ــ ١٨٧٠ (اكسفورد ، ١٩٧٨) . ان المصادر الاساسية لهذا البحث وللاطروحة ، والتي استقت الكاتبة منها المعلومات عن أعيان دمشق هي التراجم العربية التالية :

ـ عبد الرزاق البيطار : حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر ٣ أجزاء (دمشق ١٩٦١/٦٣) .

ـ محمد تقي الدين الحصني : كتاب منتخبات التواريخ لدمشق ٣ أجزاء (دمشق ١٩٢٧) .

ـ محمد الامين المحبي : خلاصة الاثر في أعيان القرن الحادي عشر ، ٤ أجزاء (القاهرة، ١٨٦٩) .

ـ صلاح الدين المنجد (تحقيق ونشر) ، أبو الحسن علي بن محمد الربعي ، فضلاء الشام ودمشق (دمشق ١٩٥٠) .

ـ محمد خليل المرادي : سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر ٤ أجزاء (بولاق ١٣٠١هـ)

ـ خليل مردم بك : أعيان القرن الثالث عشر في الفكر والسياسة والاجتماع (بيروت ١٩٧١) .

ـ نخلة قلفت : تراجم بعض أعيان دمشق (بيروت ، ١٨٨٦) .

ـ محمد جميل الشطي : روض البشر في أعيان دمشق في القرن الثالث عشر (دمشق ١٩٤٦) .

ـ محمد جميل الشطي : تراجم أعيان دمشق في نصف القرن الرابع عشر الهجري ١٣٠١ ـ ١٣٥٠ (دمشق ١٩٤٨) .

ـ خير الدين الزركلي : الاعلام ، ١١ جزءا (بيروت ١٩٦٩) .

ولكن لايوجد اصطلاح واحد متعارف عليه يدل على « الاعيان » في المصادر المذكورة أعلاه ، يمكن ان يعطي ترجمة دقيقة للكلمة كما هي مستعملة هنا . ومع ذلك فان البحث عن الاعيان في مصادر القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، العربية يمكن ان يسهل بواسطة دلالات وتعابير معينة : مثلا تعبير : « مقبول الشفاعة عند الحكام » استعمل المرادي هذا التعبير عند وصف أسعد بن أحمد البكري (١٦٦٢/٦٣ ـ ١٧١٥/١٦) الذي كان نائب قاض في دمشق في أول القرن الثامن عشر ، كما استعمله أيضا لوصف أحمد بن عبد الكريم الغزي (١٦٥٩/٦٠ ـ ١٦٩٧/٩٨) الذي تولى منصب مفتي المذهب الشافعي في دمشق في القرن السابع عشر (انظر المرادي جزء ١ ص ١١٧ ـ ١١٩ و ٢٢٣ ـ ٢٢٦) .

ولكن تعابير أخرى كانت تستعمل عند الاشارة الى الاعيان ، وعلى المرء أن يتأكد من ان الشخص الموصوف كان بالفعل يؤدي دور الاعيان . فالوصف : « كان بدمشق

صدر أعيانها وواسطة عقد رؤسائها » استعمل في الحديث عن سعيد فتحي الفلاقنسي الذي كان بالفعل أكثر الاعيان السياسيين أهمية في دمشق في القرن الثامن عشر (انظر المرادي جزء ٣ ، ص ٢٨٠) . كما ان دلالة أخرى على ان شخصا ما كان من الاعيان هي وصفه «بأنه كان صاحب الحل والعقد » فقد استعمله البيطار في وصف عثمان بك ، (ربما آل مردم المتوفي عام ٨٧/١٨٨٦) الذي كانت له يد في تعيين المفتي الحنفي في دمشق عام ٥١/١٨٥٠ (انظر بيطار ، جزء ٢ ص ٧٤٨ ــ ٧٤٩) . وقد استعمل الحصني نفس التعبير في وصف أسعد بن أحمد البكري المذكور انفا (المتوفي عام ١٦/١٧١٥) (انظر حصني ، ص ٨٢٠) ولمعلومات أخرى عن مسألة أعيان المجتمع الدمشقي انظر كذلك : ا.هـ. حوراني : « الاصلاحات العثمانية وسياسة الاعيان » في كتاب : « بدايات التحديث في الشرق الاوسط » جمع و.ر. بولك و ر.ل. تشامبرز (شيكاغو ١٩٦٨) ص ٤١ ــ ٦٥ ، و ايرامارفين لابيدروس ، المدن الاسلامية في أواخر العصور الوسطى ، (كامبريدج ، ماساتشوستس ، ١٩٦٧) .

(٣) وهنالك مجموعة رابعة مثلا يمكن ان تكون مؤلفة من الخزانة أو موظفي المال ومساعديهم. فهؤلاء هم من الدمشقيين الذين كانوا لاغنى عنهم لتسيير أمور الدفتر دار أو قد يكونون تولوا منصب الدفتر دار بانفسهم . ولايوجد سوى القليل من المعلومات عن هؤلاء في مصادر التراجم ، ربما لانهم كانوا عادة من العثمانيين غير الدمشقيين ، أو لانهم مثل الموظفين العثمانيين الاخرين ، جاؤوا الى دمشق لفترات وظيفية قصيرة نسبيا . ولكن توجد دلائل كثيرة على ان الدمشقيين الذين تولوا منصب الخزانة كانوا غالبا مايلعبون دور الاعيان ، ومثال واضح على هذا هو فتحي الدفتري الذي يأتي ذكره عدة مرات في هذا البحث . ولكن هذا الصنف يمكن ايضا أن يلقي ضوءا على الطريقة التي اشتركت بها مجموعات الاقليات في النظام السياسي للمدينة .

(٤) ان تعبير اغوات ، جمع آغا استعمله المؤرخون المعاصرون ، انظر مثلا الفقرة الواردة آنفا ، في الحاشية رقم ١ .

(٥) عبد الكريم رافق ، ولاية دمشق ، ١٧٢٣ ــ ١٧٨٣ (بيروت ، ١٩٦٦) ص ٢٥ .

(٦) رسالة قنصلية من ريتشارد وود من دمشق ، رقم ٩ ، ٣ تموز ١٨٤٥ ، ملفات وزارة الخارجية البريطانية ، سلسلة ٧٨ ، مجلد ٦٢٢ .

(٧) عبد الكريم رافق ، « القوى المحلية في سورية في القرنين السابع عشر والثامن عشر » في كتاب الحرب ، التكنولوجيا والمجتمع في الشرق الاوسط ، جمع ف. ج . باري و م. ى.باب (لندن ، ١٩٧٥) ص ٢٧٧ ــ ٣٠٧ .

(٨) بالاضافة الى أعمال عبد الكريم رافق المذكورة آنفا ، انظر شمعون شامير ، « أسعد

باشا العظم والحكم العثماني في دمشق ، ١٧٤٣ ـ ١٧٥٨ » في مجلة الدراسات الشرقية والافريقية ، جزء ٢٦ (١٩٦٣) ، ص ١ ـ ٢٨ . انظر أيضا اطروحة الدكتوراه لـ : كارل بربير ، ديناميكية الحكم العثماني في دمشق أثناء النصف الاول من القرن الثامن عشر (برينستون ، ١٩٧٧) التي تكرس اهتماما كبيرا الى أهمية الحج بالنسبة للسياسة العثمانية حيال ولاية دمشق في القرن الثامن عشر .

(٩) بربير المصدر السابق ، ص ١٢٠ ـ ١٢١ .

(١٠) رافق « القوى المحلية .. » ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩ .

(١١) المرجع ذاته .

(١٢) بالاضافة الى المذكور هنا ، انظر التي يذكرها المرادي وهي أحمد السلامة بن اغرايبوزي (جزء ١ ، ص١٨٣ ـ ١٨٦) .

وعبد الله الشركسي (جزء ٣ ، ص ٩٠) .

(١٣) مثلا ، موسى باشا التركماني (المتوفي عام ٧١/١٦٧٠) . (انظر مرادى جزء ٢ ص ٦٣ ـ ٦٤) .

(١٤) مثلا ، درويش اغا (١٧١٥ ـ ١٧٥٧) ، (انظر مرادى جزء ٢ ص ١٠٧ ـ ١١٢) .

(١٥) مثلا أسعد باشا العظم حاكم دمشق الذي أعدم عدة أعضاء من عائلة التركماني عام ١٧٤٦ ، انظر ص ٢٤ من هذا البحث .

(١٦) مثلا ، كنعان اغا الذي توفي أثناء الحج والذي استولى الدفتر دار على أملاكه فور وصول الانباء الى دمشق (انظر المرادي جزء ٤ ص ١٤) .

(١٧) أورد هذه الارقام رافق في « القوى المحلية .. » ص ٢٨١ ولكنه يذكر انها مبنية على الافتراض بان عدد وثائق الدفع الصادرة يتفق مع عدد القوات الواقعي .

(١٨) لمعلومات عن عائلة التركماني انظر مرادى جزء ١ ص ٢١٨ ، وجزء ٢ص ٦٣ ـ ٦٧ وجزء ٣ ص ٢٢٩ .

(١٩) لمعلومات عن أفراد عائلة شملي ، انظر الباشا ، المرجع المذكور ، ص ٣ ، ٧ ، ١٥ ـ١٦ ٢٤ ـ ٢٥ ، ٥٩ ـ ٦٩ .

(٢٠) لمعلومات عن عائلة البارودي ، انظر حصني ، ص ٨٦٢ ـ ٨٦٣ ، وشطي ، تراجم ص ٤٠

(٢١) لمعلومات عن عائلة المهايني انظر حصني ص ٨٦٣ ـ ٨٦٤ .

(٢٢) لمعلومات عن عائلة اليوسف ، انظر عبد القادر بدران ، الكواكب الدرية في تاريخ عبد الرحمن باشا اليوسف ، (دمشق ١٩٢٠) ، والباشا ، المرجع المذكور ص ١٧٧ ، ٢٣٥ – ٢٣٦ ، ٢٤٠ ،وحصني ص ٨٥١ – ٨٥٣ ، ور . تريس ، الحج السوري (باريس ، ١٩٣٧) .

(٢٣) لمعلومات عن عائلة شمدين ، انظر حصني ، ص ٨٩٩ ، وشطي ، تراجم ، ص ٨٨ – ٨٩ وتريس المرجع المذكور ، ص ٨٥ .

(٢٤) في مايلي قائمة بالاشراف الدمشقيين الذين وردت أسماؤهم في مصادر التراجم مع أصلهم الشريف ، ومذهبهم ومنطقة اقامتهم حيث تتوفر هذه المعلومات :

بعض عائلات الاشراف الدمشقية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر :

ايجي (آ) (حنفي) .

زين العابدين (ب) (حسيني ، حنفي ، المنطقة الجنوبية) .

الشي (ج) (حسيني ، حنفي ، المنطقة الجنوبية) .

عتقي (د) .

عجلاني (هـ) (حسيني ، شافعي وحنفي ، المركز والميدان) .

عاني (و) (حسيني « ولكن ليس لكل الافراد المذكورين » شافعي) .

بهنسي (ز) (متزاوجون مع الاشراف ، حنفي ، المنطقة الشمالية) .

بيازيد (ح) (متزاوجون مع الاشراف ، شافعي) .

جزائري (ط) (حسني ، مالكي ، صالحية) .

حجار (ى) (حسيني ، عصرونية أي المركز) .

حسيبي (ك) (متزاوجون مع الاشراف ، حنفي ، عقيبة) .

حصني (ل) (حسيني ، شافعي ، فيما بعد حنفي ، شاغور ومأذنة الشحم) .

حمزه (م) (حسيني ، حنفي ، باب السلام أي المركز) .

خطيب (ن) (متزاوجون مع الاشراف ، شافعي ، المنطقة الشمالية) .

خياط س .

دقاق الدودة (ع) (شافعي) .

دسوقي (ف) (حسيني ، شافعي المركز) .

سرميني (ص) (متزاوجون مع الاشراف ، حنفي ، المنطقة الشمالية) .

سلطان (ق) (شافعي ، المنطقة الشمالية) .

صمادى (ر) (حنفي وشافعي ، المنطقتان الشمالية والجنوبية) .

فلاقنسي (ش) (حنفي ، قيمرية ، أي المركز) .

كيلاني (ت) (حسني ، حنفي ، عصرونية أي المركز) .

مرادي (ث) (حسيني ، حنفي ، المركز) .

مرتضى (خ) (حسيني ، حنفي ، المنطقة الجنوبية)

موقع (ذ) (حسيني ولكن ليس كل الافراد المذكورين) .

من هذه العائلات الست والعشرين هنالك عائلة واحدة كبيرة وهي عائلة الجزائري التي بدأت تلعب دورا هاما من منتصف القرن التاسع عشر فقط . أما العائلات الخمس والعشرون الباقية فمن المحتمل انها جميعا كانت تقطن في دمشق في القرن الثامن عشر ، مع أن بعضها (مثل الحسيبي والموقع ، وربما الخطيب) كان حديث العهد في المدينة . ولاتوجد أية معلومات عن عائلتي الخياط والعتقي في المصادر المستعملة في هذا البحث . كما تجدر الملاحظة ان بعض أشراف دمشق جاؤوا المدينة منذ مدة وجيزة ، أو مكثوا فيها فترة قصيرة ، ولم تكن لهم صلات عائلية مثل الدمشقيين . وتشير المصادر اليهم على انهم « نزلاء دمشق » أي مستوطنيها مثل السيد رافع الازبكي (انظر المرادي جزء ٢ ، ص ١١٦) أو مصطفى العلواني (انظر مرادي جزء ٤ ص ١٤٢ـ ١٥٤) . ولم تشمل قائمتنا هؤلاء الاشراف .

آ ـ انظر مرادي ، جزء ١ ص ٢٥٤ وحصني ص ٨١٤ .

ب ـ انظر بيطار جزء ٢ ص ٧١٩ ـ ٧٢٠ ، وجزء ٣ ص ١٢٣٠ ـ ١٢٣٩ ، و ص ١٣٣٥ ـ ١٣٣٧ ، وحصني ، ص ٦٨٠ ـ ٦٨٢ ، ٧٠٢ ـ ٧٠٦ ، ٧٥٤ ، ٨١٦ ، وشطي روض .. ، ص ٢٢٠ ـ ٢٢٣ ، وتراجم ، ص ٢٤ ـ ٢٥ ، ٣٨ ـ ٣٩ ، ومردم ص ٧ ، ٣٧ ـ ٣٩ ، والزركلي جزء ١ ص ١٤٧ ، وجزء ٤ ، ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨ ، وجزء ٧ ص ١٥٢ .

جـ ـ انظر بيطار ، جزء ٢ ، ص ٦٣٧ ـ ٦٣٩ ، وشطي تراجم ص ٩٧ ، وحصني ص ٨٨٠ ـ ٨٨١ .

د ـ انظر مرادى ، جزء ٣ ص ٢٠٦ ـ ٢٠٨ ، وشطي روض ص ٢١٤ ـ ٢١٥ .

هـ ـ للمعلومات عن هذه العائلة انظر حاشية رقم ٣٢ .

و ـ انظر مرادي ، جزء ١ ، ص ٢١٤ ، وجزء ٤ ص ٢٨ ـ ٢٩ ، وبيطار ، جزء ٣ ص ١٣٣٩ و ص ١٤٨٧ ـ ١٤٨٩ ، وشطي روض ، جزء ١ ص ٢٢٣ ، وص ٢٤١ ، وحصني ص ٦٩٥ ، ٨٧٩ .

ز ـ انظر مرادي جزء ١ ص ١٩٢ ـ ١٩٦ ، ١٩٩ ، وجزء ٢ ص ٢٤٠ ـ ٢٤٣ ، وجزء ٣ ، ص ٢١ ـ ٢٥ وجزء ٤ ص ٣ ـ ٥ ، وجون فول « عائلات العلماء القديمة ونفوذ العثمانيين في دمشق في القرن الثامن عشر » في مجلة « الدورية الاميركية للدراسات العربية » الجزء ٣ ص ٥٠ .

ح ـ انظر شطي روض ص ١٤٤ وحصني ص ٦٦٩/٨٦٠ أو « رسالة من روجرز رقم ٢٢ » دمشق في ١٢ حزيران عام ١٨٦١ ، ملف ١٩٥/٦٧٧ .

ط ـ انظر حاشية رقم ٢٤ .

ى ـ انظر حصني ، ص ٨١٤ ـ ٨١٥ ، وقول ص ٥١ .

ك ـ انظر بيطار جزء ١ ص ١٦٤ (الحاشية) ، وجزء ٢ ص ١٠٩٣ وجزء ٣ ص١٣٧٥ ـ ١٣٨١ ، وشطي ، روض ، جزء ١ ص ١٨٧ ـ ١٨٨ و ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣ وحصني ص ٨٢٨ ـ ٨٢٩ . وكمال صليبي « شيخ محمد أبو سعود الحسيبي واحداث عام ١٨٦٠ في دمشق » في كتاب بولك وتشامبرز المذكور آنفا . ص ١٨٥ ـ ٢٠٨ .

ل ـ انظر مرادي ، جزء ٢ ص ٥ ـ ٦ وجزء ٤ ص ١٢٨ وبيطار جزء ١ ص ٣٣ ، و ٤١٣ ـ ٤١٤ ، شطي ، روض ، ص ٦٠ ، ٧٣ ، ١٠٥ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، وتراجم ص ٤٩ . حصني ص ٦٠٠ ، ٦١٨ ـ ٦٤٩ ، ٨١٧ ـ ٨١٩ . الباشا ص ٨٧ .

م ـ للمعلومات عن هذه العائلة انظر حاشية ٣١ .

ن ـ انظر بيطار . ج ٢ . ص ٩١٨ ، شطي ، روض ، ص ١٥٠ ـ ١٥٩ ، حصني ص ٨٢٦ـ٨٢٧ ، ٦٦٩ ـ ٦٧٠ .

س ـ انظر : كتاب الاحزان في تاريخ واقعة الشام وجبل لبنان . لمؤلف مجهول . الجامعة الاميركية في بيروت . مخطوطة رقم ٩٥٦ر٩ . ك ٦٢ كا ١٨٦٤ ص ٢٩٠ .

ع ـ انظر شطي . روض . ص ١٩٧ ـ ١٩٨ .

ف ـ انظر مرادي ج١ ص ٥٢ ـ ٥٣ . ج ٢ ص ٨٢ ـ ٨٣ . بيطار ج٢ ص ٧٢٤ ـ ٧٢٦ . ج٣ ، ص ١٣٥٢ ـ ١٣٥٣ شطي ، روض ص ٣٣ ، ١٢٥ ـ ١٢٦ ، ٢١٢ . حصني ص ٨١٤ ، ٦٦٤ .

ص ـ انظر مرادي ج٢ ص ٥٦ ـ ٥٨ ، حصني ص ٨٧٢ .

ق ـ انظر شطي ، روض ، ص ٢١٤ ـ ٢١٥ . تراجم ص ١٩٧ .

ر ـ انظر مرادي ج١ ص ١٧٢ ـ ١٧٣ . ج٣ ، ص ٦٠ ، ج٤ ص ١٧٩ ـ ١٨٣ . بيطار ،ج٢ ص ٩٢١ . شطي ، روض . ص ١٦١ ـ ١٦٢ . حصني ص ٨٥٤ ـ ٨٥٦ .

ش ـ انظر مرادي ج١ ص ١٦٣ ـ ١٦٧ ج٢ . ص ٢٢٠ ـ ٢٢٩ ، ج٣ ص ١٣٥ ـ ١٣٦ ، ١٤٨ ـ ١٥٠ ، ٢٧٩ ـ ٢٨٧ .

ت ـ للمعلومات عن هذه العائلة انظر حاشية رقم ٤٧ .

ث ـ انظر بيطار ص ٦٧٤ ـ ٦٧٥ . شطي ، روض ، ص ١١٨ ـ ١١٩ . وحصني ، ص ٨١٣ ـ ٨١٤ .

خ ـ انظر مرادي ، ج١ ، ص ٢٢٠ ـ ٢٢١ ، ٢٢٧ . ج ٣ ، ص ٥ـ٦ وبيطار جزء ١ ص ٣١١ ، وجزء ٣ ص ١٣٤٦ ـ ١٣٤٧ وشطي روض ص ٤٩ ، ٢٣٤ ، وحصني ص ٦٤٣ ، ٦٧٨ ـ ٦٧٩ ، ٨٦٠ ـ ٨٦١ ، ٦٧٨ ـ ٦٧٩ .

ذ ـ انظر حصني ص ٩١١ ، وزركلي ص ٨ ، ٥٤ .

(٢٥) من جميع أفراد عائلة البكري الذين يذكرهم مرادي وشطي وحصني ، يشير شطي فقط الى عدد قليل منهم كاشراف ، مثل حسن (توفي عام ١٨/١٨١٧) الذي يذكره شطي (روض ص ٧٢) واسعد (توفي عام ٩٣/١٨٩٢) الذي يذكره شطي (تراجم ، ص ٤٦ ـ ٤٧) .ولكن حتى شطي لايدعو أيا من عائلة البكري بالحسني أو الحسيني ، رغم انه يذكر ان عائلة البكري تنتسب الى « السادة البكرية » في مصر . ويبدو انه لسبب ما لم يتقبل أشراف دمشق عائلة البكري على انها من أشراف دمشق .

(٢٦) من المناسب ان نشير هنا الى سبب اخر جعل مؤرخي التراجم يميزون بين الاشراف . فالحركة السياسية التي قادها سيد فتحي الدفتري الفلاقنسي ضد حكم العظم في دمشق في السبعينات ، مثلا ، ربما تكون قد تسببت في تشويه الاعتبارات الاجتماعية البحتة المستعملة في التعرف على الاشراف . ان رأي الكاتب المرادي ربما يكون قد تأثر بهذا العامل. فهو يحذف تراجم عدد من النقباء وينظر الى بعض الاشراف نظرة سلبية. كما انه لايدعو أي عضو من عائلته هو بلقب السيد أو الحسيني وهم بالحقيقة يستحقون هذا اللقب، مثل طاهر بن عبد الله المرادي (المتوفي عام ٦٧/١٧٦٦) (انظر مرادي ، جزء ٢ ، ص ٢١٨) . قد يكون المرادي قد اعتبر صلة عائلته بصفوف العلماء العليا أكثر جدارة .

وثمة سبب آخر يخلق صعوبة في التعرف على الاشراف ، وهو المحاولة التي جرت في عهد السلطان عبد الحميد في أواخر القرن التاسع عشر لاعادة تمجيد الاشراف . قد يكون لهذه المحاولة تأثير على مصادر التراجم التي وضعت في القرن العشرين .

(٢٧) انظر مرادي ، جزء ٢ ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥ .

(٢٨) يشير عبد الكريم رافق الى انه هو أيضا وجد ان الاشراف كانوا وراء كثير من الحركات السياسية المحلية في دمشق في القرن الثامن عشر (انظر رافق ولاية ص ٥٠ ومابعدها ، و ص ١٧٢ وما بعدها) . يمكن القول أيضا انه بينما يبدو ان عائلتي العجلاني وحمزة تخلتا عن صلاتهما مع عامة المجتمع لكي تصبحا من الاعيان في مركز المدينة وتؤسسا علاقات مع العلماء والمؤسسة الحاكمة العثمانية فان عائلة الفلاقنسي التي لم تتبوأ قط منصب النقيب حاولت اثارة عامة الشعب ضد هذه المؤسسة .

(٢٩) وضعت هذه القائمة من المعلومات الواردة في التراجم .

(٣٠) للمعلومات عن عائلة الكيلاني انظر مرادي جزء ٢ ص ٢٩٤ – ٣٠٢، جزء ٣ ص ٤٦ – ٤٨ جزء ٤ ص ٢٣٥ – ٢٣٦ وبيطار جزء ٢ ص ٧٥٥ ، ١٠١٣ – ١٠١٤ جزء ١ ، ص ١٣١٥ ، ١٣٢٧ – ١٣٢٨ ، ١٣٣٨ – ١٣٣٩ ، وشطي ، روض ، ص ١٢٠ ، ١٢٩ ، ١٣٣ – ١٣٤ ، ٢٢٩ ، وتراجم ص ٦٩ – ٧٠ ، ١١٦ ، وحصني ص ٨٢٥ – ٨٢٦ ، ورافق ، ولاية ص ٥١ .

(٣١) للمعلومات عن عائلة حمزة انظر مرادي جزء ١ ، ص ٢١ – ٢٢ جزء ٢ ، ص ١٥٦ – ١٥٨ ، جزء ٣ ص ٦٦ – ٨٠ ، ٢٠٦ – ٢٠٨ ، ٣١٨ ، وبيطار جزء ١ ص ٣١٠ – ٣١١، ٥٥٨ ، وجزء ٢ ، ص ٦٧٢ ، ٩٢٠ ، وجزء ٣ ، ص ١٣٢٨ – ١٣٣٠ ، ١٤٦٧ – ١٤٧٧، وشطي روض ص ٥٢ ، ٧٤ – ٧٥ ، ٧٨ – ٧٩ ، ١٠١ ، ١٥٧ – ١٥٨ ، ٢٥١ – ٢٥٤ ، وتراجم ص ٣ ، ٣٥ – ٣٦ ، وحصني ص ٦٦٧ – ٦٦٩ ، ٦٧٣ ، ٦٩٨ – ٦٩٩ ، ٧٢٩ ، ٧٣٠ ، ٧٣٧ – ٧٣٨ ، ٧٦٨ – ٧٧٢ ، ٧٧٢ – ٧٨٧ ، ٨١٠ – ٨١٣ ، ومردم ص ٧ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ورافق ولاية ، ص ٥١ ، ١٦٦ ، ٢١٠ ، ٢٢٦ .

(٣٢) للمعلومات عن عائلتي العجلاني ومنجك – عجلاني انظر مرادي ، جزء ٢ ، ص ٢٠٦ – ٢٠٨ ، وبيطار ، جزء ١ ص ١٦٨ ، ٣٤٠ – ٣٤١ ، ٥٣٦ – ٥٣٧ ، ٥٥٩ ، وجزء ٢ ، ص ٦٢٦ ، ٦٦٨ – ٦٦٩ ، ١٠٤٢ – ١٠٤٤ ، جزء ٣ ، ص ١٢٤٧ ، وشطي روض ، ص ٣٦ ، ٥٦ – ٥٧ ، ٦٣ ، ٧٩ ، ١٠١ – ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١١٢ – ١١٣ ، وتراجم ص ١٠٠ ، وحصني ، ص ٦٥٨ – ٦٥٩ ، ٦٦١ ، ٦٦٦ ، ٨٠٩ – ٨١٠ ورافق ولاية ص ٥١ ، وك . وولزينغر وس. واترينغر « دمشق الدولة الاسلامية » (برلين ، ١٩٢٤) ص ١٠٠ ، ويوسف ايبش « وصف الياس قدسي لنقابات دمشق في القرن التاسع عشر » في دورية أبحاث اقتصاد الشرق الاوسط ، بيروت ١٩٦٧ ، ص ٤١ – ٦٢ .

(٣٣) انظر لابيدوس ، المرجع المذكور ، ص ١١٢ .

(٣٤) المرجع نفسه ص ٨٦ .

(٣٥) لدراسة مفصلة عن هذا التطور انظر ج. فول ، المرجع المذكور .

(٣٦) توجد أمثلة عن التحول من المذهب الشافعي الى الحنفي للعلاقة الناتجة مع المؤسسة الحاكمة العثمانية في عائلات العمري والاسطواني والعجلاني .

(٣٧) كتب و. هايد في « بعض الاوجه في الفتوى العثمانية » (في مجلة معهد الدراسات الشرقية والافريقية ، جزء ٣٢ ، قسم ١ ، عام ١٩٦٩ ، ص ٥٦) . بان مفتين غير رسميين (أي غير أحناف) أصدروا فتاوى في مواضيع محدودة » .

(٣٨) مثلا بعض الذين شغلوا المنصب المرموق كقراء الحديث تحت قبة النصر في الجامع الاموي وفي التكية السليمانية كانوا من المذهب الشافعي . انظر مثلا سيرة حياة محمد الكزبري (بيطار ، جزء ٣ ص ١٣٤٥ ، وشطي روض ص ٢٢٧ – ٢٢٩ ، وحصني ص ٦٧٩ – ٦٨٠ ، ومردم ص ٢٧) وحامد العطار (بيطار جزء ١ ص ٤٦٢ – ٤٦٣ ، وشطي روض ص ٦٢ – ٦٣ ، وحصني ، ص ٦٤٦) .

(٣٩) ان معلومات التراجم تدل على ان علماء الشافعية كانوا يتمتعون بنفوذ كنفوذ معاصريهم الاحناف ان لم يكونوا أكثر نفوذا ، وانه لمن الممكن ان نستدل على أي من العلماء الدمشقيين كان أكثر نفوذا كمعلمين بين أنداده والاجيال المتعاقبة بان نلاحظ أيهم كان أكثر ذكرا في كتب التراجم . ان المذكورين منهم يمكن تصنيفهم في أربعة أجيال في الفترة موضوع الدراسة هنا . ففي الربع الثاني من القرن الثامن عشر كان علي الكزبري (شافعي ، تقريبا ١٦٨٨ – ٥٣/١٧٥٢) وأحمد المنيني (حنفي ٧٠/١٦٦٩ – ٥٩/١٧٥٨) هما أبرز العلماء ، ويتبعهما عبد الرحمن الكزبري (شافعي توفي عام ٨١/١٧٨٠) وعبد الرحمن الكردي (شافعي توفي ٨١/١٧٨٠) وعلي الداغستاني (حنفي توفي ٨٥/١٧٨٤) وأحمد البعلي (٩٧/١٦٩٦ – ٨٥/١٧٨٤) أما الجيل الثالث فيشمل محمد الكزبري (شافعي ٢٨/١٧٢٧ – ٠٧/١٨٠٦) وأحمد العطار (شافعي ٢٦/١٧٢٥ – ٠٤/١٨٠٣) ومصطفى رحماتي الايوبي (حنفي ٢٣/١٧٢٢ – ٩٢/١٧٩١) وعلي الشمعة (حنفي ٤٦/١٧٤٥ – ٠٥/١٨٠٤) . وكان أحد الاشخاص ذوي النفوذ المرموق من هذا الجيل العالم شاكر مقدم السعد العقاد (٤٥/١٧٤٤ – ٠٤/١٨٠٣) الذي تحول من المذهب الشافعي الى الحنبلي . ويشمل الجيل الرابع عبد الرحمن الكزبري (شافعي ٧١/١٧٧٠ – ٤٦/١٨٤٥) وحامد العطار (شافعي توفي ١٨٤٥) وعبد الرحمن الطيبي (شافعي ٧١/١٧٧٠ – ٤٩/١٨٤٨) . وسعيد الحلبي (حنفي ٧٥/٧٧٤ – ٤٤/١٨٤٣) .

(٤٠) هذا الوصف للافتاء في القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر مأخوذ بصورة رئيسية من مقالة يوريل هايد المذكورة .

(٤١) حسب التقليد الاسلامي لايجب دفع أي أجرة ، ولكن أصبح من العادة في الامبراطورية العثمانية دفع بعض الاجور ، ويقول مصدر مسيحي من دمشق ان المفتي الذي تولى المنصب عام ١٨٤٠ كان يأخذ فقط بضع بارات أو على الاكثر بضعة قروش مقابل فتاواه (كتاب الاحزان في تاريخ واقعة الشام وجبل لبنان ، مخطوطة في الجامعة الاميركية في بيروت) . رقم ٩٥٦٫٩ ، ٦٢ كا ، ١٨٦٤ .

(٤٢) انظر أ. فون كريمر ، ميتلسيريين أونددماسكس (فينا ، ١٨٥٣ ، ص ٢٤٦) .

(٤٣) مثلا ، اختيار المفتي في عام ٥١/١٨٥٠ يبدو قرارا محليا .

(٤٤) ان أسماء الذين شغلوا مناصب العلماء في هذه الفقرة جاءت من المعلومات المستقاة من التراجم .

(٤٥) المعلومات عن عائلة المرادي انظر مرادي ، جزء ١ ، ص ٢٥ ـ ٣٠ ، ١٤٥ ـ ١٤٨ ، الجزء ٢ ، ص ٧٠ ـ ٧٢ ، ٢١٨ ـ ٢١٩ ، جزء ٣ ص ٢١٩ ـ ٢٢٨ ، جزء ٤ ، ص ١١٤ ـ ١١٦ ، ١٢٩ ـ ١٣١ ، ٢١٥ ـ ٢٢٨ ، وبيطار ، جزء١ ، ص ٣٢٣ ـ ٣٢٤ ، ٥٣٣ ، جزء٢ ، ص ١٠٠٧ ـ ١٠٠٨ ، جزء٣ ، ص ١٣٩٣ ـ ١٤٠٥ ، وشطي روض ، ص ٧٥ ـ ٧٦ ، ٨٧ ـ ٩٤ ، ١٦٥ ـ ١٦٦ ، ١٨٤ ـ ١٨٧ ، وحصني ، ص ٦٥٢ ، ٦٥٥ ، ٦٦٥ ، ٧٥٢ ـ ٧٥٣ ، ٨٤١ ـ ٨٤٢ ، ٩٦٣ ، ومردم ، ص ٧ ، ٢٢٩ ـ ٢٣٠ ، ورافق ولاية ، ص ٤٦ ، ٣٢٩ ، أهـ حوراني «شيخ خالد والمدرسة النقشبندية» في « المدرسة النقشبندية » ، ستوديا اسلاميكا ، ٤٤ .

(٤٦) المعلومات عن عائلة البكري انظر مرادي ، جزء ١ ص ١٤٩ ـ ١٥٦ ، ٢٢٣ ، ٢٤١ ـ ٢٤٩ ، جزء ٢ ص ٨٣ ـ ٩٧ ، جزء ٤ ، ص ١٩٠ ـ ٢٠٠ ، وشطي روض ، ص ٢٦ ، ٥٧ ، ١٦٧ ، وتراجم ، ص ٤٦ ـ ٤٨ ، وحسني ، ص ٦٥٠ ، ٦٥١ ، ٦٦٣ ، ٦٧٥ ، ٨١٩ ـ ٨٢٠ ، ٨٢٠ ـ ٨٢١ ، و أ.هـ حوراني « الهلال الخصيب في القرن الثامن عشر » في نظرة في التاريخ (بيروت ، ١٩٦١) ، ص ٥٥ .

(٤٧) المعلومات عن عائلة المنيني انظر مرادي ، جزء ١ ، ص ١١٩ ، ١٣٣ ـ ١٤٥ ، ٢٤١ ـ ٢٤٩ ، جزء ٢ ص ٢٧٥ ـ ٢٨١ ، جزء ٣ ، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥ ، وشطي ، جزء١ ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩ ، ٣١٨ ـ٣١٩ ، جزء ٣ ، ص ١١٨٣ ـ ١١٨٨ ، وشطي روض ، ص ٤٠ ـ ٤١ ، وتراجم ، ص ٦٧ ـ ٦٨ ، وحصني ، ص ٦٤٠ ، ٨٢٤ ، ٧٨٨ ـ ٧٨٩ .

(٤٨) للمعلومات عن عائلة المحاسني انظر مرادي ، جزء١ ، ص ١١٢ ، ٢٥٠ ـ ٢٥٤ ، جزء ٢ ، ص ١٦٣ ـ ١٦٧ ، جزء ٤ ، ص ٢٢٢ ـ ٢٢٥ ، وبيطار ، جزء ١ ، ص ٣٩ ، وشطي روض ، ص ٤٨ ـ ٤٩ ، ١٠٠ ، ١٢٠ ، ١٥٠ ، وحصني ، ص ٨٣٩ ـ ٨٤٠ .

(٤٩) انظر حاشية ٣٢ .

(٥٠) للمعلومات عن عائلة حصني انظر مرادي ، جزء ٢ ص ٥ ـ ٦ ، جزء ٤ ، ص ١٢٨ ، والباشا ، ص ٨٧ ، وشطي روض ، ص ٦٠ ، ٧٢ ، ١٠٥ ، ١٦٢ ـ ١٦٣ ، وتراجم ، ص ٤٥ ، ٤٩ ، ٨٤ ، وحصني ، ص ٦٤٩ ، ٦٦٠ ، ٧٢٨ ـ ٧٢٩ ، ٨٠٠ ـ ٨٠١ ، ٨١٧ ـ ٨١٩ ، وزركلي ، جزء ٦ ، ص ٢٥٢ ، وبيطار ، جزء ١ ، ص ٣٣ ، ٤١٣ ـ ٤١٤ ، ٤٨٨ ـ ٤٨٩ ، وجزء ٢ ، ص ٧٣٤ ـ ٧٣٥ .

(٥١) للمعلومات عن عائلة الغزي انظر مرادي ، جزء ١ ، ص ١١٧ ـ ١١٩ ، ١٧٢ ، جزء ٢ ص ٩٧ ، ٢٤٣ ـ ٢٤٤ ، ٣٠٩ ـ ٣١٠ ، جزء ٣ ، ص ٦٤ ـ ٦٥ ، ٢١٥ ـ ٢١٦ ،

جزء ٤ ، ص ٣٩ ـ ٤٠ ، ٤١ ، ٥٣ ـ ٥٨ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ـ ١٢٨ ، ١٦٦ ، وبيطار جزء ١ ، ص ١٥٣ ، جزء ٢ ، ص ٦٢٩ ، ٨٦٣ ـ ٨٦٤ ، جزء ٣ ، ص ١١٣٣ ـ ١١٣٥ ، ١٣٣١ ـ ١٣٣٣ ، وشطي روض ، ص ٢٠ ، ٥٢ ـ ٥٣ ، ١٠٧ ـ ١٠٨ ، ١٣٦ ـ ١٣٩ ، ١٥٠ ، ١٨٨ ـ ١٩٠ ، ١٩٩ ـ ٢٠٢ ، ٢٠٩ ـ ٢١٠ ، ٢٢٦ ـ ٢٢٧ ، وتراجم ، ص ١٢ ـ ١٣ ، ٢٤ ، ١٠٦ ـ ١٠٧ ، ١٠٧ ـ ١٠٨ ، وحصني ، ص ٦٤٥ ، ٦٥٩ ، ٦٦٠ ، ٦٧١ ، ٦٧٢ ، ٦٧٥ ـ ٦٧٧ ، ٦٣٢ ، ٨٤٣ ـ ٨٤٤ ، ومردم ، ص ٧ ، ورافق ولاية ، ص٥٠، وزركلي ، جزء ٤ ، ص ٢٤ ، وجزء ٥ ، ص ٣٧٠ .

(٥٢) للمعلومات عن عائلة الحنبلي أنظر مرادي ، جزء ١ ص ٦٧ ـ ٦٩ ، جزء ٢ ، ص ٢٣٤ ـ ٢٣٨ ، جزء ٤ ص ٦١ ، وحصني ، ص ٦٨٧ ـ ٦٨٩ .

(٥٣) وهو ليس الحنفي المذكور في حاشية رقم ٣٩ ، أنظر مرادي ، جزء ١ ، ص ١٣١ ـ ١٣٢ .

(٥٤) أنظر شطي ، روض ، ص ٥٠ ـ ٥٢ .

(٥٥) للمعلومات عن عائلة السيوطي ، أنظر بيطار ، جزء ٢ ، ص ٦٦٤ ، ٧١٧ ، جزء ٣ ، ص ١٥٤١ ـ ١٥٤٣ ، وشطي روض ، ص ١٠٩ ، ١١٣ ـ ١١٤ ، ٢٤٣ ـ ٢٤٤ ، وحصني ، ص ٦٦٢ ، ٦٧٨ ، ٧٢٤ ، وزركلي ، جزء ٨ ، ص ١٣٥ .

(٥٦) للمعلومات عن عائلة العمري ، أنظر مرادي ، جزء ١ ، ص ١١٩ ـ ١٢٤ ، جزء ٢ ، ص ١٥١ ـ ١٥٦ ، ١٨٣ ـ ١٨٩ ، جزء ٣ ، ص ١٣٣ ، جزء ٤ ، ص ٦٨ ـ ٦٩ ، ١٠٩ ، ١٨٦ ـ ١٩٠ ، وبيطار ، جزء ٢ ، ص ٦٦٣ ، ١٠٤٦ ، جزء ٣ ، ص ١٥٤٠ ـ ١٥٥١ ، وشطي روض ، ص ٣٦ـ٣٧ ، ٧٦ ـ ٧٧ ، ١٠٩ ـ ١١٠ ، ١٣١ ، ١٧٣ ـ ١٧٤ ، ٢٢٥ ، وحصني ، ص ٦٦٢ ، ٨٢٢ ـ ٨٢٤ ، ومردم ، ص ١٦١ ـ ١٦٢ .

(٥٧) للمعلومات عن عائلة الاسطواني أنظر مرادي ، جزء ٤ ، ص ٢٠٠ ـ ٢٠١ ، ٢٢٩ ـ ٢٣١ ، وبيطار ، جزء ١ ، ص ١٥٤ ـ ١٥٦ ، ٣٤٢ ، ٥٣٥ ، جزء ٢ ، ص ٦٢٦ ، ٧٢٩ ، وحسني ، ص٦٤٧ ، ٦٥٨ ـ ٦٥٩ ، ٦٦١ ، ٦٦٥ ، ٧٥٠ ـ ٧٥١ ، ٨٣٧ ـ ٨٣٩ ، ومردم ، ص ٧ ، وب.ج. مارتين ، « تاريخ ملخص لمدرسة الخلوتية من الدراويش » في كتاب ن. قدي علماء وقديسون وصوفيون ، المؤسسات الدينية الاسلامية في الشرق الاوسط من ١٥٠٠ (بيركلي ، ١٩٧٢) ، ص ٢٨٩ ، الحاشية ، وشطي روض ، ص ٥٧ ، ٧٠ ـ ٧١ ، ١٠٤ ، ١١٢ ، ١٦٧ ، وتراجم ، ص ٢١ ، ٤٣ ، ٥٦ ، وحسني ، ص٧٢٠ـ٧٢١ .

(٥٨) أنظر حاشية رقم ٤٨ .

(٥٩) أنظر حاشية رقم ٤٧ .

(٦٠) هنالك دراستان رئيسيتان للحكام من عائلة المظم وهما : عبد الكريم رافق ، **ولاية دمشق** المذكور انفا ، وسيمون ، **ولاة سوريا من ال العظم ، ١٧٢٤ـ ١٧٨٥** وهي أطروحة دكتوراه غير مطبوعة (برينستون ، ١٩٦٠) ، والمعلومات الواردة هنا أخذت بصورة رئيسية من المصدر الاول ، وأيضا من المصادر التالية : مرادي ، جزء١ ، ص ١٥ ـ ١٦ ، جزء ٤ ، ص ٩٧ ـ ١٠٢ ، ٢٠٩ ـ ٢١٠ ، وحصني ص ٨٤٦ ـ ٨٤٨ ، وس.شمير « أسعد باشا العظم وحكم الدولة العثمانية في دمشق ، ١٧٤٣ ـ ١٧٥٨ » في دورية معهد الدراسات الشرقية والافريقية ، ٢٦ (١٩٦٣) ، ص ١ ـ ٢٨ ، وعبدالقادر العظم، « الاسرة العظيمة » (دمشق ، ١٩٥١) ، وج. غالبير « ملاحظات حول الملكية العقارية في سورية الوسطى» في L'Asse Franz ، رقم ٣٠٩ ، نيسان ١٩٣٣ ، ص ١٣٠ ـ ١٣٧ . و أ.ل. طيباوي تاريخ سوريا الحديث (لندن ، ١٩٦٩) ، ص ٤٢ ، وملفات قصر العدل في دمشق ، وملفات محاكم العونية (١٣٠٣ هـ و ١٣٢١ هـ) والباب (١٣٠٨ هـ و ١٣٠٩هـ) .

(٦١) ان يرلية الميدان كانت لها علاقات وثيقة بالمجتمع الحرفي وقد كتب رافق عن الصراع بين قابيقول الشمال (الذين اعتمد عليهم آل العظم) وبين اليرلية ، قائلا « كان صراعهم ظاهريا من أجل التفوق العسكري ، ولكن كان يكمن وراء هذا الصراع التنافس الاقتصادي بين الدمشقيين وغير الدمشقيين لان هؤلاء الاخرين كانوا يشتركون في النشاطات التجارية » (رافق ، ولاية ، ص ٢١١) .

(٦٢) للمعلومات عن فتحي الفلاقنسي ، وعائلته والحركة التي يرتبط اسمه بها أنظر مرادي ، جزء ١ ، ص ١٦٣ ـ ١٦٧ ، جزء ٢ ص ٢٢٠ ـ ٢٢٩ ، جزء ٣ ، ص ١٣٥ ـ ١٣٦ ، ١٤٨ ـ ١٥٠ ، ٢٧٩ ـ ٢٨٧ ، ورافق ولاية ص ١٦١ ـ ١٦٩ ، وش شابير « أسعد باشا.. » و « القتال في مجتمع متفكك : الحروب الحزبية في سوريا العثمانية قبل فترة التخريب » في آبرنهرين ، ١٢ ، (١٩٧٢) ص ٧٥ ـ ٨٤ ، و ك. بربير ، المرجع المذكور ، ص ١١٤ ـ ١٢٠ .

(٦٣) بالاضافة الى الثورة التي قادها فتحي في الاربعينات كانت هنالك حوادث أخرى تدل على وجود صراع خطير في دمشق في ذلك الوقت . ففي ١٧٥٧ مثلا تجمع جمهور من الناس وهاجموا أعيان المدينة أمام الموظفين العثمانيين متهمين اياهم بالمنافقين الذين ساعدوا الحكام على اضطهاد الفقراء (أنظر رافق ولاية ، ص ٢٠٨) .

نظرة في أراضي الميري ببلاد الشام

أثناء العهد العثماني

الدكتور ناصر الدين سعيدوني
(جامعة الجزائر)

لقد كان اختياري لموضوع أراضي الميري ببلاد الشام في العهد العثماني كبحث أتقدم به للمؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام ، يعود أساسا الى اهتماماتي الشخصية بالجوانب الاقتصادية وانعكاساتها على الحياة الاجتماعة بالريف ، لاسيما وقد لمست أهمية مثل هذه المواضيع في دراساتي الخاصة حول الفترة العثمانية بالجزائر .

لكن طبيعة الموضوع وامكانيات البحث حوله جعلت مهمة الباحث في هذا المجال شاقة ان لم تكن متعذرة ، فباستثناء بعض الاوامر السلطانية والقضايا الخاصة فاننا لانجد دفاتر تتعلق بالقضايا الفلاحية والاوضاع العقارية ببلاد الشام أثناء العهد العثماني وهذا ماأشار اليه كثير من المؤرخين المهتمين بمثل هذه الدراسات من أتراك وعرب واوربيين ، ويضاف الى ذلك ان المعلومات المتعلقة بأراضي الميري ببلاد الشام ظلت متداخلة بالاراضي المماثلة لها بالاقطار العثمانية الاخرى بحيث ، ان الباحث يجد نفسه مضطرا الى التصدي الى كل الامور المتعلقةبهذه الاراضي كلها قبل النفاذ الى ما يتعلق منها ببلاد الشام ، فقط ، خاصة وان أغلب قضايا الملكية ظلت في أغلب الاحيان مهملة بحيث لم تعالج بدراسات ذات طابع منهجي ولم تدعم باحصاءات ووثائق محلية على مستوى كل قطر وعلى نطاق كل اقليم .

ولعل هذا الوضع هو الذي جعل كثيرا من الكتابات حول قضايا الارض بالبلاد العربية الخاضعة للحكم العثماني لاتتعدى في مجملها تسجيل الحياة الاقطاعية الحربية للدولة العثمانية ، في أول عهدها أو عند اكتمالها على عهد سليمان القانوني أو بعد ذلك بقليل ، ليعمم مثل هذا الوصف على الفترات اللاحقة التي عاشتها بلاد الشام وبقية أقطار المنطقة ليخلصوا بعد كل هذا لذكر الاحداث

وسرد التطورات السياسية خاصة ، وكأن شيئا لم يحدث ليغير هـذه الصورة ويبدل هذا الوضع الذي كانت عليه الاراضي الزراعية تحـت حكم الادارة العثمانيـة .

ونظرا لهذه الاعتبارات فاني أشير في مستهل هذا البحث الى ان كل ماتوصلت اليه وما استنتجته يعتبر مساهمة متواضعة وعملا لايـزال في حاجة الى جهود واعمال أخرى حتى تستوفى مصـادره وتستكمـل جوانبه ويؤتي ثماره .

تعريف أراضي الميري ببلاد الشام :

ظلت أوضاع الاراضي وكيفية استعمالها ببلاد الشام طيلة الفترة العثمانية تندرج تحت الاصناف التالية التي حددها بكل وضوح القانون العقاري للامبراطورية العثمانية لعام ١٨٥٨(٢) على الشكل التالي :

ـ **الاراضي الخاصة** المعروفة بالعشرية ، الخاضعة لضريبة العشر أو التي تؤخذ منها خراج المقاسمة على أساس الغلة الفعلية ، أو الخراج الموظف بنسبة ثابتة الى مساحة الارض القابلة للزراعة(٣) .

ـ **الاراضي الموقوفة** ، وهي التي تتبع في استعمالها المؤسسات الدينية، وتعود في أصولها الى التبرعات ، سواء كانت أوقافا خيرية ، أو أوقافا ذرية (أهلية) يعود الانتفاع بها لافراد العائلة التي أوقفتها ولاتحول الى أوقاف خيرية الا في حالة انقضاء عقب الاسرة التي أوقفتها ، والاراضـي الموقوفة في كلا الحالتين لاتخضع لضرائب خاصة بها .

ـ **الاراضي المتروكة** (أراض عرش) المخصصة للاستعمال العـام لسكان القرى بحيث تستغل جماعيا من قبل أفراد العشيرة أو القريـة المجاورة لها ، وتلحق بها أراضي المشاع الخاصة بالعشائر البدوية .

ـ **أراضي الموات** ، وهي التي بقيت مهملة بدون استغلال لسبب أو لآخر ، بحيث لم ينتفع بها أحد ، ولم يدع أي شخص حيازتها ، ومـن هنا بقيت أراضي الموات خارج اهتمام المجموعة السكانية وبعيدة عن سلطة الحكومة التي تحتفظ بحق ملكيتها في حالة استصلاحها مع بقائها في ايدي مستصلحيها عملا بأحكام الشريعة الاسلامية التي تنص على ان من أحيا أرض موات فهي له(٤) .

فاذا استثنينا كل هذه الاصناف نجد **أراضي الميري** ببلاد الشام أثناء العهد العثماني تشتمل على تلك الاراضي الزراعية التي تكون ملكية الرقبة فيها للدولة ، رغم بقائها في حيازة المتسلم لها مادام ملتزما بشروط العمل بها(٥) ، وهذا مايخول لمستغليها حق استخدام الفلاحين للانتفاع بها لحسابه الشخصي بينما تكتفي الدولة بممارسة سلطتها على أراضي الميري بطريق غير مباشر ، بواسطة متسلميها من الاقطاعيين والملتزمين والمحصلين للضرائب .

وبهذا المفهوم تصبح أراضي الميري منحصرة في الاملاك السلطانية الخاصة واقطاعات الفرسان المحاربين « الصبائحية » المعروفة بالتيمار والزعامات ، بالاضافة الى بقية الاراضي التي يشرف عليها موظفو الدولة مقابل أجورهم ، ويتعهد الملتزمون بتحصيل ضرائبها نيابة عن الادارة المركزية للدولة ، وهذا مايبرز أراضي الميري في شكل ملكيات عامة للدولة تتضمن المزارع والمراعي والغابات وغيرها(٦) .

أما تسمية هذه الاراضي بالميري ، الذي ظلت تعرف به ، فيعود الى كونها كانت في حقيقة الامر تحت تصرف الامير الحاكم ، الممثل في شخص السلطان العثماني ، الذي هو بحكم العادة والقانون والشرع الشخص المحافظ والمؤتمن على الثروة العامة للامة الاسلامية ، هذه الثروة التي تمول الخزينة العامة « بيت مال المسلمين » وذلك تميزا لها عن ودائع الخزينة الخاصة بالسلطان(٧) .

الوضعية القانونية لاراضي الميري :

وفي نطاق هذا التعريف اكتسبت أراضي الميري ببلاد الشام أحكامها الخاصة فارتبطت بالمفهوم الخاص للملكية التي تميزت به الدولة العثمانية منذ نشأتها الحربية في شكل امارة غزاة ، وكان هذا المفهوم يعطي للسلطان العثماني حق الرقبة على الشعوب الخاضعة له ، باعتبارهم رعاياه الخاضعين له ، مما يخول له حق ملكية ما في حيازتهم من الاراضي والثروات(٨) . وقد أصبحت هذه الاحكام عبارة عن قوانين معمول بها بعد أن تم نشرها من طرف محمد جلبي افندي عام ٩٧٤هـ ـ ١٥٦٦م أثناء حكم السلطان سليم(٩) .

وقد سمحت هذه القوانين للسلاطين العثمانيين أن يوزعوا مساحات شاسعة من أراضي الميري ببلاد الشام ، على جنودهم وأعوانهم في شكل

اقطاعات عسكرية بعد أن تمكنوا من وضع يدهم عليها نتيجة عدة عوامل منها اجراءات المصادرة المتكررة وحقوق الوراثة والحرب .

وقد أدى هذا الوضع القانوني لاراضي الميري الى خلق نوع من التداخل بين الاراضي الميرية من جهة والاراضي الخاصة من جهة أخرى . وذلك نظرا لحق الرقبة التي تعود بموجبه الارض للجماعة الاسلامية ، وعملا بحق التصرف الذي تترك بموجبه الارض لاصحابها الاولين باعتبارها أرض خراجية ، وقد نتج عن ذلك أن أصبحت العلاقة بين الميري باعتبارها أرض خراج في أصولها الاولى وأراضي الملك الخاصة التي بقيت تخضع للخراج ، تتعلق بالمجالات القانونية أكثر مما تتصل بالواقع العملي للارض الشامية(١٠) . كما ترتب عن هذا الوضع الذي لم تكن فيه الميري والملكيات الخاصة محددة كما يجب ، ظهور نوع من الملكيات الخاصة بالمناطق الجبلية ، اتصف بالوضعية القانونية الغامضة لكونه جمع بين **نظام الالتزام** الميري . وحقوق التصرف الخاص(١١) .

العوامل المؤثرة في تحديد مساحات الميري بالشام :

ورغم ما تمتاز به طبيعة الملكية بالميري من غموض وعدم استقرار ، فانها قد عرفت اكتمال مساحتها ببلاد الشام في فترة متقدمة من الحكم العثماني ، فالسلطان سليم ، بعد فتحه للبلاد سعى جاهدا قبل مغادرته لاقاليم الشام الى احداث سجلات تخص الاراضي الميرية وما يتبعها من قرى وتجمعات سكانية ، وهذا ما أكسب الميري اطارا محددا يشمل العقارات السلطانية ، والاعطاءات العسكرية ، سواء منها الخاص أو المتعلق بالتيمار والزعامت ، وبذلك أصبحت الاراضي الميرية بالشام بعد انتظامها نهائيا في القرن السادس عشر لاتقبل الزيادة أو النقصان في نظر القانون ، وان كان ذلك في المجال النظري(١٢) أكثر منه في الواقع العملي، الذي جعل الميري غير مستقرة في أوضاعها وغير محددة في مساحتها ، وذلك لانتهاج الحكام في شأنها سياسة مخالفة لما تنص عليه القوانين النظرية : ففي هذا الشأن نجد ان الحكام كانوا يتبعون لمعالجة قضايا أراضي الميري بالشام أسلوبا يتصف بالمهارة والفعالية ويمتاز بالمداومة والتكرار ، بحيث لم يضيعوا أية فرصة سانحة لضم الملكيات العقارية التابعة لكبار الملاك أو لمؤسسة الاوقاف(١٣) . يشجعهم على ذلك تصرف بعض السلاطين مثل سليمان القانوني الذي حول هو الاخر مساحات كبرى من نظام العقارات

الخاصة الى احكام الميري اثر فشل ثورة جان بردى الغزالي والي الشام عام ١٥٢١م .

وعلى كل فاننا نلاحظ طيلة الحكم العثماني للشام أن اراضي الميري كانت تتأثر باتجاهين متضادين ، احدهمايعمل على توسيع الميري ويتمثل في الادارة التركية وعلى راسها الباشوات حكام الولايات الشامية الذين عملوا مافي وسعهم لادخال مساحات شاسعة من الاراضي الخاصة أو المشاعة واخضاعها لاحكام الميري ، واحسن مثال على ذلك تلك الاراضي المشاعة التي كانت تنزع من العشائر المقيمة بها عنوة لتوزع في شكل اراضي اميرية من طرف الباشوات على ممثلي الاشراف وشيوخ العشائر وكبار الاقطاعيين أو تضم مباشرة الى اراضي التاج كما فعل مؤخرا السلطان عبد الحميد بالاراضي المشاعة المحاذية للبادية والتي كانت تضم مئات القرى لاسيما جنوب حلب وحول السلمية(١٤) .

اما الاتجاه الاخر فكان يرمي الى تحويل اراضي الميري الى ملكيات خاصة أو اراضي مشاعة واوقاف ذرية ، وهذا الاتجاه يستمد قوته من رغبة المنتفعين بأراضي الميري لتحويلها لفائدتهم الخاصة ، مثل جعلها أوقافا ذرية يستغلونها دون تقديم التزامات مالية أو خدمات عسكرية ورغم أن تغييرا كهذا لوضعية اراضي الميري كان يتطلب رخصة من مكاتب الطابو لم يكن من الميسور الحصول عليها أو المحافظة على مفعول احكامها لانها قد تلغى في اي وقت بأمر سلطاني ، فتتحول الارض من جديد الى احكام الميري ، وقد ينجرّ عن ذلك أن تسلم لاناس آخرين ، ومع ذلك فان كثيرا من المتسلمين للميري تمكنوا من تحويل مساحات شاسعة منها الى أوقاف ذرية الامر الذي جعل الاراضي الموقوفة تشكل ثلاثة أرباع الاراضي الزراعية بالامبراطورية العثمانية بما فيها بلاد الشام في منتصف القرن التاسع عشر(١٥) . وبذلك أصبحت أراضي الميري في أواخر العهد العثماني بالشام في درجة ثانية من حيث المساحة والاهمية بعد اراضي الاوقاف(١٦) . بعد ان كانت بما تشتمل عليه من تيمار وزعامات من السعة والاهمية بحيث لايمكن مقارنتها بالملكيات الخاصة ولا بأراضي الاوقاف وذلك حتى القرن السابع عشر(١٧) .

ومما زاد في فاعلية هذا الاتجاه الذي ادى الى تناقص اراضي الميري والاضرار بمصالح الدولة العثمانية بالشام ، تلك الرغبة التي أبداها الاقطاعيون العسكريون في تحويل اقطاعاتهم الى ملكيات شخصية وراثية

بأتم معنى الكلمة ، وقد شجعتهم على ذلك [illegible] الانفصالية والروح الطائفية التي كانت تسود بعض جهات بلاد الشام آنذاك .

الاماكن التي تتركز بها أراضي الميري ونوع الملكيات التي تسود فيها :

وعلى كل فان هذه الاوضاع التي كانت تتأثر بها الميري تدفعنا الى التساؤل عن الاماكن التي تتركز بها الاراضي الميرية ، وهنا نلاحظ ان الاراضي الميرية كانت في اغلبها ترتبط بالمناطق ذات الطبيعة السهلية التي تفصل بين المناطق الساحلية ذات التضاريس الصعبة وبين السهوب الجافة التي يغلب عليها المناخ الصحراوي(١٨) وهذا ما جعل غالبية أراضي الميري نظرا لهذا الوضع الجغرافي تتصف بالمناخ شبه القاري الذي يسود داخل بلاد الشام ، بحيث يسود الجفاف النسبي وتنخفض الكثافة السكانية وتتوفر المساحات الكافية لممارسة الزراعة الواسعة ذات النمط الزراعي الواحد(١٩)، والمتمثل بالخصوص في غلال الحبوب ، التي ظلت تعتبر منتوجا استراتيجيا معدا للاستهلاك الداخلي او التصدير الخارجي ، كما هو الشأن في باقي أقاليم الامبراطورية العثمانية ، ويلحق بزراعة الحبوب مزارع الزيتون التي كانت تشتهر بها أراضي الميري ايضا لاسيما في الاقاليم التي تسمح ظروفها المناخية والطبيعية بممارسة مثل هذا النوع من الزراعة وقد ترتب عن طبيعة مناخ أراضي الميري وأساليب الفلاحة التي عرفتها ونوع الانتاج الذي اشتهرت به ، شيوع الملكيات الواسعة التي كانت في الواقع أكثر ملائمة لظروف معيشة الفرسان (الصبائحية) . وتحركاتهم ، عكس الاراضي الجبلية مثلا .

ومما ساعد على ظهور الملكيات الكبيرة بالميري تلك التقاليد الجاري العمل بها والتي تخول لصاحب الاقطاع أن يضم الى مافي حوزته اقطاع واسع ، في حين أنه لايحق له بفعل هذه التقاليد ان يجزء اقطاعه الى قطع صغيرة مرة أخرى(٢٠) . لانعدام مبدأ الوراثة وانتفاء حق الملكية الشخصية .

وقد أدى هذا الوضع المتميز للميري ببعض المؤرخين الى اعتبار الملكيات الكبيرة أساس النظام العقاري بالشرق العربي ، بينما راوا في الملكيات المتوسطة أو الصغيرة شذوذا عن هذه القاعدة(٢١) . مستدلين في حكمهم هذا على احصائيات وتقارير عديدة نذكر منها على سبيل المثال ، ذلك التقرير الخاص بولاية دمشق الذي يعود الى فترة متأخرة

من الوجود العثماني ببلاد الشام ، والذي نجد به أصناف الملكية التي تشكل الميري أغلبيتها موزعة كما يلي : ٦٠٪ من المساحة الاجتماعية يخص الملكيات الكبيرة و ١٥٪ يعود للملكيات المتوسطة و ٢٥٪ يتعلق بالملكيات الصغيرة(٢٢) .

الا أن شيوع الملكيات الكبيرة بأراضي الميري كان يخضع لطبيعة الموقع الجغرافي ونوعية المناخ ، فضلا عن تحكم الوضع الاجتماعي الذي كانت تعيشه بلاد الشام ، فالموقع الجغرافي الذي جعل من الميري قطاعا وسطا بين أراضي العرش المشاعة حيث يسود الاقتصاد الرعوي والحياة البدوية العشائرية ، وبين الملكيات الخاصة المرتبطة بفحوص المدن والاقاليم ذات الطبيعة الصعبة ، مما استلزم تجميع الارض ضمن قطع كبيرة حتى لاتتحول الى مشاع ولاتصبح ملكيات خاصة ، أما نوع المناخ فانه تطلب مثل هذه الملكيات الكبيرة لان سعة المساحة بالميري هي التعويض الملائم لقلة الانتاج في مناخ شبه قاري ، والدليل على ذلك أن خمسين هكتارا من أراضي الميري بالمعمورة بين حلب وحمص المحاذية للبادية ذات المناخ شبه الجاف ، تعادل من حيث الانتاج هكتارين من الاراضي الزراعية بالغوطة حيث تسود الملكيا تالخاصة وتتوفر امكانيات الري ، كما أن ثلاثين هكتارا شرق حلب لاتستطيع أن توفر العيش لستغليها من الفلاحين الا بجهد بالغ ، بينما نفس المساحة بضواحي طرابلس كانت تشكل ملكية عقارية غنية جدا من بساتين البرتقال مثلا(٢٣) . زيادة على ذلك ان بعض هذه الاقطاعات الواسعة للميري بفعل ظروف اجتماعية خاصة أصبحت تتميز بأساليبها الزراعية البسيطة ، الامرالذي استوجب مثل هذا النوع من الملكيات الواسعة ، حيث تسهل مراقبة الفلاح والتحكم فيه من طرف الاقطاعي والملتزم ، كما أن الظروف الاجتماعية من جهة أخرى جعلت اقطاعات الميري تتطلب من مستغليها مكانة اجتماعية خاصة ووضعية ادارية مميزة تؤهلهم لان يفرضوا سلطتهم عليها ويمارسوا نفوذهم فيها ، وهذا لايتأتى لهم الا بتكوين اقطاعات واسعة تضم العديد من الفرسان والموظفين حتى يتمكنوا من الوقوف في وجه تنقلات العشائر البدوية وصد تحرشاتها المتكررة ، وهذا الوضع الاجتماعي هو الذي يفسر لنا امتلاك السلطان عبد الحميد لتلك العقارات الشاسعة الواقعة على حافة البادية شرق حماه وجنوب شرق حلب(٢٤) . لان مثل هذه الاراضي لم يكن من المستطاع ادخالها في نطاق الميري الا بفضل وضعها ضمن أملاك السلطان

الخاصة ، وذلك باعتباره الشخص الوحيد القادر على أن يحترم هناك من طرف عشائر البدو القوية .

أما خارج هذا النطاق الذي تسود به اقطاعات الميري الواسعة فاننا نجد هناك مساحات معتبرة من الميري يتركز اغلبها بالاقاليم الساحلية وبعض المرتفعات الداخلية ، وهي في مجملها متخصصة في زراعة الزياتين ، مثل نواحي حلب وادلب وجهات صفد ونابلس والقدس ، بالاضافة الى المناطق الساحلية شمال طرابلس وجنوب صيدا بالخصوص ، وهذا ماتؤكده تلك القضايا المتعلقة بالتيمار الخاص بالزياتين الذي عرفته مثل هذه المناطق منذ فترة متقدمة من الحكم العثماني بالشام(٢٥) .

ندرة الاراضي الميرية بالمناطق الجبلية والجهات المتاخمة للبادية :

ولعل أهم ما يلفت انتباه الباحث في تحديد مناطق الميري هو ندرة هذه الاراضي بالخصوص بالمناطق الجبلية سواء منها المحاذي للساحل أو الواقع داخل البلاد ، وقد نجد تفسيرا لهذا الوضع في قوة الزعامة الاقليمية والتكتل الطائفي في تلك الجهات ذات التضاريس الصعبة مثل جبل لبنان والنصيرية والدروز ، وبذلك تمكن الاقطاع المحلي الذي ظل يمارس سلطته على الارض والفلاح بهذه الجهات لمدة طويلة قد تعود الى ماقبل الحكم العثماني للشام(٢٦) وأن يجعل من نفسه صلة الوصل بين الفلاحين والادارة العثمانية ، وقد أدى هذا الوضع بالحكام العثمانيين الى التسليم بالامر الواقع بعد ان لمسوا ان نظام الزعامات والتيمار لايمكن تطبيقه بشكل جدي في مثل هذه المناطق ذات التكوين الاجتماعي العشائري(٢٧) لاسيما وان الادارة العثمانية لم تكن في أي حال من الاحوال ترمي الى استغلال اراضي تلك الجهات استغلالا مباشرا بدون واسطة ، بل كانت تفضل الاحتفاظ بالنظم الاجتماعية السائدة سعيا وراء ايجاد سند لها بين السكان المحليين وقد وجدت أحسن سند لها في مثل هذه الحالة تلك العائلات المالكة التي لم تبخل بتقديم خدماتها للادارة العثمانية .

وبفعل هذه الظروف لم يكن مجال لتطبيق نظرية أراضي الميري بهذه الجهات ، رغم أن أغلب الاراضي الزراعية بها كانت في أول العهد العثماني تعتبر اقطاعات مثل غيرها من الاقطاعات الاخرى بدليل ان سليم الاول بعد معركة مرج دابق (١٥١٦) أقر شيوخ الاقطاع بلبنان في اقطاعاتهم بعد ان انضموا الى صفوفه واعلنوا طاعتهم له كما هو منصوص عليه في كتابات

ابن طولون(٢٨) ومع هذا فان هذه الاقطاعات سرعان ما تحولت في فترة مبكرة من الحكم العثماني الى شبه ملكيات خاصة نتيجة توزيعها من طرف مقتطعيها لاسيما أعيان الموارنة والدروز على ورثتهم وأعقابهم(٢٩) وبذلك لم يعد للميري وجود بعد ان تحولت أراضي هذه المناطق الى ملكية بعض العائلات القوية ، فباستثناء قطع صغيرة ظل يتمسك بها أصحابها من الفلاحين بفعل العرف الذي ظل محترما بين السكان(٣٠) فان غالبية أراضي المناطق الجبلية استحوذت عليها العائلات (الغنية) والقوية ، التي تركز أغلبها بجبال لبنان مثل اللمعيين بالمتن والعمادين بالعرقوب وال تكله بالمناصف وال حبش بغزير وال الدحداح بالزاوية وال القاضي بجزين وال تلحوق بالغرب الاعلى وآل عبد المالك بالجرد ولعل أهم هذه العائلات من حيث الغنى والسؤدد آل شهاب بوادي التيم وآل ارسلان بالشويفات وآل جنبلاط بالشوف(٣١) ومثلهم في ذلك آل عبد الهادي بجبال الناصرة بفلسطين(٣٢) وآل الاطرش بجبل العرب « الدروز »(٣٣) .

ويلحق بهذه الاوضاع التي حدت من أراضي الميري بالمناطق الجبلية، ظروف أخرى عملت على انكماش ملكيات الميري بالجهات المتاخمة للصحراء، وتعود في أساسها الى كثرة الاضطرابات وشيوع الفوضى وتكرر غارات العربان وتنقلات العشائر البدوية فبفعل هذه العوامل تحولت مساحات شاسعة من الاراضي الميرية الى أراضي مشاعة ، لاسيما في فترات اهمال الدولة لمثل هذه الاراضي عندما تتضرر بالجفاف وتنكب بالجراد والاوبئة أو عندما تتعرض لتدمير تجهيزاتها واتلاف منتوجاتها نتيجة الصراع بين المقطعين أنفسهم في بعض الاحيان .

وقد أدت هذه الحالة التي كانت عليها الميري المتاخمة للبادية بكثير من الاهالي من أهل الدير . الى ترك قراهم وهجرة منازلهم والنزوح نحو المدن الكبرى ، بعد أن أضرت بهم هذه الاوضاع واثقلت كاهلهم الضرائب الباهظة مثل ضريبة الديموس(٣٤) . بحيث أصبحت مشاهد الخراب تثير الشفقة والاسى في كثير من الجهات مثل الاراضي الواقعة بين حلب ودمشق التي أشار اليها قنصل البندقية في حلب(٣٥) ، أو التي ذكرها فولني في كتابه بقوله : انه في استطاعة من مكث عشرين سنة بحلب ان يعاين بنفسه أن أغلب جهات حلب بالذات تكاد تخلو من سكانها ، بحيث أن المسافر لايجد في كل هذه الجهات سوى المنازل المهدمة والاحواض الغابرة والمزارع

المهجـورة . وبذلك لم يبق من ٣٢٠٠ قرية التي كانت مثبتة في سجلات الدفتر دار المخصصة لضرائب الميري والمتعلقة بباشليك حلب في أوائـل العهد العثماني سوى ٤٠٠ قرية ظل المحصلون يتعهدون بجمع ضرائبها في أواخر القرن الثامن عشر(٣٦) .

وهكذا يتضح لنا أن الاوضاع التي كانت تعيشها الاراضي الميرية المتاخمة للصحراء ساعدت على تحويل مساحات شاسعة منها الى أراضي مشاع مثل جهات المعمورة الواقعة الى الشرق بين حمص وحلب ، ومثل سهول حوران الشرقية ونواحي دمشق ونابلس وحلب بعد ان اضطر الحكام بولايات الشام الى التعامل مع العشائر البدوية واستخدامها في حراسة القوافل وتأمين الطرق الرابطة بين المدن الرئيسية مثل الطريق الرابطة بين حلب وحمص وحماة ودمشق ، وحتى يحدوا من تحركـات هذه العشائر ويتجنبوا غاراتها واعتداءاتها فانهم كانوا يقدمون لشيوخ ورؤساء البدو الهدايا كما كانوا يسبغون عليهم الالقاب مثل لقب الباي الذي أصبح يحظى به شيوخ الموالي ورؤساء طي منذ أوائل القرن الثامـن عشر ولقب الباشا الذي أصبح يخاطب به رؤساء شمر بالبادية(٣٧) .

ومما يلاحظ أن أراضي المشاع عرفت توسعا كبيرا على حسـاب أراضي الميري في أوائل القرن التاسع عشر ، نتيجة تزايد غارات العربـان وظهور جماعات الوهابيين التي هاجمت نواحي حلب (١٨٠٣) . وزاد ضغطها على البطاح الواسعة بين معان وحلب (١٨٠٨) . وتغلغلها بجهات حوران (١٨١٠) ، قبل أن تتمكن جيوش الدولة من صدها سنة (١٨١١)(٣٨). وبفعل ذلك أصبحت مساحات كبيرة من أشد مناطق سوريا خصبا بمـا في ذلك السهل الساحلي بفلسطين وسهول حوران معرضة لغارات البدو وهجمات العربان(٣٩) ، الذين لايترددون للحصول على السلاح وتأمين المراعي على حساب الميري في التحالف مع بعض الولاة مثل تحالف قبيلـة صخر المنتشرة بربوع فلسطين وشرق الاردن مع ظاهر العمر أثناء قيامـه بالثورة على السلطة العثمانية ببلاد الشام(٤٠) .

كيفية استغلال الميري وطريقة الانتفاع بها :

كل هذه الاوضاع التي تميزت بها أراضي الميري ببلاد الشام كانت ترتبط في واقع الامر بكيفية استغلالها من طرف الحكام وطريقة الانتفاع بها لصالح الخزينة العامة ، فالدولة التي ظلت تعتبر المالكة الحقيقية لاراضي

الميري نجدها في هذا المجال تعمل على استخدام الميري في أوجه مختلفة منها الاغراض الدفاعية كتسديد نفقات القلاع وترميم الحصون وتحسين وسائل الدفاع عن البلاد ، وتلبية حاجات الحاميات المحلية ، ومنها تلبية المطالب المالية للجهاز الاداري مثل تسديد أجور الموظفين والانفاق على الخدمات الاجتماعية وصرف المرتبات التي تتعلق بالمرافق العامة(٤١) . واهم من هذا كله فان الجزء الاكبر من أراضي الميري كان يخصص لقواد الجيش وفرسان (الصبائحية) في شكل اقطاعات ومعاشات دائمة تعرف عادة بالديرلكات(٤٢) .

وبالنظر الى هذه الوجوه التي استعملت فيها الميري يمكن لنا أن نصنف أهم الاغراض التي أولتها الدولة عنايتها واهتمامها حسب ترتيبها الزمني .

ففي الفترة الاولى من الوجود العثماني ببلاد الشام كانت الدولة تعمل جاهدة لتنظيم الاراضي الميرية ضمن الاقطاعات الحربية ، ثم اصبحت في فترة يمكن تحديدها على وجه العموم بأواسط القرن السابع عشر وطيلة القرن الثامن عشر تحبذ وساطة الملتزمين وتشجع نظام الالتزام على حساب الاقطاع الحربي السابق ، ثم فضلت بعد ذلك وضع أراضي الميري تحت اشراف المتصرفين أو تحويلها الى شبه ملكيات خاصة (مالكانة) منذ أواخر القرن الثامن عشر وأثناء القرن التاسع عشر ، وفي الاخير انتهى الامر بالحكام الى تحويل مابقي من أراضي الميري الى شبه ملكيات خاصة تعود للمنتفعين بها والمتسلمين لها . وقد كان القانون العقاري لعام ١٨٥٨ نهاية لهذا التطور الذي عرفته أراضي الميري بالشام .

مرحلة استخدام الميري في شكل اقطاعات حربية :

فبالنسبة للفترة الاولى التي ساد فيها نظام الاقطاعات الحربية وخاصة أثناء القرن السادس عشر ، كانت أراضي الميري تخصص للفرسان الاقطاعيين المعروفين بالصبائحية في شكل اقطاعات معاشية ديرليكلر ، حتى يتمكنوا من مراقبة الارياف مراقبة فعالة ودائمة ، أو يكونوا كذلك على أهبة الاستعداد بامداد الدولة بالفرسان في حالة الحرب والاستنفار وكانت هذه الاقطاعات الحربية تصنف حسب مقدار دخلها السنوي ، فاا كان هذا الدخل لايقل عن مائة اقجة(٤٣) ، فهو اقطاع خاص يعود

للسلطان والعائلة المالكة مباشرة ، ويجوز توزيعه مؤقتا على الوزراء وكبار الموظفين عند القيام بمهامهم أو أثناء توليهم لمناصبهم ، أما اذا كان الاقطاع أقل من ذلك فهو يعهد الى الفرسان في شكل اقطاعات حربية مقابل تأديتهم الخدمات العسكرية بانفسهم والتعهد بتجنيد فرسان آخرين « جبليين »(٤٤) ، اذا كانت مساحة الاقطاع ودخله يقتضي ذلك ، وهذا النوع من الاقطاعات ـ غير السلطانية ـ ينقسم حسب أهميته الى « زعامت وتيمار »(٤٥) فالزعامت يستلمها زعيم ، ويكون دخلها السنوي لايقل عن عشرين الف أقجة ولايزيد عن مائتي ألف أقجة ، أما التيمار الذي يعرف صاحبه بالتمرجي أو التيماري(٤٦) فهو أكثر الاقطاعات شيوعا وانتشارا وان كان أقلها مساحة بحيث يحدد مدخوله السنوي بقيمة نقدية لاتتجاوز عشرين ألف أقجة .

وكل من التيمار والزعامت يتألف أساسا من رقعة من الميري تكون كافية لاعالة الفارس وتعرف بالسيف « قلج » ، مع حصص اضافية ينالها الفارس على سبيل التشجيع والمكافأة للخدمات التي يقدمها وتعرف بالترقي(٤٧) ويترتب عليها عادة المساهمة بفرسان اضافيين « جبليين »(٤٨) ويقوم الزعيم أو التيمارجي بتجنيدهم والاشراف عليهم .

والجدير بالذكر أن حق الفارس في التيمار يسقط عادة عند الاخلال بتعهداته وعدم القيام بواجباته العسكرية أو عند اعلان العصيان واهمال الاقطاع لمدة تتجاوز الثلاث السنوات ، وبذلك يصبح التيمار شاغرا ، وتعود وارادته الى بيت المال ، أما في حالة وفاة الصبائحي فكان يحفظ الاقطاع لدى ضابط برتبة سردار في حالة الحرب ، وفي أوقات السلم كان يوضع تحت تصرف الموقوفانجي ، وذلك حتى يمنح الاقطاع من جديد لأكفأ الرجال وأكثرهم شجاعة ، مع اعطاء حق الاسبقية لجبلي الصبائحي المتوفى ، هذا اذا لم يكن هناك وريث شرعي يطالب باسناد الاقطاع له(٤٩) ، لان العادة جرت على اعطائه الاولوية في هذه الحالة مقابل رسم تفصيلي يعرف بالطابو(٥٠) .

كل هذه التنظيمات دعمت النظام الاقطاعي وزادت في فاعليته باراضي الميري لاسيما وانه أصبح يخضع لمبدأ تسلسل الرتب العسكرية بحيث كان يشرف على هذا النظام جماعة من الحكام ذوي الرتب العسكرية والصلاحيات الادارية ، ففي هذا التنظيم كان الفرسان الاقطاعيون

« الصبائحية » يأتمرون باوامر الصوباشي Le Soubachi ، الذي يساعده في فترات السلم القاضي المحلي ، ويتلقى هو الاخر التعليمات من الآلاي باي L'Alai - bei ، قائد فرق الصبائحية ، الذي يخضع في كل تصرفاته الى الصنجق باي Le sendja-bei أو أمير اللواء Mivi-Liva باعتباره الضابط العام المشرف على اللواء أو السنجق والمعين مباشرة من الباي لارياي « أمير الامراء Mivi - Mivm الحاكم العام للولاية(٥١) » .

وعن طريق هؤلاء الضباط المتصرفين في الاراضي الميرية يعود الاشراف الاخير الى أمين الدفتر « دفتر أمين » باستانبول الذي يعتني بشؤون الاقطاعات ، ويشرف على كل من كاخيا الدفتر Defter Viahya المكلف بشؤون الزعامت ودفتر دار التيمار Timar Defter der المختص بقضايا التيمار(٥٢) ولتسهيل سير الامور استحدث في كل ايالة جهاز اقليمي ، مماثل لهذا الجهاز المركزي باستنبول ، على أن انحطاط الاقطاعات الحربية وتفضيل طرق أخرى للاشراف على الميري ــ كما سنرى ــ أدى في الاخير الى الاخلال بهذه الانظمة والغاء بعض هذه الوظائف حتى أصبحت شؤون التيمار والزعامت تعود لاشراف شخص واحد برتبة كاخيا الدفتر ، كما وقع بولاية دمشق أثناء تولي المدعو ابراهيم باشا هذا المنصب في سنة ١٠٢١ هـ (١٧٠٩ ــ ١٧١٠)(٥٣) ، كما أن الاخلال بهذه التنظيمات يتمثل في الخصوص في الحد من صلاحيات الباشوات حكام الولايات منذ سنة ١٥٣٠ بحيث اقتصرت امتيازاتهم في هذا الشأن على اصدار براءات (جمع) براءة أو تذكرة(٥٤) ، يترشح الفارس بموجبها لنيل اقطاعه من مركز السلطة بأستانبول بعد أن يزكى من طرف زعيمين وعشرة تيمارجية اذا كان من الاتراك(٥٥) . أو يبرهن على صلاحيته للخدمة العسكرية وفاعليته في ميدان القتال اذا كان من الرعية الاخرين(٥٦) . وذلك اذا لم يسبق لمثل هذا الفارس نيل اقطاع أو كان الاقطاع الذي رشح له يزيد دخله عن ستة آلاف قجة ، وبذلك لم يبق لحكام الولايات من هذه الصلاحيات سوى حق منح اقطاعات صغيرة لايزيد دخلها عن ستة آلاف أقجة لاناس سبق لهم أن نالوا اقطاعات أورشحوالها بحكم الوراثة والنفوذ(٥٧) . ومن الملاحظ أن المهام الحربية والواجبات الادارية التي كان يلتزم بها متسلم الاقطاع كانت في الواقع تعويضا عن الامتيازات العديدة التي خولت له ، والتي بمقتضاها يعفى من الضرائب الاضافية والرسوم المستحدثة ويصبح له الحق في جمع المحاصيل واستخلاص المبالغ المالية من الفلاحين التابعين له.

كما يخول له حق فرض ضرائب اضافية وجمع رسوم غير عادية(٥٨)، وهذا ما مكنه من الحصول على نصيب من المحاصيل الزراعية لاراضي الميري سواء كانت هذه المحاصيل عينا أو نقدا مثل استحواذه على كاهل غلة الزياتين في لواء طرابلس(٥٩) . أو اكتفائه بنصف انتاج الزياتين « الرومانية » التابعة لاهل الذمة بألوية القدس وصفد وحمص ، أو أخذ مقدار نقدي يقدر بأقجة واحدة على كل شجرة زيتون بناحية دمشق ، أو بنصف أقجة فقط عن كل شجرة في لواء حماة(٦٠) .

ومقابل هذه المنافع الشخصية للفارس كان عليه أن يتعهد بتقديم مبالغ معتبرة للخزينة العامة ، يتم جمعها لدى حكام الولايات الشامية آنذاك بدمشق وحلب وطرابلس (وصيدا منذ ١٠٧٣هـ/١٦٦٣م) ، والرقة ، مما جعل بلاد الشام تساهم بنصيب وافر في دخل الامبراطورية العثمانية وفي تلبية حاجات موظفيها ، وبذلك اكتسبت هذه الولايات الشامية بفضل استغلال أراضي الميري صفة ايالات من نوع « خاص » أي من صنف الولايات التي كانت أجور الجند ورواتب الحكام بها تسدد من عوائد الارض(٦١) . خلاف بقية الولايات العربية الاخرى الخاضعة للحكم العثماني ، والمطبق بها نظام (سالیانة) ، المعتمد على تسديد الاجور والرواتب رأسا من الخزينة الاقليمية أو المركزية بغض النظر عن مصادرها مثل ايالات الجزائر . وتونس وطرابلس والبصرة وبغداد(٦٢) .

وهذا مامكن الحكام من الحصول على مداخيل ضخمة قدرت بولاية دمشق وحدها بما يزيد عن المليون قرش ، ولعل أدق تقدير في هذا الشأن نجده في الاحصاء الذي تضمنته معلومات علي أفندي أمين الدفتر دار التي تعود الى أوائل القرن السابع عشر (١٠٨١ هـ ١٦٠٩م)(٦٣) فحسب هذا الاحصاء نجد الايالات الشامية كانت تساهم بالمداخيل التالية :

ايالة دمشق الشام ٩٤٨٣ر٠٠٣ اقجة .

ايالة حلب ١١٣٨٩ر٢٠٤ أقجة .

ايالة طرابلس الغرب ٧٦٩٤ر٧٣٥ اقجة .

زيادة عما تمد به الدولة من الفرسان القادرين على حمل السلاح في الوقت المناسب ، والموزعين على مختلف الايالات الشامية حسب الاحصاء السابق بالنسب التالية :

ايالــة دمشق الشام ٢٦٠٠ فارس (بين صبائحي وجبلي) .

ايالــة حلب ٢٥٠٠ فارس (بين صبائحي وجبلي) .

ايالة طرابلس الغرب ١٤٠٠ فارس (بين صبائحي وجبلي) .

والجدير بالذكر أن هذه المداخيل المالية ومايرتبط بها من أعــداد كبيرة من الفرسان ، لم تلبث أن تناقصت مع نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر ، نتيجة الانحلال والفوضى التي عرفتهــا التنظيمات الاقطاعية الحربية بأراضي الميري الشامية ، كما سنتعرض الى ذلك في الفقرة التالية :

عوامل ضعف وانحلال الاقطاع الحربي الميري :

وهذا مايدفعنا الى التساؤل عن سبب ضعف التنظيم الحربــي وقلة موارده وتناقص عدد فرسانه ، التي أصبحت تتأثر بها أراضي الميري الشامية ، على أن هذا الوضع كان يعود الى عدة عوامل مختلفة منها :

١ ــ ان النظام الاقطاعي المرتبط بالمهام الحربية والمعتمد على الصبائحية لم يساعد على تطور الحياة الاقتصادية على المدى البعيد ، بل تسبب في افقار الفلاحين وتحويل مساحات واسعة من الميري الى أرض موات ، حتى أن بعض الدراسات الحديثة قدرت مساحة الموات بنصف مساحة الارض القابلة للزراعة بالشام(٦٥) وهذا ماتؤكده تلك الحالة السيئة التي كانت تعيشها ايالات الشام من جراء هذا التنظيم الحربي المنهار ، فولاية طرابلس المشهورة بخصبها وكثرة انتاجها ، نجدها بفعل هذا النظــام الاقطاعي تعيش انكماشا زراعيا وانهيارا سكانيا بحيث لم يعد يتجاوز سكان بعض القرى التابعة لها ثمانمائة نسمة ، في حين كان سكان نفــس هذه القرى في أول عهدها بهذا التنظيم يتجاوز ثلاثة آلاف نسمة(٦٦) ، كما ان خليل الظاهري الذي عاصر دخول بلاد الشام تحت الحكم العثماني ذكر هو الاخر أنه كان في عهده نيف وألف قرية ومدن صغار في حوران ، وأنه كان في اقليم غوطة دمشق نيف وثلاثمائة قرية ، فضلا عــن المــدن الصغار وبلدان تشبه المدن وفي وادي التيم وما اليه ثلاثمائة وستين قرية ، وقد علق على ذلك محمد كرد علي في كتابه خطط الشام بقوله اذا أحصيت قرى هذه الاقاليم الثلاثة اليوم لاتجدها في حوران تزيد على أربعمائة قرية ومنها الخرب ، والغوطة على خمسين وفي وادي التيم على ثلاثين الــى

أربعين وكذا سائر بلاد الشام ، ثم عقب على هذا الوضع بقوله ، لان عهد العثمانيين انقضى في مظالم ومغارم(٦٧) ، هذه المظالم التي تمثلت بالخصوص في فرض ضرائب عديدة على الفلاحين من طرف المقطعين للارض الميرية ، وأخذ جل المحاصيل من الفلاحين ، هذا ان لم يأخذوا نصف أو ثلث الانتاج الكلي مع ارغام الفلاح على شراء جزء من محصول الارض بأسعار مرتفعة .

ب ـ محاولة كثير من الفرسان « الصبائحية » تحويل اقطاعاتهم الحربية الى ملكيات وراثية أو ادخالها ضمن الاوقاف الذرية ليتسنى لهم الانتفاع بها ، وبهذه المحاولة المضرة بالنظام الاقطاعي بالميري تملص كثير من الفرسان من أداء واجباتهم العسكرية ، بعد أن أصبحوا يفضلون تقديم البديل المالي « المال البدل » مقابل اعفائهم من خدماتهم العسكرية أواعفاء الفرسان التابعين لهم ، وفي هذه الحالة الاخيرة كانوا يكتفون بتقديم خمسين قرشا عن كل فارس « اضافي جبلي » وهذا مايعرف بالبدل الجبلي(٦٨) ونستدل على أن هذه المحاولات كان لها أثر على أراضي الميري من تناقص عدد الفرسان الاقطاعيين بمختلف ولايات بلاد الشام ، فبعد أن كان عدد هؤلاء الفرسان في أواخر القرن السادس عشر يناهز ثمانية آلاف فارس وسبعة آلاف جبلي ، انخفض عددهم الى أقل من النصف في أواخر القرن السابع عشر الميلادي ، بحيث لم يعد عدد الفرسان « الصبائحية » المرتبطين بالميري في نهاية القرن السابع عشر يزيد عن هذه التقديرات : ٧٠٠ فارس بالنسبة لولاية دمشق و ٧٠٠ فارس آخرين لولاية حلب ، وحوالي ٣٠٠ فارس لولاية طرابلس(٦٩) ولم يتغير هذا الرقم كثيرا في القرن الثامن عشر ، حيث كانت حلب تساهم بـ ٦٠٠ فارس وطرابلس بعدد مماثل ، بينما عكا ـ لاوضاعها الخاصة آنذاك ـ كانت تقدم حوالي ١٠٠٠ فارس وكذلك الشأن بالنسبة لولاية دمشق ، أما فلسطين فلم تكن تساهم حسب هذه الاحصائيات(٧٠) الا بثلاثمائة فارس من مجموع سكان لايتجاوزون على أكثر الاحتمالات ثلاثة ملايين نسمة(٧١) .

هذا وقد لفت هذا الوضع انتباه السلطان مصطفى الثالث (١٧٥٧ـ ١٧٧٤) عندما لم يجد من الفرسان القادرين على الحرب سوى ٢٠ الف جبلي في كامل الامبراطورية وذلك في بداية الحرب التركية ـ الروسية عام ١٧٦٨ نتيجة تسرب الفساد والانحلال الى النظام الاقطاعي(٧٢) التي لم تستطع محاولات السلطان عبد الحميد (١٧٧٤ ـ ١٧٨٩) اثر صلح

قنارجي (١٧٧٦) أن تحد منه وان تعيد الى النظام الاقطاعي الحربي فاعليته بالميري(٧٣) . ومما زاد في فاعلية هذه المحاولات الرامية لتحويل الميري الى شبه ملكية خاصة ما كان يتمتع به أصحاب هذه الاقطاعات من نفوذ وقوة حربية ، التي مكنتهم في أغلب الحالات من الاستحواذ على الميري والدخول في صراع مع الجهاز المركزي للدولة وعلى رأسه السلطان وحاشيته ، لاسيما في الجهات الشمالية من سوريا المتاخمة للاناضول التي عرفت هي الاخرى صراعا حادا خلال القرن الثامن عشر نتيجة تزايد نفوذ الاقطاعيين وضعف أجهزة الدولة الادارية ، مما اضطر السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ ــ ١٨٣٩) ، الى العدول عن الغاء نظام الاقطاعات الشخصية(٧٤) . وارجاعها الى أوضاعها السابقة بعد أن حمل السلاح في وجهة سادة الوادي « ديري بكوات » المستبدون بأراضي الاناضول وبعض الباشوات العرب في سوريا وفلسطين(٧٥) .

وقد أدى هذا الوضع بهؤلاء الباشوات الى أن جعلوا اقطاعات أراضي الميري في المزاد العلني لفائدتهم الخاصة ، حتى أصبح الاقطاع الواحد يسند الى عدة أشخاص لكل واحد منهم براءة تخول له الحق في حيازة الاقطاع ، مما اضطر معه السلطان مصطفى الثالث الى انتزاع فوائد اسناد الاقطاع من الباشوات(٧٦) ، وكما سبق لنا فان مثل هذه المحاولات لم يكن لها أثر ايجابي لان الاقطاعات الحربية لم تلبث أن تفتتت نتيجة كل هذه المحاولات(٧٧) ، مما أصاب الخدمات التي كانت تقدمها للدولة بالضرر ، ولعل تزايد عدد الاقطاعات دليل ملموس على أن الميري قد فقدت قيمتها الاقتصادية وان النظام الحربي المقام عليها قد تعرض فعلا للانهيار ثم التلاشي ، فعدد الاقطاعات بولايات الشام كان في أوائل القرن السابع عشر يقدر بـ ٢٥٦١ اقطاعا ينتفع به ١٠٤٢٩ فردا ، وهو موزع كالتالي : ولاية دمشق ١٠٠٦ اقطاعات ولاية حلب ٩١٣ اقطاعا ، وولاية طرابلس ٦٤٢ اقطاعا ، بينما في نهاية القرن السابع عشر ورغم تحويل جزء كبير منها الى مؤسسة الاوقاف والملكيات الخاصة ، نجدها تتزايد فتبلغ ١٢٠٠ اقطاع تخص ولاية دمشق وحدها ، و ١٥٠٠ اقطاع لولاية حلب و ٨٠٠ اقطاع أخرى تتضمنها ولاية طرابلس الشام(٧٨) .

جـ ــ الاخلال بالقوانين المعمول بها في أراضي الميري وذلك منذ عهد مبكر ، يعود على الارجح الى النصف الثاني من القرن السادس عشر ،

حينما اصبح اقطاع التيمار واسناد الزعامت تمنح حتى للجنود المشاة تحت اسم المتسلمين ، بعد أن كان يقتصر في منح الاقطاع على الفرسان الاقطاعيين « الصبائحية » فقط ، قد ادى ذلك الى أن القوانين الاقطاعية التي كان قد سنها سليم الاول لاراضي الميري لم يعد لها أية فاعلية لاسيما بعد أن أصبح من الميسور في فترة لاحقة الانتساب الى الجند المأجورين أيضا(٧٩) ، كما انه أصبح من السهل في مثل هذه الحالة انتزاع التيمار من صاحبه حتى انه في حملة واحدة تبدلت ملكية التيمار ثماني مرات(٨٠) نظرا لهذا الوضع الذي أصبحت تعيشه الميري .

ورغم ان الدولة العثمانية الحاكمة لبلاد الشام اتخذت عدة اجراءات للحد من هذا الاخلال الذي أصاب تنظيمات الاقطاعات الحربية ، وذلك منذ عهد السلطان سليم نفسه ، الذي أرجع بعض الاراضي المقطعة من جديد الى تصرف الدولة ، ثم تكررت مثل هذه الاجراءات على يد مراد الثالث (نهاية القرن السادس عشر) وعبد الحميد الاول وسليم الثالث (نهاية القرن الثامن عشر) ومحمود الثاني (بداية القرن التاسع عشر) ، على ان مثل هذه المحاولات لم يكتب لها نجاح يذكر ، حسبما نستنتجه من الاحداث ، ولعل ذلك راجع الى أن أغلب هذه المحاولات الاصلاحية كان قد تم في وقت لم يعد ينفع فيه اصلاح ، ونأخذ على ذلك مثلا تلك المحاولة التي قام بها السلطان سليم الثالث لبعث النظام الاقطاعي للفرسان الى الحياة بدون جدوى سنة ١٢٠٨ هـ (١٧٩١ م) وذلك أثناء تصديه لتنظيم شؤون البلاد وضبط أمور الجيش(٨١) .

وهكذا اصبحت المؤسسة الاقطاعية الحربية التي قوامها الفارس الاقطاعي (الصبائحي) وأرض الدولة (الميري) سواء ببلاد الشام أو باقي أقاليم الامبراطورية العثمانية في حكم العدم تقريبا، مما دفع الدولة العثمانية الى الاسراع في تنظيم الجيش على النسق الغربي وجمع الاقطاعات الحربية ضمن املاك الدولة العقارية ، وتسريح اوجاق الصبائحية ، اثر ظهور قانون الغاء الجيش الانكشاري بوقت قصير(٨٢) على يد السلطان محمود الثاني ، وقد ترتب على ذلك القيام بعملية عسكرية استهدفت ابادة انكشارية الاقاليم على غرار ما حدث سنة ١٨٢٦ باستانبول اثر فشل عصيان الانكشارية المركزية يوم ١٥ حزيران من تلك السنة واضطهاد الطريقة الاقطاعية المتعاطفة مع جموع الانكشاريين .

وقد اثرت مثل هذه الاحداث التي ارتبطت بالغاء الامتيازات الاقطاعية واخضاع اقطاعات الميري لتصرف الدولة على مستقبل اراضي الميري ذاتها ببلاد الشام بحيث لم تعد تطبق بها مثل تلك التنظيمات الحربية على نطاق واسع ، وهذا ما يجعلنا نتساءل عن ظروف فشل النظام الحربي في حفظ الامن وفرض سلطة الدولة على البلاد الشامية .

هـ ـ فشل النظام الحربي في أداء مهمته الاولى والاساسية وهي حفظ الامن واقرار سلطة الدولة بالارياف الشامية ، بعد ان تسابق كل فرد من أفراد هذا التنظيم الحربي منذ منتصف القرن السابع عشر للحصول على المزيد من الامتيازات التي تخولها لهم مهامهم العسكرية .

وقد أرجع المؤرخ الكبير ارنولد توينبي سبب انهيار الامبراطورية العثمانية كلها الى مثل هذه الحالة التي كانت سائدة باراضي الميري عندما أشار الى ذلك بقوله : « لابد أن ترتد كلاب الحراسة البشرية الى طبيعتها ، فاذا بها تنكفىء الى ذئاب تنهب ماشية البادیشاه البشرية عوض عن أن توليها حراستها وحفظ النظام بينها ، وبذلك اضمحل نظام الرق العثماني (المرتبط بالارض) وكشف عن تزمته الذي كان عبئا قضى عليه عندما اضطرب هذا النظام واستحال اصلاحه واعادة تشكيله على نسق الاقطاع العسكري »(٨٢) . وبذلك انهارت الصفة الاقطاعية الحربية للميري وتحول التنظيم الحربي الاقطاعي عن أداء خدماته الاساسية ببلاد الشام ، عندما شاعت الفوضى وكثرت الفتن وتجددت الاضطرابات ، واصبحت الطرق عبر اقطاعات الميري غير آمنة ، وزادت في الاخطار التي يتعرض لها الفلاحون وتصيب المسافرين مع مرور الايام حتى ان المناطق الساحلية للشام وكثيرا من الطرق الرئيسية مثل طريق حلب ـ الاسكندرونة قد استبدت بها عصابات قطاع الطرق من تركمان وأكراد رحل ، في وقت كان فيه النزاع محتدا بين الانكشاريين وجماعة الاسياد « الاشراف » لاسيما في السنوات الممتدة بين ١٨٠٤ الى ١٨٠٧ ، كما ان خصاما كان ناشبا بدمشق بين الانكشارية السلطانية « القابيقول » والانكشارية المحلية « اليرلية » وقد احتدم هذا النزاع خصوصا بين سنتي ١٧٢١ و ١٧٢٤ وبين عامي ١٧٥٥ و ١٧٥٧ قبل أن تتمكن أسرة آل العظم من حكم ولاية دمشق واقرار نوع من النظام بها .

ولم يقتصر الامر على مثل هذه الفتن الداخلية بل صاحبها قيام ثورات واعلان العصيان مثل ذلك العصيان الذي قام به الشيخ ظاهر العمر عام ١٧٧٦ والذي ترتب عنه قيام والي دمشق وعمال الدولة بحملات عسكرية استهدفت القضاء على عصيانه الذي وجد تأييدا من دول خارجية مثل روسيا ، وفي نفس الفترة حدث موقف مشابه لهذا عندما تمكن ، محمد بيك فم الذهب من احتلال دمشق والتراجع عنها فيما بعد ، ثم أعقب كل ذلك اندلاع الحرب من جديد بين عبد الله باشا والي دمشق وأحمد باشا الجزار والي عكا آنذاك ، وماتلاه من محاصرة نابليون بونبرت لعكا عام (١٧٩٨ – ١٧٩٩) ، وفي هذا السياق نسجل الفتنة الطائفية لعام ١٨٦٠ وثورة دمشق على سليم باشا متولي الايالة عام ١٨٣١ ، الذي انتهت حياته بالحرق على يد الثائرين ، وهكذا شاعت الفوضى في كل الاقاليم السورية ولم يحد منها سوى زحف ابراهيم باشا على اقاليم الشام (١٨٣١) وادخالها تحت حكم محمد علي والي مصر (١٨٣٢ – ١٨٤٠) كل هذه الاحداث التي ذهبت باستقرار بلاد الشام أدت في الاخير الى تلاشي النظام الحربي باراضي الميري .

مرحلة الاخذ بنظام الالتزام بأراضي الميري الشامية :

أما الوجه الثاني الذي استعملت فيه أراضي الميري . والذي تميزت به المرحلة الثانية من تاريخ الميري بالشام ، فيتمثل في الاخذ بطريقةالالتزام، التي تقوم على بيع ضرائب اقليم معين لبعض الموظفين الكبار المعروفين بالملتزمين ، وبالتالي توكل اقطاعات الميري الى هؤلاء الموظفين باعتبارهم مستثمري الضرائب ، وذلك حتى تضمن الدولة لنفسها مدخولا معتبرا ومحـددا .

وقد كان لنظام الالتزام الذي أخذت به الدولة منذ القرن السابع عشر كبديل ملائم للاقطاع الحربي ، جذور تاريخية ببلاد الشام تعود الى ما قبل الحكم العثماني ، لان مثل هذا النظام كان يمارسه نفر غير قليـل من أعيان البلاد وامرائها ورجال الحاميات الاقليمية في العهد المملوكي خاصة ، حينما كان الالتزام شائعا شيوع الاقطاع في الفترة العثمانيةالاولى ببلاد الشام ، كما ان نظام الالتزام ظل معمولا به بشكل أو باخر في المناطق الجبلية من الشام ذات التكوين الاجتماعي الخاص(٨٤) أثناء دخول البلاد الشامية تحت الحكم العثماني حيث كان الملتزمون في عهد سليمانالقانوني يجبون الضرائب والرسوم باسم الخزينة(٨٥) .

ومع ذلك فان الالتزام لم يصبح القاعدة المعمول بها ولا الاسلوب المتبع في استغلال اراضي الميري الا في فترة متأخرة رغم ان نظام الاقطاع الحربي هو الاخر لم يتلاش نهائيا في هذه الفترة من ربوع الشام ، الا عندما عوض الفرسان الاقطاعيون « الصبائحية » بالجيش النظامي « العلوفي » في نهاية القرن التاسع عشر(٨٦) .

كل هذه الملابسات التي تميز بها نظام الالتزام بالميري تدفعنا الى التساؤل عن سبب بقاء نظام الالتزام بالمناطق الجبلية لفترة طويلة كانت أثناءها الدولة متشبثة بالاقطاعات الحربية ، وعن مدى تأثير الالتزام في تلك المناطق على تبني الحكام لنظام الالتزام فيما بعد وتعميمه في بقية أراضي الميري ، ولعل الاجوبة الصحيحة مرتبطة بدراسات أعمق وبحوث أكثر تفصيلا حول هذا الموضوع .

وعلى كل فان العامل الاساسي الذي شجع الدولة على الأخذ بنظام الالتزام والحد من الاقطاع الحربي يعود على ما يظهر الى سعي الادارة المركزية للدولة العثمانية لضمان أكبر عائد من ضرائب الميري لفائدة الخزانة السلطانية ، قصد تمويل الجيش النظامي وتغطية النفقات الاخرى(٨٧) ، بعد أن شحت موارد البلاد وتعرض اقتصاد الدولة الى التضخم النقدي الذي تسبب هو الاخر في ضعف قيمة المحاصيل وارتفاع أثمان السلع الاوربية المجلوبة عن طريق مرافىء الشام أو المستوردة عن طريق القسطنطينية ، وبالتالي أصبح اهتمام الحكام منصبا على الحصول على الاموال عن طريق الالتزام لسد عجز الميزانية ، بدل العمل على ضمان الخدمة العسكرية للفرسان الاقطاعيين الذين اضمحلت مكانتهم وتناقصت قيمتهم في نظر الدولة بعد انتشار الاسلحة النارية الصغيرة التي اقتصر استعمالها على الجيش النظامي دون هؤلاء الفرسان الاقطاعيين .

فضلا على أن هناك ميزات أخرى لنظام الالتزام ، فهو مثلا يوفر على جهاز الدولة في حالة الاستغناء عن الفارس الاقطاعي نفقات الالتجاء الى خدمات مجموعة من الموظفين الاداريين ، مادام يتكفل بهذه الخدمات ضباط عسكريون أو موظفون مدنيون يسددون مسبقا للخزينة مقدارا معينا من المال مقابل اطلاق أيديهم في جمع المطالب المالية من أراضي الميري خاصة ، وهذا ما أدى الى تعديل في الاجهزة الادارية للدولة ، فتناقصت نتيجة لذلك أهمية الدفتر دار أمين ، كما انكمشت الدوائر المشرفة على الاقطاع

الحربي ، بينما تزايد نفوذ امين ادارة الشؤون المالية بفعل اعتماد الدولة على الموظفين(٨٨) من ملتزمين ومحصلين للضرائب .

اسباب تحول الالتزام الى نظام المالكانة :

على أن نظام الالتزام لم يكن البديل الافضل لنظام الاقطاع الحربي ، لانه أدى فيما بعد الى ظهور مشاكل استعصت على الحل وكادت تؤدي الى انهيار اقتصادي تام ، مما دفع الحكام الى التخلي عنه أو تحويله الى نظام الملكية شبه الخاصة « مالكانة » ، ان لم تكن ملكية شخصية في بعض الاحيان وقد ساعد على هذا التحول من الالتزام الى المالكانة عدة عوامل يمكن اجمالها فيما يلي من النقاط .

١ ــ الاضرار التي نتجت عن تطبيق الالتزام ، والتي تضررت منها الدولة صاحبة الارض كما تضرر منها الفلاح الذي ظل هو الاخر يعمل بالارض تحت اشراف الملتزمين والمحصلين للضرائب السنوية ، فالدولة نتيجة لنظام الالتزام لم تعد تحصل مسبقا من الملتزمين على مبلغ يعادل في قيمته فائض الانتاج الحقيقي الذي كان يحتفظ به جامعوا الضرائب ، وذلك لكون نظام الالتزام كان يسمح للملتزمين والمقاطعجية بممارسة حرية تامة في جباية الضرائب ، فلهم صلاحية تحديد كميتها وكيفية استخلاصها، وهذا ما تسبب من جهة أخرى في الحاق أضرار بالغة بالفلاح العامل بالميري ، نجد لها وصفا واقعيا في أحداث عام ١٨٠٤ الذي كتب عنها الامير حيدر الشهابي بقوله : وفي هذه السنة زاد البلص والظلم في الشام (دمشق) وحمص وحماه ، حتى انه في شهر واحد تغير على حماة خمسة متسلمين وكل واحد منهم يظلم الناس(٨٩) .

٢ ــ تطاول كثير من الملتزمين على سلطة الدولة بالاراضي الميرية ، لاسيما اذا كان هؤلاء الملتزمون ولاة أو ضباطا عسكريين مستخدمين في ذلك جنود الولاية في جمع الضرائب ، وفي الوقوف في وجه السلطة واعلان العصيان عليها في بعض الاحيان مثلما فعل الشيخ ظاهر العمر الذي ورث الالتزام من أبيه بصفد وطبرية ثم احتكره لنفسه وبقي طيلة حياته في عداد الملتزمين رغم النفوذ الذي اكتسبه(٩٠) ، وكذلك أحمد باشا الجزار فانه مع حكمه لبلاد الشام واستبداده بأمور عكا الا انه هو الاخر ظل في نظر الدولة ملتزما للضرائب ، رغم ما أظهره من جور على الرعايا وتطاول على سلطة الدولة الحاكمة بالشام .

وقد نتج عن هذا الوضع الذي أصبح عليه مثل هؤلاء الملتزمين من حكام وضباط أن أصبح الكثير من الاراضي الميرية يعتبر من قبيل الاملاك الخاصة لمثل هؤلاء الملتزمين ، وعلى سبيل المثال نذكر أن أعضاء ديوان تمكنوا من تملك أغلب أراضي الدولة التي كانت مخصصة للاستئجار سنة ١٨٤٥(٩١) ، بعد ان منحوا سلطة جباية الضرائب منها مقابل مبلغ محدد من المال كانوا يسددونه مسبقا للخزينة العامة كما ان بعض هؤلاء الاعيان لم يكتفوا بذلك بل وضعوا أيديهم على بعض اقطاعات الميري لاستغلالها لصالحهم عن طريق مبدأ المحاصصة الذي كان شائعا ومتعارفا عليه في الاراضي الخاصة ، وقد شجعهم على الاخلال بمبدأ الالتزام ماكان يقوم به بعض الاغنياء والتجار من سكان المدن من محاولات تستهدف تحويل الاقطاعات المستغلة من طرف المحصلين والواقعة بالخصوص بالفحوص القريبة من المدن الرئيسية الى ملكيات مستقلة في انتاج محاصيل يكثر عليها الطلب في الاسواق التجارية مثل القطن والتوت والكرمة والفواكه ، بعد ان تكفلوا في مرحلة سابقة بتقديم رأس المال وتوفير القروض بفوائد فاحشة .

ـ الالتجاء الى الاخذ بنظام المالكانة مع اتباع أسلوب الضرائب المباشرة :

كل هذه الاضرار التي ترتبت عن الالتزام والظروف التي طبق فيها أدى الى اقرار وجه آخر لاستغلال أراضي الميري الشامية ، الامر الذي جعلها تدخل مرحلة ثالثة وأخيرة في تطور أوضاعها وتغير أساليب استغلالها، وهذه المرحلة ، يمكن تحديدها بالفترة الممتدة من الربع الاول من القرن الثامن عشر الى منتصف القرن التاسع عشر وبالتحديد سنة ١٨٥٨ التي صدر فيها القانون العقاري العثماني .

وقد تميزت هذه المرحلة بتبني أسلوبين مختلفين في استغلال الميري : الاول يتمثل في تحويل قسم هام من الميري الى نظام « المالكانة » Malikané والثاني يرمي الى اتباع نظام الضرائب المباشرة على الارض وانتاجها .

اما نظام المالكانة الذي هو في واقع الامر نظام التزام لمدى الحياة فقد عرفته بلاد الشام مع بقية الاقطار العربية المجاورة مع حلول القرن الثامن عشر بعد أن طبق مسبقا بالروملي والاناضول(٩٢) منذ القرن السابع عشر(٩٣) ، وكان من جملة المنتفعين بنظام مالكانة بالشام انذاك آل العظم

الذين أعطوا معرة النعمان وحمص في شكل مالكانة في الربع الاول من القرن الثامن عشر ، وهذا ما مكنهم من تدعيم نفوذهم حوالي ١٧٢٠ والظهور بمظهر القوة والعظمة منذ أواسط القرن الثامن عشر(٩٤) (١٧٤١) . وقد تدعم نظام المالكانة عندما اتخذ شكل ملكية لمدى الحياة بعد ان الغي الاقطاع وأهمل الالتزام السنوي بفعل قانون ١٨٣٩ الذي أعقبته خطوات أخرى في هذا السبيل اسبغت على نظام المالكانة بالميري صبغة قانونية وشرعية ، أهمها احداث نظام الطابو عام ١٨٤٨ الذي أصبح بموجبه حق استغلال وحيازة أراضي الميري يعود للدولة مباشرة ، وهذا ماساعد على تطوير المالكانة فيما بعد الى ملكية خاصة والتي أقرها أخيرا القانون العقاري لعام ١٨٥٨(٩٥) ، وبذلك أصبحت المالكانات بفعل هذا التطور تعتبر املاكا لمستغليها لمدى الحياة ، مما خول لاصحابها حق نقل ملكيتها عن طريق البيع شريطة اقرار الدولة لذلك ، كما سمح هذا الوضع بوضع المالكانات في المزاد العلني في حالة وفاة أصحابها مع اعطاء حق الاسبقية والحيازة لها لاولادهم وورثتهم(٩٦) .

ولعل السبب في تحويل الالتزام السنوي الى التزام لمدى الحياة في شكل مالكانة فيعود على ما يظهر الى الحيلولة دون انهيار الزراعةبالارياف، وذلك بالتخفيف من أعباء الفلاحين والحد من جشع الملتزمين الذين كانوا لايتركون للفلاح سوى ما يسد به رمقه ويفي بحاجاته البسيطة ، ولعل الفلاحين المقيمين بالاملاك العقارية للميري بمنطقتي حمص وحماه الشاسعتين يقدمون لنا مثالا حيا عن استبداد الاجراء الملتزمين بهم وتحويلهم الى حالة من الشقاء والبؤس بعد أن بالغوا في أخذ المحاصيل العينية منهم والتي ماثلت في اجراءاتها التعسفية القانون الفرنسي القديم المعروف بـ Bailà nomon (٩٧) وربطهم بالارض وتقريبهم من الفلاحين حتى لايضطروا الى الاسراع في ابتزاز الاموال(٩٨) ، الذي كان يتناسب في غالب الاحيان مع قصر مدة الالتزام وتغير الملتزمين ، وبذلك نرى أن تبني المالكانة وتشجيعها طيلة النصف الاول من القرن التاسع عشر كان ضرورة ملحة تهدف الى محاولة ايقاف سوء تصرف الملتزمين(٩٩) لاراضي الميري ، كما ترمي الى ارضاء قادة الجيش وكبار الضباط بوضع ملكيات الميري في شكل مالكانات خاصة بهم وتحت تصرفهم باعتبارهم ضباطا من صنف المحصلين والنظار(١٠٠) ، فضلا على ان عملا مثل هذا كان يتماشى والاسلوب اللبرالي الغربي في تنظيم اقتصاديات الارض وما يتعلق بها من

ملكيات وانتاج أما الاسلوب الثاني الذي أقرته الدولة الحاكمة بالشام بأراضي الميري في هذه المرحلة الثالثة فهو تطبيق نظام الضرائب المباشرة في بعض الاراضي الميرية التي لم يمسها نظام المالكانة ، وقد حدد هذا النظام الضرائبي بعد نشر خط شريف كلخانة سنة ١٨٣٩ ، واصدار قانون عام ١٨٤٠ ، الذي حدد ضريبة الارض بعشر الانتاج نظريا ، وان كانت هذه النسبة تقدر عمليا بحوالي ١٢ر٦٣٪ من عائد الانتاج الاجمالي المفروض على الارض الميرية(١٠١) .

وكانت تخصص جباية هذه الضرائب لموظفين تعينهم الدولة وتشرف عليهم ، وقد كانوا يقومون بأخذها عينا وذلك حتى نهاية القرن التاسع عشر(١٠٢) ، الذي عرف تحولا في نظام جمع هذه الضرائب بعد أن وحدت الرسوم المأخوذة على الاراضي الميرية في شكل ضريبة واحدة تجمع بين رسم الخراج وزكاة العشر مما جعلها تتراوح ما بين ٢٠ و ٢٥٪ من الدخل الاجمالي للميري آنذاك(١٠٣) .

ومما يلاحظ على هذه الضرائب المأخوذة على الارض أنها لم تكن تدر على خزينة الدولة فوائد كبيرة اذا قورنت بنسبة محاصيل العشر والزكاة على الاراضي غير الميرية ، ففي سنة (١٨٨٨ ــ ١٨٨٩) بلغت الضرائب العقارية بولاية حلب (بما فيها أورفة ومرعش) حوالي : ١١ر٨٧٥ر٧١٥ قرشا ، في حين بلغت محاصيل زكاة الحبوب في نفس الولاية وفي نفس السنة ما يقدر بـ ٢١ر٥٨٩ر٨٥٢ قرشا أي بنسبة تصل الى ما يعادل نصف محاصيل الضريبة المباشرة على الارض(١٠٤) .

التحول الى الملكية الخاصة المعتمدة على رسم الطابو :

ومن الملاحظ أن بعد كل هذه الاساليب المختلفة التي عرفتها أراضي الميري بالشام من أقطاع حربي والتزام سنوي ومالكانة لمدى الحياة وضرائب مباشرة ، لم تكن الحل الافضل ولا الطريقة المثلى لاستغلال الميري لصالح الدولة ، مما تطلب وضع حد لهذا باسباغ صفة الملكية الشخصية على أراضي الميري وتحويلها من أراضي التصرف الى أراضي الحيازة الخاصة للافراد الذين يشتغلون فيها أو يشرفون عليها .

وقد ساعد على مثل هذا التطور الذي انتهت اليه الميري ظروف عديدة منها ضغط الافكار الغربية التي بدأت تتأثر بها الدولة العثمانية منذ مطلع القرن التاسع عشر . بعد أخذها بسلسلة من الاجراءات التي كان

لها تأثير على الاوضاع الزراعية منذ ١٨٢٩ (أي منذ عهد السلطان سليم ومحمود) والتي عرفت بالتنظيمات وبقانون خط شريف كلخانة (١٨٣٩)(١٠٥) وهذا ما دفع الحكومة العثمانية الى احداث مصلحة التسجيل العقاري وتجديد ديوان « دفتر خانة » Defter khant واعطائه صلاحية تصحيح الحالة العقارية في كافة أقاليم الامبراطورية ومن جملتها بلاد الشام . قصد تحويل الميري الى ملكية رسمية لمستغليها بفعل اصدار سندات الطابو Saned Tabou (١٠٦) . الذي تخلت بموجبه الدولة عن حق الرقبة على الارض الذي تعود لها بموجبه ملكية الميري ، والاخذ فقط بمبدأ التصرف الذي تحولت بموجبه أراضي الميري الى ملكيات خاصة بعد أن أسبغت عليها صفة التملك الشخصي(١٠٧) . وهذا وضع حد نهائي لتطور الاوضاع باراضي الميري بفعل القانون المدني Medjene coulint لعام ١٩٥٨ (١٢٧٨) . بعد أن مهدت له عدة اجراءات نذكر منها على سبيل المثال :

١ ــ اجراء اتخذ عام ١٢٥٥هـ واعطت الدولة العثمانية بموجبه حق التصرف لمقطعي الزكاة والملتزمين ومتسلمي الضرائب والمحصلين لها ببلاد الشام حق اصدار عقود وتصحيحها ، معترفة لهم فيها بحق ملكيتهم لهذه الاراضي المسجلة في تلك العقود .

٢ ــ اصدار ارادة ملكية عام ١٢٧٨ (١٨٥٨) خول بموجبها للحكام ومديري الضرائب اصدار رسم يتعلق باراضي الميري(١٠٨) .

٣ ــ اصدار القانون العقاري لعام ١٢٧٥هـ الذي أكمل بدوره بقوانين ١٢٧٩ و ١٢٨٦ و ١٢٨٨ . مما سمح بامتلاك الاراضي الميرية(١٠٩) .

استنتاجات حول أراضي الميري :

كل هذه التحولات التي عرفتها أراضي الميري بالشام تثير في أنفسنا عدة تساؤلات حول عدة نقاط تصلح لان تكون بمثابة استنتاجات عامة نختتم بها هذا البحث ، وتتعلق هذه النقاط بنوعية الاقطاع الذي عرفته أراضي الميري ، ومفهوم الملكية الخاصة بها وطبيعة السياسة العثمانية المطبقة بها ، ومع محاولة مقارنة هذه السياسة العثمانية بأراضي الشام بأوضاع الاراضي المماثلة لها في بعض الاقطار العربية الاخرى وعلى رأسها الجزائر .

١ ـ نوعية الاقطاع المرتبط بأراضي الميري الشامية :

التي نراها في شكل ظاهرة اقتصادية ذا تصبغة عسكرية ، اذا أخذنا بعين الاعتبار طريقة استعمال الارض وكيفية حيازتها ونوع الخدمات والارتباطات الناتجة عن هذا الاستعمال والحيازة ، ثم مايترتب عن مثل هذا الاسلوب وتلك الطريقة من حقوق وواجبات معينة ، كما اننا نرى اعتمادا على كل هذه المواصفات السابقة ، ان أراضي الميري بالشام أمام أنوع عديدة من الاقطاع ربما لايماثلها من حيث الكثرة والتنوع والالتزامات المتبادلة(١١٠) . مما يجعل المتتبع لقضية الاقطاع العثماني بالشام أمام أنواع عديدة من الاقطاع ربما لايماثلها من حيث الكثرة والتنوع سوى الاقطاع الذي عرفته أوربا في القرنيين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين ، فبلاد الشام بهذا الاعتبار نجد بها اقطاع السادة والاشراف ذوي النسب الفريع والوظيفة السامية Féodalité Seigneuriale **المعروف باقطاعات من نوع خاص** ، Hassé **وهناك أيضا اقطاع ذو صبغة ادارية** Fedalité de Commandement تمثل بالخصوص في الحكام الذين جمعوا بين وظائفهم الادارية وممارسة مهام الملتزمين والمحصلين للضرائب ، كما أن هناك نوعا آخر من الاقطاع ارتبط بعبودية الفلاح وارتباطه بالارض Feodalité ave servage ظهر في علاقة الصبائحية بجماعات الفلاحين (الرعية) المرتبطين بخدمة الارض والخاضعين لسلطة هؤلاء الفرسان . أما اذا نظرنا الى ماترتب عن هذا الاقطاع باعتباره ظاهرة اجتماعية واقتصادية عاشتها بلاد الشام فترة طويلة من تاريخها ، فاننا نستنتج عدة خصائص نجملها فيما يلي :

١ ـ ان الاتراك لم يحاولوا احتكار الارض الزراعية واستعمار دواخل الشام الا عن طريق فرسان الصبائحية وجماعات الملتزمين والمحصلين للضرائب الذين كانوا يشكلون الطابور الخامس والدركي المتنقل المكلف باقرار سلطة الدولة وتنفيذ أوامر الحكام المتعلقة بالرعية ، الامر الذي لم يسمح لهم بأي تأثير اجتماعي أو تركز سكاني هام ، شأنهم في ذلك شأن كل الفآت الغازية التي عرفتها جهات أخرى(١١١) . وهذا ما حال دون تغيير البنية السكانية بالريف الشامي عن طريق تمركز جماعات سكانية غريبة عن السكان المحليين وبالتالي حافظ على الاستغلال غير المباشر للارض ، وذلك رغم كون البلاد الشامية قريبة نسبيا من الكتلة التركية الرئيسية بالاناضول ، والتي اكتفى جل عناصرها التي توجهت

الى الشام بالاستقرار في المدن ومزاولة المهن الحرة والوظائف الادارية والتشريعية ، أو البقاء في حالة تنقل وارتجال مثل جماعات التركمان والاكراد(١١٢) .

٢ ــ تدعم الحياة الجهوية بالشام ، نظرا لان النظم الاقطاعية بالميري سمحت بتقسيم المجتمع الريفي بالشام الى عدة أصناف حسب علاقة كل جماعة من السكان بالحكام الاتراك ، فالسكان المقيمون بالميري والخاضعون مباشرة لفرسان ، الصبائحية والمعروفون بالرعية أو أهل الدير كانوا أكثر شقاء ومحنة(١١٣) . حتى أنهم كثيرا ماكانوا يشبهون بقطعان الماشية التي ترعى وتجز وتصنف على أساس طائفي وديني باعتبارها قوميات متمايزة عن بعضها . أما السكان الذين ظلوا بعيدين عن الحكم المباشر لكونهم بقوا ممتنعين بالمناطق الجبلية وسهوب البادية فانهم كانوا في أغلب الاحيان في حالة توجس وعداء وثورة مستمرة ضد الحكام العثمانيين(١١٤) . وان كان هؤلاء الحكام يسعون دائما ليشكلوا منهم احلافا للحكم العثماني عن طريق زعمائهم وشيوخهم وبذلك ساهم هذا الوضع الاجتماعي المتجمد ولو بصورة غير مباشرة على نمو وتدعيم الاقطاع المحلي وعلى قوقعة المجموعات السكانية في أقاليم الشام مما أبقى على تماسك الاقليات العنصرية والدينية في الارياف الشامية(١١٥) ، هذه الاقليات التي وجد فيها الحكام العثمانيون وسيلة سهلة لانتهاج سياسة الصف ومصالحة بعض الاقليات وذلك لاذكاء روح التنافس فيما بينها مما جعل الحكام لايستعملون الجيش ولايلتجئون الى القوة الا في الحالات الضرورية، وهذا ما يسمح لنا بان نصف تلك المنازعات الداخلية التي كانت كثيرا ما تحدث في تلك الفترة بأنها منازعات اقطاعية لادينية(١١٦) ، اعتمادا على سياق الاحداث وطبيعة العلاقات الشخصية عكس ما يروج له بعض الكتاب الاوروبيين ، على أننا لانسى كذلك بان تدعيم الحياة الجهوية بفضل النظم الاقطاعية المطبقة بالميري لم تكن كلها سلبية ومضرة بالوضع الاجتماعي بالشام بل أن لها مظهرا ايجابيا يتمثل بالخصوص في انها حافظت على عادات الفلاحين وأبقت على طرق حياتهم التقليدية وزادت ارتباطهم وتعلقهم بالارض .

٢ ــ الحيلولة دون قيام برجوازية حقيقية نظرا لكون اقتصاديات الميري كانت تقوم أساسا على تلبية الحاجات الاستهلاكية البسيطة في

نطاق القرية وعلى مستوى الفارس الصبائحي ، فلم يتجاوز الانتاج في اغلب الاحيان ما كان يبتزه الفرسان الاقطاعيون والملتزمون والمحصلون للضرائب ، وبذلك نرى أن النظام الاقطاعي بالميري ساهم بقدر كبير في انكماش الارياف وانعزال المدن وتفقر التبادل النقدي الذي ظل منحصرا في بعض المعاملات الهامشية في مجال الاعمال التجارية والمهنية المتواضعة بالمدن ، كما انه لم يسمح بتبلور برجوازية محلية بالارياف واعية لمصالحها متفهمة لاوضاعها مستعدة للاخذ بالاساليب الراسمالية من حيث الانتاج والتسويق ، وبالتالي لم تعد الشروط الضرورية والمساعدة على ظهور الاقتصاد الراسمالي بالشام متوفرة في وضع كانت فيه الادارة العثمانية بالشام تجهل الارياف ، وتعمد للتصرف فيها انطلاقا من المدن واعتمادا على أسلوب الاقطاع الحربي أو الاقطاع ذي الطابع الضرائبي الجبائي فقط .

٣ ـ أصبح الفرسان من الصبائحية بفضل النظام الاقطاعي بالميري ، يعتبرون العنصر الاقطاعي الرئيسي الذي يقوم عليه الجهاز الاداري لكل ولايات الشام .

وبهذا المفهوم أصبح كل من الصبائحي والتيمار انعكاسا صادقا للتنظيم الاداري والحربي للادارة العثمانية بالشام ، وهذا ما جعل بعض المؤرخين ينظرون الى التيمار على انه مؤسسة ذات طابع اداري اكثر منه اجتماعي ، فهو عندهم عبارة عن مبادرة من الدولة صاحبة الحق في وضع يدها عليه واسترجاعه اذا شاءت ذلك(١١٧) .

ـ استمدت الصفة الاقطاعية لاراضي الميري بالشام جذورها من الفترة الاسلامية السابقة للحكم العثماني للشام(١١٨) . عندما اكتسبت شرعيتها من نظرية الدولة وتدعمت بفضل مبدأ الولاء واسلوب الحكم للدولة الاسلامية التي عرفت تطورها الاول في ربوع الشام والبلادالمجاورة لها ، ثم أصبحت ظاهرة سائدة في عهد البويهيين واثناء حكم السلاجقة والايوبيين والمماليك . قبل أن تطبع هذه التقاليد الاقطاعية بالطابع العثماني وتصبح نظاما تركيا ، وبذلك نرى أن الصفة الاقطاعية للميري هي في الواقع نموذج متطور للاقطاع الاسلامي وليس اقتباسا من القوانين البزنطية التي كانت سائدة بالاناضول والروملي كما ذهب الى ذلك هامر Hammer (١١٩) . هذا وان كنا لانتكر امكانية الاقتباس المحدود ،

ولانستبعد أن النظم الاقطاعية بالشام لم تكن هي بدورها منتشرة أو محددة أو متكاملة قبل مجيء العثمانيين للشام(١٢٠) .

لم تكن النظم الاقطاعية التي تميزت بها أراضي الميري بالشام ، متماثلة في جميع الاقاليم الشامية ، بل كان للموقع الجغرافي الذي تحتله الشام بين أقاليم الروملي والاناضول من جهة وبين بقية الاقطار العربية من جهة أخرى تأثير على تنوع النظم الاقطاعية ، وقد لاحظ ذلك بعض المؤرخين حين أشاروا الى أن تنوع أوضاع الملكية وأنواع الضرائب من ولاية الى أخرى داخل كل ولاية على حدة(١٢١) ، ففي هذا النطاق نلاحظ ان سورية الشمالية وقسما من ولاية الموصل المجاورة عرف تطورا اقطاعيا ملحوظا متأثرا بالاوضاع السائدة بالاناضول(١٢٢) . والمتميزة بنوع من الاقطاع المتطور نتج عن كون الاتراك ادخلوا في هذه الاقاليم منذ عهد مبكر نظام التملك الاقطاعي العسكري للارض والعمل على تحويله بعد ذلك من ملك تيمار الى تيمار ملك (أي من اقطاع تقليدي الى اقطاع حربي) . بذلك حالوا دون تحول الاقطاعات القديمة الى ملكيات اقطاعية بادارتها من جديد ضمن التيمار الحربي ، بينما بقيت الاجزاء الوسطى والجنوبية من بلاد الشام تحتفظ بالنظم الاقطاعية التقليدية التي تعتمد على اسناد الاقطاع التقليدي المعروف تحت حكم المماليك والذي تمنح السلطة بموجبه للاعيان والشيوخ والاجناد اقطاعات مقابل خدمات واداء ضرائب معينة وهذا الوضع قد مكن كثيرا من الاقطاعيين المحليين من أن تبقى في حوزتهم أراضي كثيرة لم يجد السلطان سليم بدا من اقرارهم بها بعد أن سارع متسلموها القدماء بتقديم الولاء له والتعهد له بالخراج ، وهذا ما سمح بالابقاء على نوع من النظم الاقطاعية المحلية ، بسوريا ولبنان ومتمثلة في الاقطاعيين المحليين ذوي النفوذ المعتمد على قوة الاقليات العنصرية والدينية(١٢٣) . مما حد من شيوع أراضي الميري كما سبقت الاشارة الى ذلك .

ب ـ طبيعة الملكية باراضي الميري بالشام :

التي يمكن تحديدها من خلال المواصفات والاستنتاجات التالية اتصف القانون العقاري الخاص بالميري الشامية بانه كان خليطا من الاوامر الشرعية ، والنصوص القانونية والاحكام العرفية والتقاليد السائدة المتأثرة بالوضع المحلي للبلاد ، مما سمح لكثير من الكتاب

بأن يصف هذا القانون بأنه معقد جدا بحيث ادى الى تناقض بين أحكامه النظرية وتطبيقاته العملية(١٢٤) .

٢ ــ أن مفهوم الملكية لاراضي الميري كان يخضع لخدمة الارض واستغلالها أكثر مما يتصل بملكيتها وحيازتها ، وبالتالي أصبحت الميري لاتطبق عليها أحكام الوراثة ولاحقوق الملكية الشخصية ، وقد كان لهذا الوضع أثر بالغ في تقويض دعائم الامبراطورية وانحلال نظام الميري ، نظرا للرغبة الجامحة لمستغلي اقطاع الميري في حيازة اقطاعاتهم في شكل ملكيات خاصة .

٣ ــ أن الوضع القانوني للاراضي الميرية جعل ملكية الدولة لها تتعدى مفهوم الملكية الاقطاعية مما اصبغ على الملكية الميرية طبيعة مزدوجة، فمن جهة نجد أن المستفيد من الارض الميرية كان له حق التصرف في الانتاج والاشراف التام على شؤون الفلاحين والحصول على كل الفوائد التي تدرها الارض ، ومن جهة أخرى كان للدولة حق استرجاع تلك الاراضي في حالة الاخلال بشروط العمل العسكري أو عند اهمال الارض لمدة معينة قد لاتقل عن ثلاث سنوات في أغلب الاحيان ، كما ان للحكومة حق الحصول على عدة فوائد وخدمات عسكرية ، مثل زكاة العشر وبعض الضرائب الاضافية ، وبهذا الوضع القانوني أصبحت ملكية الميري ذات خاصية مزدوجة ، فالدولة صاحبة الارض والاقطاعي او الملتزم صاحب التصرف فيها(١٢٥) ، وهذا الوضع نراه منافيا لكل تطور ايجابي بالارياف الشامية لانه جعل الفلاح المرتبط بالارض والعامل بها لايستفيد من عمله وان في كلا من الاقطاعي والملتزم والمتصرف غير مالكا للارض رغم ان له حق الاستفادة من انتاجها في حين ان الدولة وهي المالكة الحقيقية للارض تخلت بفعل هذا الوضع عن الاشراف المباشر مفضلة عنه الالتجاء الى مثل هؤلاء الوسطاء من فرسان وملتزمين ومتصرفين الذين هم بدورهم اكتفوا بحيازة الارض دون ملكيتها ملكية اقطاعية خاصة وهكذا أصبح مع هذا الوضع المتصرف في الارض لايملكها والذي يملكها لايستغلها والذي يعمل بها لاينتفع بهـا .

٤ ــ اهتمت الوضعية القانونية للميري بمنتوج الارض وماتدره على الخزينة من خيرات ومحاصيل دون التفكير في كيفية الاعتناء بالارض وتحسين وسائل الانتاج بها ، وهذا ادى الى عدم الاخذ باسلوب واحد

في استغلال الاراضي الميرية ، وانتهاج احكام دائمة وقواعدثابتة تخص توزيع واستغلال الاراضي الميرية ، فنجد الاوضاع القانونية للميري تتماشى مع الاقطاع الحربي للصبائحية ونظام الالتزام وطريقة المحصلين والمقاطعجية ونظام المالكانة مادامت كل هذه الاساليب كان الهدف منها واحدا وهو استغلال الارض وتسخير الفلاحين لخدمة الدولة ووسطائها(١٢٦) ، وهذا ما جعل البلاد الشامية لاتعرف قواعد ثابتة تخص الالتزام(١٢٧) . حتى انه أصبح هناك شبه كبير بين المتولين على الارض الموقوفة والملتزمين لاراضي الميري مثلا .

ج ـ طبيعة السياسة العثمانية بأراضي الميري :

جعلت أساليب استغلال الميري من اقطاع حربي ونظام التزام ومالكانة وتحصيل ضرائب مباشرة غير محددة زمانيا ومكانيا ، بل هي في أغلب الاحيان متزامنة ، فرغم أن الاقطاع الحربي بلغ أوجه في النصف الثاني من القرن السادس عشر الا انه فضل عليه نظام الالتزام منذ أواخر القرن ١٧ ، ومع ذلك بقي متبعا في بعض الاراضي حتى عهد السلطان محمود حيث أصبحت أوضاع الدولة كلها لاتمت الى هذا الاسلوب الذي توارثته من الماضي البعيد(١٢٨) . كما أن نظام الالتزام ظل معروفا في الشام منذ الفتح العثماني لها الا انه لم يصبح الاسلوب المفضل لادارة الميري الا في النصف الاول من القرن ١٨ ليترك مكانه للمتصرفين ونظام المالكانة الذي بلغ هو الاخر أوجه مع منتصف القرن ١٩ .

كما اقتضت طبيعة السياسة العثمانية بالميري تباينا في نظام جباية الضرائب من الميري ، فهي لم تكن واحدة في كل الاقاليم لا من حيث طريقة جبايتها ولا من حيث كميتها ومقدارها ، بل هي كثيرا ماأخضعت للتقاليد والعادات المتبعة(١٢٩) ، ولمزاج الحكام ومدى قوتهم الحربية وطموحهم الشخصي .

ولعل أهم ما يميز السياسة العثمانية المطبقة بالميري هو محافظتها طيلة الحكم العثماني بالشام على طبقة حاكمة من صبائحية ، أو ملتزمين أو متصرفين في المالكانات تمكنت بفعل نفوذها وحاجة الدولة اليها من استغلال ثروات البلاد على حساب الخزينة والسكان المحليين(١٣٠) . الذين أصبحوابهذهالسياسةرعاياخاضعين يسجلون لشاغل الاقطاع(١٣١). ويسخرون لفائدته ، وبذلك أصبح هؤلاء الوسطاء وسيلة لاستغلال الريف

واداة طيعة في يد الحكام والطبقات الموسرة بالمدن ، وهذا ماتسبب في تأخر الزراعة وانكماش النشاط الاقتصادي بالريف الذي أصبح يسخر لمصالح مثل هذه الطبقات الحاكمة ، فالريف الشامي الذي كان مشهوراً حتى في الفترة الاولى للحكم العثماني بخصبه وكثرة سكانه أصبح بفعل هذه السياسة في حالة سيئة لاسيما مع حلول القرن التاسع عشر(١٣٢) . حتى أصبحت خدمة الارض لاتليق بصاحبها ولاتشرف من يمتهنها(١٣٣)

وهكذا عملت هذه السياسة التي اتبعت في استغلال الميري على جعل اقتصاديات الشام مقيدة بحاجات السوق المحلية(١٣٤) . الضيقة فقط ، مما جعلها اكتفائية معاشية محدودة ، حتى ان الارض الميرية التي كان يملكها السلطان بسوريا يمكن أن يرجع حالتها السيئة انذاك الى كونها ظلت في حالة بور أو أنها لم تكن تستغل كما يجب(١٣٥) نظرا لهذه السياسة المطبقة بالميري .

هذه السياسة التي سمحت بأن يصبح الفرسان الاقطاعيون (الصبائحية) والموظفون الملتزمون يشكلون فئة عازلة بين الفلاحين والدولة ، وهذا مايؤدي بنا الى التساؤل عن مدى اكتساب اقتصاديات الشام نمط الانتاج الاسيوي . Mode de prodnchin asiahave

فاذا أخذنا الصفة الاقطاعية التي اكتسبتها الميري والوضعية القانونية التي تميزت بها مع أخذنا بعين الاعتبار أن الادارة العثمانية لم يكن لها اتصال وثيق بالفلاحين ولااحتكاك مباشر بالمنتجين المحليين كما كان عليه الوضع مثلا في مصر القديمة ، لان الدولة العثمانية التي تعود اليها الارض (الميري) تخلت عن حيازة الارض باسنادها للاقطاعيين ، وبالتالي لم تكن الضرائب المحصلة تتناسب مع مداخيل الارض الحقيقية ، بل انها اكتفت بأخذ جزء من عوائل الارض الحقيقية ، فالدولة هنا تكتفي بمقاسمة المحصول مع الاقطاعيين مقابل الدفاع عن مصالحهم واقرار حقوقهم ازاء الفلاحين ، وهذا ما يسمح لنا بان نصف اقتصاديات الميري، بأنها صنف من نمط الانتاج الاسيوي(١٣٦) ، لاسيما وان علاقات الانتاج بالميري كانت تخضع لعلاقة الاقطاعيين بالفلاحين وبعلاقة هؤلاء الفلاحين بجهاز الدولة الحاكمة ، أي أن علاقة هذا الانتاج يتحكم فيها احتكار الملكية من طرف الدولة وحيازة الارض من طرف المقطعين . ولعل هذه العلاقة هي التي أبقت على النظم الادارية لبلاد الشام حتى منتصف القرن التاسع عشر(١٣٧) ، حيث لم تتعرض هذه النظم بشكل جدي

للانهيار قبل تغيير هذه العلاقة في الانتاج وسن القانون العقاري لعام ١٨٥٨ الذي كان خاتمة المطاف للتغيرات التي عرفتها أراضي الميري الشامية كما سبق الاشارة الى ذلك .

مدى مقارنة أراضي الميري الشامية بالاراضي المماثلة لها بالامبراطورية العثمانيـــة :

وفي ختام هذا البحث يصبح من المفيد ان نثير تساؤلا يتعلـق بمدى امكانية مقارنة أوضاع الميري بالشام بالاراضي المماثلة لها والواقعـة ببقية اقاليم الامبراطورية العثمانية ، لاننا لانعرف حتى الان الى أي حد كانت أوضاع مثل هذه الاراضي تتشابه أو تختلف بين قطر واخر ، ورغم ان مثل هذه التساؤلات تظل مطروحة مثل التساؤل الذي طرحه الاستاذ منتران حول مدى تشابه أوضاع ملكية الخزن بالجزائر ونظام التيمـار بالمشرق(١٣٨) ، مالم تتوفر الوثائق المحلية وتتركز الدراسات التاريخية حول مثل هذه الجوانب المهمة من التاريخ الاقتصادي للبلاد العربية وبقية الاقاليم العثمانية ، الا انه في حدود المعلومات المتوفرة الان ــ وهي غير كافية على كل حال ــ فان الباحث من خلالها يلاحظ ان هناك عـدة أوجه تشابه بين اراضي الميري الشامية واراضي الدولة (البايليك) ببعض أجزاء الاناضول وشمال العراق كما يوجد هناك تشابه بين الميري بالشام وبين ملكيات البايليك بايالات الجزائر وتونس وطرابلس ، ولاخذ مثـال واضح على ذلك يمكن مقارنة أراضي البايليك بايالة الجزائر(١٣٩) ، باقطاعات الميري بالشام ، مع شيء من التجاوز ، لان بعض الكتاب يرون أن ملكيات البايليك الجزائرية كانت قد استمدت تشريعاتها من مصادر شرقية كما كان يمارس فيها نوع من الاقطاع مماثل لما عرفته الميري الشامية ، فضلا عن أن مهام فرسان المخزن بالجزائر تكاد تكون هي نفس الاعمال التـي كان يقوم بها صبائحية أقاليم الشام(١٤٠) ، وهذا ما يؤدي بنا الى القول بأن أوضاع الهضاب العليا القسنطينية وحوض الشلف وسهول وهران وغريس ومجانة تماثل أوضاع الاراضي الميرية الواقعة بجهات حلب وحمص وحماه والبقاع وحوران فضلا عن ان مناطق القبائل الكبرى والونشريس وتراره وشمال قسنطينة والاوراس وبني شقران كانت تعيش نفـس الاوضاع الذي كانت سائدة بمناطق لبنان والعلويين ، والدروز وجبـل عامل ووادي التيم ومرتفعات الجليل ، ولعل أهم العوامل التي جعلت مثل هذه المقارنة ممكنة تكمن في الطبيعة الجغرافية والاوضاع الاجتماعية

والحالة السكانية والظروف التاريخية ، ونفس هذه العوامل هي التي جعلت مثل هذه المقارنة غير ممكنة بين اراضي الميري الشامية وبين اراضي النيل وجنوب العراق واطراف الجزيرة العربية لان هناك فوارق واضحة لايمكن تجاوزهااو التقليل من اهميتها تعود اساسا الى طبيعة الانتاج ووضعية الارض حتى أن جند المكتوبين من جمليان وتفجكيان وان صح اعتبارهم نوعا من الصبائحية بمصر الا انه لايمكن مقارنتهم بصبائحية الشام لان جند المكتوبين كانوا يوضعون اساسا في خدمة رجال الادارة بالارياف ويسخرون في جمع الاموال الاميرية المقررة على القرى وفي حراسة زراعة الارض وتوزيع مياه الري وصد هجمات العربان ، وبذلك لم يكونوا اصحاب اقطاعات ، وهذا مادفعهم الى المبالغة في فرض ضرائب خاصة بهم مثل ضريبة « الطلبة » والدخول من أجل ذلك في صراع وتمرد ضد الحكام « الباشوات » مصر (١٥٨٩ ـ ١٦٠٩) حسبما ذكره أبو السرور البكري في كتابه كشف الكربة .

الحـــواشـــي

(١) نذكر بعض الدراسات التي أكدت على ندرة وصعوبة المصادر المتعلقة بمثـل هـذا الموضـوع :

(I) Berkane (Lutfü,Omer) les Problemes fonciers dans d'empire Ottoman du tempe de la fondation, in annales d'Histoire sociale, II, 1939, P 233.

(II) جب (هاملتون) وبوون (هارولد) ، المجتمع الاسلامي والغرب ، ترجمة د. أحمد عبد الرحيم مصطفى مراجعة د. أحمد عزت عبد الكريم ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٧١ ج١ .

(III) Weulersse (Jacques) Paysans de Syrie et du proche - Oriant. Paris, Gallimard, 1946, P 91 et 113.

(٢) Code foncier Ottoman de 1858, in Journal osiah'que, 1862 P. 257 - 358.

(٣) D'hosson (M. le M.) Tableau Général de l'empiré Ottoman Paris, F. Didot, M. CCC. XXIV T 5, p 19.

(٤) بن جزي ، كتاب القوانين الفقهية .

(٥) أي ان ملكية الارض ملكية انتفاع لاحق رقبة ، فالارض ملكا للسلطان بينما المتسلمون لها هم المنتفعون بها .

(٦) Belin, Etudes dela proprieté foncière en Turque, in Journal Ariahique, avril mai, 1862, P. 294.

(٧) D'hosson, (cité par. R. Mantran. et J. sauvaget.)

(٨) لزيادة الايضاح راجع : سعيدوني ، ناصر الدين ، وضعية عشائر المخزن الاجتماعية والاثار التي ترتبت عليها ، المحلية التاريخية المغربية ، تونس عدد ٧ ـ ٨ ، ١٩٧٧ ص ٧٣ .

(٩) D.Worms,Recherches sur la constitution de la proprieté territoriale dans les pays musulmans, in Journal asiatique, Janvier, 1844, p 67 (cite par Hammer) Poliak, Fendelisme in Egypt, Syria, Palestine and the Lebanon, 1250 - 1900. London, under the Patronage of Royal asiatiqe Sociétes 1939 — P 36 at 65.

(١٠) Weulersse, Paysans. op. cit. P 92.

(١١) لزيادة الايضاح راجع :

(١٢) Volney, oewvrs Complets de Volnay. Paris F. Didot, M. D CCCLXIV P 219 Weulersse, Paysan op. cit, P 96.

(١٣) حسب مااستنتجه لطفي عمر بركان المؤرخ التركي ، فان أقاليم الاناضول والبلقان ، كانت قد تعرضت لاجراءات صارمة في هذا الشأن في عهد السلطان محمد ٢ ، الذي كان يسعى الى تحويل أراضي الوقف والملكيات الخاصة الى نظام الاقطاعات الحربية المرتبط بالعمل العسكري ، رغم أن خليفته وابنه بايزيد التقي رأى بعد ذلك ضرورة ارجاع جزء كبير منها لمؤسسة الاوقاف أو لمالكيها السابقين ، مدفوعا الى ذلك بواعز التقوى أو تحت الخوف من نقمة عامة وهذا ما يجعلنا نقر بأن بلاد الشام في منآ من هذه الاجراءات ، لكونها لم تخضع بعد للحكم العثماني ، وبالتالي لم تتأثر بمثل هذه الاوضاع الا عندما بلغ نظام التيمار أوجه ولم يعد يقبل التوسع والنمو ، مما ترتب عنه أن أراضي الشام لم تعرف في هذا المجال أي تغيير جذري من طرف السلطات الحاكمة .

Berhane, op. cit.

راجع

Weulersse, Paysans. op. cit, P 94.

(١٤)

(١٥) Berhane, op. cit. P 236 — 237 - Ubicini, tableau, statique, Religieux, Politique administratif militaire, commercial etc. de L'empire Othman, 2e édition, Paris S. Dumane, p 1853, 1e Partie P 68.

(١٦) D' Hosson, op, cit, T 1 , P 282 ubicini op. cit. 1e Partie P 265.

(١٧) راجع الخريطة الملحقة بالمقال والتي تبرز العلاقة بين الملكية ونوع المناخ .

Weulersse, Paysan, op. cit, P 91

(١٨)

(١٩) عبد الكريم غرايبة ، سوريا في القرن التاسع عشر (١٨٤٠ — ١٨٧٦) القاهرة ، معهد الدراسات العربية العالية . دار الجيل للطباعة ١٩٦١ — ١٩٦٢ ص ١٩ .

Weulersse, Paysan, op. cit, P 113

(٢٠)

(٢١) Cardon (Louis) le Rigime de la propriete Fonciere en Syrie et en Liban, Paris R. Serey 1939, P 45.

Cardon, op. cit, P 45

(٢٢)

Weulersse, Paysan ,op. cit., P 120

(٢٣)

(٢٤) وردت كثير من القوانين المالية والاحكام الشرعية والتنظيمات العقارية المتعلقة بهذه المناطق في كتاب

Mantran R. Sauvaget, Péglements fiscaux othomans, le Provinces Syriennes Beyrouth 1951 P 35 — 84. 52 — 71.

(٢٥) ساعدهم على ذلك المهارة التي اكتسبوها ، والتي أصبح معها متعذرا على الفارس الاقطاعي مراقبة الانتاج والتحكم فيه .

(٢٦) عبد العزيز الدوري مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي بيروت ، دار الطليعة ، ص١٢٦

(٢٧) ابن طولون : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، نشر محمد مصطفى ، القاهرة ١٩٦٤ ج ٢ ص ١ .

(٢٨) فليب حتي تاريخ العرب المطول ترجمة ادوار جرجي جبرائيل جبور ٣ بيروت ١٩٦١ ج ٢ ص ٨٥ .

(٢٩) Volney, op. cit, P 290

(٣٠) بعد ان ضعفت العائلات القديمة من ال معن بالشوف وال عساف بكسروان وجبيل وال سيفا بجبلة وآل تنوخ بالمتن وال حمادة بجبة المنيطرة وغيرهم كثيرون .

(٣١) ليلى الصباغ المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني ، دمشق ، منشورات وزارة الثقافة . ١٩٧٣ ، ص ٦٣ .

(٣٢) Weulersse, Pays Alaouites, Zlusé Doctorat es - letters, touss, Arsault 1940, P 118.

(٣٣) جاء في دفاتر التنظيمات العقارية لولاية حلب أن ضريبة الديموس Deimous المفروضة على الارض لم يعد في استطاعة فلاحي بعض القرى تحملها ، وبذلك أصبحوا على وشك الخراب والتدمير ، مما تحتم اصدار أمر سلطاني لرفع هذه الضريبة عن هذه القرى ، بحيث لم يعد يتوجب على الفلاحين بها الا المساهمة بجزء نسبي منها فقط ، راجع : Mantran et Sauvaget. Réglement, op. cit. P 99.

(٣٤) Relazioni dei consoli veneti nella Siria Cit par : Lammens. H. La Syrie, Précis Historique. Beyrouth. imp. catholique 1921 vol. 2 p 62.

(٣٥) Volney, op. cit., P 238

(٣٦) Boucheman (Albert. A. De) note sur la sivalité des deux Tribus moutonnieres de Syrie, les mawali et Hadidiyn., en Revue de monde musulman, T VIII, 1934, P 23.

(٣٧) لوتسكي ، تاريخ الاقطار العربية الحديث ، ترجمة عفيفة البستاني ، موسكو دار التقدم ١٩٧١ ص ٨٠ .

(٣٨) جيب وبوون ، نفس المصدر ، ج٢ ، ص ٩٨ .

مما يلاحظ أن هناك ضغطا متزايدا على الميري من جراء تحرك العشائر البدوية نحو المناطق الزراعية بالشام نتيجة ظروف لازالت غامضة ، مثل تحرك قبيلة عنزة صوب الشمال ودفعها لحلف الموالي نحو الغرب في اتجاه مناطق حلب وحماة ، مما اضطر الحكومة أن تكل للموالي أمر حراسة الحدود الصحراوية والسماح لهم بأخذ رسوم عن القوافل الرابطة بين حلب ودمشق ، راجع ، جيب وبوون ، نفس المصدر ج ٢ ص ٥١ .

(٣٩) جيب وبوون ، نفس المصدر ، ج٢ ص ٥١ .

(٤٠) Cardon. op. cit. p 232

(٤١) الاقجة antché كانت قيمتها في الفترة الاولى للحكم العثماني للشام تتراوح بين الثلث والربع للدرهم العادي ، كما أصبحت في فترة لاحقة تساوي ثلث بارة ، مع العلم بان كل ٤٠ بارة كانت تساوي قرشا واحدا .

(٤٢) يعرف الفارس الاضافي بالجبلي ، وهو لفظ مقتبس من الكلمة العربية التي تدل على الدرع وهي الجبة ، وبالتالي فان لفظ الجبلي يدل على الفارس المدرع .

(٤٣) التيمار Timer منحة عقارية ، ذات صبغة عسكرية ، وذلك لكون الفارس الذي ينالها يترتب عليه تأدية خدمات عسكرية معينة ، أما لفظ التيمارفهو مأخوذ من الفارسية الحديثة ، التي تستعمله عادة لاظهار الاهتمام بشخص يحتاج الى العناية والرعاية ، لكونه محتاجا الى عون أو لكونه مريضا ، راجع Deny. op. cit. p. 814

(٤٤) يعرف عادة بالتيمارجي صبائحي Timav Sipahi تمييزا له عن الفرسان الملحقين بالحرس السلطاني والمعروفين بصبائحي أو جاغي Sipah - odjaghi أو صبائحية الباب العالي وهم بخلاف صبائحية الارياف ظلوا جنودا أرقاء ، يماثلون في أوضاعهم بقية فرق الانكشارية .

(٤٥) حسبما هو مسجل في دفتر اجمال فان التيمار في ايالات الشام « دمشق وحلب » يتألف أساسا من حصتين الاولى وهي القلج (السيف) ينالها الفارس باستظهار تذكرة Tezkéreli وهي تقدر بالفي أقجة ، وحصة ثانية ينالها الفارس بدون الاستظهار بتذكرة Tezkérésez تعرف بالخاص ، وتقدر بستة الاف أقجة ،

(٤٦) يكتفي الفارس « التيمارجي » أو الزعيم بالمساهمة الفردية في الخدمة العسكرية ، اذا كان اقطاعه بسيطا لايزيد دخله السنوي عن ثلاثة الاف أقجة لصنف التيمار وخمسة الاف أقجة لصنفي الزعامت والخاص ، أما اذا ازداد دخله عن ذلك ، فهو مجبر بالمساهمة بفرسان اضافيين « الجبليين » بحيث يجند كل فارس اضافي كلما زاد دخله السنوي عن ثلاثة الاف أقجة ــ فصاعدا .

(٤٧) ليلى الصباغ ، نفس المصدر ، ص ٢٨ .

(٤٨) Cardon, op. cit., p 78

(٤٩) Belin, Elnde sm lu proprieti op. cit, p 229

جيب وبوون ، نفس المصدر ، ج٢ ص ٥٩ .

(٥٠) Belin du Rigime des fiefs militaires dous, L'Islamisme, Principalement en turané Journal asiasiane, émé 6, 1870, la Press Aini - Ali.

(٥١) عبد الكريم رافق ، نفس المصدر ، ص ٦٨ ، اعتمادا على محمد الامين المجسي ، خلاصة الاثر في أعيان القرن الحادي عشر ، القاهرة ١٩٦٩ ، ج١ ، ص ٣٠ .

Dr. Worms, op. cit 1844 , p 170

(٥٣) لوتسكي ، نفس المصدر ، ص ١٠ .

(٥٤) Belin en Régime op. cit, p 250.

(٥٥) عبد الكريم رافق ، نفس المصدر ، ص ٧١ ، اعتمادا على بوون وجيب .

(٥٦) من أهم هذه الضرائب والرسوم المستحدثة والمفروضة على كل فلاح باعتباره رعية للصبائحي المشرف على الاقطاع الذي يعيش عليه .

ـ تحصيل رسوم الخفر والحراسة والمرور بالنسبة للاشخاص والبضائع عبر اقطاع الصبائحي .

ـ رسم التردد على أسواق واستخدام المطحنة الواقعة في حيز اقطاع الصبائحي .

ـ رسوم خاصة بمناسبة الاعياد والافراح وحفلات الزواج والخطوبة والولادة .

ـ الغرامات المفروضة على الرعية نتيجة عدم احترام التقاليد مثل التدخين وارتداء ملابس خاصة وغير ذلك .

(٥٧) وذلك في حال اشتغال الفلاح بعمل اضافي اخر يكسبه مدخولا اضافيا .

(٥٨) ورد ذكر كثير من هذه الرسوم الخاصة بمحصول الزياتين في القوانين والاحكام المالية التي نشرت من طرف منتران وسوفاجي ، راجع
Mantran et Sauvaget, op. cit, p 35 — 48 et 71.

(٥٩) رغم بقاء نظام (سالبانة) معروفا بولايتي حلب ودمشق ، الا أن الشيء المتعارف عليه والشائع أن ولايات الشام كانت تصف ضمن الايالات التي هي من صنف « خاص » .
راجع : Dany, op. cit, P 809

Belin, du Régime des fief. op. cit, 239.

(٦٠)

(٦١) عيني على افندي ، المدير السابق للاملاك الخاصة « قوانين الى عثمان در مضامين دفتر ديوان » قوانين ال عثمان فيما تضمنه دفتر الديوان « نشر الوثيقة السيد بيلان Belin du Régime des fiefs op. cit, p 275 كما اثبتها كل من ساطع الحصري في كتابه البلاد العربية والدولة العثمانية ، بيروت ، دار العلم للملايين (١٩٦٠ ص ٢٣١ ـ ٢٣٤) واجملها الاستاذ عبد الكريم غرايبة في كتابه سوريا في القرن التاسع عشر ، المشار اليه في الهوامش السابقة .

ومن الملاحظ ان عيني علي افندي كان مديرا للاملاك الخاصة قبل أن يتقاعد ويكلف من طرف الوزير الاكبر مراد باشا (١٦٠٦ ـ ١٦١١) لتحضر هذا الاحصاء ، نظرا لان هذا الوزير كان قد اقترح على السلطان أحمد الاول (١٠١٥ ـ ١٠٢٠هـ) ادخال اجراءات وتعديلات قصد الحد من مضار الاقطاع الحربي ، أما عنوان الوثيقة بالتركية فهو كما يلي قوانين ال عصمان در خلاصة مضامين دفتر ديوان
Qavanin Ali osmander klionlacei megamini defter divan

(٦٢) من الملاحظ أن الدولة العثمانية ، كانت تملك قوة حربية من الفرسان ، قدرت في منتصف القرن السادس عشر بما يتراوح بين ٤٠ و ٥٠ ألف فارس ، وذلك بفضل استغلال أراضي الميري وتطبيق النظام الحربي الاقطاعي عليها .

(٦٣) لوتسكي ، نفس المصدر ، ص ٢٨ .

(٦٤) Mantran, et, Sauvaget, op. cit, p 78

(٦٥) محمد كرد علي ، كتاب خطط الشام ، دمشق ، مطبعة الترقي ١٣٤٥ ـ ١٩٢٦ ، الجزء الرابع ص ١٥١ .

Dr. Warms, op. cit, p 171.

(٦٧)

(٦٨) وذلك حسب تقرير قنصل فرنسا في حلب السيد جيراردان Girardin الذي يعود الى عام ١٦٨٧ م . وقد اثبته بيلان ، راجع Belin, du Regime op. cit. p 290

Volney, op. cit, 283.

(٦٩)

(٧٠) سكان البلاد الشامية آنذاك قدرهم فولني بـ ٣٠٥٠٠٠ نسمة (ص ٢٨٣) فيما كامبل Campball ارجعهم الى ١٨٦٤٠٠٠ نسمة وهو يقارب في تقدير معلومات الدكتور بوبرينج Dr. Bowring الذي قدرتهم بـ٤٣٩ر١١٧٥ نسمة ولعل أقرب هذه الاحصاءات الى الصواب ما توصل اليه أخيرا السيد غيز Guys (H) فيدراسته الحديثة اعتمادا على المعلومات التي سبقته بعد اجراء المقارنات بينها ، وبذلك قدر سكان سوريا الكبرى باستثناء البدو منهم في أواخر الفترة العثمانية بـ ٧٦ر٥٧٩ر١ نسمة راجع :

Guys, op, cit. p 30.

D'Hosson, op. cit., T 7 . p 375

(٧١)

(٧٢) مع العلم بان اقطاعات التيمار والزعامت كانت تمد الدولة العثمانية في عهد السلطان سليمان القانوني بـ ٢٠٠ الف فارس ، راجع D'hosson, op. cit. T 7, p 375

(٧٣) كان السلطان محمود الثاني ادخل عدة اصلاحات منها ما يتعلق بالغاء نظام الاقطاع وارجاع أراضي الميري لتصرف الدولة وملكيتها الدائمة، مع اقرارالتعويضات والمعاشات مدى الحياة للحائزين عليها وذلك سنة ١٨٣١ ، ولكنه اضطر أن يعدل عن خطته هذه وان يوقف العمل بها نظرا لقوة الاقطاعيين ووقوفهم ضد ارادته .

(٧٤) هرشلاغ ، نفس المصدر ص ٤٢ .

D'hosson. op. cit, T 7. P 376

(٧٥)

(٧٦) حسب معلومات أوبيسيني Ubicini فان مجموع اقطاعات الدولة العثمانية بلغت ١٠٥١٠ اقطاعات منها ٥٠ ألف اقطاع من نوع تيمار و ٣٠٠ من نوع زعامت و ٢١٠ من نوع الخاص (بايليك) ، راجع :

Ubicini (M. A.) lettres sur Zurquie Tablean Statistique, Paris 2o. editions 1853, 1e partie P 266.

(٧٧) حسب تقدير عيني علي افندي السابق الذكر .

(٧٨) استنادا الى تقرير قنصل فرنسا بحلب « جيراردان » لسنة ١٦٨٧ راجع :

Belin, su Régime

Dr. Worms, op. cit, P 67. cit par Hammer

(٧٩)

Belin, Du Regime ds fief. op. cit, p 293

(٨٠)

Dny, op. cit, p 814.

(٨١)

Belin, Essaism l'Histoire Economique de la zunisie. Journal asialique 1865, p 135.

(٨٢)

(٨٣) Belin, du Regime. op. cit, P 294

(٨٤) توينبي (آرنولد) مختصر دراسة للتاريخ ، ترجمة محمد شلل ، مراجعة شفيق غربال، القاهرة ، لجنة التاليف والترجمة والنشر ، الجزء الاول ص ٢٩٦ – ٢٩٧ .

(٨٥) Weulesse Pays Alaouits, op. cit P 112 — 113, selon les correspondances consulaires, Alep. 17 mai 1824.

(٨٦) من اللاحظ ان أحمد باشا الجزار حكم أقاليم واسعة من بلاد الشام مدة تزيد عن عشرين سنة ١٧٧٥ – ١٨٠٤ كما ان سليمان باشا قائد جيش الجزار كان هو الاخر قد حكم سوريا الجنوبية حوالي ١٥ سنة (١٨٠٤ – ١٨١٩) كما ان في هذه الفترة كان بشير الشهابي الثاني قد تسلم حكم اقليم لبنان عام ١٥٩٥ ، مما تسبب في قيام نزاع بينه وبين الجزار انتهى بصلح عام ١٨٠٣م .

(٨٧) محمد عبد المنعم السيد الواقد ، الغزو العثماني لمصر ونتائجه على الوطن العربي ، الاسكندرية سنة ١٩٧٢ ، ص ٣٨٢ .

(٨٨) مثل المناطق الوسطى الجنوبية من لبنان التي كانت تلزم من والي دمشق لرؤسائها الاقطاعيين ، ومناطق لبنان الشمالية التي كانت تلزم من والي طرابلس لفائدة الاسرة الملتزمة أو المقطعة ، راجع ليلى الصباغ ، نفس المصدر ، ص ٣٧ .

(٨٩) جيب وبوون ، نفس المصدر ، ج٢ ص ٥٧ ، يرى أوبيسيني ان الدولة العثمانية عرفت الالتزام منذ عهد محمد الثاني ببعض مناطق الاناضول ، راجع .
Ubicini, op. cit, 1e Partie, p 288.

(٩٠) Deny, op. cit, p 809

(٩١) هرشلاغ ، نفس المصدر ، ص ١٩ .

(٩٢) عبد الكريم رافق ، نفس المصدر ، ص ٦٨ .

(٩٣) محمد جميل بيهم ، نفس المصدر ، ص ٤١ ، نقلا عن تاريخ الامير حيدر الشهابي .

(٩٤) عبد الكريم رافق ، نفس المصدر ، ص ٣١٥ .

(٩٥) Guys. (H) op. cit, p 30

(٩٦) اشتهرت الفحوص الواقعة بجوار المدن الشامية الرئيسية بمثل هذه الزراعات الخاصة ، فالقطن كان يزرع باطراف دمشق ونابلس والقدس وحماة وحمص ، وكذلك بين حلب ومعرة النعمان وبين حلب وحماة ، وعند سواحل صيدا ، أما التوت المخصص لتربية دودة القز فكانت زراعته تنتشر بالجهات الساحلية ونواحي بعلبك وانطاكيةبينما الكرمة ارتبطت بسفوح الجبال وبقيت الفواكه بجهات الساحل حول يافا وطرابلس ، هذا في حين كانت غوطة دمشق تشتهر بالمشمش ونواحي نابلس والقدس بالسمسم الصيفي .

(٩٧) جيب وبوون ، نفس المصدر ، ج٢ ، ص ٨٩ .

(٩٨) Ubicini, op. cit 1e partie p 288.

(٩٩) عبد الكريم رافق ، نفس المصدر ، ص ٣١٥ .

(١٠٠) المصدر السابق ص ٦٩ .

(١٠١) جيب وبوون ، نفس المصدر ج ٢ ص ٨٨ .

(١٠٢) Latron, Lavie rurale en Syrie et au Liban, Etudes Economique et Sociales Beyrouth, 1936, p 50.

(١٠٣) عبد الكريم رافق ، نفس المصدر ، ص ٦٩ .

(١٠٤) عبد العزيز الدوري ، نفس المصدر ، ص ١٢٤ .

(١٠٥) Ubicini, op. cit, 1er Partie, p 288 cit par D'Hosson

(١٠٦) هرشلاغ ، نفس المصدر ، ص ٥٤ .

(١٠٧) Belarbi louba. op. cit., p 30 cite par Astakof., Problémes novoy turcu « Achar » Novi Vostok 1924 No 5 P 54 — 55.

(١٠٨) هرشلاغ نفس المصدر ، ص ٢١ .

(١٠٩) Guinet (Vital) la Zurquie d'Asie géographie administrative statistique descriptive, Paris E. lerous 1892, T II, p 59.

(١١٠) عبد العزيز الدوري نفس المصدر ، ص

(١١١) Weulersse, op. cit p 95.

(١١٢) نفس المصدر ص ٩٢ .

(١١٣) Cardon, op.,cit.,p. 98

(١١٤) من الملاحظ أن أراضي اقليم لبنان نظرا لاوضاعها الخاصة لم تخضع لتشريع كتابي مثل هذا ، بل بقيت تعتمد في تسييرها على العادات والتقاليد حتى تدخلت الدول الغربية في شؤونه عام ١٨٦٠ ، المصدر السابق . Cardon. p 94 وذلك رغم خضوع البلاد لحكم محمد علي عام ١٨٣٢ — ١٨٤٠ واعتزام الفلاحين اقتسام اقطاعات سادتهم في شمال لبنان اثر ثورة ١٨٥٧ ، فليب حتي تاريخ العرب المطول ج٢ ص ٩٦٣ — ٩٦٤ .

(١١٥) هناك معالجة وافية لمثل هذا المفهوم الاقطاعي ، راجع ، سعيد عبد الفتاح عاشور ، الاقطاع في عصر الايوبيين والمماليك ضمن كتاب ، الارض والفلاح في مصر على مر العصور ، القاهرة ، د.ت. ص ٢١٣ .

(١١٦) هذا مادفع بعض الكتاب ومنهم السيد بيلان بان ينظروا الى مهام فرسان الصبائحية بالاراضي الميرية بالشام ، بأن لها شبها واضحا في ما ادخله الافرنج على بلاد الغال والنومان على بريطانيا والمجموعات الجرمانية الصغيرة الغازية لايطاليا واسبانيا وافريقيا الرومانية ، نظرا لكون الظروف تكاد تكون مماثلة فيما بينها راجع :

Belin, Du Régime des fiefs. op. cit, p 336.

(١١٧) Volney, édition Desnné et volum, II p 334 et 336.

(١١٨) Volney, oeuves complets, op. cit, p 292.

(١١٩) هناك شبه كبير بين اراضي السبيقة والمخزن والعرش بالمغرب العربي وأراضي الميري والمشاع بالشام نظرا لموقف الاهالي من الحكام الاتراك .

(١٢٠) Birot (Pierre) Dresch (Jean) laméditerranée et le moyen - orient Paris P. V. F. Orbis, 1956, p 333.

(١٢١) فليب حتى ، نفس المصدر ، ج٢ ص ٨٦٤ .

(١٢٢) Weulersse, op. cit p 115

وهذا ماحدا ببعض الكتاب الى وصف الاقتصاد الشامي انذاك بقولهم : سوريا لم تعرف النظم الاقتصادية الرأسمالية الا هامشيا .

La Syrie ne connait que marginalement des formes économiques Capitalistes.

Deny, op. cit., P 814

(١٢٣)

(١٢٤) لاسيما في عهد السلاجقة الذين أحدثوا الخدمة العسكرية مقابل تسلم الاقطاع سنة ١٠٨٧ هـ وذلك على يد الوزير الاكبر نظام الملك ، وعملا بهذا التقليد تلقى مؤسس الاسرة العثمانية عثمان بن ارطغل اقطاعه ، ثم بدأ بعد ذلك يوزع هو الاخر الاقطاعات التي استولى عليها على أعوانه وأنصاره ، وقد حدث ذلك منذ عام ١٢٨٦هـ ، راجع :

Belin. fiefs militerie op. cit (1970) 223

Deny. op. cit, 807. d'aprés Hammer

(١٢٥)

(١٢٦) Cahen (Claude ikté, in Encyclopédie. de D'Eslam. leyde 1971 T III p 1116.

(١٢٧) جيب وبوون ، نفس المصدر ج ٢ ص ٨٩ .

(١٢٨) لوتسكي نفس المصدر ص ١٢ . و ١٣ .

(١٢٩) ابقى السلطان سليم على أكثر من سبعة عشر عائلة حاكمة في بر الشام واعترف بشيوخ العشائر البدوية أمراء عن عشائرهم ، تاركا لهم التمتع بقسط وافر من الاستقلال الذاتي .

لزيادة الايضاح راجع عبد الكريم غرايبة ص ٤١ ، هرتلام ص ١٨ وجيب بوون ج٢ نفس المصدر ص ١٦٢ .

(١٣٠) Weulersse, op. cit, p 91

(١٣١) Belarbi op. cit., p 19

(١٣٢) كان الفلاحون يكتفون بحصة تقابل خدماتهم قد تبلغ نصف الانتاج (Yridjilik) وقد لاتتعدى ربع الانتاج في حال عدم مساهمة الفلاح بأي شيء (المرابعة) (Masadadjilik) وقد يتفق على حصة معينة (Kesindjilike)

(١٣٣) ليلى الصباغ ص ٦٢ ، اعتمادا على يولياك ، ص ٤٧ .

Ubicini, op. cit, 1e Partie, P 268

(١٣٤)

(١٣٥) ليلي الصباغ ، نفس المصدر ، ص ٢٣ .

(١٣٦) هذا عكس ماحدث بالغرب الاوربي في نهاية القرون الوسطى .

Birot. Presch. op. cit., P 331

(١٣٧) جيب وبوون ، نفس المصدر ، ج٢ ، ص ٥٧ .

Guys. op. cit, P 25

(١٣٨)

Weulersse. op. cit., p 121

(١٣٩)

(١٤٠) ليلى الصباغ ، نفس المصدر ، ص ٤٣ .

Guys. op. cit, p 29

(١٤١)

(١٤٢) وربما ينطبق هذا الحكم على أقاليم كثيرة من الامبراطورية العثمانية آنذاك نظرا لهذه المواصفات .

(١٤٣) محمد أنيس ، الدولة العثمانية والمشرق العربي ، القاهرة ، دار الجيل ، بدون تاريخ ، ص ١٥٣ .

(١٤٤) Mantran (R), le statut de D'Algerie, de la Zunisie et de la Tripolitaine, dans le empire, ottoman, in Ahidel iconqesse internazionale di studie nord - afrincani, cagliari, 1965, P 216.

(١٤٥) لزيادة الايضاح راجع : سعيدوني ناصر الدين ، دور قبائل المخزن في تدعيم الحكم التركي بالايالة الجزائرية ، مجلة الاصالة ، عدد ٣٢ ص ٤٦ — ٦٣ .
وكذلك ، لنفس الكاتب الوضعية الاجتماعية ولعشائر المخزن،المجلة التاريخية المغربية، تونس ، عدد ٧ — ٨ ، ١٩٧٧ ص ٦٩ — ٧٧ .

(١٤٦) لانسلم مع هذا بان اراضي السبيقة والعرش حيث تعيش الرعية بالجزائر تماثل الاراضي الميرية بالشام لان اراضي العرش هي أقرب الى الاراضي المشاعة بالشام .
وهذا عكس مايراه
Pouydnne (M) la properiété foncière en algieré, Alger. A. Jourdan, 1900 P. 221.

(١٤٧) أبو السرور البكري ، كشف الكربة في وضع الطلبة تحقيق ونشر ، عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم المجلة التاريخية المصرية . عدد ٢٣ ، ١٩٧٦ ص ٢٢٣ — ٣١٠ .

توسع البدو في بلاد الشام وانحسارهم

الدكتورة ضحى شطي

ان هذا المقال محاولة لوصف التطور التاريخي الذي حصل في بلاد الشام منذ نهاية القرن السابع عشر وحتى نهاية القرن التاسع عشر ، وتحليله .

ان هذا التطور ،اي توسع البدو وانحسارهم في المنطقة ، هو شيء اساسي لفهم التبدلات السكانية الكبيرة التي ميزت بلاد الشام خلال الفترة الزمنية نفسها . فقد كانت نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر ، زمن ضعف حكم العثمانيين ، المتميز بالتبدلات السكانية والركود الاقتصادي ، وتدهور الامن . وخلال هذه الفترة تمت هجرات اتحادات القبائل البدوية الكبيرة من نجد شمالا الى البادية والاراضي المزروعة على التخوم في بلاد الشام ، ولم تتوقف هذه العملية قبل أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين حين ابتدأت عملية معاكسة في حدود الاراضي البدوية مفسحة بذلك المجال أمام الحدود الزراعية التي أخذت بالتوسع حديثا .

من الضروري أن نصف باختصار وحدتين جغرافيتين تمتدان في بلاد الشام . ان منطقة حدود هاتين الوحدتين هي المكان الذي حدث فيه التوسع القبلي ، والذي شهد التحول التاريخي للسكان ، المسمى بالحركة الزراعية المتجهة شرقا .

الوحدة الاولى هي سواحل البحر المتوسط ، والثانية هي الهضبة العربية .

أما منطقة ساحل البحر المتوسط ، فهي المنطقة الممتدة بين البحر المتوسط والهضبة الداخلية القاحلة ، في العراق ، وسوريا ، والاردن ، والسعودية ، في وقتنا الحاضر . وان الجزء الشمالي فقط من الهضبة العربية (نجد والنفوذ) يشترك في حدوده مع سواحل البحر المتوسط ، وتدعى هذه المنطقة الشمالية بشكل عام البادية أو بادية الشام ، وتمتد من شرق حلب تماما وحافة الفرات الاوسط شمالا حتى العقبة جنوبا .

قام بترجمة هذا البحث الى العربية الانسة هناء وصفي .

ان الصحراء القاحلة فعلا ضمن هذه البادية هي جزء صغير فقط ، ويدعى « الحماد » . أما الجزء الاكبر فمنطقة نصف قاحلة بشكل أو باخر ، لانه على الرغم من ندرة المياه فيه ، فانه يمكن الحصول على المياه الجوفية من الابار العميقة ، كما أن مياه الامطار الشتوية تؤمن غطاء نباتيا موسميا للقطعان يستفيد منه أفراد القبائل الرعوية .

وبشكل عام ، فانه يمكن لمنطقة الحدود بين الهضبة العربية وشواطىء المتوسط أن تستوعب اما النشاطات الزراعية أو الرعوية ، ولقد كانت تاريخيا مثار نزاع بين الجماعات الزراعية والبدوية الرعوية .

الطبيعة الدورية للتخوم الرعوية :

خضعت الحدود الرعوية لتبدلات هامة عبر التاريخ . ولقد كان توسعها أو انحسارها يتأثر دوما بسلطة الحكومات المركزية . فعندما تكون السلطة المركزية ضعيفة تقوم القبائل بالاستيلاء على الاراضي بالغزو (الاغارة) أو بجمع جزية الخوة(١) ، أما عندما تكون السلطة قوية فان القبائل تجبر على الدفع للحكومة أو انها تتراجع الى البادية .

وقد ميزت هذه التوسعات والتراجعات تاريخ القبائل البدوية في علاقاتهاالخاصةمع السلطاتالمركزية لمدة قرون (انظر ابن خلدون ج١ ،٣٧٧ الطبعة المعادة/١٩٦١) . والامثلة على الغزوات البدوية خلال أوقات ضعف الحكومات المركزية عديدة . ففي القرن الثالث بعد الميلاد تمت غزوات البدو من الهضبة العربية الى منطقة الحدود في سواحل البحر المتوسط ، خلال فترة سادت فيها الفوضى في الامبراطورية الرومانية . ولقد ساعدت الظروف المتداعية في الامبراطوريتين البيزنطية والفارسية على أن تتم الفتوحات العربية الاسلامية الى بلاد الشام وغيرها من المناطق في القرن السابع . كما أن الفوضى السياسية بعد مرور المغول المنتصرين في القرن الرابع عشر ، ساعدت على أن يتم توسع بدوي آخر نحو سواحل البحر المتوسط .

أما حوادث التوسع البدوي الاكثر حداثة فقد حصلت خلال المئة عام الثانية من الحكم العثماني . ففي هذه الفترة انسحب الوجود العثماني العسكري من المنطقة بين دمشق وحمص . وكان محمد الرابع (١٦٤٨ — ١٦٨٧) قد أرسل قواته الى الجبهة الاوربية لدعم الحرب العثمانية ضد النمسا (انظر حوراني ١٩٤٦ : ٢٤) . وكانت هذه الفترة بداية التوسع

بالنسبة لعدد كبير من قبائل عنيزة ، وشمر ، من نجد الى السهول الشرقية ، وحوران والجولان ، والوديان الرئيسية . وبشكل عام ، كانت هذه القبائل تتجه الى المراعي الغنية في مناطق كان اختفاء التجمعات السكانية المستقرة بشكل كبير فيها يعود الى أسباب مختلفة .

انحطاط السلطة العثمانية والتوسع البدوي :

في أواخر القرن السابع عشر ، كانت الامبراطورية العثمانية آخذة في الانحدار وقد توقف توسعها ، ولقد كانت هزيمة العثمانيين خارج فيينا عام ١٦٨٣ نقطة تحول في تاريخ حكمها للمقاطعات العربية ، فبعد أن سحبت الكثير من قواتها العسكرية من الشرق الاوسط لدعم الحرب على الجبهة الاوربية أخذت سلطتها في الاقاليم القصية في الضعف ، وابتدأت السلطات المحلية في هذه الاقاليم بتقوية استقلالها عن الباب العالي بشكل متزايد .

اضافة الى ذلك ، فقد ابتدأ النظام الزراعي العثماني التقليدي ، والمؤسس على نظام الفروسية الاقطاعي ، يتهاوى ليحل محله نظام قائم على الاقطاعيين الغائبين عن اقطاعاتهم وعلى الطفيليين وكانت القرى خاوية ، والسهول الخصبة تتآكل متحولة الى أرض جرداء ، كما وجاءت المجاعات والاوبئة التي حدثت خلال هذه الفترة لتكون سببا في موت عدد كبير من الناس وصل الى مليوني شخص (ناتينغ ، ١٩٦٤ : ٢١٥) .

وقد أشار « فولني » ، الذي زار المنطقة خلال الثمانينات من القرن الثامن عشر (١٧٨٠) ، بان مناطق كبيرة قد أصابها الخراب لفساد الحكومة ، وعلى الرغم من أن أكثر من /٣٢٠٠/ قرية كانت مسجلة في سجلات الحكومة فان محصل الضرائب لم يكن ليستطيع أن يجد أكثر من /٤٠٠/ قرية . « لايرى المسافر الا بيوتا خربة ، وآبارا ناضبة ، وحقولا مهجورة ، فهؤلاء الذين زرعوها قد هربوا » . (فولني ١٧٨٧ ، طبعة عام ١٩٥٩ : ٣٧٧ ــ ٣٧٩)(٢) .

وبما أن قوة الامبراطورية العثمانية وفعاليتها كانت قد أخذت تضعف في أواخر القرن السابع عشر ، فقد ابتدأ عديد من القبائل البدوية في نجد بالتوجه شمالا . وقد استمر هذا التوسع ما يقارب /١٥٠/ عاما ، دافعا أمامه حدود الرعي غربا وباتجاه حدود سواحل البحر المتوسط .

وقد تم هذا التوسع القبلي على مرحلتين متميزتين ، وانتهى آخر الامر باخضاع منطقة الحدود بين سواحل المتوسط والهضبة العربية . والدافع المبدئي وراء المرحلة الاولى من التوسع ليس واضحا تماما . فربما كانت نجد تمر بمرحلة جفاف أو ازدياد سكاني(٢) . اضافة الى ذلك ، فان الفراغ النسبي في السهول السورية في ذلك الوقت وانعدام سلطة الحكومة الكلي في المنطقة ، كانا دون شك جاذبا قويا لهجرة القبائل .

واما المرحلة الثانية من الغزوات فقد كانت رد فعل مباشر على القوة المتزايدة للحركة الاصلاحية الوهابية أو « الوحدوية » الهامة . فقد رفضت بعض القبائل البدوية الخضوع لمتطلبات الحكومة التي شكلها ابن سعود تحت راية الوهابيين .

ففي نهاية القرن السابع عشر غزا حلف قبائل شمر التي تعيش على تربية الجمال ، منطقة دمشق . ولما كانت غير قادرة على التغلغل اكثر من ذلك فقد توجهت الى تدمر وهي تغير وتنهب في المنطقة العامة . ولدى وصولها الى منطقة حمص ــ حماه اصطدمت « بالموالي » ، وهي قبيلة من اصل نبيل تربي الاغنام . وبعد أن اخفق الشمريون في محاربة الموالي ، اتجهوا شرقا الى منطقة الفرات (اوبنهايم ، ١٩٣٩) .

أما في مطلع القرن الثامن عشر ، فقد وصلت الى المنطقة القبائل الاولى من اتحاد قبائل عنيزة ــ التي تربي الجمال ــ وحاولت التغلغل في المنطقة المحيطة بدمشق . وعندما لم تتمكن من ذلك اتجهت نحو منطقة القريتين ــ النبك وتوقفت قبيلة الحسنة (احدى قبائل عنيزة) في منطقة حمص ، بينما واصلت الفدعان (قبيلة اخرى من عنيزة) تقدمها شمالا الى حماة ، وتحالفت هاتان القبيلتان مع الموالي وحاربتا معا ضد شمر ، ودفعتاها عبر الفرات الى الجزيرة .

لقد اتصف توسع القبائل البدوية نحو السهول الساحلية ، ومناطق الحدود ، بالنزاعات والعداءات والحروب ، كما اثر على المنطقة بكاملها، ففي بدايات عام ١٨٠٠ كانت « شمر » قد احتلت الجزيرة بينما كانت قبائل عنيزة قد سادت البادية مع حلفائها من الموالي . وحالما تخلصت العنيزة من شمر بدفعها لها عبر الفرات ، شرعت بالاقتتال فيما بينها حول اقتسام المراعي التي تم الاستيلاء عليها حديثا . وفيما عدا قبيلة الحسنة التي توقفت في حمص ، وفدعان التي تابعت حتى حماة فقد

وصلت قبائل اخرى من عنيزة بما في ذلك « السباع » ، « وولد علي » ، وبعض من « عمارات » ، واخيرا الرولا (في اوائل القرن التاسع عشر انظر الرسم ١) .

اما الضحية الاولى للحروب التي قامت بين القبائل فقد كانت على ما يبدو قبيلة الحسنة ، المحصورة بين السباع والرولا فقد اضطرت عام ١٨٥٠ أن تحارب من أجل مرعاها شرقي حمص ، تحالفا من السباع والرولا الا انها هزمت والحقت نفسها بالرولا(٥) في علاقة لاتزال قائمة حتى اليـوم .

اما القبيلتان المنتصرتان ، السباع والرولا ، فلم تلبثا أن اختلفتا فيما بينهما . وفي عام ١٨٧٥ ابتدات الرولا بالتنازع على حقوق المرعـى مع حلفائها السابقين السباع ، وعندما احتدم الخلاف التجأ السـباع الى فدعان طلبا للمساعدة ، ومن ثم نجح السباع وفدعان في التغلب على الرولا . وفي هذه الحرب التي دارت بين السباع والرولا ، يبدو أن السباع كانوا بطريقة ما يتلقون الدعم في المعركة من قبل السلطة العثمانية . وحسب ما تقوله السيدة بلانت (Blunt) ،فقد منح السباع حق الاستفادة من المراعي الصيفية في منطقة حمص ــ حماة لقاء تقديم /٦٠٠/ جمل سنويا الى الحكومة العثمانية .

وقد طرأ تغيير خلال هذه الفترة على عديد من المؤسسات والتقاليد البدوية الهامة ، ومنها الغزو ، والخوة ، ولم تعد هذه المؤسسات وقفـا على القبائل وحدها ، لانه عندما كانت احدى القبائل تحاول فرض سيطرتها على منطقة ما ، كان لزاما عليها أن تتعامل مع الجماعات الموجودة أيضا ، وفقد الغزو ميزته الاساسية كنوع من اللهو أو الصيد والقنص ، واتخذ طبيعة تتسم بالحاجة والتهور بين القبائل والتجمعات الموجودة في المنطقة . اما الخوة التي كانت تجمع بمبالغ أكبر من السابق ، فلم تعد تمثل « ضمانة للامن » كما كانت في منطقة نجد (انظر بيل ١٩٠٧ : ٦٦) .

هذه الامثلة القليلة من الاحقاد والحروب القبلية قد تسهم في توضيح الطبيعة العامة للنزاع حول حقوق المرعى ، والمياه ، والنفوذ ، الـذي حدث في القرن التاسع عشر في منطقة الحدود بين الهضبة العربية وسواحل المتوسط من حلب الى حوران والجولان .

اتحاد قبائل عنيزة

قيـــس
قريش
وائل
عناز

مسلم
(ضنى مسلم)

بشير
(ضنى عبيد)

ولد علي رولا حسنة فدعان سباع عمارات

المصدر : كتاب القبائل البدوية ، ونصف البدوية ، ونصف المستقرة والمستقرة في سورية (ج.س.ي) . الاركان . الجيش التاسع ١٩٤٢ . لنـــدن .

الاصلاح العثماني « والحركة باتجاه الشرق » :

تتداخل نهاية فترة التوسع في تخوم الرعي ، وبداية «الحركةالزراعية باتجاه الشرق » ، بشكل دقيق ومعقد ، مع السياسة العثمانية خلال هذه الفترة التي ساد فيها الاضطراب في الحياة القبلية وانقطاع الاتصالات والتجـارة . وبعد عام ١٨٦٠ حول السلطان اهتمامه الى المقاطعات غير الاوربية من الامبراطورية وحاول ان يستعيد سيطرته العسكرية والسياسية في هذه الاقاليم ، وابتدأت فترة من الاصلاح في الشرق الاوسط خاصة في عهد عبد الحميد الثاني .

لقد استعملت الدولة العثمانية طرقا جديدة لاستعادة سلطتها العسكرية . وقد استطاعت ان تقدم للمزارعين امنا اكبر ومنفعة اقتصادية افضل وقد نتج عن اعادة تنظيم الجيش التركي تغيير كبير . فقد حل محل الجنود الانكشاريين وحدات محترفة من الجنود تحمل البنادق . وفي هذه المرحلة اصبح بامكان الجيش أن يتحول الى الهجوم ويبرهـن على تفوقه العسكري علنا . كما ابتدأ تأسيس عدد من الحصون ومواقـع الشرطة على طول حدود الاراضي الزراعية الواقعة على التخوم مثـــل دير الزور (انظر الخريطة رقم ١) .

كانت سياسة العثمانيين تجاه البدو سياسة تشجيع القبائل على تصفية بعضها بعضا . وكان الجيش التركي وقوامه ٣٠،٠٠٠ عنصرا ، مشغولا في تلك الفترة بشكل نشيط في ازكاء العداوات بين القبائل . وفي بعض الاحيان ، كانت القوات العثمانية تعار لهذا الطرف أو ذاك ، وتكون النتيجة مجزرة بين قوات تحمل البنادق وقوات بدوية لاتحمل سوى السيوف والرماح . (انظر ناتينغ ١٩٦٤ : ٣٧٤) . والمثال الساطع على هذه السياسة هوالمعركة الاخيرة الكبيرة التي حصلت بين اتحاد قبائل عنيزة . ففي عام ١٨٧٥ استأجر سطام شعلان من قبيلة الرولا قوات تركية ليحارب السباع الذين بالتالي هزموا هزيمة ساحقة .

قدم العثمانيون كل رعاية لازمة لعملية التوسع الزراعي . وقد جرى تعمير الفلاحين من الاهالي للارض الجديدة وكذلك ملاكي الارض ، والمهاجرين ، على حدود تخوم (أطراف) الاراضي المزروعة الهامشية بشكل خاص . وهكذا اخذت حدود الاستقرار تدفع باتجاه الشرق ، بينما كان الجنود العثمانيون المسلحون ببنادق الوينشستر وأجهزة سنايدرز المستعملة لتعبئة البنادق يتحصنون في مواقع عسكرية جديدة على الحدود ويوفرون بذلك الامن للمزارعين كي يتزايدوا عددا وقوة .

وكان اكثر هؤلاء المستقرين الجدد اندفاعا الشراكسة الذين هربوا من الاحتلال الروسي لمنطقة القوقاز . فقد برزت القوى الشركسية بعد عام ١٨٧٠ ، وامتدت حتى الحدود الصحراوية ، من الحدود الشمالية حتى عمان جنوبا ، وادوا بنجاح الدور الذي رسمه لهم العثمانيون : فقد شغلوا وزرعوا الارض وكانوا فعالين أيضا كمنطقة عازلة في وجه القبائل البدوية .

كما ان الدروز ، الذين كانوا دوما مستعدين للدفاع عن قراهم ، دفعوا حدود المناطق المستقرة باتجاه الشرق أيضا . وقد ادت جهود الامير بشير في اضعاف قوتهم في المنطقة الجنوبية الوسطى من لبنان الى هجرة درزية واسعة الى جبل الدروز ، والسويداء ، واللجا ، حوالي عام ١٨٦٠ . وهناك اقاموا وحافظوا على مركزهم في وجه المعارضة من قبل القبائل البدوية ، (كالرولا والفضل واهل الجبل) . هذا بالاضافة الى ان بعض الجماعات الكردية والمسيحية كانت موجودة في تلك المنطقة أيضا .

وابتدأ الفلاحون في المناطق الاخرى مثل حوران ، وحمص ، وحماه، وحلب بالعودة الى قراهم وكانوا اما يحاربون من أجلها ، أو يشترونها من البدو في المنطقة .

أما في منطقة حماة والسلمية فقد تشكلت القرى الصغيرة التي امتدت حتى حدود الصحراء نفسها منالعلويين وغيرهم من الجماعات الفلاحية وبعض هذه المستوطنات كانت في مناطق جديدة ، نصف قاحلة ، وعلى بعدخمسين ميلا من الحدود . وفي نفس الوقت تشكلت بعض المستوطنات البدوية . ومن الامثلة على ذلك مستوطنات تضم بضع مئات من خيام الولدة ، وبعض الحديدين ، وبعض الموالي . وقد كان من النادر جدا ان تستقر قبيلة بكاملها . فبعض الفروع بقيت رعوية تماما بينما جمع الاخرون بين الرعي والزراعة .

وفي عام ١٨٦٥ منح جدعان بن مهيد من قبيلة فدعان دخل عشرين قرية في منطقة حلب . وعلى الرغم من ان هذا المال قدمته السلطات العثمانية لتشجيع قبيلته على الاستقرار ، فقد سجلت الارض باسمه ، وجعلت منه مالك أرض ثريا . وبما انه لم يستقر من قبيلته سوى العدد القليل فقد استأجر المزارعين والقرويين ليفلحوا الارض له كمحاصصين .

وفي عام ١٨٧٥ تمكنت قبيلة الفضل من تسجيل الاراضي التي ادعت ملكيتها للمرعى في الجولان باسم عدد من زعماء القبيلة . الا ان ذلك لم يكن ممكنا بالطبع قبل ان تخوض عدة معارك ضد الاكراد ، والدروز، والشراكسة ، الذين ادعوا من جهتهم أيضا ملكيتهم للمنطقة . وبواسطة النفوذ المتزايد الناتج عن تسجيل الاراضي ، تمكن الزعماء القبليون من توسيع سيطرتهم ، وفرضها على الفلاحين في المنطقة ، بل انهم كانوا في بعض الاحيان يشترون القرى .

وعملت الحكومة العثمانية التي كانت تؤيد مثل هذه التطورات على مساعدة المستوطنين الجدد وذلك بمنحهم الامتيازات الخاصة وتخفيف الضرائب . أما المناطق الشاسعة التي كان الحكم العثماني العسكري قد وضع يده عليها حديثا والواقعة قرب الحدود فقد أعلنت اراضي تمتلكها الدولة ، ومنح المستقرون بها شروطا خاصة . وهكذا اخذ التوسع الرعوي والغزو الى داخل الاراضي الزراعية الهامشية على سواحل المتوسط ، بالتراجع الى الوراء ، أمام الحركة الزراعية « المتجهة شرقا » .

الحـواشـي

(١) بين البدو : تشبه علاقات الخوة وهي قائمة على المولد ، أو تبادل الدم ، أو دفـع الجزية وأحيانا الوائيق التي يستبعد منها الغزو (مثلا لاتجوز الاغارة على « أخ ») .

(٢) يصف بوركهاردت أيضا عددا كبيرا من القرى المهجورة في حوران والجولان (بور كهاردت ١٨٣١) .

(٣) أشار ويلريس الى ان البدو لايهاجرون طوعا ، وكانوا يتخلصون من الفائض السكاني في المرعى بنوع من الازمة العنيفة (ويلريس ١٩٤٦ : ٦٤) .

(٤) على الرغم ان التقارير التاريخية المكتوبة تختلف (أوبنهايم ١٩٣٩ ، غلاب ، ١٩٤٢ ـ مولر : ١٩٣١) فان التقارير الشفهية اليوم تتفق بشكل عام على ان قبيلة الفضل كانت سيدة المنطقة بين حمص وحماه لقرون عديدة . ووقت ظهور العثمانيين في سورية ، حاول أمير الفضل وبعض الفروع ان يبتعدوا بحيث لاتطالهم يد السلطة وذلك بان ينتقلوا الى وادي البقاع ، والجولان ، ومنطقة بحيرة الحولة . وقد سمي باقـي أفراد القبيلة الذين استمروا في وجودهم بمنطقة حمص فيما بعد باسم الوالي (الحلفاء) فيما بعـد .

(٥) على أية حال فانهم ، تحت القيادة السياسية الواعية لعائلة ابن ملحم ، لم ينتقلوا الى حالة من الخضوع أو التبعية .

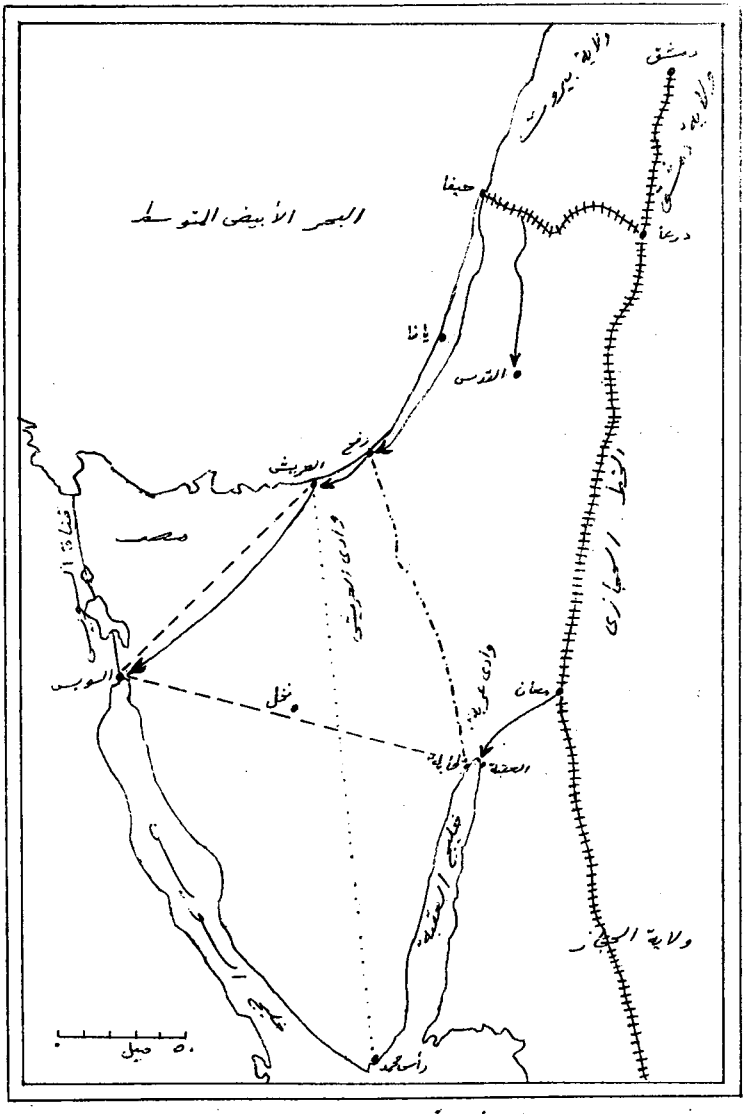

الحدود الادارية بين مصر وفلسطين

- ---- الحدود قبل ١٨٩٢
- ..... الاقتراح التركي ١٩٠٦
- ---. الحدود بعد ١٩٠٦
- ++++++++ الخط الحجازي (السكة الحديدية)
- ← الشارع التركية للسكك الحديدية

مصادر البحث

Bell, G

1907 Syria, The Desert and the Sown. London W. Hernman.

Burckhardt, J

1831 Notes on the Bedouin and the Wahabys. London : Henry Colburn and Bently (1967 reprint).

Glubb, J

1942 Handbook of the Nomads, Semi-Nomads, Semi - Sedentary Tribes of Syria. G. S. I. Headquarters, 9th Army.

Hourani, A

1946 Syria and Lebanon. London : Hollis and Carter.

Ibn Khaldoun

1961 The Muqqadimah. Vol. 1 Beirut : Lebanese Book Publishing House.

Muller, V.

1931 En Syrie avec les Bedouins. Paris : Librairie Ernest Leroux.

Nutting, A.

1964 The Arabs. London : Hollis and Carter.

Oppenheim, M

1939 Die Beduinen. Vol 1 Leipzig : Otto Harrassowitz.

Volney, (Constantin - Francois Cassebeuf)

1787 Voyage en Egypte et en Syrie. La Haye : Mouton.

البيئة والتغذية في حوران

في القرن التاسع عشر *

جان بول باسكوال

(المعهد الفرنسي للدراسات العربية في دمشق)

فيما يخص نظام التغذية في العالم الاسلامي ، لانملك لسوء الطالع ، الا معلومات متناثرة وغير مستوفاة عن تصرف سكان المدن والارياف . ولقد صدرت هذه المعلومات في معظمها ، أو على الاقل فيما يتعلق بالقرن التاسع عشر ، عن أقوال الرحالة الاوربيين وانطباعاتهم . وكانوا في الاغلب يصفون المآدب التي يُدعون اليها ، فهي اذن وجبات من الطعام تتميز على الوجبات المألوفة . لذلك رأينا من المفيد ان ننوه بالاهمية الخاصة التي تكتسبها تلك الدراسة التي أفردت للاسرة السورية ونشرت في المجموعة التي أشرف عليها Le Play وعنوانها « عمال المشرق والمغرب » . وهي الدراسة(١) الوحيدة من نوعها في هذا المضمار ، حول بلاد الشام .

ولم نستطع الوقوف الا على النزر اليسير من الاخبار(٢) حول مؤلف الدراسة المذكورة M. E. Delbet الذي مارس مهنة الطب . وأغلب الظن ان Le Play قد أوفده الى سوريا . فأبحر في أواسط ايلول (سبتمبر) من عام ١٨٥٧ قاصدا بيروت بصحبة Guillaume Rey . وسوف يتبعه صاحبنا خلال تجواله في أرجاء حوران وباتجاه البحر الميت . وكان أثناء مقامه في دمشق من ٢٦ تشرين الاول (اكتوبر) الى ٩ تشرين الثاني (نوفمبر) يقضي أيامه متقصيا أحوال العمال في حياكة الحرير (وهو موضوع مقالة خاصة) وباحثا في شؤون ادارة الاوقاف(٣) . وفي ٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ازمع السفر باتجاه البحر الميت وبصحبة Rey وساعده على التعرف الى الاثار القديمة في المقاطعات التي زاروها . وكان في الوقت نفسه يوفر العناية الطبية للمرضى الذين التقى بهم أثناء الطريق ، ويتابع « أبحاثه في الاقتصاد الاجتماعي » . حتى بلغ الرجلان قرية بصرى في ٦ كانون الاول (ديسمبر) وأقاما فيها لغاية ١٣ كانون الاول (ديسمبر) . وفي غضون هذه الفترةالقصيرة من الزمن جمع Delbet المعلومات التي استخدمها في وضع دراسته حول أسرة الشيخ مقدادوكانت

---

* قام بترجمة هذا البحث الى العربية الدكتور بدر الدين قاسم الرفاعي .

على حد قوله . من « اغنى العائلات واشرفها مقاماً » لكنه لم يعتبرها حالة استثنائية في المنطقة بل نموذجية(٤) .

وساق المؤلف تحرياته حسب المخطط الثابت الذي اخذ به Le Play واتباعه في جميع ابحاثهم . فهي تشتمل ثلاثة اقسام رئيسية : قسم وصفي يستعرض جميع عناصر الوضع العائلي كالاطار الجغرافي والاقتصادي والمحيط العائلي (٣٠٤ ــ ٣٠٨) ويراد منه أن يكون عاماً وشاملا . فوصف المؤلف أسباب العيش (من موارد عينية ونقدية) واحصاها احصاء دقيقا جدا (٣١٨ ــ ٣٢٣) وجاء على ذكر العادات المألوفة في المأكل والمشرب (٣٢٨ ــ ٣٣٠) وهي التي لفتت انتباهنا على نحو خاص . كذلك كانت أوقات الفراغ التي يسميها « وقت الراحة والاستجمام » حسب مصطلح Le Play موضع اهتمام بالغ (٣٣٨ ــ ٣٤٣) بل أراد أن يوليها نفس العناية التي أولاها لوصف الاعمال التي يقوم بها كل فرد من أفراد تلك « الجماعة » (٣٢٤ ــ ٣٢٧) .

القسم الثاني من هذه الدراسة (٣٤٤ ــ ٣٦٤) يتناول الموازنة السنوية المتوسطة للايراد والانفاق ، ويؤخذ عليها انها « أنشئت » من قبل الباحث في أعقاب تحريات عاجلة اقتصر فيها على شهادة الافراد الذين حقق معهم . ويمكننا ان نتصور الصعوبات ومهاوي الزلل التي تنطوي عليها مثل تلك الدراسة(٥) . فنحن لانطمئن الى دقة الارقام التي يتقدم بها وبخاصة تلك التي تتعلق بتقدير « الارزاق المستهلكة عينا » .. على ان تعدادها في موازنة الانفاق من شأنه أن يتيح لنا تقدير أهمية الاستهلاك الذاتي في غذاء عائلة من الفلاحين ــ على جانب من الرخاء ــ في بلاد الشام ابان القرن التاسع عشر ومدى اعتمادها على الانتاج الخارجي .

واخيرا يعرض المؤلف في القسم الثالث من دراسته (٣٦٥ ــ ٣٩٧) لملاحظات تقنية مفيدة حول النشاط الزراعي والغلال والمقاييس وتقدير العملات النقدية في حوران ، الى جانب ارائه في الظواهر الهامة المتعلقة بالنظام الاجتماعي .

١ ــ المحاصيل الغالبة : الاكتفاء الذاتي :

عندما زار المؤلف بصرى ضمن عدد المزارعين في هذه القرية الصغيرة

بثلاثمائة نسمة (٣٠٦) . وهي تقع على السفح الجنوبي من «النقرة» التي تعد من اخصب مقاطعات حوران . واستقر عدد من العائلات في القلعة ، واقام عدد آخر ، مثل أسرة الشيخ مقداد ، في الجزء الشرقي من المدينة بعد ان أفادوا من حجارة الآثار القديمة في بناء مساكنهم . فاذا تجاوزنا هذا التجمع السكني لم نجد في ذلك السهل الفسيح ، بناء واحدا ولاكوخا آهلا بالسكان ، داخل اقليم بصرى الذي لم يحدد لنا المؤلف مساحته .

والارض ، التي تعود ملكيتها العظمى الى السلطان (٣١٧) . كان الرجال يستثمرونها حسب نظام « المشاع » أي على أساس توزيع دوري للمقاسم التي تحددها الحجارة(٧) ، وتضم « أسرة » الشيخ مقداد اثنين وثلاثين فردا ، منهم عشرة « خدم »(٨) (٣٠٩ — ٣١١) . فهم يؤلفون اذن عشر عدد السكان . واعتمدت موارد هذه العائلة الكبرى على استغلال أرض « ميرية » تناثرت في مقاسم عديدة على جميع المنطقة ، وبلغت مساحتها سبعين هكتارا ، على حد تقدير المؤلف (٣٤٩) . وتزرع الارض بالمحاريث القديمة . على طريقة التناوب الزراعي الموزع على ثلاث سنوات . و « الخدم » هم الذين يصنعون المحراث ويبتاعون من دمشق السكة اللازمة له ، فلم يكن في القرية حداد واحد ، ولاصانع حرفي واحد . ويجر المحراث زوج من الثيران يدعى الفدان (٣٠٨ — ٣١٧) . وكانت بعض المقاسم . كما يزعم المؤلف (٣٠٥ — ٣٢٥ ، ٣٨٣ — ٣٨٤) تروى من المياه المتجمعة في الوديان في فصل الشتاء .

ولم تعهد أراضي بصرى ، وحوران عامة ، زراعة الاشجار المثمرة في ذلك الزمان بسبب تربتها الرغاب . كما لم تعهدها في أيامنا أيضا(١٠) . فكانوا ينتجون الحبوب التي تغلها الارض بمحصول جيد (٣٨١ — ٣٨٢) اذا رويت ريا مناسبا . ونعني بالحبوب : القمح الذي ينقل انتاجه مناصفة على ظهر الجمال الى دمشق وعكا للاتجار به . والذرة البيضاء التي تؤلف قاعدة الغذاء العائلي ، والشعير الذي يستخدم في علف الماشية فقط ، والعدس والفول لتأمين حاجات العائلة وكذلك الحمص الذي يسميه المؤلف خطأ بالترمس (٣٤٩ — ٣٥٢ — ٣٥٨ — ٣٨٢) وهو غير معروف لديهم . أما الزراعة الاخيرة فهي الخروع الذي يعصر وتستخرج منه النساء الزيت اللازم لانارة المسكن .

وتملك الاسرة عددا من الابقار والجياد للركوب والجمال للرحل والحمير لنقل الغلال بالاضافة الى حيوان الجر المشار اليه (الثيران) . والجدير

بالذكر انهم لم يعهدوا وقتئذ العجلات كوسيلة من وسائل الجر أو النقل(١١).. كذلك تقتني العائلة كمية من الدواجن للافادة من بيضها وقطيعا هاما من الغنم والماعز عهدت بحراسته الى البدو المنتشرين في تلك البقاع لقاء أجر عيني (كالحبوب وجزء من انتاج الحليب والخراف) (٣٥٣) . وتوفر هذه الماشية بعض ما يحتاجون اليه من سمن حيواني وهيوليات لابد منها لتغذية الاسرة . كذلك كانوا يطعمون من الطير القنيص الذي يستوهبونه عادة . لان الفلاح في حوران ، على حد قول المؤلف (٣٠٨ – ٣٤٨) لم يكن ميالا الى تعاطي صيد البر . وأخيرا كانت النساء يتولين قطف بعض الحشائش البرية(١٢) التي تؤكل نيئة أو مطبوخة . فتزود الاسرة بما يستكمل غذاءها (٣٣٠ – ٣٤٩) الى جانب بعض الثمار المتوفرة محليا (كالتين وربما الرمان) .

ذلك هو مجموع المأكولات الاساسية المتوفرة محليا أو المنتجة والتي تؤلف قاعدة الغذاء اليومي . ويرتبط هذا الغذاء بمادة الملح . وهي مادة أساسية لابد من كتابة تاريخها في بلاد الشام . وأشهر المالح مملحة بحيرة جبول الى الشرق من حلب وجيرود بين دمشق والقريتين وممالح منطقة تدمر(١٣) . وكان انتاجها الوفير يمون معظم الاسواق الشامية بالاضافة الى انتاج عدد من المالح المحلية(١٤). ولم توجد مملحة في ضواحي بصرى ، فكان الشيخ مقداد يبتاع من دمشق وعكا (الملح البحري ؟) ما تفتقر اليه أسرته من هذه المادة ، ويستخدم بعض هذا الملح في اعداد جلود الذبائح (٣٣٥) . ومما يجدر ذكره أيضا ان الاسرة تستورد من جبل عجلون المجاور (٣٤٨) زيت الزيتون المشهور بجودته حتى أيامنا ، استكمالا للمواد الدهنية لم تنتجها انتاجيا كافيا ، كما تستورد من جبل حوران أثناء المواسم كميات كبرى من البطيخ (٣٤٩) تضاف الى الثمار القليلة التي تنبت محليا على أن هذه الكميات لاتكفي لتوفير مايحتاج اليه الغذاء المتوازن من فيتامينات وعناصر واقية حسب أصول التغذية الحديثة .

يترتب على ذلك كله ، من الناحية النظرية ، ان الطاقة الغذائية كانت على جانب من الوفرة تلبية لحاجات أسرة الشيخ مقداد ، ولم يكن انتاجها متنوعا بما فيه الكفاية ، فارتبط مصير الشيخ بالتموين الخارجي في سبيل ان ينوع غذاءه من جهة ، وأن يواجه ، من جهة ثانية ، ما يتطلبه اكرام الضيف ، وهو ما يحرص عليه أشد الحرص بوصفه أحد امتيازاته الاساسية .

٢ ـ الاسهام الخارجي : الاصناف الكمالية :

تشير موازنة الشيخ مقداد في باب النفقات الى بعض الاصناف التي كانت تعد في ريف حوران من الكماليات في القرن الماضي ، على انها صارت اليوم جزءا لايتجزأ من التغذية اليومية . ونعني بذلك الارز والسكر والقهوة ، ومنتوجات أخرى أكثر شيوعا مثل الفواكه والخضار اليانعة .

وقد المحنا سابقا الى أن أراضي بصرى لم تنتصب فيها شجرة واحدة مثمرة تسترعي النظر ، والاغرب من ذلك انه لم توجد فيها مبقلة واحدة لتزود القرية بالبقول المألوفة(١٥) . فكانوا يستوردون من دمشق ، وبكميات قليلة ، الخضار والفواكه التي لم تنتج محليا . وكانت دمشق السوق الحضرية الكبرى التي اتصل بها حوران باوثق الصلات : فاذا قصدها أحد أفراد العائلة لبيع محصوله فيها ، عاد منها بالبصل والباذنجان وكان يعد من المأكولات اللذيذة (٣٤٩) ـ والعنب والتفاح والمشمش والبرتقال (١٦) وابتاع من دمشق أيضا التوابل التي تبعث على الشهية . ومن أصناف الحلوى ، الثمار المعقدة بالسكر (المربيات) واللوز والجوز والبندق . واغلن الظن انهم كانوا يحصلون على البلح من القوافل في طريق عودتها من الحج ، أو من البدو الرحل .

أما الارز(١٧) فهو غذاء قديم ومعروف في بلاد الشام منذ العهد الروماني . وهناك شواهد عديدة على زراعته فيها وخلال أحقاب مختلفة وبخاصة في زمن الايوبيين والمماليك . على ان هذه الزراعة لم تشغل في القرن السادس عشر الا مساحات محدودة في منخفض الحولة ووادي الاردن ثم لم تلبث ان زالت عن الوجود في القرن التالي . فلم يقدر للارز أن ينتشر انتشارا واسعا ودابت بلاد الشام على اجتلابه من الخارج . فاستوردت الارز المصري الذي حمل اليها على ظهر السفن في القرن الثامن عشر(١٨) . واضيفت اليه كميات أخرى متزايدة وردت من أوربا ابان القرن التاسع عشر ، مما يدل على مزيد من الاستهلاك(١٩) . وظل الارز مع ذلك كله غذاء باهظ الثمن بالنسبة الى أهالي المدن ناهيك عن سكان الارياف ، وكان على الشيخ مقداد ان يبتاع من دمشق كيلو واحد من الارز لقاء عشرة كيلو من القمح . ومن الناحية النظرية لم يزد نصيب كل فرد من أفراد أسرته من هذا الغذاء على ستة غرام يوميا . كانوا يستخدمونه في اعداد المأكولات التي تقدم الى الضيوف الكرام او أثناء الاحتفال بالاعياد .

ويعتبر السكر من أعظم المصادر الغذائية للطاقة ، وكان قبل القرن السادس عشر من قبيل الترف في أوروبا وظل كذلك في بلاد الشام بعد ثلاثة قرون . وسوف يعد فيها من الاصناف الكمالية حتى النصف الاول من القرن العشرين . على ان بلاد الشام كانت مصدر انتشار سكر القصب في أوروبا فقد عثر عليه الصليبيون في تلك البقاع ومنها نقلوه الى بلادهم الاصلية ، ثم زالت زراعة القصب السكري في وقت لاحق على نحو متدرج ولن تعود الى الظهور الا في أواخر القرن الثامن عشر . فارتبطت بلاد الشام ، بالنسبة لهذا الانتاج أيضا ، بما تستورده من مصر بالاضافة الى السكر الاسمر الوارد منذ القرن الثامن عشر من جزر الاطلسي عبر القارة الاوربية ، ولقد أربت حمولة السكر المستورد بوساطة فرنسا وبريطانيا العظمى على السكر المصري ، ومع ذلك لم يبلغ هذا الصنف حظا واسعا من الانتشار . فاستبدله سكان المدن والارياف بالدبس (أي رب السكر والخرنوب) أو العسل الذي يدخل في اعداد مختلف السكاكر (وهي من اختصاصات دمشق) التي وردت في موازنة الشيخ مقداد . وكانت السكاكر والمربيات تستكمل السكر الذي تبتاعه الاسرة بكميات قليلة في أسواق دمشق ، أو تبتاعه من الباعة الجوالين الذين يجوبون أرجاء حوران(٢١) وأغلب الظن ان عادة احتساء القهوة(٢٢) ظهرت في جنوب الجزيرة العربية منذ أواخر القرن الرابع عشر . ويمكننا متابعة انتشارها المتدرج في اتجاه مكة والقاهرة حيث حظرت على الناس في مطلع القرن السادس عشر . وفي غضون هذا القرن شاعت القهوةفيبلاد الشام فتعاطاها سكان دمشق للمرة الاولى(٢٣) عام ١٥٣٤/٩٤١ . مما أثار خلافا شديدا في أوساط العلماء الذين انقسموا على أمرهم . وسرعان ماافضى الخلاف الى تحريمها عام ١٥٤٧/٩٥٣(٢٤) . والواقع ان اجراءات التحريم العامة التي شاعت في جميع أرجاء الدولة منذ مطلع القرن السابع عشر قد ادت الى تباطؤ انتشار القهوة لفترة من الزمن ، ثم ظهرت ثانية بعد الغاءالحظر وعم انتشارها بين أهالي المدن والارياف في أوسع فئاتهم . وبدلاستيراد القهوة المتزايد من جزر الاطلسي على نمو الاستهلاك لاسيما بعد تخفيض الرسوم الجمركية في أرجاء الامبراطورية . على ان استهلاكها لم يكن أمرا مألوفا يوميا في الريف السوري ابان القرن التاسعشر . فالكمية الكبرى من القهوة(٢٥) التي كان يتصرف بها شيخ بصرى لم يقصد منها الاستهلاك العائلي بل كانت تقدم للضيوف فقط . وكانوا كثرة والحق يقال . ويتم اعدادها بحضورهم وبالطريقة التقليدية وفي المكان الخاص الذي أفرد لها داخل « المدفئة » .

ولئن كان الشاي في أيامنا شرابا قوميا في بلاد الشام ، وكان متواجدا في الاسواق الحضرية الكبرى . وبكميات ضئيلة دون شك ، الا أن استعماله ظل محدودا . ولم يستهلكه الا المسافرون(٢٦) والعائلات التي كانت تربطها صلة ببلاد فارس أو مدينة استنمبول . فلم يعهد رواجا كبيرا الا في عصرنا فأقبل عليه الناس في فترة متأخرة وكان الاقبال عليه عميما(٢٧) .

ظلت القهوة اذن . مع السكر والارز ، سلعة نادرة خلال القرن التاسع عشر في ريف حوران ، وفي الريف الشامي عامة بلا شك . أما الشاي فكان مجهولا عندها . واذا كان الناس يبتاعون السلع التي تعبر أوروبا وتكون تحت رقابتها ، الا ان ارتباطهم بهذه السلع كان محدودا . فساكن بصرى ــ ولو كان شيخا جليلا ــ بغنى عن الاستيراد من خارج البلاد فقد اعتمد في معاشه قبل كل شيء على ماتغله ارضه من حبوب .

٣ ــ أنماط المأكل والمشرب :

اذا نظرنا في المأكولات النموذجية التي عرض لها المؤلف ، اتضح لنا ان الغذاء اليومي الذي تتناوله أسرة مقداد مطبوع بطابع التقتير والرتابة مما يتناقض تناقضا شديدا مع تلك الوفرة من الغلال التي قام المؤلف باحصائها(٢٨) . فالاساس الذي قامت عليه الوجبات اليومية هو الحبوب . كانوا يطعمون منها صباحا عند الافطار وظهرا عند الغداء وتكون على هيئة رغيف من الحنطة التي تمزج أحيانا بالذرة البيضاء أو الذرة الغضة التي تقطف في الربيع قبل حصاد القمح . وكانت الحبوب تنقل على ظهر الجمال الى الطواحين المائية الواقعة في « ضواحي بصرى »(٢٩) . ومن الطحين الذي لم ينخل تصنع النساء العجين من غير استعمال الخميرة ، وتخبزه كل يوم على الصاج (لان بصرى لم تملك فرنا واحدا) بل قبل كل وقعة طعام لانهم يؤثرون مذاق الخبز ساخنا . وفي وجبة العشاء مساء ، وهي الوجبة الرئيسية ، كانوا يطعمون أيضا من الحبوب على هيئة البرغل أو الفريكة ، الى جانب الحساء الحوارنية التي أعدت بالعدس والحمص المجروش . وكان البرغل أعم استهلاكا من الفريكة ، وهو يصنع من القمح المجروش الذي يغلى في الماء ويجفف بأشعة الشمس ويمكن الاحتفاظ به أكثر من عام في مخزن الغلال « القوارة » . وتطبخه النساء باعادة غليه في الماء وتزويده بالزبد أو السمن(٣٠) . أما الفريكة فتكون من القمح الاخضر المشوي الذي تجرشه النساء بطاحونة اليد (الجاروشة) وتحتفظ به لاعداده للطعام كما يعد البرغل .

وتشكل الالبان القاعدة الثانية لغذاء الاسرة . ففي فصل الربيع يحتسون الحليب اذا توفر بكميات كبرى ، أو يستهلكونه في معظم الاحيان لبنا يساعدهم على تذوق البرغل والفريكة في فصل الصيف . ويستعاض عن اللبن في فصل الشتاء بلبن الكشك عند الافطار . وهو ضرب من العجين يصنع من البرغل واللبن الرائب ويجفف باشعة الشمس ثم يهرس . ويعالج بالزيت والزبدة ويتناولونه حساء . ولابد أيضا من ذكر البيض الذي يأكلونه مقليا في وجبة الظهر ، والدبس والحلوى التي تصنع برب العنب والسيرج وتقدم في وجبة الافطار شتاء . والفواكه الغضة أو الجافة حسب الموسم . وأخيرا كان الفلاح البصري يتناول بين وجبات الطعام بزورا يحملها معه وخاصة الحمص وحبوب القمح والارز أيضا .

ولايرد ذكر للحوم في تلك الوقعات اليومية . لكنهم يعوضون هذا النقص بعض الشيء في أيام الاعياد الكثيرة وفي التبادل الغذائي المتواتر في أعقاب بعض الاعمال الجماعية ، وفي الاحتفالات الدينية والعائلية على نحو خاص (٣٣٠ ـ ٣٣٨ ـ ٣٣٩) . ففي عيد الاضحى وعيد الفطر تقدم الماعز والخراف المشوية كاملة . مع الدواجن وتتقاسمها الاسرة مع ضيوف الشيخ العديدين . كما تولم الولائم خلال شهر رمضان وتزود بكثير من اللحوم . في ساعة الافطار بعد يوم عسير قضوه صائمين . أما الموالد وحفلات الختان والزواج فهي أيضا مناسبات يحتفل بها ، وتقدم فيها اللحوم أو تهدى اليهم بكثرة ، ثم ان مقدم الضيوف . وهذه حالة أكثر تواترا من غيرها ، مدعاة لذبح رأس من الماشية ويؤكد المؤلف على ان كمية اللحوم المقدمة تناسب مقام الضيف (٣٣٠) . فكانت أسرة المقداد على يقين من انها تستهلك اللحم أكثر من غيرها ، نظرا لمركز الشيخ ومايقع على عاتقه من تبعات(٢١) .

فيما يتعلق بالمشرب . اعتاد الفلاح البصري على الماء الذي تأتي به النساء من النبع الروماني ويحفظ في جرار ضخمة تدعى الواحدة منها « بالخابية » . وتوضع الجرار في مواضع مختلفة داخل الدار ويغرف منها بقصعات من الخشب . وكانوا يحتسون الحليب أيضا ، كما مر معنا ، و « الشنينة » وهي لبن رائب ينقع في الماء ويعتبر من المرطبات المنعشة في فصل الصيف(٢٢) . أما القهوة فلا يتناولونها الا بحضور المدعوين .

يرى المؤلف اذن « ان نظام الغذاء العائلي وافر جدا بصورة عامة . والامر بالمثل عند جميع سكان حوران ، ثم يستدرك قائلا « باستثناء مواسم القحط » . والحق ان هذه البقاع تقع تحت رحمة الامطار ، وهي عرضة لغارات البدو الرحل ، فلم يكن حجم الانتاج فيها منتظما .

وعندما قام المؤلف بتحقيقه عام ١٨٥٧ ، اتسم الموسم بمحصول وفير ، وحدث في فترة ملائمة ازداد فيها الطلب على القمح من قبل الاوربيين منذ بداية حرب القرم مما أدى الى ارتفاع أسعاره فافاد منه حوران بعض الشيء .

والسؤال الذي يتبادر الى الذهن : هل كان نظام الغذاء العائلي قابلا للتعميم على جميع سكان حوران ؟ فقد أجمع الرحالة على ذكر شظف العيش عند هؤلاء الناس وقناعتهم في شؤون المأكل والمشرب وقالوا : « ان أغنياءهم يعيشون عيش فقرائهم » فلا يتجلى ثراؤهم الا عنداستقبالهم الضيوف ، ولاريب ان مستوى العيش بالنسبة للشيخ متميز على مستوى سائر الفلاحين ، بسبب ما يرده من خيرات ومستلزمات حياته ، بينما كان الفلاحون في مرتبة أدنى وعلى جانب من التواضع والتبعية ، والحق ان Burckhardt قد وصف هؤلاء الفلاحين قبل Delbet بنصف قرن ، فكانوا أتعس حظا واقتصروا على وجبتين من الطعام في كل يوم ، وتناولوا خبز الشعير أكثر من خبز القمح ، ولم يكن نصيبهم من اللحوم الا مرة واحدة أو مرتين في العام . .

ـ الحواشـي ـ

(١) جميع الاستشهادات التي لاتحمل اسم المؤلف ولا الكتاب والمذكورة في الحواشي في أسفل الصفحات .ترجع الى الدراسة التي كانت أساس هذا البحث .

(٢) Rey II, III ، ٢٠ ، ١٧٧ ـ ١٧٨ ، ١٨٧ ، ٢٠١ .

(٣) لم تنشر هذه التعليقات على حد علمنا .

(٤) يكفي أن تقتني الاسرة عشرة أزواج من الثيران حتى ترقى الى مصاف الاغنياء بين مزارعي حوران راجع Burckhardt ص ٢٩٥ .

(٥) يضاف الى ذلك التحويل الى نظام الامتار كما أجراه المؤلف .

(٦) راجع Porter المجلد الثاني/١٤٩ والمخطط المقابل للصفحة ١٤٢ . وحول تخمين عدد السكان راجع Burckhardt ص ٢٣٦ الذي يقدر عدد العائلات بين ١٢ ـ ١٥ عائلة في عام ١٨١١ . بينما يقدرها Porter في المجلد الثاني/١٥٩ من ٢٠ ـ ٣٠ عائلة حوالي عام ١٨٥٠ . في حين تراوح تقدير Rey ١٨٧ ، رفيق Delbet فيجولته، بين ٣٠ ـ ٤٠ عائلة .

(٧) يذكر Delbet فقط لفظة « الملكية غير الموزعة » الا ان هناك دلائل على انتشار المشاع في جميع أرجاء حوران زمن الانتداب راجع Cantineau ٥٩ ـ ٦٠ . وكان يجري مسح المقاسم الذي اشار اليه Burckhardt ص ٣٠٠ كل ربيعين أو ثلاثة . وكـان يقصد به تحديد مبلغ الضريبة المستحقة على كل أسرة .

(٨) يراد بهذه اللفظة العمال الزراعيين الذين يكون عقدهم « أمرا وسطا بين المزارعـة والاجارة العينية » راجع Latron ٨٥ ـ ٨٦ .

(٩) ولم تكن نافذة دائما راجع Burckhardt ٢٩٦ .

(١٠) يرى Burckhardt ، ويؤيده Delbet ، ان اضطراب الامن في المنطقة هو السبب في عدم وجود المزارع فيها ، والتعليل مقبول جزئيا من أجل تبرير فقدان البساتين .

(١١) ظهرت العربات في الجولان ثم في حوران ، على يد المهاجرين الجركس حوالي عام ١٨٨٠ . راجع Schumacher ١٧

(١٢) وبخاصة عشبة « عقوب الجبل » .

(١٣) الموسوعة الاسلامية . الطبعة الثانية . مادة « جبول » . راجع Bowring ٢٠ ـ Cuinet ٣٢٦ ـ ٣٢٧ .

(١٤) Bowring ٢٠

(١٥) انظر الحاشية ١٠ أعلاه . ومن أجل فترة أقرب الينا راجع Canlineau ٦٠ .

(١٦) تقرير Tyrwhitt Drake

(١٧) الموسوعة الاسلامية الطبعة الثانية مادة « غذاء » . ومن أجل القرن السادس عشر راجـع Hüheroth ٨٣ .

(١٨) Raymond ١٨٩/١

(١٩) Bowing ٣٤ يبالغ باهمية انتشاره .

(٢٠) Volney ١٧٣ ـ ٣٤٦ ـ ٣٤٧ يشير الى قيام مزارع حديثة لقصب السكر في ضواحي بيروت وصيدا ، وفي فلسطين ايضا بالقرب من الرملة . وقد اهملت المزرعة الاخيرة منذعامها الثاني بسبب تعسف احد الاعيان المحليين . راجع Bowing ١٧ ـ ٤١ من أجل القرن التاسع عشر .

(٢١) قيمة ٤ كغ سكر تقابل ٢٣ كغ دبس (من جبل حوران على أغلب الظن) ٢١ كغ حلاوة ١٢ كيلو مربيات أو سكاكر .

(٢٢) الموسوعة الاسلامية . الطبعة الثانية . مادة « قهوة »

(٢٣) غزي المجلد الثاني/١٢٦ الذي يستشهد بابن طولون . سميت المقاهي بالخمارات في دمشق . المرجع المذكور المجلد الثاني/١٣ .

(٢٤) المرجع المذكور ٣٩/٢ . ويعود هذا الحظر الى تدخل القاضي ذاته الذي حظر القهوة في حلب حوالي عام ١٥٤٩ . وقد طبقت هذه التدابير محليا على أقل تقدير . أن لم نقل بتطبيقها مؤقتا . فقد أشير الى « بيوت القهوة » أو « بيوت طبخ القهوة » في غزة ونابلس ، في الربع الاخير من القرن السادس عشر . راجع Heyd

(٢٥) ٦١ كغ قهوة « عدنية » و ٣٠ كغ قهوة امريكية (افرنجية) .

(٢٦) ينص العقد النموذجي الذي يجريه المسافر مع « الترجمان » على ان يقدم هذا الاخير شراب الشاي في وجبة الافطار (البند ٨) . راجع XXII Baedeker امـا Berggren ٧٦٦ فيؤكد على « ان الشاي لم يكن معروفا في سوريا وعند العرب » في الربع الاول من القرن التاسع عشر . حول استهلاك « الشاي الهندي (النادر) أو بديله نقيع الاعشاب عند قبائل التركمان في منطقة حلب . راجع Burekhardt ٦٤٤ .

(٢٧) استنادا الى شهادة أحد سكان بصرى الطاعنين في السن . كانوا في عهد الانتداب الفرنسي يتعاطون الشاي لفوائده الطبية . ولم يصبح استهلاكه دارجا الا حوالي عام ١٩٥٠ . راجع ايضا Weulersse ٢٣٢ .

(٢٨) ولابد من الاشارة ايضا الى الخيار والسمسم . وقد استقطهما المؤلف سهوا .

(٢٩) حول وجود الطواحين المائيةفي بصرى. في أواخر القرنالسادس عشر. انظر Hüheroth ٢١٩ . ولم تعمل هذه الطواحين الا في فصل الشتاء ، مما اضطر اهالي بصرى الى نقل قسم من حبوبهم . بعد الحصاد مباشرة . الى مطاحن اخرى تعمل في فصل الصيف . في القرن العشرين نقلت هذه المحاصيل الى تل شهاب خاصة .

(٣٠) هناك بعض التعثر والتقريب عند المؤلف فيما يتعلق بكيفية اعداد البرغل والاحتفاظ به راجع Burckhardt ٢٩٣ .

(٣١) حسب احصائنا ، لاتزيد الحصة اليومية من اللحم والبيض لكل فرد من افراد الجماعة على ١٣٩ غرام . هل هناك خطأ من الباحث ، أم ميل الى المبالغة في عدد الذبائح . أم الاثنـــان معا ؟ .

(٣٢) Burckhardt لم يستهلك اللبن (أو الخثير) و « الشنينة » بكميات كبرى الا خلال بضعة شهور في العام . وبخاصة في فصل الربيع ومطلع الصيف في موسم الالبان .

(٣٣) Burckhardt ٢٩٣ ـ Schumacher ٤٥ فيما يتعلق بفلاحي الجولان المجاورين لبصرى .

المراجـع

Baedeker فلسطين وسوريا دليل المسافر الطبعة الثانية لايبزيغ ١٨٩٣ .

Berggren الدليل الفرنسي ـ العربي المتداول . أوبسالا ١٨٤٤ .

Bowring تقرير عن الاحصاءات التجارية في سوريا لندن ١٨٤٠ .

Burckhardt رحلات الى سوريا والاراضي المقدسة لندن ١٨٢٢ .

Canlineau اللهجات العربية في حوران ، باريز ١٩٤٦ .

Cuinet سوريا ولبنان وفلسطين بالاحصاءات . دراسة وصفية معللة . باريز ١٨٩٦ .

Delbet فلاحو بصرى اسكي شام . احوالهم العامة وتعددزوجاتهم

Le Play في مقاطعة حوران (سوريا ـ الدولة العثمانية) نشرت في مجموعة « عمال المشرق وانتشارهم في حوض البحر الابيض المتوسط » الطبعة الثانية الجزء الثاني ١٨٧٧

الموسوعة الاسلامية الطبعة الثانية مادة« جبول » « غذاء » « قهوة » .

غزي نجم الدين الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة طبعة جبور ثلاثة مجلدات بيروت ١٩٤٥ جونية ١٩٤٩ حريصا ١٩٥٩ .

Heyd وثائق عثمانية حول فلسطين ١٥٥٢ ـ ١٦١٥ اكسفورد ١٩٦٠ .

Hüheroth و **عبد الفتاح** الجغرافيا التاريخية بفلسطين وشرق الاردن وجنوب سوريا في أواخر القرن السادس عشر ارلنجن ١٩٧٧ .

Latron الحياة الريفية في سوريا ولبنان . بحث في الاقتصاد الاجتماعي . بيروت ١٩٣٦ .

Porter خمس سنوات في دمشق . موجز في تاريخ هذه المدينة واراثها وآثارها مجلدان لندن ١٨٥٥ .

Raymond الحرفيون والتجار في القاهرة في القرن الثامن عشر مجلدان دمشق ١٩٧٣ ـ ١٩٧٤ .

Rey رحلة الى حوران وشواطىء البحر الميت خلال عامي ١٨٥٧ — ١٨٥٨ باريز ١٨٦١ .

Schumacher الجولان لندن ١٨٨٩ .

Tyrwhih Drake التقرير في P. E. F. Q. S. ١٨٧٢ ص ١٧٤ — ١٩٣ .

Volney رحلة الى مصر وسوريا . المقدمة والهوامش بقلم

Gaulmier باريز — لاهاي ١٩٥٩ .

Weulersse الفلاحون في سوريا والشرق الادنى باريز ١٩٤٦ .

التنظيم المالي والانتاجية الاقتصادية لألوية بلاد الشام الجنوبية

في نهاية القرن السادس عشر

الدكتور كمال عبد الفتاح
(جامعة بيرزيت)

هذه الورقة هي شرح سريع لطرق البحث التي استعملت في دراسات مفصلة قام بها الكاتب بالاشتراك مع الاستاذ وولف هوتيروت – من جامعة ايرلانجن بالمانيا الغربية . وقد نشرت نتائج هذه الدراسات مؤخرا في كتاب بعنوان :

« Historical Geography of Palestine Transjordan and Southern Syria in the late 16th century ». E, Eanlerjen 1977.

يعالج البحث الاحصاءات العثمانية من الوثائق المعروفة لدى جميع الزملاء هنا – الدفاتر المفصلة لعام ١٠٠٥ هـ / ١٥٩٦ م ولقد استعملت دفاتر ألوية (سناجق) القدس وغزة واللجون ونابلس وصفد وعجلون وكذلك دفتر حوران . وجميع هذه الدفاتر محفوظة في أرشيف الطابو والكادستر في انقـرة .

ان المشكلة الرئيسية التي تواجه كل باحث في دراسة هذه الاحصائيات هي التالية : أية معلومات سيختار من الكميـات الكبيرة جدا من المعلومات التي تحويها الدفاتر ؟ وبأية طريقة سيجري تحليـل وترتيب وتقييم هذه المعلومات :

١ – هل يأخذ خلاصة عامة ومجاميع للارقام على مستوى اللواء أو الولاية ويقارنها بالولايات الاخرى أو يقارنها مع احصاءات مماثلة من دول أخرى لمعرفة الانتاجية الاقتصادية لتلك الولاية في ذلك الوقت ؟ ان مثل هذه الدراسات العامة المقارنة التي قام بها Barkan مفيدة ولكنها لاتعطينا الا انطباعا عاما فقط ولاتفسح المجال لامكانية تصور سير الحياة الحقيقية في تلك المناطق المدروسة .

٢ – والطريقة الاخرى هي التي تعتمد على الترجمة الحرفية لهـذه الدفاتر ثم التعليق عليها مما يضع القارىء في خضم بحر من المعلومـات غير المنسقة والتي تملأ آلاف الصفحات .

٣ ـ طريقة ثالثة هي اعطاء أمثلة منتقاة (عينـات) للتركيب السكاني أو أنواع الضرائب وأنواع الاقطاعات في منطقة معينة . ولكـن المشكلة هنا كما في كل الحالات التي تؤخذ فيها عينات ـ الى أي مدى تعتبر العينات ممثلة للمجموع ؟

ان معظم الاحصاءات المتوفرة في الدفاتر (السجلات) تختص بالانتاجية المالية للبلاد ـ المدن ـ القرى وقبائل البلاد . وهذا يعني أن الاحصاء الواحد يشتمل على معلومات متماثلة لمنطقة واسعة في وقت معين . وبالطبع فان المؤرخين الاقتصاديين والمهتمين بدراسة التطـور الاقتصادي لمنطقة من المناطق يهمهم ان يحصلوا على معلومات واحصاءات من سنوات مختلفة لنفس المنطقة ليدرسوا تطور امكانياتها الاقتصاديـة ولمثل هذا يلزم الحصول على دفاتر سجلات المنطقة نفسها في فترات مختلفة . وهذه الفرصة ممكنة من خلال دراسة الاحصاءات العثمانية في القرن السادس عشر على الاقل .

وفي كل الاحوال فان المسألة تبقى هي امكانية تقييم هذه الاحصائيات (من سنة واحدة او عدة سنوات) بطريقة لاتضيع فيها التفاصيـل بسبب الاختصار الشديد وبحيث تبقى الصورة العامة واضحة في خضم التفاصيل . وهنا يأتي دور **الجغرافيا التاريخية** بوسائلها وطرقها التي تستعمل فيها الخرائط كحل ملائم . فعلى الخرائط يمكن تمثيل القرى والمدن والجماعات البدوية ـ وعن طريق استعمال رموز مختلفةالاحجام يمكننا ان نعطي تفاصيل عن حجم المستوطنات أو حجم طاقتها الاقتصادية. وباستعمال القطاعات المختلفة والالوان المتعددة يمكن تمثيل ظواهـر متعددة ذات معطيات مختلفة (كمثل تنوع حجم ونوعية الانتاج الاقتصادي) ضمن اطار واحد بحيث ان خريطة واحدة يمكن النظر اليها وفهمها تغني عن عشرات الصفحات بل واحيانا عن مئات الصفحات المكتوبة والملأى بالارقـام .

ولقد ظهر أثناء البحث الفعلي العديد من المشكلات التي كان لابد من حلها . أول هذه المشكلات كان تعيين أسماء المواقع (القرى) المذكورة في السجلات القديمة على الخرائط الحديثة . وبالنسبة لفلسطين فان هناك خرائط طوبوغرافية بمقاييس كبيرة سهلت عملية التعرف على الاماكن هذه . ولقد استعملت خرائط ١ : ١٠٠ر٠٠٠ و : ٥٠ر٠٠٠ والتي تظهر عليها بالاضافة الى أسماء القرى أسماء الخرب والمواقع الاخرى .

وباستعمال هذه الخرائط أمكن التعرف على معظم مواقع هذه القرى سواء ما كان منها مستمر العمران مأهولا أو ماهو خرائب ومواقع مهجورة. (وبالنسبة لفلسطين اعتبر عام ١٩٤٥ هو عام قياس فيما اذا كانت القرية مازالت مأهولة أو مهجورة .. ذلك ان في فلسطين ، وبصورة لم يعرف التاريخ لها مثيلا ، جرى تدمير منظم رافقه محاولة طمس للقرى الفلسطينية حيث دمرت ٣٩٠ قرية عربية تدميرا شاملا بعد تشريد سكانها العرب من قبل الصهاينة) وان العدد القليل من القرى التي لم يتم التعرف بعد على مواقعها يجري الان محاولة استكمال التعرف على مواقعها في دراسات على خرائط ١ : ٢٠٠٠٠ التي يوجد منها مجموعة كاملة للاجزاء الوسطى والشمالية من فلسطين في مدرسة الاثار الفرنسية بالقدس وعن طريق بحوث ميدانية يتيحها عملي في جامعة بيرزيت في فلسطين . وعلى أي حال فان هذه القرى قد أضيفت الى الخارطة ضمن حدود النواحي التي هي فيها . وقد وجد ان اضافة هذه القرى الى الخرائط أمر ضروري لاغراض الدراسة بحيث تعطي الانطباع الفعلي عن كثافة القرى وكثافة السكان والنشاطات الاقتصادية . كما ان وضعها ضمن حدود الناحية يجعل مسألة عدم الدقة في موقعها ذات أثر ضئيل .

ولقد أمكن تحديد حدود النواحي في البدء بصورة تقريبية حيث ان الناحية هي الوحدة الادارية الصغرى المستعملة في الدفاتر (السجلات). وبذلك أمكن عمل خريطة التقسيمات الادارية (خريطة رقم ١) . ولقد وضعت للقرى المعينة مواقعها على الخارطة رموز بشكل دوائر صغيرة سوداء ، أما التي لم تعرف مواقعها فقد وضعت بشكل دوائر صغيرة مفتوحة . ولقد كتبت أسماءالمدن وبعض القرىالرئيسية كتابة بالحروف. أما بقية القرى فقد أشير اليها بالارقام نفسها التي تحملها في السجلات مع وضع حرف P فيحالة كونها في القسم الخاص بالسلطان الـ Padishah وحرف M في حالة كونها في القسم الخاص بامير اللواء Mirliwa و E في حالة كونها في القسم الخاص باصحاب الزعامات والتيمار .

ولقد اشير للقبائل البدوية بمثلثات وضعت ضمن الناحية التي ورد اسم هذه القبائل في سجلاتها . واختير مكان المثلثات على الخارطة

في الامكنة المعتقد انها مشات أو مصايف للقبائل البدوية . وأعطيت هذه المثلثات كما في حالة القرى ، الارقام نفسها التي تظهر في السجلات . ان هذه الطريقة في استعمال الارقام بدل الاسماء على الخارطة رغم انها قد لاتبدو مستحبة لدى بعض القراء فقد املتها مسألة كثرة الاسماء ، على الخارطة بحيث لاتتسع لكل هذه الاسماء لو كتبت خاصة خرائط ذات المقياس ١ : ٤٠٠ر٠٠٠ كما انها تسهل الرجوع الى القوائم المعدة باسماء القرى وللمعلومات الواردة عنها والملحق بالدراسة كما انها تسهل الرجوع اليها في السجلات (الدفاتر) نفسها .

المعلومات المتعلقة بالسكان :

ان المعلومات المتعلقة بالسكان امكن دراستها وترتيب تبويبها بشكلين:

١ ــ على شكل خرائط عامة على مستوى الالوية تري اعداد السكان في كل لواء وتقسيمهم حسب الديانة (خريطة رقم ٤) وكذلك حسب تقسيمهم الى سكان مدن وريفيين وبدو (خريطة رقم ٦) وعلى خريطة بنفس المقياس وضعت أسماء القبائل البدوية في النواحي المذكورة فيها (خريطة رقم ٥) .

٢ ــ بشكل خريطة تفصيلية لكل قرية على حدة أو قبيلة بدوية على حدة (خريطة رقم ١) تمثل الدوائر والمثلثات المختلفة الاحجام فيها تعداد السكان في هذه الوحدات كما أن القطاعات في الدوائر تمثل الاديان .

المعلومات المتعلقة بالشؤون المالية :

لقد نظمت هذه في عدة خرائط فاحداها خريطة مرفقة رقم ٢ تبين الوحدات الدافعة للضرائب (القرى ، القبائل البدوية) ولمن تدفع ضرائبها (للسلطان ، لامير اللواء ، لاصحاب الزعامات والتيمار أو للوقف) ولقد اجملت هذه المعلومات في خارطة عامة (خارطة رقم ١٢) على مستوى اللواء وفي هذه الخارطة تظهر بعض الحقائق . فمعظم العوائد من لواء القدس تدفع للاوقاف وليس للخاص السلطاني هنا الا حصة صغيرة جدا من الضرائب في حين أن معظم القرى في لواء صفد تدفع عوائدها للخاص السلطاني .

أما لواء اللجون فليس فيه للاوقاف حصة بالمرة في حين تذهب معظم العوائد لاصحاب الزعامات والتيمار .

وهناك ملاحظة عامة هي ان عوائد القرى المتجاورة تذهب لاكثر من مستفيد من العوائد (السلطان ، الوقف ، أمير اللواء ، أصحاب الزكاة والتيمار) . كما ان القرى التابعة لصاحب زعامة واحدة ليست بالضرورة متلاصقة بل تكون في الغالب متفرقة ضمن اراضي الناحية أو عدة نواح . وفي (خريطة رقم ١١) نرى هذا التوزيع في لواء اللجون هذا التوزيع الذي كان يقصد به حتما عدم السماح بتكوين مناطق نفوذ متصلة لاصحاب الزعامات هؤلاء .

وفي الخريطة المرفقة رقم ٤ يرى تركز الاوقاف في المناطق المحيطة بالقدس وكيف ان العوائد الموقفة في هذه تذهب بمعظمها للمؤسسات الدينية والتعليمية في القدس والخليل . ان الخريطة رقم ٣ ترينا اختلاف نسبة الضرائب (العوائد) التي يدفعها الفلاح الى الناتج العام من أرضه فهي تتراوح بين السبع ١/٧ ، ١/٥ ، ١/٤ ، ١/٣ ، ٢/٥ ، وان ١/٤ ، ١/٣ هي أكثر النسب شيوعا وان منطقة حوران كلها كانت تدفع الـ ٢/٥ . ان الخريطة رقم ١٠ تحمل رقم ٦ وهي خريطة توزيع السكان بين مدن وريفيين وبدو تظهر لنا ان كلا من أهالي المدن والبدو كانوا يدفعون ضرائب بصورة اقل من الريفيين وان الريف كان يتحمل عبئا أكبر من الضرائب : ٢٤٥ اقجة للعائلة الريفية مقابل ٩٣٫٥ اقجة للعائلة في المدينة .

المعلومات المتعلقة بالاحوال الاقتصادية :

ان أحد الاهداف الرئيسية للدراسة هو عمل خرائط اقتصادية مفصلة ترينا الفعاليات الاقتصادية المختلفة من زراعية وغير زراعية وترينا الانتاجية الاقتصادية في جزء من الامبراطورية العثمانية بصورة مفصلة تماما .

ان مثل هذه الخرائط لاترينا الانتاجية بشكل عام فقط بل وترينا التوزيع الاقليمي للانتاج وانواع الانتاج المختلفة أين هي المناطق التي تختص بأنواع معينة من الانتاج : الزيتون أو القطن مثلا .

١ ــ في هذه المجموعة من الخرائط الاقتصادية لدينا خريطة رقم ٨ التي ترينا العائدات من الرسوم على الاسواق في المدن والمراكز وترينا بشكل عام أي المدن كانت ذات نشاط اقتصادي أكبر فنجد هنا غزة وصفد ونابلس تتصدر المدن الفلسطينية في النشاط التجاري والصناعي .

وترينا (الخريطة رقم ٩) الموانىء والخانات والطرق التجارية والرسوم التي تجبى من كل مكان من هذه الامكنة صورة واضحة للطريق التجاري القديم الـ Via Maris الذي كان يربط الشام بمصر ، كما ترينا بكل وضوح طريق الناصرة القدس .

٢ ــ هناك خريطة بمقياس كبير ١ : ١٦٥ر٠٠٠ (خريطة مرفقة رقم ٥) ترينا لوحتين للانتاج الزراعي في منطقة الدراسة المبينة في كل قرية . ومبين فيها لكل قرية كمية انتاجها وتقسيم هذا الانتاج على أنواع الزراعات المختلفة قمح شعير محصولات صيفية قطن سمسم زيتون كرمة فواكه وكذلك المواشي والنحل .

لقد استغرق عمل هذه الخريطة وقتا طويلا كما انه كان لابد من مواجهة بعض الصعاب التكنيكية وحلها ... ولكن النتيجة كانت ممتازة بحيث أنها أعطتنا خريطة مفصلة تماما وعلى مستوى القرية لمنطقة بلاد الشام الجنوبية كلها .. مبين عليها كميات الانتاج لكل قرية وأنواع هذا الانتاج ، ومن النظرة الاولى لهذه الخارطة نرى الحقائق نفسها التي نعرفها اليوم المناطق الجبلية من فلسطين الوسطى (منطقة نابلس القدس) بانتاجها الكبير من الزيتون ... حوران بانتاجها الكبير من القمح والشعير والمحصولات الصيفية ... نفس الصورة تقريبا لاتزال ترى بعد ٤٠٠ سنة . ان خريطة بمثل هذا التفصيل لمنطقة واسعة تمثل واقعا كان قبل ٤٠٠ سنة لهي مفخرة للادارة التي كانت مسؤولة عن الشؤون المالية في الدولة العثمانية آنذاك . ان الصعاب التي كان لابد من التغلب عليها قبل وضع هذه الخريطة كانت متنوعة فمنها ان ماهو في السجلات انما هو العوائد وليس الانتاج والعوائد مقدرة بالاقجة وهكذا كان لابد من حساب قيمة الانتاج لكل قرية على حدة ولكل محصول على حدة . وذلك بعمرفتنا للضريبة ولنسبة الضريبة من الانتاج العام التي تراوحت كما ذكرنا بين ١/٧ و ٢/٥ ...

وكان لابد هنا من اتخاذ قرار بشأن المزارع والتي هي ليست ضمن القرى والتي وردت في الدفاتر (السجلات) كوحدات انتاج مستقلة ... ولكنها تدفع العوائد على شكل كمية من النقود في الغالب صغيرة ولكنهاغير مقسمة حسب أنواع المحاصيل ... وقد رأينا ان لاوجود للمزارع في خريطة الانتاج الزراعي ذلك لانه لم يكن ممكنا تحديد مواقع كل هذه المزارع . كما ان وضعها على الخارطة حتى ضمن حدود النواحي كان

سيعني اضافة ارقام مواقع جديدة يزيد عددها على عدد القرى بمرة . ونصف المرة وبالتالي تصبح الخريطة مزدحمة اكثر بالارقام والاسماء كما ان معرفتنا لانواع الانتاج في هذه المزارع غير مؤكدة على الرغم من القناعة بان هذه المزارع البعيدة نوعا عن اراضي القرية كانت تزرع في الغالب حبوبا (قمح وشعير) ان عدم التأكد هذا بالاضافة لما قد سبق ذكره من جعل الخريطة تكتظ بالاسماء جعلنا نقرر عدم وضع المزارع هذه على الخارطة غير ان العوائد من المزارع حسبت لوحدها في الخريطة (رقم ١٠) وهي ترينا ان نسبة الدخل من المزارع ليست كبيرة جدا على أي حال (٢٠ — ٢٥ بالمئة من انتاج القرى) .

واني لآمل ان تتاح في المستقبل امكانية لتطوير هذه الدراسة بتعيين مواقع المزارع ايضا . كما ان الامل كبير في ان يتطور هذا الاتجاه في الدراسات للبلاد العربية في العهد العثماني ليشمل مساحات أوسع في سنوات متتالية .

طبيعة السلطة السياسية وتوزعها في دمشق

١٨٦٠ – ١٩٠٨*

فيليب شكري خوري

جامعة هارفارد

توزع السلطة في دمشق عام ١٨٦٠

في شهر تموز الحار من عام ١٨٦٠ اهتزت دمشق من أعمال العنف التي اندلعت فيها . فقد قام رعاع من البدو والدروز والقرى الاخرى المجاورة ، والاغوات الاكراد والقتلة بارتكاب المذابح وأعمال السلب خلال ثمانية أيام في حي باب توما المسيحي القديم . أيام ثمانية سوف يكون لها آثار بليغة على التطورات السياسية في دمشق خلال عدة أجيال

لقد أعطت هذه الحوادث الحكومة العثمانية فرصة لاعادة تأكيد سلطتها على دمشق . فقام فؤاد باشا ، الوزير المصلح الكبير ، الذي كان قد انتهى حديثا من المفاوضات المتعلقة بتسوية مؤقتة للحرب الاهلية في جبل لبنان ، باللحاق بالوالي العثماني المعين حديثا في دمشق ، يدعمه أربعة آلاف من الجنود(١) . وكان فؤاد يعرف جيدا مايجب انيعمل . فلكي يحول دون التدخل الفرنسي باسم « العالم المسيحي الشرقي » أوجد تسوية من شأنها أن ترضي الجماعة المسيحية التي هبطت معنوياتها وان توزع المسؤولية بصورة عادلة وسريعة . فمن جهة قام بتشكيل لجنة مؤلفة من كبار الدمشقيين ، من مسلمين ومسيحيين ، لتقدير التعويضات عن الخسائر الكبيرة التي ألحقت بسكان باب توما . ومن جهة أخرى قام بسجن ونفي وشنق عشرات الوجهاء المسلمين والموظفين لتقصيرهم في منع حمام الدم .

كان أعضاء اللجنة المسيحيون يشكلون قوة ضغط كبيرة تحت حماية فؤاد باشا ونجحوا في الحصول على تعويضات وافية لانفسهم ولزبائنهم . فبوشر في اعادة البناء فورا في باب توما ، وتم تشجيع السكان على العودة(٢) . الا ان الآلاف من الذين خرجوا على عجلة ينشدون السلامة في جبل لبنان وبيروت لم يقتنعوا بان الجو في دمشق كان مناسبا للعودة . وكما هو متوقع ، فقد استغل الاعضاء المسيحيون في اللجنة

---

* قام بترجمة هذا البحث الى العربية الدكتور زهير السمهوري .

مركزهم لتحويل قسم كبير من التعويضات المخصصة الى عائلاتهم القريبة. وعلى اي حال فقد كان المسيحيون بصورة عامة راضين عن كرم فؤاد باشا ، ذلك الكرم الناجم عن افراغ جيوب الدمشقيين المسلمين الموسرين.

وفي نهاية آب كانت مهمة توزيع العقوبات قد انتهت . وكانت قائمة الذين تم نفيهم أو اعدامهم تتضمن اعيان المدينة . وكان معظم كبار الشخصيات السياسية الذين تعرضوا لسخط فؤاد باشا من أعضاء المجلس . وقد كانت هذه الهيئة قد سببت للحكومة العثمانية الكثير من المتاعب خلال السنوات العشرين السابقة ، وذلك من جراء مقاومتها العنيدة لسلسلة من الاصلاحات العلمانية التي سنتها القسطنطينية والتي كانت مخالفة لمعتقدات أعضائها ومصالحهم . ومع ذلك فقد حرص فؤاد باشا على عدم ارسال البارزين منهم في المجلس الى حبل المشنقة(٤) . فالنفي كان يثير ردود فعل أخف من الاعدام ، ومع ذلك فقد ساعد على تغيير توازن القوى في دمشق بحيث تحول من أعيان المجلس القدامى لصالح السلطات العثمانية .

ولقد القى المسيحيون الذين شاهدوا حوادث تموز وآب ، والذين ارخوا لها بعد بضع سنوات ، باللوم على زعماء المجتمع الاسلامي لتقصيرهم بالقيام بواجبهم التقليدي القاضي بحماية الاقلية المسيحية وفقا لمقتضيات الشريعة . لذا فقد استحقوا العقوبات التي انزلت بهم على ذلك التقصير(٥). لقد كتب هؤلاء المؤرخون بعد مرور الحوادث ، وبالرجوع بذاكرتهم الى الماضي ، وبعد ان تحسنت العلاقات بين المسلمين والمسيحيين من جراء الضغط الخارجي الوارد من القسطنطينية ، فلم يروا شيئا عجيبا في مساوىء المسلمين للدفاع عن المسيحيين ضد المسلمين .

وهنالك رواية اخرى ، تختلف تماما من حيث نقاط التركيز عن الروايات المسيحية ، كتبها احد افراد العائلات الاسلامية الوجيهة . كان ابو السعود الحسيبي شابا في المدينة عام ١٨٦٠ ، وهو من سلالة اسرة غنية تقول بانها تنتسب الى الرسول . ولقد كتب بعد الحوادث بثمانية اعوام فكان اهتمامه منصبا على موقف وجهاء دمشق المحليين أكثر من اهتمامه برواية فصول المذبحة نفسها . فقد انطلق الحسيبي من أن كبار وجهاء دمشق صدموا وجزعوا من جراء مذبحة باب توما ، ولكن لايمكن اعتبارهم مسؤولين عن الاعمال القبيحة التي ارتكبها الرعاع ، حيث انهم لم « يستشاروا أو يحاطوا علما » وقت اندلاع الحوادث .

ومضى يدافع عن سمو المحاولة التي جرت للسيطرة على الحوادث بعد ان علم بها الناس ، وان كان يعترف ان الوجهاء اخفقوا الى حد كبير في مساعيهم(٦) . والنقطة الهامة هناهي انه تبين ان وجهاء دمشق الذين كان يعتقد انهم ابرز قوة اجتماعية سياسية في المدينة كانوا غير قادرين على السيطرة على الموقف .

كان ابو السعود الحسيبي يعتبر ان وجهاء دمشق أو « أهل العرض » هم الذين ينتمون الى كبار الاسر الدينية في ذلك الوقت . الا انه استثنى بعض الشخصيات من أصل قائمة طويلة من الاعيان الزمنيين واعتبرهم من « اهل العرض » منهم مثلا أقاربه من آل الركابي وهم من التجار الملاكين الموسرين الذين ينحدرون من أصول بدوية كريمة ، وآل العظم وهم من سلالة حكام دمشق الاقوياء من القرن الثامن عشر(٧) . وبذل الحسيبي جهدا كبيرا لتبرئة وجهائه من كل مسؤولية او ذنب ازاء مذبحة ١٨٦٠ وانحى باللوم الشديد على الفئات الاخرى التي عملت على اركاع دمشق امام السلطات العثمانية . وكانت هذه الفئات بنظر الحسيبي تتألف من التجار والباعة والزعماء العسكريين المحليين والمهاجرين الاكراد والحورانيين الجدد الذين كانوا يقطنون في حي الصالحية وحي الميدان(٨) .

ان في اقتصار الحسيبي على حصر « أهل العرض » في وجهاء دمشق الدينيين وفي بضع عائلات مدنية بارزة واستبعاده لمعظم الوجهاء المدنيين ورؤساء الحاميات المحلية لما يدل على انه يرى انه كان لهذه الجماعات المتميزة من « أهل العرض » قواعد تستمد منها سلطتها غير تلك القائمة على المركز الديني والاجتماعي . وفي الواقع ، ان استخدام عبارة «الوجهاء» كمفهوم سياسي قبل حوادث ١٨٦٠ يمكن ان يكون مضللا فهذه العبارة تجمع العلماء بما فيهم الاشراف (من نسل الرسول) والوجهاء المدنيين (من تجار ومزارعين) واغوات (رؤساء) الحاميات المحلية ضمن فئة واحدة وتفترض انها تشكل وحدة سياسية محددة وان لم تكن متجانسة(٩) . ومع ذلك فان القليل المعروف عن صورة السلطة الدمشقية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر يظهر لنا منطقتين للسلطة السياسية : واحدة خارجية متمثلة بالدولة العثمانية واخرى داخلية تتشكل من الجماعات المحلية ذات النفوذ الاجتماعي والسياسي المستقل في المجتمع ، ثم ان هذه الجماعات المحلية لم يكن لها بالضرورة قواعد متشابهة للسلطة او

حتى أنماط متشابهة للسلوك السياسي . فهي لم تكن تشكل في مجموعها وحدة سياسية متميزة ذات ايديولوجية موحدة . بل كانت منظمة بشكل غير رسمي وكانت موزعة وفق خطوط عائلية واقتصادية ــ اجتماعية ، وتتمركز في مختلف أحياء المدينة حيث كانت سلطتها المستقلة تبرز بقوة . وهكذا فقبل ١٨٦٠ يفضل الحديث عن التوزع الداخلي للسلطة في دمشق من حيث وجود ثلاث جماعات : اثنتان منهما متميزتان اجتماعيا ، لكل منهما نفوذ في المدينة والمنطقة الخلفية ، والثالثة أقل تميزا وتتشابك وتتداخل مع الجماعتين الاوليين .

كانت الجماعة الاولى تتألف من « الوجهاء » كما عرفهم الحسيبي ، اي العلماء بما فيهم الاشراف وبضعة من سواد الناس المتميزين الذين كانوا يسيطرون على المراكز العليا في الادارة المحلية . وكانت الجماعة الثانية تضم آغوات الحاميات المحلية وكانت موزعة بالدرجة الاولى في الاحياء المحيطة للمدينة التي تقل فيها درجة التجانس الاجتماعي . وقد لعبت بعض هذه الجماعات أدوارا نشيطة في تجارة الحبوب والماشية في دمشق . وكانت الجماعة الثالثة المتوسطة تتألف من المزارعين غير المثقفين ومن تجار المدينة الداخلية ممن لم يتبؤوا بعد المراكز العالية في الادارة المحلية . هذه الجماعات الثلاث كانت تتميز عن بعضها حتى ثلاثينات القرن التاسع عشر . الا انه بعد ١٨٣٠ ، وبصورة خاصة بعد ١٨٤٠ ، حدث اندماج اجتماعي تدريجي بنتيجة الاحتلال المصري والاصلاح العثماني وتتجير الاقتصاد المحلي .

بعد اعادة تثبيت السيطرة العثمانية على دمشق في ١٨٤١ ، أخذ العديد من الوجهاء المدنيين يتنافسون على المراكز في كل من البيروقراطية المحلية والامبراطورية . ثم استخدموا مراكزهم لبناء قاعدة موارد مادية في القطاع التجاري للاقتصاد . ومن خلال هذه العملية ازدادت قوتهم السياسية . وقد تجلى وصولهم الى المراكز والسلطة في كونهم اصبحوا يصاهرون الاسر الوجيهة الكبيرة .

كذلك أتيحت الفرصة ، بعد ١٨٤٠ ، لقادة الحاميات المحلية أن يعلوا من شأنهم ومركزهم . فبالرغم من ان الاغوات أخذوا يفقدون قاعدة سلطتهم التقليدية وذلك بعد ان قامت السلطة المركزية العثمانية التي استعادت قوتها بحل الحاميات ، فقد ترك لهم منفذان يتمكنون من خلالهما من المحافظة على نفوذهم المستقل وتوسيعه ضمن احيائهم .

فقد نجح الاغوات من خلال سيطرتهم على تجارة الحبوب والماشية في التخندق في قطاع الاقتصاد التجاري وفي اختراق الطبقات الوسطى للبيروقراطية المحلية الآخذة في التوسع . واستطاع بعضهم الوصول الى مراتب الوجهاء المدنيين ضمن احيائهم ووسعوا نفوذهم الاجتماعي والسياسي في المدينة من خلال التزاوج من الاسر المحلية ذات النفوذ . وفي ١٨٦٠ كان الاغوات التجار والبيروقراطيون من الطبقات الوسطى قد اكتسبوا نفوذا لدى سواد الناس بحيث انهم برهنوا خلال الحوادث التي جرت في تلك السنة انهم قوة ضبط اجتماعي اكثر فعالية من قوة الوجهاء المثقفين والمدنيين من ذوي المقام الرفيع .

وبين ١٨٦٠ و ١٩٠٨ برزت قيادة سياسية ذات تركيب جديد . ولكي نفهم كيف نشأت هذه القيادة ولماذا ، لابد من وصف تشكيلة السلطة في دمشق عشية تموز ١٨٦٠ بمزيد من التفاصيل .

الوجهاء الدينيون :

كان الوجهاء الدمشقيون ، حتى اندلاع حوادث ١٨٦٠ ، ينحدرون بصورة رئيسية من الاسر التي كانت تسيطر على المراكز الدينية الرئيسية في المدينة . وقد برزت أسر العلم تلك والتي كانمعظمها يقول بانتسابه الى الرسول في القرنين السابع عشر والثامن عشر لتشكل قلب « أهل العرض » الذين تحدث عنهم الحسيبي عام ١٨٦٠ ، وكان افراد هذه الاسر يتنافسون خلال اكثر من مائة وخمسين سنة على أهم المراكز الدينية في دمشق مثل مراكز : خطيب الجامع الاموي والمفتي الحنفي ونقيب الاشراف ، وكانت قدرة السيطرة على هذه المراكز واوقافها المرتبطة بها تجسد مركز كل أسرة في سلم المدينة الاجتماعي(١٠) .

كان « العلماء » المحليون في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر يعتمدون على المكائد العصبية في القسطنطينية لتأمين مراكزهم ومن ثم الاحتفاظ بها اكثر من الزعماء المدنيين والعسكريين المحليين . وبينما كان استقلال الجماعتين الاخيرتين عن القسطنطينية في ازدياد مستمر خلال القرن الثامن عشر فان كبار « العلماء » الدمشقيين كانوا لايستطيعون المحافظة على مراكزهم الا من خلال نصير قوي يرعاهم في العاصمة الامبراطورية(١١) .

كان التنافس على مركزي الخطيب ومفتي الاحناف شديدا بصورة خاصة . فقد كان خطيب الجامع الاموي صلة وصل هامة بين الحكومة الامبراطورية والزعامة المحلية ، الامر الذي كان يعطي صاحب ذلك المركز نفوذا سياسيا ودينيا كبيرا(١٢) . فقد استخدم تاج الدين المحاسني ، وهو تاجر موسر له اهتمام بالمسائل الدينية، منزلته الاجتماعية ليحظى بسمع شيخ الاسلام في القسطنطينية(١٣) . وفي ١٦٥٠ كان اثنان من ابنائه يشغلون منصب خطيبين للجامع الاموي وكان من جراء هذه الروابط مع القسطنطينية خلال القسم الاكبر من القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر أن بقي المنصب محصورا في آل المحاسني(١٤) . ولكن آل المحاسني تعرضوا عام ١٨٦٠ لمنافسة أسرة اخرى لها صلات قوية بالقسطنطينية ، وبعدوفاة خليل المحاسني في ١٨٦٩ آل المنصب الى عائلة الخطيب(١٥) .

وكان منصب مفتي الاحناف شديد الحساسية بالنسبة للقسطنطينية . فحتى القرن الثامن عشر كان حوالي نصف العلماء الدمشقيين يتبعون المذهب الشافعي في حين ان المذهب العثماني الرسمي كان المذهب الحنفي(١٦) . وكانت عائلة العمادي في القرن السابع عشر هي التي تسيطر على منصب مفتي الاحناف ولكنها تعرضت في القرن الثامن عشر لمنافسة قادمين جدد الى دمشق وهم آل المرادي الذين يعود أصلهم الى سمرقند وكانوا ينتمون الى الطريقة الصوفية النقشبندية . وكانوا قد وصلوا الى دمشق في عام ١٦٨٥ بعد أن أقاموا بضع سنوات في القسطنطينية حيث أقاموا علاقات مع وزراء أقوياء ومع السلطان(١٧) . وقد تمكن آل المرادي بفضل هذه العلاقات من الحصول على قرى قرب دمشق على شكل مالكانات . وفي منتصف القرن الثامن عشر استخدموا مزيدا من الصلات ليحلوا مكان آل العمادي لشغل منصب المفتي(١٨) . واحتفظ آل المرادي بهذا المنصب حتى نهاية القرن حين انتزعته منهم عائلة حمزة ، على انهم استمروا في شغل مناصب قضائية وادارية هامة ضمن المؤسسات الدينية خلال القرن التاسع عشر(١٩) .

وكان أكثر المناصب اعتبارا ، وان لم يكن أكثرها نفوذا من الناحية السياسية ، والذي يمكن ان يصل اليه زعيم ديني محلي هو منصب نقيب الاشراف . وقد تناوب على شغل هذا المنصب خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر عائلتا حمزة والعجلاني(٢٠) . وكانت كلتا العائلتين

تطالبان بشغل المنصب بالاستناد الى بينات تاريخية تجمعت عبر عدة قرون . وقد حصل آل العجلاني على مالكانات في أوائل القرن الثامن عشر(٢١) واستخدموا مصدر الثروة ذلك في القرن التاسع عشر لتحدي آل حمزة ونجحوا في ذلك(٢٢) . على ان آل حمزة كانوا متعددي البراعات، فكانوا كلما فشلوا في تعيين أحد أفراد عائلتهم في منصب النقيب ينجحون بالرجوع الى شغل منصب مفتي الاحناف .

وبالرغم من ان القسطنطينية لم تجد من الضرورة ان تفرض مرشحها الخاص لمنصب النقيب ، وربما كان ذلك لان هذا المنصب لاينطوي على سلطة مستقلة يمكن ان تهدد مركز القسطنطينية ، فان كلا من آل حمزة وآل العجلاني وجدوا من المناسب ان يتحولوا من المذهب الشافعي الى المذهب الحنفي في القرن الثامن عشر تحسبا من أي تدخل عثماني محتمل(٢٣) .

واخذت العائلات الدينية البارزة في الفترة الطويلة التي أدت الى حوادث ١٨٦٠ تنفصل تدريجيا عن الاتجاهات المحلية وانحازت الى السلطة العثمانية . وتحول معظمها من المذهب الشافعي الى المذهب الحنفي وأخذت تعتمد على النفوذ في القسطنطينية بقدر ماتعتمد على جيوب الدعم المستقل في دمشق من أجل الوصول الى المراكز العليا . وتلفت المصادر الانتباه الى ان الطرق الصوفية الرئيسية في المدينة (القادرية والنقشبندية والخلواتية) كانت تعمل في معظم الاحيان برئاسة شيوخ من اسر العلم تلك(٢٤) . وقد يتوقع ان تكون زعامة هذه الطرق قد أدت الى شيء من النفوذ المستقل لموازاة الضغوط العثمانية . الا ان الدلائل القليلة المتوفرة تشير الى شدة تمسك الطرق الكبرى والطرق الفرعية بتدينهاوالى نشاطها السياسي المكبوت . ويبدو ان الوجهاء الدينيين كانوا يسيطرون على تلك الطرق لمجرد الحصول على ورقة رابحة في المنافسة التي كانت تجري بين العلماء للوصول الى النصير الذي يحميهم ويرعاهم في القسطنطينية .

يبدو ان الطبقات العليا من الوجهاء الدينيين كانت شديدة الثراء . وقبل ان تنال كثير من العائلات المناصب العالية فانها كانت تتمتع بالعطف الامبراطوري الذي كا نيمنحها المالكانات في ضواحي دمشق . واقترن حصول هذه العائلات على المراكز العليا بفرصة ادارة الارباح الناجمة عن

الاوقاف الخيرية . ثم انه بما ان العلماء الدمشقيين لم يكونوا يشكلوا فئة رسمية فقد كانت عائلاتهم تميل لان تغرس جذورها في الاقتصاد المحلي وبقيت سيطرتهم على بعض أنواع التجارة التقليدية في المدينة قوية .

لم يكن الوجهاء الدينيون يشكلون فئة مغلقة بأي حال . فقد كان الكثيرون يدخلون ويخرجون . ومن المحتمل ان القادمين الجدد كانوا يلقون الاستهجان ، لكنهم كانوا يستطيعون خلال بضعة أجيال الحصول على عضوية كاملة ضمن منتدى العلماء ولعل أفضل مثال على كيفية ارتقاء أسرة ما الى قمة المؤسسة الدينية المحلية هو أسرة الحسيبي . ففي أواخر القرن السابع عشر جاء رجل يدعى العطار من قريته الكائنة في جنوب حمص واستوطن في دمشق . وبعد ثلاثة أجيال كان بعض أفراد الاسرة قد دخلوا المهن العلمية ، وان كان لايوجد مايدل على ان الافراد الاخرين قد تخلوا عن صنعتهم . وفي الجيل الرابع شرع علي العطار (١٧٤٢ — ١٨٢٧) ، الذي كان قد اشتهر كرجل علم وقضاء ، في اثبات انحدار أسرته الاصيل من سلالة الرسول . وقام حتى بتغيير اسمه الى الحسيب(٢٥) . وقام ابنه أحمد (١٧٩٢ — ١٨٧٦) بمتابعة طموح ابيه بالحصول على أراض قرب دمشق على شكل منح من الحكومة العثمانية(٢٦) ثم اصبح عضوا في المجلس مما جعله يشعر بضرورة نقل منزله من حي العقيبة الشعبي الى حي القنوات الارستقراطي(٢٧) . وفي عام ١٨٦٠ كان أحمد الحسيبي قد أصبح واحدا من الاشراف الموسرين في دمشق ووجيها من كبار وجهاء المدينة الداخلية وزعيما لحيه .

استطاع كبار علماء دمشق بصورة عامة ان يتكيفوا بمهارة مع الضغوط العثمانية الجديدة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . فمع انهم كانوا قوة هامة في المجتمع المحلي من خلال سيطرتهم على المؤسسات الدينية والنظامين القضائي والتربوي والاوقاف الخيرية الا انهم اصبحوا أيضا أكثر ارتباطا بالقسطنطينية(٢٨) على انهم بعد أن أصبحوا أكثر « عالمية »(٢٩) أخذوا يفقدون موقعهم التقليدي في الزعامة المستقلة ازاء السكان المسلمين المحليين .

كان الاحتلال المصري الذي جرى في ثلاثينات القرن التاسع عشر الصدمة الاولى التي هزت رجال الدين الدمشقيين . فقد أدخل ابراهيم باشا ، نيابة عن محمد علي ، اصلاحات جذرية(٣٠) اذ قام بعلمنة النظام

القضائي لدرجة جعلت العلماء المسلمين يعتبرون عمله هجوما صريحا على الشريعة . وقد وضعت الاوقاف أيضا تحت اشراف الحكومة المباشر ، الامر الذي جعل الزعماء الدينيين يعانون من الضيق المادي . ثم انهم لم يمثلوا بشكل كاف في مجلس الشورى الذي انشىء في المدينة . واخيرا فقد شاهدوا ازدياد المساواة بالنسبة للاقليات الدينية بالاضافة الى فتح مدينتهم « المقدسة » والمحافظة اجتماعيا أمام التأثيرات الاوروبية(٣١) وعندما أخذ جنود محمد علي ينسحبون من دمشق في ١٨٤٠ ابتهج العلماء كثيرا دون أن يدروا ان أوروبا ، وليس القسطنطينية ، هي التي فرضت الجلاء .

اقترنت عودة العثمانيين الى دمشق ببرنامج من التنظيمات . ورغم ان أحد أهداف التنظيمات الاساسية كان فرض مركزية الادارة في القسطنطينية فقد كان الولاة المرسلون من العاصمة لحكم الولايات مقيدين بقيود فرضتها الحكومة المركزية على سلطتهم لدرجة انهم اضطروا الى التحالف مع الفئات الاقليمية لكي يتمكنوا من ممارسة أية سلطة . وكان من المفروض أن تسن التنظيمات من قبل الوالي من خلال مجلس محلي جديد . وخول المجلس سلطات « فرض الضرائب والرسوم الجمركية والاشراف على جمعها وتسجيل وتنظيم عمليات بيع الاراضي والموافقة على تعيينات صغار الموظفين ، والاشراف على تجنيد الشرطة والحكم في الدعاوى المدنية »(٣٢) كذلك كان أعضاء المجلس يستطيعون زيادة ثرواتهم الخاصة وثروات عائلاتهم من خلال منح انفسهم مالكانات حول دمشق(٣٣). فبهذه السلطات عاد الوجهاء لتبوء مكانتهم السابقة .

ولقد عارض المجلس الكثير من الاصلاحات العلمانية التي أصدرتها القسطنطينية ، وخصوصا تلك التي تمنح الاقليات المساواة مع المسلمين ، واستخدم سلطاته الادارية للوقوف في وجه تلك التي تتعارض مع مصالحه. على انه قام بالفعل بتنفيذ بعض الاصلاحات غير المرغوب بها وذلك من أجل تدعيم موقفه ازاء القسطنطينية ، الامر الذي تصادف ان أدى الى تحسين أوضاع الاعضاء المالية . فكان هنالك برنامج للتجنيد الالزامي طبق على عامة الناس في حين ان العلماء والوجهاء المدنيين كانوا يحصلون على اعفاءات من أجل أبنائهم وأقاربهم(٣٤) ثم ان أعباء الضرائب لم تكن موزعة بصورة عادلة ، حيث كانت تفرض بصورة رئيسية على العمال في المدينة والفلاحين في الريف(٣٥) . وكان العلماء قد ضحوا ببعض نفوذهم المستقل

في المدينة قبل الاحتلال المصري . فمثل تلك الاصلاحات المكروهة أدت الى مجرد توسيع الهوة بين الزعامة التقليدية للمدينة وعامة الشعب في دمشق وحولهـا .

ولنعد الان الى ملاحظات الحسيبي المتعلقة بعجز « أهل العرض » عن السيطرة على اندلاع العنف في تموز ١٨٦٠ . هنالك عاملان مترابطان بارزان . الاول هو ان الزعامة التقليدية في المدينة قد حولت في محاولتها لتدعيم مركزها السياسي من خلال السيطرة على المجلس الجديد ، التحامها بعامة الشعب الى التحام بالقسطنطينية والثاني هو ان عـدم التحامها هذا مع الجماهير أوجد فراغا سياسيا أدى الى نشوء زعماء جـدد .

الوجهاء المدنيون :

في القرن الثامن عشر ، وبينما أصبحت الزعامة الدينية التقليدية لمدينة دمشق أكثر ارتباطا بالقسطنطينية ، استفادت العائلات الاخـرى في المدينة من ضعف المركزية الامبراطورية لتوطيد مراكزها كحكام اقليميين وكانت أسرة العظم أبرز عائلة تحقق لنفسها سلطة سياسية مستقلـة هامة في دمشـق .

توجه ابراهيم العظم وهو وجيه ريفي ربما كان من أصل تركي ، الى معرة النعمان وهي مركز تجاري هام للبدو بين حلب وحماه ، لاعادة النظام فيها وذلك في منتصف القرن السابع عشر . ورغم انه قتل فان ابنيه اسماعيل وسليمان أتما مهمة والدهما وكوفئا بمالكانات في حمص وحماه والمعرة . وقد استخدما ثروتهما الجديدة وعلاقاتهما الهامة مع وكيل عثماني فتمكنا من الحصول على منصب حاكم ولاية دمشق على التوالي في القرن الثامن عشر . استقر آل العظم في كل من حماة ودمشق وتمكنا من خلال المناصب العليا من زيادة ثروتهم واستقلالهم عن القسطنطينية(٣٦) وكذلك قاموا بشراء أملاك واسعة في المدن امنت للعائلة ولفروعها المختلفة، بالاضافة الى مالكاناتهم ، بحبوحة مالية خلال عدة أجيال(٣٧) وكرمز لثروتهم وسلطتهم بنى آل العظم المدارس والمقاهي والعديد من القصـور الباذخة في دمشق(٣٨) . وبعد وفاة الوالي محمد باشا من أسرة العظم في ١٧٨٣ أفل نجم العائلة السياسي قليلا ، رغم انها مابرحت أهم عائلـة وجيهة في دمشق . وكان آل العظم من الاسر القليلة التي لم تشتهر

بالعلم والتي ضمها المجلس بين عامي ١٨٤١ و ١٨٦٠ ، فكانوا من جملة من اسماهم الحسيبي بـ « أهل العرض »(٣٩) .

كذلك ظهر في القرن الثامن عشر عدد من الاسر التي لم تكن من أهل العلم والتي كانت تتألف من مزارعين وتجار أثرياء من داخل المدينة . وكانت سلطتها تأتي من اقتصاد ولاية دمشق ، ولم تكن ، أو لم تكن الا نادرا ، تستند الى أصحاب المراتب العليا للبيروقراطية المحلية .

فرضت القسطنطينية في القرن السابع عشر طريقة جديدة لجمع العائدات وهو نظام الالتزام(٤٠) . ففي ذلك القرن حصل عدد كبير من التجار الدمشقيين الموسرين بالاضافة الى بعض الاسر الدينية الوجيهة على مالكانات . ولم يكن حصولهم على تلك المالكانات دليلا على أي حظوة امبراطورية اذ انها كانت تباع بالمزاد العلني . وكانت المزادات تجري في أول الامر كل سنة ، غير ان الحكومة العثمانية التي كانت تعاني من الضيق المالي المتزايد اضطرت لتمديد فترة الالتزام السنوي الى مالكانات تمتد طيلة العمر . وهكذا أصبح أصحاب المالكانات مستقلين عن القسطنطينية . ومن خلال سيطرتهم على الفائض الزراعي والمزارعين والاسواق التي كان الفائض يباع فيها أصبح أصحاب المالكانات فئة قوية في دمشق والمناطق الداخلية .

ومع ان الوجهاء الدينيين حصلوا أيضا على الالتزامات والمالكانات فان الوجهاء المدنيين كانوا يختلفون عنهم سياسيا واجتماعيا . وفي حين ان طبقة العلماء العليا أصبحت أكثر ارتباطا بالقسطنطينية من أجل المناصب الدينية والسياسية فان الوجهاء المدنيين كانوا بصورة عامة لايحتلون المراكز العليا في ادارة دمشق بل أوجدوا جيوبا محلية من السلطة السياسية ازاء سلطة مركزية أصابها الضعف . ويبدو ان الوجهاء الدينيين لم يرحبوا ، اجتماعيا ، بالاندماج الواسع مع العائلات العلمانية الغنية في المدينة وان كانت عملية دمج تدريجي قد بدأت تأخذ مجراها .

وبتأثير الاحتلال المصري (١٨٣١ ــ ١٨٤٠) وما تلاه من اعادة تنشيط السلطة العثمانية (١٨٤١ ــ ١٨٦٠) لم يعد باستطاعة هؤلاء الوجهاء المدنيين أن يدافعوا عن استقلالهم المحلي ازاء قوى المركزية فأخذوا يتطلعون الى المراكز الادارية في البيروقراطية الموسعة من أجل

حماية قاعدة مواردهم المادية وتوزيعها . وتم دمج العائلات القليلة من بين فئة الوجهاء المدنيين ممن حصلوا على المراكز الحكومية العليا ضمن « اهل العرض »(٤١) لكنه كان مقدرا لفئة اكبر من عائلات الوجهاء المدنيين ان تتسرب الى صفوف « اهل العرض » في عام ١٨٦٠ .

الاغـــوات :

كانت الياورلية (الحاميات المحلية لابواب المدينة) الكائنة في الاحياء الشعبية الواقعة في ضواحي دمشق تشكل مصدرا آخـر للقوة المستقلة . وقد بقي هؤلاء خلال القرن السابع عشر بعيدين عن الحياة المحلية وكانوا يتلقون اوامرهم مباشرة من القسطنطينية . الا انهم اسكنوا مع الزمن في دمشق على أساس دائم واصبحوا مرتبطين بصـورة وثيقة ببعض أحياء المدينة(٤٢) . وكان الاغوات الياورلية يجندون الاعوان من احيائهم السكنية واصبحت العضوية في الكتيبة شيئا وراثيا(٤٣) . وفي القرن الثامن عشر كانت هذه الحاميات قد أصبحت قوات عسكرية محلية لها وسائلها المستقلة من اجل العمل السياسي(٤٤) . ويرى المؤرخون وكتاب السير المعاصرون ان الياورلية كانوا يحكمون دمشق كلما كانت تحت السيطرة المحلية . واذا كان في هذا الرأي شيء من المبالغة فيظهر انهم كانوا يحكمون بالفعل احياءهم على الاقل(٤٥) .

كان حي الميدان معقل الياورلية . وهو عبارة عن ضاحية طويلة ممتدة جنوبا باتجاه حوران . وكان فيه ضواح فرعية عديدة يقطن فيها الفلاحون الحورانيون والدروز ورجال القبائل من البدو ، والحرفيون النصارى وكبار تجار الحبوب والمواشي . كذلك كان هنالك حاميات في حي الشاغور الواقع في شمال شرقي الميدان وفي الصالحية وهي ضاحية تقع في شمال المدينة(٤٦) . وبالنظر لقلة المعلومات فانه لايمكن ان نعرف الا القليل عن قدرات الاغوات على التحريك السياسي في الاحياء . وترى المصادر انه من المحتمل ان يكون الاغوات قد تسربوا الى الطرق الصوفية ونقابات التجار والحرفيين لكن مدى الدعم الذي كانوا يستمدونه منهم يبقى أمرا غامضا . ففي الميدان أصبح بعض الاغوات حماة لنقابات التجار وخصوصا لنقابة تجار الحبوب . وليس عجيبا ان نجد الاغوات يدخلون في المهنة في نهاية القرن الثامن عشر . ويبدو ان عبد الله آغا سكر قد استخدم بنجاح زعامته لحامية محلية لكي يصبح من اكبر تجار القمح في الميدان في

هذه الفترة(٤٧) . وفي أوائل القرن التاسع عشر كان أغوات آخرون من الميدان يدخلون في المهنة ويحصلون على المالكانات(٤٨) .

ولقد عبر الكتاب المحليون من الوجهاء الدينيين ممن كانوا يكتبون في القرن الثامن عشر في كثير من الاحيان عن احتقارهم للاغوات والقوى الاخرى مثل الاكراد و « طغمة » الاحياء الشعبية الذين اوجدوا حالة من عدم الاستقرار في المدينة(٤٩) ففي هذه الفترة كانت المدينة تنتفخ طوبوغرافيا وديموغرافيا وذلك من جراء سيل مستمر من البدو والفلاحين القادمين من حوران ومن رجال القبائل الاكراد القادمين من شرق الاناضول . فعدم الاستقرار والامن في القرية الناجم عن أعمال النهب التي كان يقوم بها البدو وعن المجاعة ادى الى اقتلاع اعداد كبيرة من الفلاحين الحورانيين ودفعهم الى طلب الامان الموجود في دمشق(٥٠) وكان الميدان أحد المناطق القليلة التي يستطيع أن يستقر بها هؤلاء الفلاحون . فقد كان يقع في جهة دمشق المؤدية الى حوران ، حيث لم يكن قد توطد النظام النقابي الذي كان لايقبل الدخلاء في الاحياء القديمة العريقة(٥١) . وانخرط المهاجرون في أعمال الزراعة وبحثوا عن الحماية حيثما توفرت . وبما ان آغوات الحاميات المحلية كانوا يفرسون جذورهم في الميدان في ذلك الوقت وكانوا يبحثون عن أعوان فقد قدموا لهم الحماية التي كانوا ينشدونها . وفي ضاحية الصالحية ذات الكثافة السكانية القليلة والواقعة شمال غربي دمشق كانت تجري عملية مماثلة . فقد جاء مهاجرون أكراد لم يستطيعوا النفوذ الى المدينة القديمة واقاموا بيوتهم هناك(٥٢) . وانتحل زعماؤهم لقب آغا واقاموا قوات شبه عسكرية مؤلفة من رجال قبائلهم . ويمكن أن يفهم الغضب وربما الخوف المتولدين لدى زعماء المدينة التقليديين عندما جوبهوا بهذه القوى الجديدة عندما ندرك ان هؤلاء الحماة القدامى لم يستطيعوا ان يجدوا أي دعم سياسي لدى نسبة متزايدة من سكان المدينة .

في النصف الاول من القرن التاسع عشر تحولت القاعدة المستقلة لسلطة الاغوات من جراء سلسلة من العوامل . فأولا أصبح الآغوات يسيطرون على تجارة الحبوب والمواشي في الميدان وغيره من الاحياء ويحصلون على الالتزامات أو المالكانات في حوران(٥٣) . وشكلوا ثانيا ، من خلال التزاوج مع آغوات آخرين من عائلات الوجهاء المحليين أسرا ذات نفوذ قوي في أحيائهم الخاصة بهم(٥٤) . وأخيرا فان هذه الحركة باتجاه

الاندماج في الاحياء الواقعة في أطراف المدينة وجدت مايشجعها في عملية اعادة تنشيط السلطة المركزية العثمانية . ورغم ان استقلال الحاميات المحلية أوقف تدريجيا بنتيجة اصلاح الادارة العسكرية فقد فتحت أبواب العمل في الجيش والبيروقراطية المحلية وقوات الشرطة أمام كل من الآغوات وأعوانهم(٥٥) .

وبين عامي ١٨٠٠ و ١٨٦٠ استغل الاغوات تطورين اقتصاديين ليصبحوا جزءا من طبقة الوجهاء العلمانيين . فقد حصل الاغوات عن طريق المنح أو الاستغلال المالي السافر على أراض واسعة في حوران وسيطروا على الفلاحين هناك . وتمكنوا من خلال هذه العملية من العثور على سلاح قوي ، وهو قدرتهم على السيطرة على تموين دمشق بالقمح وتحديد أسعار هذا القمح . وفي هذه الاثناء كانت الصناعات التقليدية التي عرفت بها المدينة القديمة تتعرض لضربات قاسية من جراء تدفق البضائع المصنوعة في أوروبا . ولقد كانت الصناعات اليدوية الدمشقية خلال أجيال تحت سيطرة فئة قوية من تجار المدينة الداخلية والمرابين الذين كانت لهم أعمال تجارية واسعة داخلية وخارجية بعيدة . ومع ذبول هذه الصناعات التفت الكثيرون من التجار المرابين الى المحاصيل الزراعية والمالكانات لجني الارباح منها . وحذا حذوهم بعض الاغوات واستطاعوا اعلاء شأنهم الاجتماعي بسرعة في دمشق عن طريق اقامة علاقات مالية وتقوية هذه العلاقات في بعض الاحيان من خلال مصاهرة تجار المدينة الداخلية . وفي عام ١٨٦٠ كان عدد من بيوت الاغوات في الميدان والشاغور والصالحية قد وطدوا سمعتهم كوجهاء في أحيائهم . وكان بعضهم قد حصل على مناصب ادارية محلية بالاضافة الى سيطرتهم في الوقت نفسه على شبكة من العلاقات المالية . ثم انهم نجحوا في الجمع بين كلا المصدرين لتوسيع شبكات زبائنهم . ومع كل ذلك فقد كان عليهم ان يحصلوا على المكانة الاجتماعية التي يتمتع بها أهل العرض أو على موافقتهم .

لقد انبثقت أزمة ١٨٦٠ جزئيامن الاضطرابات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان التي جرت خلال السنتين السابقتين(٥٦) ، على انه يمكن تتبع جذورها ابان الاحتلال المصري لسورية . فقد فتحت مخططات محمد علي الهادفة الى تحقيق المركزية في الدولة وتحديثها الابواب أمام

النفوذ الاوروبي السياسي والاقتصادي وأعطت الاقليات مزيدا من المساواة مع المسلمين « واستنزفت مصادر » القوة العسكرية المحلية واهم من ذلك ، اضعفت القاعدة السياسية المستقلة التي يستمد العلماء منها قوتهم(٥٧) . ومع عودة العثمانيين في عام ١٨٤١ ، أعطي العلماء المحليون والوجهاء المدنيون نصيبا اكبر في الادارة المحلية لكنهم أجبروا على الارتباط بصورة أوثق بالقسطنطينية . ورغم ان هؤلاء الاعيان استخدموا مركزهم في المجلس من أجل الدفاع عن الكثير من مصالحهم الشخصية وتدعيمها الا انهم لم يستطيعوا الوقوف في وجه مجموعة من الاصلاحات الهامة التي أعطت الاقليات مزيدا من المساواة مع المسلمين . فقد اعطي زعماء الاقليات مراكز في سلطة الادارة المحلية تضمنت مقاعد في المجلس ، فأخذت جماعاتهم تشعر بمزيد من الاطمئنان النفسي ... كذلك أخذوا يقيمون العلاقات مع القناصل والتجار الاوروبيين ويحصلون على حمايتهم . وكان التأثير الاقتصادي لاوروبا في ازدياد خلال العشرين سنة التي سبقت حوادث ١٨٦٠ ، وجنى الكثيرون من المسيحيين واليهود ثروة كبيرة من جراء عملهم كوكلاء للمصالح الاوروبية .

وقد شعر المسلمون الدمشقيون من جميع « الطبقات » بالاستياء الشديد ازاء هذه التطورات . وقد يكون الانفجار العنيف الذي حدث في تموز ١٨٦٠ قد أشعله بعض العلماء المستائين المرتبطين بالجماعات المناوئة للتنظيمات في استمبول والتي شجعت مشاعر الهياج ضد المسيحيين تعبيرا عن معارضتها(٥٨) . ومن المؤكد ان الرعاع كانوا يضمون بعض الحرفيين العاطلين عن العمل بسبب انهزام الحرف المحلية اقتصاديا أمام البضائع الاوروبية ، فقاموا بصب غضبهم على المسيحيين المحليين الذين كان عامة الناس يقرنونهم بالمصالح الاوروبية(٥٩) . ومع ان الاضطرابات قد تكون راقت لبعض الزعماء التقليديين الا انه يبدو انه من غير المحتمل ان يكونوا ، كجماعة ، قد حرضوا على أعمال العنف(٦٠) . وفي الواقع فان زعماء المجلس عندما علموا بالفتنة بين الدروز والمسيحيين قاموا باطفاء الانوار في احيائهم وأسواقهم لتثبيط همة القائمين بأعمال الشغب(٦١) . وعندما اندلعت أعمال العنف بذلوا جهودا من أجل كبت العناصر المشاكسة في احيائهم ، ولكن دون جدوى . وكان فشلهم في منع اندلاع أعمال العنف أو السيطرة عليها مؤشرا لفقدانهم التدريجي للنفوذ الاجتماعي المستقل في المدينة .

ويمكن مقارنة فشل الزعماء التقليديين في السيطرة على احيائهم في المدينة الداخلية مع ماجرى في الميدان ، فعندما وصلت أخبار أعمال العنف الى الميدان هرعت العصابات الى مكان الحوادث . ولكنهم حين علمت أن زعماء أحيائها من أمثال سليم آغا وصالح آغا المهايني وعمر آغا العابد وسعيد اغا نوري كانوا يحمون نصارى باب مصلى في منتصف الميدان عادت هذه العصابات وقامت بمساعدة زعمائها(٦٢) ففي عام ١٨٦٠ كان حي الميدان(٦٣) وغيره من الاحياء الواقعة خارج المدينة يؤيد زعماء يختلفون اجتماعيا عن الزعماء التقليديين في المدينة الداخلية ، الا انهم كانوا يستطيعون منافستهم من حيث مقدرتهم على القيام ببسط حمايتهم وتولي رئاسة أحيائهم .

قام فؤاد باشا بفرض الاحكام على عناصر من مختلف فئات الشعب ، وان كان صب جام غضبه على الاعيان الدينيين والمدنيين للمجلس كفئة خاصة . فقد حكم على هؤلاء الزعماء اما لتشجيعهم أعمال العنف في باب توما أو لعدم قدرتهم على السيطرة على الموقف من أول الامر . على انه كان هناك أسباب أعمق لقسوة العثمانيين . فبعد أن وجد العلماء على ما يبدو ان الكثير من مصالحهم تتحقق من خلال ولائهم للدولة ، فقد استخدموا جهاز الدولة عمليا من أجل أغراضهم الخاصة في الوقت عارضوا فيه من حيث الاساس معظم الاصلاحات العلمانية الصادرة من القسطنطينية . وكان هؤلاء الزعماء محافظين ونزاعين الى الشك وذوي رؤيا محدودة ، لذلك فانهم لم يفهموا طبيعة الجهود العثمانية الرامية الى فرض المركزية في الامبراطورية واعادة توحيدها ولم يقدروا مدى الضغوط الاوروبية التي مورست على الدولة من أجل التعجيل بتنفيذ هذه العمليات . ثم انهم أخطؤوا في تقدير قوتهم بالنسبة للسلطة المركزية العثمانية . فقد كانوا يفترضون بكبرياء انهم الزعماء « الطبيعيون » الوحيدون للمدينة ، لذا فقد كيفوا جهاز الدولة وفقا لرغباتهم في الوقت الذي كانوا يفقدون قاعدتهم التقليدية من الاسفل . لذا فانهم في آب ١٨٦٠ لم يفهموا لماذا عاقبتهم القسطنطينية ولماذا أظهر لهم عامة الشعب « عدم الاحترام »(٦٤) .

وقد اتخذت عقوبة الزعماء التقليديين بصورة عامة شكل النفي بدلا من الاعدام . وكان النفي مؤقتا فقط كما ان المصالح الاقتصادية لم تمس . وقد تعرض الجاه الاجتماعي لهزة عنيفة لكن الضرر لم يكن الى

حد لايمكن اصلاحه فيه ، طالما انه تم الاعتراف بدرسين : الحاجة الى الانضواء التام تحت لواء الدولة العثمانية والحاجة الى الاعتراف بزعماء من غير « أهل العرض » وضمهم الى صفوف الصفوة السياسية المحلية المختارة .

اعادة تشكيل الزعامة السياسية الدمشقية ١٨٦٠ ـ ١٩٠٨ :

كانت أولى نتائج حوادث عام ١٨٦٠ ان الزعامة السياسية خرجت منها ضعيفة . وادى عنصران آخران هما ظهور ملكية الارض الخاصة وزيادة مركزية الاقليم وتحديثه خلال السنوات الاربعين التالية الى تشجيع توحيد واعادة تركيب القوى السياسية في المدينة . وعند مطلع القرن العشرين كانت صفوة سياسية واجتماعية مختارة جديدة قد برزت في دمشق .

تطور الملكية الخاصة للارض :

خلال النصف الاول للقرن التاسع عشر بدأ الاقتصاد السوري يشعر بوطأة **التتجير** . فالاضطرابات التي أصابت الاقتصاد المديني والناجمة عن منافسة البضائع المصنوعة الاوروبية ، أدت الى تنشيط التتجير الزراعي الذي أدى بدوره الى تنشيط عملية اقتناء الارض .

كان نظام الارض في وادي البقاع وفي غوطة دمشق يسيطر عليه بصورة رئيسية عناصر من الزعماء الدينيين وجماعة من الوجهاء المدنيين الذين كانوا تجارا ومزارعين من المدينة الداخلية(٦٥) . وكان بعضهم قد استخدموا مراكزهم في المجلس لتوسيع أراضيهم عن طريق بيع المالكانات لانفسهم ولعائلاتهم بطريق المزاد العلني . كذلك ظهرت فئة أخرى من التجار المرابين الذين أثروا حديثا من جراء قوى التتجير والذين أصبحوا يملكون الاراضي من خلال استغلال رؤوس الاموال الموظفة في أعمال الربا في تلك المناطق وفي حزام الحبوب الكائن في حوران . كان هؤلاء التجار المرابون آغوات في الاحياء الواقعة خارج المدينة أو من صغار الوجهاء ، واستطاعوا أن يسيطروا على حوران وانضموا الى كبار الوجهاء والمزارعين الاقوياء في البقاع والغوطة . وفي خمسينات القرن التاسع عشر كانت بعض العائلات قد بدأت تثبت حقوق ملكيتها لاراضي تلك المناطق الثلاث .

وأدت حرب القرم وما تلاها (١٨٥٤ ـ ١٨٥٩) الى التتجير السريع

للمناطق المنتجة للقمح في انحاء سورية . وادت سلسلة من المواسم الجيدة و « تعليق شحن الحبوب الى رفع الاسعار كثيرا في الغرب مما جعل حبوب سورية ولبنان في وضع رائج مؤقتا »(٦٦) . واستفاد أصحاب المالكانات والتجار المرابون السوريون من ازدياد الطلب على الحبوب لتحويل أراضيهم التي كانوا يشغلونها الى ملكيات صرفة .

ولقد دفع الاقبال على شغل الاراضي الخاصة الواسعة في سورية وفي أنحاء امبراطورية الحكومة العثمانية لسن قانون جديد للاراضي عام ١٨٥٨ . غير أن أثر قانون الارض لم يصل الى ولاية دمشق حتى بعد حوادث ١٨٦٠ . وكان قانون الارض ذاك يهدف الى تشجيع الفلاحين على تسجيل الاراضي الميري التي تملكها الدولة باسمائهم وذلك لمنع أية وساطة بين الدولة والمزارع من السيطرة على قوى الانتاج على حساب كليهما(٦٧) . على ان قانون الارض الذي كان الهدف منه تأمين مصدر ثابت من العائدات للدولة ولترجيح كفة القوى في الولاية باتجاه الحكومة المركزية فشل فشلا هو من سخرية الاقدار . فالطريقة التي فسر فيها هذا القانون وطبق مكنت هؤلاء الوسطاء الذين عملت القسطنطينية على اضعافهم من ان ينطلقوا في عملية اقتناء الاراضي على منوال واسع . على انه رغم ان كفة القوى في الولاية رجحت باتجاه القسطنطينية بعد عام ١٨٦٠ فقد اتضح ان قانون الارض عقبة تعترض سبيل العملية بدلا من أن تكون عاملا مساعدا لها .

كان قانون الارض لعام ١٨٥٨ مبنيا على مقدمتين خاطئتين : الاولى ان الفلاحين سيكونون راغبين فيتسجيل أرضهم وسوف يستطيعون بعد ذلك الاحتفاظ بها ، والثانية هي ان ادارة الدفتر خانة (سجل الاراضي) ستتم بصورة فعالة ونزيهة(٦٨) . غير ان نظام تسجيل الاراضي المبني على سندات الملكية ورسوم التسجيل والاحصاء اثار فزع الفلاحين منذ البداية . فقد ظنوا انه أنشىء لتسهيل عملية جني الضرائب والخدمة العسكرية فتركوا الفوائد المرجوة من النظام وسجلوا أراضيهم بأسماء أفراد الاسرة المتوفين وكبار زعماء المدينة والوجهاء الريفيين . فاستطاع عدد من الاسر الدمشقية القوية ، من خلال تقديم الوعود للفلاحين بحمايتهم من تدخل الدولة ان يحصلوا على حقوق شرعية في مساحات كبيرة من الارض(٦٩) وحتى عندما كان الفلاحون يرغبون فعلا بتسجيل أراضيهم

بأسمائهم فقد كانت رسوم التسجيل المطلوبة باهظة لدرجة تمنعهم من ذلك . فعندما كانوا لايستطيعون دفع الرسم كانت أراضيهم تدرج في المزاد العلني من قبل المجلس المحلي أو مجلس الولاية الذي كان بوسع أعضائه تدبير عمليات المزاودة او انهم كانوا ببساطة يزاودون على جميع المشتركين الاخرين في المزاد(٧٠) . كذلك كانت الاراضي تعود الى مزادات يقيمها المجلس بسبب مختلف المخالفات المرتكبة لقانون الارض(٧١). وكان من أكثر المخالفات الشائعة تقصير الفلاح في زراعة أراضيه خلال ثلاث سنوات متعاقبة ، وكان ذلك يجري بسبب عجزه عن شراء البذور أو الادوات . وفي مثل تلك الحالة كان يتم فرض غرامة على شكل ضريبة اضافية على الارض أو على شكل رسم تسجيل ، واذا لم يكن الفلاح يستطيع ان يفلح قطعة أرضه فانه لم يكن يستطيع أيضا دفع الغرامة وبالتالي كان يفقد أرضه التي كان ينتزعها المزاد منه .

وهكذا فان الغاية الحقيقية التي جعلت الحكومة العثمانية تسن قانون الارض لعام ١٨٥٨ تحولت بحيث انها سهلت عملية تراكم الارض في أيدي بضع عائلات دمشقية غنية وأعطت لهذه العملية الصفة القانونية. ومع مطلع القرن العشرين كانت فئة قوية من العائلات التي تملك مساحات كبيرة من الارض قد برزت في ساحة السياسة الدمشقية . وكان الكثير منها عائلات حديثة النعمة صعدت السلم الاجتماعي بعد ١٨٦٠ . وحصل معظمها على الارض من خلال مراكزها في الادارة المحلية ومن خلال الربا الذي كان يمارس في المناطق الداخلية . وقد فتحت ثروتهم الجديدة الابواب في الدوائر السياسية المحلية وفي القسطنطينية لشبكات اوسع من السابقة من المناصب البيروقراطية لانفسهم ولاقاربهم ولزبائنهم . كذلك تراكمت الاراضي من جراء المنح التي كان يعطيها السلطان ومن خلال امتداد الزعامة ضمن الريف ، كذلك فقد أخذوا يشترون العقارات في المدينة . ودخلت بعض الاسر في مجال المشاريع الصناعية المحلية ، رغم ان معظم الثروات التي جنيت حديثا كانت تستخدم في الاستهلاك الظاهر .

على انه لم يكن أصحاب الاراضي الواسعة في دمشق كلهم من حديثي النعمة . فقد قامت بعض كبار الاسر قبل عام ١٨٦٠ بتحويل مالكاناتها الى ملكيات صرفة في الوقت الذي كانت تحتفظ به بالسيطرة

على الاوقاف الخيرية . وأصبح القدماء منهم الذين نجحوا في المحافظة على قوتهم السياسية يعتمدون على قاعدة مواردهم المادية أكثر من اعتمادهم على نسبهم الاجتماعي . وأصبحت القوة السياسية من ١٨٦٠ حتى ١٩٠٨ في أيدي الوجهاء من غير رجال الدين أكثر من قبل وأصبحت منزلة بعض العائلات الجديدة المالكة للاراضي تضاهي منزلة أي من كبار رجال الدين في السلم الاجتماعي .

وكانت الاسر التقليدية التي اشتهرت بالعلم تؤلف أقلية ضمن الزعامة التي جاءت بعد عام ١٨٦٠ . وقد أدت كراهية كثير من العائلات التي ينتمي اليها العلماء للتنظيمات الى حجب نفسها في شبكاتها الدينية التقليدية بينما كانت العلمنة تضعف من مقام الدين والمنصب كقاعدة للقوة . واذ فهمت الحكومة المركزية معارضة العلماء الغريزية للاصلاح فقد التفتت الى فئات أخرى لتقوم بتنفيذ سياستها في الولاية . وكانت العائلات الدينية التي حافظت على مراكزها بعد عام ١٨٦٠ تملك مساحات واسعة من الارض وكانت تشغل مناصب علمانية ودينية . وقد قبلت خلافا للعائلات الاخرى التي اشتهرت بالعلم ، بالتسويات والحلول الوسط وقامت بتنويع أعمالها وذلك في سبيل الاحتفاظ بمراكزها العليا .

تحديث الادارة ومركزتها :

قبل عام ١٨٦٠ كان العلماء يحتكرون النظام التربوي الاسلامي . الا انه جرى في أوائل ستينات القرن التاسع عشر تأسيس مدارس ثانوية رسمية (رشدية) في دمشق(٧٢) . وقد بقيت الشبكة التقليدية لمدارس المسلمين (من مكاتب ومدارس) الدعامة الاساسية للتربية لدى المسلمين؛ الا ان عددا متزايدا من أبناء الصفوة المختارة من المسلمين كانوا يرسلون الى مدارس علمانية جديدة . وقد أثار ذلك العلماء الذين استولوا على ادارة الرشدية رغم انهم لم يستطيعوا ان يفرضوا عليها منهاجا دينيا كاملا . كما ان المعلمين لم يعودوا كلهم من الشيوخ . واخذ البيروقراطيون من أصحاب الاراضي يرسلون أبناءهم الى القسطنطينية لينالوا تعليما علمانيا أو عسكريا من شأنه ان يؤمن لهم مناصب عالية في بيروقراطية الجيش المركزية(٧٣) . كان تعليم الادارة العامة والقانون العلماني والعلوم العسكرية يتم باللغة التركية على حساب العلوم الاسلامية التقليدية . وفي الحقيقة ، بعد ان فقد كبار العلماء احتكارهم

للتعليم تكيف من كان منهم بعيد النظر مع الظروف المتغيرة مع الزمن واخذوا يرسلون ابناءهم الى القسطنطينية(٧٤) .

بعد عام ١٨٦٠ اخذت المدارس التبشيرية المسيحية تؤثر تأثيرا قويا على دمشق . وكانت هذه المدارس تقوم بصورة اساسية بتعليم ابناء الاقليات الدينية في المدينة ، لكن مع الزمن دخل اليها بعض ابناء كبار العائلات الاسلامية(٧٥) . وكان طلاب هذه المدارس ينالون تعليماثانوياسليما كان يتضمن العلوم الحديثة واللغات الاوروبية وقد مكنهم ذلك من شغل مناصب فنية حساسة في ادارة الولاية ومن توسيع صلاتهم المالية مع التجار واصحاب المعامل الاوروبيين ، ومن الحصول على مراكز هامة في القنصليات الاوروبية . كذلك اسهم تعليم المدارس التبشيرية في احياء اللغة العربية ، ورغم طبيعة هذه المدارس الطائفية ، فقد أوجدت جوا ثقافيا له مسحة علمانية في دمشق(٧٦) .

كذلك كان النظام القضائي تحت سيطرة الزعماء الدينيين منذ القدم. الا انه بعد ١٨٥٠ تم تشكيل محاكم صلح ومحاكم استئناف ، بالاضافة الى المحاكم الشرعية ، يراسها قضاة مسيحيون ويهود ومسلمون(٧٧) كذلك شكلت محاكم مختلطة فيها عدد متساو من القضاة الاجانب والمحليين للنظر في الدعاوى الجزائية والتجارية بين الاجانب والرعايا العثمانيين . وهكذا فقد العلماء احتكارهم للنظام القضائي(٧٨) . ولم يكن عجيبا ان بعض كبار العلماء أخذوا يشجعون ابناءهم على الدخول في مدارس علمانية في القسطنطينية لدراسة الحقوق والادارة المحلية من أجل الحصول على موطىء قدم في النظام القضائي العلماني الصاعد .

استمر رؤساء كبار العائلات الدينية في احتكار منصبي الاحناف ونقيب الاشراف(٧٩) رغم ان المنصبين لم يعد لهما نفس الوزن السياسي بعد ١٨٦٠ . ففي ذلك الوقت أصبحت المقاعد في المجالس الادارية للولاية واللواء تضفي قوة سياسية على شكل القوة المحلية أكثر من المناصب الدينية العليا . فبين ١٨٧٠ و ١٩٠٨ لم يشغل أحد العلماء الدمشقيين مقعدا انتخابيا في مجلس الولاية ولم يكن يوجد الا عدد قليل منهم ضمن مجلس اللواء في الفترة نفسها(٨٠) . وكان كبار العلماء المنتخبين لعضوية مجلس اللواء أو مجلس البلدية بعد ١٨٧٠ يميلون لان يكونوا من العائلات المالكة لاراض واسعة .

وبقي رجال الدين في دمشق مسيطرين على ادارة الاوقاف الخيرية ، على انه بعد ١٨٦٠ دخل وجهاء مدنيون في عضوية مجلس الاوقاف(٨١) . ثم انه مع بدء تزايد سكان دمشق السريع ، بعد تناقص ملحوظ بين ١٨٢٠ و ١٨٦٠(٨٢) كان لابد من توزيع عائدات الاوقاف الخيرية على عدد أكبر من السكان ، الامر الذي أدى الى تخفيض دخل الهيئة الدينية . ومع استمرار عملية امتلاك الاراضي ، أخذت بعض العائلات التي لم تشتهر بالعلم ترصد الاوقاف العائلية من أجل حماية أسرها من احتمال المصادرة من قبل الدولة . وقد أصبح بعض الزعماء الدينيين بالفعل أوصياء (نظار) على هذه الاوقاف العائلية ، لكن عميد الاسرة كان هو الذي توكل اليه هذه المهمة(٨٣) .

رغم ان المعاهد العلمانية التي ظهرت طغت على قوة المعاهد الدينيةفي دمشق في الثلث الاخير من القرن التاسع عشر ، الا ان المنافسة علىالمراكز الدينية كانت على أشدها . وفي عام ١٨٦٠ كان عشر من الاسر الكبرى البالغ عددها ست عشرة والتي اشتهرت بالعلم لاتزال تحتل المراكز الدينية العليا . لكن كان عليها ان تتزاحم من أجل المراكز والنفوذ مع خمس وعشرين عائلة أخرى على الاقل(٨٤) . وبما ان عدد المناصبالدينية لم يكن كبيرا بنسبة العائلات التي اشتهرت بالعلم والتي كانت تتنافس على تلك المناصب فقد وجد الكثيرون من الشخصيات الدينية انه لابد لهم من السعي للحصول على عمل خارج المؤسسات الدينية(٨٥) . وكان أحد السبل اختيار المؤسسات العلمانية .

الاسر الدينية في الزعامة السياسية التي أعيد تشكيلها :

بعد ان كانت عائلات العجلاني والغزي والكيلاني والحسيبي من « أهل العرض » فقد اختلطت مع ملاكي الاراضي العلمانيين لتشكل نخبة أهل السياسة في دمشق . وكانت عائلة الجزائري والتي قدمت حديثا الى دمشق ، العائلة الوحيدة منأسر العلم التي حصلت على أراض واسعة بعد ١٨٦٠ . ورغم ان هذه العائلات الخمس لم تكن العائلات الوحيدة التي اشتهرت بالعلم والتي امتلكت الاراضي فانها امتلكت اكثر الاراضي بين الارستقراطية الدينية .

جاء آل العجلاني ، وهم من الاشراف المنحدرين من الفاطميين ، الى دمشق قادمين من مكة ، ربمافي القرن الخامس عشر . وفي القرنين الثامن

عشر والتاسع عشر اشتركوا في منصب نقيب الاشراف مع آل حمزة . حيث شغلوا هذا المنصب خمس مرات على الاقل بين ١٧٧٩ و ١٧٩٨(٨٦). وكان ابرز شخصية من آل العجلاني في النصف الثاني من القرن التاسع عشر هو الشيخ أحمد دزويش . فقد كان نقيبا في ١٨٦٠ وكان من كبار الوجهاء الذين نفاهم فؤاد باشا(٨٧) . لكنه عاد الى دمشق بعد ان غادرها فؤاد بفترة قصيرة وعاد الى شغل مركز النقيب حيث بقي يشغله حتى وفاته عام ١٨٩٨ وذلك بالاضافة الى عدد من المناصب الاخرى . وفي ١٨٧١ انتخب عضوا في مجلس الالتماس العائد للولاية(٨٨) ، وفي ١٨٧٦ انتخب عضوا في المجلس التأسيسي الذي لم يطل أمده في القسطنطينية(٨٩). كذلك شغل منصب شيخ المشايخ ، أو راعي النظام النقابي في دمشق رغم ان هذا المنصب استحال في أوائل ثمانينات القرن التاسع عشر الى مجرد « دفعة »(٩٠) . وشغل محمد ، ابن الشيخ أحمد ، مناصب في كل من المحاكم العلمانية والدينية حيث أصبح قاضيا في محكمة الاستئناف وفي المحكمة الشرعية في أوائل التسعينات(٩١) وفي ١٩١١ انتخب محمد عضوا في مجلس النواب في القسطنطينية(٩٢) ولدى موته في السنة نفسها تولى ابن عمه عطا الله زعامة أسرة العجلاني(٩٣) .

حصل آل العجلاني على مالكانات في الغوطة ودوما في أوائل القرن الثامن عشر وربما تحولت هذه المالكانات الى أملاك خاصة بعد ١٨٦٠(٩٤) . وكان جزء من هذه الاراضي موقوفا للاسرة(٩٥) . وبالاضافة الى ذلك فقد كان أعضاء الاسرة كثيرا ما يشغلون وظيفة مدراء لاوقاف خيرية اخرى وكان بيت آل العجلاني يقع في حي العمارة في دمشق حيث كانت تقطن كثير من الاسر الدينية وذلك بسبب قربه من الجامع الاموي(٩٦) وقد عملت المنزلة الاجتماعية وملكية الاراضي والمناصب الادارية على جعل آل العجلاني من كبار العائلات السياسية في دمشق .

وجاء آل الغزي ، وهم عائلة دينية قديمة ، الى دمشق من فلسطين في القرن الخامس عشر(٩٧) . وسرعان ما اصبحوا يشغلون منصب مفتي الشافعيين واحتكروا هذا المنصب حتى القرن العشرين . وقد نفي الشيخ عمر الغزي مفتي الشافعية لاشتراكه في حوادث ١٨٦٠ . ورغم ان العائلة فقدت هذا المنصب الديني العالي مؤقتا فانها تمكنت من استرجاعه فيما بعد(٩٨) . وفي هذه الاثناء بقي أفراد الاسرة الاخرون يشغلون مناصب دينية وعلمانية هامة خلال أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن

العشرين . وكان عبد الرحمن الغزي من زعماء المجلس البلدي في أوائل سبعينات القرن التاسع عشر وكان عضوا في لجنة الاشغال العامة وعضوا في الغرفة الزراعية في ثمانينات القرن التاسع عشر(٩٩) . وبين ١٨٧٨ و١٨٩٣ كان الشيخ حسين الغزي حاكما رئيسيا في المحاكم الشرعية وفي ١٨٩٤ اصبح قاضيا (١٠٠) . وكان اخوه اسماعيل قاضيا في المحكمة التجارية المختلطة عام ١٨٨٤ وعضوا في المجلس البلدي في أوائل تسعينات القرن التاسع عشر(١٠١) وكان صالح الغزي حاكما في المحكمة الشرعية في الوقت الذي كان فيه شيخا للطريقة الصوفية القادرية في نهاية القرن(١٠٢) . وكان آل الغزي قبل آل العجلاني يقطنون في حي العمارة ويديرون الاوقاف الخيرية ويبدو انهم حصلوا على مالكانات في منطقة دوما وسجلوها كملكية خاصة بعد عام ١٨٦٠ .

وكان آل الكيلاني من أسرة الاشراف وكانوا يدعون بانهم من سلالة عبد القادر الجيلاني (١٠٧٨ – ١١٦٦ ميلادي) وهو الزاهد الشهير الذي أسس الطريقة القادرية . وقد انتشرت هذه العائلة في أنحاء الهلال الخصيب حيث أقامت فروعها الرئيسية في بغداد وحماة ودمشق(١٠٣) بعد وجودهم في حماة في أوائل القرن السادس عشر كان آل الكيلاني في القرن التالي قد حصلوا على مالكانات هناك . وكانوا يجمعون الضرائب بلا هوادة أو رحمة فتم طرد قسم منهم خارج حماة بنتيجة تمرد العامة فذهبوا واستقروا في دمشق(١٠٤) . وفي القرن الثامن عشر شغل اثنان من آل الكيلاني منصب نقيب الاشراف ، رغم انهم أخرجوا من عملية المنافسة على المنصب في نهاية القرن(١٠٥) . وكان سعيد الكيلاني ، وهو ابن حاكم مساعد في المحكمة الشرعية ، عضوا بارزا في المجلس عام ١٨٦٠ . وقد نفي وبقية أعضائه(١٠٦) . غير انه عاد الى دمشق واستعاد مركزه في الادارة المحلية . وفي أوائل سبعينات القرن التاسع عشر أصبح رئيسا للبلدية وبقي في هذا المنصب سنوات عديدة(١٠٧) كذلك استطاع أن يضع أبناءه الاربعة في مراكز عالية في البيروقراطية المحلية ، فقد كان عطا الله عضوا في لجنة الاشغال العامة وعضوا في الغرفة الزراعية ومجلس التعليم . وكان عبد اللطيف عضوا في مجلس الشعب الاداري . وورث شريف مقعد والده في المجلس البلدي وعمل قاضيا في محكمة الصلح . وأصبح ابراهيم حاكما في المحكمة التجارية(١٠٨) واخيرا فقد كان ابن عمهم فارس وجيها غنيا يعمل في المشاريع الزراعية والتجارية وكان أحد

مؤسسي مشروع الخط الحجازي(١٠٩) . كان آل الكيلاني غير عاديين كاسرة علم حيث انهم بعد ١٨٦٠ لم يبدوا اهتماما ظاهرا بالمناصب الدينية بل ركزوا جهودهم على المناصب في الادارة المدنيـــة .

لم يعثر على معلومات محددة حول الوقت أو الكيفية التي حصل فيها آل الكيلاني على الاراضي ، الا انه من المحتمل ان جد سعيد ، محمد (توفي في ١٨٢١) ، حصل على مالكانات في منطقة دوما من خلال مركزه في الديوان المحلي(١١٠) . ومن المحتمل أن يكون سعيد قد أضاف لهذه المالكانات فيما بعد ،حين كان عضوا في المجلس . ثم سجلت ملكية هذه الاراضي بعد ١٨٦٠ . وكان مقر آل الكيلاني في الملك الظاهر .

استطاع آل الحسيبي ، كما ذكرنا آنفا ، أن يجمعوا بين الثروة والمركز في ١٨٦٠(١١٢) وفي تلك السنة جرى نفي أحمد الحسيبي وهو عضو في المجلس وزعيم القنوات(١١٣) . أما ابنه ابو السعود فقد جنب ذلك وأصبح عضوا بارزا في المجلس البلدي بين أواخر سبعينات القرن التاسع عشر و ١٩٠٠(١١٤) . وقد انتخب في أوائل الثمانينات نائبـــا لرئيس غرفتي الزراعة والتجارة وفي ١٨٩٨ توجت حياته الاجتماعية حين انتخب نقيبا للاشراف بعد ان كان هذا المنصب بيد آل العجلاني(١١٥) .

حصل آل الحسيبي على أراضيهم الواقعة في قطنا والجديدة عندما منحت الحكومة العثمانية هذه الاراضي لاحمد وذلك قبل ١٨٦٠(١١٦) . وبعد ١٨٦٠ تم تسجيل هذه الاراضي من قبل العائلة ثم يغلب الظن انها توسعت خلال الفترة الباقية من القرن التاسع عشر .

كان آل الجزائري ، الذين يدعون بانهم منسوبون للرسول ، آخر الاضافات الى الوجهاء الدينيين الدمشقيين . وقد أصبح الامير عبد القادر ، رأس الاسرة مجاهدا مرموقا من جراء مقاومته للاحتلال الفرنسي في الجزائر في ثلاثينات وأربعينات القرن التاسع عشر . وعندما أجبر على الاستسلام في ١٨٤٨ انتقل الى باريس والقسطنطينية واخيرا جاء ليستقر في حي العمارة في دمشق في ١٨٥٤ واحضر معه أتباعـــا مسلحين من الجزائر(١١٧) . وكانت العائلة تحصل على مساعدات من الفرنسيين حيث كان ذلك شرطا للاستسلام وكذلك كانت تحصل على منح كبيرة من السلطان(١١٨) . وخلال حوادث ١٨٦٠ توطدت سمعة عبد القادر في العالم الاسلامي وفي أوروبا من جراء حمايته لمسيحيي باب

توما(١١٩) . وكان الامير وذريته يعتبرون انفسهم ارقى اجتماعيا من الوجهاء المحليين بالاضافة الى كونهم وافدين ، لذا فانهم لم يهتموا بالادارة المحلية(١٢٠) . وبدلا من ذلك فقد ركزوا اهتمامهم على المكائد السياسية في باريس والقسطنطينية . على انهم وجدوا متسعا من الوقت للاهتمام بالعلوم الاسلامية والصوفية ولكي يحولوا المعونات التي كانوا يحصلون عليها الى املاك واسعة في فلسطين والقنيطرة وحوران . وقاموا باسكان رجال قبائل جزائريين في املاكهم واحتفظوا باتباع مسلحين في دمشق(١٢١) . وهكذا فقد كان آل الجزائري يعيشون على هامش السياسة ، لكنهم كانوا يشتركون في بعض الاحيان ، بما لديهم من ثروة ومرافقين مسلحين بالاقتتال الحربي ، خصوصا بعد اندلاع الحرب العالمية الاولى .

في الثلث الاخير من القرن التاسع عشر تمكن آل العجلاني والغزي والكيلاني والحسيبي من تعزيز نفوذهم في دمشق في حين تضاءلت اهمية اهل العلم من امثال آل العطار وحمزة والمحاسني والاسطواني والمرادي(١٢٢) وقد تميز هؤلاء بالثروة الكبيرة المتمركزة في المساحات الواسعة من الاراضي التي كانت تحت تصرفهم وبالاهتمام والقدرة البالغين على الحصول على المراكز في المؤسسات المدنية وذلك منذ ان أعادت العمليتان المزدوجتان ، وهما عملية المركزة والتحديث وعملية التتجير ، تحديد طبيعة القوة « الحقيقية » في المجتمع الدمشقي .

وفي هذه الفترة التفتت بعض العائلات الاخرى من أهل العلم مثل آل البكري والايوبي والمالكي والحلبي والعمري والميداني ، وجميعهم من أصحاب النسب لكنهم بصورة عامة من الذين لم ينجحوا في المنافسة على أعلى المراكز الدينية ، الى البيروقراطية المدنية وامتلاك الاراضي او أعمال التعهدات وذلك من أجل زيادة قوتهم المحلية(١٢٣) وبهذا أصبحوا أعضاء رسميين ضمن الصفوة السياسية . وفي عام ١٩٠٠ رغم ان معظم هذه العائلات كانت لاتزال تستمد منزلتها الاجتماعية من كونها اشتهرت بالعلم ، الا انه يمكن تصنيفها مع الفئة البيروقراطية المالكة للاراضي بحيث لم تعد جزءا من الوجهاء الدينيين . وقد أصبحت عائلة البكري أهم تلك العائلات قاطبة .

كان آل البكري من الاشراف القدامى ولم يبرزوا في مجال السياسة الا في أواخر القرن التاسع عشر ، وقد بدأ عطا الله البكري حياته

العملية قاضيا في محكمة الاستئناف وفي أوائل القرن العشرين أصبح عضوا في مجلس المحافظة الممتازة والمجلس البلدي . وأهم من ذلك انه جمع ثروة كبيرة من جراء امتلاكه للاراضي ولقريتين في الغوطة الخصبة . كذلك بنى عطا الله قصرا في حي الخراب خلف الجامع الاموي . و فيأوائل القرن العشرين وسع ابناؤه ثروة العائلة ونفوذها وأصبحوا ذوي نفوذ سياسي أكثر حتى من أبيهم(١٢٤) .

العائلات البيروقراطية المالكة للاراضي في الزعامة الجديدة

كان الشريك الذي يمثل الاغلبية في الزعامة السياسية لعام ١٩٠٨ فئة من العائلات التي لم تشتهر بالعلم والتي كانت تملك الاراضي وتشغل المناصب البيروقراطية ، وقد برزت في معظم الحالات بعد حوادث عام ١٨٦٠ واستطاعت من جراء نجاحها في احتكار اهم المناصب السياسية والادارية في البيروقراطية المدنية ، ومن خلال ذلك ، التصرف بمساحات واسعة من الاراضي ، أن توجد لنفسها قاعدة نفوذ أكثر ثباتا من قاعدة أهل العلم ــ مالكي الاراضي . وقد توصلت الى مراكز السلطة بصورة أساسية من خلال ربط مصالحها بصورة وثيقة بمصالح القسطنطينية أكثر من ربطها بأية قوة أخرى في دمشق .

كان عدد أقوى العائلات المالكة للاراضي والتي لم تشتهر بالعلم في عام ١٩٠٠ ثلاث عشرة على الاقل ، وهي : العظم (بما فيها المؤيد العظم) والعابد واليوسف (بمافيها شمدين) ومردم بك والقوتلي والشمعة والبارودي وسكر والمهايني واغريبوز وبوظو ، بالاضافة الى عائلتين مسيحيتين هما عائلة القدسي وعائلة الشامية . وفي ١٨٦٠ كانت هذه العائلات موزعة في مختلف أنحاء دمشق ، وكان آل العظم قد انتقلوا الى سوق ساروجة . وكانت عائلات الاغوات الاكراد الاربع وهي عائلة اليوسف وشمدين واغريبوز وبوظو تقطن في حي الاكراد في الصالحية وكان الاغوات الكبار من تجار الحبوب من آل العابد وآل سكر والمهايني يقطنون في الميدان . وكان آل مردم بك يقطنون قرب السوق المركزية (التي أصبحت تعرف فيما بعد باسم سوق الحميدية) وآل القوتلي في الشاغور وآل الشمعة في باب الجابية (الى الجنوب من السوق المركزية) وآل البارودي في القنوات . وكانت العائلتان المسيحيتان تقطنان منذ زمن بعيد في باب توما . وتجدر الاشارة الى سبع من هذه العائلات وهي عائلة العظم والعابد ويوسف شمدين ومردم بك والقوتلي والشمعة

والبارودي لانها في الثلث الاخير من القرن التاسع عشر أصبحت تشكل أقوى كتلة سياسية في دمشق وكانت مع العائلات الخمس المالكة للاراضي والتي اشتهرت بالعلم (العجلاني والغزي والكيلاني والحسيبي والجزائري) تشكل الزعامة السياسية الحقيقية للمدينة .

كانت عائلة العظم الوجه القديم الوحيد بين هذه الفئة من العائلات المالكة للاراضي والتي لم تشتهر بالعلم . وكانت هذه العائلة ، بفرعيها الكائنين في دمشق وحماه ، قد أصبحت كبيرة في أواخر القرن التاسع عشر لدرجة انها انقسمت الى فرعين متميزين : عائلة العظم وعائلة المؤيد العظم في كل من دمشق وحماه . ويبدو ان فرع العظم في دمشق كان أبرز قليلا من فرع المؤيد ، مع ان فوارق القوة والجاه أصبحت غير واضحة من جراء استمرار التزاوج بين الفرعين .

وفي حوادث ١٨٦٠ كان عميد عائلة العظم في دمشق عبد الله بك عضوا في المجلس ، لذا فقد نفي(١٢٥) . بعد الكارثة أعاد آل العظم توطيد علاقاتهم مع القسطنطينية بسرعة . فكان يوجد عادة أحد أفراد العائلة في مركز اداري عال في العاصمة وكان أبناؤه يرسلون لمتابعة دراستهم العليا ليعودوا ويحتلوا أهم المراكز في الولاية . ويبدو ان آل العظم شغلوا من المناصب العليا بين ١٨٦٠ و ١٩٠٨ أكثر من أية عائلة دمشقية أخرى. وفي سبعينات القرن التاسع عشر كان محمد علي باشا العظم عضوا منتخبا في المجلس الاداري للولاية وهو أشهر وأقوى مجلس في الحكومة المحلية(١٢٦)، وفي الوقت نفسه انتخب خمسة من أقاربه لمجلس المحافظة ومجلس البلدية (١٢٧) . وفي ثمانينات القرن التاسع عشر كان آل العظم أعضاء في مجلس الاوقاف ومحكمة الصلح وكانوا يشغلون مقعدين في مجلس اللواء(١٢٨) . وقد شهد العقد التالي آل العظم يشغلون مقاعد في مجلس التعليم ومحكمة الاستئناف وغرفتي الزراعة والتجارة ومجلس الشعب والبلدية والمحكمة التجارية(١٢٩) .

اقترنت ثمانينات القرن التاسع عشر بظهور محمد فوزي العظم ، ابن محمد علي باشا ، ليصبح زعيما للعائلة وذا سلطة سياسية عليا في دمشق . وفي ١٨٩٢ كان قد أصبح رئيسا للبلدية واحتفظ بهذا المنصب حتى أوائل القرن العشرين عندما انتخب عضوا في المجلس الاداري للولاية. كذلك أصبح وزيرا للاوقاف في القسطنطينية ومديرا للاشغال العامة

للخط الحجازي(١٣٠) . وبين ١٩٠٠ و ١٩١٩ كان أكثر السياسيين نفوذا في دمشق ومن بين كبار الاغنياء .

وفي القرن التاسع عشر انتقل آل العظم من حي العمارة ليقطنوا في حي سوق ساروجة الواقع الى الشمال الغربي من السوق المركزية . وهناك قاموا ببناء قصر فخم آخر كان يتسع لاكثر من سبعين من أفراد العائلة المتكاثرة(١٣١) . وقد أضفى وجودهم في سوق ساروجة عليه طابعا ارستقراطيا ساحرا جذب اليه عائلات غنية أخرى . وبعد سن قانون الارض لعام ١٨٥٨ قامت العائلة بتسجيل مالكاناتها في حماه والغوطة وحوران لتصبح أملاكا خاصة . وقد اكتسب آل العظم ، من خلال الاراضي الواسعة التي كانت تحت تصرفهم والعقارات القيمة في كل من حماة ودمشق التي جمعوها خلال قرنين ومن خلال سلسلة من المراكز الادارية العليا ، اكتسبوا سمعة كبيرة بحيث أصبحوا يعرفون كاوجه عائلة اجتماعيا وواحدة من أقوى عائلات ثلاث في دمشق .

وبعد آل العظم كان آل العابد ويوسف ــ شمدين أبرع من جمع الثروة المادية والمراكز الادارية للوصول الى السلطة السياسية . وقد سارت كلتا العائلتين على نفس الطريق . وقد استهلتا صعودهما الى السلطة السياسية حوالي ١٨٦٠ وذلك في اثنين من أحياء دمشق المحيطية، آل العابد في الميدان وآل يوسف شمدين في الصالحية . وكانت كلتا العائلتين تنحدر من الآغوات وكانتا مرتبطتين بتجارتي الحبوب والمواشي . كذلك جمعت كلتاهما بين المراكز العالية في السلطة الادارية والمراباة في مناطق المدينة الداخلية من أجل التصرف بمساحات واسعة من الاراضي. ثم انهما أقامتا صلات قوية جدا مع القسطنطينية مما مكنهما من المحافظة على قاعدة سلطتهما . وأخيرا وبعد ان جمعت كلتا العائلتين مايكفي من الثروة والمراكز والمنزلة الاجتماعية انتقلتا من حييهما « الشعبيين » وانضمتا الى آل العظم في سوق ساروجة .

ادعى آل العابد ان لهم أصولا قبلية تعود الى الموالي كما انه من المحتمل انهم كانوا من أصل كردي(١٣٢) . ويبدو انهم استوطنوا في حي الميدان في أوائل القرن الثامن عشر وأقاموا صلات قوية في تجارتي الحبوب والمواشي . وأخيرا اتخذوا لقب آغا ، وان كان لايمكن التأكد مما اذا كانوا قد حصلوا على هذا اللقب باعتبارهم قادة للحاميات المحلية في

الميدان أو بسبب مكانتهم كتجار كبار للحبوب . وكان أول فرد من العائلة يبرز في الساحة السياسية هو عمر آغا العابد . كان من كبار تجار الميدان الوسطاني(١٣٣) وقام بحماية المسيحيين في باب مصلى القريب من حيه ومنع عامة الشعب في الميدان من الانضمام الى الرعاع الذين دخلوا باب توما في تموز ١٨٦٠(١٣٤) .

بعد تلك الحوادث مباشرة قامت الحكومة العثمانية بمساع حثيثة لايجاد حلفاء جدد في دمشق لموازنة سلطة الزعامة السياسية التقليدية . كذلك بحثت عن عملاء مناسبين لتنفيذ برنامجها الاصلاحي في الولاية . وبما ان القسطنطينية كانت تنظر الى الوجهاء الدينيين بارتياب فقد التفتت الى المصادر الاخرى الوحيدة المتوفرة في دمشق المتمثلة بتلك العائلات الغنية وان لم تكن في أعلى المراتب الاجتماعية والتي برهنت ان لها نفوذا اجتماعيا مستقلا في المدينة قبل حوادث ١٨٦٠ وابان حدوثها ، وبالموظفين المتوسطين والضباط العسكريين الذين سبق ان استخدموا لتطبيق التنظيمات في دمشق وغيرها منذ ١٨٤٠ . وكان آل العابد ينتمون الى كل من هاتين الفئتين .

في ١٨٦٠ كان عمر آغا تاجرا كهلا ليس له مركز في الادارة المحلية . ويبدو ان ابنه عبد القادر قد انضم الى أبيه في تجارة الاسرة ، لكن حفيده هولو (١٨٢٤ ــ ١٨٩٥) اختار الدخول في خدمة العثمانيين قبل ١٨٦٠ ، وقد عمل في الستينات والسبعينات كمتصرف في حماه ونابلس(١٣٥). وبعد ان منح لقب باشا عاد الى دمشق حيث انتخب عضوا في المجلس الاداري للولاية عام ١٨٧٨ ثم أصبح رئيسا له في أوائل التسعينات(١٣٦). وقد شغل أيضا مركز رئيس محكمة الاستئناف ورئيس غرفة الزراعة(١٣٧). كذلك برز أخوا هولو كموظفين محليين كبيرين . فقد انتخب محمد بك عضوا في مجلس اللواء في أواخر السبعينات وأصبح محمود بك رئيسا لمجلس البلدية في منتصف الثمانينات(١٣٨) .

وقد عمل أبناء هولو على زيادة نفوذ العائلة السياسي ومقامها في كل من بلدهما وفي القسطنطينية ، فقد عاد مصطفى الذي كان قائمقام ومتصرف الموصل في الثمانينات الى دمشق وهو يلوح بلقب الباشا لكي يحل مكان والده في مجلس الولاية عام ١٨٩٤(١٣٩) غير ان سيرة حياة أحمد عزت كانت حافلة بالامجاد أكثر من حياة أبيه وأخيه ، فقد

درس في مدرسة تبشيرية كاثوليكية في بيروت وتنقل من مركز لاخر في الادارة المحلية قبل أن يتوجه الى القسطنطينية . وهناك حيث كان قاضيا لفت انتباه السلطان عبد الحميد الثاني وسرعان ماأصبح « سكرتيره الثاني » وكاتم أسراره(١٤٠) . وفي هذه الفترة بالذات ، اي في تسعينات القرن التاسع عشر ، كان السلطان بصدد صياغة سياسته العربية الاسلامية الرامية الى تدعيم المناطق الداخلية العثمانية بعد الخسائر الاقليمية التي تكبدها في الولايات الاوروبية . وقد كان لاثنين من العرب وهما عزت باشا وابو الهدى الصيادي وهو شيخ ديني من ولاية حلب ، اكبر الاثر على هذه السياسة . وكان عزت باشا هو الذي أنشأ مشروع الخط الحجازي الذي كان يهدف الى استقطاب التعاون الاسلامي من جميع أنحاء العالم وفي الوقت نفسه يربط بين الولايات العربية والقسطنطينية بصورة وثيقة أكثر من السابق(١٤١) . وبينما كان عزت باشا مستمرا في القيام بدور بارز في القسطنطينية ، أخذ ابنه محمد علي يرتقي بسرعة في سلم الوظائف المدنية العثمانية . وبما انه نشأ في وسط ارستقراطي في القسطنطينية وتعلم في مدرسة غالاتاسيراي وفي باريس ، فقد عين في وزارة الخارجية وفي ١٩٠٥ أرسل الى واشنطن كوزير للمفوضية العثمانية لفترة قصيرة(١٤٢) . وبعد ربع قرن انتخب أول رئيس للجمهورية السورية .

كانت قاعدة الموارد المادية لآل العابد تقوم في الاصل على أعمالها التجارية في الميدان . فبعد ان جمع هولو باشا رأسمالا كافيا استغله بطريقة أفضل عن طريق توظيفه في شراء أسهم في شركة قناة السويس . واشترى من أرباحه عددا من مزارع الفاكهة في الغوطة وفي دوما(١٤٣) وقام ابنه بتوسيعها فيما بعد . وأهم من ذلك هو ان عزت باشا أخذ يشتري عقارات شملت فندقا كبيرا ثم تحويله الى وقف ناجح للعائلة(١٤٤) كذلك أقام وابنه سلسلة من العلاقات المالية القيمة في أوروبا والولايات المتحدة ، حيث وظف مقدارا كبيرا من الرأسمال في شراء أسهم في شركات باريس ولندن ونيويورك . وفي ١٩٠٠ كان آل العابد بين أغنى ثلاث عائلات في دمشق . ففي أقل من أربعة عقود تمكن آل العابد من الصعود الى قمة السلطة السياسية والوجاهة في دمشق والقسطنطينية . وكانوا يمثلون أكثر من أية عائلة دمشقية أخرى اقتران الزعامة السياسية الجديدة بالايديولوجية « العثمانية » .

برزت عائلة اليوسف اجتماعيا وسياسيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وهي وليدة العلاقات المتبادلة بينها وبين منافستها الرئيسية في القسم الكردي من الصالحية وهي عائلة شمدين ، وقد قرر آل اليوسف وآل شمدين الذين كانوا يتنافسون على نفس الزبائن الاكراد في الصالحية أن يوحدوا قواعد سلطتهم بعد منتصف القرن . فقام سعيد شمدين بتزويج ابنته الوحيدة لمحمد باشا اليوسف . وقد أنجب الزوجان ابنا واحدا ، عبد الرحمن ، كان الوريث الوحيد لثروة شمدين باشا .

ويبدو أن آل اليوسف قد وصلوا الى دمشق في أواخر القرن التاسع عشر قادمين من ديار بكر حيث كانوا تجارا أغنياء للمواشي(١٤٥) . وفي الثلاثينات كان أحمد وكيلا للامير بشير الشهابي من جبل لبنان وحصل منه على أرض في سهل عنجر لقاء خدماته . ثم عينه السلطان ، اعترافا بشجاعته ونفوذه بين أكراد دمشق والقبائل التي كان يتعامل معها في تجارته ، في مركز أمير الحج المربح(١٤٦) . وحل ابن أحمد محمد (توفي عام ١٨٩٦) ، مكان والده بعد وفاته في منصب أمير الحج . ثم عين متصرفا في عكا وحوران وطرابلس (سورية) وحماه على التوالي(١٤٧) . واخيرا انتخب محمد في التسعينات ، بعد أن أصبح باشا ، عضوا في مجلس الولاية الاداري في دمشق(١٤٨) .

ان أصول عائلة شمدين غير معروفة ، فقد كان لشيخ احدى القبائل الكردية الذي كان يدعى موسى ويقطن في عكا ابن اسمه شمدين . ويبدو أن شمدين آغا جاء في أواخر القرن التاسع عشر ليستقر في حي الصالحية بدمشق حيث بنى لنفسه في وقت قصير قاعدة سلطة مستقلة بين المهاجرين الاكراد من خلال قيادته لحامية محلية(١٤٩) وعندما سرحت الحاميات المحلية في دمشق ١٨٥٩(١٥٠) عين ابن شيمدين آغا محمد سعيد قائدا لاحدى الحاميات الجديدة المؤلفة من الاعوان الاكراد(١٥١) . الا ان سعيد نفي الى الموصل في ١٨٦٠ لتقصيره في منع العصابات الكردية من الدخول الى باب توما لقتل المسيحيين(١٥٢) . وقد عاد الى دمشق بعد ذلك بفترة وجيزة بعد ان حظي برضا السلطان بنتيجة اعادته للنظام في الموصل التي كانت تعم فيها الفوضى . وقد كوفىء بتعيينه أميرا للحج في أواخر الستينات حيث حل مكان محمد باشا اليوسف .

يبدو ان آل اليوسف لم يحصلوا على أراض بعد ١٨٦٠ ، الا ان سعيد شيمدين باشا استخدم الرأسمال الذي جمعه وهو أمير للحج لشراء سلسلة من المزارع والقرى في الغوطة جعلها وقفا قيما للعائلة ، كما اشترى عقارات كثيرة في حوران والقنيطرة . وفي التسعينات كان يملك من الاراضي أكثر من أي فرد آخر في دمشق(١٥٣) .

في عام ١٨٩٥ حل عبد الرحمن اليوسف ، الذي جاء بنتيجة زواج التحالف بين آل شيمدين وآل اليوسف ، فكان جده من جهة أمه أمير للحج وورث الاراضي التي كان سعيد شيمدين باشا يتصرف بها والقسم الاكبر من ثروة أبيه بين ١٨٩٦ و ١٩٠١ . وفي أواخر القرن لم يكن فقط من أغنى الافراد في دمشق ، لكنه كان يشغل واحدا من أهم المراكز في الامبراطورية ، وخصوصا أن سياسة السلطان عبد الحميد العربية الاسلامية كانت في أوج فعاليتها في ذلك الوقت . ثم ان عبد الرحمن باشا ورث شبكة المؤيدين المزدوجة التي كانت لشيمدين وليوسف في المنطقة الكردية من الصالحية(١٥٤) . على ان كلا من سعيد شيمدين باشا ومحمد باشا اليوسف كانا قد غادرا الصالحية ليقيما في منازل أكبر في سوق ساروجة . وهناك بدأ عبد الرحمن باشا يقيم علاقات اجتماعية وسياسية جديدة مع آل العظم وآل العابد وأصبح يعرف باسم « استمبول الصغيرة » ، تاركا أبناء عمومته البعيدين من آل شيمدين الذين بقيت اقامتهم في الصالحية للسهر على أتباع ومؤيدي آل اليوسف وآل شيمدين .

يدعي آل مردم بك أن أصولهم تعود الى لالا مصطفى باشا وهو الباني في خدمة حريم السلطان في القرن السادس عشر(١٥٥) . ويبدو ان العائلة استقرت في دمشق في القرن الثامن عشر وهناك عمل أفرادها في التجارة . لكنها لم تصعد الى مركز القوة الا في حوالي منتصف القرن التاسع عشر . وقد ذهب الاخوان علي (١٨١٣ — ١٨٨٧) وعثمان (١٨١٩ — ١٨٩٦) ، اللذان بدأا حياتهما العملية في المحاكم الشرعية والتجارية المحلية حيث كانا يشغلان وظائف متواضعة في الستينات ، الى القسطنطينية لاحياء ماادعيا بانه وقف للاسلاف مضى عليه وقت طويل دون ان يعطي شيئا . وبعد ان حصل الاخوان على الاذن بتولي أمور ارثهما استطاعا تحويل وقفهما الى مشروع ناجح(١٥٦) . وبعد ان أعادا استثمار أرباحهما قاما بشراء عقارات في دمشق وبساتين مروية في

الغوطة ، وفي الوقت نفسه أخذا يتوليان مراكز عالية في الادارة المحلية ، مما مكنهما من توسيع نشاطاتهما في أعمال المقاولات . ولقد عمل علي قاضيا في محكمة دمشق التجارية في أواخر السبعينات ، ثم انتخب عضوا في مجلس الولاية الاداري وبقي فيه من ١٨٧٨ الى ١٨٨٧(١٥٧) . وقد مكنه هذان المنصبان من اكتساب خبرة في مجال المضاربة في الاراضي وقام ببناء امتداد للسوق المركزية . وفي نهاية حياته كانت الاجور المحصلة من السوق الجديدة كبيرة بحيث أصبح من أغنى الملاكين في دمشق(١٥٨) . وعين عثمان متصرفا لحوران وبعد ذلك بفترة وجيزة ، أي في عام ١٨٧٨ ، انتخبعضوا في مجلس اللواء ، ولعله بدأ في هذا الوقت بشراء مزارعه الكائنة في الغوطة(١٥٩) . وتبعه ابنه حسن في الخدمة الحكومية حيث بدأ قاضيا في المحكمة التجارية في أوائل الثمانينات ثم حل مكان عمه في عضوية مجلس اللواء في منتصف الثمانينات(١٦٠) .

كان منزل آل مردم بك يقع في مكان مناسب قرب سوق الحميدية حيث كانوا يستطيعون بسهولة الاشراف على جمع أجور عقاراتهم . كان آل مردم بك حديثي النعمة من الناحيتين الاجتماعية والسياسية ، وكانوا مقاولين ماهرين استطاعوا استخدام مناصبهم السياسية لتوسيع مصالحهم المالية وتمكنوا من الارتقاء حتى وصلوا الى مراتب الصفوة السياسية الدمشقية في نهاية القرن .

وكان آل القوتلي تجارا من بغداد أقاموا في حي الشاغور الكائن بدمشق في القرن الثامن عشر(١٦١) وفي ١٨٦٠ كانت العائلة ، وخصوصا محمد القوتلي ، قد جمعت ثروة طائلة من تجارتها البعيدة وأعمالها المتعلقة بالمقاولات داخل دمشق(١٦٢) . وقد حول آل القوتلي قسما من رأسمالهم الى أراض يتصرفون بها بعد ١٨٦٠ . ولعل مراد (توفي في ١٩٠٨) كان أول فرد من آل القوتلي يشتري مساحات واسعة من الاراضي . ولايمكن التحقق مما اذا كان اشترى الاراضي قبل انتخابه عضوا في المجلس الاداري للولاية عام ١٨٧١ أو بعد ذلك(١٦٣) ، ولكن من المؤكد انه استخدم مركزه كعضو في المجلس لتوسيع أيةأراض سبق ان حصل عليها . كذلك أصبح مراد عضوا في الغرفتين الزراعية والتجارية وأعيد انتخابه عضوا في مجلس الولاية فيأوائل التسعينات(١٦٤) . كذلك أصبح اخوان من اخوة مراد وهما حسن وعبد الغني من كبار ملاكي

الاراضي في الغوطة قبل ١٩٠٠ . على ان حسن وحده هو الذي شغل منصبا هاما . ففي أوائل التسعينات انتخب رئيسا لغرفتي الزراعة والتجارة . وفي الوقت نفسه كان يعتبر من كبار تجار المدينة(١٦٥) وحصل أحد أفراد القوتلي وهو أحمد على منصب عال في هذه الفترة ، حيث عين رئيسا لمصرف الولاية الزراعي في ١٨٩٤(١٦٦) .

لم تترك عائلة القوتلي أعمالها المتعلقة بالمقاولات عندما أخذت تشتري الاراضي . كما انها لم تنتقل الى الاحياء الاكثر وجاهة . فقد بقيت تقطن في حي الشاغور الشعبي حيث أقامت لنفسها شبكة من الاتباع والمؤيدين كانت تخدم مصالحها السياسية خلال ثلاثة أجيال متتالية .

وفي ١٩٠٠ كانت عائلتا مردم بك والقوتلي تأتيان مباشرة بعد العائلة الارستقراطية القاطنة في سوق ساروجة من حيث السلطة السياسية والمنزلة الاجتماعية على انهما كانتا تختلفان عن آل العظم والعابد واليوسف من حيث مساحات الاراضي الاصغر التي كانتا تتصرفان بها ومن حيث صلاتهما الاقل مع السلطات العثمانية . لكن كان من المقدر لهما ان تصلا الى ذروة الثروة والسلطة فيما بعد .

تبقى أصول عائلة الشمعة غير معروفة . ويبدو ان آل الشمعة استقروا في دمشق منذ القرن الخامس عشر . وفي القرن الثامن عشر كان أفراد العائلة قد دخلوا في طبقة رجال الدين رغم انهم لم يصلوا ابدا الى مرتبة الوجاهة الدينية(١٦٧) . وفي القرن التاسع عشر كان آل الشمعة قد أصبحوا من كبار التجار في باب الجابية(١٦٨) ، قرب السوق المركزية (سوق الطويل ثم سوق مدحت باشا) . وكان أول شخصية سياسية مرموقة تظهر من هذه العائلة هو أحمد رفيق . وقد منح لقب باشا لخدماته كاداري للولاية في السبعينات ، وانتخب عضوا في المجلس التأسيسي في القسطنطينية في ١٨٧٦ . وبعد ان علق المجلس في ١٨٧٨ عاد الى دمشق وانضم الى هولو باشا العابد وعلي مردم بك في مجلس الولاية(١٦٩) . وفي أوائل الثمانينات كان عضوا في مجلس الاوقاف ومجلس التعليم وبعد عشر سنوات انتخب رئيسا لمجلس الولاية . وفي الثمانينات تبعه ابناه رشدي ويوسف في الدخول الى الحكومة المحلية وبرزا في أوائل القرن العشرين(١٧٠) .

وقد يكون أحمد رفيق باشا قد استخدم مناصبه المختلفة للحصول على الاراضي في الغوطة في السبعينات . ومن المحتمل ان يكون أولاده قد وسعوا الاراضي الموضوعة تحت تصرفه فيما بعد . وبقي آل الشمعة يقطنون في باب الجابية وحافظوا على صلات وثيقة مع عامة الشعب ، كما هو الحال بالنسبة لآل القوتلي . وكان أحمد رفيق باشا شخصية سياسية في دمشق لاتقل أهمية عن أي شخصية من آل العظم والعابد واليوسف ومردم بك والقوتلي في الثلث الاخير من القرن التاسع عشر . ولكن خلافا لهذه العائلات الاخرى التي كان لها اثنان أو أكثر من أفرادها في المراكز العليا في أي وقت من الاوقات ، فان نفوذ آل الشمعة في دمشق كان محصورا في رجل واحد .

وفي الثلث الاخير من القرن التاسع عشر انضم آل البارودي الى العائلات الست التي جرى استعراض تاريخها أعلاه وبذلك اكتملت أقوى كتلة ضمن النخبة الدمشقية في ذلك الوقت . وفي أواخر القرن التاسع عشر جاء حسن البارودي من مصر ليخدم عبد الله باشا العظم ، الذي كان واليا لدمشق في ذلك الوقت ، بصفة « كتخودا » له . وقد أجزل لحسن آغا العطاء تقديرا لخدماته(١٧١) . وكان حسن رجلا غنيا واسع النفوذ لم يتورط في حوادث ١٨٦٠ فتوج حياته العملية عندما انتخب عضوا في مجلس محافظة الولاية في ١٨٧٠(١٧٢) . وحل مكانه ابنه محمد بك في عضوية المجلس في أواخر السبعينات واحتفظ بمقعده حتى وفاته في ١٨٨٩(١٧٣) .

استخدم حسن آغا الثروة التي جمعها خلال عمله لدى عبد الله باشا العظم لشراء المزارع والقرى في الغوطة وفي دوما من الحاكم العام المصري لدمشق ، شريف باشا ، الذي غادر سوريا في ١٨٤٠(١٧٤) . وبعد ١٨٦٠ سجلت هذه الاراضي. ويبدو ان محمد بك استخدم عائداتها لشراء المزيد من المزارع في السبعينات والثمانينات ، كذلك قام محمد بك ببناء قصر كبير في القنوات حيث أوجد لنفسه نظام محسوبية قوى . ولم يدخل ابنه محمود في خدمة الحكومة بل فضل أن يحيا حياة مزدوجة ، حياة مالك الاراضي في دوما وحياة السيد في المدينة(١٧٥) . على ان ابنه فخري قام فيما بعد باحياء مجد الاسرة السياسي .

كانت أقوى كتلة في الزعامة السياسية لعام ١٩٠٠ هي تلك الفئة

المكونة من سبع عائلات لم تشتهر بالعلم ، ست منها كانت قد بدأت منذ فترة وجيزة في بناء قواعد قوتهاالاجتماعية ــ الاقتصادية والسياسية في حوالي منتصف القرن . وكانت هذه الكتلة تجمع بين رؤساء الحاميات المحلية السابقين والتجار ــ المرابين وبيروقراطيين صاعدين في سلم الوظيفة كانوا يحتكرون أعلى المراكز في البيروقراطية المحلية وجمعوا ثروة طائلة بعد عام ١٨٦٠ . وبماانهلم يكنلهذه العائلاتأية منفعة في المؤسسات الدينية المحافظة فقد سارعت لخدمة الحكومة المركزية العثمانية ، فكانت العناصر المنفذة للتحديث والمركزية والعلمنة . فأوكلت اليها المراكز العليا التي يمكن استغلالها لفائدتها الاقتصادية . وفي ١٩٠٠ كانت هذه العائلات جزءا اساسيا من ارستقراطية الخدمة العثمانية واشتقت من ذلك مكانة اجتماعية تساوي مكانة العائلات المالكة للاراضي والتي اشتهرت بالعلم .

حجم الصفوة السياسية في ١٩٠٠

في مستهل القرن العشرين كانت الزعامة السياسية الفعالة في دمشق تتضمن اثنتي عشرة عائلة مقسمة الى فئتين فرعيتين : فئة البيروقراطيين ــ ملاكي الاراضي وفئة أهل العلم ــ ملاكي الاراضي . وكانت الفئة الاولى الكتلة الاقوى بالنظر لسيطرتها على أعلى المراكز في البيروقراطية المدنية ، وارتباطها الاوثق بالقسطنطينية ، وثروتها الاكبر . على أن هاتين الفئتين كانتا قد بدأتا بالامتزاج .

كانت هذه العائلات الاثنتي عشرة تشكل نخبة الصفوة السياسية في دمشق التي كانت تتألف من حوالي خمسين عائلة مسلمة أخرى بالاضافة الى خمس عشرة عائلة مسيحية وأربع عائلات يهودية . وكانت العائلات الاثنتا عشرة الاولى تتميز عن الاخرى بثروتها الاكثر وأراضيها وبسيطرتها على المراكز العليا في المؤسسات العلمانية للولاية . ورغم ان بعض العائلات الارستقراطية الدينية مثل عائلات العطار وحمزة والمحاسني والاسطواني والمرادي كان لها أوقاف خيرية وكانت تمتلك الاراضي(١٧٦) ، الا انها لم تجمع ثروات مماثلة لتلك التي جمعتها الاثنتا عشرة عائلة الاولى . ثم انها وان استطاعت ان توصل بعض أفرادها الى المؤسسات العلمانية القوية الا انها بقيت مرتبطة بالمؤسسات الدينية المحتضرة . وقد قدر لعائلات أخرى من أهل العلم وخصوصا

عائلات البكري والايوبي والمالكي والحلبي والعمري والميداني ، ممن استبعدت من المناصب العليا في المراكز الدينية وبالتالي توجهت للمنافسة على المراكز في البيروقراطية المدنية ، ان تنجح فيما بعد في شغل أعلى المناصب . فقد أخذت تنتظر الفرصة الملائمة وتقوت من حيث الحصول على الاراضي والدخول في أعمال المقاولات(١٧٧) . وفي ١٩٠٠ أصبحت تشبه العائلات البيروقراطية ، مالكة الاراضي الاكبر منها من حيث قواعد مواردها ومن حيث توجهها السياسي نحو القسطنطينية .

وكانت بقية العائلات الخمسين ، مثلا عائلات الركابي والحفار والجلاد وسكر والنوري والمهايني والحكيم والطباع والرجلة واغريبوز وبوظو والعظمة جميعها من أصول لم تعرف بالعلم ومعظمها حديث في الساحة السياسية في ١٨٦٠(١٧٨) . وكانت تميل لان تكون من التجار ــ المرابين الاقوياء المنهمكين بصورة أولية في تجارة القمح العائدة للمدينة ، مع ان بعضها كان من ملاكي الاراضي المتوسطين(١٧٩) ، وكان أفراد هذه العائلات يتنافسون على المراكز في البيروقراطية المدنية لكن لم يكن أحد منهم قد وصل الى أي من المراكز العليا في ١٩٠٠(١٨٠) . وفي أوائل القرن العشرين كانت هذه الفئة من العائلات والفئة التي تضم آل البكري والايوبي تقع مباشرة بعد الاثنتي عشرة عائلة الاولى من حيث المنزلة الاجتماعية والسلطة السياسية . وقد مكن التداخل الاجتماعي بالاضافة الى بعض الحوادث السياسية الرئيسية بعض هذه العائلات من الانضمام الى العائلات الاثنتي عشرة في مجال الزعامة السياسية الفعالة للمدينة بعد ١٩٠٨ .

رغم ان العائلات الاثنتي عشرة المسيحية والعائلات اليهودية الاربع في دمشق هي التي كانت تتزعم جماعتيهما فانه لايمكن اعتبارها قسما من الزعامة السياسية الفعالة للمدينة(١٨١) . وبما انها كانت تمثل زعماء أقليات جماعتين تمثلان عشرين بالمائة فقط من سكان دمشق في هذه الفترة فقد تعذر عليها تكوين نفوذ سياسي يضارع نفوذ الاثنتي عشرة عائلة المسلمة التي كانت تمثل في الواقع الزعامة السياسية الفعالة(١٨٢) . على ان الطريق الذي سلكته هذه العائلات المسيحية واليهودية للدخول ضمن الصفوة السياسية الاوسع كان مماثلا الى حد ما للطريق الذي اتبعه أفراد هذه الصفوة من المسلمين .

انطوت عملية التحديث والعلمنة العثمانية التي جاءت بعد حوادث ١٨٦٠ على اعطاء المزيد من الحقوق للمسيحيين واليهود . وقد أعطت نتائج هذه المساواة المتزايدة مع المسلمين ، تلك المساواة التي كان يدعمها التحام أوثق مع المصالح المالية والتجارية الاوروبية ، لزعماء الاقليات حماية وافية وطمأنينية اجتماعية مكنتهم من تطوير قواعد قوتهم ضمن جماعاتهم . فقد منحت كل من الجماعتين المسيحية واليهودية تمثيلا أكثر انصافا ضمن مناصب الادارة المحلية . فانضم زعماء هاتين الجماعتين الى الكتلة القوية المتمثلة بالبيروقراطيين المسلمين من أصحاب الاراضي بصفة أعضاء منتخبين لارفع واقوى هيئتين علمانيتين للمدينة والولاية وهما المجلسان الاداريان للولاية واللواء . وانتخبوا أعضاء في المجلس البلدي وعملوا قضاة في المحكمة التجارية ومحاكم الاستئناف والصلح(١٨٣) كذلك كانوا أعضاء في مجلس التربية وضرائب الاملاك وفي غرفتي التجارة والزراعة . وبالنظر للحماية السياسية والتجارية التي منحت للزعماء المسيحيين من قبل عدة قنصليات أوروبية فقد عمل بعضهم تراجمة وحتى قناصل(١٨٤) ..

وبالنظر لازدياد الامن وحرية العمل استطاع زعماء الاقليات أولئك أن يستخدموا مراكزهم في الادارة المحلية وصلاتهم المالية مع أوروبا لاقامة قاعدة متينة للثروة والنفوذ . وقد تأكدت سلطتهم الفعالة بعد ان أصبحوا الطبقة التجارية السائدة في دمشق . وقد لعبوا بوصفهم من التجار دورا أساسيا في امتصاص اقتصاد الولاية تدريجيا الى داخل اقتصاد أوروبا . وكانوا باعتبارهم من المرابين والمصرفيين يسيطرون على السيولة النقدية . فاقاموا صلات اقتصادية قوية مع البيروقراطيين — أصحاب الاراضي فقدموا لهم الرأسمال لتمويل مشترواتهم من الاراضي ومشاريع السكن(١٨٥) . وفي الواقع لقد جمعت عائلتان مسيحيتان هما عائلة القدسي وعائلة شامية بين المناصب البيروقراطية ورأسمال التجار لشراء الاراضي(١٨٦) . وفي نهاية القرن التاسع عشر كانت هاتان العائلتان قد انضمتا الى جماعة العائلات التي تمتلك مساحات كبيرة من الاراضي في دمشق .

سلوك الزعامة السياسية :

كانت الزعامة السياسية المحلية في تشكيلة السلطة القائمة في دمشق

تعمل كوسيط للدولة وللمجتمع الذي جاءت منه . ولايسع الوسيط الناجح ان يظهر بمظهر المعارض لمصالح السلطة المركزية والا فانه لايعود يستطيع الوصول اليها . وفي الوقت نفسه فانه لايستطيع ان يعرض مصالح زبائنه المحليين للخطر أو أن يظهر أمامهم مجرد أداة للسلطة المركزية وبالتالي يمارس سلطته عليهم(١٨٧) . وفي ١٨٦٠ قصر الزعماء في القيام بدورهم السياسي وذلك من جراء معارضتهم لكل من مصالح الدولة العثمانية والمجتمع المحلي . وفي الفترة التي تلت (١٨٦٠ – ١٩٠٨) أصبح سلوك الزعماء السياسيين الجدد أقل التباسا . فقد التحم الزعماء بصورة مكشوفة مع مصالح الدولة العثمانية ودافعوا عنها وحددوا علاقتهم بصورة أكثر وضوحا بالمجتمع المحلي . حيث أصبحت علاقة سيطرة وتحكم صريحة .

وبعد ١٨٦٠ كانت الزعامة السياسية الدمشقية والحكومة المركزية العثمانية تعتبران جهاز الدولة أفضل وسيلة لفرض الهدوء والاستقرار النسبيين في ولاية دمشق بعد فترة الغليان الطويلة الناجمة عن الغزو المصري وعن اصلاحات التنظيمات وعن التغلغل الاقتصادي الاوروبي . وقد أدت رغبة الدولة العثمانية في السيطرة على دمشق بصورة مباشرة أكثر من السابق الى ايجاد بيروقراطية علمانية الى سن قانون الاراضي لعام ١٨٥٨ . وهذه الرغبة بدورها مكنت العائلات السياسية الكبرى في دمشق من السيطرة على المجتمع المحلي بطريقتين متصلتين ، فمن خلال استخدامها لمناصبها من أجل الحصول على الاراضي أصبحت تسيطر على مناطق دمشق الخلفية . وبعد ان اصبحت سندات التمليك بأيدي هذه العائلات أخذت تستغل الفلاحين بصورة قاسية ، فكانت تنتزع منهم بنسبة مئوية كبيرة من الفائض الريفي على شكل أجور وبما ان الفلاحين كانوا محرومين من امكانية اللجوء الى القانون أو من امكانية المقاومة ، حيث ان النظام القضائي كان تحت سيطرة المالكين وان قوة الدولة العسكرية كانت جاهزة للتدخل لحمايتهم ، لذلك فقد كانوا مرغمين على الاذعان(١٨٨) . ثم استخدمت العائلات المالكة للاراضي الارباح الزراعية لشراء المناصب . ومن خلال مناصبها كانت تنعم على الناس أو تنفعهم من خلال الوظائف والعقود والوصول الى الحكومة والحماية منها . وهكذا فقد امتدت شبكة المحسوبية وتنوعت وخيم نوع من الاستقرار على المدينة وضواحيها ، قائم على امكانية الوصول الى الاشخاص في السلطة .

كذلك تحدد سلوك الزعامة السياسية الدمشقية بالمهامات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي كانت الاسرة تقوم بها كوحدة، فقد كانت العلاقات الاقتصادية والاجتماعية للاسرة الموسعة تحدد الطريقة التي كانت تحفظ بها الثروة . ففي السنوات التي تلت ١٨٦٠ مباشرة كانت الاراضي الزراعية والعقارات في المدينة تسجل غالبا كاملاك خاصة باسم العائلة كوحدة وليس باسم أي فرد منها . ثم انه من أجل حماية الاراضي الموضوعة للتصرف بها من المصادرة والتقسيم كانت العائلة تفضل ان تضع قسما كبيرا على شكل وقف أهلي يضمن أوضاعها المالية في الاجيال القادمة . وكان عميدالعائلةهو الذي يكلف بمهمة ادارة الوقف(١٨٩) . وكانت أرباحه تشكل أقوى رابطة اقتصادية تربط أفراد العائلة الغنية مع بعضهم البعض . كذلك كانت تتم المحافظة على ثروة العائلة من خلال التزاوج . فقد كانت الزيجات بين أبناء وبنات العم المباشرين تفضل بصورة عامة اذا أمكن . وقد عرف عن بعض الاباء انهم منعوا بناتهم من الزواج على الاطلاق لعدم وجود أبناء عموم لهن(١٩٠). وكان أفراد العائلة الموسعة يعيشون تحت سقف واحد أو في مجموعة منازل واحدة(١٩١) .

كان هدف معظم العائلات الكبيرة البيروقراطية ــ المالكة للاراضي ان توصل أفرادها الى أكبر عدد ممكن من المراكز في أي وقت ما . وكانت بعض العائلات مثل آل العظم والعابد واليوسف ومردم بك تتلهف بصورة خاصة الى تأمين انتشار سليم لافرادها في مختلف المجالس والمؤسسات الحكومية والى ايجاد حقوق وراثية غير رسمية في بعض المناصب . وكانت احدى الطرق المألوفة التي تحقق هذه الاغراض هي الرشوة . فمثلا دفع محمد فوزي باشا العظم للوالي العثماني مبلغا قدر بألف ليرة ذهبية تركية من أجل تعيينه رئيسا لمجلس دمشق البلدي في أوائل تسعينات القرن التاسع عشر وقد دفع مبلغ أكبر حتى من السابق ، وهو مبلغ ألفي ليرة ذهبية ، من قبل عبد الرحمن باشا اليوسف لضمان تجديد تعيينه في منصب أمير الحج في ١٨٩٥ . ولم يكن شراء هذه المناصب لمجرد المقام والهيبة . فقد كان رئيس المجلس البلدي يعطي الاجازات والاذونات ويوجد الوظائف للبيروقراطيين الاقل مكانة . وكان أمير الحج يقوم بتنظيم الحج ويحميه وكان أمامه فرص عديدة للتجارة خلال الموسم . وهكذا فان كلا المركزين كان يعود على صاحبه بارباح مالية كبيرة والاهم من ذلك انهما كانايوفران السبيل لكسب الاتباع والانصار(١٩٢) كذلك كانت الرشاوى الاقل قيمة تستخدم في كثير من الاحيان لادخال

الابناء الى عالم السياسة لاول مرة وذلك من خلال شراء العضويات في مختلف المجالس ففي التنافس الشديد على المراكز في ولاية دمشق كانت الموارد المالية الضخمة للعائلات الكبيرة المالكة للاراضي تجعلها في وضع متميز واضح .

كان السلوك السياسي يأخذ شكل مجموعتين من العلاقات . الاولى هي العلاقة الرئيسية لوحدة العائلة مع زبائنها . والاخرى هي العلاقة الافقية للعائلة مع أقرانها .

فقد كانت العائلة البيروقراطية ـ المالكة للاراضي تستخدم قاعدة مواردها في الحكومة المحلية وتستخدم ثروتها المادية لتكوين شبكة من الزبائن في الحي الذي تقطن فيه وضمن فئات عرقية محددة أو اتحادات مهنية في المدينة وفي الريف . وفي كثير من الاحيان كان منزل العائلة الكبير في الحي يستخدم كقاعدة لاعمال العائلة في المدينة وكانت العائلة تشجع على وجود جو من العلاقات الرحبة من خلال تشجيع العديد من الفئات الاجتماعية ـ الاقتصادية ، التي تتراوح بين كبار التجار ومشايخ النقابات وفقراء الحي ، على طلب المشورة والخدمات والقروض أو أية خدمات أخرى . وكان لكل عائلة بهو خارجي خاص يستعمل لاغراض شبه سياسية واجتماعية(١٩٣) . فهناك تجد أحد أفراد العائلة يبت في نزاع شخصي ويقدم المعونات للمحتاجين أو يعد باستخدام نفوذه ليحول دون مطاردة أحد جباة الضرائب الحكوميين لاحد الجوار . وكان يتوقع من المستفيدين من خدمات العائلة ان يكونوا مستعدين لتقديم الدعم لها حين تدعو الحاجة .

وكان التنافس على شبكات الزبائن في دمشق حادا مثل التنافس على المناصب العليا في الادارة . وليس عجيبا ان يكون مدى الخدمات التي تقع ضمن مجال عائلة ما متوقفا على تنوع مناصبها وصلاتها السياسية ومقدار غناها . ومن أجل توسيع مجال خدماتها حتى أكثر من ذلك ، فقد أخذت العائلات البيروقراطية ـ المالكة للاراضي تتخلى عن التقاليد بعد منتصف القرن وذلك بالقيام بتحالفات سياسية من خلال التزاوج(١٩٤).

وكان أول تحالف سياسي رئيسي يتحقق من خلال الزواج ذلك الذي تم بين آل شيمدين وآل اليوسف . فقد زوج شيمدين باشا طفلته الوحيدة لمحمد باشا اليوسف وجاء المولود الوحيد من هذا الزواج وهو عبد الرحمن ليرث زبائن وثروة كلا العائلتين ، ثم تزوج عبد الرحمن باشا اليوسف ابنة خليل باشا العظم ونجم عن ذلك تحالف سياسي طويل الامد .

وفي هذه الاثناء كان هولو باشا العابد قد تزوج بنتا من آل العظم . وتزوج حفيدان من هذه الزيجة اختين لعبد الرحمن باشا اليوسف . وفي أوائل القرن العشرين كان آل العظم والعابد واليوسف قد نجحوا في تدعيم قاعدة سلطتهم في المجتمع عن طريق القيام بربط عائلاتهم مع بعضها على أساس اجتماعي ـ سياسي وبذا أصبحوا أقوى ثلاثي في الولاية .

على ان هذه العائلات الثلاث لم تقتصر على سوق ساروجة في التزاوج . فقد تزوج سامي باشا مردم بك ، ابن حكمت ، شقيقة محمد فوزي باشا العظم وزوجت شقيقة أخرى لعبد الرحمن باشا اليوسف لابن عم سامي عبد الله مردم بك .

وادت سلسلة أخرى من التحالفات من خلال التزاوج الى كتلة سياسية ثانية تتألف من آل القوتلي والبارودي والبكري . وقبل نهاية القرن التاسع عشر تزوج مراد القوتلي ابنة محمد البارودي في حين زوجت ابنة أخرى من آل البارودي لعطا الله البكري ، وبقيت هذه العائلات تتزاوج في الجيل الثاني وتضافرت مع آل اليوسف والعظم على تشكيل شبكة واسعة من الائتلافات السياسية .

ومع ازدياد الترابط بين العائلات الكبيرة البيروقراطية ، المالكة للاراضي فقد انتهزت الفرصة لتثبيت منزلتها الاجتماعية من خلال التزاوج مع العائلات الارستقراطية الدينية(١٩٥) على ان ذلك كان أقل حدوثا من الزيجات بين عائلات كبار التجار ومالكي الاراضي المتوسطين والتي كان بعضها من أهل العلم ، وبين العائلات الكبيرة البيروقراطية ، المالكة للاراضي فمثلا تصاهر آل الجلاد وهم من تجار المنسوجات مع آل العابد وصاهرت عائلة الدالاتي الغنية التي كانت تسيطر على صناعة الفواكه المجففة والحلويات في دمشق آل القوتلي والبارودي والبكري(١٩٦) . وكان التجار الاغنياء يسعون الى الارتقاء من خلال مصاهرة العائلات السياسية الغنية . وقد بدأت عائلات مثل آل الجلاد والدالاتي حتى في شراء الاراضي ، ووسعت هذه الاراضي قاعدة مواردها المادية وفي الوقت نفسه زادت من قيمتها كمرشحة جذابة للزواج من العائلات القوية المالكة للاراضي .

ومع دخول المزيد من العائلات ضمن الصفوة السياسية في دمشق من خلال جمع الثروة والمناصب والمنزلة من خلال التزاوج ، أصبح التمييز الاجتماعي بين العائلات أقل وضوحا . فلم تعد العائلات الارستقراطية الدينية تسيطر على المراتب الاجتماعية ورغم ان الوجهاء

الدينيين بقوا بارزين اجتماعيا ، فقد حافظت العائلات من أمثال آل العجلاني والحسيبي والغزي التي تخلت عن قواعد السلطة الدينية من أجل قواعد السلطة العلمانية على أكبر قدر من الهيبة الاجتماعية والسلطة السياسية ضمن مراتب العائلات الدينية . ولكن حتى هذه العائلات الناجحة من أهل العلم لم تتكيف مثلما تكيفت العائلات البيروقراطية المالكة للاراضي مع القواعد الجديدة للسلطة السياسية بعد ١٨٦٠ .

رغم تشابه الوسائل والاهداف وازدياد علاقات النسب لدى الصفوة السياسية فقد كانت هنالك خاصة واحدة أخيرة تميز أرقى العائلات البيروقراطية ـ المالكة للاراضي ، فمع وسائط النقل والاتصالات الحديثة بدا جو القسطنطينية العالمي يجذب أفراد الصفوة الدمشقية . وقاد أبناء العائلات البيروقراطية ـ المالكة للاراضي هذه الحركة الى القسطنطينية . ولقد شجعهم آباؤهم بما لديهم من بعد نظر على اجادة اللغة التركية والحصول على تعليم مهني عثماني فعادوا الى دمشق وهم يتمتعون بميزة جعلتهم يتفوقون على المنافسين المحليين على المراكز الحكومية . كانت هذه الزينة العثمانية ـ التركية ميزة واضحة تفتح المجال لفرص أوسع في الحكومة وتجعل الافراد والعائلات ذوي طابع عالمي أكثر في عيون أقرانهم . واصبح التعليم العثماني والزواج من أبناء العائلات « الاستمبولية » المصقولة وذات الصلات الرفيعة شيئا مألوفا بين العائلات البيروقراطية ـ المالكة للاراضي ، ففي الصالونات الكبيرة لقصور هذه العائلات أصبحت اللغة التركية تستخدم بكياسة الى جانب اللغة العربية . وأصبح الطربوش التركي والفراك يميزان هذه الطبقة الجديدة من الافندية البيروقراطيين عن الوجهاء الدينيين التقليديين وعن المجتمع بصورة عامة . وقد تمثلت العائلات الكبيرة البيروقراطية ـ المالكة للاراضي أسلوبا للحياة العثمانية ـ العربية في كل من ميادين الحياة السياسية والاجتماعية قبل غيرها ثم تسرب هذا الاسلوب تدريجيا الى الصفوة السياسية الاكثر عددا . وهكذا أصبحت السلطة السياسية والمنزلة الاجتماعية في دمشق تتحدان وتقترنان بصورة أوثق بايديولوجية « الثقافة العثمانية » .

الخاتمة :

قبل حوادث ١٨٦٠ كانت تشكيلة السلطة الدمشقية تتضمن كلا من الزعماء السياسيين التقليديين الذين كانوا في تنافس مباشر مع السلطة المركزية العثمانية للسيطرة على المؤسسات المفروضة من قبل العثمانيين ، كما انها كانت تتضمن فئات ذات سلطة متفاوتة ، متميزة اجتماعيا عن الزعامة التقليدية التي كانت قاعدة قوتها مستمدة من سيطرتها على بعض الهيئات المستقلة ، مثل الحاميات المحلية ، وعلى تجارة الحبوب .

وقد أتاحت حوادث ١٨٦٠ للحكومة العثمانية الفرصة لتعديل تشكيل القوة المحلية واعادة موازنتها من أجل تسهيل أمر تطبيق برنامجها المتعلق بالمركزة والتحديث . وكانت أولى المؤسسات التي أوجدتها التنظيمات (١٨٤١ ـ ١٨٦٠) قد بدأت تقوض قاعدة القوة شبه العسكرية المحلية للزعماء خارج الزعامة التقليدية . وقد عرض على هؤلاء الافراد ، وعلى بعض أتباعهم ، في نفس الوقت ، قاعدة سلطة جديدة ضمن البيروقراطية المحلية . غير ان حوادث ١٨٦٠ أدت الى التدخل العثماني الحاسم الذي أوقف محاولة الزعامة التقليدية لتغيير توازن القوى المحلي لمصلحتها . وعوقب أهل العرض لتقصيرهم في منع الانفجار القتالي لعامة الشعب أو السيطرة عليه ، ولكن ، وهذا هو الاهم ، ظهر تضاؤل سلطتهم المحلية بشكل عنيف وجرى الاعتراف بانعدام حماسهم في تطبيق السياسات العثمانية . وقد مكنت حوادث عام ١٨٦٠ الحكومة العثمانية من تشكيل صفوة سياسية جديدة واكثر فائدة من خلال توسيع البيروقراطية المحلية وادخال عائلات جديدة لم تكن من قبل جزءا من الزعامة التقليدية .

وبين ١٨٦٠ و ١٩٠٨ نجحت الحكومة العثمانية في اعادة تشكيل بنية السلطة الدمشقية من ثلاث نواح هامة : أولا ، أصبحت ممارسة السلطة السياسية المحلية ، بوجود ادارة أقوى للولاية تسيطر عليها القسطنطينية بشكل أكثر فعالية ، وظيفة المنصب في البيروقراطية . وبالتالي فقد أصبحت المحافظة على النفوذ وتوسيعه يتوقفان على الوصول الى منصب اداري عال . فبدلا من أن يكون امتلاك سلطة

مستقلة اداة تستخدم ضد الدولة ، أصبح امتلاك هذه السلطة وسيلة للوصول الى الدولة . وكان الاستبعاد من البيروقراطية يعني بصورة عامة فقدان النفوذ المستقل وبالتالي فقدان امكانية الوصول الى أصحاب السلطة . ثانيا ، بما ان الحكومة العثمانية كانت هي وحدها التي توزع المناصب فقد أصبح من الضروري الالتحام مع مصالح القسطنطينية للحصول على المنصب . ثالثا ، كان ايجاد مؤسسات علمانية قوية يعني انه كان يستمد من المنصب في هذه المؤسسات سلطة أقوى من السلطة المستمدة من المراكز الدينية القديمة . وهكذا فبين ١٨٦٠ و ١٩٠٨ ، مرت الزعامة السياسية في دمشق بتحول هام وذلك بسبب تنوع قاعدة سلطتها وتغير توجهها السياسي .

وكان قياس السلطةالسياسيةفي دمشقنتيجة الجمع بين مجموعتين مترابطتين من العلاقات . الاولى تتعلق بقدرة وحدة العائلة على جذب اتباع من الزبائن عن طريق بناء سلسلة من الروابط الرأسية عبر المجتمع تربط الافراد والجماعات بالعائلة ، والثانية تتعلق بقدرة وحدة العائلة على اقامة تحالفات أساسية مع وحدات عائلات أخرى وربط شبكات الزبائن مع بعضها من جراء ذلك ، وبعد١٨٦٠ كان النجاح الذي تحققه عائلة دمشقية في الجمع بين كلا المجموعتين من العلاقات للوصول الى تحقيق سلطة سياسية هامة يتحدد بقدرتها على الحصول على المناصب . وكانت المناصب بدورها تستخدم لبناء قاعدة موارد مادية للعائلة وتوسيعها . وكانت المناصب والثروة معا توجدان مجموعة من الفوائد أو الخدمات تستطيع العائلة بواسطتها ان تجذب الزبائن أو التحالفات مع الانداد .

كان ميدان السياسة في دمشق مقتصرا على تفاعل وحدات العائلة القوية . وكانت معظم التجمعات السياسية والزمر والاحزاب أو الكتل عبارة عن مطايا شخصية لوحدة العائلة أو تحالف مجموعة من العائلات . وكانت هذه التجمعات تخترق المجتمع رأسيا وتمنع الاعتراف بالمصالح الافقية . وحتى النقابات كانت تعمل كمطايا شخصية لمصالح العائلات القوية ، وفي الوضع الكائن في دمشق لم تكن عملية التتجير ولا التصنيع قد تقدمت بصورة كافية لتشجيع تشكيل طبقات اجتماعية ــ اقتصادية متميزة ذات أهداف جماعية . وبدلا من ذلك كان المجتمع «مرتبا على أساس علاقات التبعية الشخصية »(١٩٧) . هذه العلاقات كانت مغروسة

في الروابط الراسية التي كانت تربط الزبائن بوحدات العائلة . ثم ان علاقات التبعية الشخصية كانت تفرض قيودا قليلة على تشكيل التحالفات بين العائلات أو حلها . وأخيرا ، وبما ان شبكات الزبائن كانت غير متجانسة اجتماعيا واقتصاديا مما منع الزبائن من تنظيم أنفسهم ضمن أية فئات هامة ذات اتجاه أفقي ومصالح محددة وأهداف مشتركة ، فانه لم يكن هنالك احد ليتحدى الزعماء في زعامتهم السياسية .

ورغم ان اللعبة السياسية ، بعد ١٨٦٠ ، كانت مقتصرة على تفاعل فئة صغيرة نسبيا من العائلات السياسية القوية ضمن بيروقراطية الدولة، فان مستوى النزاع بينها لم يكن يهبط الى الحد الادنى . وفي الواقع فقد أصبحت المنافسة بين الصفوة أكثر تركيزا وكانت مستوطنة في الثقافة السياسية الدمشقية . وقد قلص الوجود العسكري العثماني الساحة السياسية بحيث اقتصرت على بيروقراطية الدولة . وكانت الخيارات السياسية خارج البيروقراطية قليلة . وقد تصاعد مستوى الصراع بين الصفوة من جراء وجود عدد متزايد من الافراد المؤهلين الذين كانوا يسعون الى المناصب . وفي الثلث الاخير من القرن التاسع عشر تخرج جيل من المدارس المهنية العثمانية وكان هدف هذا الجيل الوحيد هو دخول البيروقراطية . وبما ان عدد الساعين الى شغل المناصب كان أكثر من عدد المناصب ، فقد كان بوسع القسطنطينية ان توقع بين الافراد او الاحزاب وبذلك كانت تضمن الولاء العام للدولة .

كانت العائلات البيروقراطية ، المالكة للاراضي ، ضمن اطار النزاع بين الصفوة ، تحتفظ بميزة واضحة ، فهي باعتبارها الممثل الرئيسي للقسطنطينية كانت تستخدم العصا الايديولوجية للثقافة العثمانية لضرب المنافسين الواحد تلو الاخر . غير ان العائلات البيروقراطية ــ المالكة للاراضي لم تكن خالية من الانقسامات الداخلية فمع ازدياد عدد أفراد العائلة كان الصراع حول ادارة أسلاب النصر وتوزيعها يبرز الى الوجود . وكان توزيع ارث العائلة نادرا مايكون عادلا الامر الذي كان يؤدي الى ايجاد فروع اقتصادية متميزة . ثم انه لم يكن بالامكان وضع جميع أفراد العائلة المؤهلين في المناصب الحكومية العليا . وأصبحت العلامات الدالة على المنافسة الداخلية ضمن أفراد العائلة الواحدة داخل المناصب وخارجها شيئا مرتبا . وفي ١٩٠٨ هزت موجة صارمة دمشق واضافت محتوى جديدا الى الصراع السياسي وحولت أساس هذا الصراع .

ملاحظـة عن المصـادر

بما ان هذا البحث مستقى الى حد كبير من اطروحتي التي أعمل عليها حاليا لنيل الدكتوراه فاني لم أثبت الهوامش . وسوف يسرني ان اطلع عليها من أعرفهم من الاشخاص بناء على طلبهم وذلك في مؤتمـر بلاد الشام الذي سيعقد في تشرين الثاني ١٩٧٨ .

تتضمن المصادر العامة التي رجعت اليها في هذا البحث مختلـف معاجم السير باللغة العربية والسالنامة التركية العثمانية بالاضافة الى بعض المقابلات الشخصية التي قمت بها مع أفراد العائلات المذكـورة في النص ومصادر ثانوية بلغات أوروبية .

فيليب شكري خوري

محتويـات الكتـــاب

الصفحة

٣ استهلال

٥ مقدمـــة

كلمات حفل الافتتـــاح

٩ ـ **الدكتور شاكر الفحام** — كلمة السيد ممثل رئيس الجمهورية العربية السورية
وزير التعليم العالي

١٥ ـ **الدكتور ناصر الدين الاسد** — كلمة السيد ممثل ولي عهد المملكة الاردنية الهاشمية
رئيس الجامعة الاردنية

١٧ ـ **الدكتور مصطفى حداد** — كلمة اللجنة التحضيرية للاحتفال
رئيس جامعة دمشـق

٢١ **المقررات والتوصيات**

٢٥ **المشاركون في المؤتمر**

الباب الاول ـ القسم الوثائقي

٢٩ ـ **الدكتور روبير مانتران** — النقوش العثمانية في دمشق

٣٥ ـ **الدكتورة ليلى صباغ** — وثيقة عربية شامية من القرن العاشر الهجري ـ السادس عشر الميلادي ـ حول الصناعة النسيجية والنساج

٩٥ ـ **الدكتورة نجاة كيونج** — الوثائق العثمانية المتصلة بسورية ودمشق

١٠١ ـ **الاستاذ شيري فاتو** — وثائق البيع المثبتة في المحاكـم الشرعيـة كمصدر لتاريخ القرن التاسع عشر في دمشق

الباب الثاني ـ التاريخ الاقتصادي والاجتماعي

الصفحة		
١٢٥	ـ الدكتور فولف هيتروت	الادارة المالية للمناطق المتاخمة للصحراءفي سورية الكبرى في أواخر القرن السادس عشر
١٣٩	ـ الدكتور خليل ساحلي أوغلو	تغير طرق التجارة في القرن السابع عشر والتنافس بين مينائي طرابلس والاسكندرونة
١٥٦	ـ الاستاذ ظافر القاسمي	المظاهر الاجتماعية في قاموس الصناعات الشامية
١٧٧	ـ الدكتور محمد موفاقا	الالبانيون في سورية ودورهم في الحياة السورية
١٩٥	ـ الدكتور اندره ريمون	نمو مدينة حلب في القرن السادس عشر
٢٠٧	ـ الدكتور الكسندر شولش	النمو الاقتصادي في فلسطين
٢٣٩	ـ الدكتور سعيدعبدالفتاحعاشور	المجتمع الشامي في العصر العثماني بين العصور الوسطى والحديثة
٢٦٧	ـ الاستاذ بيتر غران	الاسس الاجتماعية للثقافة في دمشق (١٧٨٠ ـ ١٨٥٠)
٢٨٣	ـ الدكتورة أمل دوغراماشي	الهجرة الى سورية في أواخر القرن التاسع عشر
٢٩١	ـ الدكتور نيكيتا اليسييف	طرق المواصلات في بلاد الشام مابين القرنين السادس عشر والعشرين
٢٩٩	ـ الدكتور محمد عدنان البخيت	حيفا في العهد العثماني الاول ـ دراسة في أحوال الساحل الشامي
٣٢٣	ـ الدكتورة ليندا شليشر	بعض مظاهر أحوال الاعيان بدمشق في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر

الصفحة

٣٥٧	ـ **الدكتور ناصر الدين سعيدوني**	نظرة في اراضي الميري ببلاد الشام أثناء العهد العثماني
٤٠٣	ـ **الدكتورة ضحى الشطي**	توسع البدو في بلاد الشام وانحسارهم
٤١٥	ـ **الدكتور جان بول باسكوال**	البيئة والتغذية في حوران في القرن /١٦/
٤٢٩	ـ **الدكتور كمال عبد الفتاح**	التنيظم المالي والانتاجية الاقتصادية لالوية بلاد الشام الجنوبية في نهاية القرن السادس عشر
٤٣٧	ـ **الاستاذ فيليب شكري خوري**	طبيعة السلطة السياسية وتوزعها في دمشق ١٨٦٠ ـ ١٩٠٨